المجموعة القصصية الكاملة

الشهيدة بنت الهدى
آمنة الصدر

شبكة الفكر
alfeker.net

المجموعة
القصصية الكاملة

بسم الله الرحمن الرحيم

المجموعة القصصية الكاملة

الشهيدة بنت الهدى

١ ـ ١٢

دار المرتضى
بيروت

دار المرتضى

طباعة ,نشر ,توزيع

لبنان -بيروت , ص.ب :١٥٥/٢٥ الغبيري

هاتف فاكس : ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢

E-mail:mortada14@hotmail.com

DAR AL-MORTADA

Printing -Publishing -Distributing
Lebanon -Beirut
P O Box: 155/25 Ghobiery
Tel -Fax: 009611840392
E-mail:mortada14@hotmail.com

Printed In Lebanon

جميع حقوق الطبع والاقتباس محفوظة
ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة طباعة
أو ترجمة الكتاب أو جزء منه إلا بإذن
خطي من المؤلف والناشر

الطبعة الأولى
1427 هجرية
2006 ميلادية

بنت الهدى

١

الفضيلة تنتصر

المقدمة

هذه - قارئي العزيز - ليست قصة، فلست قصاصة ولا كاتبة للقصة. . . بل أني لم أحاول قبل الآن أن أكتب قصة. إلاّ أنّ هذا الذي أقدّمه اليوم إليك، راجية أن ينال منك الرضا والقبول، لا يعدو أن يكون صورة من صور المجتمع الذي نعيشه، وأنموذجاً من واقع الحياة التي نحياها. حيث تتصارع قوى الخير والشر وتلتحم العقيدة بجيشها الفكري والروحي في معركة مع حضارات الاستعمار وأخلاق المستعمرين.

أنا لا أقول إنّ الخيال لعب دوره في تجسيد صورة محددة لهذا الصراع لكي يبرزه بطريقة ترضيك وتدفعك إلى متابعته ولكن غايتي الواقعية، هي إبراز جوهر الصراع لا رتوشاته وهوامشه. . . فإذا كنت قد نجحت في الجوهر والصورة معاً فهذا غاية ما أتمناه وإلاّ فإني على ثقة من قدرة قصتك هذه على إبراز المحتوى العقائدي للصراع الدائر بين دعوتي الفضيلة والرذيلة وجوهر التناقض الذي تعاني منه حياة كلّ مسلم ومسلمة في هذا العصر. على أنّ ما قمت به لا يعدو عن كونه محاولة بنّاءة لفتح الطريق وتعبيده بغية السير في إحياء جهاز إعلامي صامت من أجهزة الإعلام التي تواكب سيرنا ونحن في بداية المنعطف.

بنت الهدى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الفصل الأول

في شرفة أحد المنازل جلست فتاتان تكبر أحداهما الأخرى ببضع سنين، وإن كانت كبراهما تبدو أكبر من واقعها، نظراً لتراكم الأصباغ على وجهها، وتعقيد تسريحتها ومكياجها الصارخ... لكن الثانية كانت على العكس منها، فهي تبدو وكأنّها في السادسة عشر، مع أنها تناهز العشرين... وكان شعرها الذهبي مرسلاً على كتفيها ببساطة محببة، وقد دلّ وضعها على أنّها هي صاحبة البيت، وكانت تستمع إلى رفيقتها... وقد لاحت على ملامحها علامات الاستياء، فلم يكن كلام صاحبتها بالكلام المهذّب، ولم تكن قد اعتادت على الخوض في مثله أو الاستماع إلى هذا النمط من الحديث، فمحدثتها هذه هي بنت خالتها وقد رجعت وشيكاً من أوروبا بعد مدة قضتها هناك بأمل أن يحصل زوجها على شهادة جامعية، وبعد أن يئسا من ذلك عادا دون أن يتمكن زوجها من نيل الشهادة.

تلك هي سعاد.. وقد سمعت أخيراً نبأ عقد قران بنت خالتها نقاء فبادرت إلى زيارتها بعد سماعها للخبر مباشرة وهي مدفوعة إلى ذلك بدوافع عديدة.. وفعلاً فقد كانت تمهّد الطريق للدخول في الموضوع فهي مندفعة تحدث بنت خالتها عن أوروبا وعن معالم الحضارة التي سحرتها، وتحبّب إليها السفر إلى هناك، وتحشو حديثها بكلمات ونكات مبتذلة كان لها تأثير عكسي على نقاء! فقد كانت تتجهم بدلاً من الضحك، وتضيق بالحديث بدلاً من الخوض فيه. فهي فتاة مهذبة نشأت في أحضان أسرة مستقيمة محافظة حريصة على الآداب الدينية. وقد عقد قرانها على شاب عريق الأصل رفيع المنبت حاصل على شهادة (الليسانس) يدير محلاً تجارياً يستورد فيه البضائع من الخارج. وعلى هذا فقد استقلّ بعمله التجاري الذي يدرّ كان أرباحاً طائلة وهو شاب مسلم

واقعي يؤمن بالإسلام كمبدأ وعقيدة ونظام. وقد عجّل بالعقد الشرعي ليملك حريته في الاتصال بعروسه. وقد قامت بينهما بعد ذلك علاقة حبّ وإعجاب متبادل أخذت تتزايد على مرّ الأيام.

وكانت بعض ظروف الزوج الخاصة تستوجب تأخير الزفاف. وقد ضاعف اتصال نقاء بعريسها من ثبات روحياتها العالية ومن حرصها البالغ على مُثل الإسلام وآدابه... ولهذا فقد كان من حقّ نقاء أن تستنكر على بنت خالتها أغلب ما كانت تقول... ولكنها لم تر من اللائق أن تردّ عليها أو تعارضها بعنف - بما أنّ سعاد ضيفتها - واكتفت بالاستماع. وبعد أن أتمّت سعاد كل ما في جعبتها من كلام سكتت برهة ثم أردفت قائلة:

- إنّ أحسن منطقة تقضيان فيها شهر العسل هي إحدى دول أوروبا.

وهنا رأت نقاء أن الواجب يدعوها لكي تردّ، فأجابت:

- أوروبا! لا، نحن لن نذهب إلى أي بلد أوروبي... ولكن قد نذهب إلى بعض البلدان الإسلامية...

وضحكت سعاد وهي تردّ عليها في شيء من التهكم.

- لعلّكما تنويان أن تقضيا شهر العسل في مكة وفي موسم الحج...

- لا، قد نذهب إلى الحج ولكن ليس خلال أيام شهر العسل.

- ولماذا لا تقترحين على زوجك السفر إلى لندن أو باريس هل تعتقدين أنّه يتمكن على ذلك من الناحية المادية؟.

- إنّ المادة ليست كل شيء يا سعاد! ولكن إبراهيم لن يوافق على ذلك مطلقاً وكذلك أنا أيضاً.

- لعلّه يخشى السفر بالطائرة، يمكنكما إذن أن تسافرا في السيارة أو على ظهر الباخرة. وعلى فكرة هل يملك زوجك سيارة يا نقاء؟

- السيارة موجودة يا سعاد، وهو لا يخاف من ركوب الطائرة أبداً، ولكن إبراهيم شاب مسلم محافظ لا يحلو له أن يقضي شهر العسل في أوروبا.

- آه... هل هو متأخر إلى هذا الحد؟ إنّ هذا شيء مخيف، له ما بعده يا نقاء...

- لا يا سعاد، إنه شاب مثقف متنوّر الأفكار.

- إذن فما الذي يمنعه من السفر معك إلى أوروبا؟

- الدين. . .

- ماذا! الدين؟!

- نعم، الدين. . . والدين فقط.

-هل أتمكّن أن أفهم من هذا أن زوجك رجل متدين؟!

- نعم، والحمد لله.

- أنتِ تقولين: والحمد لله، لأنّك تجهلين معنى أن تتزوّج فتاة عصرية مثقفة من رجل متدين وتجهلين ما يستوجب ذلك من قيود وحدود وأحكام صارمة.

- لا، أبداً أنا لست كما تظنين غافلة أو جاهلة، ولكني فتاة مسلمة أعرف أن للإسلام أحكامه وآدابه. . .

- وهل قوانين الإسلام إلاّ قيود تشدّك بأغلالها القاسية! وهل آدابه سوى أغوار سحيقة تحجبك عن المجتمع تحت سجوفها؟.

أنت تقفين الآن على أبواب الحياة فلا تمكني الأفكار الرجعية أن تشوّه مستقبلك السعيد. . .

- أنتِ غلطانة يا سعاد! إبراهيم قادر على أن يهبني السعادة الواقعية في الحياة، وأنا لا أهوى غير السعادة التي يهيّئها لي، فقد أصبح بالنسبة لي كلّ شيء. . .

- بالرغم من هذا، فإنك لن تصبحي له كلّ شيء بل ولن تتمكني أن تكوني عنده شيئاً بل ستكونين على هامش حياته وعلى الهامش دائماً!.

- سعاد!! إسحبي كلامك بسرعة، فإن لي لدى إبراهيم المنزلة اللائقة والمحلّ الرفيع، الرفيع من الحبّ والحنان. . .

- ما دمت في دور الخطوبة وما دام لم يتمتع بك كما يريد، ولكنه متى اطمأنّ إلى استيلائه عليك سوف ترين الرجل المسلم كيف يكون!!

- وأنت ألست مسلمة يا سعاد؟!

- طبعاً أنا مسلمة ولكن ليس على غرار إسلام إبراهيم فمن رأيي أن للمرأة الحرية الكاملة بالتمتع في الحياة وبما فيها من بهارج ولذائذ، ولكن إبراهيم يأبى إلاّ أن يجعل من المرأة ألعوبة طيّعة وأداة محكومة لا أكثر ولا أقلّ.

- عجيب أمرك يا سعاد! ما الذي يدفعك إلى هذه النقمة التي تنقمينها على الإسلام وأنت مسلمة!؟ هل خدعتك أوروبا؟!

أبداً . . . لم تخدعني أوروبا، ولكن حبّي لك هو الذي دفعني إلى التصريح بآرائي في هذا الصدد. لقد سررت كثيراً عندما سمعت نبأ خطوبتك يا نقاء. . . ولكن الآن؟!

- ولكن الآن ماذا؟!.

- إذا أردت الواقع فأني قد أسفت بل حزنت، فقد كنت أعدك لمستقبل أفضل. . .

-ما يدريك يا سعاد، فلعلّني سعيدة جداً، كما أنا في الواقع.

- إذا كان زوجك من النفر الذين يتمشدقون بالإسلام ومفاهيمه فهو لن يتمكن من إسعادك مطلقاً.

- أنا لا أرتاح إلى تعبيرك هذا يا سعاد، فمن تعنين بالنفر؟ ليس الإسلام وقفاً على نفر فحسب، ألا ترين الملايين المؤمنة بالإسلام في كلّ مكان؟.

- أنا أقصد بالنفر: هؤلاء الذين برزوا علينا بأقاويلهم الجوفاء التي لا يبغون من ورائها سوى سيطرتهم على جنس المرأة، والتحكّم فيها، بفرض القيود والالتزامات.

- ولكن الرجل المسلم، له أيضاً أحكامه الخاصة والتزاماته المعينة، وليست الالتزامات وقفاً على النساء فقط.

- لكنهم أحرار يفعلون ما يشاؤون بدون رقيب أو حسيب. أولم يذهب إبراهيم إلى أوروبا من قبل، ألا يعتزم أن يذهب إليها بعد الآن؟.

إنه سوف يذهب إلى فرنسا بعد مدة وجيزة لأجل التعاقد مع إحدى الشركات، ولتقديم أطروحته للحصول على شهادة الدكتوراه.

فهذا إذن حلال، ولكن ذهابك حرام. إنّه في حلّ من الإسلام مهما دار وسار ولكن قيود الإسلام لا تطوّق سوى عنقك يا نقاء.

- أنا لست مقيدة يا سعاد؟ فأنا سعيدة مع إبراهيم، وبكلّ مثله ومفاهيمه.

- أنا آمل أن تكوني سعيدة ولكنك الآن في غفلة وأخشى أن لا تصحي منها إلاّ بعد فوات الأوان.

- ماذا تعنين يا سعاد؟..

- أعني أنّ الزواج لا يمكن أن يكون زواجاً ناجحاً إذا لم يكن قائماً على أساس من مفاهيم الحضارة الحديثة، والفتاة لن تحصل على السعادة إلاّ بزواج ناجح، ولهذا ترين أنّ الفتاة العصرية أخذت تتحرّر من قيود أهلها وتستقلّ باختيار الزوج الذي تريده.

- أنا وإبراهيم على اتّفاق تام ولن تزيدنا الأيام إلاّ ثقة وتفانٍ ووئاماً.

- قد تبقين أنت قائمة على إخلاصك يا نقاء، ولكن الرجال ليسوا كالمرأة أنهم يخدعون زوجاتهم بأساليب وأساليب، منها الدين ومنها العفة والفضيلة، فهم يحتجزونها في الدار بحجّة أنّها مسلمة، ويضنون عليها بكلّ غالٍ ونفيس ببرهان أنّها عفيفة فاضلة.

- وهل تعتبرين جلوس المرأة في دارها وعشّها السعيد احتجازاً؟!.

- نعم، فالمرأة لا تتمكن من الاحتفاظ بزوجها إلاّ إذا سايرته ورافقته في رحلاته وسفراته وحفلاته، ولكن المرأة التي تقبع في عقر دارها وتترك لزوجها الحبل على الغارب لا يمكن لها أن تركن إلى دوام سعادتها في الحياة الزوجية.

- وهل تعرفين إبراهيم يا سعاد؟ ليتك كنت عرفتيه...

هنا سكتت سعاد لحظة حاولت فيها أن يبدو صوتها طبيعياً وهي تقول:

- لم يسبق لي أن رأيته يا عزيزتي.

- لو عرفتيه لتبدّلت نظرتك نحوه تبدلاً كليّاً يا سعاد! فهو رجل مثالي، حلم العذارى المؤمنات...

وبدا الارتباك على سعاد، وتململت في جلستها، ثم قامت وهي تقول:

- عليَّ الآن أن أذهب فقد طال بي الجلوس، ثم إني مدعوّة إلى حفلة هذه الليلة.

وعجبت نقاء لفورية عزم سعاد على الخروج، فقد كانت مندفعة في كلامها وكأنّها لا تنوي الانصراف، وعندما ودّعتها ورجعت كان صوت أمّها يتناهى إليها وهو يناديها من داخل الدار:

- نقاء... نقاء... أين أنتِ يا عزيزتي؟

- ها أنا ذي يا أُماه.

- منذ ساعة وأنتِ جالسة وحدك في الشرفة.

- لا يا ماما، لم أكن وحدي فقد كانت معي سعاد.

- سعاد! ألم تنصرف سعاد منذ ساعة أو أكثر.

- نعم ولكنها اقترحت عليَّ أن نجلس قليلاً في الشرفة.

- لماذا؟!.

- لا أدري.

- ولكن أمّك أدرى يا نقاء... لا بدّ وأنّها كانت تحدّثك عن أوروبا وحضارتها المزعومة.

- تماماً كما قلت يا ماما.

- الويل لها من غريرة، ألم يكفها أنّها لوّثتها حضارة الغرب لتجيء وتسكب على أذنيك كلماتها السامّة، إنّها خشيت أن تخوض في هذا الموضوع أمامي، فآثرت أن تجتمع بك على حدة. يا لها من شيطانة.

- أمّاه! إنها بنت أختك فلا يصحّ لك أن تنعتيها بهذه الأوصاف!.

- أنا بريئة منها ومن سلوكها المنحرف، إنّها كانت السبب في التعجيل بموت أختي، فلم تكن أمّها تطيق منها هذا السلوك، والآن تعالي حدّثيني عمّا كانت تحدّثك عنه سعاد، لأرى أي نوع من الحديث هو؟.

- دعي عنك ذلك يا ماما، فهي لم تقصد من وراء كلامها أيّ سوء.

- ليتها كانت هكذا، وليْتك تعرفينها على حقيقتها لكي لا تغرّك بكلماتها المعسولة.

- هوني عليك يا ماما، فأنا لا أتأثر بكلام سعاد وأفكارها ولكنّي لا أوافق على نعتها بهذه النعوت، إنها بنت خالتي على كلّ حال.

ثم ذهبت نقاء إلى غرفتها واستقلت على سريرها، وهي تحاول أن تصرف أفكارها عن سعاد، فهي لا تشكّ لحظة في إخلاص إبراهيم، وأنّه سوف لن يتوانى عن تهيئة جميع أسباب السعادة لها في الحاضر والمستقبل، ثم إنّها بطبعها أيضاً كانت تشعر بخطأ سعاد وانحرافها بأفكارها عن الصواب... فكّرت بالمكسب الذي جنته سعاد من حياتها هذه وهي لم تحصل أخيراً إلاّ على زوج عاطل، لم يتمكن حتى من نيل شهادة جامعية أوّلية، سواءً في بلده أو في الخارج.

وقد استعاض عن ذلك بأمواله التي ورثها عن أبيه ينفق منها ما يشاء في مغامراته ولهوه دون أن يتخذ نعمة الله مصاريف خير وطمأنينة وهناء، لكن سعاد لم يكن يهمها غير المال، ولا تعيش إلا لأجله. وصممت نقاء على أن تسأل إبراهيم عن واقع المرأة في الإسلام، وعن حقيقة نظرته نحوها، فهي واثقة من أنّه كفيل بإيضاح الواقع وتفسير ناحية فرق المرأة عن الرجل في الإسلام.

الفصل الثاني

أمّا سعاد فقد استقلّت سيارتها، وانطلقت بأقصى سرعة، وكأنّها كانت تحاول أن تصبّ جام غضبها على هذه الآلات المتحرّكة، وعندما وصلت الدار توجّهت إلى غرفتها دون أن تعرج على الصالون، لترى زوجها هل رجع أم لا؟ وألقت بنفسها على الكرسي وهي في حالة انفعال عصيب. وتمتمت قائلة:

- الويل له من عنيد، ألم يكفه أنه ردّني عن نفسه ذلك الردّ القاسي حتى جاء

لينكث جراحي، فخطب نقاء، فهو يظن أنّ نقاء تنسجم مع مفاهيمه ومُثله، وهي التي لا ميزة لها عليَّ إلاّ لتوهمه أنّها فتاة فاضلة. . . أنا التي سعيت إليه بنفسي قبل أربع سنوات، لم يستجب لتوسّلاتي بحجة أني طائشة ومنحرفة عن آداب الإسلام، الإسلام الذي يؤمن بمفاهيمه، ولكنه سوف يعلم أنّ نقاء هذه لن تكون غير غانية لعوب، سوف أعرف كيف أنفث فيها السمّ الذي تجرّعته من قبل، والذي أدّى إلى ما أنا عليه من ضيعة وتفاهة في الحياة، سوف أسدّد نحوها نفس السهم الذي أرداني وحرمني من إبراهيم، سهم الحضارة الحديثة، سوف أجعلها واحدة من آلاف الفتيات المخدوعات اللواتي سرن وراء النفير الأجنبي فتحطمت حياتهن من جرّاء ذلك، أو لست واحدة منهن؟. . . ألم أضطرّ أخيراً إلى الزواج من هذا الرجل التافه على أمل أن أشبع نهمي إلى المال وأتمتع بما تصبو إليه نفسي من متعة ولهو؟. . ألم أخضع لسلطان ماله فتجرّعت مجونه وتبذله لكي أبقي على الذهب بين يدي؟. . . سوف أحرم نقاء من إبراهيم كما حرمني نفسه من قبل. سوف لن أمكنه من الحصول على غايته المنشودة، فهو كان يسعى خلف زوجة مثالية مسلمة مستقيمة. . . وسوف أريه أنّ ذلك محال، سوف يعرف أنّ نقاء لا تختلف عن سعاد لو أتيت لها الفرصة، أنه يذهب للحصول على شهادة الدكتوراه في الوقت الذي لم يحصل زوجي حتى على شهادة جامعية أولية. محال أن أدع نقاء تنعم بزوج كإبراهيم، أنا كنت أعرف أنّه رجل عبقري صلب العقيدة ولكنه عنيد رجعي مغرور.

وهنا شعرت سعاد أنّ باب غرفتها يفتح ببطء، فتطلعت نحوها لترى زوجها محمود وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة تخابث ثم قال:

- لقد ظننتك مريضة يا سعاد وأنت تتجهين إلى غرفتك دون أن تعرجي عليَّ، والآن هل لي أن أدخل؟. .

- وحاولت سعاد أن تبدو طبيعية، وهي تردّ عليه قائلة:

- وكنت أشعر بصداع شديد منعني أن أعرج على الصالون.

- ولكنك الآن في صحة جيدة، ثم هل أن جلوسك على هذا الكرسي وأنت في كامل ملابسك شيء مريح؟ أم أن مجرّد رؤيتي بالخصوص كانت تتعبك يا سعاد؟.

- أرجوك يا محمود... أراك لا تتوانى عن إثارتي في كلّ مناسبة، أنا لم أعرف وجودك في البيت.

- شكراً... ألم تلاحظي وقوف السيارة في الباب؟!.

- أبداً... فقد فاتني ذلك.

- لابدّ أنّك كنت في شغل شاغل عن ذلك.

- قلت لك: إنني كنت أشعر بصداع شديد.

- ولكنك الآن على ما يبدو في أحسن صحة والحمد لله؟.

محمود... ما لي أراك تأبى إلاّ أن تغيظني بأيّة طريقة؟.

- معاذ الله يا سعاد، فما أنا سوى واحد من عشرات الراكعين على قدميك، قدميك، و..

- يكفي يا محمود، أنا أعرف كلماتك وأقاويلك مقدماً فلا داعي لتكرارها، فأنا أصبحت أتمكن أن أخمّن ما الذي سوف تتحفني به من حكم وآيات.

- وهل تروقك الحكم يا سعاد؟ أو هل تتمكني أن تفهمي حكمة واحدة لو كنت حكيماً؟ إن من حسن طالعك أن ساقني الحظّ إليك، فأنت لا تكوني تصلحي لزوج سواي.

- وأنت، هل أنّ هناك امرأة كانت تطيقك غيري وأنت على ما عليه من تفاهة في الحياة؟ أنت تتكلّم عني وتنسى نفسك.

- وكيف؟ هل أنا سيِّء إلى هذه الدرجة؟.

- المهم أن تعرف أنّي لو لم أكن زوجة ممتازة لما تحمّلتك يوماً واحداً فليس لديك ما يحببك إلى المرأة.

- فلماذا إذن رضيت بي زوجاً؟ ولماذا طلبت مني ذلك ودعوتني إليه؟!.

- يا لك من رجل وضيع...

- لا بأس يا سعاد، أنا أعلم أنّ عندي ما يشدّك إليَّ، فأنت تعبدين المال وعندي منه الشيء الكثير، وعندك أيضاً ما يشدّني إليك فأنا أعبد اللّذة والجمال

وعندك منهما الشيء الكثير، ثم إني أريد أن أعيش حرّاً، فلا بُدَّ وأن تكون زوجتي حرّة أيضاً، وعلى هذا فإنّ كلاً منّا مشدود لصاحبه.

- هل انتهيت يا محمود؟.

- لا.. فمنذ يومين لم أتمكن أن أراك لحظة واحدة، لياليك في الحفلات.. وساعات نهارك في محلات التجميل... وكأنّك قد نسيت أنّ لك زوجاً وبيتاً... لا أدري ماذا كنّا سنصنع لو كان لدينا طفل؟.

- نطق محمود بكلمته الأخيرة بمرارة وكأنّه ينتزعها من فمه انتزاعاً، ولكن سعاد لم تمهله لكي يكمل هجومه عليها، فقد وقفت وهي تقول: أرجوك أن تتركني وحدي يا محمود أنا تعبانة ومريضة أيضاً، ولا بدّ لي أن أنام.

- إذن فأنتِ لا تريدين أن تتناولي معي طعام العشاء.

- لا، مطلقاً، إذهب عني يا محمود فإنّ حالي ليس على ما يرام.

- أهكذا تطردينني يا سعاد، ماذا لو ذهبت إلى غير رجعة؟.

- وكادت سعاد أن تردّ عليه قائلة: إذهب لا أرجعك الله... ولكنها سرعان ما تمالكت عواطفها، فمحمود بالنسبة لها رصيد ضخم من المال، فهل يصحّ أن تتنازل عن هذا الرصيد؟ أنها لا تحب محمود، بل أنها تحتقره وتنفر منه، فهو لا يعدو عن كونه وجوداً تافهاً في الحياة، لا يملك غير المال، وحتى أساليب لهوه ومجونه هي التي علّمته إيّاها ودلّته عليها، لكي يتسنى لها أن تعيش معه وهي حرّة كما تريد، ولكن أمواله وبريق الذهب المكدّس في صناديقه، وداره الفخمة الشاهقة، وسيارته الفارهة، لم يكن في مقدورها التنازل عن كلّ هذه الأمور، ولهذا فقد حاولت أن تطبع على وجهها ابتسامة كانت قد اعتادت أن تأتي بأمثالها متى شاءت ولمن شاءت، ثم قالت:

- أنت تعلم يا محمود أنّك إذا ذهبت عنّي فلن تطيب لي الحياة بدونك، ولكن الصداع - وفي نفسها تقول الصراع - هو الذي يدعوني إلى الانفراد بنفسي والركون إلى الراحة.

- ليتك لم تكوني جميلة، أو ليتني لم أكن عبداً لملذاتي، إذن لعرفت كيف

أتصرّف معك، وكيف أميت فيك هذا الغرور، لا بدّ أنك تودّين لو تقولين لي: ليتك لم تكن غنيّاً، فدعيني أنا أقولها بدلاً عنك: ليتني لم أكن غنيّاً، إذن لما وقعت في أحابيلك الشائكة.

- يا عزيزي! أنت تتجنّى عليَّ كثيراً فأنا لا أحبّ فيك إلاّ شخصك الكريم.

- شكراً. . شكراً. وأخيراً ما زلت تصرّين على إقصائي؟

- إنّ جلّ ما أرجوه أن تكون قريباً مني دائماً ولكن الآن أرجوك أن تنصرف فأنا في حاجة إلى النوم.

- هكذا أنت دائماً، كلماتك معسولة، وأفعالك جارحة، وها أنا ذاهب فاطمئني.

ثم نهض محمود وغادر الغرفة دون أن يلقي عليها كلمة وداع، وساءت سعاد أن يتركها محمود غاضباً، وخشيت إلى لحظة أن تكون قد فرّطت فيه. ولكنها عادت إلى ثقتها بجمالها وباستحواذها عليه فرددت في نفسها قائلة:

- إنّ هذا لا يهم فهو رهن إشارتي حين الطلب، لا يكلّفني إرضاؤه سوى بسمة واحدة أو كلمة عذبة، فلأدعه يغضب حتى أنهي فكري من ناحية إبراهيم، ذلك الرجل العنيد الذي احتقرني وازدراني بحجة المثل والمفاهيم، والذي استهان بجمالي وفتوني ولكوني سافرة، ولكوني على حد تعبيره منحرفة.

واستلقت في سريرها، وقد نسيت كلّ شيء عن محمود، وخصامها معه، فلم يكن هذا بالنسبة لها الشيء الجديد، وقد درجا عليه منذ اليوم الأول لزواجهما، ولكن أفكارها كانت متجهة إلى ناحية واحدة، ومتركزة في اتجاه واحد، وهو كيفية الانتقام من إبراهيم، ومن معتقداته وآرائه التي حالت به دونها، فهي تسعى إلى أن تنتقم من إبراهيم في شخص نقاء، وأن لا تدع نقاء تفوز به دونها، أنّها لن تترك نقاء تسعد وزوجاً كإبراهيم، في الوقت الذي تعيش فيه هي مع زوج مثل محمود، وسهرت سعاد ليلتها تفكّر في أحسن طريق للانتقام.

الفصل الثالث

أصبح الصباح، ونقاء تتلهّف لقدوم إبراهيم، لكي تستوضحه عمّا تعرّضت إليه سعاد في حديثها عن حقّ المرأة في الإسلام، وفي الوقت المعين جاء إبراهيم، كان من عادته أن يعرج عليها كلّ يوم قبل ذهابه إلى المحل. واستقبلته نقاء فرحة مستبشرة، ولاحظ إبراهيم عندما استقرّ به الجلوس أن عند نقاء ما تحاول أن تقوله، وأنّها في طريقها إلى أن تفتح معه حديثاً، فتناول يدها وهو يقول:

- مالك اليوم يا نقاء!

- وابتسمت نقاء وهي تقول:

- ما لي!...

- أكاد أرى كلمات حائرة على شفتيك يا عزيزتي، وأكاد أقرأ أفكاراً مضطربة في رأسك الجميل، قولي ما عندك، فكلي آذان صاغية...

- هل تستمع إليَّ حقاً يا إبراهيم؟.

- أيّ وربّي فإنّ لذة الاستماع إليك لا تفوقها لذّة على وجه الأرض.

- حتّى ولو كان حديثي سؤالاً...

- أي شيء كان يا نقاء.

- إبراهيم! ما الفرق بين المرأة والرجل في دين الإسلام؟

- لا شيء، فهما بشر متساويان، للمرأة ما للرجل، وعليها ما عليه، وقد خلق الله المرأة والرجل من طينة واحدة.

- فلماذا إذن؟!.

- ماذا يا نقاء؟!

- أقصد لماذا فرض الإسلام على المرأة المسلمة قيوداً لم يفرضها على الرجل؟.

- إنّه لم يفرض عليها أي قيد، سوى ما تفرضه عليها طبيعتها ويتطلبه تكوينها، وليست المرأة المسلمة واقعة تحت أي ضغط أو تشديد من قبل الإسلام.

- أو ليس الحجاب قيداً للمرأة المسلمة، وحائلاً دون تمتعها بالحياة كما تريد؟ أو ليس الحجاب هو المانع الرئيسي عن سفري معك إلى أوروبا مثلاً؟.

- أبداً . . . ليس حجابك هو المانع في هذه المسألة بالذات، وليس الحجاب بما هو حجاب يحول دون المرأة وأي شيء، فأنا أتمكن أن أسافر معك إلى أوروبا وأنت على حجابك يا نقاء، لو كانت أوروبا بلداً نقية ولو كانت حضارتها حضارة صادقة أو كان مجتمعها مجتمعاً فاضلاً. أنا حينما أعارض فكرة السفر إلى أوروبا أعارضها على حساب محيطها ومجتمعها المتحلّل، وأنا حينما أنقم على الفتيات سفرهن إلى هناك، خوفاً عليهن من أن يتلوثن بجراثيمها السامَّة. ولو كنت أعرف أنّ في ذهابك إلى أوروبا منفعة تجنينها من وراء ذلك، لما تردّدت لحظة أن أصحبك إليها مع ما أنت عليه من حجاب.

- أو ليس استطلاع معالم الحضارة والمدنية هناك مكسباً مهماً يا إبراهيم؟.

- هذه النقطة بالذات هي مصدر جميع متاعب الفتيات، فنحن المسلمون، لا يصحّ لنا أن نعتبر أوروبا صاحبة حضارة صالحة. فالحضارة الواقعية هي حضارة الإسلام لا غير، وليست أوروبا وحضارتها لو تعمّقنا في درسها سوى تعبير مجدد مبطن عن الجاهلية، وعلى الخصوص فيما يتعلّق بالمرأة الأوروبية.

- وكيف؟ ألم تنافس المرأة الأوروبية الرجل في بلادها وتحصل على حقّها كاملاً في الحياة؟.

- مطلقاً . . . فالمرأة الأوروبية لم تحصل ضمن قوانين أوروبا على بعض ما حصلت عليه المرأة المسلمة في ظلّ شريعة الإسلام، بل أنها لم تتمكن حتى من الاحتفاظ بأنوثتها، فالمرأة الغربية ليست سوى أداة طيّعة في أيدي الرجال، لا تملك شيئاً، ولا تستقل في أمر من الأمور، في الوقت الذي تتمتع فيه المرأة المسلمة بكيان مستقلّ، وشخصية ثابتة، لها حقّها الكامل في التصرّف بمالها وكيانها في الحياة.

المرأة الغربية مغرّر بها يا نقاء، خدعوها ببهرج الحياة وزخرفها في الوقت الذي لا تملك هي فيه حتى ذاك البهرج والزخرف، أوهموها أنّها حرّة، تغطية لنفوذ الرجل عليها في جميع المجالات. ثقي يا عزيزتي أن لو كان في أوروبا بيئة صالحة ومجتمع خير، لصحبتك إليها راغباً غير مجبور.

- أنا على ثقة في ذلك يا إبراهيم، ولن يعتريني الشك لحظة في حبّك لي وحرصك على سعادتي، ولكني أريد أن أحصل منك على دليل دامغ يردّ على كل من يشكّك في سعادة حياتنا الزوجية، ويخشى عليها من التزامات الإسلام. أنا على يقين من صواب نهجنا في الحياة.

- وهل هناك حياة سعيدة إذا لم تنهج نهج الإسلام، ليتك تعلمين يا نقاء، سحب الشقاء التي تطبق على بيوت المنحرفين عن الإسلام، والمشاكل الجسام التي تثقل كواهلهم، وتفكك حياتهم، وتشتت شملهم، إنّ الحياة الزوجية التي تقوم على أسس صحيحة من المثل والمثالية هي التي ستكون حياة زوجية مثالية، فكوني واثقة يا حبيبتي من أنّ حياتك الزوجية سوف تغدو حافلة بجميع أنواع المسرّات مفعمة بألوان السعادة والنجاح.

- أنا واثقة من ذلك يا إبراهيم، وقد اطمأننت إلى ذلك منذ اليوم الأول لخطوبتنا وعرفت أنّك رجل مثالي، وأنّك أقدر ما تكون على إسعاد زوجك في الحياة.

- وأنا واثق أيضاً أنّ روحك الطاهرة بصفاتها ونقائها تتسع لكلّ المثل الخيّرة والمفاهيم العليا.

- شكراً لك يا إبراهيم، أنت تمكنني أن أثق من نفسي، وتهبني القوة في الاعتماد على سلوكي وتصرفاتي في الحياة.

- وهنا ألقى إبراهيم نظرة على ساعته وكانت تقارب العاشرة، ثم ابتسم وهو يقول:

- يتحتم عليَّ أن أنصرف الآن، فأنا على موعد مع صاحب لي في تمام العاشرة.

- أرجو أن لا أكون قد أزعجتك يا إبراهيم.

- بل العكس تماماً، فأنا سعيد بسؤالك يا نقاء، ولكن آسف لعدم تمكّني من المكث مدة أكثر لأستمع إلى كل ما يدور في فكرك من أسئلة، وسوف أعود عند العصر لأستمع إلى ما تقولين إن شاء الله.

- أنا لا أسأل لنفسي يا إبراهيم، فأنا واثقة من ديني ومن عقيدتي، ولكنها أسئلة تتردّد على ألسنة بعض الفتيات، وكان لا بدّ لي أن أجيب عليها.

- أحرصي على أن تكوني بشخصك وسلوكك نعم الجواب، واجهدي أن تجعلي من نفسك أنموذجاً للفتاة المسلمة السعيدة.

- سوف أحاول أن أكون كذلك، والآن حدّثني هل أنت لا تزال تسعى لتقديم موعد سفرك إلى فرنسا؟.

- أنا في سبيل محاولة ذلك، فمتى ما تقدّم سفري وانتهت مهمتي هناك سوف تنتهي أيام بعدنا عن بعضنا يا نقاء، وسوف يضمنا عشنا الهانىء السعيد.

وسكتت نقاء لم تردّ عليه واكتفت أن ابتسمت ابتسامة عذبة بريئة... ثم نهض إبراهيم فودّعها وانصرف.

وعلى طول الطريق كان يفكّر وهو يقود سيارته، في نقاء، أتراها كانت تسأل مندفعة بشعور شخصي أم مجرّد سؤال، وآلمه أن تكون أفكار الفتيات الطائشات قد شوشت على نقاء فكرها الصافي النقي، وصمّم على أن يعود فيتحدث معها في هذا الموضوع لكي يرفع عنها كل ريب أو شكّ، فهو يريد من فتاة أحلامه أن تكون منسجمة معه في الفكرة والرأي والعقيدة. وكان مما حبّب نقاء إليه ودفعه إلى طلب يدها هو اعتدال سلوكها وقوّة شخصيتها، فهو حريص على أن لا يقرن حياته مع فتاة نزقة طائشة تلعب مع الريح يمنة ويسرة. وقفزت إلى ذهنه فجأة ذكرى حادثة قديمة مرّت به منذ أربع سنوات يوم كانت إحدى الفتيات المخدوعات تحاول أن تستدرجه نحوها بأساليب الإغراء. ابتسم وهو يتذكر أن تلك الفتاة كانت تأمل أن تنحرف به عن الطريق السوي كيما يمكنها الحصول عليه، وكيف أنها كانت تحاول جرّه نحوها بكل طريقة وبشتّى الأساليب.

وكانت ابتسامته مزيجاً من الرضا، لصموده حين ذاك، والرضا لاختياره لنقاء الآن، وودّ لو علم إلى أين انتهى المطاف بتلك الفتاة، وهل تمكنت أخيراً من الحصول على صيد ثمين؟. أو هل تمكنت من نصب أحابيلها حول رجل مسكين تخدعه كما حاولت خداعه من قبل؟.

ولكن أنّى له أن يفهم عنها شيئاً وهو لا يذكر حتى مجرّد اسمها؟ وودّ صادقاً أن تكون قد سعدت بزوج فاضل يسير بها إلى جادة الصواب.

الفصل الرابع

مرّ أسبوع نسيت نقاء خلاله حديث سعاد، وكادت أن تنسى سعاد نفسها أيضاً، فقد كانت تعيش في نعيم مستمر وهي تتذوق كل يوم كأساً جديدة من كؤوس السعادة والهناء، ولم يكن لديها ما يكدر صفوها سوى ترقّب قرب سفر إبراهيم. وفي أحد الأيام ذهب إبراهيم في مهمة إلى اللاذقية، واتّفق أن كانت نقاء في ذلك اليوم على موعد مع الخياطة لتذهب لعمل القياسات. ونظراً لعدم وجود إبراهيم اضطرّت إلى الوقوف في الشارع لانتظار سيارة تقلّها إلى حيث تريد. وفجأة أبصرت أمامها سعاد وهي تترجّل من سيارتها قائلة:

- يا لها من صدفة سعيدة، تفضلي واركبي معي يا نقاء! فأنا على استعداد لإيصالك إلى حيث تشائين.

ولم تشأ نقاء أن تركب مع سعاد، فاعتذرت عن ذلك، ولكن سعاد ألحّت عليها بالطلب بصورة لم يسعها إلاّ أن تجيب، وركبت السيارة إلى جوار سعاد، وكانت سعاد هي التي تسوق سيارتها دائماً وبعد أن سارت بهما السيارة مدّة وجيزة التفتت سعاد نحوها قائلة:

- كأني قد سمعت منك أنّ لدي... لدي... أعذريني، أقصد لدى زوجك، فقد نسيت اسمه... لديه سيارة.

- لقد سافر إبراهيم في ساعة مبكرة من الصباح في مهمة مستعجلة إلى اللاّذقية.

- لا بدّ لي أن أتعرّف عليه يوماً ما يا نقاء.
- طبعاً طبعاً.
ولكني أخشاه..
أنت غلطانة يا سعاد! فهو دمث الأخلاق محبب إلى النفس.
ولكنه على ما سمعت منك يا عزيزتي رجل شديد، صارم، له سلوك خاص.
أنا لم أقل شيئاً من هذا يا سعاد! هو ليّن الجانب، سهل العريكة، مسالم إلى أقصى حدّ.
بالنسبة لك طبعاً، وبعد أن سخّرك لآرائه وأفكاره، أما بالنسبة لنا - نحن النساء العصريات - فلا.
أنا لا يعجبني منك هذا التعبير يا سعاد، إنّه لم يسخرني أبداً فأنا بطبعي أشاركه في آرائه وأفكاره.
ما شاء الله يا لكما من زوجين سعيدين.
واقعاً...
على فكرة يا عزيزتي! هل تفكرين أن تتعلمي السياقة يوماً ما؟.
لا، لأنّها ليست ضرورية للمرأة، ولست في حاجة إليها.
ولماذا...؟

الواقع إني لا أشعر بحاجة إلى ذلك، فإنّ إبراهيم على استعداد لإيصالي إلى حيث أريد، ثم إني لن أركب السيارة وحدي بدونه، فما الذي يدعوني إلى أن أقودها بدلاً عنه!.

طبعاً، إنّه سوف لن يسمح لك بذلك، وسوف يكون له من هذا أحسن حجة لمتابعتك إلى حيث تذهبين، ولكنك سوف لن تستطيعي أن تتابعيه حتى إلى مكان واحد بحجة أنك مسلمة محافظة.

- وما لي وله يا سعاد! هل ترين لي من اللائق أن أذهب معه إلى المحلّ أو أجلس بجواره في غرفة الحسابات، إن هذه الأمور من اختصاصه هو وحده.
- وسهراته وحفلاته ورحلاته.. ووو... إلى آخر تحرّكاته وتنقلاته؟.

- لكلّ رجل رحلاته وحفلاته، كما أنّ للمرأة أيضاً حفلاتها وزياراتها الخاصة.

- ولكن الرجل تكون له الحفلات العامة والمجالات الواسعة، أمّا المرأة على غرار ذلك، فإنّ لها حفلاتها الخاصة وتنقلاتها المحدودة.

- إنّ إبراهيم ليس من روّاد الحفلات المختلطة والنوادي الصاخبة.

- أنت مخدوعة يا نقاء! فالرجل، وأي رجل كان، لا تقف أمام تحركاته حدود أو سدود، ولكنهم على صنفين، صنف مسالم طيّب، يشرك زوجته في جميع أنواع فعالياته الاجتماعية، وقسم صارم شديد، يستغلّ بساطة زوجته ليحتجزها في البيت بشتّى أنواع الحجج والمبررات.

- إنّ الرجل الطيّب المثالي هو الذي يشرك معه زوجته في آرائه وأفكاره وأهدافه ووجدانه لا في تحركاته وتنقلاته فإن للمرأة أفقاً خاصاً لا يصحّ للرجل أن ينزل بها عنه.

- مرحى مرحى لهذه النغمة الغريبة التي أصبحت تتكلمين بها يا نقاء!..

- أنا لا أقرّك، أن عندي نغمة غريبة أو أي فكرة جديدة فأنا هكذا كنت وهكذا سأكون.

- طبعاً أنت هكذا كنت قبل الآن، أيام كنت طفلة جاهلة بأساليب الحياة، ولكن الغريب في الأمر جمودك على هذا وأنت في هذا السن الذي يقف بك على عتبة الحياة.

- أرجوك يا سعاد! أنت لا تعرفين ما تقولين.

- على العكس يا عزيزتي! فأنا أعني ما أقول، ولكن...

- أنا لا أحب هذا اللآكن يا سعاد! فكأن كلماتك لها ما وراءها!.

- صدقي أني في حيرة منك يا عزيزتي! لا أدري كيف أتصرّف، وأنا أراك في طريقك إلى افتقاد شخصيتك، وإتلاف مستقبلك بالسير وراء أمثال هذه الفكرة الرجعية، أنت الفتاة العصرية المثقفة تلتزمين بقيود وحدود بحجة أنك

مسلمة، وأنّ زوجك مسلم محافظ. أفلسنا جميعاً مسلمين؟ باطل؟ فكّري بنفسك يا نقاء! لترين أنك بخضوعك لإبراهيم ولأفكاره ومعتقداته سوف تخسرين الكثير!.

- أنا لست خاضعة لإبراهيم أو غيره، وإنما أنا سائرة وراء مبدئي وعقيدتي الشخصية.

- وهل أنّ من عقيدتك الشخصية هذه الحياة التافهة التي تحيينها، وهذه العزلة التي فرضت عليك فرضاً؟!.

- أنا لست في عزلة كما تظنين، وليست حياتي حياة تافهة بل أنّها حافلة بجميع ما تصبو إليه النفس.

- لأنّك لا تزالين تجهلين ما تصبو إليه نفسك، ولا تزالين تجهلين الحياة الواقعية لتصبي إليها يا نقاء! أنت لا تزالين صغيرة، ولذلك فقد تمكّن إبراهيم من تضليلك...

- أنا لا أجهل شيئاً من الحياة، وإني واثقة من صواب نهجي الذي أنا عليه، وإن عقيدتي هذه سوف تحقق لي ولزوجي السعادة الكاملة في كلّ حال من الأحوال... أنا لست متعطشة للإندماج في مجتمع متحلل فاسد... فإنّ لي مجتمعي الخاص الذي أنعم فيه بالعلاقات البريئة والمصاحبات الطاهرة النقية... أنا لست جاهلة يا سعاد، ولكنني أعني ما أقول وأقصد ما أعلم ولست في حاجة إلى أي نصيحة أو إرشاد...

وضحكت سعاد طويلاً، ثم أردفت قائلة:

- عفوك يا آنسة! أنا لم أكن أقصد إثارتك من قريب أو بعيد، أما الآن وقد ثرت... ولا أدري لماذا؟!.. فأنا أستميحك العذر...

ثم أدارت وجهها ناحية نقاء، وحاولت أن تركّز نظراتها في وجهها لتقرأ على صفحته السبب في انفعالها، فقد خيّل لها، أنّ سهماً من سهامها قد أصاب هدفاً في قلب نقاء، فاندفعت تنفّس عن مشاعرها بهذه الثورة بدون إحساس منها لذلك، ولكن نقاء أدارت وجهها ناحية الشارع، وقالت:

- أنا لم أثر يا سعاد! ولكن تأثّرت فقط.

- الويل لي إذا كنت قد آذيتك يا عزيزتي! أنا لن أغفر لنفسي هذا مطلقاً، فأنا أعتبر نفسي أختاً ناصحة، ولا أقصد مما قلت سوى صلاحك وصلاح مستقبلك الذي يهمني كثيراً!!! فقد كنت واثقة دائماً من أنك سوف تتربعين على عرش المجتمع وأنك سوف تدخلين الحياة لترين جميع أبوابها مفتوحة أمامك واسعة، ولكن الآن وقد تلاشت جميع آمالي بالنسبة لك، وهذا هو ما دعاني إلى الاندفاع إلى مصارحتك ببعض الحقائق... ومرة أخرى أستميحك العذر.

- أنت معذورة يا سعاد!...

- أهكذا.. وبمثل هذه اللَّهجة يا نقاء..؟

- نعم، فلا يسعني أن أقول شيئاً غير هذا!.

- كما تريدين يا عزيزتي! فلست إلاّ ناصحة، والآن وقد وصلنا، فمتى تريدين أن أمرّ عليك لأرجعك إلى البيت؟.

- شكراً يا سعاد! سوف أرجع وحدي...

- أبداً، إنّ هذا محال، لن أدعك تنتظرين «الأمانة» على قارعة الطريق وعندي سيارة، سوف أرجع بعد ساعة لآخذك إلى البيت.

ولم تردّ عليها نقاء ردّاً واضحاً، ولكنه بعد أن أتمّت عمل القياسات ركبت «الأمانة» ورجعت إلى البيت دون أن تنتظر سعاد، وكانت تعلم أنّ ذلك سوف يغيظها، ولكن لا يهمّ، فهي تودّ أن تبعد سعاد عن طريقها بأيّ صورة كانت.

وفي العصر كانت نقاء جالسة أمام مكتبتها تصلح من ترتيبها، فشعرت أنّ باب غرفتها يتحرّك، فاستدارت لترى سعاد فارتبكت وظنّت أنّ سعاد جاءت عاتبة، ونهضت لاستقبالها، وقد صممت على أن تصارحها بالحقيقة إن عتبت عليها، لعدم انتظارها لها عند الخياطة، ولكنها فوجئت سعاد تقول:

أنا خجلانة جداً يا نقاء...! فقد كانت غلطة لا بدّ أن تغفريها لي، أنا لم أكن أقصد التأخّر، ولكني تأخّرت، وسبّب ذلك عودتك وحدك.

واحتارت نقاء. . . بماذا تردّ على سعاد، ولم تتمكن أن تقابل تسامحها هذا بالتجني، فلم يسعها إلاّ أن تقول:

- لا عليك يا سعاد! فأنا لم أنتظر طويلاً كما تظنين، والآن تفضلي واجلسي يا سعاد!

وجلست سعاد على كرسي هناك، وشرعت تتكلم. . . تكلّمت عن الحفلة التي دعيت إليها في اللّيلة الماضية، والمطربة التي أحبتها حتى مطلع الفجر، والفتيات المخدوعات اللواتي كن يتطايرن في سمائها. . وتحدّثت عن الأفلام الأجنبية التي تعرض في دور السينما، وفصولها المثيرة الخلابة وتحدّثت عن رحلات الصيد التي تقوم بها مع ثلّة من أصحابها في كثير من الأوقات، ثم تحدّثت أخيراً عن أحواض السباحة والمسبح الجديد. وعلى الجملة: فقد تحدّثت عن كل شيء أرادت أن تتحدّث به، ونقاء، تستمع إليها بهدوء واتّزان لا تكاد تعلّق على كلامها إلاّ بالنزر القليل. واستغربت نقاء تجاهل سعاد لذكر زوجها في جميع أحاديثها، وإهمالها لوجوده في جميع تصرفاتها، فاغتنمت فرصة قصيرة سكتت خلالها سعاد لتسألها قائلة:

- وزوجك يا سعاد! أراك تتجاهلين وجوده في سجل حياتك الحافل؟!.

وودّت سعاد لو تتمكن أن تصرخ بنقاء، قائلة: ما لك ولزوجي يا بنت. . فقد ظنّت أن نقاء تتحدّاها بهذا السؤال، فإنّ شخصية زوجها التافهة كانت نقطة ضعف بالنسبة إليها على طول الخط، ولكنها سرعان ما تذكرت أنّ عليها أن لا تغضب نقاء، وأنّ عليها أن تداهنها حتى تتمكن من الوصول إلى غاياتها الانتقامية، فتمالكت نفسها، وأجابت ضاحكة:

- أنا زوجة حرّة يا نقاء! لا أقرن حياتي بحياة زوجي مطلقاً، ولا أسايره إلاّ في الحفلات العامّة التي ندعى إليها سوّياً، نحن نقول بمبدأ المساواة بين المرأة والرجل.

- عجيب أمرك يا سعاد! منذ ساعة كنت تدّعين إلى مرافقة المرأة زوجها ومسايرته إلى حيث ذهب، والآن تقولين أنّك حرّة، لك عالمك المستقلّ!!

- أنت لم تنتبهي إلى ما أعنيه يا نقاء! فأنا أساير زوجي وأتابعه، ولكن لا أسمح له أن يسايرني ويتابعني إلى كل مكان أذهب إليه، فأنا واثقة من نفسي، ولكني لست واثقة من زوجي، فالمرأة الذكية ينبغي أن لا تثق بزوجها مهما داجاها وداهنها، وأن لا تترك له الحرية الكاملة للتلاعب من ورائها.

وسكتت نقاء برهة وهي تعجب لهذا المنطق! ثم قالت:

- وهل تحبين زوجك يا سعاد؟

- وارتبكت سعاد وترددت لحظة ثم أجابت:

- طبعاً... طبعاً... فهو رجل ممتاز، وسوف أعرّفك عليه في أقرب فرصة، إنه شاب رائع... ولعلّني سوف أصحبه لزيارتك في أحد الأيام.

- عفواً يا سعاد...! فأنا لا أستقبل ضيوفاً من الرجال بمفردي وبدون إبراهيم.

- حقاً، لقد نسيت إبراهيم، هذا الذي يقف حائلا دون كلّ شيء...

- سعاد... لا تنسي انّه زوجي قبل كل شيء، ثم إني أحبّه جداً، ولا أسمح لك أن تنالي منه شيئاً.

- ليتني كنت موجودة قبل عقد قرانك يا نقاء...!

- ولماذا يا سعاد؟!

- كنت أحول بينك وبين هذا المصير...

- إذن لكنت قد تسببت في حرماني من السعادة في الحياة...!

- أنت تكابرين يا نقاء...! وهذه هي غلطتك منذ اليوم الأول إذ وافقت على إتمام العقد قبل أن تتعرّفي على سلوكه وطباعه...

- ولم تزدني المعرفة إلاّ ثقة فيه وإعجاباً به، ثم إني لا أكابر وليس هناك أي داع للمكابرة يا سعاد! أنا رضيت بإبراهيم زوجاً بكامل حريتي، وقد كنت أتمكن أن أرفضه لو شئت، ولكني رضيت ولم أندم على ذلك يوماً ما، ولن أندم عليه طول الحياة. أنت تظنين أنه بإمكان الفتاة المخطوبة أن تتعرف على

شخصية خطيبها الواقعية أيام الخطوبة. . . إنّ كلاً من الطرفين سوف يسلكان سلوكاً تحفظياً رسمياً ما داما خطيبين، وسوف لن تتكشّف طباعهما وسلوكهما لبعضهما إلاّ بعد الزواج فالرجل مهما حمل من أخطاء وعانى من نقاط ضعف، فهو يتمكن أن يخفيها عن عروسه إلى مدّة من الزمان حتى لا يخسرها قبل الزواج، وكذلك المرأة أيضاً، وعلى هذا فإنّ أيام الخطوبة لا تزيد الخطيبين إلا غموضاً وتعقيداً فقد تبدو من الرجل بعض خصاله غير المحمودة أمام امرأة غريبة بدون قصد منه، ولكنه بالنسبة لخطيبته سوف يتعمّد أن لا تبدو منه إلاّ النواحي الحسنة.

- ولكن المجتمع يرى غير رأيك يا نقاء! أنت الوحيدة التي تفكّرين على هذا النحو من التفكير.

- أنت تقصدين بالمجتمع، مجتمعك أنت يا سعاد! أما المجتمع الذي أعيشه فأفكاره أفكاري وما أنا إلاّ واحدة من ملايين يرون هذا ويسيرون عليه.

- وما لي لا أرى لملايينك هؤلاء أثراً ولا أسمع لهم خبراً؟!.

- أنت ترينهم وتسمعينهم يا سعاد! ولكنك تأبين أن تصدقي عينيك، وتستنكرين ما تسمعه أذناك، أنهم ملء السمع والبصر، ولكن الظلام الذي يكتنف أبصار المنحرفين يحجبهم عنهم إلى حين.

- إستمرّي يا نقاء! فأنا يلذ لي كثيراً أن أسمعك وأنت ترجعين أمثال هذه الكلمات الرنانة، فلم يعد يعوزك يا عزيزتي إلاّ محراب تصلّين فيه اللّيل والنّهار وترتلين فيه الأدعية والأوراد!. .

- أنت غلطانة يا سعاد! فإنّ البون شاسع جداً ما أقوله وبين أن أعتكف في محرابي أصلّي وأصوم، أنا ملء الحياة يا سعاد، والحياة كلّها لي أيضاً، ولكن الحياة الطاهرة النقية والحياة المثلى.

- أراك أصبحت ترددين كلمات العجائز من جاراتك يا نقاء! أهكذا وبهذه السرعة تتلاشى منك روح الشباب الوثّابة وحرارة الفتوّة الطليقة، أسفي عليك يا نقاء! فأنا دائماً وأبداً كنت أتنبّأ لك بمستقبل باهر لما أنت عليه من جمال

وسحر، وطالما قلت لمحمود زوجي، أنّ ابنة خالتي هي أجمل فتيات عصرها، ولهذا فهو يتحرّق شوقاً للتعرّف عليك وإذا بك الآن وأنت لا تتكلّمين إلاّ بالمثل، ولا تتحدّثين إلاّ بالمواعظ والحكم.

- أنا لم أفه بموعظة واحدة أو آتي بحكمة قصيرة، وإنّما كنت أتكلّم عن واقع الحياة، والواقع بدون رتوش.

- لله درّ إبراهيم الذي تمكن من تلقينك هذه العبارات!

- سعاد، أرجو أن لا تعودي إلى المسّ بإبراهيم، فهذا ما لن أرضاه أبداً.. ليتك كنت وعيت مفاهيمه لتعرفي أي نمط هو من الرجال... نعم ليتك تتعرّفين عليه.

وارتبكت سعاد وعلت وجهها صفرة باهتة، ثم تمالكت نفسها وقالت:

- طبعاً سوف أتعرّف يوماً ما، ولكن ليس الآن.

- ولماذا يا سعاد؟!... أنا واثقة من أنك لو رأيته مرّة واحدة لغيّرت رأيك فيه، ولأعجبك كثيراً!... نعم كثيراً.

وبذلت سعاد جهداً جبّاراً وهي تحاول أن تبدو طبيعية ثم قالت في تهكم:

- أنا لا يرضيني الرجل الذي يكون على غرار إبراهيم، مهما كان وأيّاً كان.

قالت سعاد ذلك وهي تعلم أنّها تكذب، فهي لم يحلو لها رجل غير محمود، ولم يسحرها شاب سواه...

وضحكت نقاء ضحكة قصيرة هادئة، ثم قالت:

- ومن يدري فلعلك رأيتيه من قبل ولم تعرفيه، أو لعلّك سوف ترينه بعد الآن فلا تعرفينه، أنظري يا سعاد...! هي ذي صورته معلّقة على الجدار، أنظريه جيداً لتتعرفي عليه إذا اتّفق ورأيتيه.

وارتبكت سعاد... فهي لا تريد أن تنظر إلى صورة إبراهيم بمرأى ومشهد من نقاء، لكيلا يبدو عليها ما يريب، فهي لم تكن على ثقة من أنّ عوامل النقمة والانتقام سوف لن تنطبع على وجهها... وهي ترى صورته تحتل الصدارة في غرفة نقاء، في الوقت الذي حرمت هي منه حتى من أن تلقي عليه نظرة واحدة.

إنّها لم تعد تحبّ إبراهيم فقد استحال حبّها إلى حقد أسود. . .وتبدّلت عواطفها نحوه إلى شواظ من نار، تحاول أن تحرق بها إبراهيم وزوجته والمُثل التي يؤمن بها. . ولذلك فلم ترفع رأسها نحو الصورة، ولكن نقاء كررت عليها وهي تشير إلى الصورة قائلة:

- أنظريه بالله عليك يا سعاد! هل يمكن لصاحب هذه الصورة أن يكون رجلاً مداجياً أو ظالماً لأحد؟. . . أو هل يستحق هذا الشخص العزيز هجماتك الظالمة؟ أنظريه. . . يا سعاد لتري صدق ما أقول. .

وكانت سعاد تعلم أنّها صادقة فهي تعرف إبراهيم حقّ المعرفة وتعلم أنه بريء من كلّ ما تسعى لأن تنسبه إليه، ولم يسعها إلاّ أن ترفع بصرها نحو الصورة، وألقت نحوها نظرة عابرة، ثم قالت:

- لا يبعد أن أكون قد رأيته مرّة أو مرّتين في إحدى الحفلات الليلية. . .

- أنا لا يهمني ما تقولين، ولكن الذي يهمني أن تفهمي يا سعاد إني أحترم صاحب هذه الصورة! وهو زوجي أمام الله وأمام الناس، وأنا فخورة به جداً، ولا أرضى لأحد أن يمسّه بسوء أو ينال منه بكلام. . . نعم. . . أنا فخورة به جداً.

وكانت كلمات نقاء تلذع فؤاد سعاد كجمرات من نار، ولم تكن نقاء تعلم ذلك أو تحتمله أيضاً.

- أدام الله لك سعادتك هذه يا نقاء! فأنا بصفتي زوجة أقدّر السعادة الزوجية، وأدعو لكل زوجة بالنجاح فيها.

وساد الغرفة سكوت دام دقائق ونهضت بعدها سعاد واستأذنت بالانصراف، ولم تشأ نقاء أن تستبقيها أكثر، وودعتها بفتور، ثم عرجت على غرفة أمّها وجلست تسامرها حتى قدم أبوها، فتناولوا عشاءهم، وانصرفت نقاء بعده إلى غرفتها، وكانت تشعر بوحشة لغياب إبراهيم، وافتقدت قدومه في الموعد المحدد من كلّ يوم، وكانت تحسّ بضيق شديد على أثر سماع كلمات سعاد، وهي تودّ لو أنّها لم تكن ضيفتها، لتتمكن أن تكون معها أكثر صراحة وأن تبدي لها رأيها فيها وفي سلوكها كما أبدت سعاد رأيها في سلوكها هي. . . ولكنها

كانت مسالمة. . وكان من العسير عليها أن تجابه بنت خالتها وهي في ضيافتها بكلام شديد أو تكلمها بلهجة صارمة. . . وأرقت تلك اللَّيلة وهي تفكّر في مفاهيم سعاد الخاطئة، وتسعى لإيجاد طريقة لإصلاح هذه المفاهيم وتوجيهها توجيهاً صحيحاً.

الفصل الخامس

دخلت سعاد غرفتها وهي تشعر بانهيار شديد، فهي تخشى أن تكون نقاء قد لاحظت عليها شيئاً من ارتباك، أو قرأت على ملامحها ما كان يعتلج في صدرها من انفعالات وهي تترد في النظر إلى صورة إبراهيم، ثم وهي تنظرها أخيراً. . .

وألقت بنفسها على السرير، وأطلقت لفكرها العنان، فكّرت في أنها غامرت بذهابها إلى نقاء. . . فماذا لو كان إبراهيم قد رجع من سفرته القصيرة؟ وماذا لو كان قد صادفها هناك؟ أو ماذا لو كانت نقاء قد لاحظت عليها ما يريب؟ وذلك يعني أنّها لا تتمكن أن تحقق غايتها في الانتقام على الوجه الذي تريد، فهي قد سحقت كبرياءها ولم تظهر الغيظ من عودة نقاء وعدم انتظارها عند الخياطة مع أنّها لم تتأخر كثيراً، لكي لا تخاصم نقاء، والخصام معها يعني ابتعادها عنها، وهي لا تريد أن تبتعد عنها في هذه الظروف، حتى تنتهي من مؤامراتها الانتقامية، فهي لا تريد أن تترك نقاء إلاّ بعد أن تسمّم ذهنها بالأفكار التي تعتنقها هي، والتي تعلم واثقة أنّها أفكار ضالة موبوءة لا تجلب لصاحبها غير الخسران والحرمان، كانت تريد أن تلقي بينهما نفس السدّ الذي حال بينها وبين إبراهيم. وأرقت ليلتها وهي تفكّر. . ولم تخرج في تلك الليلة على خلاف عادتها في باقي الليالي، وأفاقت في الصباح فاستحمّت وارتدت ملابسها، ثم استدعت خادمتها الخاصة سنية، وجاءت سنية وهي امرأة شابة لا تتجاوز العقد الثالث من عمرها، ولا تخلو من لمحة جمال، وكانت المساحيق والأدهان تعلو وجهها بوفرة، وقد صففت شعرها على أحدث طريقة، فحيّت

سيدتها ووقفت تنتظر، فصعدت سعاد نظرها فيها وتأملت أناقتها، ثم سألتها:

- هل أتصل بي أحد في التلفون يا سنية؟!.

- إنّ سيدي لم يخرج لحدّ الآن، ولذلك فهو يرد على كلّ نداء.

- وأمس عصراً حينما لم أكن في البيت ألم يطلبني أحد؟

- كان سيدي في غرفته وكان التلفون معه أيضاً؟

- أو لم يخرج سيدك أمس أيضاً؟

- لا . . .

- وليلاً، يا سنية، هل خرج سيدك؟

- لا، لم يخرج مطلقاً.

- لعلّه مريض. . .

- لا أدري.

- أو لم يزره أحد يا سنية؟

- أبداً.

- هل أنت على يقين من ذلك؟

- ثقي يا سيدتي إني لا أتجسس على سيدي مطلقاً.

- ومتى كلّفتك أن تتجسَّسي عليه. انصرفي الآن.

واستدارت سنية لتخرج، ولكن سعاد استوقفتها قائلة:

- سنية. . . ! أنا لا أحبّ منك هذا الإفراط في الأناقة. . إن من يراك يظن أنّك في حفلة ساهرة، إذهبي وصففي شعرك بطريقة أقلّ إثارة، وخففي من مكياجك الصارخ. .

- ولماذا يا سيدتي؟! أو لست حرّة بالتصرف في شعري ووجهي.

- هل رأيت قبل الآن من تعمل تسريحة كتسريحتك هذه؟ وتعمل مكياجاً صارخاً مثل هذا المكياج في الصبح وفي رابعة النهار؟

- إنّك - أنت - يا سيدتي تذهبين كلّ صباح إلى محلات التجميل قبل أن تبدئي جولتك النهارية!!

- أنا سيدة متزوجة والمجتمع يحتّم عليّ ذلك.

- لم يتفق لسيدي أن رآك مرة وأنت على زينتك يا سيدتي إلاّ في بعض الحفلات، فهو لا يصل إليك إلاّ بعد أن تكوني قد أنهكك التعب وأعيتك الأناقة...!

- أنت لا تفهمين ما تقولين يا سنية! كيف تجرئين على مخاطبتي بهذه اللَّهجة؟ هل أنت سوى مجرّد خادمة يمكنني طردك في كلّ ساعة؟

- أحقاً أنك تستطيعين طردي في أي ساعة يا سيدتي؟!

- نعم أو لست سيدة البيت؟

- فلماذا لا تطردينني إذن يا سيدتي؟

- أنت تغيظينني كثيراً يا سنية!

- أبداً لا أتعمّد إغاظتك يا سيدتي، ولكن أقول أنّك تستطيعين أن تطرديني بسهولة.

- أغربي عن وجهي يا سنية! كفاك هذراً ووقاحة، فأنا لا أستطيع أن أنظر إليك أكثر من هذا.

- أنت مخيّرة في ذلك، ولكن أنا أحرص دائماً على أن أنظر إليك كما نظرت من قبل. ورانت على وجه سعاد صفرة باهتة، وقدحت عيناها بشرر مخيف، ولكنها جاهدت نفسها لكي لا تصفع هذه الماثلة أمامها بكلّ صفاقة، والمتحدّية لها بأسلوب لاذع، فهي كانت تعلم أنّها مشدودة إلى سنية بحبل شائك لا فكاك لها منه ولا خلاص، ولذلك فقد حاولت أن تسيطر على أعصابها ورقّقت صوتها وأجابت قائلة: أنت تعلمين أنك أثيرة لدي يا سنية، ولكني اليوم ضيقة الصدر، وأردت أن أنفّس عني قليلاً.

- أنا على ثقة من ذلك يا سيدتي! ولكن أردت أن أنبهك إلى بعض الظروف فقط، والآن هل تسمحين لي بالانصراف؟

- طبعاً طبعاً فقد أخّرتك كثيراً يا سنية! وخرجت سنية وهي تتمايل في مشيتها وتتهادى وتابعتها سعاد بعينين تقدحان شرراً وحقداً، وتمتمت قائلة: يا

لها من أفعى سامة تستغلّ ما تعلمه عني لإهانتي والتنكيل بي، ولكني جبانة فما الذي أخشاه منها؟ وماذا عساها أن تقول! وأي فضيحة سوف تعلنها لو طردتها شرّ طردة! لماذا أخاف! وأي شيء أخشى، والمجتمع الذي أعيشه يؤكّد على إعطاء الحرية الكاملة للمرأة، وأنّ المرأة والرجل متساويان في استعمال حريتهما العامة. . . ؟! نعم، لماذا أخاف سنية! وعند من تنوي أن تفضحني! وجميع من حولي قد أثقلت كواهلهم الآثام، وزخرت حياته بالخطايا والزلاّت، نعم لست أخشى أحداً غير محمود، فهو لا يزال يجهل واقعي الذي أعيشه، وقد دفعته إلى ما يلهيه عن كلّ شيء، وسنية قادرة على إثارته لو أرادت، ومحمود يعني عندي الشيء الكثير، فهو الثراء والغنى، وهو المال الذي يخضع له كل شيء، ولا يقف أمامه شيء، ولذلك فإنّ عليَّ أن أوطن نفسي على تحمّل هذه العقرب اللعينة، إنها تتحداني بكلماتها، وقد عرفت ما كانت تعنيه، ولم يعتكف محمود في البيت إلاّ لأجلها، وهي كانت تحاول أن تفهمني ذلك بكل صفاقة، ولكني مشدودة إليها على كلّ حال، ليتني كنت قد صرفتها من البيت مع سفر محمود، إنّها كانت غلطتي في الواقع، ولكنها انتهت على كل حال، والآن فإنّ عليَّ أن أذهب إلى غرفة محمود. . .

ونهضت متثاقلة، والتفت بردائها الحريري. وذهبت إلى غرفة محمود، ولم تشأ أن تطرق عليه الباب، فقد أرادت أن تفاجئه لترى الحالة التي هو عليها، ففتحت باب الغرفة، وتطلعت إلى الداخل لترى محمود جالساً يستمع إلى أنغام الموسيقى، وهو في كمال حيويته ونشاطه، فدخلت إلى الغرفة وهي تقول: ما شاء الله كنت أظنك مريضاً يا محمود! ولكنك في أتمّ الصحة والحمد لله، وابتسم محمود ابتسامة تهكمية، ثم قال: أنا اليوم على أحسن حال يا سعاد. . . ! فما الذي أوحى إليك أني مريض؟

- عدم خروجك من البيت اليوم وأمس، على خلاف عادتك في باقي الأيام!.

- وما يدريك يا عزيزتي بأني كنت أخرج في كلّ يوم فأنت تخرجين قبل كل خارج وتعودين بعد كل عائد!.

- وهل من المعقول أن تقضي أيامك كلّها في البيت؟.

- إنّ الليالي تكفيني يا سعاد.

- أنت تتحداني بكلامك هذا يا محمود!.

- أبداً يا عزيزتي، ولكني منذ أيام أشعر برغبة ملحّة للبقاء في البيت.

- وبأي شيء تقضي أوقاتك يا محمود؟.

- أطالع الكتب وأستمع إلى الأخبار.

- عظيم، متى أصبحت هكذا يا عزيزي؟ بل أين لك الكتب التي تطالعها؟ وهل هناك خبر عالمي يهتم به شخصك الكريم؟!.

- أنت تتجنين عليَّ يا عزيزتي! فأنا لست من الغباء بالمقدار الذي تظنين.

- الآن صارحني بالحقيقة يا محمود، ما الذي قعد بك أمس عن الخروج.

- لقد قلت لك يا عزيزتي، إني منذ أيام لم أخرج طول النهار من البيت غالباً...

- ولماذا؟!.

- لدي شؤون مهمة يتحتّم عليَّ قضاؤها هنا يا سعاد!

- وهل أن شؤونك المهمة مقصور قضاؤها على البيت؟.

- نعم نعم بالضبط.

- أتعلم يا محمود بأنّك تغيظني كثيراً..!

- ولماذا يا سعاد؟. هل أنّ بقائي في البيت يغيظك إلى هذا الحدّ؟!.

- طبعاً، فأنا أفهم ما تعنيه من بقائك في البيت هذه الأيام، ولكن أريد منك أن تكون صريحاً على طول الخط...

- وهل كنت صريحة معي عندما امتنعت من السفر برفقتي إلى حلب في الشهر الماضي؟..

وهل قدمت لي حجة معقولة تقضي بتخلفك عني في دمشق وبقاؤك وحدك هنا لمدة أسبوع؟.

وتجهم وجه سعاد وهي تستمع إلى زوجها يتحدّث، ثم قالت: أنت تنتقم مني إذن يا محمود..!

- وهل كان موقفك ذاك حركة عدائية لكي تعتبريني في دور الانتقام؟ لا، أنا لا أنتقم ولكني هكذا كنت، وهكذا سأكون... أخرج متى يحلو لي، وأبقى في البيت متى أريد، إنه بيتي أنا يا سعاد! لعلّك نسيت ذلك.

- ولكن سنية وصيفتي أنا يا محمود...

- ولكن راتبها مني يا سعاد! وأنا سيدها الواقعي.

- أنا أتمكن أن أطردها وأحرمك منها متى أشاء...

- أبداً أنت لن تفعلي ذلك، وأنت تعلمين ذلك جيداً.

- ماذا تقصد يا محمود؟

- لا شيء لا شيء مطلقاً... فقط إني أقصد أن نضع بيننا هدنة.

- آه أتساوم يا محمود.!

- لك أن تسميها ما شئت يا عزيزتي! مساومة، هدنة، تعادل قوى، فرص متكافئة، أنت حرّة في التسمية كما أنت حرّة في كل شيء.

- أنت تسحق أعصابي سحقاً يا محمود..!

- وأعصابي يا سعاد؟!

- إنها من حديد..

- ولكنك تتمكنين أن تحطمي الحديد يا سعاد!

- هل حقّاً أنا قوية إلى هذا الحد؟!

- وأكثر بكثير...

- إذن فنحن متكافئان..

- لا بل أنك أنت المتقدمة في الصراع، فما أنا إلاّ نتاج يديك في هذا المضمار.

- من دواعي فخري أن أكون كذلك.

- فافتخري إذن يا سعاد! والآن أي ريح طيبة دفعتك إلى غرفتي يا عزيزتي. أنا لا أصدق أنّ الحب ساقك إليَّ فهل أنت في حاجة إلى مال؟ أنت لم تدخلي غرفتي منذ زمن طويل، فاشرحي لي الأسباب التي دعتك إلى هذه الزيارة.

وهنا أردفت سعاد في دلال قائلة: غير المرغوب فيها طبعاً.

- بل الزيارة التي تقت إليها كثيراً.

- هل أنّك لا تزال ترغب في زيارتي يا محمود؟.

- أو تشكين في ذلك يا سعاد! إنّ حبي لك هو الذي حملني على الصبر عليك طيلة هذه المدة على أمل أن تمنّي عليَّ بنظرة، أو تعطفي بلفتة، وأنا أصارحك! أني تعيس بهذا الحب، ولست سعيداً به أبداً، ولكني أحبك يا سعاد، ولا أطيق عنك فكاكاً، وشعرت سعاد أنّ عليها أن تلبس لبوس الرقة والدماثة، وأن تحاول أن تستبقي مكانتها في قلب محمود، وإن كانت تزدريه وتنفر منه، ولكن سلطان المال كان عندها أقوى من كلّ عاطفة، وقد حطمت الحضارة الكاذبة كبرياءها وجرّدتها من عزّتها الأنثوية، ولذلك فقد صممت على أن تسعى لاستمرار سيطرتها على محمود، وإن كانت غريمتها الحالية خادمتها سنية، فهي لا تستطيع أن تعيش يوماً واحداً بدون أموال محمود، فطبعت على وجهها ابتسامتها الكاذبة التي كانت تتمكن أن تطبعها حيث تريد ولمن تريد.

ورققت صوتها، وأسبغت عليه نغمة عذبة حنوناً، وقالت في دلال: أنت تظلمني يا محمود! فإن عندي من الحب أضعاف ما عندك يا عزيزي، ولكن مشاغل الحياة هي التي تحول بيني وبين الارتواء من معين حبّك الغالي... وأسكرت هذه النغمة محمود، وأنسته جميع خيانات زوجته، وأنسته أيضاً رفيقاته وصديقاته وسنية وغيرها من النساء، ولم يعد يشعر إلاّ بسعاد وهي تكلّمه بنغمة طال به الشوق إليها وعادت به هذه الكلمات إلى أيام خطوبته منها

وقت أن كانت تسكب في أذنيه أعذب آيات الغرام، ففتح ذراعيه لها وهو يقول:

- أنا لا أزال رهن هواك يا سعاد! فلا غنى لي في حياتي عنك أبداً، وجاهدت سعاد كثيراً قبل أن تستجيب لذراعيه، وهي تشعر بحالة تقزز ونفور، ولكن هو المال والثروة قد ذهبا بعزّتها لأنّها تعبد المال وتتغنّى بالثروة. . .

الفصل السادس

عاد إبراهيم من اللاذقية بعد غيبة طالت يومين، وسارع للذهاب إلى نقاء، وكانت نقاء تنتظر عودته بفارغ الصبر، وسارعت إلى استقباله في الباب، وكلّ ذرّة في كيانها تنطق بالشوق والحب. .

وبادرته بعد أن استقرّ بهما الجلوس قائلة:

- لقد أوحشتني كثيراً يا إبراهيم.

- وأنا كذلك يا عزيزة الروح، فقد انقضى عليَّ اليومان المنصرمان وكأنّهما عامان كانت دقائقهما كأسابيع وساعاتهما كشهور.

وشعرت بفراغ كبير لبعدك يا إبراهيم.

- ولكني لم أفرغ منك لحظة لأشعر بالفراغ فقد كنت معي دائماً. . .

- إن قربك أصبح ضرورة من ضروريات حياتي، وأساساً من أسس كياني يا إبراهيم.

- أما أنت فقد غدوت لي حياتي كلّها، فأنت لي كلّ شيء ولا شيء عندي غيرك يا نقاء! فأنا أحبّ حياتي ووجودي لأجلك لأنه سوف يكون وقفاً عليك يا نقاء. . . ! إذن فأنت لي كل شيء ولا شيء عندي غيرك. . .

كانت نقاء تسبح في آفاق السعادة وهي تستمع إلى كلمات إبراهيم وصوته الحنون. . .. واستمرّ إبراهيم يقول:

- نعم يا نقاء! أنت بالنسبة لي الحياة الواقعية التي تزخر بالسعادة وتعمر بالهناء، وقد فتشت طويلاً قبل أن أهتدي إليك لأجد فيك ضالتي المنشودة وأملي الكبير. . . لهذا فأنا سعيد بك. . و مفرط في السعادة.

- وأنا كذلك يا إبراهيم، ولكن أخشى على سعادتنا هذه من أن تمسّها يد الدهر الخؤون أو التي تنال منها حوادث الزمن الغادر، بودي لو كنت أطمئن إلى خلود سعادتنا مدى الحياة. . . نعم، بودي لو أطمئن. . .

- أنا مطمئن. . فاطمئني يا نقاء! فالسعادة الحقيقية تمحو سطورها الأقدار، ولا تنالها يد البلى، فسعادتنا تنبع عن الحب والإخلاص. وسعادة يكون رصيدها حبّاً طاهراً وإخلاصاً واقعياً لا يمكن لأي عامل من عوامل الدهر أن ينالها بسوء. . . بماذا أنت سعيدة يا نقاء؟

- بك أنت وحدك يا إبراهيم. . . بروحك الطاهرة. . . بسلوكك المهذب. . . بقلبك الكبير. . . بعواطفك الخيرة. . . بصوتك الحنون. . . نعم، بك أنت وحدك يا إبراهيم!

- وكذلك أنا يا نقاء. . . سعيد بك يا عزيزتي. . . بصفاء روحك ونبل عواطفك. . بصدق حبك ووداك. . . بثبات فكرك وروحياتك. . . بالروعة الملائكية التي تشع بهالة من نور حول وجهك الرائع القسمات. . وعلى هذا، فإنّ سعادتنا لن تزول ولن تحول أبد الدهر، إنّ السعادة التي تتلاشى وتضمحل نتيجة لتعاقب الحوادث والأيام ليست سعادة واقعية، إنها سعادة موهومة قائمة على أسس مادية مزيفة، والمادة لا بدّ أن تزول، ولكن الروح ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، فالسعادة التي يكون قوامها مادة أرضية، مثل المال أو الجاه أو الجمال ليست سعادة، ولا حتى شبه سعادة، وإنما هي شبه سكرة قصيرة على أحلام الغنى والجمال، والسكرة لا تدوم طويلاً، والغفوة يعقبها صحو طويل. تلك هي السعادة التي يخشى من زوالها، وتلك هي السعادة التي تضلّ من يجري وراءها، وتخدع من يركن إليها في الحياة، أما سعادتنا يا نقاء! فهي سعادة خالدة خلود الروح، راسخة رسوخ النفوس في الأجسام. . فاطمئني يا عزيزتي، فليست حياتنا الزوجية المقبلة سوى مثال رائع للحياة الزوجية السعيدة

الهائئة، فما دامت أرواحنا متحدة، وقلوبنا متقاربة، وأفكارنا منسجمة متماثلة، سنكون في منجاة من أي خطر يهدد سعادتنا المتوخاة. فإن أهم عوامل هدم السعادة الزوجية هو تباين الآراء واختلاف النظرة في الحياة.

وشاعت السعادة على وجه نقاء، وهي تستمع إلى إبراهيم، وودّت لو استمرّ يتكلّم واستمرّت هي تستمع إلى ما لا نهاية.

الفصل السابع

تألقت الأنوار في بيت سعاد، وهو يستقبل ثلّة من الأصدقاء الخصوصيين للزوجين، وقد وجّهت الدعوة إليهم بمناسبة عيد ميلاد محمود، وكانت سعاد تتألق في حلّة زرقاء داكنة، وقد زينت صدرها وجيدها وساعدها بالحلي، وبدت رائعة الجمال بالغة الأناقة. وبدأ الضيوف يتوافدون على الدار وكان في مقدمتهم المصور صلاح، وهو شاب كان من المعروف أنّه على علاقة جديدة مع سعاد... بعد أن نبذت صاحبها الممثل سليم، واختار صلاح لنفسه مجلساً قريباً من سعاد، وكانت سعاد مشغولة في استقبال المدعوين، وتوزيع الابتسامات والمداعبات. وكان من جملة المدعوين شاب يعمل مهندساً، وقد تعرفت عليه سعاد منذ مدة وجيزة، وشاءت أن تلقي حوله أحابيلها، فدعته إلى هذه الحفلة مع الأصدقاء الخصوصيين، وقد جاء هذا المهندس بصحبة واحد من أخص أصدقاء محمود اسمه سعيد، وكانت سعاد تنتقل بين الضيوف، حتى اختارت لها مجلساً إلى جوار المهندس الشاب، وشاعت الغبطة في قلب المهندس وهو يرى سعاد تجلس إلى جواره، وانتظرته سعاد لكي يتكلّم، ولكن المسكين كان يشعر بارتباك إلى درجة لم تمكنه من الكلام ولكن سعيداً بدأ الحديث فخاطب سعاد قائلاً:

- تصوري يا ست سعاد أنّ صديقي هذا يخشى من المجيء إلى هنا.

واتسعت حدقتا سعاد وهي تتظاهر باللهفة قائلة:

- آه!.. ولماذا يا سعيد؟!

- إنه كان يخشى أن تتجاهليه...

- أنا! وكيف لمثلي أن تتجاهل مثله وهو ملء السمع والبصر؟!

وتمتم المهندس ببضع كلمات شكر.. وشعرت سعاد أنّها تتمكن أن تستحوذ عليه بسهولة، وأنّها قد تجعل منه أداة تلوح بها لصلاح إذا صدف عنها، وفعلاً، فقد تمكن بعد مدة وجيزة من أن تطمئن إلى خضوعه لها، وعند ذلك قامت من جواره بعد أن أشعلت فيه النار التي تريدها، وذهبت تفتش عن صلاح، وكانت قد لاحظت أنّه لم يكن قد ارتاح لطول إقامتها إلى جوار المهندس، وحاولت أن تراه في الصالون أو الشرفات، ولكنها لم تقع على أثر هناك... وخرجت إلى الحديقة وفي نهايتها وبين مجموعة من الأشجار المتراصة وجدت ضالتها.. فقد كان صلاح هناك وإلى جواره إحدى صديقاتها من الغانيات... وثارت سعاد لذلك، فهي لم ترتو بعد منه، ولا ترضى أن تخسره بهذه السرعة، فتقدمت نحوهما وهي تقول:

- أهكذا تعتزلان الحفل، لتعتكفا هنا بين الأشجار؟!.

وعلت البغتة وجه صلاح، ولملمت رفيقته أطرافها في ارتباك واستمرّت سعاد تقول بانفعال:

- أنا كنت أعرف أنك متقلّب، كثير النزوات يا صلاح، ولكن ليس بهذه السرعة، وليس على هذه الصورة! وتمتم صلاح قائلاً:

- أرجو أن لا تظني... أني...

وقطعت سعاد كلامه قائلة:

- دع عنك هذه الكلمات الفارغة، هكذا أنت دائماً، كل يوم في مكان وكلّ ساعة على اتجاه جديد.

- ولكنك أنت... أقصد... أعني.

- أنا أدري ما الذي تقصده وما تعنيه يا صلاح، فلا داعي لإتعاب نفسك في الكلام، إنّ الذنب ذنبي، أنا الذي وثقت بك وركنت إليك، وفاتني أنّك لا

تختلف عن غيرك من الرفاق رجل مداج، تتلاعب مع الريح.

- سعاد. . . أنك أنت التي أهملت وجودي في الحفل، وانصرفت عني إلى ذلك المهندس الشاب. . .

- وما أنت وما وجودك؟. . . لكي أهمله أولا أهمله. . هل حفظت لوجودك قيمة؟ هل استطعت أن تقف أمام نزواتك في داري على الأقل؟ أنت لم تعد تعني عندي شيئاً.

- سعاد. . . ماذا تعنين يا سعاد؟!.

- نعم، أنا أعني أنّك رجل. . رجل نزق لا تستقرّ على حال. . .

قالت سعاد هذا واستدارت وابتعدت عنهما. وساء صلاح أن يكون قد أغضب سعاد ولم يعد يطيب له المقام مع فاتنته الجديدة، ولاحظت صاحبته عليه ذلك. فصممت على أن لا تدعه يفلت منها بسهولة، فحاولت أن تغريه بالجلوس، ولكنه امتنع وأصرّ على الالتحاق بباقي المدعوين، وفكّر أنّه سوف يتمكن أن يسكب بين يدي سعاد دموع الندم والتوبة حتى يسترضيها ويردها إليه، وفاته أنّ سعاد كانت تحوم حول صيد جديد، وهو المهندس الشاب. . وإنّها لم تثر غيرة عليه أو حبّاً له، ولكنها كانت تريد أن تجعل من هذه الحادثة وسيلة للتقرّب منه إلى حين. . .

أمّا سعاد فقد التحقت بضيوفها وكأنها لم تتخاصم مع أحد، ولاحظت أن زوجها لم يكن في المكان الذي عهدته فيه، ففتشت عنه في الشرفات فلم تجده أيضاً. وخرجت إلى الحديقة مرّة ثانية ولكنها لم تره، ففكرت لحظة ثم توجهت نحو غرفته الخاصة وهناك. . رأته ملقى على سريره بينما كانت سنية جالسة عند رأسه تمسح وجهه بالماء. وتقدمت نحوه سعاد وانحنت عليه دون أن تفوه بكلمة فزكمتها رائحة الخمرة المنبعثة من فمه، وعرفت أنّه مخمور، وكان من عادة محمود أن يقع دائماً تحت تأثير الخمرة إذا أكثر منها، لأنّه لم يكن يشربها من قبل زواجه واتصاله بسعاد ورفعت سعاد رأسها وسألت سنية قائلة:

- من الذي جاء بسيدك إلى هنا يا سنية؟

وردت سنية في تحفّظ:

- أنا يا سيدتي.
- وكيف قدتيه إلى هنا وهو على هذه الحالة؟!
- لا . . . أنّه لم يكن هكذا حين ذاك.
- إذن أنت سقيته هنا أيضاً؟
- نعم، إنه هو الذي طلب مني ذلك.
- يا لك من سافلة.
- عفواً يا سيدتي لست بسافلة.
- أتستكثرين ذلك يا سنية؟!
- أنا لا أختلف عنك بقليل أو كثير وأنا لا أقرّ أن سيدتي سافلة.
- ويل لك من صلفة لئيمة. . .
- مهلاً، فقد اكتفيت من هذا الحفل الصاخب بسيدي وحده، صحبته إلى هذه الغرفة وهو مخمور لكي أنعشه وأنبهه. . . وأما أنت يا سيدتي. . .
- أسكتي. . . أسكتي يا بلهاء. . .
- لست بلهاء يا سيدتي، بل أني أذكى مما تظنين!

وانتبهت سعاد إلى أن غيبتها عن المدعوين قد طالت أكثر مما ينبغي، فاتجهت نحو الباب وهي تقول:

- حاولي إيقاظه بكل طريقة، فليس من اللائق أن ينام هنا مخموراً وضيوفه على أهبة الانصراف.

وخرجت سعاد وهي تتعثر بأذيالها من الخزي والعار والحقد والبغضاء، وكان صلاح قد عاد والتحق بجماعة الضيوف، وحاول مراراً أن يختلي بسعاد؛ ليعتذر لها، ويبرر سلوكه عندها، ولكنها كانت تتجاهله وتتحاشاه، ولذّ لها أن تراه وهو يتعذّب لهذا التجاهل الظاهري.

وكأن سنية فشلت في مهمتها فلم تتمكن من إيقاظ محمود، وفعلاً فقد بدأ الضيوف ينصرفون ومحمود لم يعد بعد، وبعد ساعة كان الصالون قد أقفر إلاّ

من صلاح وركع صلاح أمام سعاد وأقسم بكل غال: أنه لم يكن يعني من مصاحبته لتلك السيدة غير اللهو وقضاء الوقت، وأنّه لا يزال كما كان عاشقها المفتون. وكان صلاح موهوباً في نسج الكلمات الرقيقة والألفاظ الخلاّبة، ولم تكن سعاد تحتاج إلى كثير من عذر، أو طويل استغفار، ولكنها شاءت أن تنعم أكثر باستغفار هذا الراكع على قدميها، فماطلته بالعفو، وتلاعبت به طويلاً قبل أن تفهمه أنّها عفت عنه. واطمأن صلاح إلى رضائها فودعها وانصرف. وعادت سعاد إلى غرفة زوجها فوجدته مستغرقاً في نوم عميق، فتوجهت إلى غرفتها وهي تشعر بإعياء شديد، فقد حطم سلوك زوجها أعصابها، كما أن خيانة صلاح كانت قد أثرت عليها كثيراً، وخلعت عنها ملابسها، واستلقت على سريرها، وهي تشعر أن رأسها سوف ينفجر تحت تأثير الأفكار المتضاربة التي كانت تتصارع فيه. فقد خرجت من الاحتفال وهي لم تزدد إلاّ شعوراً بالحقارة، وإحساساً بالضياع والحرمان، وحاولت أن تنام، ولكنها لم تستطع إلى ذلك سبيلاً، وعادت تفكر في إبراهيم... وهي في الواقع لم تخرج عن التفكير فيه طيلة الحفلة، فقد كان ماثلاً في ذهنها على طول الخط، ولكن في إطار من الحقد والنقمة، فهي لم تكن تغفل عن فكرة الانتقام لحظة واحدة... وودت لو تمكنت من جرّ نقاء إلى أمثال هذه الحفلات، لعلّها تغريها وتستهويها بلهوها وصخبها، فهي على ثقة أنّ نقاء لو ظهرت في حفلة واحدة، لوجدت حولها عشرات من الشباب يركعون على أقدامها ويسجدون. وسعاد لا تشك لحظة في أنّ المرأة التي تصمد أمام إغراءات الشباب المندفع لم تخلق بعد على وجه الأرض، وسهرت مع أفكارها طويلاً حتى غلبها النوم، ولم تفق إلاّ وقد طلعت الشمس وعلا النهار، فتمطت في فراشها قليلاً، وكان من عادتها في أغلب الأيام أن تستدعي سنية؛ لتساعدها على الاستحمام، ولكنها لم تشأ أن تستدعيها ذلك الصباح بعدما صدر منها في المساء الماضي، فاستحمت بمفردها، وصففت شعرها بنفسها، وارتدت ملابسها ونزلت الدرج، وحاولت أن تخرج من الدار دون أن تراها سنية، ولكن صوت سنية باغتها وهو يقول:

- ما لي أراك وقد عزمت على مغادرة البيت دون إفطار يا سيدتي؟!.

والتفتت سعاد نحو الصوت، فرأت سنية في غرفة الطعام وهي تهيىء مائدة الإفطار، ثم أردفت سنية قائلة:

- لماذا لم تستدعني لمساعدتك في الاستحمام؟ أرجو أن لا تكوني غاضبة عليّ.

واحتارت سعاد بماذا ترد على هذه المتهكمة الوقحة، ولم تر بدّاً من أن تقول:

- أنا لم أستحم اليوم، ولذلك لم أستدعك عند صحوي من النوم.

- ولكن تناهى لي خرير الماء وهو يصب في الحمام. وعلى كلّ حال فالمهم أن لا تكوني غاضبة.

- لا . . . لا . . . أبداً أبداً.

- هلا استفسرت عن صحة سيدي!؟

- آه لقد نسيت. . كيف حاله هذا الصباح؟

- إنه لا يزال تعباناً يا سيدتي!

- إذن فهو لن يخرج اليوم أيضاً؟

- نعم يا سيدتي! فقد قال إنه لن يخرج من الدار.

وكادت سعاد أن تنقض على سنية فتنشب أظافرها في عنقها حتى ترديها، ولكنها تذكرت الحبل الذي يشدّها إليها فتمالكت نفسها، وردّت قائلة:

اعتني به جيداً يا سنية! فإنَّ لديَّ موعداً. وعليّ أن أذهب.

وردت سنية في برود قائلة:

- إذهبي يا سيدتي مع السلامة.

وأسرعت سعاد في الخروج وكأنّها تفرّ من شبح مخيف، وتنفست الصعداء عندما شعرت أنّها تحرّرت من سنية ومن سلطانها عليها إلى حين، وهكذا أحسّت أن بيتها لم يعد بالنسبة لها سوى سجن بغيض يعمر بالمحن والآلام.

الفصل الثامن

أما نقاء فقد كانت تعاودها بين حين وحين رغبة ملحّة في أن تحدّث إبراهيم عن سعاد، فقد كان يعزّ عليها أن تخفي عنه أمراً، ولكنها كانت تخجل حتى من مجرّد ذكر سعاد فهي تأبى أن تعيد أمام إبراهيم كلمات سعاد وتفاهاتها لئلاً يظن أنها تأثرت بها، ولو إلى حد قليل. وقد كانت أيامها تمرّ وهي محملة بالهناء والسعادة، ولم يكن يكدر عليها صفوها إلاّ قرب سفر إبراهيم فقد كان موعد سفره يكاد أن يحدد في وقت قريب، وقد كانت خلال ثلاثة أسابيع مضت لم تكن تركن إلى صحبتها مطلقاً. وبعد ثلاثة أسابيع رنّ جرس التلفون في غرفتها. وكانت الساعة تقارب العاشرة صباحاً فردّت عليه، وإذا بصوت سعاد يفاجئها عذباً رقيقاً، وهي تقول:

- لقد أوحشتيني كثيراً كثيراً يا عزيزتي.

وكادت نقاء أن تردّ قائلة وأنا كذلك يا سعاد، ولكنها أبت أن تسجّل عليها كذبة لا تستند إلى الحقيقة، ولهذا أجابت بقليل من الفتور أهلاً وسهلاً.

- ولكنك جافية للصديق، قاطعة للرحم، أفما كان من اللاّئق بك أن تسألي عني ولو مجرّد سؤال، أو تتصلي بي مرة واحدة في التلفون؟! ألم يخطر لك أنّ انقطاعي عنك لا يكون إلاّ لأمر مهم.

- أبعد الله عنك كل مكروه يا سعاد.

- والآن أيضاً ألا تحاولي أن تعرفي السبب؟

- آه.. طبعاً أنا أريد أن أسأل، أرجو ألاّ تكوني مريضة يا سعاد..!

قالت نقاء ذلك وهي تلعن في سرّها سعاد... وتتمنّى لو أمكنها أن تقول لها: أنا لا يهمني السبب يا سعاد، وحسناً فعلت بعدم مجيئك إليَّ طيلة هذه الأسابيع. ولكن الخجل أيضاً كان يمنعها من ذلك، فهي بطبعها هادئة لا تستريح إلى الخصام، وجاءها جواب سعاد سريعاً وهي تقول:

- لقد ابتليت بالزائدة الدودية، ودخلت المستشفى وأجريت لي عملية جراحية. ومنذ يومين فقط رجعت إلى البيت.

وهنا شعرت نقاء ببعض الانعطاف نحو سعاد. فهي لم تكن تظن أنّ سعاد مريضة حقّاً، وفي هذه المرة ردّت عليها بلهفة قائلة: آه.. إعذريني يا سعاد! فلم أكن أعلم بذلك، وعلى كلّ حال فالحمد لله على السلامة.

- أهكذا وفي التلفون؟!

- سوف أحاول أن أزورك يا عزيزتي في أقرب فرصة.

- في أقرب فرصة! ولماذا لا يكون اليوم أو غداً؟

- أنا في هذه الآيام مشغولة يا سعاد...

- آه.. هل إنّ إبراهيم يشغل أوقاتك كلّها يا نقاء؟!

لا، ولكنني مشغولة على كلّ حال.

- وإبراهيم أيضاً لابدّ أنّه دائب على زيارتك في كلّ يوم صباحاً ومساء...

- تقريباً.

- إذن فإنَّ أوقاتك مشغولة معه، يزورك في الصباح ولا يخرج إلى أن يحين الظهر، ثم يزورك في العصر ولا...

- لا أدري كيف تتكلمين يا سعاد! إنه رجل أعمال لا يتأخّر في الصباح إلاّ دقائق معدودة.

- على كلّ حال فأنا لن أنتظر قدومك يا عزيزتي، أنا أعلم أنّك مقيدة من ناحية إبراهيم، ولكنني سوف أزورك أنا بدلاً من أن تزوريني.

- أهلاً... ولكن متى؟

- حالاً، حالاً... مع السلامة.

- مع السلامة.

واستغربت نقاء هذه الطيبة المتناهية من ابنة خالتها. وكادت أن تندم على سلوكها الجاف معها من قبل، فهي لم تكن تعرف غايات سعاد وأهدافها، ولم يكن بإمكانها أن تسمع سعاد بعد أن ألقت سماعة التلفون وهي تتمتم قائلة:

الآن عرفت متى ينبغي لي أن أزور نقاء دون أن يفاجئني إبراهيم، أنا لا أخشى إبراهيم، ولكني لا أريد أن يتعرّف عليَّ الآن لكي لا يحول بيني وبين خطتي الانتقامية، ولكنه سوف يتعرف عليَّ يوماً ما، بعد أن يخسر نقاء وتخسره. . . سوف أسعى إليه بنفسي؛ لأقول له: هنيئاً لك بعروسك المصطفاة التقية النقية الطاهرة. . . سوف أحطم غروره وألوّث مثله ومفاهيمه.

ولكن نقاء لم تسمع شيئاً من ذلك، وأنّى لها أن تسمع؟ وجلست تنتظر وآثرت أن تستقبل سعاد في الصالون لكي تكون أمها حاضرة أيضاً، فهي تعلم أن سعاد سوف تحدّ من كلامها بوجود خالتها، ولكنها فوجئت بعدم وجود أمها في الدار، وأخبرتها المساعدة التي لديهم أنّها ذهبت لزيارة أخيها منذ الصباح، وساء نقاء ذلك فقد كانت تقدر أن وجود أمها سوف يحول بين سعاد وبين الاسترسال في الكلام، وبعد دقائق دقّ الباب، فعلمت أنّ القادم سعاد. . وذهبت المساعدة، لتفتح باللّهفة البالغة، ولم يسع نقاء إلاّ أن ترحّب بها بحرارة وجلست سعاد وهي تتظاهر بالتعب، وأخذت نقاء تعتذر لأنّها لم تعلم بدخولها المستشفى، وضحكت سعاد وهي تقول:

- أنت أختي يا نقاء! وأنا لا أعتب عليك مطلقاً، ولكن كنت أخشى أن أموت دون أن أراك مرة ثانية.

وتأثرت نقاء لهذه الكلمات العاطفية، وقالت بلهجة صادقة حنون:

- حرسك الله من كلّ شرّ يا سعاد! أنت لا تزالين في مستقبل حياتك وأول شبابك السعيد.

- حقّاً أنّ الحياة ليؤسف عليها يا نقاء! فحياتي مثلاً شريط ملون طافح بجميع ألوان اللذة والمتعة.

وتوجست نقاء خيفة من هذه الكلمات. . وفهمت أنّها بداية لحديث طويل، وردّت عليها قائلة:

- جعل الله جميع أيامك سعيدة يا سعاد!

وسكتت سعاد برهة، شعرت نقاء خلالها أنّها في سبيل إيجاد ثغرة تنفذ منها

إلى حيث تريد، وصممت على أن لا تهيىء لها تلك الفرصة، ولا تدع لها مجالاً للكلام المسموم. . . ولكن سعاد لم تكن بحاجة إلى الجو الذي تهيِّئه لها نقاء، فاندفعت تقول:

- كنت أذكر أمس أمام محمود وقد أظهر رغبة ملحّة في زيارتك والتعرّف عليك، ولكني أخبرته أنك محجوزة. . .

ولم تشأ نقاء أن تردّ عليها، لكي لا يطول بهما الكلام في هذا الموضوع. . فاكتفت بابتسامة خفيفة. غير أنّ سعاد لم تكن تتراجع بسهولة، بل استمرّت تقول:

- لقد اندهش محمود من غرابة تصرّف إبراهيم، وتعجّب أن يوجد رجل مثل إبراهيم في هذا العصر المتحضر، ولكني قلت له: إنه استطاع أن يقنع نقاء، فهي سعيدة به على كلّ حال.

ومرّة أخرى سكتت نقاء فلم تجب، لا إقراراً منها لما كانت تقوله سعاد. . ولكن ترفعاً من متابعة مثل هذا الحديث، ولكن سعاد فسّرت هذا السكوت بموافقة نقاء على كلامها، وإقراراً لما قالته، فنشطت لمتابعة الحديث قائلة:

- هل يسمح لك إبراهيم بحضور الحفلات يا نقاء؟!

وهنا لم تر نقاء بدّاً من أن تجيب، فابتسمت وقالت:

- طبعاً. . . طبعاً يا سعاد! ولكن حفلات من النوع النظيف.

- وهل تحضرين حفل ميلادي في الشهر القادم إذا دعوتك إليه؟

- لا مانع عندي من ذلك، وسوف أكون مسرورة.

- شكراً لك. . . وسوف أعرّفك على محمود الذي يتحرّق شوقاً إلى رؤيتك منذ أمد بعيد.

وسكتت نقاء ولم تدر كيف تجيب. . . وفي وهلة فطنت إلى أنّ حفلة سعاد ستكون مختلطة ولا ريب، وقد فاتها ملاحظة ذلك من قبل. . وترددت لحظة. . . هل تسألها عن نوعية الحفلة أو تترك ذلك إلى حينه، وشجع سكوتها سعاد، فتابعت تقول:

- كما أن عشرات من ألمع شباب المجتمع سوف يترامون على قدميك بعبادة وخشوع.

هنا انتفضت نقاء... واصطبغ وجهها بحمرة قانية، وقالت بحدّة وعصبية ظاهرة:

- أنا لن أحضر حفلتك الموعودة يا سعاد! فقد فاتني أن حفلاتك مختلطة... ثم أنت تريدين أن تعرضيني لعيون عشرات الشباب ليركعوا تحت قدمي كأني سلعة، لك أن تعرضيها لمن شئت من الناس! لا أدري كيف سمحت لك نفسك التفوّه بهذه الكلمات يا سعاد؟...

- أنا لم أقل أنك سلعة يا نقاء! ولكنك تأخذين الكلام على غير معناه الواقعي، وإنما كنت أقصد أنك في حضورك الحفلة سوف تخرجين قليلاً عن محرابك الموحش... أنا أرثى لحالك يا نقاء! ولا أسعى إلاّ وراء سعادتك في الحياة.

- لقد نلت حظي الوافر من السعادة فلا داعي لإجهاد نفسك في هذا السبيل.

- عجيب أمرك يا نقاء أحقاً أنت سعيدة؟ أتسعدك هذه الجدران الأربعة وهذا المحيط الضيق؟

- أنا لست سجينة بين جدران، أو مقيدة بمحيط ضيق يا سعاد! أنا حرّة بجميع تصرفاتي وتنقلاتي إلى حيث ما أردت، وإلى أي مكان قصدت، ولكن في نطاق العفة والحشمة.

- ولكنك في الواقع أسيرة في حريتك. مقيدة في انطلاقك أو ليست هذه الأطواق الملعونة تلتف حول رأسك وعنقك الجميل؟! أو ليس المعطف الأسود العريض يحجب قوامك اللدن عن الأبصار ويبرزك على شكل كيس يتساوى فيه الطول والعرض!؟ ولكنك لا تزالين في غفلة عن ذلك، أليس من الجرم أن تظهري للمجتمع بلبوس العجائز وأنت الفتاة الجميلة البديعة التكوين؟!. أي شريعة هذه التي تجيز لإبراهيم أن يظهر للمجتمع بأتمّ أناقة وأكمل زينة، وتحرم عليك أن تبرزي أيّة ناحية من نواحي جمالك الرائع!؟ حقّاً

أنه لظلم. . وظلم فظيع. . .

وهمّت نقاء أن تجيب. . لكن سعاد لم تدعها تتكلم، فاسترسلت تقول:

- إنّ أبشع جريمة اجتماعية هي أن تخضع فتاة مثلك لرجل وأي رجل كان. . أي دين هو هذا الذي يجعل من المرأة أداة مستعبدة في أيدي الرجال؟!

ولم تستطع نقاء أن تستمع أكثر من هذا، فاندفعت تقول وقد تهدج صوتها من الغضب:

- أنا لست محكومة لأحد، ولم يفرض الدين عليَّ أن أحكم لأحد أيّاً كان حتى زوجي، فليس الزواج في الإسلام ختم ملكية المرأة للرجل، ولا تخضع فيه المرأة المسلمة إلى أي حدود أو التزامات غير طبيعية. إنّ الإسلام يعطي للزوجة المسلمة امتيازات لم تحصل عليها الزوجة في كل نظام وقانون غير الإسلام ولكنك مخدوعة، ولا تفقهين ما تقولين!!.

- وهل أن من امتيازات الزوجة المسلمة أن تعتكف في بيت زوجها تطهو الطعام، وتقوم على خدمة الزوج والأطفال؟!.

- الإسلام لم يفرض على الزوجة ذلك. ولكن آداب الإسلام جعلت المرأة المسلمة بطبعها تتوق إلى إدارة بيتها والعناية بزوجها وأطفالها، فهي مخيرة في ذلك، وليست مجبرة إطلاقاً. . وأمّا الحجاب الذي ألتزمه فيه فهو ليس سوى إبراد، تقي شرّ الذئاب من الرجال، وأنا فخورة به حريصة عليه، فإذا كان كل ما يهمك صلاحي. . فاعلمي أني أسعد منك بكثير. . .

- أنا لا أقصدك أنت بالخصوص، فلعلّ إبراهيم قد أعشى بصرك إلى حين، ولكنني أعارض الفكرة بشكل عام، نعم الفكرة الرجعية التي تريد أن تتحكم بمستقبل فتيات في عمر الزهور، حقّاً أنّه لوأد غير مباشر.

- إنّ هذه الفكرة التي تعدينها رجعية هي في الواقع أروع فكرة اجتماعية إصلاحية تغدو المرأة في ظلّها أعزّ امرأة عرفها التاريخ، لو تم تطبيق هذه الفكرة، وسوف يتم في يوم إن شاء الله، ثم إنّ السفور في الواقع هو الذي يمثل

الرجعية التي قضى الرجوع إلى الوراء، لأنّه يعود بالمرأة إلى زمان الجاهلية فيما قبل الإسلام.

- أنت الآن مخدوعة يا نقاء! في ذهنك كلمات أخذتيها عن إبراهيم، وها أنت ترددينها بدون قصد وبدون أن تعرفي معناها الواقعي، ولكنك لو فكّرت بما قلته لك جيداً لعرفت تفاهة هذه الأفكار ورجعيتها، ولعرفت أنّ كلامي هو الكلام الصحيح الذي يجاري العصر الذي نعيشه، والمجتمع الذي من حولنا.

- إنّك أنت المخدوعة يا سعاد! وهذا مما يؤسف له حقّاً أن تحطمي حياتك نتيجة للسير وراء الدعايات المضللة والأفكار المسمومة، أما أنا فكوني واثقة من أنني أعني ما أقول وأنني مؤمنة بآداب الإسلام وتعاليمه كأنجح وسيلة تمكنني من شقّ طريقي خلال مسيرة الحياة في أمان، أنا لا أردد كلمات أخذتها عن إبراهيم، ولكنني أردد كلمات تنطلق من مفهوم الإسلام وتنطق عن مثالية التنظيم الاجتماعي في رسالة السماء. . .

وحين رأت سعاد أنّ عليها أن تدع هذا الحديث عند هذا الحدّ، وأن تكتفي ليومها ذاك بهذا القدر من الكلام لأنّها لاحظت على نقاء اندفاعاً في الردّ لم تكن قد تحتسبه من قبل، وفعلاً فقد غيّرت مجرى الحديث وسألت نقاء قائلة:

- أين خالتي يا نقاء! منذ مدة لم يتفق لي أن أراها عند زيارتي لك. . .! كنت أحسبها سوف تسعى لاستقبالي بعد هذا الانقطاع الطويل. . .

وودت نقاء لو تمكنت أن تردّ عليها قائلة: إنّ خالتك تمقتك وتكرهك، وهي لا تطيق رؤيتك، بل وتتهرّب منك ما وسعها التهرّب. . . ولكن الاتزان منعها عن ذلك، فاضطرّت إلى أن تقول:

- لقد ذهبت أمي لزيارة خالتي منذ الصباح، ولعلّها سوف تعود قريباً.

وهكذا استمرّ بهما الجلوس، وسعاد تحاول أن لا تتطرّق إلى موضوع كلامها الأول، وحوالي الساعة الثانية عشرة انصرفت سعاد وحرصت على أن تكرر على نقاء وصيتها لها بالتفكير بمستقبلها مرة ثانية، وصممت نقاء بعد

زيارة سعاد هذه أن تحدث إبراهيم عنها وأن تخبره بقرابتها لها لكي لا يستنكر اجتماعهما إذا صادف ورآهما مجتمعتين.

الفصل التاسع

حاولت نقاء أن تجرّ حديثها مع إبراهيم إلى ذكر أقاربها، وانتهى بها القول إلى أن تذكر سعاد، فقالت:

- أما بنت خالتي سعاد فهي سيدة شابة جميلة الوجه، بديعة التكوين، ولكنها ليست من الطراز الذي يعجبني أو يرضيني.

وأظهر إبراهيم استغرابه لذلك، فقد كانت أسرة نقاء طيبة السمعة، مشهورة بالاعتدال، وأردفت نقاء قائلة:

- إنّها ربيت يتيمة، فقد مات أبوها وهي لا تزال طفلة، وأفرطت أمها في تدليلها، ولهذا فقد ركبها الغرور والطيش، وقد تزوجت وسافرت مع زوجها إلى أوروبا، على أمل أن يحصل زوجها على شهادة جامعية، بعد أن فشل في تحصيلها هنا، ولكنه فشل هناك أيضاً، وقد رجعا بعد قراننا بأيام، ولكن سعاد لم تفهم ذلك إلاّ متأخراً، فأنا لم أزرها عند عودتهما من أوروبا، وقد جاءت لزيارتي مرتين أو ثلاثة.

وكان إبراهيم ساكتاً يستمع إلى نقاء، ولكنها قرأت على وجهه علائم عدم الارتياح... واستمرّت تقول:

- إنها متطرفة أكثر مما يجوز بكثير، فقد أعشت عينيها أنوار أوروبا الخداعة، فهي دائمة التحدّث عن معالم حضارتها.

- ومن تكون بنت خالتك هذه أو من يكون زوجها بتعبير أصح؟!

- إنّها سعاد، ولا أعرف عن زوجها سوى أنّ اسمه محمود، وهو مفرط في الثراء.

- ثراء وفراغ وجهل، إنّ هذه العوامل هي أخطر ما تكون على المرء.

- والجمال أيضاً، فسعاد جميلة جداً يا إبراهيم إنّها آية في الرشاقة والأناقة، وقد كنت أحتفظ لها بصورة عندي، قدمتها لي منذ سنوات.

ثم نهضت وجاءت بـ(ألبوم) التصاوير. وقلّبته حتى استخرجت منه صورة سعاد، وقدّمتها لإبراهيم قائلة:

- هذه صورتها قبل زواجها وقبل سفرها إلى أوروبا.

ثم عادت نقاء تقلّب (ألبومها) لتنتقي منه بعض صور تذكارية تريها لإبراهيم، ولذلك فقد فاتها ملاحظة الصفرة التي علت وجه إبراهيم عند رؤيته لصورة سعاد وقد عرفها لأول وهلة، وعرف أنّها هي تلك الفتاة اللعوب التي تابعته بغزلها حيناً من الزمان. وعجب أن تكون هذه الغانية قريبة لنقاء، وساءه أنّها على اتصال بزوجته، وما يدريه فلعلّها سوف لن ترتاح إلى هذه الزوجة السعيدة، وتعمل على خرابها، وهم أن يقول لنقاء: إنّ هذه ليست سوى امرأة مبتذلة نزقة فتجنبيها جهدك يا نقاء!. ولكنه عاد فتذكر أنّها الآن زوجة وربة بيت فلعلّها قد أقلعت عن ألاعيبها الصبيانية ونزواتها الطائشة، فلا يصح له أن يبعث ماضيها من جديد، أو ينبش ما لعلّها دفنته بين صفحات السنين الماضية. وهكذا حال دافع الخير عنده عن التصريح بما يعرف عن سعاد. ثم إنه لم يكن يريد أن يخبر نقاء بموقف سعاد منه، لئلا يجعلها في حرج من اتصالها بسعاد. وهو أيضاً يأبى أن يكدّر صفاء ذهنها بأمثال هذه الحوادث، ويودّ جاهداً أن ينأى بها عن كلّ ما يخدش روحها، أو يكدّر أفكارها. وبما أنّ دوافع الخير كانت هي المسيطرة على إبراهيم في تلك اللحظة، فقد اكتفى بأن أرجع الصورة دون أن يعلّق عليها بحرف، ورفعت نقاء رأسها عن (الألبوم) وقالت:

- أرأيت كيف أنّها جميلة؟ ليت روحها كانت قد اكتسبت شيئاً من هذه الروعة الخلقية.

فابتسم إبراهيم ابتسامة باهتة، وقال:

- أنا لا أنكر أنّها جميلة، ولكني لا أستسيغ هذا النوع من الجمال المتكلّف، الذي لم تحصل عليه صاحبته إلاّ بعد جهد جهيد، ثم إنه جمال مبطن بالبشاعة يخفي وراءه عوامل كثيرة، كلّها ليست خيرة ولا صالحة،

فالجمال الحقيقي هو الجمال الطبيعي الطاهر، لا الجمال السطحي الملوث الذي تصنعه محلاّت التجميل.

وعجبت نقاء من أنّ إبراهيم قد تمكّن من التعرّف على شخصية سعاد الواقعية، على أثر نظرة واحدة لتصوير صغير، وكانت قد استردت الصورة منه، فهمّت بوضعها في محلّها من (الألبوم) وهي تقول:

- نعم إنّها تماماً كما تقول يا إبراهيم!..

لكن إبراهيم سارع فأمسك يدها برفق وهو يقول:

- لا... لا تفعلي هذا يا نقاء! فإن (ألبومك) يضمّ مجموعة خيرة من الصور الفاضلة، فلا تدعي هذه الصورة تدنسه باندساسها فيه، أنا لا أريد أن أطلب منك تمزيق الصورة، ولكني أودّ أن تحتفظي بها بعيداً عن هذه الصور الثمينة.

ورفعت نقاء وجهها نحو إبراهيم، وتأمّلته لحظة قرأت فيها على وجهه المعبر ما لم يرد أن يفوه به، فمدّت يدها نحو الصورة، وشرعت تمزّقها إلى قطع صغيرة، وهي تقول:

- إذا كنت أنت لا تطلب ذلك مني، فأنا سوف أمزّقها بيدي يا إبراهيم! لكي لا يعود لسعاد عندي أثر...

وتهلل وجه إبراهيم، وهو يرى نقاء تمزّق الصورة بهدوء، صورة الفتاة التي جعلته يكفر إلى حين بالمرأة. وها هي نقاء تزيده إيماناً بوجود المرأة الصالحة.. وردد وكأنه يحدث نفسه قائلاً: الحمد لله... وأسعد نقاء أن ترى الفرحة قد شاعت على قسمات وجه زوجها الحبيب، ولذلك فقد حرصت على أن لا تعود إلى ذكر سعاد مرّة أخرى لكي لا تكدر عليه صفوه وهناءه.

الفصل العاشر

كانت سعاد تعيش في دوامة من الانفعالات وكان أهمّ ما يشغل أفكارها هو تخطيط أساليب الانتقام من إبراهيم، ومن قيمه ومفاهيمه، فهي تشعر بنار

الحقد والنقمة تنهش صدرها نهشاً فتحرمها من الراحة والاستقرار...

وكان محمود قد تمادى خلال الآونة الأخيرة في تجاهلها، وبالسير وراء نزواته ونزعاته ولكنها لم تكن تولي ذلك أي أهمية، فهي واثقة من أنها تتمكن وبسهولة أن تخضعه لها متى شاءت... فلم يكن انصرافه هذا إلاّ لإهمالها الكلّي له في هذه الأسابيع.. وكانت تستعرض في ذهنها أشكالاً من أساليب الانتقام.

وفي ليلة أرقت، وهي تفكر في خطة ناجحة تسلك بها طريقاً نحو الانتقام، فقد كانت شخصية نقاء تقف حائلاً أمامها دون أغلب الخطط، وفي تلك الليلة ظنّت أنّها قد توصّلت أخيراً إلى أضمن طريقة توصلها إلى ما تريد، ونامت على أمل راسخ في النجاح.. وفي الصباح كان عليها أن تقوم بأول أدوار خطتها تلك... وهو الالتفاف مؤقتاً نحو محمود... فقرعت الجرس واستدعت سنية لتساعدها على الاستحمام، وبعد أن أتمّت ذلك، تلفعت بثوب حريري شفاف، وصففت شعرها بإتقان، واختارت من مجموعة عطورها أعذبه رائحة، وأقواه تأثيراً... وكانت سنية لا تزال واقفة في ركن الغرفة تتابع حركاتها باهتمام بالغ... وأكملت سعاد زينتها، وألقت على مرآتها نظرة رضاء... لم يفت سنية ملاحظتها أيضاً... ثم توجّهت نحو باب الغرفة، فابتدرتها سنية قائلة في دهشة:

- هل أنّ سيدتي تنتظر ضيوفاً في هذا الصباح؟!

وضحكت سعاد ضحكة قصيرة وقالت:

- وهل تظنين أني أستقبل ضيوفي بـ(الروب)؟!

وردت سنية بجرأة قائلة:

- إذن فإلى أين أنت ذاهبة؟

- ولم تلتفت نحوها سعاد، وقالت وهي تفتح باب الغرفة:

- أنا ذاهبة إلى محمود...

ثم أغلقت خلفها الباب، وخلفت سنية وحدها في الغرفة، وهي تكاد تنفجر

غيرة وحنقاً. . . وأحسّت سعاد بمرارة لا تفوقها مرارة، إذ وجدت أنها قد أصبحت أخيراً وهي غريمة لسنية، وصيفتها من قبل. . . وكأنّ لسنية الحق الأول في محمود، وودّت لو تمكنت من الفرار من هذا الجحيم الذي أضحت تعيشه في بيتها، ومن الذلّة التي أخذت تستشعرها وهي ربّة هذا البيت، ولكنها لم تكن تتمكن من الفرار وبريق الذهب يلمع أمام عينيها فيه، ورنين المال يشنف أسماعها في أرجائه، وبلغت غرفة محمود فقرعت الباب بخفة، ثم أدارت أكرة الباب وهي تقول:

- هل تسمح لي بالدخول. . .؟

ولم تنتظر جواب محمود، فدخلت بعد أن طبعت على وجهها بسمتها الكاذبة. . . التي طالما استطاعت أن تخدع بها الرجال. . . وكان محمود يتهيّأ للخروج ولكنه عدل عن ذلك بعد دخول سعاد، ورنت سعاد نحوه بدلال وهي تقول:

- لعلّني لم أثقل عليك يا محمود. . .؟
- آه. . . أنت تثقلين عليَّ يا سعاد. . .!
- أقصد إذا كان لديك أي موعد هام. . .
- أبداً. . . فأنت أهم عندي من كلّ شيء. ولولا جفاؤك لما ارتبطت بأيّة مواعيد. . .
- شكراً يا محمود! أنت طيّب القلب. . . نعم وأنت رحيم.

كانت سعاد جادة فيما تقول، فهي تعلم أنّ زوجها رجل طيّب في الواقع، ولكنه كان ضائعاً بين أكداس الثروة، ولم يكن يتمكن بينها من تشخيص طريقه في الحياة، وقد وجهته هي إلى الناحية التي تريدها، والتي تحقق لها حريتها الكاملة المدعومة بأمواله.. وها هي الآن في طريقها إلى توجيهه وجهة جديدة. تساعدها على تحقيق غايتها الانتقامية.

وأخذت تجاذبه أطراف الحديث، وتنقل له بعض الحوادث والأخبار، وجرت الحديث إلى بعض أصدقائهما. . . إلى أن قالت:

- . . وقد بلغني أنّ صراعاً عنيفاً قائماً الآن، بين صاحبنا سعيد وبين الممثل سليم. . .

وسكتت فلم تتابع ما قالته، فسألها محمود قائلاً:

- حول أي شيء هذا الصراع يا سعاد!

- إنّه صراع سوف يخسر فيه الممثل سليم بلا ريب، فإنّ عند سعيد من المال ما يؤكد له الفوز على غريمه.

وهنا بدأ الاهتمام واضحاً على وجه محمود، فإن ذكر المال يغريه بمتابعة في الحديث، وقال في تأكيد:

- المال. . . نعم، أنا أعتقد دائماً أنّ المال يصنع المعجزات ولكنك لم تخبريني عن ماهية الصراع بعد. . .

- إنّه حول امرأة يا محمود!

- حول امرأة! وأيّ امرأة هي هذه يا سعاد!

- إنّها آية في الجمال يا محمود! وكأنّ خالقها قد أبدع تكوينها، لتكون نموذجاً للجمال في العالم، وهي فتاة لم تتجاوز العشرين بعد. . .

آه!. . .

- نعم، ولكنها بعيدة المنال. . .

- وكيف!؟.

- قبل سنتين سبق وأن تخاصم عليها ثلاثة رجال، كان لكلّ منهم المال والشباب، ولكنها تجاهلتهم، واختارت رابعاً يفوقهم ثراء.

- فهي متزوجة إذن. . .

- لا. . لم يكن ذاك سوى مجرّد صديق، وقد خاصمته منذ مدة وجيزة.

- ولماذا؟!.

- لا أعلم، لعلّها تاقت إلى ثراء أكثر، ولذلك فأنا واثقة من أنّ سعيداً هو الذي سوف يفوز بها دون سليم.

هنا سكتت سعاد برهة، لاحظت فيها أن محمود أخذ يفكّر فيما قالته. . . وبعد لحظات أردفت قائلة:

- ومن المضحك أنهما لا يصرّحان لبعضهما عمّا يعرفان عن الآخر، فكلّ منهما يتجاهل سعي الآخر للوصول إلى هذه الفتاة، كما أنّ كلاً منهما ينفي معرفته لها على الإطلاق، لكي لا يثير حوله الشبهات التي تشجع الثاني على تشديد الإغراء.

وخرجت الكلمات متقطعة من فم محمود، وهو يسأل في لهفة:

- أين اتفق لهما أن رأياها يا سعاد؟!

وفهمت سعاد أنّها قد أصابت من زوجها هدفاً، فأجابته:

- لست أدري بالضبط يا محمود! ولكن الذي أعلمه أن صاحبتهما هذه لها أساليب خاصة في المساومة. . . فهي مرّة تدّعي أنها متزوجة ولها زوج وهي سعيدة به. . ومرّة تتلبس بمسوح الدين، وتتظاهر بالتزام جانب الفضيلة والاحتشام. . . ولكنها متى ما وثقت من ثراء صاحبها وتفانيه في حبّها، خلعت عنها أبراد الخداع وبدت على واقعها الساحر.

واستغرق محمود في تفكير عميق. . . نهضت على أثره سعاد، واستأذنت للانصراف، ولم يشأ محمود أن يستبقيها أكثر من ذلك فقد كان كلامها عن الفاتنة العزيزة المنال قد أخذ عليه جميع أفكاره ولم يفت ذلك على سعاد، فانصرفت عنه، وهي واثقة من أن سهمها قد أصاب مرماه من دون جهد. . ثم دخلت غرفتها، وألقت بنفسها على الكرسي، وهي تحدّث نفسها قائلة: أنا لن أخسر شيئاً من ذلك على كلّ حال، فسيّان عندي خلف أي غانية ركض محمود، ولكن الفرق أنّ غوانيه الأخريات لا يحققن لي غاية، وأمّا هذه التي أحاول أن أدفعه نحوها فسوف تحقق لي بانصياعها إليه أسمى هدف لي، وهو الانتقام. . . نعم، الانتقام من إبراهيم ومن مُثله ومفاهيمه، وبعد أن تتحقق غايتي الانتقامية سوف أستطيع بسهولة. . . أن أرده إليَّ متى شئت. . . فلن يخضع كبرياء تلك الفاتنة. . . غير آمال محمود، فليس من الممكن أن توجد

امرأة لا يغشى عينيها بريق الذهب، ولا يطربها رنين المال، وليست نقاء سوى واحدة من النساء... إن جميع مفاهيم إبراهيم ومُثله لن تتمكن من الوقوف أمام تيار الذهب الذي يتدفق من يد محمود، أنا لن أتمكن أن أجرّها إلى الحفلات، أو أن أدلّ عليها الرجال ولكنّي أتمكن أن أرشد إليها محموداً على الأقل...

واستمرّت سعاد تحدّث نفسها قائلة:

... ولا يهمني أكانت سنية غريمتي أم نقاء بل أنها لن تكون غريمتي مطلقاً.. فما دامت أموال محمود بين يدي فلن أشعر بغيرة أو مرارة. فشخص محمود لا يعني عندي شيئاً على الإطلاق. ولعلني أتمكن أن أستفيد من شخصه التافه إلى هذا المضمار... إنّ نقاء فتاة انطوائية لم يسبق لها أن سمعت كلمة غزل، أو لاحظت نظرة إعجاب، ولذلك فأنا على ثقة من أنّها سوف تنهار أمام إغراءات محمود، إنها بدأت تنعدم على زواجها منذ الآن. وكان سكوتها على حديثي في المرة الأخيرة أحسن دليل على ذلك، لقد نفذت إلى فكرها كلماتي وأفكاري، وسوف لن أتراجع حتى أسكب فيها جميع روحياتي، وأدلّها على اتجاهاتي في الحياة، سوف أعرف كيف أرفع عنها هذا القناع الذي ألبسها إيّاه إبراهيم... ولكن عليَّ الآن أن أتعرّف إلى الأماكن التي تؤمّها، والرياض التي تتنزّه فيها... نعم عليَّ أن أراقب ذلك إلى حين سفر إبراهيم فما دام هو قريباً منها لن أتمكن أن أعمل أي شيء، فقد استحوذ عليها بسحره، وهو الساحر المتمكن الذي يخضع له كل قلب حتى قلبي... نعم حتى قلبي!.

الفصل الحادي عشر

كان يوم سفر إبراهيم قد أخذ يقترب بل يكاد أن يحدّد، فقد تهيأ أخيراً إلى تقديم موعد سفره حرصاً منه على تقديم موعد الزفاف.

وفي أحد الأيام صحب إبراهيم نقاء إلى ربوع دمشق، وانتهى بهما المطاف إلى الجامع الكبير، فاعتزلا فيه ركناً قصياً، واتخذا لهما مقعداً فوق بعض الأحجار. . . وقد أخذ المسجد يحتشد بالمصلِّين كعادته في كل يوم. . . ولذّ لنقاء أن تتابع بنظرها المصلِّين المتنقلين في أنحاء الجامع بين الأماكن المباركة التي في رحابه، وشعرت بنشوة روحية وهي ترى الوحدة الإسلامية تتمثل في صفوف المصلِّين.

فالتفتت نحو إبراهيم قائلة:

- حقّاً إنّ العبادات الإسلامية توحي بالرضا والإطمئنان.

- نعم، تماماً كما تقولين يا نقاء! وقد كان هذا الجامع منذ عهده الأول قاعة لاجتماع المسلمين ومصدراً لأحكام الدولة الإسلامية. كانت قوانين الإسلام تنطلق من هذا الجامع أيام كانت دولة الإسلام تحكم نصف المعمورة، وأيام كان صوت المؤذن يتردد على منابر العشرات من الدول هاتفاً بهتافه الخالد «الله أكبر».

- ما أحلى تلك الأيام يا إبراهيم ليتنا كنّا في ذلك العهد.

- نعم ما أسعد تلك الأيام، ولكننا ما دمنا نعيش فكرة الإسلام - ونحيى على صعيد مُثله وتعاليمه فنحن لا نزال سعداء يا نقاء! إنّ سعادتنا في الصمود أمام التيار المنحرف تعني الكثير وفرحتنا عند كلّ انتصار لتغلبنا على نفسنا الأمّارة بسلاح النفس اللواق لا تعادلها فرحة، ثم ألم تسمعي كلمة الرسول ﷺ «من تمسّك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد».

- إنّ المسلمين في صدر الإسلام كانوا سادات العالم يا إبراهيم.

- إنهم كانوا قادة للعالم لا سادة، فالإسلام لا يعترف بقانون السادة والعبيد، ولا يسود الرجل المسلم إلاّ بتدينه وتقواه، ولم يكن المسلمون في طريقهم للسيادة على العالم، بل كانوا في سبيل إرشاد العالم وتوجيهه وتهذيب آفاقه وتعقيم أفكاره. فالإسلام مبدأ عالمي يصلح لكلّ عصر ومصر، ولا يمكن الخلود لمبدأ ورسالة تقوم على السيادة. بهذه الروح والفكرة تمكن المسلمون

أن يصلوا برسالتهم إلى كسرى في إيوانه، وإلى قيصر في أبراجه وحصونه، وأن يطهّروا بإسلامهم جميع الحضارات غير الإسلامية.

- وهل كان للمرأة المسلمة دور في صدر الإسلام؟

- طبعاً... فإنّ للمرأة المسلمة مواقف خالدة في تاريخ الإسلام وبطولاته، وقد أثبتت جدارتها كمسلمة، وشخصيتها كصاحبة رسالة، فلم تكن المرأة المسلمة تقل عن الرجل المسلم ممارسة واندفاعاً.

- وما أكثر الفرق بين المرأة المسلمة في صدر الإسلام وبين المرأة المسلمة في عصرنا هذا!.

- إنّ المرأة المسلمة في عصرنا هذا مخدوعة يا نقاء! والذنب في ذلك كلّه يرجع إلى الرجل الذي عمل على استغفالها حتى نزل بها إلى هذا المستوى الذي انحدرت إليه، ولهذا فإنّ علينا محاولة إيقاظها من غفلتها. وانتشالها من الوهدة التي تردت فيها دون أن تدري أو تعلم.

- إنني أخشى أن يكون إصلاح المرأة المسلمة ليس بالشيء السهل يا إبراهيم، بعد أن تشبعت روحياتها بمفاهيم الغرب.

- لا تقولي المرأة يا نقاء، ولكن قولي المخدوعات من النساء المسلمات، فالمرأة المسلمة لا يمكن لها بأي حال من الأحوال أن تتشبع بروحيات الغرب، أو تخدعها أفكاره آراؤه، فالمرأة المسلمة التي تعرف حقيقة دينها وواقع رسالتها تعلم واثقة أنّ لها في مبدئها أعذب معين ترد منه لتنعم بحقوقها كاملة في الحياة وحتى المخدوعات من المسلمات لم يفت الوقت في إصلاحهن بعد... فالمرأة المسلمة عنصر طيّب سوف ترجع إلى الطريق السوي متى رفعت الغشاوة عن عينها، وسوف ترفع في أقرب فرصة.

- وكيف؟!.

- إنّ فشل النساء المتفرنجات قد أخذ يبدو واضحاً في حياتهن. كما أنّ نسبة الفشل في الزيجات التي تقوم على أساس هذا التفرنج قد أخذ يتزايد

مطرداً في جميع الأقطار الإسلامية، فإنّ زواجاً يقوم على أسس غير إسلامية لا يمكن أن يكون زواجاً سعيداً لائقاً للاستمرار.

- تصوّر يا إبراهيم! أنّ بعض المخدوعات من فتياتنا يقدمن الدليل على إجحاف حق المرأة المسلمة بموضوع الحجاب، وبفرضه عليها هي وحدها دون الرجل.

- ليست هذه الأقاويل سوى ترجيح للدعايات الأجنبية، والواقع أن الحجاب ليس وقفاً على المرأة دون الرجل في الشريعة الإسلامية، ولكن نظراً لكون المرأة أقوى سحراً وأعمق تأثيراً كان حجابها أعمّ وأشمل من حجاب الرجل.

- هل حقّاً ما تقول يا إبراهيم؟!

- إنّه الحق بعينه يا نقاء، فإنّ المرأة والرجل بما أنهما بشر يتساويان في نظر الإسلام ولم يفرض الحجاب على المرأة المسلمة لحساب كونها بشراً ولكن لحساب كونها أُنثى، وصيانة لأنوثتها الطاهرة، فكما أنّ على الأنثى أن تتستر بأنوثتها، على الرجل أيضاً أن لا يظهر للمجتمع بدعوة كونه ذكراً، بل لكونه بشراً فقط وبما أنّ معالم أنوثة المرأة أعمّ وأوسع من معالم ذكورة الرجل كان حجاب المرأة أشمل وأعمّ من حجاب الرجل، فالإسلام لم يجعل من الحجاب أداة لتقييد المرأة أو حبسها عن المجتمع، ولكنه جاء به كوسيلة لوقايتها من مفاسد المجتمع ومضاره، فالمرأة المسلمة في صدر الإسلام كانت تشهد الحروب، لتطبب وتداوي وتشجع وتحرّض وهي في الوقت نفسه متلفعة بازارها. ونقابها لم يثنها عن أن تقوم بدورها الفعّال في المجتمع المسلم.

- ليتنا كنّا كذلك يا إبراهيم!

- إنّ في وسع كلّ امرأة أن تكون كذلك.

- وكيف؟

- إنّ الجهاد لأجل العقيدة درجات وألوان يا نقاء! ولا يمكن أن تتعذر بعض درجاته وأشكاله على المرأة المسلمة في كل وقت وحين.

- أتظن مثلاً أني أتمكن أن أجاهد في سبيل عقيدتي وإيماني؟

- نعم. . . وتتمكنين بسهولة، فإنّ صمودك عن الإغراءات، وثباتك أمام التيارات، ودفعك كلام الباطل بالحق، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر، يعتبر جهاداً عند عجزك عن القيام بما هو أكثر من ذلك، بل أنّ جهاد النفس هو من أقدس وأكمل ألوان الجهاد كما قال بذلك الإمام أمير المؤمنين عليه السلام «تطهير النية من الفساد أشد على العاملين من طول الجهاد».

وهنا ارتفع صوت المؤذن يتردد في أنحاء الجامع هاتفاً هتافه الخالد: «الله أكبر. .».

الفصل الثاني عشر

كان موعد سفر إبراهيم قد تحدّد في صباح يوم الأربعاء، ولم يكن قد بقي على رحيله سوى يومين، ومنذ أيام مضت لم تعد سعاد تتصل بنقاء، لكنها في صباح ذلك اليوم اتصلت بها تلفونيا بحجة أنّها كانت عند الخياطة، وقد كلّفتها أن تخبر نقاء بطلب حضورها لعمل (البروفة) فشكرتها نقاء ولم تزد على ذلك، ولكن سعاد قالت لها أنّها سوف تذهب مبكرة للخياطة، وهي مستعدة لاصطحابها معها، فلم يسع نقاء إلاّ أن تردّ عليها بأنّها لا تتمكن أن تذهب خلال هذين اليومين لأجل قرب موعد سفر إبراهيم. واهتمّت سعاد بالخبر واستفهمت منها عن موعد السفر وساعته. . ثم كررت عليها استعدادها لإيصالها إلى الخياطة في أي وقت رغبت، وأنهت المكالمة. . . انتبهت نقاء إلى أنّ حكاية الخياطة لم تكن سوى ذريعة لاتصال سعاد بها، فقد كانت الخياطة تتصل بها تلفونياً في كل مرة لتطلب حضورها عندها، ولكنها كانت في شغل عن التفكير في سعاد وما يدور حولها. . وفي صباح يوم الأربعاء استيقظت نقاء بعد ليلة لم تنم منها إلاّ القليل، وتناولت فطورها على عجل،

وأخذت تستعدّ للذهاب إلى المطار، وفي تمام الساعة الثامنة والنصف وصل إبراهيم ليصحبها معه إلى المطار، فقد اتفقوا على أن تذهب إلى المطار بصحبة إبراهيم، ويلتحق بها أبوها هناك، لتعود معه إلى البيت. وركبت السيارة إلى جوار إبراهيم، وهي ساكتة مطرقة تتحاشى نظرات إبراهيم كي لا يقرأ ما يعتلج في قلبها من أحاسيس ولم تشأ أن تتكلّم لئلاّ يخرج صوتها متهدجاً... وشعرت أنّ إبراهيم يلتفت إليها بين حين وحين.. ويحاول تسليتها بأحاديث عن المستقبل وعهد اللقاء السعيد... وفي المطار كانت تبذل جهداً كبيراً تخفي عن إبراهيم ما تعانيه من آلام الوداع، وظنّت أنّها نجحت في ذلك، إلاّ أنّ إبراهيم لم يغب عنه ما تقاسي منه نقاء، فقد قال لها بعد الوداع:

- أنا أعرف أنّك تبذلين جهداً كبيراً لأجلي يا نقاء، وهذا ما سوف يجعلني وجلاً عليك، ولكن تصبري واجهدي في الدعاء لنا بالتوفيق، وتذكري عودتي، وافرحي لساعة اللقاء. تصوري أن لديك عزيزاً طال به السفر، وسوف يعود بعد أشهر ثلاث، لا تفكري أنّ هذا بداية الفراق، بل فكري أنّ اللقاء سوف يكون قريباً بإذن الله.

شعرت نقاء وهي ترى إبراهيم يصعد سلم الطائرة... إنها سوف تضعف أمام ضغط انفعالاتها، وكادت أن تسقط لولا أن يداً رحيمة قد أسندتها من الخلف، ولم تحاول أن تلتفت لترى من يكون هذا الذي أسندها إلى صدره، فقد عرفت أنّه أبوها لا أحد غيره... وأجلسها أبوها على أحد الكراسي لمدة وجيزة، ثم صحبها إلى خارج المطار، وكانت تستند على ساعة أبيها، وهي تسحب قدميها بتعب وإعياء... ساعدها أبوها على ركوب السيارة وتوجّه معها نحو الدار، وفي الطريق شعر أبوها أنّها تعاني الكثير من سفر إبراهيم، فحاول أن يتكلّم في أي شيء، لكي يخرج بها عن بعض أفكارها وانفعالاتها، فقال:

- كان هناك في خارج المطار رجل فضولي وكان همّه منحصراً في إلقاء النظرات على الرائحين والغادرين، وقد لاحظت أنه كان يطيل النظر إلى السيدات.

ولم تتمكن نقاء أن تتجاهل كلام أبيها فردّت عليه قائلة:

- إنّ الدنيا تزخر بأمثال هذا الرجل من التافهين الفضوليين وما الذي يعنينا منه يا أبتاه؟.

- لا شيء مطلقاً ولكن نظراته أزعجتني كثيراً.

- إنّ نظراته لم ولن تؤثّر علينا يا أبتاه، فمن حقّه أن نرثي لأجله، لا أن ننزعج منه، فأمثال هذا من الرجال هم أجدر البشر بالرثاء، إذ يحرمون شبابهم ويبددون طاقاتهم بأفعالهم الصبيانية.

ولكنهم لا يشعرون بالهاوية التي يجرّهم إليها هذا السلوك.

- نعم، إنهم مخدوعون.

واكتفت نقاء بهذا القدر من الكلام، فلم تزد شيئاً. وفي البيت كانت أمّها تنتظرها بفارغ الصبر، فألقت بنفسها في أحضان أمها، وهناك فقد أطلقت لدموعها العنان...

الفصل الثالث عشر

أمّا سعاد فقد ألقت سماعة التلفون بعد محادثتها الأخيرة مع نقاء، وبعد أن استوثقت من سفر إبراهيم. وعرفت ساعة سفره، فركت يدها بغبطة، وهي تقول: سوف أبدأها في أول فرصة من سفر إبراهيم صاحب المُثل والمفاهيم... ولم تشأ أن تخرج ذلك الصباح، بل عكفت في دارها تقلّب خطتها على جميع الوجوه حتى استوثقت أخيراً من استكمال حلقاتها وعند الظهر تناولت طعامها مع محمود، وعلى المائدة قالت وكأنها تذكّرت أمراً:

- معذرة أنا لم أحدّثك بتطورات الموقف يا محمود...

- وأي موقف هو هذا يا سعاد؟!.

- الصراع القائم بين سعيد والممثل.

- آه . . . حول تلك الغادة الحسناء؟

- نعم حولها.

- ما الذي جدّ في الأمر يا سعاد؟

- إنّهما لا يزالان يتباريان. . .

يا لها من مقامرة ماهرة. . . إنها تعرف كيف تكسب الرجل الذي يحمل إليها أكثر مقدار ممكن من المال، تصوّر أنّها الآن تتظاهر بمصادقة رجل كهل، لكي تغيظ هذين الشابين وتزيد حماسهما اندفاعاً.

- كيف ومن أين لك هذه المعلومات وأنا لا أرى لهذه الفتاة أثراً ولا خبراً في أي حفلة من الحفلات أو أي منتزه من المنتزهات؟!

- وما يدريك يا محمود، فلعلّك رأيتها ولم تعرفها، فهي تظهر بمختلف الأزياء، فتارة هي محافظة وقورة تلبس الطرحة وتلتفع بمعطف أسود. . . وتارة هي غانية لعوب ترود الحفلات وتحيي السهرات. وأنا لا أكاد أشخصها حتى الآن، ولكني عرفت أنّها سوف تذهب إلى المطار صباح يوم الأربعاء في الساعة التاسعة لموادعة إحدى صديقاتها فإذا أمكنني الذهاب إلى هناك فسوف أتمكن من التعرّف عليها بلا ريب. . .

- وكيف يمكنك ذلك وسط مجموعة النساء اللأّتي يعجّ بهن المطار؟!

- أنا أعلم أنها بيضاء شقراء عسلية العينين، بيضوية الوجه، متوسطة الطول، رشيقة القوام، ثم إنّ لديها خالاً أسود فوق رقبتها من الجهة اليمنى، وسوف يدلّني هذا عليها بدون شك. . هذا إذا كانت سافرة. وأمّا إذا كانت في مسوح المحافظات، فإنّ زيّها أحسن دليل يدلّني عليها، وأغلب الظن أنها ستكون كذلك بلا ريب إن صاحبها الكهل، سوف يصحبها إلى هناك. . . وهي تكثر الظهور بهذا الزي التنكري ما دامت معه.

واكتفت سعاد بهذا القدر من الكلام في هذه المرة، فأتمّت غذاءها على عجل، وتوجهت نحو غرفتها، وما أن أوصدت خلفها الباب، حتى تمتمت قائلة: سوف أتظاهر يوم الأربعاء بالمرض، وسوف لن أخرج من البيت لأدع له

المجال في الذهاب إلى هناك. هو لا يعرف أباها مطلقاً، ولذلك فسوف يصدّق ما قلته له عن وجود صاحب لها، كهل، فهي سوف تذهب إلى المطار مع إبراهيم في الساعة الثامنة والنصف كما أخبرتني، والطائرة سوف تقلع في تمام التاسعة، ولا بدّ أنّها سوف ترجع مع أبيها إلى البيت. . .

ثم ألقت سعاد بنفسها على السرير، وأطلقت لفكرها العنان. . فكّرت أنها قد أقدمت على مغامرة طائشة، قد تفقد من ورائها محمود، ولكن سرعان ما عادت تقول: إنّ محمود لن يتحرر من نفوذي عليه، فأنا بالنسبة إليه أكثر من زوجة، وأكثر من معشوقة. . . أنا موجهة له ومرشدة، أنا التي سكبت فيه روحاً من روحي، وبعثت في رأسه جميع أفكاري وآرائي، إنه لم يكن سوى رجل تافه خامل قبل أن ألقي شباكي عليه، فهو صنيعة يدي في هذا الباب، ثم إنه دائب على أن تتبع الغواني، وترصّد الفاتنات، فما الذي يؤثر عليَّ إذا كانت إحداهن نقاء. . . إنّه سادر في طيشه، منساق وراء نزواته، سواءً مع هذه أو تلك، ولديه من أساليب الإغراء أقواها أثراً وأرسخها أساساً، وهو المال معبود الملايين. . .

وفعلاً فقد نفذت خطتها كاملة، فتظاهرت بالمرض في صباح يوم الأربعاء، وأظهرت أمام زوجها أسفها لعدم تمكنها من الذهاب إلى المطار، والتعرّف على تلك الفتاة، وشعرت أنّ محمود قد أكثر من التأنّق في ذلك الصباح. . . وفي الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والعشرين، خرج محمود من الدار، وألقت عليه سعاد نظرة من نافذتها، وهو يستقل سيارته، وتمتمت تقول: إنّك حريص جداً على تحديد المواعيد، إذهب إلى حيث بعثتك يا محمود! ولتكن سيارتك الفارهة هذه أول أحابيل إغرائك. . . ولم تتمكن سعاد من الخروج، لئلاً يعود محمود قبلها فلا يجدها في الدار، وفعلاً فقد عاد محمود في التاسعة والنصف وذهب إلى غرفته رأساً ولم يخرج منها إلاّ إلى غرفة المائدة، وتناولت سعاد الغداء معه فعرفت أنه في سبيل إيجاد أحسن طريقة يستحوذ بها على تلك الفتاة.

الفصل الرابع عشر

مرّ يومان على سفر إبراهيم، ولم تخرج نقاء من الدار، وفي صباح اليوم الثالث صممت على أن تذهب لزيارة خالة إبراهيم، التي ربّته وأنشأته، وكانت له بمثابة الأم، وعند الباب أبصرت سعاد وهي تترجل من سيارتها أمام البيت، فلم يسعها إلاّ أن تقف لتستقبلها، وكان لقاء سعاد لها ودوداً حاراً. . . ولما عرضت عليها الدخول إلى الدار، قالت: إنها تودّ لو تجلس قليلاً في الحديقة، وفي ظلّ إحدى الشجيرات. . . وفهمت أنّ سعاد تحاول الانفراد بها دون خالتها، ولكنها لم يسعها أن تمتنع من ذلك، وعزمت على أن تذهب لتستدعي أمها بعد قليل، ولكن سعاد لم تتطرق إلى إبراهيم وسفره إلاّ بكلمات قصيرة، وكان حديثها يدور حول أمور شتّى بعيدة عن إبراهيم، ولهذا لم تجد نقاء أي داع لطلب حضور أمها وهي تعلم أنها تنفر من سعاد وتتحاشاها. . . تحدثت سعاد عن حرصها الشديد على التنزه وهي راجلة في كل صباح. . ثم سكتت لحظة تنتظر تعليقاً من نقاء على كلامها، ولكنها لم تعلّق بشيء، فلم تر بدّاً من أن تسألها قائلة:

- وأنت يا نقاء! ألا يسمح لك بالتنزّه للترفيه عنك في بعض الأيام؟. .

وآلم نقاء أن تكون جميع كلمات سعاد مسمومة. . . ولم تر بدّاً من أن تجيبها وهي تتعمّد اللامبالاة.

- وقد أقصد منتزه الجمهورية، أو حدائق الغوطة.

وتظاهرت سعاد بالاستغراب، وقالت:

- آه، إذن أنت لا تتعدّين هذين المكانين؟

- لا، مطلقاً.

- وهل كان إبراهيم يصحبك إلى هناك. . . أقصد أيسمح لك إبراهيم بذلك؟.

- أما مع إبراهيم كنت أذهب إلى كل مكان يراه مناسباً لي.

- إذن أنت وحدك تذهبين إلى هذين المكانين؟.

- نعم. . . أو مع أبي.

- أو تذهبين وحدك يا نقاء؟!

- نعم بعد أن يأذن لي إبراهيم!

- كنت أظن أن تقاليدك تمنعك من ذلك.

- إن الآداب التي تعتبرينها تقاليد، لا تقيد الحريات المهذبة، وإنما تشترط في كل ذلك أن يكون في إطار ديني، وأن لا يخرج عن حدود الآداب الإسلامية. . . ولي من عقيدتي ومبدئي ما يقيني كلّ سوء، ويدفع عني كلّ شر.

- وكيف تقضين أوقاتك هناك وأنت وحيدة بين مئات من الناس؟.

- إن من عادتي أن أعتزل المنطقة المزدحمة، وأختار لي ركناً قصياً، وأصحب معي آثر كتاب عندي، فإنّ المطالعة هناك تحلو لي كثيراً. .

فتأوهت سعاد وكأنها تستمع إلى كلام ذي شجون وقالت بصوت يقطر أسىً ومرارة:

- يا له من ظلم فظيع. . . أمثلك تعتزل المجتمع وتعيش على هامش الحياة؟ أتكون محاسنك هذه رهناً للمعطف والطرحة السوداء، وتكون أفكارك الفتية مدفونة بين صفحات كتاب؟ إن أسفي عليك لا يكاد ينقضي يا نقاء! فأنت جديرة باحتلال عرش ملكات الجمال. حقاً إن الماس ليبدو غريباً إلاّ على جيدك العاجي. . . أنا على ثقة من أنك لا تزالين تجهلين حقيقة جمالك وروعته، فالفتاة الصغيرة لا تشعر بواقع جمالها إلا إذا استمعت إليه من أفواه الرجال، فهم أخبر ما يكونون بأنواع الجمال، إنّ حياة المرأة تبدأ عندما تشعر أنّ ألوفاً من القلوب أخذت تحوم حوله. فما دامت الفتاة مغلفة بالأبراد، فهي لن تتمكن أن تعرف لأنوثتها طعماً، أو تشعر لجمالها لذّة. . . أنت مظلومة يا نقاء! فها أنت تقبعين هنا في عزلتك هذه، في الوقت الذي يتنقل فيه إبراهيم حرّاً طليقاً في ربوع فرنسا. . . أنت تتجنبين رجال بلدك، وإبراهيم يتقلّب في أحضان غانيات باريس. . .

قالت نقاء:

- أية حياة هذه التي تتحدثين عنها يا سعاد؟! ومتى كانت غرائز الرجال هي المحور في تهديد شخصية الفتاة؟ إنّ غرائز الرجال تتمكن أن تقيم جانباً واحداً من جوانب وجودها فقط وهو الجانب المادي! هذا الجانب الذي لا يمكن أن يكتب له الاستمرار بصورة ثابتة في حياة الفتاة، ولهذا فإنّ الكيان الذي تصل إليه الفتاة في مسيرة حياتها نتيجة حكم غرائز الرجال عليها محدود الأمد والنمو والكيان الذي تحققه الفتاة لنفسها عن طريق حكم العقول والأفكار، هو الطريق الثابت القابل للتصاعد والتقدّم نتيجة تصاعد الأسباب التي دعت إليه، والدين هو المنار الذي يهدي السائرات إلى تحقيق وجودهن على أساس هذا الواقع الثابت المستقيم، إنني لست مظلومة، ولكن الفتاة التي تفتقد أنوثتها وكرامتها وتستحيل إلى سلعة معروضة يختارها الرجل تارة ويبذها أخرى. . . مظلومة يا سعاد. . .! إنني لست أسيرة وإنني حرّة في جميع تصرفاتي، لا أخضع لأحد فيها سوى الله عزّ وجل، ولكن الأسيرة تلك التي يتلاعب بمقدورات وجودها واضع موضة، أو مصمم زي من الأزياء، أو مقترح صبغ من أصباغ الوجه والكفين، أما الآن فإنني سأذهب لأستدعي أمي، فقد ظننت أنك لن تتطرقي إلى أمثال هذه المواضيع. . . أمّا الآن فقد وجب حضور أمي.

ولكن سعاد سارعت بالنهوض أيضاً وهي تقول:

- ولكني آسفة يا نقاء. . .! فقد حان وقت عودتي إلى البيت، فإنّ لديّ ضيوفاً ولا بد أنهم قادمون بعد قليل.

فلم ترد عليها نقاء ولم تحاول أن تستبقيها، بل ظلّت واقفة وقد اصطبغ وجهها بحمرة قانية، فقد ودّت لو أنّ سعاد لم تكن ضيفتها أو قريبتها، إذن لعرفت كيف تتصرف معها.

ولهذا فقد انصرفت سعاد بسرعة، وحرصت على أن تجتمع مع محمود في ذلك اليوم، وأن تشير أمامه إلى أنّ الفتاة التي يحوم الصراع حولها، تتردد على منتزه الجمهورية، أو حدائق الغوطة، وإنها لا تتعدى هذين المكانين ما دامت

لم تصل إلى اختيار واحد من الاثنين. . . ومنذ ذلك اليوم كان محمود يتنقل بين هذين المكانين، وكلّه عيون تتطلع ليجد ضالته بين الحسان، بعد أن رآها وعرفها في المطار، وقد توطد أمله بالفوز بها بعد أن رآها في صحبة أبيها الذي صورته له سعاد بصورة صديق أو خليل وعزا ذلك إلى أن مصاحبتها لهذا الرجل الكهل، لم تكن إلاّ لأجل المال، وهو يملك المال والشباب. . . ومرة رآها في ركن قصي من المنتزه، وكان معها نفس الرجل الكهل، فلم يشأ أن يتقرب نحوها، واستمرّ ينتظر فرصة أخرى في يوم ما. .

الفصل الخامس عشر

كانت نقاء تتلقى في نهاية كل أسبوع رسالة من إبراهيم، وكانت رسائله مسهبة مفصلة، يحدثها فيها عن أعماله وأحواله وعن أفكاره ومشاعره، وهي مليئة بكلمات الحب، نابضة بعبارات الإخلاص والوفاء، ولم تكن نقاء تتوانى عن الردّ، فهي تكتب في يوم وصول رسالته إليها وتحدثه أيضاً عن أحوالها، وما يجد في حياتها، كما أنها كانت تحاول أن تبعث فيه بكلماتها العاطفية العذبة، روح المقاومة على الفراق. . . وكانت تقضي أيام الأسبوع وهي تعيش على رسالة إبراهيم، تعيد قراءتها مرة ومرة، وتعد كلماتها بإتقان، ثم تعود لتعد حروفها أيضاً، وعندما كانت تشعر بوحشة ممضة، كانت تقصد المنتزه لترفه عن نفسها في الهواء الطلق. . . وفي مرة كانت تجلس في ركنها المنعزل من المنتزه، وهي منهمكة في مطالعة رواية معربة لفيكتور هيجو، أحسّت أنّ وراءها من يتطلع نحوها، ونحو الكتاب الذي تقرأ فيه، ولكنها رأت أنّ من الحكمة أن لا تلقي بالاً إلى هذا المتطفل أيّاً كان، ولهذا فلم ترفع رأسها عن الكتاب، وفجأة شعرت أنّ كرسياً قد وضع قريباً من الكرسي الذي تجلس عليه، ولم تلتفت كذلك، فقد كانت هذه هي طريقتها دائماً في تجاهل الفضوليين، وبعد برهة وجيزة أقبل الساقي ليسألها إذا كانت تطلب شيئاً،

فرفعت رأسها وقالت: أنها تطلب كأساً من عصير الليمون. وذهب الساقي ليأتي بما طلبت، ولكن صوتاً غريباً ارتفع من الجالس على الكرسي القريب منها، وهو يقول:

- أرى أن الآنسة تفضّل شراب الليمون. . .

فالتفتت نحو مصدر الصوت لترى شاباً قد اتخذ له مجلساً على كرسي هناك، وهالها منه هذه الميوعة التي كانت تبدو واضحة عليه ولم تر بداً من أن تجيب قائلة: نعم. . . ولم تزد على ذلك، وهمّت أن تنهض لتنصرف، ولكنها لاحظت أنها مقيدة أدبياً بانتظار الساقي. فتململت في جلستها وعادت تقرأ، ولكن الرجل المتطفل لم يكن ليهزم بهذه السرعة، ولم يخطر بباله سوى أنها أساليب إغراء، فأردف يقول:

- ما هذا الكتاب الذي استحوذ عليك يا آنسة؟!.

ولم تشأ أن تجيبه، ولكنه كرّر سؤاله ثانية وثالثة. . فلم تر من اللياقة أن تبقى أسئلة المتكررة بدون جواب. . . فأجابته في برودة قائلة:

- إنه «عاصفة وقلب» لهيجو.

ولم يفهم محمود لكلماتها معنى، فهو لم يقرأ أي كتاب لهيجو، بل ولم يكن يعرف أي شيء عن أسلوبه في الكتابة، ولذلك فهو لم يقع في جوابها إلاّ على كلمة «عاصفة وقلب» فأرسل آهة قصيرة ثم قال:

- إن أروع القصص هي قصة القلوب. . . نعم، القلوب الخفاقة بالحب، الناضحة بالوجد، إنّ أقدس شيء في الحياة هو الحب يا آنستي العزيزة.

وأزعجت نقاء هذه الكلمات، وردّت عليه، وكأنّها تحدّث نفسها قائلة:

- إنّ أقدس شيء في الحياة هو المبدأ. وأعزّ شيء هو الدين والعقيدة.

وظنّت أنّها قد تخلّصت بجوابها هذا من مضايقة محدثها المتطفل وأنّه سوف يعرف أنّ أهدافه لن تصيب عندها مرمى، ولكن محمود لم يكن لتهمه هذه الألفاظ، وهو يظنها رياءً وخداعاً، وساءه أن تكون فاتنته قد اختارت أن تلعب معه هذه اللعبة، فتضاحك وهو يقول:

- إنّ الحب والمال هما العنصران الأساسيان في الحياة. . . فلا حبّ بلا مال، ولا مال بلا حب. . . فأنا مثلاً لدي من المال الشيء الكثير ولكني ما زلت أسعى وراء الحب، إن الذهب الذي بين يدي حائر يفتش عمّن يتهاوى على قدميها.

وهنا لم يسع نقاء إلاّ أن تنهض سواء أجاء الساقي أو لم يجيء، فانتفضت واقفة وهي تقول:

- إنّك على خطأ فظيع، فإنّ المال الذي تضعه أنت قبل كل شيء وفوق كلّ شيء، ما هو في الواقع غير خديعة وسراب قد يتلاشى في لمحة عين، فلا يخلف وراءه غير الحسرة والندم. . . ولكن الشيء الوحيد الذي هو فوق كل شيء وقبل كل شيء هو الكرامة. . . نعم كرامة الإنسان. . . ولا تكتسب هذه عن طريق مال أو ثروة. . . ومن يفلس منها فقد أفلس من كلّ شيء. . .

قالت نقاء هذا وأخذت طريقها نحو الخروج. . . ولم ييأس محمود بل زاده هذا اللقاء رغبة واندفاعاً، وتمتم قائلاً وهو يراها تبتعد عنه: حقاً أنها لعنيدة ماكرة، ولكني سوف أعرف كيف أكشفها على حقيقتها. . . ثم نهض وتوجّه نحو الخارج وقرب سيارته نحو باب المنتزه، ثم ترجل منها ووقف إلى جوارها وعيناه شاخصتان إلى الباب. . . فقد كان يعلم أنّ نقاء لم تخرج بعد وقد رآها تدفع ثمن العصير، ثم خرجت فتقدم نحوها خطوات، ولكنها تجاهلته واتجهت إلى الناحية الأخرى، وكاد أن يناديها ليعرض عليها إرجاعها إلى البيت، ولكن شيئاً ما في مشيتها وتجاهلها له منعه من أن يقوم بأي عمل صبياني. . . فتراجع نحو سيارته وهو يقول: إنها رأت السيارة ولا ريب، وسوف يأتي اليوم الذي تطلب هي فيه أن تستقلّها إلى جواري، أما الآن فإنّ عليَّ أن أتبعها لأعرف بيتها الذي تسكن فيه. وكانت نقاء قد توجّهت إلى «الأمانة» واستقلتها، وأسرع محمود بسيارته خلف السيارة التي كانت فيها نقاء، وحرص جدّاً أن لا يفوته تعقبها من بين باقي السيارات، وفي أحد الشوارع وقفت السيارة التي كان يتبعها ونزلت منها نقاء فدلفت إلى أحد البيوت، فأوقف محمود سيارته، ونزل ليرى رقم البيت حتى يسهل التعرّف

عليه فيما بعد، ولكنه فوجىء بلوحة تحمل اسم إحدى الخياطات الشهيرات، فعلم أنها زبون لهذه الخياطة، فشعر بالخيبة ولم يسعه إلاّ أن يعود بسيارته من حيث أتى، وقد كانت نقاء قد خمنت ذلك، ولهذا لم تشأ أن تذهب إلى البيت لئلا يتبعها هذا الرجل الفضولي إلى هناك.

الفصل السادس عشر

رجعت نقاء إلى البيت، وكان في انتظارها هناك رسالة من إبراهيم، أنستها الرجل المتطفل، وكل ما يدور حوله، وأمضت في قراءتها وقتاً طويلاً... فهي كالعادة رسالة مسهبة تشرح كل شيء، وتتناول كل موضوع... وأحسّت نقاء أن إبراهيم لا يزال قريباً منها، فهي لم تفتقد روحه ولم تنقطع عن أفكاره، فهذه رسائله الأسبوعية تنبض بالحياة وتصل بين قلبيهما وفكريهما، ولا تدع لعامل من عوامل الفراق أن يقطع هذه الصلة الروحية... وفي المساء سهرت نقاء مع كتابة رسالة لإبراهيم، ولم تنته منها إلاّ في ساعة متأخرة من الليل، فآوت إلى فراشها وهي تحس بمتعة ونشاط، وكأنها عادت من سهرة كانت تضمها مع إبراهيم... وكان يلذّ لها كثيراً أن تجلس في نهاية كل أسبوع لتحدث إبراهيم في رسالتها عن أسبوعها المنصرم وكل ما جدّ في حياتها خلاله. وفي الصباح ذهبت بنفسها لإبراد الرسالة، فقد كانت تحرص على إنجاز هذه المهمة بنفسها في كلّ أسبوع، وفي أحد الأسابيع توجّهت إلى البريد لتبرد رسالتها الأسبوعية، وفي طريق عودتها عرجت على المنتزه، فقد كان اليوم صحواً والشمس دافئة نقية، ودخلت المنتزه فلاحظت أنه يكاد أن يكون خالياً من الرواد لولا بعض المتنزهين توزعوا في أنحائه البعيدة، ولذلك فلم تشأ نقاء أن تذهب إلى ركن منعزل، فقد كان هدوء المنتزه يوحي بالوحشة، وفكّرت في أن تعود من حيث أتت، ولكنها فطنت أن ذلك سيبدو منها حركة غريبة بعد أن لاحظ دخولها الجالسون، فجلست وهي تشعر بقلق وحيرة ولم تكن تحمل

معها كتاباً في هذه المرة، وجاء الساقي ليسألها عن طلبها فلم تر بدّاً من أن تطلب إليه زجاجة من العصير، وصممت على أن تترك المنتزه قبل أن تشربه، ولكن بعد دفع ثمنه، وفي تلك اللحظة سمعت وراءها صوتاً يقول:

- يا لها من فرصة سعيدة جمعتني بك من مرة.

وكان صاحب الصوت يتقدم حتى واجهها، فرأت إنه ذلك الرجل الفضولي الذي تطفل عليها في المرة السابقة، فسرت رعدة خفيفة في عروقها وهزّت رأسها قائلة:

- لعلّك غلطان يا سيدي، ثم أدارت وجهها عنه.

فقد رأت أفضل طريقة لإزاحة هذا الرجل هو تجاهله التام، ولكنه اتخذ له مجلساً بالقرب منها وضحك وهو يقول:

- لا أظن ذاكرتك ضعيفة إلى هذا الحدّ، أمّا أنا قد انطبعت صورتك على شغاف قلبي منذ النظرة الأولى، وها أنا مستعد لبذل روحي وثروتي التي تعدّ بالملايين في سبيل نظرة واحدة منك يا آنسة!

فانتفضت نقاء غضباً، وهمّت أن تقوم فتنصرف دون أن تردّ عليه، ولكنها خشيت أن يظن فيها الضعف أو ينسب فرارها إلى الخوف فيشجعه ذلك على التعرّض لها فيما بعد، فتمالكت نفسها وقالت:

- الآن ذكرتك يا رجل! فإنّ نعمة المادة التي تشع على كلامك تميزك عن غيرك من الرجال.

ورأى محمود أنّ الفرصة مؤاتية لكي يسترسل في بيان مقدار ثروته فقال:

- نعم، أنا أقرّك على هذا... فقد انصبغت كلماتي بصبغة المال... فالثروة إذا تكاثرت بدت علاماتها واضحة على جميع تصرفات صاحبها.

وودّت نقاء لو ضحكت على هذا الرجل المسكين الذي لا يملك شيئاً غير المال، والذي يعني أنّ المال هو أقوى سلاح، ولكنها لم تشأ أن تضحك أمام هذا الرجل الفضولي، حتى ولا ضحكة استهزاء، وشعرت أنّ لديها ما تقوله

قبل أن تقوم وشعرت أيضاً أنّ عليها أن تقول ذلك لتفهمه أنّ بين بنات الإسلام من لا يغرّها المال، ولا تخدعها الثروة، ولهذا فقد أجابته قائلة:

- من المؤسف حقّاً أن يصطبغ الإنسان بطابع الثروة، وأن تبدو عليه دلائلها في جميع أحواله وتصرفاته، لأنّ ذلك لا يتمّ إلاّ إذا أفقرت شخصيته من جميع العلامات الأخرى.

- إنّ المال الذي يلبس شخصية صاحبة أي لبوس شاء، ويبرزه بأي شكل رغب.

- أبداً فإنّ المال لا يتمكن أن يخلع على صاحبه أي إطار، اللّهمّ سوى إطار الأناقة، وهذا هو أتفه شيء بالنسبة إلى الرجال.

وبحركة لا اختيارية رفع محمود يده نحو شعره الذي كان مصففاً بأحدث طريقة، وكانت خصلات منه تتدلى على جبينه، وقد دهنت وصبغت، في الوقت الذي كان شعره الباقي يقرب من السواد، وكأن كلمات نقاء عن أناقة الرجال وميوعتهم قد أثّرت عليه دون أن يشعر.. وأحسّت نقاء بحركته هذه، فاسترسلت تقول:

إنّ الكرامة مجرّدة قد تجرّ إلى الثروة، والاستقامة وحدها يمكن أن تأتي بالثروة، والشخصية القوية بمفردها ربما ساقت صاحبها إلى المال، ولكن المال وحده لا يتمكن أن يأتي بأيّ ميزة من هذه الميزات.

واستغرب محمود لهجة نقاء الصادقة، وكلماتها المركزة، وعجب أن يبلغ الرياء بهذه الفتاة هذا المبلغ، وتردد لحظة قبل أن يرد قائلاً:

- أنت تتحدثين بأسلوب غريب لا ينطبق وشخصيتك.

وهنا تلكأ محمود قبل أن يردف كلمة شخصيتك بكلمة الفاتنة، ولم يستطع أن يفهم سبباً لهذا التردد، وهو يحدث فتاة معروضة للمساومة حسب ما كان يعتقد... وكادت نقاء أن تنهض بعد هذا الجواب، ولكن دافعاً خفياً كان يشدّها إلى الجلوس ويدعوها إلى أن ترد على هذا الرجل وتجعله يقف بجرأته عند حدّ.. فردّت عليه بنفس لهجتها التهكمية قائلة:

- أنا لا أتحدّث بأي أسلوب غريب، وليس في كلماتي أي معنى جديد، وإنما أنت هو الذي يتحدث بأسلوب غريب عن الرجولة، بعيداً عن العزّة والكرامة، ولا أدري ما الذي يدعوني إلى الرد عليك وكلماتك لا تستحق عندي أي ردّ أو تعليق، ولكن العاطفة الإنسانية هي التي دفعت بي إلى أن أُنبهك من غفلتك، يا سيدي، إنّ الشخص الذي يركز حياته ويبني نجاحه على المال وحده ويعقد مستقبله على تأثير الثروة والغنى يكون ضائعاً لا محالة، فإنّ المواد الأرضية معرضة للفناء مهما عزت وغلت، فلا تظن بعد الآن أنك بما تملك من ثروة تستطيع أن تتطفل على من تشاء وتستحوذ على من تريد. . . أنت واقع تحت تأثير مفهوم خاطىء، بعيد كل البعد عن الحقيقة والواقع.

وما أن أتمت كلماتها هذه حتى وقفت واتجهت نحو باب الخروج، وخلفت محمود وراءها، وقد أخذ بهذا السلوك الغريب من هذه التي كان يحسبها غانية لعوباً.

الفصل السابع عشر

أما سعاد فقد كانت تودّ لو استطلعت من محمود نتيجة فعالياته. . . ولكنها لم تجرأ على ذلك، لا لشيء ولكن لكي لا تلقي في قلب محمود الشك من إرشاده إلى هذه الفتاة، فقد كان عليها أن تتجاهل أن كلامها كان له أي تأثير على محمود، والشيء الذي لاحظته أنّ محمود لم يكن يؤم البيت إلا ساعة أو ساعتين في النهار وعرفت أو أوقاته موزعة بين المنتزه وحدائق الغوطة، وكان منظر سنية وهي غضبى مقطّبة أكبر تسلية لها على تصور محمود، وهو واقع في حبائل نقاء. . . فقد كانت سنية تعيش في هم مقيم، بعد أن انشغل عنها محمود إلى البيت فلاحظت عليه نقاء. . . وفي مرة عاد محمود إلى البيت فلاحظت عليه سعاد أنه حائر مشوش الفكر، وأنه كثيراً ما يشرد بين آونة وأخرى فشاع الاضطراب في نفس سعاد، وخشيت أن يكون محمود قد فشل في محاولاته أو

ضعف أمام عناد نقاء، ولكنها لم تتوصل إلى طريقة تمكنها من فهم الواقع، وبعد كثرة تردد قررت أن تذهب لزيارة نقاء، فاتصلت بها تلفونياً واستوثقت من عدم وجود زوّار لديها ثم استقلّت سيارتها إلى بيت نقاء ولم تخرج نقاء لاستقبالها، بل كلفت الخادمة أن تقودها إلى الصالون، وأخبرت أمها بعزم سعاد على المجيء وطلبت منها أن تحضر، ولكن أمها لم تتمكن أن تجلس مع سعاد أكثر من دقائق، واعتذرت بكونها محمومة ويلزم عليها أن تذهب ألى غرفتها لتستريح، وفوجئت نقاء بعزم أمها على الذهاب إلى غرفتها، وحاولت أن تثنيها عن ذلك، ولكن أمها كانت تظن أنها بحركتها هذه سوف تغضب سعاد وتظهرها على نقمتها عليها وعدم اهتمامها بوجودها.. وسر سعاد خروج خالتها وانفرادها بنقاء، وارتبكت نقاء وحارت ماذا تفعل إذا عادت سعاد إلى كلامها المعهود وهي لا تطيق ذلك مطلقاً، فهي تخشى أن تصدر عنها كلمات تسيء فيها إلى سعاد، ولهذا فقد بدا الارتباك واضحاً عليها... ولاحظت سعاد علائم الاضطراب التي ظهرت على نقاء، فعللت ذلك بتعليل آخر هو أبعد ما يكون عن الواقع... فبدأت تتحدث وكان حديثها يدور حول أذواق الرجال في الجمال، وكلمات الإعجاب التي سبق أن سمعتها من المعجبين... وكيف أن كثيراً من الرجال كانوا يلاحقونها بالمدح والإطراء أينما سارت وأي مكان حلّت فيه...

وكانت سعاد تقصد من ذكرها لهذه الحوادث استدراج نقاء لذكر حوادث مماثلة عسى أن تتوصل إلى معرفة شيء عن موقف محمود معها، ولكن نقاء لم تكن ممن يجرفهن الحديث، فهي لم تعلّق على أحاديث سعاد بأي شيء... ولهذا فقد انصرفت عنها سعاد وهي على ثقة من أنّ محمود قد تمكن من التغرير بنقاء، وإلاّ لكانت حدثتها عنه وعن مغازلته لها.. وحدثت سعاد نفسها قائلة: إنّ نجاح محمود قد أصبح عندي أرجح من فشله، فليس من المعقول أن تقاوم هذه الفتاة الصغيرة إغراء محمود وترفض ثروته وملايينه.

وفي البيت افتقدت سعاد خادمتها سنية، وكانت تفتقدها كثيراً في الأيام الأخيرة، وخمنت أنها في سبيلها إلى التجسس على محمود والتعرّف على

فاتنته الجديدة. . . والواقع أنّ سنية كانت تتعقّب سيدها في أغلب الأيام لترى غريمتها التي سلبته لبّه، وقد شاهدته في أحد الأيام يتحدّث مع نقاء، ولكنها لم تصدّق أنّ هذه الفتاة المحتشمة الوقور هي التي أغرت سيدها وسحرته. . وظنّت أنّ جلوسه معها مجرد مصادفة. ولهذا فقد استمرّت تتعقبه وتتجسس عليه. .

الفصل الثامن عشر

كانت رسائل إبراهيم لا تفتأ تصل إلى نقاء في نهاية كل أسبوع، وكانت جميع رسائله تحمل معها الأمل في إسراعه بالعودة وتقليص مدة الفراق. . وكانت نقاء قد تجنبت الذهاب إلى المنتزه بعد تكرر مصادفة محمود هناك، ولكنها في أحد الأيام أحسّت بحاجتها إلى الترفيه والتنزه، فقصدت إلى حدائق الغوطة وهي على اطمئنان من أنها ستكون في منجاة من تطفل ذاك الرجل الفضولي هناك، فلا بد أنه من رواد ذاك المنتزه بالخصوص، وفي الحدائق لفت نظرها منظر امرأة شابة، مهلهلة الثياب، بادية الشحوب، ذابلة الأجفان، وهي تحمل على يدها طفلاً لا تكاد ملابسه الممزقة تستر جسمه الهزيل، وكان منظر هذه المرأة يجسد البؤس والفاقة في أجلى مظاهرهما، وهي تدور على الجالسين تستدر عطفهم ليجودوا عليها ببعض النقود. . . وعندما لاحظت نقاء أنها تتقدم نحوها سارعت إلى فتح حقيبتها لتخرج منها ما تعطيه لهذه المسكينة قبل أن تسأل منها ذلك، وأخرجت منها بضع دراهم وهي على عجل وارتباك، فقد أثر عليها منظر تلك المنكودة ومدّت إليها يدها بالمال، وأشاعت هذه البادرة من نقاء الغبطة على وجه المرأة المسكينة ورفعت رأسها إلى السماء وكأنها تدعو لنقاء، ثم تركتها لتكمل دورتها في أنحاء الحديقة. وأطرقت نقاء برأسها وهي تفكر في البؤس الذي كان يشمل هذه الأيام المنكودة، ولكنها انتهت من إطراقتها على صوت رجل يقول:

- كم أنت كريمة يا آنسة؟ هل كانت هذه البائسة تستحق أكثر من بضعة قروش؟!.

فاستدارت نحو الصوت لترى محمود... وأفزعها أن يكون هذا الرجل قد لاحقها إلى هناك... وعلت وجهها صفرة باهتة ولأول مرة شعرت بالخوف، فقد كانت تعلل لقاءه لها في المنتزه بمجرد مصادفة، ولكن الآن... وتلفتت حولها كأنها تريد أن تستنجد بأحد.. ولكنها اطمأنت إلى حدّ ما.. حينما رأت أنّ الحديقة مليئة بالروّاد وإنها ليست وحدها أمام هذا الملحاح... فانتفضت واقفة وقالت بصوت قوي لثقتها بنفسها:

- أما احتفظت بنصيحتك لنفسك، وهلاّ عرفت أنك تتطفل بأسلوب رخيص؟!

وهنا صمم محمود أن يخرج من التلميح إلى التصريح، وأن ينهي هذه المناورات المملة، فقد أعياه التردد والشك فقال:

. أنا لا أتطفل مطلقاً، وإنما أنا في الواقع...

وأراد أن يقول: «أساوم»، ولكن نطرات نقاء الملتهبة منعته من إتمام جملته، فردد قائلاً:

- في الواقع... في الواقع...

فصاحت به نقاء قائلة:

إذاً فماذا تسمي فضولك هذا يا رجل؟ أنت رجل غريب لا أعرف عنك حتى اسمك... فكيف تسمح لنفسك أن تتدخل في شؤوني الخاصة؟!

ولكني... أعرف...

ومرة أخرى لم يستطيع أن يكمل جملته، فقد كان ينوي أن يقول: لكني أعرف عنك كل شيء... ولكن منظر نقاء وهي في ثورتها تلك، جعلته لا يجرؤ على التصريح، فسكت أيضاً... وأحسّت نقاء أنّ عليها أن لا تدع هذا الرجل قبل أن تلقنه درساً لا ينساه، فصرخت به قائلة:

- ما لك لا تستطيع أن تتكلم؟ أو ليس المال قادراً أن يطلق عقدة لسانك؟!

الويل لك من الدرك الذي أنزلك المال إليه . . . ارجع إلى نفسك، وأنقذها قبل فوات الأوان، فلعلّ هناك في صميم روحك نقطة من خير . . . حاول أن تنحي بريق الذهب من أمام عينك، لترى الحياة الحرّة الشريفة كيف تكون . . .

فخفض محمود رأسه وقال :

- أنا مستعد لتحقيق جميع شروطك وإنجاز كل رغبتك، فإنّ ثروتي تفوق ثروات الآخرين بمراتب . . .

وصعقت نقاء لهذه الكلمات، ولم يسعها إلاّ أن تصرخ فيه :

- يا لك من رجل . . مع من تظن أنّك تتكلّم؟ وأي فكرة شيطانية أوحت إليك بذلك؟ كنت آمل في إصلاحك أول الأمر، أما الآن فإنّك لست أهلاً للإصلاح، فاذهب إلى حيث يقودك شيطانك، ولكن شخص طريقك جيداً بعد الآن، وفي المرّات اللاحقة، فوربي لولا هذه المسكينة التي أرى خاتم خطوبتها حول أصبعك لسلّمتك الآن إلى أيدي الشرطة، ولكن تلك المسكينة ما ذنبها إذا كان زوجها أحد ذئاب البشر ! ! ولهذا فأنا لا أريد أن أسبب لها فضيحة . . .

وتهدج صوت نقاء فلم تستطيع أن تتكلم أكثر من ذلك، فاستدارت، وتوجّهت نحو باب الخروج .

أما محمود فقد غيّر مجلسه وجلس في الطرف الآخر من الحديقة، ولكنه لاحظ أنّ المرأة المنكودة التي كانت تستعطي قد توقفت قليلاً أمام الكرسي الذي تجلس عليه نقاء، ثم انحنت والتقطت شيئاً من الأرض وأخفته في قبضة يدها، فرأى أن الفرصة قد واتته للاحتكاك بنقاء مرة أخرى . نهض من مجلسه نحو المرأة المسكينة وهو يصرخ فيها قائلاً :

- دعي ما أخذتيه يا سارقة .

وحاولت المسكينة أن تفترّ، ولكن صوت محمود كان قد جمع حولها جمعاً من الناس، وفتح محمود يدها عنوة ليجد فيها قرطاً من الماس الثمين، فالتفت الساقي وهو يقول :

- إسرع باستدعاء الآنسة التي كانت تجلس هناك، فإنّ هذا القرط يعود إليها بلا شك.

وأسرع الساقي لاستدعاء نقاء، فجاءت لترى المرأة المنكودة وقد أحيطت بعشرات من الناس وهم يوزعون عليها الشتائم والسباب ويحاولون أخذها إلى مركز الشرطة، واتجهت نظرات المرأة المسكينة نحو نقاء، وهي تعلم أنّ القرط يعود إليها، ولذلك فقد قرأت نقاء في نظراتها معنى الاسترحام والخوف والاستعطاف، وكانت المنكودة ترتعد كريشة في مهبّ الريح، حتى أنّها لم تعد تتمكن من إمساك طفلها، فتعلّق بعنقها وهو يضجّ بالبكاء، فتساءلت نقاء: ما الخبر؟... فارتفعت الأصوات وهي تردد: إنّها سارقة، سرقت قرطك الماسي. فتقدمت نقاء نحو المرأة، وكانت لا تزال متمسكة بالقرط في قبضة يدها، فأمسكت بيدها في لطف وقالت بنغمة عذبة رقيقة:

- أرني القرط يا أختاه.

ولم يسع المرأة أن تمتنع أمام لهجة نقاء العاطفية ففتحت يدها وألقت نظرة على القرط ثم رفعت رأسها وقالت:

- إنه كان قرطي ولكني أعطيته لها، فهي ليست سارقة أبداً.

فظهرت علامات الدهشة على المجتمعين. وكانت يد المرأة المسكينة لا تزال مفتوحة وفيها أحد القرطين، فعادت نقاء وأطبقت يدها على القرط وقالت:

- إنه ملكك يا أختاه، فتعالي واخرجي من الحديقة.

فتهاوت المسكينة على أقدام نقاء تريد أن تبللها بدموع الندم والشكر، ولكن نقاء أنهضتها وهي تقول:

قومي يا أختاه، أنا لم أقم إلاّ بأقل الواجب، لم يكن لدي ما أقدمه لك فقدمت قرطي، هيا واتركي المحل يا أختاه.

ثم أخذت بيدها وجرتها نحو الباب، والجميع يتابعونها بنظرات الاستغراب.

أما محمود فقد تبعها بنفسه، وهو لا يكاد يصدق ما رآه، وفي خارج الحديقة أبصر نقاء تجرّ المرأة المسكينة إلى ركن في الشارع، وتخرج القرط الثاني من

حقيبتها وتقدمه لها، وهي تتكلم بكلام لم يتمكن أن يسمعه، ولكنه رأى ابتسامة ملائكية كانت تلوح على وجه نقاء وهي تفعل ذلك، ثم رآها تهزّ يد المرأة مصافحة قبل أن تستقل «الأمانة». . . وذهل محمود وكاد يظن أنه في حلم، فهو لا يصدّق أن فتاة تعرض نفسها للمساومة، تقف هذا الموقف النبيل، وإن المرأة التي تتصيد المال تتنازل عن قرطيها الماسيين بهذه السهولة وبدافع من الرحمة.

واستقلّ سيارته وهو غارق في خضم الأفكار، وكانت أفكاره مشوشة مختلطة، وفي البيت أغلق عليه باب غرفته لكي لا يكدر تفكيره أحد، وأخذ يراجع تصرفات نقاء ويستعيد كلماتها وعباراتها وتمثل لهجتها الصادقة وأسلوبها الواضح المستقيم، وتذكر نظراتها النارية وصوتها المتهدج. . . ولم يسعه بعد ذلك إلاّ أن يعترف بأنّ هذه أمور لا يمكن أن تكون مصطنعة أو مزيفة، ولا بد أن يكون قد وقع هو نفسه في خطأ فظيع. . .

ولم يتمكن محمود أن يصرف فكره عن حادثة القرط، فقد قلبت هذه الحادثة مفاهيمه، وفتحت أمامه آفاقاً جديدة لم يكن يعرفها أو يعترف بوجودها أيضاً. . وشعر أنّ في الحياة معان سامية كانت خافية عليه. . وإن في هذه المعاني روعة لا متناهية، تفوق جميع ما صادفه في حياته من روائع مصطنعة وأحسّ بالوضاعة وهو يتمثل موقفه من الفتاة، وهو يحشو كلماته الجوفاء بذكر الثروة والمال، في الوقت الذي لا يهمها فيه أن تتنازل عن قرطيها الماسيين في سبيل التستر على امرأة فقيرة منكودة، وتذكر الابتسامة الملائكية التي كانت مطبوعة على وجهها وهي تسلم القرط الثاني. . . فردد يحدث نفسه قائلاً: حقّاً لست أنا غير رجل تافه في الحياة. . . ما أحلى أن يشعر الإنسان بشعور الخير، ويحسّ بلذة عمل المعروف. . . فهو لم يكن يظن قبل الآن أنّ لأمثال هذه الفتاة وجوداً واقعياً، وكان يعتقد أنّ الخير والفضيلة ليس لهما وجود إلاّ في أذهان المفكرين. . . ولسيت سوى مفاهيم خيالية لا يمكن لها أن تظهر إلى حيّز الوجود. . .

الفصل التاسع عشر

عادت نقاء إلى البيت ولم تشأ أن تحدث أمها عن حادثة القرط، لئلا تأسف على ذلك، ولكنها كتبت عن الحادثة بإسهاب في رسالتها الأسبوعية إلى إبراهيم. وجاء جواب إبراهيم مليئاً بالمدح والتشجيع، وقد ذكر في آخر رسالته: أنه سوف يبتاع لها قرطاً أثمن منه.. ومضت أسابيع ثلاثة كانت كفيلة بطمس معالم حادثة القرط والرجل الفضولي من ذهن نقاء، ولم تكن سعاد قد اتصلت بها خلال هذه الأسابيع...

وفي أحد الأيام اقترح والد نقاء على ابنته أن تصحبه إلى أحد المنتزهات، فلم تر بداً من إجابة طلبه، ولم يهمها تعيين المكان الذي يذهبان إليه ما دامت مع أبيها، وقد اختار منتزه الجمهورية فوافقته على ذلك، ولكنها عندما دخلت المنتزه رأت أنّ عليها أن تنفرد عن أبيها، فقد كان المنتزه يعجّ بالروّاد، وقد صادف أبوها كثيراً من أصدقائه وأصحابه، ولم تشأ أن تفصل أباها عن أصدقائه، فاعتذرت منه، وذهبت إلى ركن منعزل، ولكنها أحسّت بوحشة، لانفرادها هناك على خلاف عادتها، فقد بعثت حادثة ذلك الرجل المتطفل الرعب في قلبها وجعلتها لا تطمئن إلى الانفراد، ولذلك فقد صممت على أن تنهض من مجلهسا المنعزل وتتخذ لها مجلساً هو أقرب للمجتمع من هذا المجلس النائي، وفعلاً فقد نهضت واتجهت نحو قلب المنتزه، غير أنّ صوتاً خافتاً تردد في أذنيها قائلاً:

- من فضلك يا سيدتي كلمة واحدة لا غير.

ولم تتمكن نقاء أن تعرف صاحب الصوت، فتوقفت عن السير والتفتت لترى من الذي يخاطبها، فأبصرت محمود وهو واقف على بعد أمتار منها فاستدارت بعنف ولم ترد عليه ولكن صوته لاحقها متوسلاً:

- كلمة واحدة يا سيدتي! أنا آسف جداً.. من فضلك لحظة واحدة...

واستمرّت نقاء تسير دون أن تلتفت إليه، ولكنها شعرت أنّه يتبعها وهو يردد:

- أنك ملاك طاهر يا سيدتي، فلا تغلقي طريق الخير من أمامي. . لا تتجاهليني لكي لا يخفت بصيص النور الذي أشرق على جنبات روحي. . . كلمة واحدة لا غير. .

فرأت نقاء أنّ عليها أن تقف، فمحدثها مندفع وراءها لا يريم وهي لا تريد أن تجرّه إلى حيث يجلس أبوها وأصحابه. . . فتوقفت والتفتت نحوه قائلة:

- يا لك من ملحاح. . .

ولكنها لم تكد تراه حتى استغربت منه علامات الندم التي كانت تلوح عليه. . . كما أنّها كانت قد استغربت عباراته المهذبة. . . فردد محمود قائلاً:

- أنا آسف يا سيدتي. . فقد أوقعوني في غلطة لن أغفرها لنفسي أبد الدهر، أنت لا تعلمين الآلام التي قاسيتها. . وكان أملي كله منوطاً برؤيتك وطلب العفو منك، فهل تمنين عليَّ بذلك؟.

وتفحصته نقاء بعقلها ملياً ورأت دلائل الصدق واضحة على قسمات وجهه فردّت عليه قائلة:

- أما بالنسبة لي فقد غفرت لك يا سيدي فأنا لا أغضب على أمثالك من الرجال. . ولكن أرثي لهم من صميم قلبي، والرثاء لا يوجب النقمة ولكن. .

- ولكن ماذا؟ قولي بالله عليك كلمة أخرى مهما كانت. . . فأنا على استعداد لسماع كل شيء.

- أقصد أنك يجب أن تطلب العفو من ربك أولاً، ومن روحك ثانياً. . . فالروح عنصر طاهر كان يمكن لها أن تكون في أهاب تسمو فيه على الملايين من البشر، ولكنك ظلمتها وأسرتها بين جدران جسمك الذي لم يجلب لها سوى العار، فالروح لا يهمها المال ولا تعنيها الثروة ولا تهوى غير العزّة والكرامة. . هذه هي روحك التي لم تتجه نحوها بعد، فقد ألهاك الجسد الفاني عنها وغرّك المال المتلاشي عن إجابة طلباتها، ولهذا فإنّ عليك أولاً أن تتجه إلى روحك فترضيها وتستغفر منها كل ما مضى. . عند ذلك فقط سوف تشعر براحة التوبة. . ثم ما الذي دعاك إلى الندم؟.

- الندم. . . فقد رأيتك في ذلك اليوم وأنت تتنازلين عن قرطيك الماسيين لا لشيء إلاّ للستر على المرأة المسكينة، وبدافع من الرحمة والإحسان، فما شككت يومها أنك ملاك طاهر في صورة إنسان.

وتذكرت نقاء حادثة القرط فابتسمت وقالت:

- لم يكن الأمر مهماً إلى هذا الحد، فقد كان من واجبي كامرأة وكمسلمة وكبشر أن أفعل ذلك.

وجمدت عينا محمود على فم نقاء وهي تتكلم، ثم شعر أنها في سبيلها للانصراف. . فعزّ عليه ذلك وودّ لو استمرّت تتكلم واستمرّ هو يستمع فقال:

- أنا أجهل طريقي إلى روحي فلم يسبق لي أن توصلت إليها من قريب أو بعيد، فقد أعمتني سطوة الجسد عن كل شيء!.

- إنه طريق واضح لا يكلفك سوى تجاهل سلطان المال والجسد عليك.

- أنت ترينه واضحاً بلا ريب، ولكني أنا الذي لم أعرف طيلة حياتي سوى إطاره، أنّى لي أن أتعرّف إلى الروح، وأن أصل إلى واقعها في الحياة!.

- أنت تشعرني بأنك لست بعيداً عن الحقيقة. . . البعد الذي تتخيله أنت، راجع نفسك مرة أخرى لترى أنك قريب منها وقريب جداً. . .

- وكيف لي أن أراجع نفسي وقد طمستها يد النزوات والهفوات؟!.

- النزوات مهما كانت لا تتعدى أن تكون نزوة عابرة، والهفوات وإن عظمت ما هي إلاّ أحداث مندثرة ولكن روحك لا تطمس ولا تختفي أبداً.

- إذن أنت تظنين أنّ من الممكن إصلاح نفسي وتهذيبها.

- طبعاً وبسهولة جداً، فإن عوامل الشرّ عوامل سطحية ولكن عوامل الخير ثابتة راسخة في الأعماق.

- هذا إذا كانت عوامل الخير موجودة لدي. . .ك

- إنّ لكل إنسان عوامل خير وعوامل شرّ، والشخص هو الذي يظهر إحدى العوامل ويخفي الأخرى، ولهذا فهو يتمكن إذا أراد أن يرجع إلى أعماقه ليبرز

العوامل الأخرى إلى حيّز الوجود، فقد اتفق أن انقلب الفاسق قديساً، والقديس فاسقاً.

- أحقّاً يمكن ذلك؟!.

- أنا واثقة من إمكان ذلك بالنسبة إليك، فحاول لترى أنك لن تعجز عنه مطلقاً.

- وكيف أحاول ذلك؟ أنا ضائع في خضم الأخطاء!.

وهنا أحسّت نقاء بأن وقوفها قد طال أكثر ما ينبغي... ولكن دافع الخير كان يدعوها أن لا تترك هذا الرجل الذي يقف على عتبات التوبة. وترددت لحظة بين الواجب الديني والآداب الاجتماعية، ولكن صوت محدثها كان يصلها قائلاً في تضرّع:

- نعم أنا ضائع في خضم الخطايا ولست أرى طريقي منها فهل لك أن ترشديني إليه؟..

وتغلب على نقاء واجبها الديني، فأسندت ظهرها إلى جذع شجرة وقالت:

- إنّ الأخطاء تمحى بالندم، والخطايا تغفر بالتوبة، فأنت إذا راجعت ماضيك واستشعرت الأسف على ما صدر منك وودت صادقاً لو لم تفعل ما فعلت كنت في مستقبلك وكأنك لم تأت بشيء، فإنّ التائب النادم يكون كمن ولدته أمّه.

- ولكن ثروتي تغرّني بالانحراف.

- أبداً... فالثروة قد تصبح أداة للإستقامة، وقد تكون وسيلة للخير والصلاح إذا كان لديك ما يساعدها على ذلك من كرامة واستقامة، أنت سوف تستشعر لثروتك بلذة لم تكن تستشعرها من قبل، فثروتك قبل اليوم كانت كل بضاعتك في الحياة، وإذا شعر الإنسان أنّ كيانه متركز على شيء واحد في الحياة، خالط سعادته بذلك الشيء عوامل كثيرة من الحرص والخوف عليه... ولكن الثروة إذا كانت عاملاً ثانوياً وكانت شخصية الإنسان متركزة على أشياء أخرى غير المال، شعر صاحب المال أنّ ثروته نعمة إضافية من حقّه أن يسعد فيها وينعم.

- سكتت نقاء، ولكن محمود استزادها قائلاً:

- أنت تتكلمين بأسلوب رائع لم يسبق لي أن سمعته من قبل!...

- ولكنك تتمكن أن تسمعه فيما بعد، فالدنيا تزخر بالأساليب الرائعة من الكلام، وبالمعاني السامية في التعبير، أنا لست إلاّ واحدة من ملايين، وليست كلماتي سوى نغمة من بين آلاف النغمات الطاهرة العذبة.

- وأين أتمكن أن أجد بعض هؤلاء؟!.

- إنهم في كلّ مكان، ولا يخلو منهم مكان، ولكنك لم تكن لتتمكن من التعرّف عليهم قبل اليوم، فقد كنت في سكرة تحت سطوة الجسد والمال، فإنّ عوامل الخير أوفر بكثير من عوامل الشرّ، والصلاح أقوى في العالم من الفساد.

وردد محمود نفس كلماتها قائلاً:

- عوامل الخير أوفر من عوامل الشرّ، والصلاح أقوى من الفساد.

وأردفت نقاء تقول:

- نعم وبكل تأكيد، فما عليك إلاّ أن تتجه نحو الخير لترى منبعه الرقراق ومعينه الصافي المتدفق.

وأطرق محمود برأسه وكأنه يفكّر، واغتنمت نقاء فرصة سكوته فتحرّكت وهي تقول:

- سوف أتركك إلى روحك، لتحاول أن تفتش فيها عن عوامل الخير المكبوتة، ولي وطيد الأمل في أنّك سوف تفعل ذلك بلا ريب، وأما أنا فأستودعك الله.

ورفع محمود رأسه ليرى نقاء وقد استدارت وتوجّهت نحو وسط المنتزه فردد قائلاً:

- في أمان الله...

الفصل العشرون

رجع محمود إلى داره وهو يتلذذ بيقظة إنسانيته. . . حقّاً أنه كان يشعر بالندم منذ اللقاء الأخير مع نقاء، وحقّاً أنه تعذّب كثيراً قبل أن يراها ويطلب منها العفو، وحقّاً أنه طيلة أسابيع ثلاثة كان منصرفاً عن مجونه وعبثه. . يفكر في الفتاة التي أساء إليها إساءة فظيعة قبل أن يعرف أنها ملاك طاهر وروح عذبة. . ولكنه في ذلك اليوم كان يحسّ بشعور لم يحسّه من قبل، وكان يستعيد كلمات نقاء في ذهنه دون أن يتعمّد ذلك، وكان كمن أخذ يستيقظ من سبات عميق. . . وودّ لو طال به المقام مع نقاء فقد حسسته بأفكارها وآرائها. . . وأرق في تلك الليلة وهو يقلّب في ذهنه ما قالته. . . ويحاول أن يركّز أفكاره عند كل نقطة من كلماتها وألفاظها، وشعر أنه مدين نحو تلك الفتاة بهذا النور الذي أخذ يضيء جنبات روحه، ففتش في جوانب قلبه: هل أنه يعشق تلك الفتاة أو يهواها؟ ولكنه لم يجد للعشق في قلبه أثراً، فالشعور الوحيد الذي يحسّه نحوها هو شعور الإكبار والإعجاب فهو يودّ لو رآها مرّات أخرى ولكن لا على حساب العشق والمتعة، بل لأجل أن يستمدّ منها قوّة وعزيمة. . وصمم على أن يستمر بتردده على المنتزه والحديقة حتى يعود فيلقاها ثانية.

وفي الصباح لم يبرح محمود غرفته مطلقاً ولم يسمح لأحد بالدخول عليه، فقد كان يعيش في دوامة من الأفكار المتضاربة، وقد أخذ يستعيد في فكره جميع مراحل حياته، ويذكر ما الذي جناه من سلوكه وطريقته في الحياة، وهاله أن يرى أنه لم يحصل على شيء سوى المال، وحتى المال فلم يحصل عليه هو بنفسه أيضاً فقد ورثه عن أبيه وها هو قد بدّد نصفه في مدة عشر سنوات، وفكّر في حاله بعد عشر سنين، وبعد أن يبدد جميع أمواله على ملذاته وشهواته، فما الذي سوف يتبقى لديه. . . وراح يعدد في ذهنه كل ما قد يجنيه المرء في الحياة من العزة والكرامة والجاه والذكر الطيّب والصديق الوفي والزوجة المخلصة. وكان جوابه عن كل هذه الأمور لا شيء، فهو يعلم أنّ أصدقاءه لن يحاولوا النظر إلى وجهه إذا أفلس من المال، وإن مكانته في المجتمع قد انعدمت

تماماً، بعد أن اعتزله وسط شلة من المنحرفين، وإن كرامته قد أريقت على مذبح الشهوات، وحتى زوجته، فهي لن تقيم معه يوماً واحداً إذا تلاشت ثروته. . . وهاله أنه توصل إلى هذه الحقيقة، وآلمه أن تكون سعادته منوطة بالمال حتى في حياته الزوجية، فهو يعلم أنّ سعاد لا تحمل له في قلبها أي عاطفة، ولا يشدها إليه إلاّ المال. . . ووَدّ لو استطاع أن يهرب من هذه الأفكار وأن يعود إلى غفلته الأولى التي كان سادراً فيها منذ سنوات، ولكن مفاهيم نقاء وأفكارها كانت مسيطرة عليه بصورة لم تكن تمكنه من الفرار، فهو كان يجهل قبل اليوم أن دنياه التي يعيش فيها تعمر بأمثال هذه الروحيات التي رأى عليها الفتاة، أمّا الآن وقد وجد أمامه ما كان يظنه مثالياً أو أسطورياً، فما عليه إلاّ أن يكونه، فالأعمى الذي يرتدّ إليه بصره، عليه أن يعمل نظره ولا يركن إلى الظلام الذي كان يطبق عينيه من قبل، وعجب أن تكون أفكاراً وليدة في ذهنه تتمكن أن تصارع أفكاراً عاش معها سنوات، ولكنه عاد يقول: أنه منذ الآن بدأ يفكر. . أمّا ماضيه فقد كان خلواً من الفكر، كان سطحياً، لا يستند إلى جذور. . . وشعر بحاجة ماسة إلى لقاء الفتاة مرة أخرى، فهو يشعر بضيعته وسط مختلف التيارات، ووَدّ لو عرف من تكون تلك الفتاة ليقصد بيتها، ويستزيدها من الكلام. . . وفجأة فكّر في سعاد، وفي السبب الذي دعاها أن تخدعه على هذه الصورة، وتدفع به نحو هذه الفتاة الطاهرة، ولم يتمكن أن يفهم لذلك سبباً، أو يأتي بتبرير معقول، سوى أنّ بعض مشاعر الحقد هي التي دفعتها إلى ذلك، وعجب أن تحقد سعاد على تلك الفتاة وليست هي ممن يعيشون حياتها أو يرتادون مجتمعها، ولكنه عاد ليقول: إنّ أحقاد سعاد لا تقف عند حدّ، ولا تقتصر على أشخاص معدودين. . . ولذّ له أن يتخيّل سعاد وهي تتحرّق شوقاً لفهم النتيجة، ولكنها لا تتمكن من السؤال، وصمم على أن لا يدعها تتوصل إلى معرفة أي شيء مهما حاولت ذلك، وفعلاً فقد غلف وجهه بغلاف لم تتمكن سعاد أن تصل من ورائه إلى الحقيقة، وحاولت مراراً أن تستدرجه إلى الكلام، ولكنه كان يروغ عن الحديث، وقد أعجبه صموده هذا

أمام سعاد، فلم يكن ليعهد بنفسه المقدرة على ذلك من قبل. وآمل أنه سوف يتمكن أن يثبت كيانه الخاص أمامها في الحياة.

الفصل الحادي والعشرون

رجعت نقاء إلى البيت وهي تشعر براحة نفسية، وتحسّ أنها قد أدّت واجبها الديني والأدبي تجاه ذلك الرجل، وفي تلك الليلة كتبت إلى إبراهيم تفصيل الحادث وموقفها من الرجل الغريب، وجاءها الجواب من إبراهيم وكان يمتدح فيه موقفها الشريف الواضح، وقد كتب لها قائلاً: «ألم أقل لك أنك تتمكنين أن تجاهدي يا نقاء! ألم أقل لك أنّ الجهاد ليس وقفاً على الحروب فقط؟ فامضي في جهادك يا عزيزتي! مكللة بالغار، مجللة بأبراد العفة والفضيلة. . . » وزاد هذا الجواب ثقة نقاء بنفسها، واطمئنانها إلى سلوكها.

وفي مرة خرجت من البيت، قاصدة زيارة خالة إبراهيم، فقد كانت تكثر من التردد عليها في أيام غيبة إبراهيم، ووصلت نقاء إلى باب الدار وقرعت الجرس مراراً دون أن يرد عليها أحد، واستغربت أن تكون خالتها قد خرجت من الدار وهي لا تخرج إلاّ لماماً، فانتظرت لحظة ثم أعادت قرع الجرس، وفي هذه المرة سمعت صوت حركة في الداخل، وفي اللحظة التي كانت تفتح فيها الباب، برزت من جانب الشارع سيارة محمود، ولكن نقاء لم تنتبه لذلك وأسرعت إلى الدخول، أما محمود فقد أبصر بها لأول وهلة وصمم على أن لا يبرح الشارع، حتى تخرج مرة أخرى، سواء كان هذا بيتها أو كانت زائرة فيه، وأطالت نقاء جلوسها هناك، وفي تمام الساعة الثانية عشرة انصرفت من بيت خالتها ووقفت على رصيف الشارع تنتظر سيارة تقلها إلى البيت وفجأة وقفت أمامها سيارة نزل منها محمود، وراعها التغيّر الذي طرأ على هذا الرجل، فقد كان يرتدي بدلة زرقاء غامقة لا يزينها أي شيء وشعره مردوداً إلى الوراء

بساطة، كما أن الخصلات التي كانت تتدلى على جبينه قد اختفت. . . وتأخرت نقاء خطوات. . ولكن محمود قال بصوت هادىء رصين:

- عفوك يا سيدتي! إذا كنت قد أزعجتك برؤيتي، لا تظني أني سوف أحاول أن أدعوك إلى الركوب معي في سيارتي، أو أعرض عليك إيصالك إلى البيت، أبداً. . . لن أقوم بشيء من هذا، فأنا أعلم أنك سوف لن تلوثي طهرك بمصاحبتي. . . ولكن أريد أن أحدثك فقط. . .

وأسعد نقاء أن تجد هذا الرجل المغرور المتغطرس الذي لم يكن يتكلّم إلاّ عن الثروة والمال وقد عاد إنساناً مهذباً ينطق صوته عن الصدق والإخلاص، واحتارت ماذا تفعل. . . ولم تر بدّاً من أن تقول:

- وأي حديث تريد أن تحدثني به يا سيدي؟!.

فتردد محمود لحظة ثم أجاب:

- أنا أخطأت التعبير، فأنا لا أريد أن أتحدث. . . ولكن أريد أن أستمع، فقد كان لكلماتك الماضية أعظم الأثر في روحي وفكري. نعم، روحي التي وجدتها أخيراً.

- وعلى أي حال وجدت روحك يا سيدي. . أي شيء كانت تدعوك إليه؟

- إلى الخير والصلاح، وإلى انتشالي من حضيض الرذيلة وتجنيبي خطر الانحراف.

- ألم أقل لك أن روحك خيرة؟. . . وأنك كنت تظلمها في الماضي.

- ليتني أكون على ثقة من ذلك.

- إن هذه المشاعر التي تحسها هي الدليل على ذلك.

وبدا وجه محمود وكأنه وجه طالب يؤدي الامتحان لأول مرة، وتردد مدة ثم تمتم قائلاً:

- ولكنني ضائع لا محالة. .

- ولماذا تظن ذلك وتفكر فيه؟! أنت الآن أبعد ما تكون عن الضياع.. فأنت منذ الآن موجود كما لم توجد من قبل، إنّ حياتك الواقعية ابتدأت منذ وقعت على حقيقة روحك بين مختلف التيارات، أنت لم تكن لتحيى في الواقع من قبل، ولكن أموالك هي التي كانت تحيا وتحييك معها، أما الآن فسوف تحيى أنت لا لتحيى الثروة وتعيش لتتصرف فيها لا لتتصرف هي فيك، أنت واقف على أبواب الحياة الواقعية لا الحياة المزيفة الضائعة.

وهنا مرّت سيارة «الأمانة» فحاولت نقاء أن تركب فيها ولكن محمود توسّل إليها قائلاً:

- لا، ليس الآن... لا زلت أطلب المزيد، أنا بعيد العهد عن الحياة الحرّة الكريمة، غريق بمهاوي الضلال والفساد وأخشى أن لا تهبني هذه الكلمات القصار، الصمود الكافي الذي أحتاجه في هذا الصراع.

فرأت نقاء أنّ عليها أن تجيبه إلى طلبه، وإلاّ فستكون هي المتجنية عليه فقالت:

- أنت الآن قد اتجهت إلى الخير وتطلعت إلى أفق الكمال، فما عليك إلاّ أن تقرأ الكتب المهذبة للروح والفكر والعقيدة.

- أرشديني إليها فأنا لا أعرف عن الكتب والكتّاب شيئاً؟.

فأخذت نقاء تعدُّ له أسماء بعض الكتب، وأرشدته إلى تتبع نتاج بعض الكتّاب وظنّت أن مهمتها قد انتهت ولكنه قال:

- ألا يمكن لي أن أعرف من يكون ملاكي الهادي لك أفزع نحوه عند كل مشكلة؟ فحياتي معقدة مليئة بالمشاكل والآلام ولن أتمكن أن أسيرها كما أريد بسهولة.

فضحكت نقاء ضحكة قصيرة ثم هزّت رأسها وهي تقول:

- أما هذا فلا...

- ولكن...

- ولكن ماذا؟!.

- أقصد أنّ شعوري نحوك لا يتعدّى شعور الغريق نحو المنقذ، والمريض نحو الطبيب، أنا أنظر إليك كإشعاعة من رحمة أشرقت على جنبات روحي، فهلاً أرشدتيني إلى مطلع ذلك النور؟.

ومرة أخرى هزّت رأسها بإصرار وقالت:

- لا، إنّ هذا لن يكون. . .

- ولماذا؟!.

- أنا واثق من هذا، ولكن عندي ما أقوله لك. . .

- أي شيء مثلاً؟.

- مشاكلي الخاصة لا تتسع لنقلها وقفة على جانب الطريق.

- أنا آسفة، ولكن ما في اليد حيلة.

- وأخيراً؟.

- لا شيء. . .

- إذن فما الذي عليَّ أن أعمل؟.

- إقرأ الكتب التي دللتك عليها، فإنّ فيها أكبر غذاء روحي، يغنيك عن كل شيء. . .

- وفي هذه اللحظة مرّة «الأمانة» فركبت فيها متوجهة نحو البيت. . . ووقف محمود يتابع سيارتها بنظره حتى اختفت في منعطف الطريق، وعجب لنفسه كيف لم يحاول اللحاق بها في سيارته ليتعرّف على بيتها ويعرف من تكون، ولكن عاملاً غريباً منعه من ذلك وتساءل في حيرة: هل هذا الذي يعبر عنه بالشهامة أو الكرامة؟.

وعلى كل حال فقد استقلّ سيارته، وتوجه إلى سوق الكتب وحرص على أن يشتري كل كتاب ذكرته له نقاء، ومؤلفات الكتّاب الذين عدّدت أسماءهم. . . ورجع إلي البيت وهو محمّل بأنواع الكتب. . . ورأته سعاد من نافذتها وهو يدخل الدار، وقد حمل في كلتا يديه لفافات ثقال، وفكّرت ما عسى أن تكون

هذه اللفافات؟ . . . وخطر لها كل شيء عدا الكتب. وكانت قد لاحظت على زوجها تغييراً كلياً في الأيام الأخيرة، وركوناً إلى العزلة والانفراد، فلم يشهد ضمن هذه المدة أي احتفال، بل ولم يذهب إلى أي مسرح من المسارح، وكان دائم التفكير، طويل الشرود، ولم تتمكن سعاد أن تفهم لذلك سبباً فهي حتى ولو افترضت أن محمود قد فشل في محاولاته مع نقاء. . . لم تكن ترى أنّ فشله يستوجب منه هذا التغيير الفجائي، فطالما فشل في غزواته الغرامية من قبل، وخطر لها أنّه عاشق. . . ولعلّ التي يعشقها هي نقاء. ولكنها عادت فاستبعدت أن يعشق محمود وهي تعهده سطحياً في جميع الأمور. . .

وفي مرة استدعت سنية وكانت الأخيرة قد نحلت وظهر على وجهها شحوب باهت، وسرّ سعاد أن تراها كذلك، وهي التي طالما أشعلت في فؤادها نار الحقد والغيرة وصممت سعاد على أن تصارح سنية بكل شيء فقالت:

- لقد دعوتك يا سنية لكي أكون معك صريحة فصارحيني أنت أيضاً ولا تخفي عني شيئاً. . .

- وبماذا أصارحك يا سيدتي؟!.

- إنّ سيدك منذ أسابيع وحاله ليس على ما يرام. . .

- من أي ناحية؟

- أنا لا أحب منك التغابي. . . أنا أعلم موقفك من محمود وموقفه منك. وأنت تعلمين أيضاً أنه زوجي ولي الحق في تتبع أحواله.

- تماماً كما تقولين يا سيدتي.

- طيب. . . الآن أعود إلى كلامي الأول. . . ألم تلاحظي على محمود تغيّراً في هذه الأسابيع؟

- وكيف لا وقد تغيّر سيدي كثيراً.

- وما عساه يكون السبب؟.

- . . . .

- أجيبي يا سنية؟ فأنا لن أفوه أمام محمود بحرف واحد مما ستقولين، إطمئني من هذه الناحية، فليس من مصلحتي في شيء أن أخبره بأني كنت أتجسس عليه، والآن ألا تعلمين من أمره شيئاً؟.

- إذا أردت الحقيقة يا سيدتي! فقد صادف ورأيت سيدي. . .

وقطعت سعاد كلامها قائلة:

- عدت مرة أخرى إلى كلمات المداهنة، لا تقولي صادف، أنا أعرف أنك كنت تتابعين خطواته وتتجسسين عليه.

- نعم وقد رأيته في صحبة فتاة في إحدى المنتزهات. . .

وهنا تحفزت سعاد وقالت:

- ما شكل هذه الفتاة؟

- الواقع أني لم أصدق عيني حينما رأيتهما يا سيدتي! فقد كانت فتاة وقوراً بريئة المظهر محتشمة الملبس ولكن. . .

- ولكن ماذا؟

- عدت فرأيت معها ثانية وكانت تحدّثه وهي مستندة إلى جذع شجرة وهو واقف أمامها يستمع.

- ألم تسمعي ما كانت تقول؟.

- ومن أين لي أن أسمع وأنا خارج أسوار الحديقة. . . وفي مرة أخرى. . .

وسكتت سنية، لكن سعاد استحثتها على الكلام قائلة:

- وماذا في مرة أخرى؟!.

- رأيته واقفاً معها على رصيف الشارع، وكانت سيارته إلى جواره تنتظر. . .

- وهل ركبت معه السيارة؟.

- لا أدري وإن كنت لا أشك في ذلك، فقد خشيت أن أتأخر فيلحظني سيدي.

وأطرقت سعاد تفكر، ثم رفعت رأسها وقالت:

- شكراً لك يا سنية! والآن انصرفي وأخبريني عن كل ما يجد في الأمر.

وشعرت سعاد بلذّة الانتقام، ونسيت كل شيء سوى فوزها بالتنكيل بإبراهيم، وظنّت أن ساعة الانتقام منه قد دنت، وما عليها إلاّ أن تزور إبراهيم بعد رجوعه لتهنئه بالعروس التي اختارها دون باقي الفتيات، وتتلذذ بمرآه وقد جلله العار وحطمته خيانة نقاء، ورأت أن الوقت لم يحن بعد لاسترداد محمود فلتدعه لنقاء مؤقتاً حتى يرجع إبراهيم، فهي واثقة من جرّه إليها في أي حين وعليها هي أيضاً أن تلتفت نحو صلاح قبل أن يفلت من يدها نهائياً، فقد كانت قد أهملته منذ الحفلة الأخيرة لانشغالها بالمهندس الشاب.

الفصل الثاني والعشرون

عكف محمود على مطالعة الكتب التي اشتراها، وكانت تفتح أمامه أبواباً كثيرة من المعرفة والثقافة الدينية والروحية، وتنقله إلى عالم أوسع يحلّق فيه بروحه سعيداً نشواناً، ولم يكن ييأس من لقاء ملاكه الهادي مرة أخرى، فهو يقضي جلّ أوقاته بين المنتزه والحدائق، وكتابه معه أينما ذهب.. وفعلاً فقد صادفها في أحد الأيام وهي جالسة في ركنها القصي تطالع كعادتها دائماً، فتقدم نحوها بخطى ثابتة وحيّاها بصوت هادىء فعرفت نقاء صوته فرفعت رأسها وردّت تحيته باحترام فقال لها:

- أتسمح لي سيدتي بالجلوس على مقعد قريب لمحادثتها؟.

ولم يسع نقاء إلاّ أن تقول:

- لك ذلك.

فجلس محمود وقال:

- أنا لا أريد أن أضيع هذه الدقائق عبثاً. لقد قرأت جلّ الكتب التي أرشدتيني إليها.

- بارك الله فيك، كيف أنت بعد قراءتها؟.

- أرى نفسي وكأني ولدت من جديد، فقد تبدلت جميع مفاهيمي عن الحياة... نعم لقد ولدت من جديد!

- فلا تفكر إذن بعد اليوم في ماضيك، واحرص على أن تحصر فكرك في مستقبلك وحياتك الجديدة.

- أنا أحاول أن أنتزع نفسي من ماضيي، وقد توصلت إلى كثير من ذلك ولكن...

- ولكن ماذا؟

- ولكن صاحبة هذا الخاتم الذي بطوق أصبعي، والتي منعتك مرة دون أن تسلميني إلى يد البوليس هي التي تحول بيني وبين نسيان الماضي.

- آه!...

- نعم، فحاضرها مرآة ماضيي

- ألا يمكن أن تقوم هي أيضاً؟.

- مطلقاً فقد بعد بها الطريق، ولم تتورع عن ارتكاب أي شيء.

- حتى.. أقصد حتى...

- دعيني أقول ما تريدين قوله، نعم حتى الخيانة الزوجية!.

- آه!.

- إنها كالفراشة تتنقل إلى حيث شاءت ومتى رغبت.

- إلى هذا الحد!؟.

- نعم وأكثر...

- ولماذا لا تحاول التخلص منها؟.

وسكت محمود برهة ثم قال:

- لأني أحبها يا أخية، وحبي لها هو الذي جعلني أمسك عليها طيلة هذه المدة.

- أنت غلطان يا أخي، فأنت لا تحبّ زوجتك هذه أبداً؟!.

- وكيف؟!

- إنّك لو كنت تحبها حقّاً، لما أمكنك أن تسمح لها بتلك الأعمال، ولكن شعورك نحوها ليس شعور حب، بل إنه مجرّد نزوة جسدية وشعور بالضعف أمام سلطانها عليك، فأنت تحب دارك مثلاً، فهل يمكنك أن تدع واحداً غريباً عنك لا يمت لك بصلة يسكنها وإياك؟ وأنت تحب ثروتك ولا ريب، فهل ترضى أن يشاركك فيها أحد؟ أنت لا تحبها مطلقاً.

- . . .

- فتّش في نفسك عن الحب، لترى أنّ الشعور الذي يشدّك نحو هذه الزوجة هو أبعد ما يكون عنه، فالحب لا يقوم مع الخيانة، ولا يدوم في جو الرذيلة، لأنه شيء مقدس لا يعمر إلاّ في القلوب الطاهرة والأرواح البريئة، أنك لو طالعت نفسك لرأيت كيف أنك تمقتها بدلاً من أن تحبها وتتمنى الفرار منها، وتؤثّر البعد عنها للخلاص من سيطرتها على جسدك وتسخيرها لنزواتك.

- أنا أخشاها دائماً. . .

- إنّ هذا أحسن دليل يدلك على أنّك غلطان في تقدير عواطفك نحوها، فالمحبّ لا يخشى حبيبه ولا يخافه، ولكن الخاضع يخشى من أخضعه، والضعيف يخشى القوي، كنت ضعيفاً أمامها قبل الآن، أما الآن فإنك أنت القوي وهي الضعيفة، فإنّ قوة الشرف والإيمان هي أسمى قوة في الإنسان، وأنت الآن مؤمن وشريف، فحاول أن تتخلص من أحابيلها، راجع نفسك مرة أخرى لترى صدق ما أقول.

- أنا على يقين من أني لن أتمكن من أن أنزع الماضي ما دمت خاضعاً لسلطان هذه المرأة.

- فتحرر من سلطانها إذن.

- سوف أحاول ذلك مهما استطعت.

- حاول أولاً أن تصلحها، فإذا فشلت فلا تدعها تلوّث حياتك الحرّة الشريفة. . .

- إنّ إصلاحها متعذّر، فهي قد استحالت إلى مجموعة من آثام وخطايا . . .

- إنّ المحاولة لن تخسرك شيئاً على كلّ حال، فإذا عجزت حدّد موقفك منها .

- فسكت محمود، ثم قال بصوت خافت:

- هل لي أو أوجّه إليك سؤالاً واحداً؟ .

- تفضل . . . إسأل . . .

- لقد رأيتك مرة في المطار بصحبة رجل كهل؟ .

- نعم، أنت تقصد يوم سفر إبراهيم، لقد كان أبي معي هناك وهو رجل كهل كما رأيت .

- أبوك؟!

- نعم، أبي .

- ومن عساه إبراهيم هذا الذي كان له سعادة مشايعتك؟! .

- فعلت حمرة الخفر والحياء وجه نقاء وهي تقول:

- إنه زوجي .

ولم يظهر محمود أي خيبة وارتباك، فهو لم يكن يشعر نحو نقاء غير شعور الأخوة والإعجاب، ولكنه ودّ لو عرف زوجها، ومن يكون فيتساءل:

- هلاّ زدتيني إيضاحاً بشخصية إبراهيم؟ .

- وما الذي يعنيك من ذلك يا أخي!؟ .

- أرجو أن لا تحملي سؤالي محمل الفضول . . .

- أنا أعلم أنّ غايتك من السؤال نبيلة، والاستطلاع إذا كان بداع النبل لا يعدّ فضولاً أو تطفلاً .

ولم يشأ محمود أن يتابع هذا الموضوع لئلاً يغضب محدثته، أو يسيء إليها . فسكت برهة ثم قال وكأنه يحدث نفسه :

- ليتني أتمكن أن أدفن الماضي في سجلّ النسيان، ولكني لن أستطيع ذلك ما دامت تلك موجودة .

- أنت الآن رجل مستقيم، لك أفكارك الواضحة وشخصيتك الثابتة، فتصرف بما يمليه عليك ضميرك، وبما تدعو إليه روحك.

وعند ذلك نهضت نقاء وقالت:

- أنت لم تعد تحتاج إلى أحد، فإنّ عندك من الكتب رصيداً يغنيك عن كلّ شيء، ولكن فاتني أن أقول لك: إذا أردت أن تطالع قصة، فاقرأ قصة «البؤساء» لفكتور هوجو، فهي مدرسة إنسانية رائعة.

ولم يسع محمود إلاّ أن ينهض احتراماً لها، فودّعته وانصرفت، وفي هذه المرة لم تحدثه نفسه أن يتبعها أو يتعقبها، فقد كان يشعر أنّ ذلك بعيد كل البعد عن الأخلاق الفاضلة...

الفصل الثالث والعشرون

رجع محمود إلى البيت وهو يحسّ بالصراع قائماً بين عاملين في روحه، فقد كان يشعر أنّ عليه أن يتحرّر من سعاد وأنه لن ينجح في حياته الجديدة، إلاّ إذا تخلّص من سلطانها عليه، وكان يقف فكره عند كلّ مرة، يحدّث فيها نفسه عن حياته الجديدة، ويتساءل في سرّه: هل حقّاً أنه بدأ حياة جديدة لا زيف فيها ولا خداع... لا فسق فيها ولا مجون؟ هل حقّاً أنه أخذ يستيقظ من سكرته الماضية؟ وكيف؟... وما هو السبب في هذا؟... ولم يكن في كل مرة يحصل من نفسه إلاّ على جواب واحد: كنت تكفر بوجود الخير، لكنه وجد أمامك فآمنت به... كنت تنكر أن للقيم حقيقة فتجسّدت أمامك... فلم يسعك إلاّ أن تقرّ بها... أنت خضت تجربة كانت فاشلة، لكنها دلتك على طريق النجاح. وكان أشدّ ما يعذّبه هو موقفه من سعاد، وكان يودّ أن يعرف نوعية الحبل الذي يشدّه إليها، وهل أنّ الحب هو الذي يخضعه لها أو شيء آخر فيتردد... أهو يحبها حقّاً؟ أيحق له أن يستبقيها بذريعة الحب؟ أيسمي شعوره نحوها حبّاً أم مجرّد رغبة ورهبة؟ أيجوز له أن يدعها تنبش ماضيه وهو

في طريقه لدفنه في طيّات التوبة؟ أيصح له أن يعيش مع امرأة لا تتقيد بأي قيم إنسانية؟ . . . إنه يقرّ بأنها كانت ضرورة من ضرورات حياته السابقة، أما الآن فقد أصبحت ضرراً على حياته اللاحقة. . . نعم، إنه كان يهواها فيما مضى، ولكن الآن هل لا يزال يهواها أو هل يحبها حقّاً؟!.

الفصل الرابع والعشرون

مضت الأيام على محمود وهو يعاني صراعاً عنيفاً بين قوى الشّر والخير، وما أكثر ما أرق لياليه يتقلّب بين مختلف الأفكار. . . وكانت سعاد تتجنبه طيلة هذه المدة، ظنّاً منها أنه عاشق مفتون مندفع وراء هواه. . وفي أحد الأيام خرجت سعاد من البيت، فرأت محمود يستعدّ لركوب السيارة، وقد حمل بين يديه حقيبة صغيرة، فتوقفت وسألته متخابثة:

- إلى أين أنت مسافر يا محمود؟

- أنا ذاهب لزيارة جدتي العجوز فقد علمت أنها مريضة. . .

- ومتى أصبحت طبيباً تداوي العجائز؟.

- أنا لست بطبيب، ولكن عليَّ أن أذهب لآتي لها بطبيب، فأنا كلّ ما تبقى لها في الوجود.

- ومنذ متى أصبحت تحسّ بهذه العواطف الإنسانية؟!.

- منذ أبصرت عيني نور الحياة.

وظنّت سعاد أنه يهزأ، فأردفت تقول:

- وكم سيطول بقاؤك هناك؟.

- إلى الوقت الذي أطمئن فيه على صحتها.

- حتى ولو أسبوع؟.

- أنا سوف أبقى أسبوعاً على كل حال، فلم أزر جدتي المسكينة هذه منذ سنوات، مع أنها بعثت تستدعيني عشرات المرّات، ولكن إذا أحوج الأمر فسوف أظلّ أكثر من أسبوع.

- إذهب مع السلامة يا محمود!.

واستقل محمود سيارته، ومضى ينهب بها الشارع وكأنّه كان يريد الابتعاد عن سعاد بأسرع وقت، وتابعته سعاد بنظرها، وردّت في نفسها قائلة: أنت لن تذهب إلى جدتك يا محمود!... فهنيئاً لنقاء بأسبوعها الحافل... وليكن هذا الأسبوع هو أسبوع الوداع، فقد قربت عودة إبراهيم...

أمّا محمود فقد كان صادقاً فيما قال، وكانت جدّته مريضة حقّاً ولكنها لم تشأ أن تستدعيه، فقد يئس من استجابته لها لكثرة ما استدعته فلم يجب، وكتبت إليه فلم يردّ عليها بكلمة واحدة، فأقامت على علتها ووحدتها تنتظر الأجل المحتوم.

ولم يتوقف محمود في الطريق، فقد كان يخشى أن يتأخر ساعة فيصل بعد فوات الأوان، فهو يحسّ بعاطفة قوية تجيش بصدره نحو هذه الجدة المسكينة، وهو يتصورها على سرير الموت، تقلبها أيدي الأجانب والأغراب، وودّ لو يلقاها حيّة ليستغفرها عن عقوقه ويذرف بين يديها دموع التوبة والندم... ووصل أخيراً إلى بيت جدته وطرق الباب ففتحه له خادم شيخ استغرب قدومه، ولم يتعرّف عليه، فسأله محمود في لهفة:

- كيف حال السيدة يا حاج؟!.

فردّ الخادم بصوت يشوبه الاستغراب لهذه اللهفة قائلاً:

- لا تزال كما هي يا أستاذ!.

- تقصد أنها لا تزال مريضة؟.

- نعم فهي ما برحت تصارع الموت ولكن..

ولم يمهله محمود ليتم جملته بل اندفع نحو الداخل، وهمّ الخادم أن يمنعه من الدخول وهو يقول:

- إنّ الدخول ممنوع يا سيدي! فحالها لا يسمح بذلك.

- ولكني ابنها يا شيخ!.

- ابنها!؟.

- نعم أنا حفيدها الوحيد.

- آه... أنت السيد محمود إذن؟

- نعم.

- لقد كانت تذكرك كثيراً يا سيدي!... وطالما سكبت لأجلك الدموع.

ودخل محمود على جدته فوجدها في غيبوبة وقد وقفت عند رأسها خادمتها العجوز التي لازمتها منذ صباها الأول... ولهذا فقد عرفت محمود في الوهلة الأولى، فقالت بصوت تخنقه العبرات:

- هل أتيت أخيراً يا سيد محمود!... لقد كانت تحيي بذكرك دائماً ولكنها الآن لا تتمكن أن تحسّ بوجودك.

وتساقط العرق بارداً على وجه محمود وردد في جزع قائلاً:

- لعلّها... لعلّها...

- لا يا سيدي! إنها لم تنته بعد ولكن نهايتها ليست ببعيدة.

- وكيف! ألا يوجد طبيب هنا؟!

- لقد رآها الطبيب منذ ساعة، ولكنه قال: إنها لن تحتاج إليه بعد الآن.

انحنى محمود على الجسد المسجى، ورفع اليد المعروقة إلى فمه وطبع عليها قبلة طويلة ثم رفع رأسه وقد تبلل وجهه بالدموع، وظلّ واقفاً أمامها لايريم، وفجأة صدرت عن صدر المريضة العجوز آهة أتبعتها بتململ قليل من رأسها، فانحنى عليها مرة أخرى وناداها بصوت خافت حنون: جدتي... جدتي العزيزة! أنا محمود. جهد جبّار فتحت العجوز عينيها وابتهل محمود إلى ربّه في سرّه قائلاً: ليتها تعرفني يا رب! وعرفته المسكينة، فقد لاحت على وجهها المغضن الشاحب شبح ابتسامة... فعاد محمود يقول:

- أنا محمود، جئت إليك تائباً نادماً مستغفراً عمّا بدر منّي، فهل تغفرين لابنك العاق؟.

ورفعت المرأة العجوز عينها نحو السماء كأنّها تريد أن تدعو له بالغفران، فانحنى مرة أخرى وقبّل يدها بخشوع وشعر بأناملها باردة متشنجة، فلم يشأ أن يترك تلك اليد الكريمة التي طالما هدهدته وداعبته فأبقى عليها بين يديه، واختلجت الأنامل في قبضته اختلاجة صغيرة، وصدرت عن الجسد المسجى أنّة خافتة، فنظر نحوها فزعاً، وحاول أن يناديها مرة أخرى، ولكن الخادمة العجوز منعته من ذلك، وقالت وهي تذرف العبرات:

- دعها فقد أسلمت روحها إلى باريها راضية مرضية.

الفصل الخامس والعشرون

أنهى محمود مراسيم دفن جدته، وفي ساعة متأخرة من اليوم الثاني وصل إلى داره ففتح الباب بالمفتاح الذي كان يحمله معه، وتوجه إلى غرفته، وكان السكون يسود أرجاء الدار، وقد انصرف الخدم إلى بيوتهم كعادتهم في كل يوم، فلم يكن يستقيم في البيت أحد من الخدم عدا سنية، وكان بصيص من النور يلوح من نوافذ غرفتها فعلم أنها لا تزال يقظى، وحانت منه التفاتة نحو غرفة سعاد فرآها غارقة في ظلام دامس، فعجب لذلك وهو يعلم أنها لا تنام في الظلمة، وفكّر أنها لم تعد بعد، ونظر إلى الساعة فرأى أنها تقارب الثانية صباحاً. . وكانت حوادث اليومين الماضيين قد أثرت على أعصابه فلم يتمكن أن ينام، وهو يشعر بالندم. . . كيف أعمت الشهوات عينيه؟ وكيف سمح لنفسه أن يجري وراء هواه؟ وكيف صيرته المادة عبداً لا يخضع إلاّ لها؟ ولا يعيش إلاّ لأجلها، حتى جدته العجوز لم يستجب لنداءاتها أو يرد على رسائلها، ليت حياتها استمرّت مدة أطول، إذن لعرف كيف يضمها إليه، وكيف يمسح بعواطفه على آلامها وأمراضها، لكنها ذهبت ولن تعود، وأرق محمود مع هذه

الأفكار. . . وعزّ عليه النوم، ومرّت ساعة وساعتان ولم يطبق له جفن، تذكر سعاد وخطر له أن يعرف إن كانت قد عادت أم لا ، فنهض وتطلع نحو نافذتها فرآها كما كانت غارقة في الظلام، فهاله أنها لم ترجع بعد، واتجه ببصره نحو غرفة سنية فوجد أنّ النور الضعيف لا يزال يلوح منها، فهمَّ أن يستدعيها ليسألها عن سعاد، ولكنه خشي أن تحمل سنية ذلك منه على محمل غير شريف، فتردد مدة ثم أقلع عن هذه الفكرة وحاول أن ينام، ولكنه لم يتمكن من ذلك، وقد أخذت تنكشف أمام ضميره أعمال سعاد وأفعالها على أبشع صورة، وعجب لنفسه كيف ظنّ أن في وسعه إصلاحها بعد أن بلغت من انحرافها هذا المدى البعيد. . . وعند بزوغ أول علائم الفجر ذهب بنفسه إلى غرفة سعاد ليتأكّد من خلوها فألفاها مغلقة يسودها الظلام، وخطر له أن يطرق الباب فلعلّها آثرت أن تنام ليلتها في الظلمة، ولكن طرقاته لم تكن لتنتج شيئاً والغرفة خالية، فرجع إلى غرفته وهو يتميز غيظاً وحقناً وألقى بنفسه على الكرسي وهو يتمتم: لقد حسبت أني لن أرجع قبل أسبوع. . . ولكن أيمكن أن يحدث هذا؟ أوصلت بها الخيانة إلى هذا المدى البعيد! نعم إنها هكذا كانت دائماً، ولكني أنا الذي كنت سادراً في سكرتي المقيتة فاستغفلتني حتى أمنت جانبي واستعبدتني حتى لم تعد تخشى مني.

ثم صمم على أن يستدعي سنية. . . وما عليه إذا خامر الشك قلبها إلى دقائق. . . وقرع الجرس، فقد كان في غرفته جرس خاص يتصل بغرفتها مباشرة، ولم تمض لحظات حتى سمع نقراً خفيفاً على الباب فقال: أدخلي يا سنية!. . . فدخلت سنية وهي تتعثر بأذيالها من الارتباك ووقفت تنتظر فسألها محمود في هدوء قائلاً:

- أين سعاد يا سنية؟!.

فسكتت سنية ولم تجب، بل ولم ترفع نحوه رأسها أيضاً، فكرر السؤال في شدة:

- أجيبي يا سنية! أين ذهبت سعاد؟ ولماذا لم تعد طيلة هذه الليلة؟.

ورأت سنية أنّ الفرصة قد واتتها للانتقام من سعاد، وليكن بعد ذلك ما يكون، فهي لم تكن تخشى سعاد إلاّ من ناحية واحدة، وهي أن تتسبب في طردها وإقصائها عن محمود، وأما الآن فقد خسرت محمود على كل حال فما الذي يدعوها إلى التستر على سعاد، ولهذا فقد صممت على أن تقول كلّ شيء. . . فقالت:

- لقد تركت سيدتي البيت منذ الساعة السادسة بعد الظهر من مساء أمس. . .

فارتعد صوت محمود وهو يسأل:

- ألا تعلمين أين ذهبت؟ ألم تقل لك شيئاً عن ذلك؟.

- إنها لم تخبرني بشيء.

- أصدقيني يا سنية! ألا تعلمين شيئاً عن المكان الذي قصدت إليه.

- إنها ذهبت إلى أحد المسارح.

- أحد المسارح! وفي الساعة السادسة.

- لقد قضت ساعتين في حدائق المسرح قبل بداية العرض.

- وهل كانت وحدها يا سنية؟.

- لا . . .

- إذن فمن كان معها هنا؟.

- كانت بصحبة صلاح. . .

- صلاح!!. .

- نعم صلاح.

- ومن أين علمت ذلك.

- لقد تعقبتها يا سيدي! ولم أعد إلى البيت حتى عرفت كل شيء. . .

- أنت تعقبتها يا سنية!.

- نعم فأنا متوترة، فقد حطمت حياتي وسحقت سعادتي.

- وكيف يا سنية؟!

- أنا على ثقة من أنها التي تسببت بحرماني من. . .

- أما هذا فلا. . . أنا أفهم ما تريدين أن تقولي، ولكن اعلمي يا سنية! أنّ سعاد لم يكن لها أي دخل في ذلك. . . والآن أخبريني أين قضت سعاد ليلتها؟.

- عند صلاح. . . نعم، وقد رأيتهما يدخلان داره وهما مخمورين.

- أحقاً ما تقولين أم أنّ حقدك عليها يدفعك إلى ذلك؟.

- أقسم لك بربي يا سيدي! على صحة ما أقوله. . وإذا أردت أن تتأكد فاذهب إلى بيت صلاح لتجدها هناك.

وأحسّ محمود أنّ الدماء تغلي في عروقه وأنّ قبضة الغيرة تضغط على عنقه بيد من حديد، فسكت برهة ثم رأى أنّ عليه أن يقول لهذه المسكينة الواقفة أمامه شيئاً وهو يعلم أنه أساء إليها من قبل فقال:

- سنية! أنت امرأة شابة على جانب غير قليل من الذكاء والفطنة، فهلاّ شققت لنفسك طريقاً في الحياة وأنا كفيل بتمهيده لك على أحسن وجه. . .

- أنا لا أفهم ما تقصد يا سيدي! وأي حياة هذه التي تحدثني عنها؟.

- أقصد مستقبلك يا سنية!.

- مستقبلي! ومن أين لي مستقبل واضح!.

- أنا على استعداد لأن أعينك بأي شيء. . .

- ماذا مثلاً؟

- عمل تجاري أو أي شيء آخر من هذا القبيل.

- عمل تجاري. . . عمل تجاري!.

- نعم يا سنية! أنا مسؤول عن كفالته لك. . . فكّري فيما قلته الآن ومتى ما توصلت إلى قرار فأنا حاضر أن أساعدك كأخ.

- ماذا تقول يا سيدي؟ أنا أكون صاحبة عمل تجاري؟!.

- نعم أنت تكونين المالكة لرأس مال تتصرفين فيه كما تشائين، لكي أتمكن أن أعيش حياتي هانئاً سعيداً... والآن انصرفي يا سنية! واعلمي أني قد خلقت من جديد...

انصرفت سنية وهي لا تكاد تصدق ما سمعته!...

وظلّ محمود ينتظر رجوع سعاد، وقد صمم على أن يحدّد موقفه منها... وفكّر لو ذهب إلى بيت صلاح ليضع النقاط على الحروف معها هناك، ولكي يحول دون عودتها إلى البيت... ولكنه تذكر كلمات نقاء وتذكر أنها أوصته أن يحاول إصلاحها أولاً، فإذا يئس فإنّ عليه أن يبعدها عن حياته بأي ثمن.

وفي حوالي الساعة الثامنة سمع بوق سيارة سعاد... فانتظر حتى استوثق من دخولها إلى غرفتها ثم توجّه إليها، وكان باب غرفتها لا يزال مفتوحاً ولكنه قرع الباب فجاءه صوت سعاد:

- من الطارق... سنية؟ أدخلي.

فردّ محمود قائلاً:

- لا... أنا محمود يا سعاد!

ثم دلف إلى الغرفة قائلاً:

- أظنك لم تتوقعين رؤيتي في هذا الصباح...

وصعقت سعاد لمرآه وتمتمت قائلة:

- محمود... محمود....

- نعم... أنا محمود زوجك المخدوع!.

وكانت سعاد واقفة فألقت بنفسها على الكرسي وحاولت أن تستعيد رباطة جأشها، وأن تواجه الواقع مهما كان، فقالت بصوت حاولت أن يبدو طبيعياً:

- أراك عدت سريعاً يا محمود! ألم تكن رحلتك موفقة؟

فتقدم نحوها ووقف لمواجهتها وقال وهو يتصنع الهدوء:

- نعم لقد عدت لأراك تقضين ليلك خارج بيتك... ولا تعودين إلاّ عند

الصباح. . . عدت لأراك وأنت تمرغين بالرذيلة وتريقين ما تبقى لك من العزّة والكرامة على مذبح شهواتك. .

- لست أدري ما الذي دهاك يا محمود؟ هل أنت سكران أم أنّ الفشل قد حدى بك إلى هذه الثورة، فجعلك تتمشدق بالعزّة والكرامة؟. . .

- أنا الآن صاح كما أصبح من قبل، ولهذا فقد جئت لأحاول معك محاولة أخيرة. . .

- إنّ محاولاتك معلومة لدي. . . فوفّر لنفسك نصائحك. . .

- بودي لو أقلعت عن هذه المحاولة، ولكن داعي الواجب يدعوني إلى ذلك. . . أين كنت يا سعاد؟ أين قضيت ليلتك هذه بعيدة عن الدار؟ متى افترقت عن صلاح؟ وهل افترقت عنه؟!.

- وما يعنيك أنت من ذلك. . . أنا حرّة أفعل ما أشاء!.

- إنّ للحرية حدوداً قد أسأت إليها كثيراً يا سعاد!.

- مهما بلغت من الحرية فلن أصل إلى بعض حريتك يا محمود. . . ونحن متفقان مبدئياً على المساواة بين المرأة والرجل!

- الحرية لا تعني الخيانة، ولا تعني الانحراف. . .

- الخائن لا يخان يا محمود!

- أنا لا أريد أن أدخل معك في نقاش عن الخيانة الزوجية ولكني أريد إيضاحاً فقط.

- عن أي شيء؟

- عن المكان الذي قضيت فيه ليلتك هذه. . .

- أخبرني أنت أولاً عن ليلتك الماضية. . . والتي قبلها. . . حدثني أنت أولاً عن مغامراتك الأخيرة على الخصوص وتفاصيلها لكي يكون لك بعض الحق في السؤال. . .

- أنا لن أفوه بحرف واحد يا سعاد، وعليك أنت أن تخبريني بكل شيء،

فقد سئمت هذا الوضع المشين، ولم أعد أطيق هذه الضعة التي تشعريني بها في الحياة... أنا لن...

فقطعت سعاد كلامه، وهي تظن أنها سوف ترميه بنفس سلاحه، وأنها سوف تتمكن منه كعادتها في المرّات السابقة فقالت:

- وما السبب في انتهاء مهمتك بهذه السرعة! هل تخاصمتما أو هل رجع الغائب من السفر؟!

- أنا لا أفهم ما تقولين يا سعاد، لقد عدت وكفى، نعم عدت أمس ليلاً.

- ثم ماذا؟

- لا شيء مطلقاً سوى أني لم أعد أطيق منك هذا السلوك...

- أراك ثائراً (اليوم) يا محمود!... أكان فشلك مع نقاء هو الذي دعاك إلى هذه الثورة؟... أنت تعلم منذ اليوم الأول أني حرّة، نعم أنا حرّة.

- أنا لا أفهم ما تقولين وماذا تقصدين... أي نقاء هذه التي تتحدثين عنها وأي فشل؟ أنا ما عدت أفشل في حياتي ما دمت... سوف أتخلص منك ومن عارك يا سعاد.

- أهكذا تنسى اسمها بهذه السرعة يا محمود... أم تتناساه؟

- أنا لا أعرف أي اسم لكي أنساه، أنا لا أذكر الآن سوى إني في طريقي للتخلّص منك إلى الأبد... إلاّ إذا حاولت أن تبرري تصرفاتك وتتوبي وتقلعي عن تصرفاتك المشينة.

- ماذا أبرر... وعن أي تصرفات...

- عن خياناتك ونزواتك...

- لا شك أنك مجنون... أتظن أن امرأة مثلي في شبابي وجمالي تقبع في عقر دارك وتوقف حياتها عليك؟... أنا حرة يا محمود!... ولي الحق الكامل في الاستفادة من جمالي وشبابي، أنا لا أسحق حياتي لحساب زوج مثلك أو أي زوج آخر، فهل يكفيك هذا؟.

- طبعاً يكفيني وزيادة، لقد كنت أظن أنك سوف تعتذرين أما الآن. . .

- فماذا عساك أن تفعل بعد أن عرفت أني لا أعتذر ولا أبدي أي تبرير، أنا هكذا كنت وهكذا سأكون!. .

- أنت تعترفين إذن!

- وهل أنت قاض حتى أعترف بين يديك. . .كان عليك أن تعترف أنت أولاً. . .

- أنا زوجك ولي الحق في تحديد موقفي منك بعد الآن إلا إذا. .

- مرة أخرى تقول إلا إذا. . لا أعلم، إني لن أعتذر مطلقاً فنحن متفقان على أن لكلّ من المرأة والرجل الحرية الكاملة، فكما ذهبت أنت إلى نقاء. . .ذهبت أنا أيضاً. . .

- إلى صلاح طبعاً!.

- نعم، فهل يرضيك هذا، وهل يكفيني شرّ ثورتك!. . .

- أتعلمين ما تقولين يا سعاد!. .هل انتهيت إلى كلماتك الناطقة عن الخطيئة والمجللة بالعار؟.

- أراك أصبحت تردد الكلمات العتيقة. . . هل أصابتك العدوى من نقاء؟

- نقاء! ومن تكون هذه! أنا لا أعرف واحدة اسمها نقاء، ولا أردد كلمات عتيقة، وأنا أحاول جاهداً أن أسيطر على أعصابي معك، لكي لا أبقي ناحية مغفولة، أو أغلق باباً من أبواب الأمل في الإصلاح. . .

- لا أدري هل أنت غبي أما تتغابى؟ أم تظن بي الغباء؟! أتنكر معرفة نقاء؟!.

- أنا لم أسمع بهذا الإسم من قبل!.

- هه. . . نقاء فاتنتك الجديدة زوجة إبراهيم.

وهنا أفلت زمام غضب محمود فصرخ بها قائلاً:

- الويل لك يا سعاد! أتجرأين على النيل من هذا الملاك الطاهر. . .

وقطعت سعاد كلامه قائلة:

- أرأيت كيف أنك تعرفها يا محمود!؟

- أنا لم أكن أعرف حتى اسمها قبل الآن، ولكني عرفتها لذكر إبراهيم، وحتى هذا فهي لم تكن لتخبرني به لولا داعي العفة والفضيلة...

- العفة!!.

- نعم، إنها ملاك طاهر في صورة إنسان، إنها مجموعة مثل خيرة، وأنموذج كامل للأخلاق الفاضلة.

- ماذا تعني يا محمود؟!.

- أنت لا تستطيعين أن تتوصلي إلى ما أعنيه، فمن أين لفكرك الطائش أن يسبر ماهيتها ويدرك حقيقتها.

وارتبكت سعاد ولم تفهم معنى لكلمات محمود، فرددت قائلة:

- أنا لا أفهم ما تعنيه يا محمود، أيمكن لنقاء أن تكون عفيفة فاضلة وهي خليلتك؟!.

- أعوذ بالله، أنا لم أكن أعرف عنها حتى اسمها، ولا يمكن لقلب طاهر على شاكلة قلبها أن يعشق رجلاً مثلي، إنها وهبته لمن يستحقه، ولا شك...

وارتعش صوت سعاد وهي تقول:

- أنت إذن لم...

- لا... أبداً، أنا أعرف ما تريدين أن تقولي... لقد دفعت بي إلى الغواية، ولكني اهتديت... وأرسلت بي نحو الظلام ولكني أبصرت قدامي نوراً فمشيت... وبعثت بي إلى الحضيض، فسموت إلى الآفاق. أنت أردت أن تمعنين في تضليلي، فشاء الله أن يكون في إضلالك هداية لي. وإنقاذاً لروحي من بحر الخطيئات. أنا لم أعد ذلك الرجل الضائع في خضم الخطايا، فقد تفتحت عيني لأول مرة على نور الحياة، وذقت سعادتها منذ أيام.

- إذن... إذن... فأنت تعشق نقاء ولم تحاول إغراءها!

- أنا لم أعشقها، ولن أعشقها أبداً، ولا أشعر نحوها بأي شعور شهوي، ولكني أحترمها كملاك هادي، وكوكب منير، فهي بالنسبة لي معنى روحاني يفوق العشق، ويسمو على الحب، ولا يدانيه شيء.

وخرجت الحروف متقطعة من فم سعاد وهي تقول:

- وهي؟!.

- مسكينة أنت يا سعاد، لعلّك تودّين لو تعرفين الحقيقة، ولا مانع عندي أن أخبرك بها الآن، وبعد أن حزمت أمري معك يا سعاد: أنت أغريتيني بنقاء ولم أعرف لذلك سبباً حتى الآن ودفعتيني إليها، فاندفعت إلى حيث تريدين وحاولت أن ألقي حولها شباكي ولكني فشلت، وبدلاً من أن تسلمني إلى أيدي الشرطة بدأت في هدايتي وإرشادي إلى طريق الصلاح وقد نجحت كما ترين، كادت أن تسلمني إلى أيدي الشرطة لولا عطفها عليك وحرصها على أن تجنبك الفضيحة، قالت لي مرة: لولا هذه المرأة التي تحمل خاتمها حول إصبعك لسلّمتك للشرطة.

وصعقت سعاد وسألت في فزع:

- وهل تعرفني هي؟!

- لا، ولكنها تعرف أني رجل متزوج، ولو كانت تعرفك لعلمت أنّ ذلك لن يزيدك فضيحة وعاراً جديدين.

فتمتمت سعاد قائلة:

- أو لم تعرف من تكون أنت؟

- أبداً فما حاولت أن تتعرّف عليَّ، فهي لم يكن ليغيرها أمري من قريب أو بعيد عن موقفها ولا تزال تجهل حتى اسمي مع أنها تعلم كونها هي التي بعثتني بعثاً جديداً في الحياة وهي التي فتحت أمامي أبواب المستقبل الشريف، نعم أنها لا تعرف عني حتى اسمي.

فخرج صوت سعاد على شكل أنّات وهي تقول:

- إذن فلم تتمكن من إغرائها؟

- وهل يمكن لمثلي أن يغرر بمثلها! وهل يمكن لتفاهة أفكاري أن تتلاعب بأفكارها السامية... أنها في حصن حصين من مفاهيمها ومثلها وثبات عقيدتها.

- آه، أنت تتكلم عن المُثل والمفاهيم!

- نعم، بعد أن عرفت أن لا حياة بلا مُثل، ولا سعادة بدون مفاهيم صالحة... أنا لم أكن أصدق قبل معرفتي لها أنّ للخير وجوداً على هذه الأرض، أو أنّ المثالية الحقيقية توجد في البشر، ولكنها قلبت مفاهيمي رأساً على عقب، وأحدثت في نفسي انقلاباً لم أخرج منه إلاّ وقد انتصر عنصر الخير فيَّ على عنصر الشر، جعلتني أؤمن أنّ الدنيا مليئة بالناس الطيبين بعد أن كنت أجهل حتى وجود واحد منهم، أما الآن فأنا رجل جديد... ولهذا فقد صممت على أن أحزم أمري معك يا سعاد! فقد تنبهت أخيراً إلى الخطأ الذي كنت أعيش فيه. فأنا لم أحبك يا سعاد! بل ولن أحبك في يوم من الأيام مطلقاً، وإنما الشعور الحيواني هو الذي أخضعني لك فيما مضى، وقد تخلصت من ذلك الشعور البغيض، فأنت الآن لا تعنين عندي شيئاً. سوف أدفع لك صداقك كاملاً فلعلّه يكفل لك حياتك لمدة وجيزة تقعين بعدها على صيد جديد، وأنا إذ أتخذ هذا القرار أستشعر الراحة والرضاء، فقد حاولت إلى آخر لحظة أن أنتشلك من حضيضك أو أرفعك من وهدتك هذه لكنك أبيت ذلك وركبت غرورك واندفعت وراء شيطانك، فاذهبي إلى حيث يقودك فكرك الضال.

وكانت سعاد تستمع إلى محمود وهي تستشعر بقلبها يتحطّم تحت وطأة كلماته الرصينة، فقد تجسّم لها في لحظة شقائها وفشلها في الحياة، ورأت كيدها وهو يردّ إلى نحرها وسلاحها يعود فيدمي فؤادها ويهدم ما بنته من آمال على الثروة التي أخذت تتلاشى من بين يديها وتتركها ليد العدم والحرمان، إنها لم تكن تحت محمود ولم تكن تحزن لفراقه أبداً، ولكنها ما كانت تطيق حياة الفاقة وهي تعلم أنّ شخصيتها في المجتمع مرهونة بالثروة والمال الذي يخولها

ولوج المجتمع الذي تعيشه، وهكذا رأت نفسها في لحظة وهي خلو من كلّ شيء. . .

الفصل السادس والعشرون

كانت الأشهر الثلاثة تكاد تنقضي وتنتهي بمضيها سفرة إبراهيم وقد أصبحت رسائله تصل مرتين في الأسبوع بدل المرة الواحدة، ونقاء تعيش بأمل اللقاء القريب وعلى أحلام المستقبل السعيد. . . وأخيراً تعين يوم وصوله، ولم يكن قد بقي عليه سوى يومين. وخرجت نقاء إلى السوق لتشتري بعض حوائجها، ولما أتممت مهمتها وقفت تنتظر سيارة «الأمانة» وفجأة وقفت أمامها سيارة نزل منها محمود، وابتدرها بتحية مؤدبة رصينة، فلم تفزع نقاء في هذه المرة ولم تتقهقر خطوات كما فعلت في المرة الماضية، فقد اطمأنت إلى غايات هذا الرجل وواقعه النبيل، ولهذا فقد ردّت تحيته بما يليق. . وشجّع محمود حماسها في الجواب وسرّه أن يكون قد توصل أخيراً إلى إشاعة الثقة في نفس نقاء وقال:

منذ مدة وأنا أفتش عنك يا أختي، فأنا في حاجة إلى مزيد من الإرشاد. . .

- ألم تكمل قراءة الكتب؟

- قرأتها جميعاً، وعدت فاشتريت كتباً جديدة. . .

- وهل اشتريت «البؤساء» لفكتور هوجو؟

- نعم، فإنّ اقتناء الكتب أصبح هوايتي المفضلة.

- فعليك بها إذن فهي كفيلة بإرواء ظمأك إلى العلم والمعرفة.

- ولكن لدي ما أقول لك، فقد تمكنت أن أتخلّص أخيراً من جميع توابع الماضي البغيض!

- حقّاً. . . بارك الله فيك ولكن كيف؟

- أظن أني لن أتمكن أن أشرح لك ذلك هنا وسط الزحام.

وسكت محمود فلم يردف شيئاً، وسكتت نقاء أيضاً، ونظرت إليه فرأته يتطلع نحوها بتضرّع والتماس وشعرت أنّ عليها أن تفعل شيئاً تجاه هذا الرجل لكي لا تعقده ثقته بنفسه ولتوحي إليه أن نظرتها نحوه قد تغيّرت وأنه الآن يختلف عمّا كان عليه من قبل فقالت:

- يمكنك أن تلاقيني في المنتزه.

- أحقّاً تمنين عليَّ بذلك؟

- نعم لأنّك أصبحت رجلاً شريفاً ومستقيماً.

- ولكن متى؟

- اليوم الساعة الخامسة.

- شكراً.

- لا داعي للشكر فليس هذا إلاّ واجب إنساني...

- أما الآن فأظن أن عليَّ أن أنصرف...

- إذا سمحت بذلك طبعاً.

- طبعاً فلن أطيل وقوفك على قارعة الطريق.

ثم انحنى لها باحترام وذهب، واستقلّت نقاء «الأمانة» إلى البيت، وفي تمام الخامسة كانت تتوجه نحو المنتزه لتستمع إلى حديث الرجل الغريب، فهي لم تعد تخافه بعد اليوم بعد أن أشرق على قلبه نور الإيمان، وهناك وجدته ينتظر ولم تشأ أن تذهب إلى ركنها القصي فاختارت مجلسها في ناحية واضحة من نواحي المنتزه، وبعد لحظات من جلوسها سألها محمود في أدب قائلاً:

- هل لي أن أتحدث؟

- تفضل يا سيدي! على الرحب والسعة...

- لقد أصبحت لي مرشدة وناصحة...

-

- وقد حدثتك في اجتماع سابق عن مشاكلي المعقدة، التي تحول بيني وبين بدء حياة جديدة، ولكنك نصحتيني أن أحاول. . .

- أنت تقصد زوجتك إذن؟

- نعم إنها هي، ولكنها لم تعد زوجتي والحمد لله، فقد وفّقت إلى إبعادها عن حياتي نهائياً.

- وكيف؟ أعجزت عن إصلاحها؟

- لقد حاولت ذلك إرضاء للمروءة ولكني لم أفلح، لقد قضيت أسابيع طوال يؤرقني القلق وتعذّبني الحيرة، حتى حدث أخيراً ما قطع الشك باليقين. . .

- آه! . . .

- نعم. . . ولهذا فقد تمكنت أن أتحرر من سلطانها ونفوذها الشيطاني.

- وكيف؟؟

- طلّقتها منذ أيام. .

- يا لها من تعيسة!

- لا يا نقاء! إنّ التعاسة تحتاج إلى شعور وإلى قلب وإلى كرامة، أمّا هذه فلا تملك شيئاً من هذه الأمور، ولهذا فهي لن تكون تعيسة مطلقاً.

فاستغربت نقاء ذكره لاسمها وهي لم تخبره به من قبل، فسألته في استغراب قائلة:

- من أين تعرفت على اسمي؟ فأنا لم أذكره أمامك على ما أظن.

- أبداً فقد كنت حريصة على أن لا تذكريه، ولكن سعاد هي التي ذكرته لي.

فبغتت نقاء وسارعت تقول:

- سعاد! ومن تكون سعاد هذه؟

- إنها زوجتي السابقة التي حدّثتك عنها منذ دقائق، إنها الشيطان بعينه، ليتك كنت رأيتيها لتعرفي ما أقول. . .

وغرقت نقاء في فكر عميق. . . أتكون سعاد هذه بنت خالتي هي؟ أيكون هذا الرجل هو زوجها محمود؟ ولم يسعها إلاّ أن تسأل بارتباك.

- كم هي المدة التي قضيتها معها بعد الزواج؟

- أربع سنوات، عشنا ثلاثة منها في أوروبا.

- في أوروبا!

- نعم، ولم نرجع إلاّ قبل بضع شهور. . .

- آه. . .

- ماذا؟

- هل أزعجك حديثي عن سعاد؟

- لا، أبداً. . .

ولكن محمود عرف أنها ليست على حالها الطبيعي، ولكنه لم يعرف لذلك سبباً، فعاد يقول:

- نعم إنّ سعاد هي التي ذكرت اسمك لي.

- وبماذا كانت تذكرني؟

- أنا لم أصارحك بالحقيقة بعد. . ولا بد لي أن أصارحك بها مهما كلّفني ذلك من آلام: إنّ سعاد هي التي دفعتني إلى ارتكاب ذلك الخطأ الفظيع. . . فقد صورتك لي على صورة هي طبق الأصل لصورتها الواقعية، وكانت المادة تعمي بصري وتسيرني بسلطانها، فصدقتها بما ادّعت وأنت تعلمين النتيجة. . .

- أو عملت سعاد هذا كله؟! هل حقّاً أنّها هي التي كانت تدفعك إلى ذلك؟!

- أي وربي! وقد أعطتني أوصافك لأتعرّف عليك في المطار.

- يا لها من امرأة؟!

- نعم، يا لها من امرأة!

- لم أكن أظن أنها سوف تنزل إلى هذا المستوى.

- أكنت تعرفينها من قبل؟

- نعم إنها بنت خالتي!

- بنت خالتك! إذن فأنت تلك الفتاة التي كانت تحدّثني عنك . .

- عن تأخر أفكاري ورجعيتي في الحياة.

- تماماً .

- ولكن . . .

- ولكن ماذا؟ وهذه آخر صفحة عار من حياتها اكتشفتها الآن عن بنت خالتك، وهي تقف مثل هذا الموقف المشين، حقّاً لست أدري بماذا ينبغي أن أصف هذا الجرم الفظيع! .

- وإذا أردت أن تكون رجل اليوم فلا تصفها بأي شيء وأتركها ومصيرها المظلم .

- ولكنها بلغت من الدناءة . . .

- أرجوك يا أخي محمود لا تأتي على ذكرها بعد الآن، يكفيها ما تلاقي من آلام .

ثم سكتت نقاء وهي لا تكاد تصدق ما سمعته بأذنيها منذ لحظات، ولا تعرف لذلك سبباً، أي بغضاء هائلة هذه التي بعثت سعاد إلى إلقاء هذه الأحابيل، فهي لا تذكر أنها أساءت إليها يوماً ما، ولم يشأ محمود أن يقطع عليها سلسلة تفكيرها، ولكنها نظرت إلى ساعتها ثم نهضت وهي تقول :

- إنّ عليَّ أن أذهب إلى البيت، فلدي موعد مع بعض الصديقات فنهض محمود أيضاً، وقال :

- هل لي أن أسأل عن موعد قدوم السيد إبراهيم، وعن السبب في سفره إلى باريس؟

- أما السبب فهو تقديم الأطروحة للحصول على شهادة الدكتوراه، وقد حصل عليها، وأبرم عقود جديدة مع بعض الشركات الأجنبية ليحصل على وكالات لبيع منتوجاتها هنا، وأمّا موعد قدومه فهو في صباح يوم الأربعاء في الساعة الثانية عشرة .

- أيمكن أن أكون من جملة المستقبلين؟

- طبعاً فقد كتبت له عنك وحدّثته عن جميع التطورات. . .

- يا لك من شخصية نادرة، أيمكن أن تصل ثقتي بنفسي يوماً ما إلى هذا المستوى؟

- نعم، إذا استضاءت جميع جنبات روحك بنور الإيمان.

- إذن فأنت تسمحين لي بالذهاب إلى المطار؟

- وبكل ترحيب.

الخاتمة

وفي صباح يوم الأربعاء كانت نقاء تقف في المطار وهي تنتظر وصول الطائرة التي تقلّ إبراهيم، وكان لدى استقباله عدد كبير من أصحابه وأصدقائه، وقبل وصول الطائرة بقليل وصل محمود وكان بادي الارتباك لعدم معرفته بأحد من المستقبلين. . . وبدت في الأفق الطائرة التي تقلّ إبراهيم وبعد دقائق حطت على أرض المطار. . ونزل منها إبراهيم وقد علت وجهه ابتسامة عريضة، وحيي بيديه مستقبليه، ثم توجه نحو الجمارك، وهنا تقدّم محمود ناحية نقاء وسألها قائلاً:

- أتظنين أن وجودي سيغضبه يا نقاء؟

- على العكس، فهو سيسر لمرآك وسيسعده أن يجدك في استقباله كأخ. . .

ووصل إبراهيم فصافح مستقبليه بحرارة، وكانت نظراته المعبّرة تحمل لنقاء معان كثيرة، أغنته عن البيان، وتولّت نقاء تعريف محمود فقالت:

- إنه السيد محمود الذي حدّثتك عنه في رسائلي.

فصافحه إبراهيم مرة أخرى وهو يقول:

- تشرفنا يا أخي محمود، لقد حدثتني نقاء عنك كثيراً. . .

وعلت حمرة الخجل وجه محمود، فلا بد أن تكون نقاء قد كتبت لإبراهيم عن كل شيء، ماضيه وحاضره.. وعند باب المطار تقدّم محمود طالباً من إبراهيم السماح له بإيصالهم إلى البيت، فتلقى إبراهيم عرضه بسرور، ولأول مرة ركبت نقاء سيارة محمود، ولكن في صحبة إبراهيم.. ومضى محمود يقود سيارته ببطء، وبعد مدة قصيرة التفت إلى إبراهيم وقال:

- أتعلم يا دكتور! أنّ الأخت نقاء قد أخرجتني من الظلمات إلى النور، ورفعتني من حضيض الخطيئة إلى أفق الفضيلة...

- دعك من هذا يا أخي، فهي لم تقم إلاّ بواجب مقدّس يفرضه دينها، ويدعوها إليه شعورها الإنساني، دع الماضي يذهب في سجلّ التوبة...

- نعم وأنا أحاول ذلك جاهداً، وسوف يتسنى لي هذا بعد أن تخلّصت نهائياً من سعاد.

- سعاد!.

- نعم، سعاد زوجتي السابقة، التي كانت السبب غير المباشر لهدايتي إلى مطلع النور، كانت تقدر أنها تبعثني نحو الظلام، ولكن النور هو الذي كان ينتظرني هناك.

وهنا أردفت نقاء قائلة:

- أنا لم أزل أجهل الكثير يا سيدي! فلم أفهم حتى الآن الداعي الذي دعا سعاد إلى تلك المناورة مع أنها..

ثم سكتت نقاء، فلم تكمل جملتها.

ولكن إبراهيم كان يتابع كلماتها باهتمام، فلما سكتت سألها في لهفة:

- مع أنها ماذا؟

- فقد خيل له - إلى إبراهيم - أنّ سعاد هذه ليست سوى سعاد بنت خالة نقاء، وجاءه جواب نقاء مؤكداً لظنه:

- مع أنها بنت خالتي!.

- آه، وهل أساءت إليك إساءة شخصية سعاد هذه؟

وهنا تولى محمود الجواب فقال:

- إنها لم تسىء إليها مطلقاً، وإن حسبت أنها تسيء، فإنّ لدى السيدة نقاء جيوشاً تقيها شرّ سعاد وأمثال سعاد، إنّ سعاد هي التي دفعت بي نحوها لأخطىء، فجعلني كمالها أتطلع نحو الكمال، ولكن لم أتمكن أن أفهم لحقدها الأسود هذا سبباً.

وهنا أردفت نقاء قائلة:

- ولا أنا أيضاً.

فأجاب إبراهيم بنبرة صارمة تنبض بالألم والكراهية:

- ولكن أنا أعرف يا نقاء! نعم أنا أعرف يا محمود! فهي لم تكن تقصد نقاء بهذا الحقد، ولكنها كانت تقصدني أنا، كانت تريد أن تنتقم من نقاء، فظنّت أنها تتمكن أن تنال من المُثل والمفاهيم التي تؤمن بها أنا ونقاء، ولكن فاتها أنّ جيوش العقيدة تحمينا من كل كيد، وتدفع عنّا أي سوء.

واتسعت حدقتا نقاء وهي تستمع إلى إبراهيم، وسألته قائلة:

وأي شيء تنقمه عليك سعاد يا إبراهيم؟!

- عرفتني قبل سنوات، وحاولت أن تلقي حولي شباكها بشتى الأساليب، ولما فشلت نقمت عليَّ وهالها أن تراني قد انتصرت عليها بقوة العقيدة والإيمان، فأرادت أن تحطم عقيدتي، وتسحق كبرياء روحي، وكنت أنت يا نقاء سبيلها إلى ذلك...

وهنا خرجت الكلمات متقطعة من فم محمود، وهو يقول:

- يا لها من امرأة في كل يوم تنكشف من سجل حياتها صفحة جديدة، خطت كلماتها بحروف من...

ثم سكت محمود، فقالت نقاء:

- أحقاً أنها كانت تهواك يا إبراهيم؟!.

- الآن فقد عرفت سبب الحملات الظالمة التي كانت تشنّها عليك يا لها من مسكينة.

وكاد أن يصرخ محمود وهو يقول:

- ألا تقفين في طيبتك عند حدّ، ألمِثل سعاد يقال مسكينة!.

- إنها بشر يا محمود!

- ولكنك أنت فوق البشر يا أختاه!.

- لا، أنا لست فوق البشر، ولكني أرثي لحال هذه المسكينة، وأرى أنّ أحد أسباب انحرافها يعود إلى المجتمع المنحرف، وإلى انعدام القيم الإسلامية فيه، ولو أنها كانت في مجتمع فاضل، وأنشأت فيه نشأة إسلامية صحيحة، وهذبت تهذيباً روحياً حقيقياً، لما وصلت إلى هذا الدرك، فالمجتمع الفاسد يقدم كثيراً من الضحايا وأكثر ضحاياه من النساء، لأنهنّ أعجل تأثّراً وأسهل انقياداً، وفعلاً، فقد انقادت هذه المسكينة إلى ألوان الإغراء التي يضج بها مجتمعنا المتناقض.

فضحك محمود، وقال:

- لا زلت تصرّين على أنّها مسكينة؟

فابتسم إبراهيم، وربت على كتف محمود وهو يقول:

- دعها يا أخي فهي نقاء!.

- نعم إنها نقاء...

بنت الهدى

٢

ليتني كنت أعلم

ليتني كنت أعلم

جلست (أنفال) في عيادة الطبيب، تنتظر نتيجة الفحص، وكانت تستعجل الوقت لأنّها مدعوة إلى حفلة! لم تكن تفكر في طبيعة النتيجة بقدر ما كانت تخشى من تسرّب الوقت وفوات موعد الحلاقة، فهي لم تكن تجد في التحليل الذي تنتظر نتائجه سوى إجراء احتياطي جاء نتيجة رغبة الأهل واهتمامهم بأمرها، وإلاّ فهي لا تحسّ بأيّ عارض مخيف، ولا تستشعر من المرض ما يريب، عدا بعض الآلام الطفيفة في المفاصل، وأخيراً استدعيت إلى غرفة الطبيب، فدخلت عليه وهي مستعجلة إنهاء الأمر، والإسراع في الخروج، وفوجئت عندما دخلت بسحابة من كآبة ترين على وجه الطبيب، الشيء الذي دعاها أن تقول عندما سألها:

هل أنت صاحبة التحليل؟

كلا إنّها ابنتي.

فقد أرادت أن تعرف الحقيقة، ولعلّه سوف يتحفّظ معها لو عرف أنّها صاحبة التحليل، ووقفت أمامه تنتظر، فأشار إلى كرسي هناك، وطلب منها أن تجلس فجلست، وقد بدأ الوجل يتسرّب إلى نفسها، وتطلعت إليه في لهفة، ولكن ليس من أجل الخروج في هذه المرة بل من أجل فهم الحقيقة.

قال:

لماذا لم ترسلوا رجلاً بدلاً عنك لأخذ النتيجة يا آنسة؟

قالت:

لأنني كنت مارّة من هنا ولهذا لم نجد ما يستدعي إرسال سواي ثم أنني لم أتمكن أن أسمع الحقيقة مهما كانت.

فسكت الطبيب وهو ينظر إليها في جد مشوب بالأسف ثم قال:

إنّ هذا يؤكد أنك فتاة مثقفة فاهمة لطبيعة الحياة.

قال هذا ثم سكت، فسرت في جسمها رعدة من الخوف وتساءلت:

كيف؟ وماذا تعني يا دكتور؟ قال: إنّ نتائج التحليل تشير إلى وجود مرض في الدم.

قال هذا ثم سكت وأطرق في أسى، فلم تجد أنفال حاجة لأن تستزيده أو تستوضحه أكثر، فرددت في فزع قائلة (سرطان)؟

ولم يرفع الطبيب رأسه وبقي ساكتاً في ألم من أجل هذه الأخت المصابة، وكان هذا السكوت بمثابة حكم بالإعدام عليها فغمغمت تقول في شبه حشرجة:

آه لقد انتهيت إذن..

وهنا عرف الطبيب أنها كانت تكذب عليه.. نعم عرف ذلك ولكن بعد فوات الأوان فرفع إليها وجهه ونظر نحوها نظرة حنو وقال:

إنني آسف، لماذا كذبت عليَّ يا بنتاه؟ ولكن وعلى كل حال فإنّ الموت والحياة بيد الله وكم من مريض عاش وصحيح مات؟

وكانت (أنفال) تشعر أنّ روحها أخذت تغور إلى الأعماق وأنّ يداً فولاذية امتدّت لتشدّ على قلبها فتعصره في قساوة ولكنها استجمعت فلول قوتها وهي تقول:

أرجو المعذرة يا دكتور وشكراً.

فردّ عليها الطبيب مشجعاً:

كوني قوية ومتفائلة، فإنّ الطب لا يزال في تقدم ولعلّ المرض الذي لا يوجد دواء له اليوم سوف يوجد دواؤه غداً ولهذا فإنّ الأمل لا يزال موجوداً وسوف أبحث عن أحدث الأفكار الطبية لعلّني أجد الدواء المطلوب ولهذا فأنا أرجو أن تتركي لي رقم تليفونك يا بنتاه.

وبطريقة روتينية ذكرت له رقم الهاتف فهي لم تكن تعي ما تقول أو ما يقول فقد كانت تعيش آثار الصدمة في عنف ومرارة ثم أعادت عليه كلمة الشكر وخرجت.

وفي البيت... كتمت الحقيقة فلم تكن تعرف أن تقوى أن تتحدث عنها ثم إنها وجدتهم في شغل عن ذلك بالاستعداد للذهاب إلى الحفلة... وسألتها أمها قائلة:

ألم تمري على الدكتور يا أنفال؟ ثم لماذا لم تذهبي إلى الحلاقة؟

كان السؤال عابراً غير منتظر للجواب ولهذا فقد ردّت عليها باقتضاب قائلة:

لأنني سوف لن أذهب إلى الحفلة، قالت هذا وصعدت إلى غرفتها وأغلقت الباب من الداخل ثم استلقت على السرير وهي بكامل ملابسها وأصوات أهلها تصلها وكأنها تأتي من وراء بعد ساحق وكان صوت الريح يطرق أذنها فتجد فيه عزفاً جنائزياً حزيناً وكأنه العويل الذي ينعى إليها شبابها وحياتها الفتية...

حتى غرفتها الحبيبة إليها أصبحت تجد أنها غريبة فيها ما دامت راحلة عنها بعد قليل والبيت؟ أنها أصبحت ضيفة في هذا البيت وسوف تتركه مجبرة لكي يحلّ آخرون مكانها فيه يذكرونها فترة ثم ينسونها بعد حين، وحاولت أن تبكي فلم تسعفها الدموع فهي تريد أن تفكر ولا تريد أن تبكي وتلفتت حولها في ألم... وجدت الستائر التي بذلت الكثير من الجهد حتى حصلت عليها والتي فتشت عن أحلى وأحدث تصميم لخياطتها، هذه الستائر سوف تبقى لتذهب هي إلى غير رجعة فماذا يهمها الآن لو كانت من خام أو كتان؟ أنها ذاهبة عنها ومخلِّفتها لسواها، ليتها ما بذلت الجهود من أجلها، ليتها وفّرت ذلك الوقت والمال لشيء يفيدها في محنتها هذه، وهنا بدأت تفتش في ذاكرتها عن شيء لعلَّه يفيد ماذا؟ أنّ لديها كل شيء، الشباب، والجمال والثقافة والمال والأثاث والرياش. ولكن هل يفيده شيء من ذلك أو يدفع عنها خطر الموت؟ إنها كانت تتمنى لو تصبح موظفة تتقاضى راتباً شهرياً محترما وها هي الآن موظفة تتقاضى راتباً ولكن هل سوف يستنقذها راتبها من الموت؟ وهن خطرت لها فكرة سارعت إلى التليفون وكان البيت قد أصبح خالياً إلاّ منها فقد ذهب الجميع إلى الاحتفال فاتصلت بطبيبها وتساءلت في لهفة قائلة:

لو ذهبتُ إلى الخارج هل سوف أجد علاجاً شافياً هناك؟

قال: ليس هناك من جديد أنها أتعاب وخسارة بدون فائدة...

فأغلقت السكة وجلست على المقعد بجوار الهاتف متهالكة... حتى راتبها لا يغير من الواقع شيئاً... ثم نهضت تتجول في أرجاء البيت وكأنها تريد أن تودع هذه المعالم الحبيبة إليها وألقت نظرة على الحديقة وقالت ليتها تعمل،

ليت هذه الأشجار تعلم أنني راحلة. ليت هذه الأحجار تفهم أنني راحلة، ليت هذه الجدران تعرف أنني راحلة وأنني سوف لن أبدو متنقلة بين جوانبها بعد الآن، ليت هذه الأبواب تفهم بأنني راحلة وأن يدي التي كانت أول فاتح لها سوف لن تفتحها بعد اليوم، ليت هذه الروض يتمكن أن يستوعب معنى أنني راحلة، وهذه الأزهار التي غرستها يداي في التربة مستهينة بجميع ما كلفني ذلك من وغزات شوك مدمية أو صلابة صخور متحجرة هذه الزهور التي طالما سقيتها من عرق جبيني إذا انقطع عنها الماء ورويتها من دموع عيني متى ما لاحت عليها علامات الذبول. أما الآن فليتها تعلم بأنني راحلة، هذه الأشجار المثمرة التي استلمتها صغيرة ضعيفة فأمددتها بما وسعني من عناصر الحياة والرواء حتى اهتزت وربت وأنبتت نباتا حسناً، هذه الإشجار أتراها تفهم بأنني راحلة، أو تراها سوف تذكر احتضاني لها أيام زمان حينما كانت لي معها أيام؟ آه ليتها تعلم وليتها تفهم، ثم هذه المقاعد التي كانت تحتضن رأسي تارة وتسند ساعدي أخرى أتراها تحسّ بأنني راحلة عنها عمّا قريب، أم تراها سوف تستبدل بي غيري وتمهّد الجلوس لسواي ومنضدتي هذه التي كتبت فوقها بالدموع مرة وبالبسمات مرّات أتراها تعلم بأنني راحلة؟ وهل تفتقد رنة قلمي فوقها وموضع أوراقي داخل جرارها، آه ليت كل ما حولي يعلم بأنني راحلة. . . ثم **(ليتني كنتُ أعلم)** بأنني راحلة إذن لما عشت الحرص على الدنيا ولما استشعرت الفخر والغرور، نعم ليتني كنتُ أعلم بأنني ضيفة في هذه الدنيا إذن لما خدعتني بخداعها ولما غرّتني بزخرفتها. **(ليتني كنتُ أعلم)** إذن لعرفت أنّ الرحيل عن حياة بسيطة هو أسهل من الرحيل عن حياة منعمة مترفة، لو لم أكن أعيش هذا الترف لكانت النقلة من هذه الحياة إلى تلك الحياة أسهل بالنسبة إليَّ، إن أهلي الآن في الاحتفال. . . هذه الاحتفالات التي كثيراً ما كنت أنتظرها في المناسبات وأعدّ من أجلها الفساتين، وأفتش بسببها عن أحدث التسريحات هل أغنت عني شيئاً من طربها وسرورها؟ وهنا تهاوت أنفال على مقعد إلى جوارها وكأنّها توصّلت إلى حقيقة كانت تجهلها وقالت:

ماذا آخذ معي؟ وهل آخذ معي شيئاً سوى الأكفان والأعمال؟ ولكن ما هي الأعمال التي سوف تصحبني خلال هذه الرحلة البعيدة؟ لا شيء! نعم لا شيء!

وسرح بها الفكر بعيداً إلى نصائح صديقتها سرّاء عندما كانت تحبب إليها طاعة الله قائلة:

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] إنها حينئذٍ لم تكن تشعر بأهمية الزاد، أما الآن فهي في حاجة إلى زاد، في حاجة إلى عمل صالح تقدمه بين يديها أمام الله، بماذا تجيب يوم الحساب؟ كيف سوف تطلب الرحمة من ربّها وقد عصته في أبسط الأشياء؟ كيف سوف تأمل العفو من خالقها وهي لم تستجب لأمره خلال مسيرتها في الحياة؟ ليتها كانت قد قرأت القرآن بدل الساقط من الروايات. ليتها كانت قد تعرّفت على دينها عن طريق المجلات.. واستمرّت أنفال تقول ليتني ليتني ما أسخطت فلانة ولا اعتديت على فلانة، ليتني ما كذبت على أحد وما اغتبت أحداً، ليتني ما استكبرت على فقير ولا استعليت على مسكين، ليتني أعيش من جديد لكي أصحح أخطائي وأعمل ما يرضي ربّي، لقد عبدت أهوائي ورغباتي وتجاهلت عبادة ربي، ليتني أعيش إلى فترة عسى أن أكفر عن سيئاتي. وخطرت ببالها آية سمعت جدّها يقرؤها يوماً:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] وكأنها تناجي ربّها بذلك.. كلاً أنها ليست كلمة عابرة أعني ما أقول يا ربّ.. وهنا خلال مناجاتها لربِّ الرحمة انبجست الدموع من عينيها بحرقة وغزارة وأسندت رأسها إلى يدها وأخذت تبكي. نعم تبكي ولكنه بكاء ندم وليس بكاء ألم، وصممت أن لو امتد بها العمر فسوف لن تعصي الله طرفة عين، ورنّ جرس الهاتف فقامت إليه متثاقلة ورفعت السماعة لتقول (نعم) وكان صوتها متهدجاً قد غيرته الدموع فجاءها صوت يقول:

هل أن الآنسة أنفال موجودة؟

فعرفت أنفال الصوت، أنه صوت الطبيب! قالت:

نعم إنها أنا يا دكتور. فاندفع يقول في فرحة صادقة: تهنيك السلامة يا بنتاه، إنه اشتباه، إنك صحيحة سالمة والحمد لله...

وأذلتها الكلمات فلم تعد تعرف بماذا تجيب ورددت وكأنها في حلم قائلة:

سالمة وكيف؟ لعلّك تهزأ بي يا دكتور؟ قال: معاذ الله أن أكون هازئاً ولكنه اعتذار وصلني الآن من المشرف على التحليل يشرح في أنه وقع في خطأ إذ سجّل اسمك أمام اسم مريضة أخرى، وها هي نتيجة تحليلك سالمة من كل ما يضير فاحمدي الله على سلامتك يا بنتاه...

فرددت أنفال معه كلمات الحمد قائلة:

الحمد لله. وشكراً لك يا دكتور.

ثم أغلقت السكة وهي تحسّ بأنها تحيى من جديد وتذكرت ما عاهدت الله عليه وعرفت أنها إن نجت من موت معلوم الوقت فهي لن تنجو من موت مجهول الوقت وإن الإنسان ضيف في هذه الدنيا مهما طال به الأمد.. فكان أول عمل قامت به أنها توجّهت إلى القبلة لكي تصلي صلاة المغرب والعشاء بعد أن بعد بها العهد عن الصلاة، وحين انتهت من أداء الفريضة عاهدت الله من جديد أن تبقى متمسكة بكل ما أمرها به من صلاة وصيام وحجاب وأن تترك كل ما نهاها عنه، ولأجل أن تنسى فقد خطت هذه الآية المباركة وجعلتها على جدار غرفتها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] ووضعت في الجهة المقابلة الحكمة التي تقول: «تب قبل موتك بيوم ولما كنت لا تعلم متى تموت فكن تائباً على الدوام».

صفقة خاسرة

جلس أمامها في وله لكي يقول لها:

بأنني أحبك إلى درجة العبادة، وبأنّك حياتي التي لا غنىً لي عنها..

صحيح أنهما كانا في بداية أيام الخطوبة ولكنه كان يؤكد لها أنّ الحب كالتيار الكهربائي الذي تحتاج انطلاقته إلى مزيد من المقدمات!! وكانت تستمع إليه في سعادة وتستشعر لكلمات الإطراء بشيء من الغرور قال:

إنه يودّ تم العقد في أقرب فرصة فهو لم يعد يجد للحياة معنىً بدونها! وقال أيضاً إنه يعجب كيف أمكن له أن يعيش سنيَّ حياته الماضية وهو بعيد عنها فهي قد أصبحت بالنسبة إليه محور السعادة ومنطلق الهناء! قال إنه سوف يستأجر بيتاً كبيراً فخماً يتماشى مع حجم السعادة التي يحسّها، وقال أيضاً أنهما سوف يقضيان شهر العسل في الخارج لأنّ حياة زوجته تقوم على مثل هذا الرصيد الضخم من الحب لا يناسب استهلالها إلاّ مصايف باريس!!

وكان يتحدث باندفاع ويملأ حديثه بكلمات الحب والإعجاب... وكانت هي سارحة وراء أحلامها التي بدأت تتحقق في شخص هذا الخطيب.. وانتبهت على خصلات من شعرها أخذت تتطاير فوق جبينها فرفعت يدها إلى شعرها تصففه وهي تقول في دلال:

لكم كنت تتعجل الخروج بشكل لم أتمكن فيه حتى من ترتيب شعري؟ قال: إن شعرك جميل على أي صورة كان وأنت مرتبة على أي حال من الأحوال.

فابتسمت في زهو وكأنها أرادت منه المزيد فقالت:

حتى فستاني الجديد لم تنتظر حتى يصلني من الخياطة.

قال: ألم أقل لك إن هذا لا يهم؟ أنا لا أهتم بأمثال هذه الأمور ما دام الهدف الحقيقي قد تحقق من حصولي عليك يا عزيزتي.

قال في شيء من الحماس: أتراك هكذا حقّاً؟

قال: نعم وأقسم لك بحبي على صحة ما أقول.

قالت: إذن فأنا سعيدة، إذ كنتُ أتمنى أن أحصل على زوج لا تهمه المادة...

قال: نعم أنني هكذا وسوف تلمسين بنفسك صدق ما أقول...

فتشجعت من جوابه وقالت:

نعم إن المادة هي عرض زائل وأنا لا أحسب لها في حياتي أي حساب ولهذا فقد تنازلت لأبي عن جميع ما كنت قد ادخرته من راتبي حينما وجدته في ضائقة مالية...

وهنا وعلى خلاف عادته في الإسراع في الجواب سكت برهة ولكنه استعاد نشاطه بسرعة وقال:

لطيف أن تمدي إلى أبيك يد المساعدة فإن الضائقة المالية قاسية لا تطاق ولهذا فأنا أشك بمقدرتنا على استئجار بيت كبير!!

قالت: المهم في البيت أن يكون مريحاً سواء كان كبيراً أو صغيراً...

قال: نعم وأن تكون فيه وسائل الراحة من ثلاجة ومكيف هواء وغسالة وأشباه ذلك...

قالت: إن هذه حوائج تشترى بشكل تدريجي فنحن نتمكن في البداية أن نكون على شيء من البساطة لأنّ أبي كما لعلّك تعلم لا يتمكن في الوقت الحاضر أن يساهم بشيء يذكر...

فأطرق برهة وهو يتشاغل بتوقيت ساعته ثم رفع رأسه في شيء من البرودة قائلاً:

إنّ البساطة لطيفة في كل شيء ولهذا فإنّ في إمكاننا أن نستغني عن السفر إلى الخارج!!.

قالت: نعم أن هذا هو الأصلح سيما وأنني مرتبطة ببعض السلف والأقساط!!

وهنا لم يتمالك نفسه فقال بشيء من الحدّة:

إذن فإن راتبك مستهلك على ما يبدو؟

قالت: تقريباً...

فتململ في جلسته ثم قال:

وأنا أيضاً مرتبط بكثير من الديون والسلف ولهذا سوف لن أفكر في أمر الزواج حالياً!!

ثم نهض وهو يقول:

أخشى أن لا أتمكن من رؤيتك ثانية ولهذا أتمنى لك كل سعادة وموفقية!.

قال هذا ثم انصرف وكأنه هارب من وحش مخيف!! وكأنّ هذه لم تكن قبل قليل حبيبته التي لا يتمكن أن يحيى بدونها.. وتقدم منها الجرسون يطلب دفع الحساب فعرفت أنه خرج حتى دون أن يدفع فحدّثت نفسها قائلة وهي تضحك لقد كنت أظن هذا ولذلك حشدت له هذه المجموعة من الأكاذيب، إنه غبي، فقد فاته أنني كنت أختبره في ذلك وأنّ رصيدي في المصرف ضخم وأنني غير مرتبطة بأي سلفة ولكن الخير فيما وقع فقد كانت (**صفقة خاسرة**) بالنسبة إليّ.

آخر هدية

كانت تعيش في قلق وانتظار، فماذا كانت تنتظر يا ترى؟ بعد أن رحل عنها الحبيب وفارقها القرين؟ لقد كانت تنتظر هدية! نعم هدية أرسلها إليها قبل أن يرحل وقبل أن يغلق عينيه الغاليتين عن هذه الحياة ليفتحها من جديد في عالم النور والخلود وهدايا الحبيب حبيبة مهما كانت لأنها التعبير المجسّد للعواطف والمثال الناطق عن التجاوب والتقارب، ولكن هذه الهدية فريدة في بابها لأنها هدية زوج راحل أعدّها لكي تصل إلى يد زوجته في وقت يكون هو فيه قد فارق الحياة... أنها ذخيرة واحدة من مجموع ما أمدها به من ذخائر ثمينة خلال أيام اللقاء... ولهذا كانت تنتظرها بفارغ صبر ولهذا أيضاً كانت تتساءل عمّن عساه يعرف من أمرها شيئاً... لقد أخبرها بذلك قبل أن يرحل عندما كان يتدرّب على خوض معركة الانتصار معركة الكرامة وأكاليل الغار ولكنه رحل قبل أن يسلّمها أيّاها. نعم أنه رحل وتركها تنتظر عودته سالماً يحمل إليها معه هديته المنتقاة... ولكنه لم يعد، نعم أنه لم يعد وأنّى له أن يعود؟ إن من يذهب إلى ساحة الحرب وهو مؤمن بقضيته التي يدافع عنها من العسير عليه أن يعود دون أن ينال إحدى الحُسنيين:

فـأمـا حـيـاة تـسـر الـصـديـق   وأمـا مـمـات يـغـيـظ الـعـدا

كثيرون أولئك الذين ذهبوا وعادوا للحياة.. ولكن أتراها حياة هذه التي اشتروها بثمن باهظ من الانهزامية والتخاذل والاستسلام؟ كلاَّ أنها الموت

بعينه والله. . . وزوجها الراحل، هذا الشهيد الذي سقط في (معركة الكرامة) وهو يدافع عن أرضه المغتصبة ودياره المباحة، نعم زوجها الذي فارقها قبل أن تطفأ شمعة عرسه وودعها وزهرة زواجهما لم تتفتح بعد، هذا الحبيب الذي غرس في نفسها من قبل أن الروح الغالية حقّاً هي التي ترخص أمام الواجب ولهذا خلفها وهي ما زالت ترفل في ملابس عرسها. وذهب إلى ساحة الجهاد، هذا الحبيب كان قد وعدها بهدية فما ألهفها على استلام تلك الهدية الحبيبة لقد انتظرته طويلاً وهو في مكانه البعيد تتسقط أخباره وتتابع آثاره وتبتهل إلى الله أن يشدّ أزره ويضاعف صبره وثباته في مجابهة العدو. . .

ثم ها هي الآن تنتظر هديته بعد أن خاب انتظارها لشخصه الحبيب بعد أن سقط شهيداً في معركة البطولة وملحمة الحق والكرامة، أفتراها تنسى أنه كان قد وعدها بهدية وأنَّى لها أن تنسى؟ وقد نقشت صورته على صفحات قلبها بخطوط من نور زادها الموت بهاء ورداء. . . أنه فارس أحلامها حيّاً وميّتاً. أنها ما زالت تعيش معه وتعيش من أجله وهي فخورة به سعيدة لذكراه، إذن فمن حقّها أن تنتظر الهدية وتترقبها في شوق وحنين. . .

ثم وصلتها الهدية بعد فترة من الزمن قصيرة في حساب الأيام طويلة في حساب العواطف والأحداث. . . نعم لقد وصلتها الهدية فتطلعت نحوها وهي ما زالت في اليد التي حملتها إليها من بعيد. . تطلعت إليها كما تطلعت إليه من قبل شهور وهي تراه لأول مرة كطيف ملائكي مشرق بالنور، وعادت بأفكارها إلى تلك اللحظات حيث كانت تتطلع إليه كأمل لحياة زوجية سعيدة وحيث كادت تهتف لولا رادعت من حياء - انه أمل حياتي وفارس أحلامي المنتظر - نعم إنه كان ولا يزال فارس أحلامها وأمل حياتها حتى ولو أنه ذهب ولن يعود.

لأنه ذهب من أجلها هي، من أجل كلّ زوجة مظلومة. من أجل كل طفل بائس من أجل كلّ شاب تائه نعم أنه ذهب من أجل أن يعيد إليها وإلى كل فرد كرامته ووطنه السليب، ذلك الوطن المقدس الحبيب الذي أصبح نهباً للدخلاء والعملاء والمستعمرين، أفلا يحقّ لها أن تبقى تعيش معه ومن أجله كما كانت تعيش من قبل؟

وامتدت يدها تستلم الهدية وكلّ ذرة في كيانها تنطلق بالفرحة والحسرة وفتحتها أمامها وأطرقت ملياً تتطلع إليها ببلسم من بلاسمه التي طالما مسح بها على جراح قلبها من قبل فماذا كانت الهدية يا ترى؟

كانت لوحة خضراء كتب عليها بحروف بارزة هذه الآية الكريمة:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧]. وعلّقتها حيث يمكنها أن تفتح عليها عينيها في كلّ صباح وحيث تكون آخر ما تبصره عيناها في كلّ مساء تماماً كما كان هو من قبل... ثم وقفت أمامها لكي تعاهد الله وتعاهده من جديد بأنها سوف تبقى سائرة على الطريق الذي سار به من قبل حتى تجد أمامها راية الحق وهي ترفرف فوق الأرض المحتلة في فلسطين، ومتى عصف بها الشوق أو ضجّ بها الحنين تذكرت الآية المباركة لكي تكتسب منها مزيداً من الإطمئنان.

الأيام الأخيرة

واحسرتاه، لم أكن أعلم أنّ تلك كانت هي أيامها الأخيرة وأن ذلك اللقاء كان هو اللقاء الأخير، ليتني علمت ذلك.. نطقت (سرّاء) بهذه الكلمات التي خنقت العبرات بعض حروفها وشاركت الشهقات البعض الآخر واستمرّت تردد في يأس: ليتني علمت ذلك.. وكانت صالحة لا تزال تقف أمامها بصمودها الذي ساعدها على حمل هذا الخبر المشؤوم.

فما كان منها إلاّ أن مدّت إليها يداً حاولت أن تجعلها ثابتة ولكنها كانت ترتجف وودّت لو أنها دافئة وهي باردة كالصقيع، مدت إليها هذه اليد وهي تقول:

ما الذي كان يجديك يا (سرّاء) أنها جنبتنا جميعاً معرفة أنها سوف تنتهي وآلام ذلك واستقبلت حكم انتظار الموت بصمود وانطوت وحدها لأهوال ذلك الانتظار، فماذا كان يجديك معرفة ذلك يا سرّاء؟

قالت: لو كنت أعلم لتزوّدت منها زاداً يرشدني ويساعدني على شقّ طريقي في الحياة، ثم لألقيت نظرة أخيرة أُودعها جميع ما أكنّه لها من حب وأحكي لها من خلالها قصة الودّ الصادق والوفاء الذي لا يزول. آه يا لضيعتي ببعدك يا أختاه؟ ما أراني إلاّ تائهة بعدك بين أمواج الحياة؟ وهنا عادت صالحة لتقول:

إنها كانت تعرف مكانتها لديك ولهذا فقد أوصت إليك بكتاباتها الأخيرة.

فانتفضت (سرّاء) ومسحت دموعها لتتطلع إلى صالحة وهي تتساءل:

كتاباتها الأخيرة؟

قالت صالحة: نعم يبدو أنها كانت تكتب مذكرات... وها أنا قد سافرت إليك لأحمل لك هذه الوديعة الغالية.

قالت صالحة هذا ثم أخرجت من محفظتها دفتراً وقدّمته إلى سرّاء. فمدّت سرّاء يدها نحوه وهي ترتجف وسرعان ما طالعتها ورقة بيضاء قد ألصقت على غلاف الدفتر وهي تحمل هذه الآية المباركة - فرددت قائلة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] ثم فتحت الدفتر لتقرأ على صفحته الأولى هذا العنوان **(الأيام الأخيرة)**.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بالأمس عرفت أنني سوف أنتهي وبسرعة! عرفتُ أنّ حياتي أصبحت تعدّ بالأيام، فما هي إلاّ مسألة وقت فقط، وأنها النهاية على كل حال من الأحوال، نعم النهاية، ولكنني الآن لا أُفكر بالنهاية كما أُفكر في البداية وفيما يفصل بينهما من أحداث فإن ذلك يرتبط في الصميم مع الوضع الذي سوف تكون عليه النهاية، كما تقول الآية المباركة: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧] إذن عليَّ أن أُراجع نفسي وأُحاسبها لأعرف ما الذي ينتظرني هناك؟ النور أم الظلمة؟ السرور أم الوحشة، القيوم أم الانطلاق؟ ولهذا، فأنا الآن لا أُفكّر في النهاية

كما أفكر في البداية ولكن ما هي البداية ومتى يحقّ لي أن أُوقّت بداية حياتي؟ هل يكون ذلك من زمن الطفولة؟ ولكن كلاً . . . فأنا لا أريد أن أكتب هنا قصة حياتي فأشغل بها الآخرين ولكنني أحاول أو أُصوّر مشاعري، مشاعر الإنسان عندما يقف على مفترق طريقين. الحياة الأولى، والحياة الثانية. ولهذا فلا دخل لطفولتي في ذلك ولا ارتباط لها مع تحديد ما ينتظرني الآن. . . لأنّ الطفولة هي فترة المهلة التي أعطاها الله للإنسان قبل توجيه التكليف إليه، ثم إنّ للطفولة بعض المعاني التي لم أتعرّف عليها، فقد سمعت كثيراً عن الطفولة كما وقد قرأت الكثير عنها، قيل: إنّها عالم زاخر بالمرح والانطلاق، عامر بالأماني والآمال، وقيل عنها أيضاً: إنّها فرصة تتوفّر خلالها أسباب السعادة للطفل لأنه سوف يكون سعيداً بما لديه راضياً عن حياته، نعم قيل هذا وقيل عنها ما هو أكثر من هذا وقد سمعت ما قيل وقرأتُ ما كتب ولكنني شخصياً لم أتعرّف على معنى الطفولة كما يصوّرها الآخرون فلم تكن طفولتي بالنسبة لي سوى فترة من حياة خضتها بدون سلاح من تفكير أو شدّ من إيمان فأرهقتني بآلامها وأربقتني بأحكامها وحيّرتني بالصراع الذي كنت أُعانيه بين نفسي الكبيرة وجسمي الكبير وبين مسؤوليتي الخطيرة وتفكيري الضعيف ولهذا فإنّ الطفولة لا تعني بالنسبة لي إلاّ فترة زمنية جامدة غير معطاء، فلأدع محاسبة أيام الطفولة لأبدأ بدراسة ومحاسبة أيام الصبا والشباب. . .

الصبا؟ إنه شريط يمرّ أمامي وهو مثقل بالصور ينوء تحت وطأة ثقلها تارة ويتراقص لخفة حملها أُخرى، إنه مسرح يحكي قصة النفس التي تاقت إلى التكامل فتلفتت حولها تفتش عن الخيط الذي يصل بها إليه ثم أردت أن أفهم، فلم أكن أرضى من فهم الحياة مجرّد ظاهرها وإنما كنت أغور في الأعماق لأصل إلى ما أهدف إليه وأنشده، فهمتُ من الكون أنّ هناك يداً عظيمة تسيره وقوانين ثابتة تقدره فإذا به على هذا النسق وهذا الجمال. . ثم سبرت أغوار النفوس. . . فكانت الحيرة وكان التردد بل وكانت التعاسة والخيبة في كثير من الأحيان كنتُ أبحث عندهم عن الحبّ لا الرياء، والصداقة لا الرفقة، والصدق لا الزيف، فكثيراً ما كنتُ أعود كليمة الفؤاد دامية القلب صريعة

الدمعة. نعم كثيراً ما كنت أعود هكذا وليس دائماً والحمد لله. ولكنني في كل تجربة كنت أستمدّ منها مزيداً من العلم ومزيداً من المعرفة بتلك الطبائع وتلك الخفايا... ومن ثم بقيت وأنا أطلب المزيد من الفهم والمزيد من المعرفة. فأين وجدتها يا ترى؟ وجدتها في معرفة إسلامي الذي به أدين وجدتها في قرآني الذي أعرف أنه رسالتي السماوية في الحياة... فهرعت إلى هذا الرواء وأنا على لهفة الظمأ والحرمان، كانت هذه هي بداية فترة الصبا التي أحاول أن أستعيد ذكرى أيامها في كتابة هذه السطور... نعم وساعاتها بكل ما زخرت به من سعادة وشقاء وسخط ورضاء لأرى مدى مسايرتي لكل ذلك دون أن أنجرف عمّا رسمه الله لي في الحياة، وما أراني الآن وأنا واقفة على أبواب الآخرة إلاّ مدفوعة إلى إقرار الحقيقة مهما كانت، حقيقة موقفي من الأحداث وواقع تفاعلي معها على أساس الإيمان، لأن اللّف والدوران ومحاولة تغطية الحقائق سوف لن يجديني نفعاً وأنا في طريقي إلى المثول أمام الحاكم العادل حيث لا إنكار ولا إصرار، لا مغالطة ولا مواربة: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]

إذن فلأكن صريحة في محاسبة نفسي ودراستها ولأكن واقعية في تلك المحاسبة! ولكن ألم أكن أعلم أنّ الموت خطّ على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة؟ ألم أكن سمعت من قبل قول إمامنا عليه السلام: - أيها الناس أنكم طرد الموت» إذن فلست وحدي من ينبغي أن يتوخّى جانب الصراحة في محاسبة النفس ولكنه كلّ إنسان!! نعم كلّ إنسان عرف أنه وجد ليتكامل عن طريق العبادة ثم ليموت بعد ذلك فيجني حصاد ما قدّمت يداه.

يــا آمــن الأيــام بــادر صــرفــهــا واعــلــم بــأن الــطــالــبــين حــثــاث

الفاقة المالية

والآن، فلأقرر الحقيقة، لقد مررت في بداية عهد الصبا بضائقة مالية خانقة

امتدّت خيوطها نحو المأكل والمشرب والمسكن والملبس والفقر حالة قاسية يجرّ معه أشكالاً وأشكالاً من المآسي والآلام فماذا كان شعوري حين ذاك؟ هل ضعفت أمام الأزمة أم قويت حتى جعلتها تضعف أمامي ؟ الواقع أنها كانت تجربة أشعرتني بأهمية الإيمان في حياة الإنسان وعلّمتني مفهوم كلمة الرسول الأعظم التي تقول: «ليس منّا من لم يتغنّى بالقرآن» فالإنسان وأي إنسان مهدّد لأن يتعرّض لأزمة مالية أو فاقة مادية فأي حال سوف يكون عليه إذا لم يكن لديه غناء روحي واكتفاء ذاتي، وكلاهما لا يُوجدان إلاّ عن طريق الإيمان الذي يرتفع بالفرد المؤمن عن المواد الأرضية ويعلّمه كيف يكون سيّد نفسه وسيّد الآخرين.

هب الدنيا تساق إليك قسراً   أليس مصير ذاك إلى الزوال

إذن فليس عجيباً أن أقول أنني خلال تلك الفترة كنتُ سعيدة! ولم يخطر ببالي أبداً أنّ الفقر أحد أنواع الخيبة بل على العكس من ذلك تماماً فقد كنت أحاول أن أفتش عن الطاقات الروحية الكامنة في وجودي لأستمرها في عمل كل ما هو صالح وكلّ ما هو خير فما دمت قد افتقدت المواد الزائلة التي أستند إليها في مسيرة الحياة فقد كان عليَّ أن أسند خطواتي على دعائم جوهرية ثابتة منطلقة من المثل البناءة والمفاهيم الخلاّقة، وهذه المثل وهذه المفاهيم هي وحدها الكفيلة ببناء شخصية الإنسان وصقل أبعاد وجوده في الحياة، ومن هنا عرفت معنى الفقر ومعنى الغنى، عرفت أنّ الفقير هو ذلك الذي يتأرجح كيانه الاجتماعي على كفّة ميزان المادة فهو يرتفع مع ارتفاع أرقام ما يملك وهو ينزل مع هبوط العدد في رصيده الخاص، ولهذا فهو فقير! فقير إلى الدنانير التي تستند وجوده فقير إلى العمارات التي تشير إليه، فقير إلى الأثاث والرياش الذي يحببه إلى الناس ويشجعهم على الالتفاف حوله، إنه فقير إلى المادة لأنها عنوان عزّه وحريص عليه لأنّها محور تبادر وجوده، وهو يخشى من زوالها لأنّ زوالها يعني زواله هو، أو ليس هذا هو الفقير بعينه؟ ولما كنت أعرف من الفقر معناه الحقيقي فقد كان من حقّي أن لا أدع للفاقة المالية مجالاً لأن تسمني

بسمة الضعف أو الحيرة أو تلوّن نظرتي إلى الحياة بمنظار الحسرة والحرمان كنت خلال تلك الفترة سعيدة وسعيدة جداً وكان فكري خالياً من كل شائبة بعيداً عن كل نائبة لا يهمني سوى بناء شخصي على أساس من الدين ولا أسعى إلاّ إلى وراء المعرفة، نعم المعرفة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى وقد كنت أجد من قليل ما أناله من آثار المعرفة الكثير الكثير من النشوة الروحية والراحة النفسية لأنني كنت أسعى إلى ذلك القليل بجهد كثير وجناح قليل ولهذا فقد كان للفوز عندي معنى الانتصار، وهكذا كنت والحمد لله غنية وسعيدة وهذه هي الروعة الربانية في حياة الفرد المؤمن.

فترة الركود

إنها فترة جمود مؤسفة وإن كانت قصيرة الأمد والحمد لله. . . ولكنني الآن وحينما أجد أن منيتي قد عاجلتني قبل أن أحقق غايتي في مستوى العبادة والعمل في سبيل الله من حقي أن أستشعر الندم والحسرة لمرورها. فما قيمة حياة الإنسان ما لم تكن ساعاتها موصولة بالعمل من أجل الله يا الله. . . ما أقسى الجمود وما أمرّ أن يعمل الإنسان على التسويف والتخفيف؟ ها أنا ذي أحسّ أن تلك الأيام تعاتبني، فتكويني بعتابها أنها تأسى على ساعاتها وهي تخط في صفحة الأعمال بدون عمل (غير ما وجب من الفرائض)، إنها خجلى إذ تعرض أمام الحاكم العادل وهي زاهدة في ثواب أو متواضعة في التطلع إلى الرضوان، ولكن ماذا عساي أن أصنع؟ وما فات لا يعود، أنا لا أنكر إن كان عليَّ تعويضها فيما بعد ولكن أتراني عرفت أنّ ساعات الإنسان ودقائقه محسوبة ومكتوبة؟ أتراني أدّيت لهذه المعرفة حقها؟ هذا ما لا يعلمه إلاّ الله عزّ وجلّ . . .

الانفتاح من جديد

إن من رحمة الله عليَّ أنَّ فترة الجمود تلك لم تكن طويلة فقد حدث ما هزّني وبعث فيَّ الحياة من جديد ودفعني إلى التعرّف على مسؤوليتي بشكل أقوى مما كنت عليه، وهكذا فإنّ الإنسان لا يتبلور ويتكامل إلاّ بعد المرور بمختلف أشكال التجارب والمحن، وفعلاً فأنا أحمد الله إن مررت بمحنة حسستني بأهمية الإيمان عندي من جديد وما أحسن قول الشاعر حينما يقول:

لـك الـحـمـد أن الـبـلايـا عـطـاء وأنّ الـمـصـيـبـات بـعـض الـكـرم

إذن. . . فنحن لا ينبغي لنا أن ننظر إلى فداحة المحن وقساوتها فقط، ولكن علينا أن نقيس كل ذلك مع الدروس التي تعطيها والفوائد الروحية والمعنوية التي يجنيها الإنسان من ذلك، لكي نتمكن من استقبالها بثغر باسم وصدر رحب وعزيمة وإصرار. وأنني لأذكر حادثة خلال هذه المحنة، أذكرها وقد كنت أذكرها دائماً لعمق ما أثرت عليَّ في حينها، كان ذلك من خلال فترة ضيق قاسية قد تشابكت خيوطها حتى كاد اليأس يتسرّب إليَّ فانتزعت نفسي من البيت وخرجت إلى الشارع وكأنني كنت أحاول بذلك التحلل ولو إلى قليل من أسلاك المحنة الشائكة التي كانت تحيط بي ولكنني سرعان ما أحسست أنني كنت غلطانة! فلم تكن المحنة التي أعيشها وليدة البيت لكي تتركني أو أتركها عندما أغادره، ولهذا وقفت حائرة مخذولة لا أعلم إلى أين أتجه وماذا أعمل؟ وإذا بصوت أسمعه من بعيد فيشدني إليه، وإذا بكلماته تجذبني نحوها وكأنني لم أسمعها من قبل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠] عند ذاك تنبهت من جديد وأفقت من الإغفاءة الفكرية التي كادت أن تجرني إلى يأس. وتذكرت أنّ الله عزّ وجل لا يخذل عباده المخلصين، وأنّ المحن والبلايا ليست سوى بعض طرق التكامل والنضوج، وهي مثلها للإنسان مثل مختبر للتحاليل يظهر حقيقة الإنسان ويكشف له ما كان يجهله من نفسه وجوانب الضعف والوهن فيها.

ومضيت بعد ذلك أقطع مسيرة الحياة بين آلام وآمال ووسط أزهار وأشواك، وهل يوجد الزهر إلى جوار الشوك ولولا الألم لما وجد الأمل، ولهذا كنت منسجمة مع تقلّب الحوادث وتتابع الأدوار، لا يغرّني نعيمها ولا يحزنني أليمها أنتظر سراءها عند الضرّاء وأترقّب ضرّاءها عند السرّاء وكأنني وإياها كما يقول الشاعر:

تـزيـده الأيـام إن أقـبـلـت شـدّة خـوف لـتـصـاريـفـهـا
كـأنـهـا فـي وقـع إقـبـالـهـا تـسـمـعـه رنّـة تـخـويـفـهـا

ومرّت السنوات تتابع وأنا أجد من رحمة الله فوق ما أستحق حتى أصبحت أحسّ نحو نفسي بالصغار أمام ما أجد من عطف الله عليَّ رحمته بوجودي، فأخذت أستصغر عطائي وأستكثر ما أجد وكان هذا الشعور هو بداية الألم في حياتي التي نذرتها لله، فقد أصبحت أحسّ بعذاب ومرارة. وأصبح قصوري أمام الله عزّ وجلّ يتراءى أمامي على شكل تقصير تارة وعلى شكل عجز وتهاون أخرى فتبرمت بما أجد حولي بعد أن حسبت نفسي دخيلة عليه وأخذت أحاول أن أبتعد عن مسرح حياتي بعد أن وجدته أكثر مما أستحق، وهل هناك أقسى من شعور الإنسان بالتقصير أمام الله؟ ولهذا فقد رانت على قلبي غمامة من ألم وحسرة لوثت صفاء روحي وسعادتها في العمل من أجل الله... ولولا أنّ الله عزوجل رحمني بإشراقة من نور كانت تضيء جوانب روحي بضيائها الهادي الوديع لحدث ما لا يحمد عقباه، فالحمد لله الذي لا يغلق على موحّديه أبواب رحمته.

الساعات الأخيرة

كنت أريد أن أكتب عن الأيام الأخيرة وارتباطها بالأيام التي قبلها ولكن يبدو عليَّ الآن أن أكتب عالسعات الأخيرة لأنها عاجلتني وفرضت وجودها عليَّ بشكل لا مفرّ منه وهل هناك مفرّ من الموت؟- ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ

﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] - أم هل هناك هرب من قضاء الله وقدره ألم نسمع الحديث القدسي الذي يقول: «من لم يرض بقدري وقضائي فليخرج من أرضي وسمائي» إذن فما على الإنسان المؤمن إلاّ أن يستقبل الموت برضا واقتناع ولسان حاله يقول:

«عـــنـدي لـــمـــا تـــقـــضـيـــه ما يـرضـيـك مـن حـسـن الـرضـا»

والآن. . . أتراني آسفة على الدنيا وفراقها؟ نعم، وكلا. . . أما نعم فلأنَ الدنيا هي الطريق الذي يمهّد إلى رحمة الله ورضوانه وأنها هي أيام التجربة التي منَّ الله بها على عبيده لتكون لهم فترة اختبار فلعلَّها لو طالت لتمكنت أن أسجّل رقماً جديداً وأن أحصل على درجة أعلى. . . ثم من أجل قلوب والهة سوف تستشعر الحسرة من بعدي. ولكن أليس هذه هي طبيعة الحياة؟

أما كوني غير آسفة على الدنيا فإنّ حالي منها كما يقول الشاعر:

ما لي إلى الدنيا الدنية حاجة ... فليخش ساحر كيدها
طلّقتها ألفاً لأحسم داءها ... وطلاق من عزم الطلاق ثلاث
وثباتها مرهوبة وعداتها ... مكذوبة وحبالها أنكاث
أني لأعجب للذين تمسكوا ... بحبائل الدنيا وهي رثاث
أتراهم لم يعلموا أن التقى ... هو زادنا وديارنا الأجداث

آه كم يئس الإنسان في ساعاته الأخيرة على هفواته وزلاته وكم يود جاهداً لو كان قد افتدى تلك الأخطاء بكل ما يملك، ما أحلى أن يكون الإنسان رقيباً على نفسه وأن يكون لديه ما يمكنه من دراسة كل أمر قبل الإقدام عليه لكي لا يقف في ساعاته الأخيرة موقف النادم المغبون، فإن النفس أمّارة بالسوء إلاّ ما عصم ربي سبحانك يا ربّ أنني أحبك بقدر ما أخافك فلا تبعدني منك ولا تقطعني عنك ولا تحرمني بردّ عفوك ورضاك. . . سبحانك يا ربّ أنني الآن أشعر بالراحة كما لم أشعر بها من قبل. أنني سعيدة وأنا أحسّ بانعتاقي من قيود الدنيا وغلالها وانفكاكي من آلامها وأثقالها وابتعادي عن شرورها وآثامها، فأسبغ يا إلهي على القلوب

التي أحبتني أبراد الصبر وضاعف لهم الأجر ووفّقهم يا رب ليكونوا بعدي صدقة جارية وعلماً ينتفع به الناس لكي لا ينقطع أثري عن الدنيا بوجودهم وهبني من لدنك رحمة إنك أنت الوهّاب.

مغامرة

جلست آسية في الموعد المحدد الذي حددته لصديقتها بيداء تنتظر قدومها وهي تتطلع إلى الساعة في قلق ولهفة، فهي تستغرب من صديقتها طلب موعد واشتراط الخلوة فيه ولهذا كانت تترقب أن تجد لدى صاحبتها مشكلة غير مريحة، ولم يطل انتظارها فقد وصلت بيداء بعد موعدها بدقائق وجلست آسية تنتظر أن تبد تبدأ بالتحدث عمّا لديها من أنباء، وكانت بيداء تبدو هادئة وهي تحاول أن تخفي بعض بوادر القلق والحيرة واستمرّ بها السكوت إلى فترة ثم قالت:

أتراك تسمحين لي بسؤال يا آسية؟

فردّت آسية قائلة:

نعم وأرحّب بذلك.

قالت بيداء:

ويكون الجواب صريحاً؟

قالت:

على عادتي معك دائماً يا بيداء...

قالت:

لماذا رفضت يد فؤاد يا آسية؟

فسكتت آسية قليلاً وكأنها فوجئت بسؤال لم تكن تتوقعه من قبل ثم قالت:

والآن هل تسمحين لي أن أسأل؟

قالت بيداء:

نعم بطبيعة الحال.

قالت:

ما الذي يدفعك إلى هذا السؤال يا بيداء ألا تجدين أن الجواب عنه قد يسبب لي بعض الإحراج؟

فأطرقت بيداء برهة ثم رفعت رأسها وهي تقول:

لأنه يهمني يا آسية!

قالت آسية:

وماذا يهمك منه؟ قريب تقدم لخطبتي فرفضته لأسباب خاصة...

فترددت بيداء ثم قالت:

لأنّه قد تقدم لخطبتي يا آسية وأنا أريد أن أعرف السبب في رفضك إياه

قالت آسية:

آه هكذا إذن. ثم سكتت.

فأردفت بيداء قائلة في توسّل:

ولهذا تريني مضطرة لأن أسأل أو لست صديقتك يا آسية؟ أو ليس أمري يهمك يا أختاه؟

قالت آسية:

نعم ولأنك صديقتي ولأن أمرك يهمني سوف أقول لك السبب في رفضي إياه ولكن أنت ماذا تعرفين عنه لحدّ الآن؟

قالت:

لقد عرفت أنه شاب مثقف جميل الشكل حسن التصرّف ممدوح السيرة يتمتع بمركز اجتماعي مرموق؟

قالت آسية:

نعم أنه كما تذكرين يا بيداء وأزيدك أيضاً أن حالته المادية جيدة ولكن هل أنّ ما ذكرتيه هو كلّ شيء؟.

فعلت وجه بيداء صفرة باهتة وتمتمت تقول: ولكنه غير ملتزم دينياً!!

إذن ومع علمك بهذا ما زلت تجهلين السبب في رفضي إيّاه؟

قالت:

أنا أعترف أن الدين هو أهم من جميع هذه الصفات ولكن ذلك أمر يمكن إصلاحه على ما أعتقد.

قالت آسية:

وكيف؟

قالت:

ألم يخطر ببالك أنك تستطيعين أن تجعلي منه إنساناً صالحاً يا آسية.

فرددت آسية بهدوء قائلة:

وأنت هل يخطر ذلك ببالك يا بيداء؟

قالت:

بصراحة أنني أعتبر الرفض لوناً من الجبن أو الهروب!.

قالت آسية:

ما دمت تتكلمين بصراحة فأنا أرجو أن توضحي لي رأيك في الموضوع!.

قالت:

إنني أجد في جرّ فؤاد وأمثاله إلى الدين مكسباً دينياً ينبغي العمل من أجله.

فابتسمت آسية وقالت:

طبعاً فإنّ هذا أمر مفروغ منه ولكن عن أي طريق وعلى أي حساب؟

قالت بيداء:

إنّ هذا الطريق قد تهيأ لنا تلقائياً فلماذا لا نستغله يا آسية؟ وبصراحة مرة ثانية ولماذا أرفض فؤاد مع جميع المميزات التي تتواجد فيه وأتركه لزوجة تبتعد به عن الدين أكثر فأكثر بدل أن أتقبله وأحاول جرّه إلى الإيمان؟

قالت آسية:

إنها وجهة نظر لا أريد أن أُملي عليك خلافها فأنا لا أتمكن أن أفرض عليك

أمراً يا بيداء ولكنها مغامرة خطرة وليس ما هو أصعب من أن يغامر الإنسان بدينه أو بحياته الزوجية.

قالت بيداء:

أرجوك يا آسية لا تحاولي تهويل الأمر إلى هذا المستوى فإنّ الزواج بشكل عام لا يعدو أن يكون مغامرة وأنا أحسّ بمقدرتي على خوض هذه التجربة.

قالت آسية:

ولكنك غلطانة بزعمك هذا يا بيداء فشتان بين المغامرة مع شاب مؤمن يتمتع في سلوكه وتصرفاته بحصانة من تعاليم الإسلام، والمغامرة مع شاب لا يحصنه ضدها سوى العرف والقانون وكلاهما يخضعان للتبديل والتطوير.

قالت بيداء:

ولكنها مغامرة لو نجحت لكانت في صالح الدين...

قالت آسية:

ها أنت تقولين (لو نجحت) وهذه (اللو) دليل على عدم ثقتك بنجاحها والحياة الزوجية بناء مقدس لا يمكن له أن يرتفع على أساس مضعضع.

فأطرقت بيداء وكأنها كانت تقاوم الصراع الذي يعتلج في روحها، ثم رفعت رأسها وهي تقول:

إذن فما هو رأيك يا آنسة؟

قالت آسية:

الحقيقة أنني أخشى عليك من عواقب هذه المغامرة ولا أتمكن أن أُعطيك رأياً أكثر من هذا ولكنها لعبة خطرة يا بيداء فالزوج مهما كان لا يمكن له أن يخضع لفكرة زوجته ما دام غير مؤمن بها تلقائياً بل أنه هو الذي سوف يحاول أن يخضعها لفكرته ويجرّها نحو الإيمان بوجهة نظره، وعند ذلك تقف الزوجة على مفترق طريقين، فأمّا خراب بيت الزوجية وأمّا خراب دينها هو أقسى الأمرين وأهولهما كما تعلمين.

قالت آسية هذا ثم سكتت تنظر تأثير كلماتها على بيداء. . . فسكتت بيداء برهة ثم قالت بصوت مبحوح:

إذن؟

قالت آسية:

إذن فأنا أجدك في غنى عن زجّ نفسك في موقف لا تحسدين عليه.

قالت بيداء:

لنفترض أنني أُجبرت على ذلك فماذا أصنع؟

قالت آسية:

عليك أنتِ وحدك تقرير مصيرك يا بيداء وليس لك أن تخضعي لإرادة أحد أيّاً كان.

فأطرقت بيداء وكأنّها تفكر وطالت إطراقتها تلك وهي تفتت بين أصابعها ورقة بيضاء صغيرة ثم رفعت رأسها وهي تقول في شبه تحدٍّ:

ولكنني سوف أُغامر يا آسية وأرجو أن يكون النجاح حليفي.

ولم يسع آسية إلاّ أن تنظر إليها نظرة طويلة معبرة ثم قالت في شيء من البرود:

أنتِ وما تختارين لنفسك يا بيداء وأتمنى أن لا تندمي على قرارك هذا فيما بعد.

وهما لملمت بيداء أطراف أبرادها ثم نهضت وهي تقول:

أرجو أن لا أكون قد أزعجتك يا آسية.

قالت آسية:

أنني لم أنزعج ولكنني تألمت فقط.

ثم مدّت بيداء يدها إلى آسية مصافحة فشيعتها آسية حتى الباب وعادت وهي تشعر أنها فقدت صديقتها إلى الأبد.

□□

جلست بيداء تنتظر عودة فؤاد والساعة تناهز الحادية عشرة مساء وأحسّت بالقلق من أجله فهو ما عودها التأخير منذ زواجها الذي مرت عليه ثلاثة أسابيع. وكانت تتابع عقارب الساعة حتى وجدتها تقترب من الحادية عشرة والنصف. وعند ذلك سمعت صوت الباب وهو يفتح ثم يغلق برفق. فنهضت من مكانها تتطلع نحو الباب لتجد فؤاد وهو يدخل فأشرق وجهها فرحاً.

وقالت:

لقد أبطأت عني يا فؤاد.

فراعها أنها وجدت مسحة من ضيق تتراءى على وجهه حاول أن يخفيها بسرعة وهو يرد قائلاً:

ولماذا لم تنامِ لحدّ الآن يا بيداء؟

قالت:

كيف أنام وأنت لا تزال خارج البيت يا فؤاد؟

قال وهو يخلع عنه ملابسه ويستبدلها بملابس البيت:

ولكن ذلك سوف يكلّفك الكثير يا بيداء!

قالت:

وكيف؟

قال:

لأنني سوف لن أتمكن أن أعود مبكراً إلى البيت في أغلب الليالي ولهذا لا أجد ما يدعوك إلى السهر وحيدة...

فسكتت بيداء وقد هالها ما سمعت ثم حاولت أن تكذّب سمعها أو تكذّب فهمها فانتظرته حتى جلس ثم قالت:

إنّ العشاء جاهز يا فؤاد.

فابتسم على شيء من الخجل وقال:

لقد تناولت عشائي في الخارج يا بيداء.

قالت:

آه وكيف؟

قال:

لقد كنت مدعواً عند بعض أصدقائي في النادي ولم أستطع الرفض لأنّ الدعوة كانت على شرفي.

قالت:

هنيئاً مريئاً ولكن لماذا لم تخبرني من قبل؟

قال:

لم أجد ما يدعو إلى إخبارك وأنا أعلم أنك سوف لن تذهبي معي إلى هناك!!

قالت:

ولكن لكي لا أقلق من أجلك على الأقل...

قال:

ولكنك يجب أن تعرفي أنني إنسان اجتماعي أعيش وسط مثقف متحرر ولا أتمكن أن أعتكف في بيتي مع امرأة.

قال هذا وفي نبرته بعض الحدة ثم أردف قائلاً:

والآن تفضلي فتناولي عشاءك أنت يا بيداء!

فجالت الدموع في مآقيها وهي تنظر إليه في حسرة ثم قالت:

لست أشعر بالميل إلى الطعام.

قال:

إذن دعينا ننام!

فاستجمعت فلول قوتها وقالت في نبرة وادعة:

يبدو أنّك قد أدّيت فريضة الصلاة لهذا تريد أن تنام؟

قال في شيء من البرود:

إنّ الليل قد انتصف وبذلك ذهب وقت الصلاة!

قالت:

كلا لعلّه لم ينتصف بعد ثم إنّ وقتها الاضطراري لا يزال موجوداً.

قال:

كأنك لا تعلمين كم أنا مثقل وتعبان يا بيداء.

قالت:

ولكن التعب لا يكون عذراً شرعياً عن الصلاة يا فؤاد.

فضحك في تهكم ثم قال:

إنّ الله يقبل مني هذا العذر...

قالت:

ولكن هذا يعدُّ تهاوناً منك في الصلاة ألم تتمسك بها ما دمت تحبني يا فؤاد؟..

وهنا بدت عليه دلائل الغضب فنهض وهو يقول:

أرجوك أن لا تقرني حبّك مع الصلاة والصيام يا بيداء دعيني أحبّك كما أريد أنا لا كما تريدين أنت ثم إنني لا أسمح لك بمحاسبتي في كل ليلة من أجل الصلاة.

قال هذا ثم توجّه نحو السرير وانصرف إلى النوم... أمّا بيداء فقد تسمّرت في مكانها من هول الصدمة إلى فترة وشعرت أنّ كلمات آسية قد بدأت تتجسّد أمامها كواقع محسوس فما كان منها إلاّ أن لجأت إلى القرآن عساها تحصل من تلاوته على بعض الأمان والاطمئنان ففتحته من حيث اتّفق فكان الآية الأولى من الصفحة هي ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

واستمرت الأيام والأسابيع تتتابع وتتلاحق وبيداء لا تكاد تجد حيلة تكسب بها فؤاد إلى جانبها فهي كلما حدّثته عن الدين جابهها بالسخرية تارة وبالنفور

تارة أخرى، وهي مهما هيأت له من أسباب الراحة والسعادة في البيت وجدته يتوق إلى الخارج أكثر فأكثر، وفي ليلة من الليالي وقد أعياها السهر والانتظار عاد إليها فوجدته منفتح الصدر منبسط الوجه فحسبت أنّ الفرصة مواتية لها لكي تتحدث معه بما تريد فقالت في نغمة حاولت أن تكون هادئة وناعمة:

هل تعلم كم أتألم يا فؤاد؟

فأبدى فؤاد شيئاً من الدهشة وقال:

أنت تتألمين ولماذا؟ ألم أهيِّىء لك جميع أسباب الراحة؟

قالت:

نعم إنني أعترف أنك قد هيّأت لي جميع أسباب الراحة ولكن المهم هو السعادة يا فؤاد فلا راحة بدون سعادة.

قال:

وكيف أو لست سعيدة يا بيداء؟

قالت:

كيف أكون سعيدة وأنا أجدك بعيداً عني يا فؤاد، نعم بعيداً عني في فكرك وقلبك وجسمك.

قال:

أما فكر فهو بعيد عن فكرك وأنا أعترف بذلك وأما جسمي فهو يبتعد عنك البعد الفكري. وهذا أمر طبيعي، وأمّا قلبي فهو يحبك يا بيداء ولهذا أعترض على هذا القسم من كلامك يا عزيزتي.

قالت:

ولكن الحب يقتضي إرضاء المحبوب وأنت تعلم أنني غير مرتاحة من وضعك يا فؤاد.

قال:

في دهشة غير مرتاحة من وضعي؟ هل أسأت إليك في شيء؟

قالت:

كلا أنت لم تسيء إليَّ إساءة مباشرة ولكنك تسيء إلى الفكرة التي أُؤمن بها والتي عاهدتني على احترامها في البداية وبعبارة أصرح إنك لا تلتزم بالدين بالشكل الذي يشدك إليَّ يا فؤاد.

قال:

إنني لا أتمكن أن أُغيّر من وضعي شيئاً يا بيداء فهل من المعقول أن أُقاطع أصدقاء العمر أم هل من المعقول أن أعتزل الحياة الاجتماعية وأنطوي مغلقاً خلف هذه الجدران هل من المعقول أن أصلِّي الظهر في المسجد وأصلِّي المغرب في الجامع لأنّ زوجتي تريد ذلك، إنّ العبادة ينبغي أن تكون بدافع من إيمان شخصي أما أن أعبد الله لأنّك أنت تريدين ذلك فإنّ هذا ليس سوى نفاق وخداع، إنني رجل مستقيم مخلص في عملي أمين على حقوق الآخرين وفي علاقاتي مع أصدقائي فماذا تريدين أكثر من هذا يا عزيزتي؟

كانت بيداء تستمع وفؤادها يغور إلى الأعماق فردّت عليه قائلة في شبه توسّل:

وأنا؟ أين يكون مكاني من كل هذا؟

قال:

أنت؟ أنت زوجتي الحبيبة التي لا أقدّم أحداً عليك أبداً فتعالي إليَّ لتعرفي أيّة سعادة سوف أُذيقك إيّاها يا بيداء.

قالت:

ماذا تعني من تعالي؟

قال:

أعني أن تتركي هذه الفكرة المعقدة التي تحجب عنك أنوار الحياة وتقبلي عليَّ بروحك وقلبك وفكرك جميعاً لكي أعرفك معنى الحياة التي ما زلت تجهليها، ومع كل الأسف أنك الآن على مفترق طريقين يا بيداء إمّا أن تعطيني

يدك لآخذك معي إلى دنيا السعادة والهناء وإمّا أم تبقي سجينة دارك قانعة بما تجدين.

قالت:

وليس هناك شق ثالث يا فؤاد؟

فسكت لحظة ثم قال:

نعم وهو أن نفترق وإن عزّ عليَّ ذلك ولكنه مع رفضك للشق الأول أهون الشرين.

. . . فأطرقت بيداء وهي تودّ لو تصرخ، لو تبكي، لو تهرب من هذا البيت ولكن لم يكن في وسعها أن تعمل شيئاً سوى الإطراق.

□□

وأشرق الصباح أخيراً بعد ليلة ما طرق النوم فيها عيني بيداء وأنّى لها أن تنام وهي بين نارين كلّ منهما كاوية وكلّ منهما قاسية وشديدة في قساوتها وكادت أن تجزم أمرها وتطلب الانفصال ولكن هذا الدبيب الذي في أحشائها يشدّها إلى هذا البيت ويربطها مع هذا الزوج، أنها الآن ليست زوجة فقط ولكنها سوف تصبح أمّاً عن قريب واعتراها دوار من الحيرة والسهر والتفكير، فألقت برأسها على يدها واستسلمت لنوم هو أشبه بالإغماء. . . وانتبهت على صوت فؤاد وهو يناديها بصوت حنون قائلاً:

بيداء. بيداء. ما لك نائمة هكذا؟

ففتحت عينها لتبصره أمامها ضاحكاً مشرق الوجه وكأنّه يجهل السبب فيما هي عليه فنظرت إليه ولم تفه بكلمة. . فقال في لهفة:

مالك شاحبة اللون هكذا يا بيداء أتراك مريضة؟

قال هذا وأسندها لكي تجلس ثم جلس إلى جوارها فاستدارت نحوه وهي تقول في ذبول:

هل حقّاً أنك لا تعلم بما أُعاني يا فؤاد؟.

فضحك في لطف وقال:

هبيني كنت أعلم فماذا عساي أن أصنع وأنا الذي فتحت لك قلبي على مصراعيه فما ذنبي إذا أغلقت أنت دونك ذلك الباب؟ وبالمناسبة فإن عندي ضيوف هذه الليلة أرجو أن تستعدي لاستقبالهم بالشكل المناسب.

قالت:

ومن هم الضيوف يا فؤاد؟

قال:

إنهم مجموعة من أصدقائي مع زوجاتهم.

قال هذا وسكت ينتظر ردود الفعل عند بيداء ففكرت بيداء برهة ثم قالت:

وهل سوف تكون الجلسة مشتركة بين النساء والرجال؟

قال:

طبعاً طبعاً فأنا لا أتمكن أن أعيد عهد الحريم في بيتي من جديد.

قالت في انكسار:

وأنا؟

قال:

أنت حرّة في تصرفك يا عزيزتي فأنا أترك الأمر لحسن اختيارك.

وهنا صممت بيداء أن تقدم لزوجها بعض التنازلات حرصاً على الوئام والتفاهم فغالبت نفسها ثم قالت:

سوف أكون حاضرة أيضاً.

فاستطار فؤاد فرحاً وانحنى عليها يقبلها في لهفة هو يقول:

وهل حقاً ما تقولين يا بيداء؟ ما أسعدني بك يا حبيبتي ها أنا سوف أصبح أسعد زوج، سوف أفتخر بك وبجمالك على أصدقائي وأجعلك الشمس التي تكشف زيف أنوارهم يا بيداء.

وهنا ردّت بيداء قائلة:

ولكن أي دخل لجمالي في الموضوع؟ أنني وانسجاماً مع رغبتك وافقت أن أحضر مع حجابي يا فؤاد.

فتراجع فؤاد إلى الوراء وبدت عليه علامات النفور وهو يقول:

مع حجابك؟ تحضرين وأنت محجبة؟ كلا إنني لا أريد أن أكون سخرية للجميع، كلا إن هذا لن يكون أبداً يا بيداء، أعدّي لنا المائدة واخرجي من البيت فإن ذلك أصلح لكي أعتذر عنك ببعض الأعذار.

فطاش عقل بيداء وهي تستمع إلى كلمات الإهانة هذه ونهضت من مكانها لتقول:

إذن فلأترك البيت منذ الآن يا فؤاد.

قال:

والضيوف؟

قالت:

تتمكن أن تدعوهم إلى النادي.

قال:

وأنت متى تعودين؟

فأجابت بانفعال قائلة:

لعلّني لن أعود.

عند ذلك ألقى فؤاد بأقسى سهم لديه فقال:

وولدي الذي معك كيف سوف يكون مصيره؟

وكانت هذه الكلمات كفيلة لأن تشدّ بيداء إلى واقعها المرير إلى أنها قد زجّت نفسها في دوامة ليس من السهل اجتيازها... فتهادت وهي تردد: آه ما كان أغباني وأصدقك يا آسية؟ وسمعها فؤاد فقال في تهكيمة ساخرة:

آه أنت تذكرين آسية الفتاة المتعجرفة المعقدة، تلك التي ما تقدّمت لخطبتها إلاّ لكي أذلّ كبرياءها وأسحق شموخها الديني وها أنت تذكرينها فماذا أجدتك

نصائحها ومثُلها يا بيداء؟ ها أنت مهددة بخراب حياتك الزوجية وفشل وضعك العائلي نتيجة آسية العتيقة.

فانتفضت بيداء وقالت:

كلا أنا لا أسمح لك بالنيل من آسية، لو كنت قد استجبت لنصائحها ومثُلها لكنت في راحة ولكن الذنب ذنبي وعليَّ أن أتحمّل أوزار ما عملت.

كانت آسية جالسة وهي تفكّر في بيداء بعد مرور سنتين من زواجها فهي تسمع عنها الكثير مما يؤلم ومما تصدّق بعضه ولا تكاد تصدّق البعض الآخر، فقد سمعت أنها وبعد صراع طويل ومرير بدأت تتحلل من حجابها وتخرج مع زوجها للنوادي والحفلات وسمعت أنها رزقت بولد اسمه فريد وسمعت أيضاً أنها دائمة الوجوم لا تكاد الابتسامة تبدو على شفتيها، سمعت هذا وسمعت غير هذا وهي في كل ذلك مصدقة تارة ومكذّبة أخرى، وفي صبيحة ذلك اليوم كانت تفكّر بها وتتمنى لو عرفت عنها شيئاً يوضح لها حقيقة ما تسمع، فرنّ في أذنها جرس الباب فهرعت إليه بشكل لا اختياري وإذا بها تجد أمامها بيداء! نعم بيداء بلحمها ودمها لولا شحوب هائل كان يلون وجهها بشكل واضح فرحبت بها وقادتها إلى الغرفة وهي تترقّب أنباء سيئة من وراء هذه الزيارة الغير مترقبّة وجلست بيداء وهي ساكنة وكأنها لا تعرف كيف تبدأ الحديث فقالت آسية:

لكم كان يهمني أن أراك يا بيداء فإنّ أخبارك كانت تصلني باهتة وكنتُ أحبّ أن أسمعها منك مباشرة.

وهنا اندفعت بيداء تبكي في مرارة وهي تقول:

وهل لدي أخبار سوى العار والدمار يا آسية؟ أو هل أنا سوى ضحية من ضحايا الطيش والغرور؟ وماذا يهمك من أخباري بعد أن تهاويت إلى هذا الدرك أنا لم أعد جديرة بصداقتك يا آسية إنني إنسانة بائسة يائسة فليرحمني الله...

فتأثرت آسية لحال بيداء وقالت في حنان:

ولكن أُختي على كل حال من الأحوال وعليَّ أن أنصرك ظالمة أو مظلومة، حدثيني بما لديك وكوني معي صريحة كما كنت من قبل.

قالت:

نعم سوف أحدثك بكل شيء، أن تعلمين أنني قد خالفت مشورتك واندفعت وراء وَهْم كاذب. وحاولت أن أقاوم وأكابر فجاهدت أن أجرَّه إليَّ ففشلت، بذلتُ المستحيل لكي أُرضيه بوضعي ففشلت. بدأ يسحق روحياتي بقساوة. وأخذ يعمل على إذلالي بضراوة. . . فتارة يخدعني برقّته وتارة يخيفني في شدّته، فكّرت أن أنفصل عنه فعجزت لأنه كان لدي جنين منه يشدني إلى بيته، وأخيراً أتعبتني المقاومة وأرهقني الصراع، فاستسلمت له متخاذلة وانقدت إلى ما يطلب مجبورة مقهورة، فتمادى في مطالبه الجاحفة واستغلّ ضعفي لكي يجرّني إلى الحضيض، نعم إلى الحضيض. وسرت وراءه كما يسير المحكوم إلى ساحة الإعدام ومع ذلك ومع كلّ هذا فها أنا ذي كما ترين!!.

ولم يسع آسية أن تدخل معها في لوم أو تأنيب وهي على هذا الوضع اليائس المنهار فتماسكت وهي تقول:

ومع هذا فماذا بك الآن؟

قالت:

لقد طلّقني قبل أسبوع بعد أن مات ابني واتهمني أنني أنا التي تسببت بموته؟.

قالت:

أنتِ تسببتِ بموته وكيف؟

قالت:

لأنني صمت شهر رمضان!.

قالت آسية:

وهل أنّ صومك أدّى إلى موت ابنك جوعاً يا بيداء؟

قالت:

كلا فهو لم يكن يقتصر على حليبي يا آسية أنه أصيب بعارض وقد أدّى إلى موته. . .

وأشفقت آسية على هذه الإنسانة المسكينة المطعونة في كرامتها ودينها المصابة بوليدها وصغيرها أشفقت عليها حتى انهمرت من عينيها الدموع. . . وأردفت بيداء قائلة:

وهكذا ترين أنني فقدت كل شيء وخسرت كل أحد. .

فنهضت آسية إليها لتمسح على رأسها وتقبلها في عطف قائلة:

«كلا أنك لم تخسري كل شيء فإنّ الدين ما زال يدعوك لكي تعودي إليه عن طريق التوبة، وأنا ما زلتُ أفتح لك قلبي ليحتضنك من جديد والمستقبل أمامك واسع طويل، ولعلَّ هذه التجربة سوف تبني لك مستقبلاً صالحاً قائماً على أسس ثابتة مكينة، فلا تدعِ اليأس يأخذ طريقه نحوك يا بيداء فإنه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون.

□□

أختي الغالية وفاء:

يا منار فكري وعماد روحي لا عدمتك ألف سلام وألف تحية يا عزيزتي وصادق إخائي ودعائي.

ها أنا ذي أكتب إليك يا أختاه بعد أن راحت أنامل الليل تمسح برفق خيوط الألم التي حاكتها متاعب النهار، وبدأ كل شيء هادئاً حالماً وعاد الصمت يعزف برفق لحن السعادة الخفي الذي انبثق من الأعماق ينساب انسياباً هادئاً فيشيع في النفس رضى ما كانت تجد إليه سبيلاً، ويبعث في الروح فيضاً غامراً من النشوة ما عهدته يوماً. . . وأعجب من ليل كيف استحال ظلامه الداكن إلى إشراقة من نور أرى على ضوئه معالم طريق جديد، وأعجب للكلام كيف استحالت قسوته إلى رقة فباتت تمسح عن القلب بعض جراحه، إنه الإيمان يا أختاه، وإنه الاطمئنان إلى رحمة الله يا وفاء. . .

وينبعث من الأعماق نداء هو كالنسيم في رقته والماء في عذوبته والسماء

في صفائها والزهور في روعتها. ولكنه نافذ واضح ملك الجوارح كلها فانقادت إليه انقياد الأسير إلى سجّانه وتطلعت نحوه تطلع الطفل إلى صدر أمّه فألقت عند ساحته رحلها وأرست عند شاطئه شفتيها، وأنصت للنداء وأنا أسمع في تموجات لحنه قصة المولد الجديد... أتراك عرفت يا وفاء طبيعة هذا النداء وحدود هذا الميلاد إنه نداء الإيمان وإنه رجع الآية المباركة التي تقول: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

ولهذا، فقد عرفت بأنني بدأت أحيى من جديد بعد أن ولدت من جديد وبعد أن كان القلب يسبّح في دياجير حالكة من العذاب نسجته لي الأيام فأحكمت نسيجه وكانت الروح ترسف في قيود قاهرة تشدّها إلى الواقع المرير سلاسل قاسية، وكان الفكر ميداناً لصراع مرير قاتل يتخبّط فيه خبط عشواء فلا يكاد يرى شيئاً فيتيه ببيداء بعيدة الأطراف ويلفّه الضياع... وامتدَّ الظلام عبر سني حياتي يصبغها باللون القاتم فيحيل كلّ شيء إلى ظلام، فكنت لا أرى إلاّ من خلال منظار أسود قاتم كئيب... وازداد تلاطم الأمواج وعصف الرياح وأوشكت سفينة حياتي أن تتهاوى إلى القاع حطاماً. ولكن عين الله الرحيمة الساهرة كانت ترى القارب الضعيف وهو يصارع الأمواج وتقلّبه يد القدر القاسية... فمن خلال الدموع وتضارب الأمواج وصخب الريح امتدّت إلى الغريق أنامل رقيقة ليد حانية هي أناملك يا وفاء أرسلتها إلى عين عناية الله لتمسح عن الفؤاد المرهق أتعابه وعن النفس المعذّبة أشجانها وعن الروح القلقة حيرتها، وقادت الفريق برفق وحنان إلى شاطىء السعادة والحياة... وتقهقرت فلول الكلام أمام إشاعات النور وأشرق الفجر يؤذّن بمولد يوم جديد لحياة جديدة ورفعت يدي إلى أعلى أهمس بكلمات لا يدرك معناها إلاّ من انطلقت إليه تلك المناجاة وكأنني كنت أزفّ إلى خالقي نبأ المولد الجديد وأعاهده على المضي قدماً في طريق مصدره منه ومنتهاه إليه.. ثم عدت لكي أسجّل لك نبأ المولد الجديد أيضاً فقد ولدت بفضل من الله وبهدي منك يا وفاء بعد أن عرفت منك معنى السعادة والشقاء في الحياة.

أدامك الله أختاً هادية واسلمي لي دائماً وأبداً.

رجاء

عزيزتي رجاء لا عدمتك

علم الله كم كنت أشعر بالسعادة وأنا أتابع سطورك وهي تبرز أمام عيني داخل إطار جديد ووسط هالة يبعث نورها الأمل ويحكي شعاعها عن المولد الجديد.. نعم سعدت فيها كما يسعد اللاعب وهو يربح الجولة الأولى التي تتبعها جولات... ولكن أيّة لعبة هذه؟ إنها لعبة الحياة عندما تحاول أن تتلاعب بالعواطف والألوان التي تصبغ بها الحوادث. ولهذا فإنني عندما أربح الجولة إنما أتقدّم خطوة لانتشال واحدة كادت أن تصبح إحدى ضحايا الحياة بواقعها المرير.. رائعة هي سطورك التي أملتها عليك روح الإيمان يا أختاه ولكن كان بودّي لو استبدلت بجملة (انقياد الأسير إلى سجّانه) بجملة أخرى تكون أكثر إشراقاً وأنطق بالسعادة والرضا بهذا الانقياد.. وأخيراً فإلى الأمام وإلى مزيد الشعور بنعمة الإيمان. اجعلي آمالك مركّزة في كلمة صالحة وسطور هادية، احصري اهتمامك في العمل من أجل الله وفي سبيل الله أحبّي لله واكرهي لله، واسخطي من أجل الله، وافرحي فيما يرضي الله فما خاب من اتجه إليه وتوكّل عليه. ثم دعيني أسمع عنك ما يفرحني ويسعدني يا رجاء وأستودعك الله الذي لا يخون الودائع.

وفاء

أختي العزيزة وفاء

سلام الله عليك يا هداي ورحمته وبركاته وسلامي وإخائي ووداي وبعد...

لا أدري أيّة حيرة هذه التي تتملكني فلا أكاد أتبين من أمري شيئاً؟ لا أريد أن أقول إنني عدلت عمّا وصلت إليه من سعادة الروح وهناء الفكر. ولا أقول إنني كنت في نزوة من السعادة المؤمنة فلا زلت أشعر بها ولا زلت أحيى بها حياتي الوليدة بفجرها الوليد ولكنني لا زلت أتألم ولا زلت لا أعرف مصدر هذا

الألم. قد تسألين لماذا؟ ولكنني لا أملك إلا جواباً واحداً وهو لست أدري!! أفتراني ما زلت أعيش حياة ما قبل الإيمان؟ ساعديني على اجتياز هذه المرحلة الحرجة يا وفاء. يا هداي كثيرون هم الذين مرّوا في حياتي وحاولوا أن يغيروا نظرتي للحياة ولكن فكري ما استجاب لهم يوماً ونفسي ما ارتضت لهم قولاً... أما أنت فيكفيك يا غاليتي أن أقول إنك أنت الوحيدة التي محوت تلك النظرة القائمة ومزّقت ظلالها الداكنة... ولكن أما آن الأوان لأن تقوضي صرح الألم الذي قام على أنقاض راحتي وأمني... ساعديني يا وفاء، حدثيني إن استطعت فلكم أجد في حديثك الأمن الذي أفتقده في حياتي، لأنه حديث الإيمان، وأحاديثه الخلاقة المعطاء. نعم حدثيني وأنيري في نفسي مشاعر الهدى أكثر فربما تستطيع أن تمسح عن هذه الروح بعض عذابها وأخيراً أرجو أن لا أكون قد أتعبتك بآلامي يا أعز أخت واسلمي لي دائماً.

رجاء

رجاء يا عزيزتي الغالية لا عدمتك...

سلام الله عليك ورحمته وبركاته وصدق سلامي ودعائي بعد...

إنّ الألم يا أُختاه ما هو إلاّ عاطفة موهومة سيما إذا كان لا يرتكز على قاعدة واضحة أو ينتسب إلى ناحية معينة.. إن في وسع أي شخص أن يمحو سطور الألم من قاموس حياته إذا نظر إلى مصدره بعين الواقع... والحقيقة... إنّ الألم غير الواعي والمدروس لا ينتج إلاّ تتابع الألم ولا يجرّ على صاحبه غير الحط المتصل من الآلام، إنّ آلام الحياة يا عزيزتي قاسية متحفزة تفتش أبداً عن صدر تعشش فيه وتنشب في حناياه أنيابها الحادة، فدافعي عن نفسك أمام هذا الوافد الثقيل وحصني صدرك عن أن يكون مرتعاً لهذا المتطفل البغيض... عالجي أحداث الحياة ببساطة ساعديني على استنفاذ روحك العزيزة من الأعاصير التي تعصف بها، فإنّ من الحيف أن تستسلمي لحكم هذه الأعاصير فتبتعد بك عن رحاب الله وتشغلك عن العبادة الخالصة المعطاء، ومن الحيف أيضاً أن تصلي إلى نبع الهداية ثم تعيدك عنه ريح عاصفة قبل الورود.

وأخيراً وليس آخراً أستودعك الله متمنية لك مزيداً من الصمود أمام الأهواء فما أنت إلاّ خلال فترة انتقال وفي حاجة إلى مزيد من الثبات والإعداد وأتمنى لك الموفقية دائماً وأبداً يا أُختاه وأستودعك الله.

أُختاه يا شقيقة الروح لا عدمتك...

كيف أنت يا عزيزتي؟ أرجو أن تكوني بخير وسلامة وعافية في الدين والدنيا.

ليتني أنسى كلمة الألم يا وفاء، وليتني أنسى حروفها بأسرها، ليتني أغفو على حلم جميل فأصحو عازمة على تحقيقه جادة في المضي فيه راسمة البسمة الصادقة المنبثقة من الأعماق لا المرسومة قسراً على الشفاه. أفتعلمين أي حلم هو هذا الذي أتمناه يا وفاء؟ إنه السعادة في ظلال الإيمان وإنه رفض الألم المتبقي من حياة الضيعة والحيرة، كم أتمنى أيتها العزيزة أن تختفي تلك الكلمة من قاموس حياتي فلا أعود أجد معناها الذي كنتُ أفرضه قسراً على نفسي لكي أنطلق في حياتي بلا قيد اسمه الألم وبلا سراب يصوّره الألم، وبلا عذاب يرسمه الألم، لقد بدأت يدك الحانية - وبأمر من الله تعالى - تكسر القيد وبدأ قلبك يمنح من فيض رحمته ما يمزّق ظلال العذاب، وبدأت أنتِ بكل شيء يتمثّل فيك ترسمين الطريق فتمهديه بالنور وتعبّديه بالهدى وتفرشين جوانبه زهوراً من الأمل يكاد عبيرها ينفذ إلى الأعماق فيمسح عنها كل ظل داكن، إنه الأمل برضاء الله ورضوانه وهل هناك ما هو أروع من هذا الأمل؟ ولكن أتراها فترة انتقال حقّاً يا أُختاه؟ ولكن من أين وإلى أين؟ إنها ليست من ضلال إلى هدى ومن شك إلى يقين فقط، بل إنها من الشقاء إلى السعادة ومن الظلام إلى النور ومن اليأس إلى الأمل ومن ألم إلى المنطق اللانهائي إلى الله إلى الدين الذي أبذل له نفسي رخيصة دون ثمن.

وها أنا ذي أرفع يدي إلى الله طالبة منه العزيمة والثبات وأنا في حاجة إلى مزيد من الدعاء واسلمي لي.

رجاء

عزيزتي رجاء لا عدمتك

إسمحي لي أن أقول لكِ مع مزيد من العتاب، أين كلماتك المشرقة بشعاع ينطلق من ومضات الهدى؟ أين تلك المعاني المتلألئة في كتاباتك وهي ناطقة عن البشارة بميلاد جديد؟ أين روح التفاؤل لتحدثني عن خطوات نجاحك في مغالبة الآلام، دعيني أقول لك وبصراحة بأنني شعرت بالخيبة، وليس أقسى على الإنسان من أن يرى أملاً يذوي بين يديه بعد أن علّق عليه الكثير، وكان هذا أمري معك يا رجاء. أنتِ ما زلتِ تتحدثين عن الألم ولكن أي ألم هو هذا الذي يبقيه نور الإيمان إذا أشرق على جنبات القلوب؟ إن عليك أن تتحدثي عن السعادة التي تطرق بابك رغم أنك في تجاهل لتلك الطرقات، فما أسعد الروح يا أختاه وهي تنفض عنها آلامها لترتفع إلى الملأ الأعلى نقية طاهرة وما أسعد الروح وهي تشرف على عالم خالد خلود الأزل كله رفعة وسموّاً وجلالاً. ما أسعد الروح وهي تبنى على أنقاض آلامها قلعة للإيمان لا تدكّ أسوارها مهما عزل الزمان.

أُختاه، ها أنا أنظر إليك اليوم لا كما كنتُ أنظر سابقاً، كنتُ أحبك لقلبك أما اليوم فأنا أحبك لروحك، روحك التي أحسّ بها ترتفع عن الدنيا لتكتمل بنور القدس، روحك التي عانت آلام الدنيا لتتعلّق برجاء عظيم جليل هو غاية كل نفس وأمل كل روح ذلك هو رضاء الله تعالى وتلك هي الجنة، ارفعي يدك إلى الله عزّ وجلّ كلّ حين واسأليه مزيداً من الإيمان ومزيداً من التقوى والهدى، إسأليه الرحمة والعون فإنه مجيب، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه فله الحمد وله الشكر، أكثري من قراءة القرآن الكريم فهو أعظم راحة للنفس وأعظم دواء للروح وأكبر مطهّر من الآثام أعبدي الله بقلب خاشع فإنا نعوذ بالله من قلب لا يخشع وعين لا تدمع، أذكريه في الليل ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦] فإلى الأمام يا عزيزتي وحاولي أن تتخلصي من شوائب الألم في حياتك لتنطلقي سعيدة محبورة في رحاب الله، وها أنا أنتظر منك ما يفرحني ويسعدني من أجلك ويرفع عني آثار الخيبة من جديد واسلميب لي وأستودعك الله.

وفاء

غاليتي وفاء ألف سلام وألف تحية ومزيد الوداد الاعتذار،

وبعد،

لا أدري ماذا أكتب؟ وإنما الإنسان الذي كان يتمنى الموت كلّ لحظة أصبح يرغب في الحياة، لا لأجل الحياة ذاتها وإنما لأجل غاية مثلى أصبح يسعى لتحقيقها ويهفو لبلوغ الغاية القصوى فيها ألا وهي عبادة الله. . . فمن هذا المنطلق بت لا أكترث بالحياة مهما تجنّت، وبالمصاعب مهما تفاقمت، وهل الحياة بآلامها وصعابها إلاّ ذرّة تسبح في هذا الكون اللانهائي؟ شعور بالرضى يغمرني أينما حللت، الرضى بكل شيء بالواقع الأليم، المستقبل الغامض، رضًى تطمئن إليه نفسي فأجد عنده السلوى والعزاء، علمتُ أنّ عجلة الحياة دائرة حزنتُ أم سعدت وعرفت أنّ عقارب الساعة لن تعود إلى الوراء وهي ما اكترثت يوماً لدمعة محزون وما التفتت لابتسامة سعيد، فلم نطالبها بأكثر ممّا تملك وبأكثر ما باستطاعتها أن تهب، ولهذا عدت إلى الأمل أحكي له قصة القلب السعيد فلم تعد آمالي من رمال بعد أن بدأت أبني من جديد ولكن بركائز من الإيمان ودعائم من اليقين. . . سوف لن أسمح للألم مهما كان أن يقعد بي في صومعة الأحزان فأنا أريد أن أنطلق صاعدة إلى عالم الطهر والإيمان، نعم إنني أريد الحياة الدنيا لأجل أن أبني خلالها دعائم السعادة في الحياة الثانية، وأخيراً وليس آخراً أتمنى أن يتقبلني الإيمان في رحابه العامرة وأرجو أن لا تنسيني من الدعاء يا وفاء واسلمي لي.

رجاء

عزيزتي رجاء يا أختي الغالية

لكِ مني أصدق الإخاء والوفاء وأجمل التحيات والدعوات والآن. . . دعيني لكي أقول الحمد لله، نعم، الحمد لله فإنّ هذا ما كنت أتمناه. أن يكون الإنسان الذي طالما تمنّى الموت أصبح يرغب بالحياة هذا ما كنتُ أتمناه مهما كانت الأسباب التي تدفعه إلى ذلك ما دامت صالحة ومثمرة، وهذا ما كنت أهفو إليه أن أجد روحك يغمرها شعور الرضى بكل ما حولك من أسباب الحياة، صحيح أن الحياة قد تقسو أحياناً ولكن هذه هي طبيعتها فلنسلم بالأمر

الواقع ونحاول أن نكيّف أنفسنا بشكل نتمكن معه من الصمود أمام قساوتها مهما كانت مرة... ستكون سطورك هذه شاهدة لك يوم القيامة في أنك استجبت لنداء الإيمان.

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]

وما أسعدني بهذا القلب السعيد الذي انطلق نحو رحاب الله بعزم شديد ووعي جديد تاركاً خلفه حياة المادة ودنياه اللعوب. فتقبّلي فائق دعائي وصادق إخائي وأستودعك الله الذي لا يخون الودائع.

وفاء

أختي الغالية وفاء لا عدمتك

في حياة مصدر هداية ومشكاة نور يا أختي سأكون قوية.. سأكون أقوى من الألم وأقوى من الحيرة.. سأبيد الألم وأسلوه من دون شوق، سأفارقه دون رجعة بعد أن اشتدّ ساعدي بسلاح الإيمان، سأهدم صرح الألم الشامخ ذاك الذي أقمته على أنقاض راحتي وسعادتي، لقد صحوت من بعد غفلة، صحوت لكي أنطلق في مسيرة النور نحو العفو الإلهي، نعم نحوك يا إلهي، فما أروع رحمتك حين يتحسسها العباد وما أهون الصعاب في سبيلك يا ربّ وما أروع العذاب من أجلك ما أيسر العسير في طريقك وما أحلى المرّ في الوصول إليك، هانت يا إلهي دمعة لا تذرف إلاّ من أجلك وبعدت يا مناي غاية لا تؤول إليك، إلهي أن تظافرت في حياتي طرق الشقاء فإنّ لي في طريقي إليك سعادة لا تدرك وإن أطبقت عليَّ سماء الدنيا فإنَّ لي في ذكرك أفقاً أرحب وأوسع، إلهي ما أروع أن أسعى إليك فأحجب عنك فتنطلق إليك روحي من قيود أسرها وتهرب إليك نفسي من ثقل حديدها، إلهي ما عدت أرغب إلاّ في رضاك ولا أطمع إلاّ في عفوك ولا أسعى إلاّ إلى فنائك.. إلهي، ما الدنيا إلاّ ساعة شوق إلى لقائك وما الحياة إلاّ ممر درب إلى فنائك، وما العمر إلاّ لحظات كفاح من أجلك وفي سبيلك، فاجعل حياتي يا ربّ كلمة رضا واجعل أعمالي يا إلهي ساعة جهاد واجعل روحي يا سيدي خفقة أمل ورجاء ترنو إلى عفوك وتشتاق إلى رفدك وتحنّ إلى رضاك.

إلهي ما باتت الصعاب تقرّبني إلاّ إليك وما برح العذاب يشدّني إلاّ إلى الأمل بك، وما طفقت الدموع تنطلق إلاّ في سبيلك لعلّك ربّ ترضى؟ فما أحوجني إلى رضاك وأخيراً وليس آخراً أستودعك الله يا أختي ولك مني مزيد الشكر ومن الله الثواب والأجر واسلمي لي.

رجاء

عزيزتي رجاء سلامي ودعائي وصادق ودّي وإخائي

بروحي أنت ما أغلاك عندي وما أروع بلورة روحك الحبيبة وما أروعك يا غاليتي وأنت في حديثك عن الرجاء في الله تبارك وتعالى، هذا الرجاء الذي يمكن الإنسان أن يقف باسماً وسط الدموع ويجعله يضحك بين الآهات، أنه رجاء برضاء الله وثوابه أن هذا الرجاء إذا نوَّر جنبات قلب الإنسان جعل وجهه يشرق بشعاع الأمل وهو في معترك الوحدة والوحشة، وإن هذا الرجاء هو الذي يساعد الإنسان المؤمن أن يفتح صدره للآلام برحابة وأن يمهّد قلبه لمرامي السهام برضا واقتناع وليس عن طريق اليأس والاستسلام، وإنّ هذا الرجاء هو الذي يحيل مرارة الحياة لدى المؤمن إلى حلاوة وعلقمها إلى بلسم وشدّتها إلى لين ودعة وقساوتها إلى رحمة وحنان، وإنّ هذا الرجاء هو الصفة التي يتّصف بها المؤمن كما وصفه الإمام عليه السلام عندما قال: «صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها متعلّقة بالمحل الأعلى». فما أصعب الحياة عند من لم يتطلع إلى مصدر هذا الرجاء وما أوعر مسالكها بالنسبة لمن لم يمهّد له هذا الرجاء منعطفاتها (سبحانك ما أوحش الطرق عل من لم تكن دليله) فالإيمان يا أختاه جنّة وارفة الظلال يلجأ إليها الإنسان هرباً من سموم الحياة وقيظها. الإيمان هو ذلك المنبع العذب الذي يمدّنا بالنور والسعادة والنعيم والإيمان، هو ذلك المعين الذي لا ينضب أبداً والذي يبقى للإنسان زاداً في الدنيا وذخراً في الآخرة، سيري في طريقك يا أختي واطرقي بيدك الضعيفة باب الرحمة الإلهية. وأستودعك الله واسلمي لي.

وفاء

أختي الغالية وفاء لا عدمتك

سلام الله عليك ورحمته وبركاته. . . كيف أنت يا أعز أخت أرجو أن تكوني بخير. . . منذ مدة لم أكتب إليك يا عزيزتي وما كنت في ذلك قالية ولا ساهية ولكن الكلمات كانت تعوضني عن السطور وما زلت والحمد لله رافلة في سعادة الإيمان ولكنني أشعر بالحاجة إلى مزيد من الاطمئنان. فأنا أخشى أن لا يقبلني الله عز وجل في عبيده؟ نعم إنني أخشى أن يطردني عن رحابه؟ لشدة ما يقلقني هذا يا أُختاه أفتراك مجيبة عنه ولو بكلمات. . . هذا واسلمي لي دائماً وأبداً أُختاً رحيمة هادية.

رجاء

غاليتي رجاء يا أُختي المصطفاة

حرسك الله بعينه التي لا تنام، وبعد

متى كان الله عز وجل يطرد عن بابه من طرق تلك الباب بيد الثقة والرجاء؟ ومتى كان عزّ وجل يصرف عن رحابه قلوباً ساقها الشوق إليه وقادتها العبودية المطلقة إلى التطلع نحو فيض حنانه والتماس غفرانه؟ نعم كيف يكون ذلك والحديث الشريف يقول: «من تقدم نحو الله خطوة تقدم الله نحوه عشر خطوات» والآية المباركة تقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] حاشا لله أن يتجاهل النغمات التي صاغها الإيمان لترتفع إليه نقية خالصة متبلورة. . . هذا وإليك مني أصدق الإخاء والدعاء وأستودعك الله الذي لا يخون الودائع واسلمي.

وفاء

بنت الهدى

٣

إمرأتان ورجل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الآن وبعد أن انتهى كل شيء حيث تربّعت حسنات على عرش السعادة زاعمة لنفسها أنّها قد رسمت خطوط المستقبل بشكل منسجم الزوايا والأبعاد.

الآن وقد انفضّ الجمع بعد أن حقق لحسنات أُمنية العمر، وبعد أن صفق لها طويلاً وهي تطوّق إصبعها بخاتم خطوبتها لفارس أحلامها الجميل.

الآن وقد أخلدت حسنات إلى فكرها تنسج منه خيوطاً ذهبية لحياة زوجية سعيدة منتظرة.

الآن وقد عاد كل إلى بيته وهو يمجّد العروس تارة، ويمجّد خطيبها تارة أُخرى.

الآن وقد حدث هذا وحدث ما هو أقسى من هذا بالنسبة إليّ، أعود أنا إلى غرفتي هذه يحطّمني السأم ويعذّبني الملل، نعم أعود أنا وحيدة غريبة وهل هناك أقسى من غربة الروح؟

ومَنْ أجدر منّي بالغربة وإن كنت بين أهلي وأصدقائي، أنّهم يتمردّون عليَّ بدعوى أنّني متمرِّدة وهم يبتعدون عنّي لحجّة أنّني منحرفة، ولكن أليسوا هم المنحرفين؟

أفلا يسمّى انحرافاً هذا التعقيد الّذي اختاروه لأنفسهم في الحياة؟

أليس انحرافاً هذه الأفكار الرجعيّة العتيقة الّتي جعلوا منها المحور الّذي تدور حولها تحرّكاتهم في الحياة؟ نعم، إنّهم هم المنحرفون.

حتّى حسنات هذه الّتي تحسب أنّها قد اتخذت لنفسها طريقاً صالحاً وتريد أن تجعل من نفسها قدّيسة حتّى حسنات هذه أليست منحرفة وشاذّة حينما وافقت على الزواج من إنسان لم تره ولم تتعرّف عليه من قبل؟ إنسان بعيد لم يكلّف نفسه حتّى مشقّة السفر لحضور العقد وإنّما اكتفى أن يوكّل أباه بدلاً عنه لماذا؟ لأنّه متديّن لأنّه يماثلها في الشذوذ، وإلاّ وإذا لم يكن شاذاً فلماذا يترك

فتيات أوروبا الجميلات ليفتش في الزوايا عن زوجة مثل حسنات؟ وهو لا يعوزه شيء عن التمتع كما يريد بأحلى الحسناوات وأغلاهنّ فهو شاب جميل، نعم جميل ومتمكّن مادياً.

فأي شذوذ وتعقيد دفعه أن ينصرف عن حسناوات انجلترا ليفتش عن فتاة مثل حسنات؟

صحيح أن حسنات جميلة أيضاً وعلى مستوى عالٍ من الثقافة، ولكنّني أكرهها وما كنت أتصوّر أنّها تحظى بعريس مثل هذا، ولكنّه معقّد على كل حال وسوف لا ولن تسعد معه حسنات.

إلى هنا انتهى حديث رحاب مع نفسها، فحاولت أن تشغل نفسها بشيء فأخذت قصّة لنجيب محفوظ اسمها (لا شيء يهم) وبدأت تقرأ وهي تحاول أن تصدق مع الكتاب أن لا شيء يهم. فلا الكرامة مهمّة ولا الضمير مهم ولا ما بعد الموت مهم، ولهذا فقد سهرت مع هذه القصّة الّتي كُتِبَت لها ولمثيلاتها إلى ساعة متأخِّرة من اللّيل.

□□

استيقظت رحاب في ساعة متأخِّرة من الصبح، فنهضت من فراشها متثاقلة فسمعت أصوات أُمّها وأخواتها تصلها من الغرفة المجاورة فخرجت إليهم وهي تتكلّف الابتسام، فطالعها وجه حسنات وهي في غلالة بيضاء وقد شاعت على وجهها اشراقة من الرضا والسعادة ألهبت النار في قلبها وأجّجت مشاعر الحسد والغيرة، ولكنّها تماسكت وحيّتهم بشكل طبيعي ثمّ استدارت نحو حسنات قائلة:

- وأنتِ كيف أنتِ يا عروسة؟

فردّت حسنات قائلة: بخير والحمد لله يا رحاب، وأرجو أن نراكِ عروسة أيضاً في أقرب وقت..

وكأن هذه الكلمات قد استفزّت رحاباً وفجّرت لديها بركان الغيرة والحسد فردّت قائلة في سخرية:

- لعل هناك رجلاً من قارة أفريقيا يرسل ليخطبني كما أرسل ليخطبك رجل من قارة أوروبا وكأنّ الرجال قد انعدموا من هنا.

ويبدو أن حسنات لم تشأ أن تفتح مع أُختها حديث الجدل فردّت قائلة باقتضاب:

- إنّ الله أعرف بالصالح يا أُختاه..

وهنا ضحكت رحاب بتهكّم ثمّ قالت:

- إنّني أعرف كيف أبني مستقبلي بيدي يا حسنات، فأنا لست مثلك ارتبط مع رجل لا أعرف عنه كل شيء..

وهنا رأت حسنات أن عليها أن تجيب دفاعاً عن الفكرة الّتي تؤمن بها فقالت:

- كيف تقولين أنّني لا أعرف عنه شيئاً، وأنا أعرف عنه كل شيء، ويكفي أن يكون إنساناً متديناً؟

قالت رحاب: وهل أن الدِّين هو كل شيء يا حسنات؟ إنّك ما زلت صغيرة وأخشى أن تتعرّفي على الواقع بعد فوات الأوان..

قالت حسنات: أي واقع تقصدين يا رحاب؟

قالت: مثلاً أن العروس في مثل هذه الأيّام ينبغي لها أن لا تفترق عن خطيبها ساعة لكي تتمكّن أن تحول بينه وبين الاتصال بغيرها، وليس مثلك أنت حيث تجلسين هنا بين جدران أربع ورجلك الّذي وهبت له وجودك يتقلّب بين أحضان الغانيات..

قالت حسنات: يؤسفني أن أقول بأنك غلطانة يا أُختاه، فأنا ما كنت أهب وجودي لرجل يتقلّب بين أحضان الغانيات، إن مصطفى رجل مؤمن مستقيم لا يقلِّب حتّى عينيه في وجوه الغانيات، وهذا هو ما دفعني إلى قبوله بكل سعادة ورضا، فما دمتُ أعلم أن لديه رادعاً من نفسه ودينه أكون واثقة منه في قربه وبُعده، لأن هذه هي الحصانة الوحيدة الّتي تلازمه في مكّة كان أو في باريس.

وحاولت رحاب أن تجيب، ولكن الأُم أرادت أن تقطع عليهما طريق الجدل والنقاش فتدخّلت بينهما قائلة:

- كفى كفى فإن لديكما الكثير من الأعمال، ولدينا ضيوف ظهر اليوم.

□□

مرّت الأيّام ناعمة وسعيدة بالنسبة لحسنات لولا مضايقات رحاب، وبطيئة وثقيلة بالنسبة لرحاب، فقد كان ممّا يغيظها جدّاً أن تجد حسنات سعيدة وأن تسمع التهاني والتبريكات تنهال عليها دونها، وبعد أُسبوع حيث كانت رحاب عائدة من وظيفتها إلى البيت وجدت ساعي البريد يحاول أن يطرق بابهم، وعندما وجدها داخلة سلّمها رسالة باسم أُختها حسنات، وكانت الرسالة تحمل طابع المملكة المتحدة، الشيء الّذي جعلها تعرف أنّها من مصطفى، فاستلمت الرسالة بيد ترتجف وبشكل لا اختياري أخفتها في حقيبتها ودخلت دون أن تشير إليها، ثمّ تعجّلت في الذهاب إلى غرفتها بعد الغداء، وهناك وبدافع شرير من الغيرة والحسد فتحت الرسالة، فطالعها خط جميل منمّق يحكي عن شخصية الكاتب، ثمّ بدأت تقرأ الرسالة فكانت:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عزيزتي حسنات، يا مَنْ اصطفيتك لنفسي على بُعد الطريق والمسافات، ها أنا أكتب إليك لأوّل مرّة وإن كنت قد عشت معك الأيّام الماضية بجميع أدوارها، عشت الأمل فيك، وعشت الانتظار لك، وعشت الشوق واللّهفة بعد أن طالت فترة تطلّعي نحوك يا حسنات، والآن وقد حقّق الله أملي، حيث وجدت فيك تلك الأُمنية الغالية، وذلك الكنز الثمين، وجدتني أكتب إليك عسى أن تعوّض الكتابة عن بعض مراتب الحرمان من اللقاء، ثمّ لكي أُحدِّثك عن نفسي، الّتي أصبحت نفسك منذ الآن.

فأنا إنسان أحببتك بعمق قبل أن أراك، لأنّني عرفت بأنّك تحبين ما أُحبّ، وتؤمنين بما أُؤمن به، وأنا إنسان أخلصت لك بصدق، منذ اللّحظة الّتي تمّ فيها ارتباطنا المقدّس، لأن هذا الارتباط لم يكن ليتم لولا إخلاصك لدينك،

واقتناعك بي من أجل ذلك، وأنا إنسان أجد في الحياة الزوجية شركة روحية وفكرية متجرِّدة عن المادّية وزيفها، ولهذا اخترتك أنت دون سواك، لكي نبني معاً حياة زوجية مثالية، مفروشة بزهور الإيمان، منارة بأشعة القرآن، مدعومة بتعاليم الإسلام، كلّها حب، وكلّها وداد، وكلّها إخلاص ووفاء، فأنا لله أوّلاً ولك ثانياً بكل وجودي ما دمت أنت لله أولاً ولي ثانياً بكل وجودك يا حسنات، فليبارك الله وحدتنا الروحية، وليرع حبّنا بعين رعايته، وليسدِّد خطواتنا للسير على دربه.

وأخيراً، فقد كان بودِّي لو أُطيل معك أكثر فأكثر، لأن حديثي معك طويل وطويل، ولكنّني أنتظر منك الجواب لأعرف منه ذوقك بقصر الرسالة وطولها، فتقبّلي تحياتي وحبِّي، واسلمي لإيمانك ولي إلى الأبد.

مصطفى

ملاحظة: أرجو أن تتقبّلي صورتي الّتي تجدينها مع هذه الرسالة مع طلب صورة منك في أسرع وقت.

أتمّت رحاب قراءة الرسالة وهي تشعر المرير من الألم، وكأن عذوبة كلماتها كانت بالنسبة لها لذعات من نار، ودفعها حقدها أن تتخذ وبشكل نهائي قرارها بعدم تسليم الرسالة إلى حسنات، وانقضى يومها ذاك وهي بين الألم والحيرة، ألمها لوجود الرسالة، وحيرتها لاختيار الطريقة الّتي تتخلّص بها منها، فهي لا تفتأ تعيد القراءة بين حين وحين، وكلّما أعادتها تضاعف لديها احساس الألم، وتمّنت لو كانت هذه الرسالة موجّهة إليها دون حسنات.

وفي اللّيل، وعندما تقدّمت ساعاته وعيناها لم تجد للنوم سبيلاً، جلست على سريرها لتعيد قراءة الرسالة للمرّة العاشرة من جديد.. وحدّثت نفسها تقول: الخط جميل، والصورة أجمل، والكلمات عذبة، تحكي عن روح أعذب بكثير، لشدّ ما كانت تفرح بها حسنات لو وصلتها، لا شك أنّها كانت تبدو سعيدة بعد استلامها، وسعادتها لا تريحني أبداً.. وإلى هنا قرّرت رحاب تمزيق الرسالة لكي لا يمكن لها أن تصل إلى يد حسنات، وقبل أن تبدأ بالتمزيق خطرت لها فكرة، فردّدت مع نفسها قائلة:

كلاّ إنّني لن أُمزّقها ولكنّني سوف أُحرقها فإن ممّا يلذ لي أن أُتابع النار وهي تلتهم كلماتها الرقيقة (الدينيّة).

قالت هذا ثمّ ذهبت إلى خزانتها تفتش عن شمعة، فوجدت عدداً من الشموع الملوّنة الصغار مطوّقة بشريط ذهبي كُتِبَ عليه: عيد ميلاد سعيد مع تمنياتي لك بالسعادة والإيمان.. فضحكت في عصبية، واستخرجت شمعة منها وهي تقول:

لطيف أن أُحرق رسالة مصطفى إليها بالشموع الّتي أهدتها هي إليَّ، نعم أن هذه الشمعة الصغيرة النحيلة واحدة من مجموعة الشموع الّتي أهدتها إليَّ بمناسبة عيد ميلادي الثامن عشر، وقد بقيت حتّى الآن رهينة هذه الخزانة تنتظر أن تكون أداة حرق لرسالة مصطفى وبالتالي أداة حرق لراحتها وسعادتها.

وكانت رحاب خلال ذلك توقد الشمعة وتحاول أن تثبّتها على حافّة المنضدة ثمّ أخذت الرسالة بيدها لتدنيها من النار، وهناك خطرت لها فكرة، فما جدوى أن تحرق هذه الرسالة لأنّه سوف يرسل لها رسالة ثانية وثالثة وسوف لن يصدف لها أن تجد ساعي البريد أمام الباب في كل مرّة، إذن فإن احراق هذه الرسالة وحده لا يكفي، ولا يجدي شيئاً، وفكّرت لحظات، ثمّ لاحت لها فكرة سرعان ما اقتنعت بصوابها، فهي سوف تكتب إلى مصطفى بدلاً عن حسنات، وسوف تحاول بكتابتها أن تحطّم في نفسه هذه الثقة بحسنات، ثمّ إن عليها أيضاً أن تعطيه عنواناً آخر غير عنوان هذا البيت، وهذا ليس بالصعب عليها فهي تتمكّن أن تعطي عنوان دائرتها ولكن باسم صديقتها هناك، وفعلاً فقد صمّمت أن تنفّذ هذه الفكرة، إذن فإن عليها أن تحتفظ بالرسالة، فلعلّها سوف تحتاج إلى مراجعتها فيما تكتب، فجلست لكي تكتب إلى مصطفى قائلة:

عزيزي مصطفى:

استلمتُ رسالتك مع مزيد الشكر، فأعجبني فيها أُسلوبك المهذّب وكلماتك الرقيقة، وحسناً صنعت باختصار الرسالة لأنّني لا أُحب الاطالة بالكتابة..

أمّا ما ذكرت من أن الكتابة قد تعوّض عن اللقاء، فهو أمر وهمي، قد يوحيه

الإنسان الخيالي إلى نفسه من أجل اقناعها، وإلاّ فأي جدوى للرسائل؟ وماذا عساها تغني؟ ما دمت لا أعرف أين أنت؟ وكيف أنت؟ وبأي شكل تعيش؟ أو مع مَنْ تعيش؟ وأنت في تلك الأرض الزاخرة بجميع ملاذ الحياة ومتعها، فماذا سوف يتبقّى منك لي يا ترى؟

ثمّ ألا تجد معي أن حاجتنا لأن نعيش الدِّين هكذا وبالشكل الّذي ذكرته في رسالتك قد انتهت، فلم تعد هناك متناقضات طبقية أو فئات ظالمة مستغلّة، كما أنّه لم تعد هناك أيضاً مجموعة ضعيفة مستغلّة، لكي يدعونا ذلك لنفتش بين جوانب هذا الظلم عن منفذ، ونبحث خلال هذه الظلمة عن كوّة من نور، ثمّ لا نتمكّن أن نجد المنفذ لصلابة البناء الغاشم ولا نهتدي إلى النور لحلكة الظلام القاتم فلا يسعنا حيال ذلك إلا أن نوجد لنا - مختارين - قوّة عليا، هي أعلى من الظلم، وأقوى من الظلام، ثمّ نبدأ نوحي لأنفسنا الأمل بهذه القوّة، وبانتظار حلّها لمشاكلنا ورفعها لآلامنا ومحننا.. إن هذا هو السبب الّذي طرح على صعيد العالم فكرة الإيمان بالله، وفكرة الدِّين نتيجة لذلك.

ولهذا أفلا تجد معي أننا لم نعد في حاجة لشيء ممّا ذكرت بعد أن عرفت البشريّة كيف تحقق لها العدالة المتوخّاة؟

هذا وإنّني أستمحيك عذراً إذا كنتُ قد جابهتك بما لا يعجبك من الأفكار، ولكنّني إنسانة صريحة وأُحبّ أن أتعامل مع الآخرين على أساس الصراحة، ولك منّي أخيراً تحياتي وتمنياتي.

حسنات

ملاحظة: أرجو إرسال الجواب وكل رسالة أُخرى على العنوان الآتي:

مديرية الري - قسم الاحصاء

الآنسة ميّادة ناجي

بادرت رحاب إلى إبراد الرسالة على العنوان الّذي ذكره مصطفى في رسالته، وقد استشعرت بشيء قليل من تأنيب الضمير لأن رسالتها كانت كفيلة

بهدم سعادة أُختها، ولكنّها استعادت طاقات الحقد الموجودة لديها وأبعدت عنها التفكير بتأنيب الضمير، وبقيت تنتظر النتائج.

□□

وصلت الرسالة إلى مصطفى، فاستلمها على لهفة الشوق والحنين، وأسرع إلى قراءتها بفرحة وسعادة، ولكنّه سرعان ما أحسّ بالصدمة والخيبة، ثمّ بالذهول والحيرة، وحاول أن يكذِّب عينيه، فأعاد القراءة من جديد، ولكن إعادة القراءة لم تزده إلاّ يقيناً بما يرى، أنّها حسنات، الفتاة الطيبة المؤمنة الطاهرة الّتي اختارتها له أُخته زينب ومدحتها له بشكل جعله يقدم على خطوبتها حتّى دون أن يراها، نعم إنّها حسنات، تلك الّتي عقد على حياته معها الآمال الكبار، والأماني العذاب، فإذا بها تكتب إليه لتقول وبصراحة بأنّها لا تؤمن حتّى بوجود الله!! فما أقسى هذا وأدهاه؟

ولكن كيف حدث هذا يا ترى؟ وكيف انخدعت بها زينب على هذا الشكل، وهي صديقتها المفضّلة، ثمّ كيف له أن يتصرّف حيال هذا الموقف المرير؟

وحاول مصطفى أن يفكِّر بموقفه بعد أن تخلّص قليلاً من هول الصّدمة، فكان أوّل ما خطر له أن يرسل إلى زينب رسالة تأنيب ومعها توكيل بالطّلاق، ولكنّه عاد فخطر له أن تعجله بالطّلاق يعني تهرّباً من مسؤوليته تجاهها، وهي مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلعلّه الآن قادر على محاولة هدايتها، وله بعد ذلك وعلى فرض نجاحه أو فشله أن يتصرّف تجاهها كما يشاء، وكان كلّما فكّر أكثر ترجّحت عنده هذه الخطوة، فكتب إليها الجواب، وحرص أن يكون جواباً للشبهة لا أكثر ولا أقل فكان هكذا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

السلام عليك يا حسنات ورحمة الله وبركاته.

يؤسفني أن أكون قد أبطأتُ عنكِ في الكتابة ولكنّني كنتُ خلال هذه الفترة أُحاول أن أتخلّص من آثار الصدمة الّتي صُدمتها بك، بعد أن استلمت رسالتك الصريحة (على حد تعبيرك)، وحينما عجزت عن التخلّص من الصدمة عدت

إلى واجبي الديني تجاهك، وقد وقفت أمام ما كتبتِ عن عدم الحاجة إلى الدِّين وقفة الحزين، أفتراك جادّة فيما كتبتِ أم أنّكِ كنتِ تهزلين؟ ولا أدري أي وضع مؤسف أملى عليك هذه الأفكار؟ وبما أنّك وكما أرى ضحيّة من ضحايا الخداع والتضليل، فإنّني أكتب إليك كما يكتب الأخ لأُخته، مستشعراً بالمسؤوليّة الدينيّة والاجتماعيّة تجاهك.

أمّا ما ذكرتيه في خصوص ارتفاع حاجتنا عن الإيمان بالله، وبالتالي عن الدِّين، فاعلمي أنّ الإيمان بالله - الّذي هو الطريق إلى الدِّين - ليس كما تتوهّمين وليد فترة ظلم أو استغلال لأنه وُجِدَ قبل أن يوجد الظلم، وقبل أن يوجد الاختلاف والتباين في الطبقات، إنّه ليس وليد تناقض طبقي كما خيِّل لك، وإلاّ فأي تناقض طبقي يمكن أن يتصوّره الإنسان في بداية الخليقة؟ حيث كان الغذاء واحداً، والكساء واحداً، وحدود المعرفة واحدة، والإيمان بالله وُجِدَ منذ بدء الخليقة، ومنذ عرف الإنسان معنى الوجود.

ولعلّك هنا تتساءلين، كيف يمكن لي أن أدّعي هذا وأُؤكِّد عليه؟ ولكن ألا ترين أن لكل شيء آثاراً وسماتٍ، وآثار الشيء ترسم وجودها على صفحات التاريخ، والتاريخ يحمل إلينا ذلك بوضوح، وهاك بعض الأمثلة على ذلك..

ففي مصر مثلاً، كان المصريون من أعرق الأُمم الّتي آمنت بالروح والبعث والثواب، والعقاب، ولكن على مستوى فهمهم البدائي لكل ذلك، ورمزوا للروح رموزاً عديدة تارة (كا) وتارة زهرة وتارة رمزوا إليه بصورة طائر له زي ووجه آدمي، وصور هذه الرموز وآثارها ما زالت واضحة بين الآثار، وفي صفحات التاريخ، ثمّ عبادتهم البدائية لفتاح، وما كانوا عليه في تلك الفترة من محاولة التقرّب إلى المعاني الروحية كما جاء في إحدى صلوات فتاح (الفؤاد واللسان للمعبودات ومنه يبدأ الفهم والمقال، فلا ينبعث من ذهن ولا لسان فكر أو قول بين الأرباب أو الناس أو الأحياء أو كل ذي وجود إلاّ وهو من وحي فتاح)، ثمّ وبعد ذلك، وحين تولّى اخناتون الملك، وقد كان معروفاً بالتأمّل والتفكير، بدأ يصحِّح (وعلى مدى امكانياته وطاقاته الفكريّة) من طبيعة العبادة كما جاء في صلواته الّتي يحفظها التاريخ قوله: (ما أكثر خلائقك الّتي

نجهلها، أنت الإله الأحد الّذي لا إله غيره، خلقت الأرض بمشيئتك، وتفرّدت فعمّرت الكون بالإنسان والحيوان والكبار والصغار).

هذا في مصر، أمّا في الهند، فقد اختلف المؤرِّخون المختصّون بتدوين تاريخ الهند، اختلفوا في تحديد العصر الّذي تمّ فيه التديّن لديهم، والإيمان بفكرة وجود إله معبود، فمنهم من يردّه إلى ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد، ومنهم من يردّه إلى ستّة آلاف سنة قبل الميلاد، كما قال (ماكس موللر) الّذي يعدّ حجّة في اللّغات الأوروبيّة، قال: أيّاً كان العصر الّذي تمّ فيه جمع الأناشيد المسطورة في - الريفيدا - فقبل ذلك العصر كان بين الهنود مؤمنون بالله الأحد الّذي لا هو بذكر ولا بأُنثى ولا تحدّه أحوال التشخيص وقيود الطبيعة الإنسانيّة. وأيضاً يترجم (موللر) نشيد نسّاك الهند الّذي تغنّى به الهنود قبل الميلاد المسيحي بحوالي خمسة قرون يترجمه فنجد فيه ما يلي (لم يكن ثمة نهار ولا ليل ولم يكن إلاّ «الأحد» يتنفس حيث لا أنفاس ولا شيء سواه).

وكذلك في الصين فقد عُبدت لديهم الشمس والقمر والكواكب والرياح وأكبر إله عبدوه هو إله السماء، وكان إله السماء بالنسلة لهم هو الإله الّذي يصرِّف الأكوان ويدبِّر الأُمور ويرسم لكل إنسان مجرى حياته.

وفي فارس كما جاء على لسان زرادشت، وهو يسأل هرمز المعبود: (يا هرمز الرحيم صانع العالم المشهود، يا أيُّها القدس الأقدس أي شيء هو أقوى القوى جميعاً في الملك والملكوت؟ فيقول هرمز: هو اسمي الّذي يتجلّى في أرواح عليني فهو أقوى القوى في عالم الملكوت). كما أنّهم كانوا يؤمنون بوجود قنطرة تسمّى قنطرة (شنفادا) تتوافى إليها أرواح الأبرار والأشرار على السواء بعد خروجها من أجسادها، فيلقاها هناك (رشنوه) ملك العدل و(ميترا) رب النور وينصبان لها الميزان ويسألانها عمّا لديها من الأعذار والشفاعات ثمّ يفتحان لها باب النعيم أو باب الجحيم.

وفي بابل حيث توجد الحضارة البابلية الّتي هي أقدم الحضارات تاريخيّاً، فان آثار إيمانهم بوجود خالق ما زالت ثابتة عن طريق الآثار، وممّا يذكر منها (ايا) إله الماء العذب و(أنو) إله السماء و(مردوخ) ربّ الجنود وسيِّد الحرب.

وفي اليونان حيث الحضارة الاغريقية القديمة كان (اكسينوفون) المولود قبل الميلاد بنحو ستّة قرون، أوّل من نقل إلى الاغريق فكرة الإله الواحد المنزّه عن الأشباه، فكان ينعى على قومه أنّهم يعبدون أرباباً على مثال أبناء الفناء.. ثمّ إنّنا نتمكّن أن نستخلص من التاريخ أن الإنسان قد آمن بفكرة الإله الواحد قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون.

هذه يا حسنات نبذ صغيرة، ولمحات قصيرة، تدل وبوضوح على أسبقية فكرة الإيمان بالله لكل ما ذكرت من أسباب، وإنّني حينما أذكرها لك لا أُريد أن أقول أنّها وبجميع أدوارها فكر صحيحة متبلورة، فهي خاضعة كما ترين لمستوى الانحطاط الفكري لكل جيل تمرّ فيه، وهي مشوبة كما ترين أيضاً بطبيعة الأفكار المعاشة في ذلك العصر، ولهذا نجدها في أغلب حالاتها مغايرة للإيمان بالوحدانيّة المطلقة وإن كانت تدل بوضوح على وجود الإيمان بالله، ولكن بشكل يلائم النضوج الفكري المعاش حينذاك.

أرجو أن لا أكون قد أطلت عليك، ولعلّك لو قرأت كتاب(الله) للعقاد لازددت معرفة بما ذكرت، ويقيناً بما كتبت، والله من وراء القصد، وأتمنّى لك كل خير.

مصطفى

انتهت رحاب من قراءة الرسالة، وباتت ليلتها تلك مؤرقة تفكّر فيما كتب مصطفى، وتحاول أن تطابق بينه وبين ما تعرف لتجد أي المعرفتين أقوى، وأيّهما تستند إلى قواعد أصلب، وركائز أعمق، ولم تتمكّن أن تتوصّل إلى شيء عن طريق الفكر، فتوجّهت نحو طريق العناد، نعم العناد الّذي سيطر عليها دائماً وأبداً، فنشطت منذ الصباح إلى الكتابة وقبل أن ترى أُختها حسنات، خشية أن تستشعر شيئاً من العواطف الّتي تقعد بها عن الكتابة، سيما أنّها كانت تجد حسنات في الفترة الأخيرة طويلة الصمت، قليلة الضحك، قد لوّنت صفاء وجهها مسحة من شحوب، وكانت تعلم أن ذلك من أجل مصطفى ولسبب عدم تسلّمها رسالة منه، وكانت هي يلذّ لها أحياناً، ويؤلمها في فترات

قليلة عندما كان تأنيب الضمير يلحّ عليها بشدّة، ولهذا فقد كتبت الجواب قبل أن تبرح الغرفة وسارعت إلى إبراده نفس اليوم، وقد كتبت إليه تقول:

عزيزي مصطفى:

يعزّ عليّ أن أجدك متألماً لصراحتي، وقد كنت أنتظر منك كلاماً رقيقاً ناعماً على غرار كلماتك في الرسالة الأولى، ولكنّك اندفعت وراء إثبات أفكارك تاركاً جانباً إثبات عواطفك، ولعلّك وجدتني غير أهل لها فأهملتها.

وعلى أي حال فإن جوابك عن قدم الإيمان بالله لطيف، والأدلّة التاريخيّة واضحة.

ولكنّني لا أزال أقول أنّ الإيمان بالله ليس إلاّ وسيلة الضعفاء عند شعورهم بالعجز أمام الأقوياء، أن هذا الضعيف حينما يجد أنّه عاجز عن صيانة نفسه ودفع الخطر عنها، يبدأ يفتش عن قوّة وهمية، تحميه وتذود عنه الخطر، ومن هنا نشأت فكرة الإيمان بالله، وبالتالي فكرة الدين.

هذا ما أعتقده يا مصطفى، وحينما كنّا لسنا بضعفاء، أو حينما كنّا نتمكّن أن ندفع عن أنفسنا الخطر بمختلف أساليب الوقاية والحماية الّتي هي متوفرة الأن، لما كنّا هكذا، فلماذا نعود لنرتبط مع مجهول من أجل أن نستمد منه الطاقة الّتي لم تعد تعوزنا في هذه العصور، نعم لماذا يا ترى؟

ليتك تجيبني إن استطعت، هذا ولك منّي تحياتي وأنا في انتظار الجواب.

حسنات

بقيت رحاب تنتظر الجواب في لهفة تختلف عن لهفتها السابقة، فهي الآن تريد أن تسمع الجواب عن سؤالها بعد أن استوعبت الجواب الأوّل وصدّقت فيه، وكانت قد بدأت تخشى افتضاح أمرها الشيء الّذي لم تلتفت إليه من قبل، فماذا لو عادت أُخته من سفرها؟ وماذا لو كتب لها معاتباً لاختيارها؟ وماذا لو استنكرت أُخته ذلك وبحيث الموضوع مع حسنات وهي صديقتها المفضّلة؟ وماذا لو عرف كل شيء؟

وكانت كلّما وصلت في تصوّراتها إلى هنا شعرت بالاختناق، فحاولت أن تبعد عنها هذه التصوّرات لكي تبقى سائرة في خطواتها إلى آخر الطريق.

ولم تطل بها فترة الانتظار، فقد استلمت الجواب وتعجّلت قراءته في هذه المرّة من أجل أن تسمع الجواب عمّا سألت وقد وجدت فيه ما يلي:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عزيزتي حسنات:

ألف سلام وألف تحيّة..

سرّني جوابك لما فيه من انسجام (نسبي) مع ما كتبت، أرجو أن تكون هذه بداية الانجسام الفكري الكامل، ولكنّني عجبت لأمرك وأنت تتصوّرين أنّ الإيمان بالله نتيجة الضعف لدى الإنسان، ولو صحّ ما تقولين لكان من المفروض أن نجد الأنبياء والدّعاة إلى الله هم أضعف البشر في كل دور من الأدوار، مع أنّنا نجد أنّ الأنبياء الّذين دعوا إلى الله، وإلى الإيمان بالله، كانوا من القوّة بمكان.

فهذا نبي الله نوح عليه السلام مثلاً، استمرّ يدعو قومه للإيمان بالله تسعمائة وخمسين سنة دون أن يتعب أو يمل، ثمّ كيف أنّه بنى السفينة بنفسه، وتحمّل خلال البناء شتّى أساليب التقريح، والتفنيد، والتهديد، والوعيد، دون أن يتردّد أو يتراجع، ثمّ وبعد ذلك حينما طغى الماء على أمر قد قدر، ركب السفينة هو وأهل بيته آمناً مطمئناً لم يرهبه الموج الطامي، ولم يزعزع عواطفه الابن العاصي، أَوَليس في هذا دليل على قوّة الإرادة وثبات الشخصية يا حسنات؟

ثمّ هذا نبي الله إبراهيم عليه السلام، وموقفه الصامد أمام الأعداء، ورفضه كل مهادنة ومساومة حتّى هدّدوه بالحرق وهو واقف حيث وضع الله أقدامه لا يريم، ثمّ يؤتى به يشهد النار الّتي توقد لاحراقه، وهم يراجعونه بين حين وحين عساه يضعف أو ينهار دون أن تهن له قوّة أو ينهار له بناء، ثمّ يُرمى به من علٍ إلى النار دون أن تسمع منه كلمة تظلّم أو ترحّم فتكون النار عليه برداً وسلاماً،

فهل هناك دليل على القوّة والصلابة أكثر من هذا؟ أو هل هناك مَنْ يتمكّن أن ينسب إلى هذا الإنسان الضعف والخمول يا ترى؟

ونبي الله موسى عليه السلام، يدخل على فرعون وهو الطاغية الجبار، وليس معه سوى أخيه، وكلمة الحق، فيدعوه إلى الإيمان بالله غير عابىء بكل ما ينتظره من أهوال وأهوال، أَوَليس في هذا دليل على القوّة والصرامة؟

ونبي الله عيسى عليه السلام، وصموده في الدعوة إلى الله.

ونبينا محمّد صلى الله عليه وآله وما لاقاه في سبيل الدعوة إلى الإيمان بالله دون أن يتطرّق إليه الضعف أو الوهن، حتّى أنّه حينما أجمعت قريش على محاربته وطلبت منه أن يترك الدعوة للإيمان بالله قال: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته».

وتاريخ الرسول صلى الله عليه وآله يشرح من بطولاته كل شيء، وإنّني أطلب منك أن تقرئي سيرة الرسول صلى الله عليه وآله فلعلّك تجهلين عنه الشيء الكثير لكي تتمكّني أن تعرفي بعد ذلك كيف أن الأنبياء كانوا من أقوى الناس جأشاً، وأكثرهم صلابة، وأشجعهم روحاً، ثمّ ليتك تقرئين كتاب (قصّة الإيمان) فإن فيه متعة وفائدة..

هذا واعلمي أنّني على استعداد للجواب عن أي سؤال.

مصطفى

بينما كانت رحاب تعيش أيّام انتظار للجواب، وإعداد للرسالة، وتأنيب ضمير خفي، تستنكره وتنكر على نفسها الانقياد إليه، كانت حسنات تطوي ضلوعها على ألم دفين تستنكره وتنكر على نفسها الانقياد إليه أيضاً، وطالما حدّثتها نفسها بالخيبة، وطالما أوحت إليها تصوّراتها أقسى الايحاءات، فبماذا كانت تتمكّن أن تؤوّل هذا الموقف المنكمش من خطيبها وزوجها الموعود؟

ألم يكن من أدنى مستلزمات اللياقة أن يرسل إليها رسالة ولو صغيرة؟ ألم

يكن من التهذيب في شيء أن يرسل إليها صورته بعد أن علم أنّها لا تملك له صورة؟

وكانت هذه التصوّرات تلحّ عليها عنيفة تارة ورفيقة أُخرى وهي بين كل ذلك لا تريد أن تصدِّق ما تلمسه من واقع فتحاول أن تنتحل لموقفه هذا شتّى الأعذار، وتبرِّره بمختلف التبريرات، لعلّه مشغول، أو لعلّه يخجل من الكتابة، أو لعلّه يكتب فلا تصل رسائله، وكان هذا العذر الأخير هو أحبّ الأعذار إليها، فان ممّا يسعدها أن تتصوّره يكتب إليها كما يكتب غيره، ويهتم بأمرها ويفكِّر بها كما تهتم بأمره، وتفكِّر فيه، وهي في كل ذلك تنتظر عودة أُخته من السفر بعد انتهاء السنة الدراسية لعلّها تعرف منها شيئاً عن أخيها، وكانت تحاول أن تصرف نفسها عن التفكير بكثرة المطالعة والكتابة.

وفي مرّة، وكانت تجلس في غرفتها تقرأ، دخلت عليها رحاب، فاستغربت قدومها ولم تعوِّدها ذلك من قبل، ولهذا فقد رحّبت بها واستقبلتها بحفاوة، فجلست رحاب على طرف السرير، وكان الارتباك يظهر عليها بوضوح، وكأنّها لا تعرف ماذا يجب أن تفعل، فابتدرتها حسنات قائلة:

- أراك لم تذهبي إلى وظيفتك اليوم يا رحاب، أرجو أن لا تكوني مريضة؟

فهزّت رحاب رأسها في حيرة ثمّ قالت:

- الواقع أنّني كنت أشعر بصداع شديد، ولهذا فقد اتصلت بصديقتي هناك وطلبت منها تقديم إجازة بدلاً عنّي، ولكنّني الآن أشعر بالسأم فهل عندك كتاب أقرأ فيه؟

فاستغربت حسنات من أُختها هذا الطلب، وأُختها تعلم أنّها لا تملك الكتب الّتي تعجبها هي، ولكنّها لم تشأ أن تصدمها في الجواب فقالت:

- أمامك كتبي فتشي بينها عما يعجبك يا رحاب.

فنهضت رحاب وأخذت تفتش بين الكتب وحسنات تتطلّع إليها لتعرف أي كتاب سوف تختاره، وفوجئت عندما وجدتها تختار كتاب (قصّة الإيمان)، وكتاب (موكب النور في سيرة الرسول)، وكأن رحاباً لم تعرف كيف تتصرّف

أمام أُختها وبماذا تفسير لها رغبتها في مطالعة هذه الكتب، ولهذا فقد أسرعت بالذهاب إلى غرفتها قبل أن تسأل وتجيب.

أمّا حسنات فقد شعرت بالفرحة، فما أحلى أن تعود رحاب أُختها إلى حظيرة الإيمان، لقد أسعدها أن تجد أُختها الضائعة السادرة في التيه وقد بدأت تفتش عن معالم الطريق، أسعدها ذلك وأشغلها عن مشاعر الألم لديها إلى فترة.

فقد أخذت تتصوّر رحاباً وقد آمنت والتزمت بتعاليم الإسلام ثمّ يتقدّم إليها خاطب مؤمن صالح مثل مصطفى..

وهنا وقف بها التفكير عند هذا.. مصطفى وكيف هو مصطفى يا تُرى؟ وعادت أفكارها القاتمة تلحّ عليها من جديد، فعادت إلى الكتاب الّذي بين يديها تستجمع أفكارها بين سطوره من جديد أيضاً.

□□

اندمجت رحاب مع مطالعة الكتابين، ولكنّها لم تغفل عن الكتابة إلى مصطفى فقد أصبحت تشعر بالحاجة إلى المزيد فكتبت إليه تقول:

عزيزي مصطفى:

لعلّني أبطأت عليك في رسالتي، ولكن مطالعة الكتابين اللّذين طلبت منّي مطالعتهما قد شغلتني إلى حين..

والآن دعني أقول لك بأنّك تتحدّث بأُسلوب لطيف ومقنع إلى حدٍّ ما.

وقد قرأت سيرة الرسول الّتي أرشدتني إليها، وعشت معها أيّاماً حلوة، وعرفت منها ما لم أكن أعرف عن محمّد بن عبد الله، كما أنّني بدأت أقرأ (قصة الإيمان)، وقد وجدتها تجيبني عن أكثر من سؤال، كما يراودني ويلح عليَّ، فقد كنت مثلاً ولا أزال لا أفهم كيف يمكن لي أن أعبد ربّاً لم أره، ولم تدركه الحواس الخمس الّتي هي مصدر كل ادراك! أَوَليس في هذه العبادة شيء من التقليد القائم على الوهم؟

يؤسفني أن أُزعجك بهذه التساؤلات، ولكنّي أصبحتُ أشعر بالحاجة لردِّك عليها، وهذه الحاجة أخذت تسلّمني إلى الكثير من القلق، فلعلّ في رسائلك أو في قصّة الإيمان ما يهبني الاستقرار.

هذا وأرجو لك كل خير وأطلب منك العذر.

حسنات

□□

وصلت رسالة رحاب إلى مصطفى وكان ينتظرها ليحدِّد موقفه منها على مدى ما تحمله أو تشير إليه من تجاوب، فلووجدها سلبية بالمرة لسقط عنه الواجب الشرعي تجاهها لعدم احتمال الفائدة، ولو وجدها تحمل بعض مراتب التجاوب فسوف يستمر واجبه الشرعي تجاهها كإنسانة ضالّة، وليس كزوجة.

فهو لم يعد يفكِّر بها كزوجة وشريكة حياة مع ما هي عليه من وضع منحرف ضال، ولكنّه عندما وجدها قد اقتنعت بما كتب، وقرأت ما اقترح، وها هي تسأله من جديد، وجد أن عليه أن يكتب، فكتب إليها ما يلي:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السلام عليك يا حسنات ورحمة الله وبركاته..

الحمد لله الّذي جعلني أكتب إليك بروح تفاؤلية جديدة، فقد استبشرت بما كتبتِ، وقد رحّبت بالسؤال الّذي وجّهتيه إليّ، فهو دليل على رغبتك بالمعرفة، ولكن جوابي لك في هذه المرّة قصير، بل أنّه ليس بجواب ولكنّه سؤال، ولهذا أرجو أن تجيبي عن هذه النقاط:

١ - بماذا يختلف الإنسان عن الحيوان في الادراك ما دام يتساوى معه في أفعال الحواس؟

٢ - هل تؤمنين بالوجود والعدم؟

٣ - هل اتفق لكِ أن قلتِ عن شيء أنّه مُحال أو مستحيل؟

هذه أسئلة قصيرة أرجو أن تجيبي عنها مشكورة.

هذا ولك منّي أصدق الأماني.

مصطفى

استلمت رحاب رسالة مصطفى وهي على لهفة الشوق لمعرفة ما تحمل إليها من جواب، فوقفت أمام أسئلته حائرة، وعزّ عليها أن لا يُتاح لها فهم ما يريد من هذه الأسئلة.

ولهذا فقد لاحظت وجود حسنات في غرفتها فذهبت إليها وهي أكثر ارتباكاً من المرّة السابقة لأنّها كانت كلّما ازدادت وعياً بوجود الله ازدادت إحساساً بتأنيب الضمير والجناية بالنسبة لحسنات، ولكنّها لم تجد طريقاً إلى معرفة أجوبة ما يريده من السؤال إلاّ بالاستعانة بحسنات؛ ولهذا فقد ذهبت إليها متجاهلة عوامل الارتباك الموجودة لديها، فرحّبت بها حسنات، وكانت خلال الفترة الأخيرة قد بدأت تنفتح لرحاب وتتقرّب نحوها بعد أن رأتها تهتم بمطالعة الكتب الدينيّة، فجلست رحاب وهي في هذه المرّة لا تعرف إسماً لكتاب معيّن، ولهذا فقد كان عليها أن تطلب من حسنات إرشادها إلى الكتاب المطلوب، ولم تعرف كيف تبدأ، فجلست ساكتة، فابتدرتها حسنات قائلة:

- أرجو أن تكوني قد أكملت مطالعة الكتابين يا رحاب؟

فردّت رحاب باقتضاب: نعم.

قالت حسنات: وهل أعجبك ما قرأت يا أُختاه؟

فردّت رحاب وبنفس الأُسلوب المقتضب: نعم.

وهنا أحسّت حسنات أن رحاباً تعاني ارتباكاً تريد أن تغطّيه بالسكوت، وأحسّت أن لديها حاجة، ولا شك أن حاجتها كتاب فليس لديها ممّا تحتاجه رحاب سوى الكتب.

ودفعتها العاطفة الأخوية والمسؤولية الدينية إلى مداراة مشاعر رحاب وعدم محاسبتها على تقليص الجواب، ولهذا فقد أردفت تقول بنغمة رقيقة مفعمة بالعواطف:

- إن جميع كتبي أمامك، وأنتِ مختارة أن تقرئي فيها متى رغبت حتّى لو لم أكن موجودة، والآن ألا تريدين كتاباً يا رحاب؟

قالت رحاب بصوت متذبذب:

- نعم، إنّني أُريد، ولكنّني لا أدري ماذا أُريد!

فلم تظهر حسنات أي استغراب، ولكنّها أجابت بنفس الاسلوب الهادىء الرقيق:

- كتب تاريخ؟ كتب علوم؟ كتب أخلاق؟ كتب عن الإيمان بالله؟ قولي أي نوع من هذه الكتب تريدين؟

قالت رحاب: أُريد كتاباً عن الإيمان بالله.

فحبّذت حسنات اختيارها، ثمّ أعطتها كتاب (الإيمان والعقل)، وكتاب (الآخرة والعقل)، من تأليف محمّد جواد مغنية، وأعطتها أيضاً كتاب (العلم يدعو إلى الإيمان)..

فأخذت رحاب الكتب، وذهبت إلى غرفتها واستلّقت على سريرها تستعيد كلمات حسنات الرقيقة، وانعطافها نحوها خلال الفترة الأخيرة، ومساعدتها لها في تنظيم غرفتها وخياطة فستانها ووضع جميع كتبها تحت تصرّفها، ولم يسعها بعد ذلك إلاّ أن تقول:

يا لي من مجرمة.

ثمّ حدّثت نفسها قائلة: لماذا لا أترك هذه اللعبة الخطرة؟ لماذا لا أنسحب عن حياة هذه الفتاة المسكينة؟ ولكن كلاّ فلا تسعني العودة قبل أن أبلغ نهاية الشوط، لأنّني أُحس بحاجتي لأن أسمع من مصطفى ما يوضّح لي هذه الصور الغامضة، ولو حدث واعترفت بالحقيقة، فسوف لن أحمل منه ومن الجميع بعد ذلك سوى المزيد من التحقير والتنكيل.. كلاّ لم يعد يمكنني التراجع..

وبعد أيّام كتبت إلى مصطفى تقول:

عزيزي مصطفى:

لقد أردت أن أعرف ما تريده من الأسئلة قبل الجواب، ولهذا فقد حاولت

وحاولت وذهبت أُفتش عن كتب تبحث في وجود الله عسى أن ترشدني إلى الهدف الّذي يستتر وراء كل سؤال.

فأنا لا أُريد أن أكون معك كتلميذة صغيرة تملي عليها الأفكار على شكل مفاجأة.

وكلّفني ذلك أن أقرأ أكثر من ثلاثة كتب عدا (قصّة الإيمان) الّتي كنت قد انتهيت منها قبل وصول الأسئلة، ولا أكتمك أنّني عندما بدأتُ أقرأ كانت همّتي متوجِّهة لنقطة واحدة: هي فهم ما تريد قبل أن تقوله أنت، ولكن طبيعة الفكرة في الكتب وتناولها لأكثر ما كان يعشعش في ذهني من تساؤلات جعلني أندمج مع القراءة لغاية التفهّم والاطّلاع.

ولكنّني (مع الأسف) لم أعرف كيف استخلص من مجموعها الأجوبة المتوخّاة، ولهذا أجدني مضطرّة لأن أسمع جوابها منك بعد أن أُعطيك جوابي عنها وهو:

أوّلاً: أمّا بالنسبة للفرق بين الإنسان والحيوان ما دام يحمل نفس ادراكات الحواس الخمس فهو العقل. إذ أن الإنسان قادر على التفكير المجرّد على العكس من الحيوان.

ثانياً: أمّا عن الوجود والعدم فهو أمر لا خلاف فيه، فإن كل عقل يدرك بأن هناك وجوداً وهناك عدماً.

ثالثاً: وأمّا عن المحال والمستحيل، فهو أمر واضح وكثير الوضوح في أغلب الحالات إذ يستحيل علينا مثلاً أن ندخل الجمل في سم الخياط.

هذه أجوبة ما سألت، فما هو جوابك بعدها يا ترى؟

أتمنّى لك كل خير، وأستميحك العذر.

حسنات

وصلت رسالة رحاب إلى مصطفى فأخذها بين يديه ثمّ خطر له أن يمزق الرسالة قبل أن يقرأ ما فيها. أفحقاً أن هذه هي شريكة حياته الّتي طالما نسج لها

أحلامه ذهبيّة فضيّة؟ أيّة محنة مريرة دفعته إليها زينب؟ كيف يمكن له أن يعيش مع إنسانة تشكّك بأقدس المثل والمفاهيم؟ ولكنّه عاد فتراجع عن قراره قائلاً:

كلاّ إن عليَّ أن أمضي في طريقي حتّى النهاية، سيما وقد بدأت أجني ثمار موقفي..

ثمّ فتح الرسالة وقرأها بإمعان، وهو يفتّش بين كلماتها عن طبيعة الإنسانة الّتي كتبتها، فوجد خلالها لمحات تبشّر بالخير، فحمد الله وردّد قائلاً: أرجو أن لا يكون الشوط طويلاً. ثمّ كتب يجيبها قائلاً:

عزيزتي حسنات:

ألف سلام وألف تحية..

وصلتني رسالتك، وأسعدني أن تكوني قد قرأتِ مهما كانت غايتك في القراءة.، فالمهم هي الفائدة الّتي حصلت عليها نتيجة ما وجدتيه بين صفحات الكتب، ومن هذا ترين كم هي كبيرة وثمينة هذه الكنوز الّتي كانت ولا تزال قريبة منك دون أن تستشعري أنتِ ذلك القرب، وبودّي لو أعلم من أين حصلت على هذه الكتب؟

أمّا عن الأسئلة الثلاثة، فأنتِ حينما اعترفت أن الحواس الخمس هي ليست كل شيء في طريق الادراك وإلاّ لتساوى الإنسان والحيوان في مدى ذلك الادراك، من هذا نعلم أن الحواس ما هي إلاّ وسيلة من وسائل تسهيل الادراك الّذي يجرّده العقل فيتوصّل منه إلى الحقيقة، ولهذا نجد أن هناك حقائق لا جدل في وجودها ولا نقاش، مع عدم ادراكها بالحواس، ومثال ذلك هو ما تؤمنين به من الوجود والعدم، فمتى رأيتِ العدم بعينيك يا ترى؟ أم متى تذوقتيه بلسانكِ أو لمستيه بيدكِ أو شممتِ له رائحة؟ أو سمعتِ له صوتاً؟ هل حدث هذا لكِ أو لسواكِ؟ أو هل من الممكن أن يحدث؟ أنّه محال، لأن المعدوم لا يُحس ولا يُرى ولا يُسمع ولا يُشم ولا يُتذّوق، ومع هذا فأنتِ وأنا وكل ذي عقل يؤمن بالوجود والعدم، فكيف يحدث هذا؟

والمستحيل عندما نقول أن رؤية العدم مستحيلة.. كيف عرفنا هذه الاستحالة وعن أي طريق؟ أترانا عرفناها عن طريق الحواس؟ هل رأيناها أو لمسناها أو شممناها أو تذوقناها؟ طبعاً لم يحدث شيء من هذا ومع ذلك فنحن نؤمن أن هناك شيئاً محالاً، ونتمكّن أن نحدّد ذلك الشيء كما أعطيتِ أنتِ لذلك مثلاً وهو إدخال الجمل في سم الخياط.. فكيف حدث هذا وهل للحواس الخمس دخل في ذلك؟ بطبيعة الحال يكون الجواب: كلاّ إذ لا تتمكّن الحواس الخمس أن تحس بغير الموجود، ومع هذا فنحن نؤمن بوجود المحال نتيجة للتجريد الفكري الّذي يتميّز به الإنسان عن الحيوان.

وهناك حقيقة أُخرى لم نتوصّل إليها عن طريق الحواس أيضاً، فالماء سائل، هذا شيء لا جدال فيه.. والحقيقة الّتي لم نتوصّل إليها عن طريق الحواس هي أن الماء يحتوي على ذرّتين من الهيدروجين وذرّة من الأوكسجين، هذه هي الحقيقة الّتي أثبتها العلم بالاستدلال المنطقي فقد دون أن تتحسّسها الحواس.

ثمّ اسمعي معي البرفسور أ.ي. ماندير وهو يقول في كتابه: (إن الحقائق الّتي نتعرّفها مباشرة تسمّى الحقائق المحسوسة، بيد أن الحقائق الّتي توصلنا إلى معرفتها لا تختص بالحقائق المحسوسة فهناك حقائق أُخرى كثيرة لم نتعرّف عليها مباشرة ولكنّنا عثرنا عليها على كل حال، ووسيلتنا في هذا السبيل هي الاستنباط، فهذا النوع من الحقائق هو ما نسمِّيه «بالحقائق المستنبطة»، والأهم هنا أن نفهم أنّه لا فرق بين الحقيقتين وإنّما الفرق هو في التسمية من حيث تعرّفنا على الأولى مباشرة وعلى الثانية بالواسطة. والحقيقة دائماً هي الحقيقة سواء عرفناها بالملاحظة أو بالاستنباط).

ثمّ يقول البروفسور ماندير أيضاً: (إن حقائق الكون لا تدرك الحواس منها غير القليل، فكيف يمكن أن نعرف شيئاً عن الكثير الآخر؟ هناك وسيلة وهي الاستنباط أو التعليل، وكلاهما طريق فكري نبتدىء به بواسطة حقائق معلومة حتى ننتهي بنظرية أن الشيء الفلاني يوجد هنا ولم نشاهده مطلقاً).

هذا بالإضافة إلى قانون الجاذبية الّذي لعلّك تعرفين أنّه لا ولن يُشاهَد بالحواس كما جاء في خطاب أرسله نيوتن مكتشف قانون الجاذبية إلى بنتلي فيقول: (إنّه لأمر غير مفهوم أن نجد مادّة لا حياة فيها ولا إحساس وهي تؤثر على مادّة أُخرى مع أنّه لا توجد أيّة علاقة بينهما).

فعن هذا الطريق يا حسنات، طريق التجريد الفكري والدليل العقلي والنقلي نؤمن بوجود الخالق وباتالي بوجود دين يجب أن ندين به.

لعلّني قد أطلت عليك فيما كتبت، ولكنّني أتوخّى صالحك في ذلك، وأنا على استعداد للمزيد لو أردت.

مصطفى

□□

ضاعفت حسنات من إظهار عواطفها واهتمامها بأُختها وأخذت تتقرّب إليها وتتحبّب، وكلّها أمل بعودة أُختها إلى الإيمان، ولكنّها كانت تلاحظ أن رحاباً لا تتمكّن أن تكون معها طبيعيّة أبداً، وطالما حاولت أن تحنو عليها وتفتح لها قلبها مخمِّنة أن هذه الردود السلبية هي نتيجة رواسب ماضيها ولكنّها كانت تجد أن رحاباً تزداد حيرة وقلقاً كلّما زادتها هي حبّاً وحدباً.

أمّا رحاب فقد أخذت تتفاعل مع مشاعر الندم وتأنيب الضمير، وقد تغلّب جانب الندم لديها على جانب الخوف من افتضاح أمرها، ولولا خشيتها أن تخسر مصطفى فتخسر معه تعاليمه الّتي أصبحت في حاجة ماسّة إليها، لولا هذا لكتبت إليه تعترف أمامه بالحقيقة، ثمّ لاعترفت بجريمتها أمام حسنات طالبة منها العفو والغفران، ولكنّها كانت لا تستشعر الضعف عن الانقطاع عمّا يكتب إليها مصطفى، والضعف عن مواجهة أُختها بالاعتراف، ولهذا فقد قرّرت الاستمرار بمراسلة مصطفى فكتبت إليه قائلة:

عزيزي مصطفى:

هل تعلم كم أنا شاكرة لك وخجلة منك؟ لأنّني قد استفدت منك بقدر ما أسأت إليك! ولولا أنّني أضمن أنّك رجل نبيل لما كنت أغفر لنفسي اساءتي إليك أبداً..

رائع ما كتبت ومقنع ما وضّحت، ولكنّني ما زلت أُريد أن أسأل إن سمحت لي بالجواب، فنحن ما دمنا قد صدّقنا بوجود ما لا شكّ في وجوده دون أن ندركه بالحواس الخمس، وإنّما نتوصّل إليه عن طريق الحقائق المستنبطة من الأدلّة والبراهين، فما هي طريقة الاستدلال على وجود الخالق؟

هذا وإنّني لن أنسى فضلك عليَّ ما حييت.

حسنات

إلى هنا أنهت رحاب رسالتها ولكن خطرت لها فكرة أن مصطفى كان قد طلب من حسنات صورة في رسالته الأولى ولم يعد إلى طلبه ثانية بعد أن زهد بها نتيجة استلامه للرسائل المزوّرة الّتي وصلت منها إليه.

ولكن أليس أن عليها أن تعمل شيئاً من أجل أُختها المسكينة البريئة؟ إنّها تتمكّن أن لا ترسل الصورة ولكنّها في ذلك سوف تسيء إساءة جديدة إلى حسنات، إنّه سوف يشك بجمالها كما جعلته يشك بدينها، فهي إذن جريمة جديدة وحسنات جميلة وجميلة جدّاً، إنّها جميلة كملاك فماذا عساها أن تصنع دون أن تجعله يشك بجمالها؟ لو كانت قد أرسلت إليه صورة في البداية لأرسلت صورتها هي بدلاً عن حسنات تمشياً مع موقفها العدائي ذاك، ولكنّها الآن تختلف عمّا كانت عليه، صحيح أنّها جميلة أيضاً ولكنّها لا تريد أن تتردّى بخيانة جديدة، كلاّ إن هذا ما لا يكون من جديد، ولهذا فإن عليها أن تحصل على صورة حسنات وترسلها له، وهي ليس لديها صورة واضحة لها، ولهذا فإن عليها أن تطلب منها صورة..

وعند الظهر حيث كانت حسنات في غرفتها ذهبت إليها رحاب، وحاولت أن تبدو طبيعيّة وتمكّنت من ذلك بعض الشيء فرحّبت بها حسنات وأظهرت لها فرحتها بها، فقالت رحاب:

- إنّ لي إليكِ حاجة يا حسنات!

فاستبشرت حسنات أن تطلب رحاب منها حاجة، وقالت بلهفة واندفاع:

- إنّ أي حاجة لكِ مقضيّة يا أُختاه، قولي ماذا تريدين؟

قالت رحاب وقد اصطبغ وجهها بحمرة الخجل:

- أريد صورة منك يا حسنات، صورة من أجمل صورك يا عزيزتي.

فاستغربت حسنات هذا الطّلب، ولكنّها لم تشأ أن تخدش مشاعر أُختها فقالت:

- سوف أُعطيك البوم الصور واختاري منها ما تشائين.

قالت هذا ثمّ تناولت البوم الصور من فوق المكتبة وقدّمته إلى رحاب، فتناولته رحاب بيد ترتجف وأخذت تصفحه وهي لا تكاد تعي ما فيه لشديد اضطرابها، ثمّ اختارت صورة كانت أوضح الصور وأبرزها ثمّ أعادت الألبوم إلى حسنات مع الشكر، وذهبت إلى غرفتها وكأنّها تهرب من خطر عظيم، ووضعت الصورة داخل الرسالة ولم تكتب خلفها إهداءً لكي لا تلوث صفاء الصورة بكلماتها الدخيلة، ثمّ أبردت الرسالة عصر ذلك اليوم.

□□

أمّا حسنات فقد كانت الأسابيع والأشهر الّتي تمرّ تضاعف من آلامها وتزيد من احساسها بالضّيعة، لكنّها في كل ذلك هادئة المظهر، وقورة المشاعر، تملي على نفسها الثقة بالمستقبل والاطمئنان إلى حُسن اختيارها، وكان ممّا يفرحها أن تجد رحاباً منكبّة على مطالعة الكتب الدينيّة، وقد لاحظتها في يوم وهي تصلّي في غرفتها، فدخلت عليها وقبّلتها فرحة ثمّ قالت:

- هل تعلمين كم أنا فرحة بكِ ولكِ يا رحاب؟ ها أنا أجدك أُختاً حبيبة لي من جديد، فهل تجدينني كذلك يا أُختاه؟ إنّني أُحبّك جدّاً جدّاً يا رحاب، يا الله ما أروعك وأحلاك في هذه الأبراد؟ لكأنّك حورية، إنّك جميلة وجميلة جدّاً.

ولم تتمكّن رحاب أن تجيب، فقد شعرت أن روحها تفور مع كل كلمة فاهت بها حسنات، ولهذا فقد تهاوّت إلى الأرض بعد خروج حسنات واندفعت تبكي في حشرجة مكتومة وهي تقول:

الويل ما كان أقساني على هذا الملاك الطيّب الوديع.

□□

مرّت الأيّام بطيئة وثقيلة بالنسبة إلى رحاب وحسنات، ثمّ استلمت رحاب جواباً من مصطفى فقرأت فيه ما يلي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عزيزتي حسنات:

سلام الله عليك ورحمة الله وبركاته..

أرجو أن تكوني بخير وعافية، وأن يرشدك الله لما فيه صلاح دينك ودنياك وبعد:

لطيف منك أن تطلبي الدليل بعد الدليل فإن هذا يبشّر بالخير والحمد لله، وإليك بعض الأدلّة على وجود الخالق كما طلبت:

أوّلاً: لقد اكتشف العلم (القانون الثاني للحرارة الديناميكية) وهذا القانون الّذي يسمّى حالياً (بقانون الطاقة المتاحة) يثبت لنا وجوب الإيمان بخلق الكون وعدم كونه أزليّاً؛ فهو يقول أنّ الحرارة الموجودة في الكون تنتقل من (وجود حراري) إلى (عدم حراري) أي أنّها تنتقل من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة حتّى يتساوى الجسمان في الحرارة، ونحن نلاحظ أن مصادر الطاقة والحرارة من الكون تنبعث منها الحرارة باستمرار في أرجاء هذا الكون الرحيب، ولكن على الرغم من ذلك لم تتساو حتّى الآن الحرارة في كل جسم هذا الكون الكبير، وهذا دليل علمي على أن مصادر الطاقة في الكون حادثة وليست أزلية، لأنّها لو كانت أزلية وكانت عملية الانتقال تجري منذ ملايين السنين ومنذ الأزل لوصلت إلى حالة التساوي قبل الآن..

ونتيجة لهذا الاكتشاف يقول الأُستاذ (أدوارد لوثر كيسل) وهو عالِم أمريكي من علماء الحيوان يقول: (وهكذا أثبتت البحوث العلمية دون قصد أن لهذا الكون بداية، فأثبتت تلقائياً وجود الإله لأنّ كل شيء ذي بداية لا يمكن أن يتبدىء بذاته ولا بدّ أن يحتاج إلى المحرِّك الأوّل الخالق الإله).

ويقول (السير جيمس) في هذا المضمار أيضاً: (تؤمن العلوم الحديثة بأن عملية تغيّر الحرارة سوف تستمر حتى تنتهي طاقاتها كلياً، ولم تصل هذه

العملية حتّى الآن إلى آخر درجاتها لأنّه لو حدث شيء مثل هذا لما كنّا الآن موجودين على ظهر الأرض حتّى نفكّر فيها. إن هذه العملية تتقدّم بسرعة مع الزمن ومن ثمّ لا بدّ لها من بداية ولا بدّ أنّه قد حدثت عملية في الكون يمكن أن نسمِّيها خلقاً في وقت ما حيث لا يمكن أن يكون هذا الكون أزلياً).

ثمّ أن هناك أدلّة علمية كثيرة يا حسنات تدعونا للإيمان بوجود خالق للكون وتجعلنا نتعرّف على الخالق من خلال معرفة الكون وما فيه، والمجال هنا لا يتسع لسردها وإنّما ذكرت لكِ واحداً منها.

وهاكِ مثالاً ثانياً وأرجو أن لا أُطيل عليك به، وهو الشواهد الطبيعيّة الّتي اكتشفها العالم والّتي تثبت أن الكون لم يكن موجوداً من الأزل وأن له عمراً محدوداً؛ فإن علم الفلك يقرِّر أنّ الكون يتسع بالتسلسل الدائم، وإن مجاميع النجوم والأجرام والأجسام الفلكية تتباعد بسرعة مدهشة بعضها عن بعض، وهذا يعني أن هذه الأجزاء الّتي تتباعد عن بعضها كانت في وقت ما كتلة واحدة مجتمعة مع بعضها ثمّ بدأت الحرارة والحركة، ونتيجة هذا الكشف العلمي هو الإيمان أن للكون عمراً محدوداً وأنّه في حركة مستمرّة تنتهي به إلى الدمار يوماً ما.. ونعود لنقول أن كل ما له نهاية لا بدّ أن يكون له بداية، وإلاّ وعلى فرض أزليّة الكون لكانت النهاية قبل أن تكون بما لا يتصوّر.

والآن، أرجو أن لا أكون قد أتعبتك، وبالمناسبة أطلب منك قراءة كتاب (الله يتجلّى في عصر العلم) وكتاب (رحلتي في الشك إلى الإيمان). وإلى المزيد من خطوات التكامل.

مصطفى

□□

تسلّمت رحاب رسالة مصطفى، وذهبت بعد قراءتها إلى غرفة حسنات حيث أخذت من بين كتبها الكتب الثلاثة مع أنّها لم تكن موجودة، وانهمكت في مطالعتها بجد واستيعاب، وقدّمت إجازة مرضية لمدّة اسبوع تفرّغت خلالها لسبر الكتب الثلاثة، وأحسّت بعد الفراغ منها أنّها أصبحت تؤمن بالله إيماناً مركّزاً لا شك فيه ولا مراء، ولكنّها كانت لا تزال بحاجة إلى مزيد من المعرفة

وكانت هناك أسئلة كثيرة ما زالت تعشعش في فكرها فجلست تكتب إلى مصطفى لتقول:

عزيزي مصطفى:

كيف تقول أنّك قد أتعبتني فيما كتبت مع أنّك بدأت تكشف عن عيني غشاوة طالما حالت بيني وبين معرفة الطريق، وأسلمتني إلى التيه والضلال، وها أنا ذي أطلب منك المزيد بعد أن قرأت الكتب الّتي ذكرتها وشعرت بالكثير من الراحة النفسية، فهل تراك على استعداد لأن تكتب إليَّ من جديد وأن تذكر لي مزيداً من الحقائق الّتي ذكرتها سابقاً؟

ثمّ أرجو أن تعلم بأنّني بدأت أُولد من جديد، وأن حاجتي إلى مزيد من المعرفة حاجة الطفل الرضيع إلى الحليب، ولعلّ في هذا ما يدفعك أو يشجِّعك على تحمّل ما أُكلِّفك به من جهد لم أكن لأستحقه منك، ولكنّني أرجوك أن لا تخذلني وأنا في أمسّ الحاجة إليك - أقصد إلى علمك ودرايتك ـ.

حسنات

□□

وصلت رسالة رحاب إلى مصطفى، فقرإها بإمعان ثمّ بادر إلى الكتابة لها لأنّه كان على أبواب الامتحان، فكتب يقول:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عزيزتي حسنات:

السلام عليك ورحمة الله وبركاته..

أكتب إليك متمنياً لك السعادة الكاملة في الدارين، وقد ارتحت لرسالتك الأخيرة لما كانت تعبِّر به عن اجتيازك لمرحلة العبور ورحلتك الموفّقة من الشك إلى اليقين، فهنيئاً لك هذا الميلاد الجديد الّذي أرجو أن يكون ميلاداً سعيداً وكل عام وأنتِ ومَنْ معكِ بخير، ولا تحسبي أنّني متبرِّم بشيء ممّا تريدين بل على العكس من ذلك تماماً؛ فإن ممّا يسعدني أن يكون الله عزّ وجلّ قد اختارني لأقف إلى جوارك في محنتك بدينك وإيمانك فأكون سبباً لكشف

الحقائق أمامك، هذه الحقائق الّتي طمست معالمها الأفكار الهدّامة فكنت أنتِ ضحيّة من ضحاياها.

وها أنت وقد استجبت لصوت الحق الّذي يناديك ليأخذ بيدك من الظلمات إلى النور ولهذا فأنا راضٍ ومقتنع بضرورة الكتابة إليك أكثر فأكثر، وإن كنت أجد في الكتب الّتي ذكرتها لك رصيداً يغنيك عن كل سؤال، أمّا وأنّك ما زلت تريدين المزيد، فهاك منه بعضاً وهذا البعض له ارتباط بأجسامنا:

فهل سبق لكِ أن وقفت حائرة أمام النظام المعقّد لأسلاك الهاتف، وكيف أن مكالمة تنتقل عبر الأسلاك من مصر إلى لندن أو من العراق إلى واشنطن؟ لا شك أنّه أمر معقّد جدّاً يبعث لمتأمله الحيرة ويدفعه إلى الاعجاب بالمصمِّمين البارعين لهذا النظام.

ولكن لماذا لا يقف الإنسان قليلاً أمام نظام أوسع من هذا النظام وأشدّ تعقيداً، ألا وهو نظامنا العصبي!

إنّ ملايين الأخبار تجري على أسلاك نظامنا العصبي من جانب إلى آخر، لا تتوقف ليلاً ولا نهاراً، تقوم بمهمّتها في توجيه القلب والتحكّم في حركات الأعضاء، وحينما كان لا بدّ لكل نظام من مركز فان مركز هذا النظام للمواصلات هو مخ الإنسان، وفيه يوجد ألف مليون خلية عصبية، ومن هذه الخلايا تخرج أسلاك تنتشر في سائر جسم الإنسان وهي ما يسمّى بالأنسجة العصبية.. وفيها في هذه الأنسجة يوجد نظام استقبال، ونظام إرسال، وبواسطتها نسمع، ونتذوّق، ونرى، ونقوم بشتّى أعمالنا..

هذا المخ هل تأمّلتِ كم يضم بين جوانبه من أسماء، وأرقام، وتصوّرات لأحداث طويلة وقصيرة، وصوراً لوجوه لا تعدّ ولا تحصى، يعرف بعضها ويجهل البعض الآخر؟ فكيف وأين تختفي كل هذه الأسماء والأرقام والأحداث والصور، وحجم المخ كما تعلمين صغير؟ أفتراها الطبيعة الغير ذات الشعور هي الّتي نظّمت للمخ هذا النظام وجعلته مركزاً لانطلاق الأفكار

والأعمال في جسم الإنسان؟ هل تعقلين هذا يا حسنات؟ أو هل هناك عاقل يؤمن به حقّاً دون رغبة منه في عناد أو مراء؟

ثمّ هل تعلمين أن هناك الكثير من الآلات والمكائن هي في الواقع تقليد لما خلقه الله عزّ وجلّ؛ فعدسة الكاميرا مثلاً، هي كالشبكة الخارجية للعين، والحجاب الحاجز هو يقوم مقام قزحية العين، والفلم الّذي يتأثر بالضوء في جهاز الكاميرا ما هو إلاّ تقليد شاشة العين، الّتي توجد فيها خطوط وأشكال مخروطية ترى الأشكال وهي معكوسة، ولكن ليس هناك من يجرؤ على القول أن الكاميرا صنعت نفسها بنفسها، وإن وجد من يجرؤ أن يقول أن العين خُلقت بدون خالق وأن الصدفة وحدها هي الّتي نظمتها على هذا الشكل!!

ثمّ هل تعلمين أن جامعة من جامعات موسكو قد ابتكرت آلة لقياس الذبذبات تحت الصوتية ومهمّتها التقاط أخبار الفيضان والزلزال قبل حدوثهما بساعات، وقد استوحى العلماء فكرة هذه الآلة من سمكة قنديل البحر الّتي تسمّى (هلامي)، إذ أنها تستشعر بحدوث الفيضان والزلزال قبل حدوثهما بساعات، فقلّد المهندسون أعضاءها الّتي هي من الحسّاسية بشكل يجعلها تتحسّس حتّى الذبذبات تحت الصوتية؟

هذه أمثلة قصيرة، ولكِ أن تراجعي كتاب (مع الله في السماء) وكتاب (الطب محراب الإيمان)، وكتاب (طبائع الأحياء) لتتعرّفي على شيء ممّا خلق الله عزّ وجلّ.

ولكِ منّي أصدق التمنيّات والتحيّات.

مصطفى

وصلت رسالة مصطفى إلى رحاب أسرع ممّا كانت تنتظر لأنّه تعجل جوابها قبل بداية الامتحان، فاستعارت من حسنات الكتب الّتي ذكرها فزادها ما قرأت إيماناً واطمئناناً، ولكنّها كانت لا تزال تحس أن هناك سؤالاً يلحّ عليها بين حين وحين، فصمّمت أن تلقيه عليه كآخر سؤال، فقد صمّمت أن تكشف له

بعد ذلك الحقيقة وأن يكون اعترافها قبل نهاية السنة الدراسية وقبل عودته إلى الوطن، ولهذا فقد بادرت إلى الكتابة فكتبت إليه تقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عزيزي مصطفى:

ألف سلام وألف تحيّة، راجية من الله عزّ وجلّ أن يحرسك بعينه الّتي لا تنام ويجعلك منار هدى وهداية..

لا شك أنّك مشغول بالاستعداد للامتحان، ولهذا فأنا استميحك العذر إذا ألححت عليك بالأسئلة، ولكنّها قضيّة حياتية بالنسبة إليَّ وأنت الّذي بعثت الحياة في وجودي فمن حقي أن أستمد منك مقوّماتها..

وسؤالي اليوم هو أنّنا ما دمنا قد سلّمنا وآمنّا أن الله تبارك وتعالى هو خالق هذا الكون، فمن خلق الله يا ترى؟

حسنات

أبردت رحاب رسالتها إلى مصطفى وعادت إلى البيت فلم تجد حسنات فسألت عنها أُمّها فقالت أنها في غرفتها لم تبرحها منذ الظهر، فخمّنت رحاب أن حسنات غير مرتاحة نفسياً، فعزّ عليها ذلك، وذهبت تحوم حول غرفتها وهي متردِّدة بين الدخول وعدمه، حتّى صمّمت أن تدخل عليها مهما كلّف الأمر، فطرقت الباب بهدوء، وأحسّت أنّه مغلق من الداخل فنادت بهدوء أيضاً:

- حسنات، حسنات.

ففتحت حسنات الباب وهي تتصنّع الابتسام. ولكن رحاباً لاحظت آثار الدموع في عينيها فشعرت بطعنة دامية في فؤادها وهي تعرف أنّها هي السبب في ذلك، وكادت أن تنهار فتعترف لها بالحقيقة، ولكنّها جبنت فأوحت إلى نفسها أن حاجتها لمصطفى لم تنته بعد، وأنّها سوف تعترف بعد اقتناعها الكامل،

ولهذا فقد دخلت وجلست إلى جوارها، ثمّ أخذت بيدها برفق وحنو بالغين وقالت:

- ما لي أراكِ حزينة يا حسنات، ومن حقك أن تكوني أسعد الناس؟..

فسكتت حسنات ولم تجب، ولكنّها ارتاحات لحنو أُختها وانعطافها نحوها، وقد بدا ذلك عليها أيضاً، إذ وضعت رأسها على كتف رحاب وكأنّها تريد أن تستند إليه ليحمل عنها ثقل الألم..

فعادت رحاب تقول وهي تبذل طاقة كبيرة في كبح جماح قلقها، قالت:

- لا تحسبي أن هناك ما يستحق أن يقلقك يا حسنات، فإن الخير كل الخير هو الّذي ينتظرك يا أُختاه..

وهنا تنهّدت حسنات ورفعت وجهها نحو أُختها لتقول:

- كيف تقولين هذا يا رحاب؟ ألا ترين أنّني ومنذ سبعة أشهر مرتبطة شرعاً وعرفاً مع رجل لم أسمع منه كلمة، ولم أعرف عنه خبراً؟ الشيء الّذي جعلني أتأكّد أنّه لم يكن راغباً بي وأنّني فُرِضت عليه فرضاً، ولم يبق على عودته إلاّ أسابيع، فماذا سوف يحدث بعد أن يعود يا ترى؟ إنّني لا أُريد أن أشكوه ولكنّني أتألّم وأُفكّر بمستقبل حياتي مع زوج حُمِّلت عليه تحميلاً..

كانت حسنات تتكلّم، وكل كلمة منها بمثابة شفرات حادّة تقطع نياط قلب رحاب، ولكنّها تماسكت ورأت أن عليها أن تعمل شيئاً من أجل هذه الأُخت المسكينة، فقالت بنغمة حاولت أن تكون مشرقة:

- كلاّ، كلاّ يا حسنات، إنّك غلطانة في طبيعة تفكيرك عن الموقف، فان هذا الرجل الّذي ارتبطت به شرعاً وعرفاً هو من أحسن الناس وأنبلهم وأليقهم بك يا عزيزتي..

قالت حسنات: إنّني لا أُنكر ذلك، ولكن يبدو أنّه لم يكن مقتنعاً باختياره لي.

قالت رحاب: إنّه مقتنع تمام الاقتناع، وليس لعدم اقتناعه أي دخل فيما تجدين، كوني واثقة من هذا يا أُختاه..

فتطلّعت حسنات نحو أُختها وسألتها بتعجّب:

- من أين لك هذه الثقة يا رحاب؟

فاحتارت رحاب بماذا تجيب، ولكنّها أجابت قائلة بإصرار:

إنّني أعرف وتأكّدي ممّا أقول..

قالت: ومن أين عرفت؟

وكادت رحاب أن تنهار، فماذا عساها أن تقول؟ من أين عرفت؟ نعم من أين؟ يا لدناءة الطريق الّذي عرفت منه ذلك، ولكنّها تماسكت وقالت:

- يكفيك أن تعلمي بأنّني متأكّدة ممّا أقول، وسوف أشرح لك ما أعرف بعد أيّام قليلة أو أسابيع، المهم أن تستعيدي ثقتك بزوجك المنتظر وتعودي إلى اشراقتك الباسمة للحياة، أرجوك يا حسنات..

قالت هذا ونهضت لتطبع على جبين أُختها قبلة أودعتها الكثير من الحب والحنان، ثمّ قالت:

- أتعاهدينني أن تعودي طبيعية يا حسنات؟ عودي إلى عهدك بالرضا والسعادة، وسوف ترين بأنني صادقة فيما أقول..

فابتسمت حسنات وقالت بوداعة:

- لقد وثقت بكلامك يا أُختي، وإن كنت لا أعرف كيف أُفسِّره، ولكنّني قد بدأتُ أطمئن من جديد..

فأخذت رحاب بيدها وأنهضتها قائلة:

- إذن هيّا بنا إلى أُمّنا فهي تنتظر.

□□

كانت رحاب خلال الأيّام الّتي أعقبت هذا الموقف لا تكاد تفارق حسنات إلاّ خلال ساعات دوامها، فهي دائماً معها تلاطفها وتتحدّث معها عن المستقبل وتحاول أن تساعدها بالخياطة والتطريز، وهي بين ذلك كلّه تقرأ من كتبها ما تشاء فتزداد إيماناً واطمئناناً، ولكنّها كانت تنتظر جواب مصطفى حتّى وصلها الجواب وكان ما يلي:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عزيزتي حسنات:

حرسك الله ورعاك، وسدّد في طريق الحق خطاك..

يؤسفني أن أكون قد تأخّرت عنك في الجواب، ولكنّها مشاغلي واستعدادي للامتحان النهائي.. فإليكِ الآن جواب ما أردت يا حسنات، وسوف أُورده لكِ باختصار، وأطلب منك مطالعة (أُصول العقيدة) لتجدي فيه التفصيل.

والآن فنحن لو وجدنا ماءً قد وصل إلى درجة الغليان، نتمكّن أن نتساءل عن السبب الّذي أوصله إلى درجة الغليان، فيأتينا الجواب أنّ السبب هو قربه إلى النار، فنقول لماذا كان القرب من النار يوجب الحرارة؟ فُيقال لأن النار حارّة، وعند ذلك فهل يصحّ لنا أن نتساءل لماذا كانت النار حارّة؟ بطبيعة الحال أن هذا السؤال غير معقول؛ لأنّنا متى رأينا ناراً ليست بحارّة لنتساءل متى أصبحت حارّة؟

ثمّ ألسنا (جميعاً) مؤمنين وماديين متفقين على أن لهذا الكون سبباً وخالقاً ينتهي لديه التعليل والتفسير؟ لأنّ لكل شيء نهاية، ولا يمكن أن يستمر التفسير والتعليل إلى غير نهاية، وإنّما نختلف في نوعية هذا السبب الأوّل؛ فالمادّيون يزعمون أنّه الطبيعة أو المادّة أو الدهر، كما يقول القرآن الكريم والمؤمنون يعتقدون بأنّه الله العليم القدير، فنحن إذن بين افتراضين وحيدين وكل منهما يعترف بوجود سبب أعلى ليس له بدوره سبب، فالمسألة إذن أن نعيِّن نوعية هذا السبب الأعلى، فهل يا ترى بالإمكان أن يكون هذا السبب الأعلى للكون بكل ما فيه من حكمة واتقان وجمال وتدبير وضبط وإبداع وتمشياً مع مصلحة الإنسان وحاجة الحياة، أقول هل يمكن أن يكون السبب الأعلى لكل ذلك قوّة عمياء لا تعي ولا تدرك ولا تفهم ما هي الحياة ولا تعرف من سننها ما يعرفه حتّى طالب الاعدادية، كما يفترض المادّيون من إلههم المزعوم الذي يسمّونه الطبيعة تارة والمادّة أُخرى والدهر ثالثة؟ أن الجواب كلاّ، لأن النظام بحاجة

إلى منظِّم، والحكمة دليل على الحكيم والعلم والجمال لا يعطيه إلاّ العالم الجميل، فتبارك الله أحسن الخالقين.

مصطفى

عندما انتهت رحاب من قراءة رسالة مصطفى ذهبت إلى حسنات تطلب منها الكتاب، وقد حسبت أنّها لن تكتب إلى مصطفى بعد الآن وبدأت تقرأ وقد زادتها القراءة هدى واطمئناناً، وصمّمت أن تكتب إلى مصطفى لتصارحه بالحقيقة إذ أنّها لم تعد بحاجة إلى سؤال وجواب.

ولكن خاطراً خطر لها أسلمها إلى الحيرة من جديد، إنّها ما دامت قد آمنت بالله فإن عليها أن تؤمن بالقرآن ولكن كيف تعرف أو تطمئن إلى أن هذا القرآن هو من الله خالق الكون والحياة؟

إذن فهي ما زالت مشدودة إلى مصطفى.. وصمّمت أن تكتب سيما وإن حسنات قد تحسّن وضعها النفسي بعد حديثها معها، وأخذت تملي على نفسها التصديق بكلام أُختها وإن كانت لا تعرف كيف تفسِّره.. ولهذا فقد كتبت إليه من جديد قائلة:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عزيزي مصطفى...

يا مَنْ نوّرت فؤادي بنور الإيمان، وأخذت بيدي إلى طريق الحق والرشاد.. لقد أصبحتُ أشعر بتطفّلي عليك، ولعلّك لا تعلم لماذا، ولكنّك سوف تعلم عمّا قريب، وها أنّني ما زلت مضطرّة إليك فتعطف عليَّ بالجواب..

وسؤالي اليوم هو: كيف يمكن أن أطمئن إلى أنّ القرآن هو كتاب الله عزّوجلّ ؟

أرجوك أن لا تنقم عليَّ وسوف يكون هذا آخر سؤال أُوجِّهه إليك، ولعلّك بعد هذا تغفر لي ما سبّبته لك من ازعاج.

أرجو من الله أن يديمك لدينك إبناً باراً ولمن تحب ويحبك هدياً ومناراً.

حسنات

□□

لم يطل انتظار رحاب للجواب، فقد استلمته في أقرب وقت، وكانت قد بدأت قبل ذلك بقراءة القرآن الكريم مع أُختها حسنات، وفي ذلك اليوم وقبل أن تخلو إلى نفسها لتقرأ الرسالة، بادرتها حسنات تخبرها بفرحة أنّها استلمت رسالة من زينب أُخت مصطفى وأنها سوف تعود بعد نهاية الامتحانات.. فتظاهرت رحاب بمشاركتها الفرحة ثمّ أردفت تقول:

- حتّى مصطفى فإنّه سوف يعود قريباً إن شاء الله..

قالت هذا وذهبت إلى غرفتها تقرأ الرسالة فكانت كما يلي:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عزيزتي حسنات:

السلام عليك ورحمة الله وبركاته..

دعيني أوّلاً أُؤكِّد لك بأنّني غير برم برسائلك، وذلك لأنّها مكّنتني من أداء بعض الواجب بالنسبة لديني، ثمّ أعود لأسألك من جديد، ترى لو وجدت طفلة صغيرة تعيش في محيط لا يفتح لها أبواب المجتمع وهي ما زالت لا تعرف القراءة والكتابة ولم تطّلع على أي مجلّة أو صورة للأزياء ثمّ ومع كل هذا تجدينها تبرز للمجتمع فستاناً قد صُمِّم على أحدث موضة، واعتمد على ابتكارات مصمِّمي الأزياء في باريس، تبرزه للمجتمع على أنّه من خيطتها هي! فهل تراك سوف تصدِّقين منها هذه الدعوى؟

بطبيعة الحال أنّ الجواب سوف يكون نفياً، لأنّها صغيرة، ولم يسبق لها أن مارست أي شكل من أشكال الخياطة، ثمّ لأنّها لا تعرف القراءة والكتابة ولم تطّلع على المجلاّت ونشرات دور الأزياء، ولم يحدث أن سافرت إلى باريس مثلاً، وهي كذلك وبحكم محيطها المنغلق لم تنفتح حتّى للمجتمع الّذي حولها، فكيف تمكّنت مع كل هذا أن تصمِّم هذا الفستان الّذي يحمل معه ابتكارات جديدة وخطوط موديلات كلاسيكية قديمة؟ ولهذا فلا شكّ أن هذا الفستان قد وصلها من سواها وأن هناك مصمِّماً يعرف تاريخ تصميم الأزياء في الماضي، ويشخِّص أصلح ابتكارات الموضة في الحاضر، وهو مع هذا دقيق

في عمله بارع في صناعته.. وإلى هنا أعتقد أن انكار خياطة الطفلة للثوب والاعتقاد بأن هناك غيرها مَنْ أبدع خياطته هو أمر مفروغ منه.

وبعد هذا نأتي إلى رسالة السماء الّتي قدّمها للبشريّة رجل صادق أمين قد تربّى في صحراء الجزيرة العربية تربية قاحلة من العلوم والفنون والآداب، حتّى أنّه كان أُمياً لا يعرف القراءة والكتابة ولم يغادرها إلاّ مرّتين؛ مرّة وهو صبي صغير ومرّة في تجارة مع ركب من المتاجرين العرب أمثاله، ولم يُعرف عنه من قبل دراسة لما مضى أو حديث عمّا يأتي، ثمّ وفجأة يقدِّم للبشريّة رسالة معجزة أعجزت العرب ببيانها وتحدّتهم ببلاغتها، حتّى قال عنها قائلهم وهو من أشدّ المعارضين لها قال حينما استمع إليها: (والله لقد سمعت كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وأنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمعذق، وإنّه ليعلو وما يُعلى عليه، وإنّه ليحطّم ما تحته)، وحقّقت اعجازها من نواحٍ كثيرة أيضاً منها أخبارها بحوادث الرسالات السابقة على شكل تذكرها كُتب تلك الرسالات مع أنّ حامل الرسالة لم يكن من الممكن له أن يقرأ كتاباً واحداً منها لجهله حتّى القراءة العربية، فكيف باللّغات الأُخرى كما أشارت إلى ذلك الآية المباركة الّتي تقول: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص: ٤٤-٤٦]

ثمّ أن الحوادث الماضية لا يمكن لها أن تكون مستنسخة، حتّى لو فرضنا تمكّن حامل الرسالة من الاستنساخ، لأن القرآن يذكر هذه الحوادث بشكلها الصحيح بعد تنزيهها ممّا لصق بها زوراً وتشذيبها عمّا لحقها من تحريف وتضليل، إذن فالقرآن يتعرّض إلى الحوادث الماضية بشكل إيجابي ولا يكتفي بالذكر السلبي فقط.

هذا بالإضافة إلى أن هذه الرسالة قد تنبأت بوقوع أحداث لم يكن يحتمل وقوعها، ثمّ حدثت كما أخبرت بها، ومثال ذلك الآية المباركة الّتي نزلت بعد

أن غلبت الروم على أيدي الفرس فسبب ذلك حزناً عند المسلمين، لأن الفرس كانوا يمثلون الجانب الوثني، والروم كانوا يملون الجانب الكتابي، فنزلت الآية المباركة تقول: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤﴾ [الروم: ٢-٤] وبضع سنين في الاصطلاح العربي هي لا تتجاوز العشر سنين، وقد وقع فعلاً ما أخبرت به الآية المباركة بعد تسع سنين تقريباً، أَوَليس في هذا ما يبعث في نفسكِ الاطمئنان إلى أن هذه الرسالة هي رسالة السماء، وأنّها ليست من إنشاء محمّد بن عبد الله؟

ثمّ وبعد هذا دعيني أذكر لكِ بعض جوانب الإعجاز العلمي للقرآن: فقد جاء في الآية المباركة: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقد اكتشف أخيراً وبعد تقدّم الفكر العلمي للبشريّة أن للرياح دوراً في تلقيح الأشجار، الشيء الّذي جعل المستشرق الانجليزي (اجنيدي) أُستاذ اللّغة العربيّة في جامعة أكسفورد يقول: (إن أصحاب الإبل قد عرفوا أنّ الريح تلقِّح الأشجار والثمار قبل أن يتوصّل العلم في أوروبا إلى ذلك بعدّة قرون).

كما أنّ العلم قد أثبت أخيراً أنّ الأرض تتناقص يوماً بعد يوم وتنكمش على نفسها بعد أن انفصلت عن الشمس وأخذت تبرد، وأنّ ممّا يساعد على انكماشها هو تشقّق قشرتها وخروج الحمم والبراكين منها، كما أنّ الضغط الجوّي والجاذبية الأرضية وضغط الانكماش المستمر يساعد على تضاؤل حجمها أيضاً، هذا ما أثبته العلم، أمّا رسالة السماء فقد أخبرت بذلك قبل أكثر من ثلاثة عشر قرناً بما جاء في الآية المباركة الّتي تقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

ومثال ثالث هو الآية المباركة التي تقول: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]، ثمّ وبعد قرون عديدة يبرز علينا العلم باكتشافه الجديد، وهو أن الشمس تحترق كالشمعة وسيأتي يوم تذوي فيه وتقل حرارتها نتيجة تبدّد شعاعها وسلسلة التفاعلات التفجّرية في باطنها، فتموت كما تموت بقيّة الشموس والنجوم..

أرجو أن لا أكون قد أطلت عليكِ، ولأجل مزيد من الاطمئنان إقرئي كتاب (الظاهرة القرآنية) لمالك بن نبي.

وأتمنى لك كل خير وصلاح.

مصطفى

□□

أعادت رحاب قراءة الرسالة مرّات ومرّات، ثمّ ألقت برأسها على المنضدة الّتي أمامها واندفعت تبكي بحرقة وألم، ومع كل دمعة كانت ترسم لها صورة مرعبة عن جريمتها وعن موقفها المحرج الّذي زجّت نفسها به، فقد بدأت تحس بالواقع كما لم تكن تحس من قبل، فهي الآن ليست تلك الرحاب الّتي أقدمت على الخطوة الأُولى، إنّها إنسانة ثانية لا تمثّل تلك إلاّ بالمظهر الخارجي، وحتّى هذا فقد تغيّر عمّا كانت عليه، فقد أخذت تلتزم بارتداء الملابس المحتشمة وتركت المكياج، ولهذا فهي الآن تتعذّب وبضراوة، واندفعت تبكي والرسالة إلى جانب رأسها على المنضدة، وعلا نشيجها دون أن تحس حتّى بلغ مسمع حسنات في غرفتها المجاورة فهالها أن تبكي رحاب هكذا، وخشيت أن تكون قد أُصيبت بنكسة تحيد بها عن الطريق الّذي بدأت تسير فيه، فبادرت إليها وفتحت الباب دون استئذان إذ أن الكلفة كانت قد ارتفعت بينهما أخيراً، وانحنت عليها تقبّلها بحنان وهي تقول:

- رحاب، رحاب ماذا بك يا أُختاه؟ رحاب أجيبيني، لماذا كل هذا البكاء؟ هل حدث لك مكروه؟ قولي.

ولم تكن رحاب لتجيب فقد زاد وجود حسنات وحنانها من حرقة بكائها، واستمرّت حسنات تحاول أن ترفع رأسها وهي تقول:

- أرجوك يا رحاب ارحميني أنا على الأقل ألست أُختك يا رحاب؟ أنا لا أتمكّن أن أراك تبكين، إن دمعة واحدة من عينيك تحرق فؤادي، فكيف بهذا البكاء؟ رحاب رحاب.

وكانت حسنات تندفع مع كلماتها العذاب جاهلة أنّها تزيد من عذاب أُختها

المسكينة.. وتمكّنت أخيراً من رفع رأسها عن المنضدة وإسناده إلى صدرها، وأخذت تمسح دموعها برفق وتناغيها بأعذب الكلمات وتهدىء عليها بحنان، ثمّ لاحت لنظرها الرسالة، وكانت كالعادة تحمل عنوان صديقة رحاب ولكنّها خمّنت أن لهذه الرسالة مساساً في وضع رحاب النفسي، فقالت:

- لعلّ هذه الرسالة قد حملت إليك أمراً تكرهينه يا رحاب؟ ولكنّني لا أظن أن صاحب هذا الخط الجميل يكتب إلى الآخرين ما يؤذي، يبدو أن صديقتك مذواقة في اختيار الصديقات.

وهنا اندفعت رحاب تقول في كلمات يقطعها النحيب:

- إنّني مجرمة، إنّني ظالمة، إنّني لا أستحق حبّك يا حسنات..

فحسبت حسنات أنّها تريد أن تشير إلى ماضيها فقالت:

- دعيكِ من هذا يا أُختاه، فأنتِ الآن في طريقك إلى الكمال، ولم يبق لكِ سوى خطوة واحدة تكونين بعدها خيراً منّي يا رحاب، لأنّ التائب عن الذنب كمن لا ذنب له.

فاندفعت رحاب تبكي من جديد، ثمّ رفعت عينها نحو أُختها بنظرة استرحام وقالت:

- وهل حقّاً أن الله سوف يغفر لي يا حسنات؟

قالت حسنات: نعم، يا رحاب وقد قال نبينا ﷺ: «لو عملتم الخطايا حتّى تبلغ السماء، ثمّ ندمتم لتاب الله عليكم»، وقال ﷺ أيضاً: «التائب حبيب الله»، إذن فإن الله عزّ وجلّ لا يغفر لكِ فقط بل أنّه يحبّك أيضاً، ويفرح بتوبتك كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله يفرح بتوبة عبده المؤمن إذا تاب كما يفرح أحدكم بضالّته إذا وجدها»، والآية المباركة تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فكيف تشكّين برضا الله تعالى عنك لو التزمت بجميع ما يأمر يا رحاب؟

وكانت رحاب قد هدأت نسبياً وهي تستمع إلى كلام حسنات الهادىء الرصين، وهي لا تفتأ تتطلّع إليها كما يتطلّع الغريق إلى منقذه، وكأنّها اندمجت

مع كلام حسنات فغفلت عن وضعها الخاص وحراجته، فقالت ورأسها ما زال على صدر حسنات:

- وما هي الخطوة الّتي تعنيها يا حسنات؟

قالت حسنات، وهي تمسح على رأس أُختها وجبينها:

- إنّها الحجاب يا رحاب، ألم تقرئي معي في سورة النور آيات الحجاب؟ ولا شكّ أنّك تؤمنين بالقرآن الكريم كرسالة من السماء أتت لتنظِّم حياتنا وتهبنا السعادة في الدارين..

وكانت كلمات حسنات الأخيرة كفيلة بتحسيس رحاب بواقعها المؤلم من جديد! نعم إنّها الآن تؤمن أن القرآن رسالة السماء، ولكن كيف تحقِّق لها هذا الإيمان وعن أي طريق؟ فهي لا تشكّ أنّ حسنات لو علمت لما تمكّنت من النظر إليها بعد الآن، ولكن حسنات كانت مستمرّة بحديثها عن الحجاب ومصالحه الاجتماعيّة وحفاظه لكيان المرأة..

وشعرت رحاب أنّها في حاجة إلى أن تعرف المزيد عن الحجاب، فهي تريد أن تتحجّب ولكنّها لا تعرف كيف ولماذا؟ ولهذا فقد اعتدلت في جلستها وأخذت تستمع إلى حسنات بكل هدوء ثمّ قالت:

- إذن فإنّ الحجاب ليس عادة دخيلة على الإسلام من الفرس؟

فقالت حسنات: كلاّ يا رحاب فإن آية الحجاب نزلت قبل أن يفتح المسلمون بلاد فارس، وقبل أن يحدث بينهم أي تماس وتعارف، ثمّ أن الحجاب الّذي فرضه الإسلام يختلف عن الحجاب الّذي كان متّبعاً عند الفرس من قبل، فهو بتعبير أصحّ ستر وليس حجاباً بالمعنى الّذي يحجب المرأة عن الحياة كما كان يحجبها الفرس القدماء، ويمكنك أن تطمئني إلى صحّة كلامي بمراجعة سورة النور وآيات الحجاب وتقفي عند الآية المباركة الّتي تقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] إلى أن تقول: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، فلماذا هذا الأمر بالغض من البصر إذا كان في الستر الّذي فرضه الإسلام عزلاً للمرأة عن الحياة؟

إنّ الغض من بصر الرجل يعني إمكان وجود المرأة إلى جواره، والغض من بصر المرأة يعني إمكان وجود الرّجل إلى جوارها، ولكن ولأجل الحيلولة دون إثارة مشاعر اطلاقها، يعني الفوضى الجنسيّة والاجتماعيّة وحبسها يعني الكبت والحرمان اللّذين يجرّان إلى العديد من الأمراض النفسيّة والعصبيّة، لأجل صيانة هذه الغرائز من الإثارة المستمرّة مع ما عرفناه من إمكان أن يعيش كل من المرأة والرجل إلى جوار بعضهما في المجتمع، أمر الإسلام بالستر كتنظيم وقائي للمرأة والرجل سواء بسواء، ألا ترين أن أكثر الويلات والمشاكل الاجتماعيّة نشأت من نتيجة الاختلاط المطلق بين الجنسين؟

وهنا سكتت حسنات تنتظر من أُختها الجواب، وكانت رحاب تستمتع إليها بكل هدوء، فلمّا سكتت بادرتها قائلة:

- لقد كنت أسمع أن الحجاب في الإسلام هو صورة عن أفكار الرهبنة والتقشّف وترك الملاذ، وبما أن المرأة هي من أهم متع الحياة بالنسبة للرجل، فرض عليها الحجاب تمشياً مع باقي الفروض القاسية الّتي يضعها أو يفرضها على نفسه في الحياة..

قالت حسنات: يؤسفني أن تكوني قد سمعت أشياء شوّهت أمامك مفهوم الحجاب مثل هذه الناحية الّتي ذكرتيها، مع أن الإسلام لم يدعُ في يوم من الأيّام إلى أفكار الرهبنة وترك ملاذ الحياة، بل على العكس من ذلك تماماً فقد أبصر رسول الله ﷺ من الدِّين المتعة، والمتعة الّتي عناها الرّسول ﷺ هي التمتّع بملاذالحياة الّتي خلقها الله لعباده، وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ الله جميل يحبّ الجمال»، وقال الإمام الصادق عليه السلام وهو يخاطب أصحابه ما نعني:

إنّ الله قد أنعم عليكم فلا تخفوا نعمه، فقالوا: وكيف ذلك يا ابن رسول الله؟ فقال عليه السلام: ينبغي أن يكون لباس الواحد منكم نظيفاً وريحه طيباً وجداره أبيض وداره مضيئة فإن في ذلك توسعة في الرزق.

وقد شكت ثلاث من النّساء إلى الرّسول ﷺ أزواجهنّ، فقالت إحداهنّ

أن زوجي لا يأكل اللحم، وقالت الثانية أن زوجي يبتعد عن الطيب، وقالت الثالثة أن زوجي يبتعد عن النِّساء، فظهر الألم على الرّسول ﷺ وخرج من بيته إلى المسجد وصعد المنبر وقال: «لقد بلغني أن بعض أصحابي ترك اللحم والطيب والنِّساء، وها أناذا آكل اللحم واستعمل الطيب وأتمّع بالنِّساء، أيما أحد أعرض عن منهجي هذا فهو ليس منِّي».

وكان رسول الله ﷺ يرجل شعره وينظر في حب الماء بدلاً عن المرآة قبل أن يخرج إلى أصحابه ويقول: «إنّ الله يحبّ من العبد أن يبدو أمام أصحابه بشكل جميل».

فهل تجدين في هذه الأمثلة ما يشير إلى تبنِّي الإسلام لفكرة الرهبنة وترك ملاذ الحياة؟ فكيف يمكن أن ننسب الحجاب في الإسلام إلى هذه الغاية؟ والإسلام كما ترين يحارب فكرة الرهبنة ويعارضها، وسوف أُعطيك كتاب «العفاف بين السّلب والإيجاب» لزين الدين لتتعرّفي أكثر فأكثر على فوائد الحجاب ومضار السفور، وقد أعددت لك مفاجأة لا بأس أن أُخبرك بها الآن وهي أنّني قد أعددت بدلة حجاب كاملة لكي أُقدِّمها لك عند أوّل بادرة رغبة، وأرجو أن لا يكون انتظاري طويلاً لتلك البادرة.

وكانت رحاب قد استعادت وضعها النفسي الطبيعي، فحاولت حسنات أن تتحدّث معها بعض أحاديث خارجية ثمّ قامت لتنصرف إلى غرفتها، ولاحظت رحاب أنّها ألقت نظرة ثانية على المظروف الملقى على المنضدة قبل أن تخرج..

عادت حسنات إلى غرفتها، وألقت بنفسها على الكرسي هناك وتمتمت تقول:

أجدني أكاد أعرف هذا الخط الّذي على الظرف، إنّه ليس غريباً عليَّ تماماً!! آه إنّه يشبه خط مصطفى، نعم خطّه في الإهداء الّذي رأيته على الكتاب الّذي كان قد أهداه لزينب، نعم لقد تذكّرت الآن وقد أعارتني إيّاه وظنِّي أنّه ما زال بين كتبي.

قالت هذا ونهضت تفتش بين كتبها حتّى وجدته، كان كتاب (الشيطان يحكم) لمصطفى محمود، ففتحته وألقت على الإهداء نظرة فاحصة، ثمّ تهاوت على الكرسي قائلة:

يا لله، إنّه نفس الخط، أو إنّه يشبهه إلى حدٍّ بعيد، ولكن كيف حدث هذا، ما هي علاقة مصطفى بصديقة رحاب؟! كلاّ لا شك أنّني غلطانة فلعلّ هناك الكثير من الخطوط تتشابه وتتقارب ولكن ما معنى هذا يا ترى؟ لعلّ لهذا علاقة مع بكاء رحاب (لعلّها عرفت عن مصطفى شيئاً غير مريح)، ولكنّني لا أُريد أن أشك باستقامة مصطفى، فلماذا أفتح أمامي أبواب تصوّرات خاطئة؟ نعم لماذا؟

قالت هذا ثمّ أخذت كتاباً تحاول أن تقرأ فيه، ولكن تفكيرها كان غير قادر على استيعاب ما تقرأ، فقد كان فكرها يقفز بين حين وحين إلى الرسالة والاهداء وتشابه الخطّين، ولهذا فقد حاولت أن تنام ففشلت في محاولتها هذه أيضاً فلم يسعها إلاّ أن تستسلم للتفكير..

وبعد مضي ساعات لم تبرح خلالها غرفتها، دخلت عليها رحاب ففرحت لقدومها عساها تبتعد عن أفكارها القاسية، أمّا رحاب فقد وقفت أمامها تقول:

- إنّني أطلب منك شيئاً يا حسنات..

فردّت حسنات باندفاع: قولي ما تريدين يا رحاب.

قالت: أُريد أبراد الحجاب الّتي أعددتيها لي، فقد صمّمت أن أتحجّب منذ اليوم..

فأشرق وجه حسنات بالفرحة رغم وضعها النفسي السيِّىء، ونهضت فقبّلت رحاباً أوّلاً، ثمّ ذهبت إلى خزانتها فاستخرجت منها زي الحجاب الكامل الّذي كانت قد أعدّته لرحاب وقدّمته إليها بكل فرح وسعادة، فأخذته رحاب شاكرة وقالت:

- أرجو أن لا أتخلّى عنه بعد اليوم أبداً، كما وأرجو أن لا تتخلّي عنّي يا حسنات بعد اليوم أيضاً..

فاستغربت حسنات كلام أُختها وقالت:

- أنا أتخلّى عنك يا رحاب! وكيف يخطر لك ذلك؟ إن هذا لن يحدث أبداً مهما كان..

قالت رحاب: مهما كان، ومهما عرفت عن ماضيَّ يا حسنات؟

قالت حسنات في ثبات وتصميم:

- نعم مهما كان، ومما عرفتُ عن ماضيك، ما دمتِ أنتِ الآن نقيّة طاهرة..

قالت رحاب: حتّى ولو كنت قد أسأتُ إليك من قبل؟

قالت حسنات: حتّى هذا، فإن مجرّد فرحي بحجابك يعدل عندي كل إساءة ماضية، ثمّ إنّك أُختي وحبيبتي فكيف تحسبينني أحقد عليك يا رحاب؟

قالت رحاب: أتمنّى هذا منك وإن كنت لا أستحقّه يا حسنات، وعلى كل حال فألف شكر لك يا أُختاه.

ثمّ استدارت وخرجت من الغرفة وهي تجهش في البكاء، وتركت حسنات في حيرة من أمرها وأمر أُختها وأمر الرسالة والإهداء.

□□

عادت رحاب إلى غرفتها وقد صمّمت أن تنهي هذه المسرحية المخجلة، وعليها أن تتحمّل النتائج مهما كانت، وأن تواجه الواقع على مختلف احتمالاته، وفعلاً فقد أخذت القلم لتكتب، ولكنّها عادت فألقت بالقلم على الأرض في عنف ونهضت قائلة:

سوف لن أكتب بهذا القلم بعد اليوم، إنّه قلم مدنّس بكلمات الخيانة.. ثمّ ذهبت فاستخرجت قلماً جديداً وعادت لكي تكتب فيه صفحة جديدة من صفحات حياتها الجديدة فكتبت ما يلي:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حضرة السيّد الفاضل الأُستاذ مصطفى..

لستُ أدري كيف أبدأ رسالتي، وهي المرة الأُولى الّتى أكتب فيها (أنا) إليك!

نعم، أنا ويا لخجلتي ممّا أكتب، ولكن ميلادي الّذي كان على يديك وعمري الجديد الّذي وهبتني إيّاه تعاليمك، جعلاني أُؤمن أن العار أولى من النار، وأن الخجل هنا أهون من الخجل أمام الله الواحد القهّار، وهذا ما دفعني لأن أكتب لأضع الحقائق أمامك جليّة واضحة بعد أن شوهّتها ولوّثتُها مدّة من الزمان، ولعلّ اعترافي هذا أصدق دليلاً على ندمي على ما مضى وتوبتي لله تبارك وتعالى عما اقترفت وأذنبت.

والآن إليك هذه الحقيقة يا سيِّد مصطفى.. آه إنّك سوف تذهل أوّلاً، ثمّ تفرح ثانياً، ثمّ تحتقرني وتنقم عليَّ ثالثاً، ولكن المهم أن أكون قد قمت بواجبي تجاه ربِّي وتجاهكما وتجاه ضميري الّذي يأبى أن يهادنني دون أن أعترف وبصراحة..

واعترافي هذا هو أنّني أنا الّتي أكتب إليك الآن والّتي كتبت إليك منذ جواب أوّل رسالة أرسلتها يا سيِّد مصطفى، أنّني رحاب أُخت حسنات! ولم تكن حسنات في يوم من الأيّام لتكتب ما كتبت لأنّها لم تكن تشك كما شككت..

نعم، إنّها مؤمنة كقدّيسة وطاهرة كملاك وجميلة كحوريّة، فكيف لها أن تكتب ما كتبته أنا؟

نعم، أنا الّتي كنت أعيش عالم التيه والضلال، أنا الّتي خضعت للشيطان فأغواني وللهوى الباطل فاستهواني، فتلوّثت روحي وانطمست معالم الخير من ضميري، واندفعتُ وراء حسدي وغروري، فتقمّصت شخصيّة حسنات الّتي هي حسنات حقّاً، وكتبتُ إليك ما كتبتُ، وأنا أتوقع منك القطيعة لها، واعلم أن في ذلك تعاسة أُختي، ولكنّني كنتُ مندفعة وراء الباطل، فكتبتُ ما كتبتُ وأعطيتك عنواناً آخر لكي لا تصل الرسائل إلى البيت فتستلمها حسنات، ثمّ بدأتَ تكتب إليَّ فتكشف عن عيني أغشية الخداع والتضليل، وكلّما كنت أتقدّم إلى الخير خطوة كان ضميري يلحّ عليَّ مؤنِّباً ومؤنِّباً من جديد، وطالما حاولت أن أنثني عن طريقتي المنحرفة وأنسحب عن حياتكما الصالحة، ولكنّني كنت أشعر بالحاجة إلى تعاليمك وهدايتك..

ولهذا تابعت خطواتي في الطريق الوعرة الخطرة أتطلّع إلى مصدر النور الّذي كنت تهبني إيّاه، وكنت ألاحظ حسنات وهي تتألّم من جفائك وتتعذّب لانطوائك، فكان يزيدني هذا عذاباً على عذاب.

نعم، حسنات وليتك تعلم كيف هي حسنات؛ إنّها وبينما كنت أعمل على هدم سعادتها، كانت تفرح كلّما وجدتني أقرأ كتاباً أو لاحظت عليَّ بوادر اصلاح، كانت تتحبّب إليَّ وتتقرّب فرحة بعودتي إلى حظيرة الإيمان، جاهلة أن هذه العودة كانت على حساب سعادتها وراحتها، لا تحسب أنّني أمدحها لأنّها أُختي، كلاّ فقد كانت أُختي ولم أكن أُحبّها لأنّني ما كنت أُثمن جوهرها، ولكنّني وقد عرفتها على واقعها بدت عندي فوق كل مدح.

لقد أرسلتُ لك أخيراً صورتها، فهل رأيت كم هي جميلة؟ وكم هي رائعة؟ ولكنّك لم تذكر عنها شيئاً في الجواب، لأنّك لم تكن تريد أن تمجِّد جمال إنسانة ما زالت تشك بأهم المقدّسات، ولهذا فقد أغفلتَ ذكر الصورة، وصورتك يا سيِّد مصطفى أتعلم أنّها ما زالت عندي لا أعرف كيف أُوصلها إلى حسنات؟

آه ها أنتَ قد بدأت تتقزّز منّي يا سيِّد مصطفى، ومن حقّك ذلك ولكن هكذا كان.. فقد سبق أن سألتني عن الطريق الّذي أحصل به على الكتب، فأغفلت الجواب، فماذا كان عساي أن أقول؟ إنّني كنت أستعيرها من حسنات الّتي وضعت مكتبتها تحت تصرّفي.. نعم هل كان يمكنني أن أقول لك أنّني أستعيرها من حسنات؟ يا لله لكم أسخط على نفسي وكم أحتقرها وأستصغرها، ولكن لعلّ هذا الاعتراف سوف يبعث شيئاً من الرضا في نفسي ويهبني راحة الضمير، ثمّ وقبل كل شيء إن ما يهمّني هو رضا الله عليَّ، أفتراه يرضى؟

والآن يا سيِّد مصطفى أرجو أن تصلك هذه الرسالة وقد انتهيت من امتحاناتك وأنت تستعد للعودة، ولكنّني أرجو أن تكتب إلى حسنات قبل أن تعود، دعها تستلم ولو رسالة واحدة منك على الأقل، ثمّ أن لك أن تنقم فيها عليَّ كما تشاء.

هذا وأستميحك العذر من جديد، وأتمنى لك من كل قلبي مزيداً من الخير والسعادة، واغفر لي واسلم لدينك ولحسنات إلى الأبد.

رحاب

أتمّت رحاب كتابة الرسالة وكتبت العنوان على الغلاف ثمّ ارتدت ملابس الحجاب الّتي أهدتها إليها حسنات ووضعت الرسالة في حقيبتها اليدوية وذهبت إلى غرفة حسنات، فطرقت الباب دون أن تدخل، ففتحته لها حسنات فوجدتها بملابس الحجاب فهتفت تقول:

- الله ما أروعك بهذا اللباس يا رحاب، تعالي وتطلّعي إلى مظهرك المحتشم المحترم في المرآة..

قالت رحاب: كلاّ فإن لديَّ مهمّة مقدّسة عليَّ أن أُنجزها في أسرع وقت، وقد بدأت بارتداء الحجاب مع انجازها..

قالت حسنات: وهل سوف تتأخّرين في الخارج يا رحاب؟

قالت رحاب: كلا فإنّ عليّ أن أعود سريعاً، وسوف أعود إليك فانتظريني يا حسنات..

قالت هذا وذهبت تاركة حسنات نهباً للحيرة والفكر.

□□

أبردت رحاب رسالتها إلى مصطفى وعادت إلى البيت، فخلعت حجابها وتوجّهت إلى غرفة حسنات، فهي تريد أن تعترف لها بكل شيء، يكفي ما كلّفتها من آلام، وكانت كلّما مشت خطوة عادت فوقفت حائرة كيف سوف تبدأ؟ ماذا سوف تقول؟ ما هي ردود الفعل عند حسنات؟ لا إنّها سوف تنقم عليها بشدّة، لا شك أنّها وعلى الأقل سوف تعاقبها بقساوة، وخشيت أن تجبن عن الاعتراف فاندفعت نحو غرفة حسنات بخطوات ثابتة وهي تقول:

ليس لي أن أخشى شيئاً ما دمت أُؤدّي عملاً يرضي الله.

وكانت حسنات تنتظر أُختها بشيء من القلق، ولهذا فقد تطلّعت إليها بلهفة وجلست أمامها تنتظر، فكان أوّل عمل قامت به رحاب أن أخرجت من حقيبتها

صورة مصطفى وقدّمتها إلى حسنات، فأخذتها حسنات واستغربت الأمر فأدارت الصورة لترى ما كُتِبَ خلفها، فوجدت كلمات اهداء عذبة موجّهة نحوها وموقّعة باسم مصطفى! فعلت وجهها صفرة باهتة أعقبتها حمرة ثمّ رفعت وجهها إلى رحاب قائلة:

- متى وصلت هذه الصورة يا رحاب؟

قالت رحاب وصوتها يكاد يعود إلى الأعماق:

- لاحظي التاريخ يا حسنات..

فألقت حسنات نظرة على التاريخ ثمّ قالت:

- ماذا؟ إن تاريخها يعود إلى ما قبل سبعة أشهر فأين كانت كل هذه المدّة يا رحاب؟

قالت رحاب: إنّها كانت عندي يا حسنات، ألم أقل لك بأنّني مجرمة؟ ألم أقل لك بأنّني لا أستحق منك الحب والحنان؟

قالت حسنات: كلاّ، كلاّ أنا لا أسمح لك بهذا الكلام يا أُختاه، ولكن حدِّثيني بحديث الصورة إن سمحت يا أُختاه..

قالت رحاب: أن ما قدمت إليك إلاّ لأُحدِّثك حديث هذه الصورة يا حسنات، ولك بعد حديثي أن تعامليني بما تريدين.

ثمّ بدأت تحدِّثها بكل شيء، وكانت حسنات تستمع إليها بكل هدوء، الشيء الّذي أعجب رحاباً وشجّعها على متابعة الاعتراف، وما أن انتهت من حديثها حتّى أطرقت تنتظر الحكم.. فقامت إليها حسنات وقبّلتها بحنان قائلة:

- بنفسي أنت يا أُختي، لكم تحمّلت من آلام؟

فرفعت رحاب رأسها نحو حسنات وهي لا تكاد تصدِّق ما تسمع، ثمّ قالت:

- أنا؟ أنا الّتي تحملت الآلام، أم أنتِ الّتي حمّلتك الآلام يا حسنات؟

فردّت حسنات تقول:

- ولكن آلامي هانت لديَّ عندما عرفت أنها كانت الطريق الغير المباشر لهدايتك، ولهذا فأنا الآن أشعر بالسعادة مضاعفة لأنّني حصلت على أُخت صالحة وزوج صالح.

قالت رحاب: وهل سوف تغفرين لي خيانتي يا حسنات؟

قالت: نعم، وسوف أنساها لعمق فرحتي بك وبإيمانك وبعودة مصطفي إليَّ، وهاكِ هذه القبلة كدليل على إخوّتي الّتي لم تتغيّر ولم تتبدّل.

ثمّ طبعت على جبين أُختها قبلة حب صادقة، ثمّ جلست إلى جوارها وصورة مصطفى ما زالت بيدها وهي تتطلّع إليها بين حين وحين، فقالت رحاب:

- أُنظري كم هو جميل بالإضافة إلى باقي ما يميِّزه؟

فابتسمت حسنات وقالت:

- إنّ الجمال لا يهمّني كما تهمني الشخصيّة والإيمان، أنا لم أُفكِّر يوماً في جماله وعدمه، ولكن طالما فكّرت في سلوكه وسيرته.

□□

مرّت الأيّام وقد عادت إلى حسنات إشراقتها وعادت من جديد تنسج تصوّراتها لحياتها القادمة، وكانت خلال ذلك تحاول أن تهب رحاباً مزيداً من الحب والحنان والاهتمام لكي تبعد عنها كل شائبة، وبعد مضي أكثر من ثلاثة أسابيع حيث كانتا تجلسان معاً في غرفة رحاب دخلت عليهما الخادمة تحمل بيدها رسالتين، ولم تمد إحداهما يدها نحو الرسالتين، وكأنّ كل منهما كانت تنتظر المبادرة من أُختها، ولهذا فقد وضعت الخادمة الرسالتين أمامها وانصرفت، وتطلّعت عيونهما نحو الرسالتين وقالتا بصوت واحد:

إنّهما من مصطفى.

وكانت إحداهما موجّهة إلى حسنات والأُخرى إلى رحاب، وكأنّ رحاباً خشيت أن تفتح رسالتها لجهلها بمحتواها، ولكن حسنات شجّعتها قائلة:

- سوف لن أفتح رسالتي حتّى تفتحي رسالتك يا رحاب، إنّي أُخمن أن تكون رسالة مريحة لك يا عزيزتي.

ففتحتا رسالتيهما معاً، فأمّا رحاب فقد وجدت رسالتها كما يلي:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حضرة الأُخت الفاضلة الست رحاب:

سلامي وتحيّاتي وخالص دعائي وتمنياتي..

ها أنا أكتب إليكِ بشكل جديد، وكما لم أكن أكتب من قبل بعد أن بدأتُ أشعر نحوك مزيداً من الإحترام والإكبار، فأنا الآن أُحسّ بأنّني أكتب إلى إنسانة عظيمة قهرت بإرادتها الشيطان، وترفّعت بمعنوياتها على الإغراء والأهواء فحقّقت رقماً قياسياً بتنزيه النفس وتجريدها عن كل شائبة وبلورتها بالشكل الّذي يرضاه الله، فبورك لكِ هذا الشاؤ الّذي بلغتيه، وهنيئاً لشخصك هذا السبق الّذي أحرزتيه.

وإنّني منذ استلام رسالتك الأخيرة أو (الأُولى) أُعدك أُختاً لي يسعدني ما يسعدها ويؤذيني ما يؤذيها ويهمني أمرها إلى أبعد الحدود، ثمّ إنّي أرجو أن لا تكدِّري فكرك بمراجعة الأحداث الماضية، وأن تكوني واثقة من أنني لا أضمر لكِ إلاّ كل احترام وإعزاز، وأملي أن تكون حسنات كذلك لأنّها وكما ذكرت عنها، حسنات، وهل تصدر السيئة عن الحسنة؟

وأخيراً أعود فأتمنى لك كل خير، وأستودعك الله طالباً لك مزيد التوفيق والتسديد.

مصطفى

أمّا رسالة حسنات فقد كانت من الرقة والعذوبة بشكل عوّضها عن حرمانها الطويل، وكانت حسنات خلال قراءتها للرسالة تتطلّع نحو رحاب خشية أن يكون في الرسالة ما يكدِّرها، ولكنّها اطمأنت عندما وجدت علائم الراحة بادية على تعابيرها، وما أن انتهت كل منهما من القراءة حتّى تعانقتا على فرح وسعادة بالغين ثمّ قالت حسنات:

- هل تعلمين أنّه سوف يعود بعد أُسبوعين؟

فقالت رحاب: مرحباً به متى جاء.

وبعد أُسبوع من وصول الرسالة اتصلت بهم أُم مصطفى تطلب منهم تحديد موعد لزيارتهم، فحدّدوا لها عصر ذلك اليوم وخمنوا أنها آتية للتحدّث حول مقدّمات الزفاف، ولكنّها عندما حضرت، كانت تخطب رحاباً لإبنها محمّد وتقترح لو حصلت الموافقة أن يتم زواج الأخوين في وقت واحد..

□ □

وفعلاً فقد تمّ زواج الأُختين في يوم واحد وسعدت كل مع زوجها.

بنت الهدى

٤

صراع من واقع الحياة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

قارئاتي العزيزات:

إن تسجيد المفاهيم العامة لوجهة النظر الإسلامية في الحياة هو الهدف من هذه القصص الصغيرة لأني أؤمن بأنّ إعطاء المفهوم على المستوى النظري لا يمكن أن يحدث من التغيير والتأثير ما يحدثه إعطاؤه مجسداً ومحدوداً في أحداث وقضايا من واقع الحياة، ومن أجل ذلك إهتمّ القرآن الكريم بإعطاء المثل والقيم عبر صور قصصية من حياة الأنبياء والدعاة إلى الله وما تلابسها من ظروف وأحداث.

ولئن كانت هذه القصص القصيرة في هذه المجموعة من نسج الخيال، فهي منتزعة دون شك انتزاعاً من صميم الحياة التي تحياها الفتاة المسلمة اليوم. ولهذا فإنّ أية فتاة سوف تقرأ في هذه القصص أحداثاً عاشتها بشكل وآخر مباشرة، أو تفاعلت معها، أو مرت قريباً منها، وسوف تجد في كل قصة الموقف الإيجابي الذي تفرضه وجهة النظر الإسلامية في الحياة، والبون الشاسع بين نظافة هذا الموقف وطهارته وتساميه وبين الانخفاض والانحطاط الذي تمثله وجهات النظر الأخرى في الحياة.

بنت الهدى

صراع

كانت فاطمة تسير وهي في دوامة من الأفكار، تتقاذفها، وتتلاعب بعواطفها المرهفة، ومشاعرها الحساسة. وكانت تحث خطاها، وتستعجل الوقت لكي تصل إلى حيث تريد. إلى مصدر النور والإشعاع في حياتها، ومبعث الرضا والطمأنينة بالنسبة لعواطفها وأفكارها، فهي تشعر بشعور مبهم تتمنى لو تمكنت من التغلب عليه والتخلص منه، ولكنها لا تزال ضعيفة وفي حاجة إلى ركيزة قوية تشدها وتأخذ بيدها لانتشالها مما هي فيه. وكانت تحدث نفسها قائلة: سوف أحدثها عن كل شيء، سوف أشرح لها ما ألاقيه من صعوبات، وسوف أعترف أمامها بأني خائفة من أن يلحقني الجبن أو أن أتراجع.

وما أن وصلت إلى البيت المقصود حتى إندفعت تطرق الباب في لهفة، وهي خائفة من الخيبة ومن عدم وجود صديقتها في البيت، وحينما انفتح الباب إندفعت تسأل عن عفاف، ولما علمت بوجودها اتجهت نحو غرفتها بخطوات مضطربة فتلاقت معها وهي قادمة لاستقبالها ببشاشتها الهادئة، فصافحتها بحرارة وسارتا حتى استقرّ بهما الجلوس في غرفة عفاف، وبنغمة طيبة تصحبها رنة عتاب قالت عفاف:

لقد أوحشتيني طيلة الأسبوع الماضي يا فاطمة فأهلاً بك وسهلاً.

ولم تكد فاطمة تستمع إلى صوت عفاف، ونغمتها الرصينة الحنون، حتى سكنت جذوة ثورتها وكادت أن تنسى ما أتت لأجله، ولهذا فقد أطرقت دون أن تجيب، ومرّت فترة، كانت خلالها عفاف تحدّق في وجه فاطمة حتى قرأت مشاعرها مرتسمة عليه، ثم تقدمت بمجلسها نحو فاطمة، وابتسمت ابتسامة عطف وتشجيع وهي تقول:

أراك لست على طبيعتك يا فاطمة فهل لي أن أعرف السبب؟

وكأنّ هذا السؤال قد فتح أمام فاطمة باب الحديث، فقالت وصوتها يتهدج:

ما أراني إلاّ منكرة لحالي يا أختاه، فقد تنكرت لي عواطفي، وخانتني الشجاعة بعد أن حسبت أني قد تدرعت من إيماني بدروع تعصمني من الشيطان، وتصدّ عني كل ما من حقه أن يصل إلى غايتي أو هدفي من قريب أو بعيد، ولكن. . . وسكتت فاطمة تحاول أن تستحضر العبارة الواضحة التي تكشف عمّا تعانيه، ولكن عفاف سبقت أفكارها وقد توصلت إلى معرفة المحنة التي تعيشها صديقتها، والدور الذي تمرّ فيه، فقالت وكأنّها تحاول أن تفتح أمام فاطمة باب الحديث، لتتعرف على جميع ما لديها وما تحسه من مشاعر قالت:

ولكن ماذا يا فاطمة؟

قالت فاطمة:

ولكن شجاعتي بدأت تخونني يا أختاه، فلم أعد أطيق هذه الصعوبات التي تعترض طريق الدعوة الدينية.

قالت عفاف:

وأي صعوبات هذه يا فاطمة؟ حدثيني بما لديك فلست سوى أختك في الإيمان.

قالت فاطمة:

لقد آمنت بواجبنا نحن المسلمات، ومسؤوليتنا تجاه ديننا وإسلامنا الحبيب، فاندفعت أدعو إليه، وأحاول أن أستنقذ من أتمكن عليهن من بنات الإسلام من الواقع المرير الذي يضللهن، ولكن المجتمع يا عفاف. وسكتت فاطمة.

فقالت عفاف: وما له يا فاطمة؟

قالت فاطمة: إنه مجتمع فاسد لا يقيم للمفاهيم والمُثل وزناً ولا ينظر إلاّ من وراء منظار المصالح والغايات، هذا المجتمع جعلني أشعر بمرارة لم أكن أريدها أو أرغب فيها.

قالت عفاف: أو كنت تحسبين أنّ طريق الخدمة الدينية مفروش بالأزهار؟ خال من المتاعب والمصاعب؟ نحن لا ينبغي لنا أن ننكر وجود المصاعب والمتاعب، ولكن المطلوب منّا أن لا نحسّ بقساوتها ومرارتها ما دمنا قد سرنا في طريق الله، وفي طريق الحقّ، ألم تسمعي قسم الفتاة المؤمنة الذي ينطق عن لسان كل من مشت في طريق الله؟

إسلامنا أنت الحبيب وكل صعب فيك سهل
ولأجل دعوتك العزيزة علقم الأيام يحلو

والآن. حدثيني بهدوء عمّا أثارك يا فاطمة؟

قالت فاطمة: إنّه ليس بالشيء المعين يا عفاف.

قالت عفاف: ولكنه الجبن أمام التيارات المنحرفة، والخوف من الأفكار المسمومة؟ وكانت عفاف تحاول بكلماتها هذه أن تثير الحمية في فاطمة، وفعلاً فقد نجحت بمحاولتها فما كادت تسمع كلمة الجبن حتى انتفضت مستنكرة وهي تقول:

أبداً أبداً أنا لا أجبن أمام تيار، ولا أخاف من فكرة، ولكنها المضايقات، المعاكسات، عدم التجاوب عدم التفهم ووو. . .

قالت عفاف: وماذا أيضاً يا فاطمة؟ أكملي ما لديك لأجيبك عليه.

قالت فاطمة: لقد آمنت أنّ عليَّ أن أخدم ديني بكلّ صورة وبأي مجال من المجالات، وآمنت أيضاً أنّ العقيدة الإسلامية لا تعرف حدوداً ومقاييس عدا مقاييس الدين والعمل له. . . وهنا سكتت فاطمة وكأنها لا تعرف ما تريد أن تقول.

فقالت عفاف: ولهذا فقد آلمك أن وجدت المجتمع لا يزال يرزح تحت وطأة المقاييس الخاطئة، وينظر للأفراد بمنظار المادة وداخل إطار من القشور الزائفة، أليس كذلك يا فاطمة ولكن لو كان مجتمعنا مجتمعاً مثالياً يؤمن بالمفاهيم الإسلامية وينظر للفرد والمجتمع بمنظار الحقيقة لما إستطاعت الدعوة التي حملنا على عاتقنا مهمتها أن تصقل نفوسنا وتتسامى بعزائمنا من

خلال صعاب الطريق ومشاكله وأشواكه ولو كنا ندعو في مجتمع فاضل ونهدي بنات جنسنا في بيئة صالحة بصورة مواكبة للتيار بدلاً عن مجابهته كما نصنع اليوم لما كنّا من الصابرين والصابرات الذين عنتهم الآية المباركة: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

قالت فاطمة: ولكنهم يستهزئون يا عفاف، إنهم يضحكون، ويشمتون، عندما نصبح في شدّة أو نمرّ بتجربة قاسية.

فابتسمت عفاف وهي تقول: دعيهم يضحكون قليلاً فسوف يبكون كثيراً يا فاطمة، ألم تسمعي الآية القرآنية التي تقول: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] والآية القرآنية المباركة الأخرى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨]. إن القرآن الكريم قد أوضح أمامنا كل شيء، وخطط لنا طريق الدعوة بما فيه من عقبات، وبما يليه من نعيم وجنان، إذن فنحن حينما ندعو إلى ديننا يجب أن نكون على ثقة من مواضع أقدامنا لكي لا نتأرجح للعقبات، أو نتداعى أمام السدود، علينا أن نتذكر دائماً المرحلة الأولى للدعوة الإسلامية، والمصاعب والأهوال التي صادفت الرسول الأعظم ﷺ، وهو يدعو الناس إلى أن يخرجوا من عبادة أصنام ينحتونها إلى عبادة الله الواحد القهّار، ثم وهو يهذّب أمة بدائية تغلغلت فيها العادات الهمجية من النهب والسلب، والقتل، والسكر، والفحشاء، والمجون، ويغرس فيها المفاهيم السماوية، والأخلاق المثالية، لتكون خير أمّة أخرجت للناس، علينا أن نتصور محمد بن عبد الله ﷺ وهو سليل أشرف أسرة عرفتها الجزيرة العربية، ثم وهو أنبل رجل في قريش يقرّ له بالكمال الكبير والصغير والرفيع والوضيع ولا يسمّى إلاّ بالصادق

الأمين، علينا أن نتصور هذا الرجل العظيم وهو يبعث بالنبوة، ويختاره الله لحمل الرسالة، فتتألب عليه العشائر، وتتكاتف ضده القبائل ويحاصر بالتهديد والوعيد، وهو صامد ثابت، لا يرجع عن دعوته، ولا يفتر عن تبليغ رسالته، ثم يقاطع ويعزل هو ومن معه من المؤمنين وكأنّه إنسان منحرف، أو زعيم عصابة ضالّة، ثم يتحمل أشكالاً من أساليب الإهانة والاستهزاء فيقال عنه ساحر وهو النبي، ويقال عنه كذاب وهو الصادق الأمين، ويقال عنه معلّم وهو الذي يتلقى الوحي من السماء ويقال عنه مجنون وهو أكبر عقل تقبّل أفكار النبوة، علينا أن نتصور كلّ هذا، ثم نتذكّر دعاء النبي ﷺ حينما ذهب ليدعو الناس في الطائف، فأرسلوا إليه بأطفالهم يستهزئون ويسخرون، ويرمونه بالحجارة والسباب، حتى التجأ إلى جدار هناك ورفع يديه نحو السماء وهو يقول: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا ربّ المستضعفين وربي، إلى من تكلني؟ إلى قريب يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب؟ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي» إن علينا يا فاطمة أن نتذكر خاتمة هذا الدعاء حينما يقول: إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، بعد بدايته الناطقة بالألم والأسى، فنحن ما دمنا على ثقة من صواب فكرتنا، وصدق عقيدتنا، ينبغي أن لا نتداعى أمام التهاويل والأباطيل، أو أمام المشاكل والعقبات، تذكري يا فاطمة أنّ السيدة زينب بنت أمير المؤمنين عليه السلام لما وقفت على جثمان أخيها الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء، وهو الأخ والحامي والمعيل، قالت زينب وهي تقف على جثمان الإمام عليه السلام رافعة يدها نحو السماء: اللهمَّ تقبّل منّا هذا القربان، نعم يا فاطمة علينا أن نتذكر كل هذا، لكي لا نستهول الأحداث التي تعترض طريقنا.

وما إن سكتت عفاف حتى إستعبرت فاطمة وهي تقول: لا حرمني الله منك يا عفاف فما أنت إلاّ بلسمي الشافي، ومناري الهادي، فقد أعدت لي بكلماتك الروح التي كدت أن أفتقدها، نعم أعدتيها إليَّ ولكن بشكل ثابت لا يمكن أن يتزعزع أو يتأرجح، ما كان أغباني وأنا أندفع إلى اليأس يا عفاف؟

قالت عفاف: أبداً يا فاطمة إنك لم تيأسي لحظة، ولم تكوني غبية قط،

ولكنها مشاعر تتولد من جرّاء بعض العوامل في المجتمع والمحيط، وإن أحسن دليل على صمودك وإيمانك أنك اتجهت إليَّ لأساعدك على الوقوف في المزالق التي لا يد لك بإيجادها، وإنما هي نتيجة انحراف المجتمع الجاهل المسكين، ثم لعلّك قد هجرت المطالعة كما هجرتيني منذ فترة يا فاطمة؟

قالت فاطمة: أنا لم أهجرك يا عفاف، ولكنني كنت أعيش في دوامة، وكنت أخشى، وسكتت فاطمة وكأنها تتردد في إكمال جملتها فأردفت عفاف قائلة:

كنت تخشين مصارحتي بما يعتلج في أفكارك يا فاطمة؟ أليس كذلك، ولكنك في هذا فقط كنت غلطانة يا عزيزتي، أتخشين مصارحتي وتنطوين على هذه المشاعر دون أن تخشي من عواقبها عليك ومضاعفاتها بالنسبة لأفكارك؟ قالت عفاف هذا ثم حدقت في عين فاطمة وهي تبتسم بلطف فما كان من فاطمة إلاّ أن قالت:

كوني على ثقة يا عفاف من أني سوف لن أدع للضعف سبيلاً إليَّ بعد اليوم، وأعاهدك أيضاً أن أبثك ما لدي من الآلام والآمال، لتكوني ملاكي الهادي كما كنت دائماً وأبداً.

فقالت عفاف: أنا لست ملاك يا فاطمة وما أنا إلاّ أختك المحبة الناصحة لك ولجميع فتيات الإسلام.

صمود

لم يكد الفجر يلوح طابعاً أول خطوطه على صفحات الأفق حتى نهضت وفاق من فراش لم يجمعها وإيّا النوم فقد قضت ليلتها تعدّ ساعاتها بألم، وتطوي دقائقها بالدموع وما أن لمحت خطوط الفجر حتى شعرت به ينتزعها من فراشها ليستنقذها مما هي فيه، وليدعها إلى ترك اليأس المرير، ويفتح أمامها أبواب الأمل والرجاء، في الصلاة والدعاء، واتجاه الروح وقربها من

الرحمٰن، وفعلاً فقد اندفعت بلهفة إلى تهيئة مقدمات الصلاة، وكأنها تستعد لموعد يقرّبها ممن تحب، ويفتح أمامها أبواب الرجاء، وسرعان ما اندمجت مع صلاتها تاركة ورائها آلام الحياة ومآسيها، منصرفة إلى خالقها الذي تتجه إليه، وانتهت من صلاتها فعادت إلى واقعها المرير، وما هي عليه من حيرة قاسية تقف بها على مفترق طريقين، طريق السعادة المادية في الدنيا الفانية، وطريق السعادة الروحية في الصمود على الإيمان والذي يصل بها إلى السعادة الحقيقية في الحياة الباقية بعد أن يحقق لها في الدنيا أيضاً، مفهوم السعادة الواقعية، الناتجة عن السير الصالح في خط الإسلام، وتعاليمه ويبتعد بها عن المشاكل والويلات، التي يجرّها الانحراف عن هدى الإسلام، طريق يفتح أمامها أبواب الدنيا ببهرجتها الخلاّبة، وأساليبها الخادعة، ونعيمها الموهوم، وطريق يأخذ بيدها إلى مطلع الهداية، ويثبت أقدامها على جادة الصواب، ويشدها إلى إسلامها وما فيه، من مثل ومفاهيم، وقِيَم، وأخلاق، فيشعرها بلذة الانتصار، ويكللها بأكاليل الصمود، والثبات، وهي بطبيعتها فتاة مسلمة تأبى أن تختار الطريق الدنيوي الخادع، ولكنها تخشى أن تضعف حيال التيارات، أو تنهار أمام الوعد والوعيد، وهذا ما جعلها تقضي ليلتها ساهرة تتطلع إلى الفجر بصبر نافذ، ولم تكد تنتهي من صلاتها حتى رفعت يديها نحو السماء قائلة: يا رب إنك تعلم أني فتاة يتيمة فقدت أبوي وأنا بعد صغيرة، وذهب أخي إلى حيث يستكمل دراسته في الخارج، فخدعته أوروبا بحضارتها المزعومة، فنساني أو تناساني، وانجرف وراء لهوه ومجونه ولكنك وبرحمتك يا رب، عوضتني بنور الإسلام الذي أشرق على جنبات روحي فأضاءها، ونفذ إلى العمق من مشاعري وأحاسيسي فوهبها الأمن والرضاء، واستقرّ في صميم فكري فوجهه الوجهة الصالحة في الحياة، وقد مكنتني يا مولاي، بما وهبته لي من سلاح الإيمان، وقوة العزيمة أن أرتفع بنفسي عن كل وهدة، وأحتفظ بفكري وقلبي نقيين طاهرين، لم تدنسهما الحضارة الكاذبة، ولم يستهوهما التمدن الخادع، بأساليبه البرّاقة، ولم تضللهما الفكر الوافدة، بسمومها، وهكذا مكنتني يا رب، أن أشق طريقي في الحياة قانعة راضية، وكنت أشعر يا

إلهي بعد كل إنتصار أحرزه في مضمار هداية البنات المخدوعات أشعر بسعادة تنسيني حرماني من حنان الأبوة، والأمومة، وحماية الأخوة كنت أعوّض بتلك السعادة عمّا ألاقيه، من قساوة عمي الذي تعهدني، هذا العم الذي يستهين بجميع ما أؤمن به من مُثل، وقِيم، ومفاهيم، ولكن؟ هذا الوافد الغريب هذا الشاب المائع الماجن، الذي سحر عمي ببريق أمواله، واستهواه بأبواق سياراته العديدة، هذا الذي جعل حياتي جحيماً منذ أطلّ على هذا البيت، ولاحت لعين عمي عماراته الشاهقة المرتفعة في سماء بغداد؟ هذا الذي تجرأ على طلب يدي وهو يجهل أني لا أنظر إليه من وراء عماراته وسياراته، بل إنني أنظر إليه بمنظار الواقع، فأنفر منه بمجونه، وميوعته وأخشاه لتحلله وانحرافه، ولكن عمي، هذا الرجل المغرور، لم يزل يتعقبني بفتاه هذا بالوعد تارة، وفي الوعيد تارة أخرى، إنه يصوّر لي الفردوس الأرضي غافلاً عن فردوسك يا رب، إنه يبني لي الصروح الشاهقة من الأماني والآمال جاهلاً أن آمالي وأمانيّ منوطة بك وحدك، أنا أخشى أن أفقد فردوسك عن تعاليم الإسلام إذا نزلت أمام رغبة عمي وقرنت حياتي مع هذا الشاب، ولكن الضغط شديد، وأنا وحيدة فريدة أقاوم، وأصارع، بدون ناصر أو معين، إلاّ أنت يا ربّ حتى أخي الوحيد، أنه قد انحرف مع التيار الساحق، ولا ريب ولا أدري؟ فلعلّه لو كان حاضراً لآزر عمي وساعده على ما يريد؟ فأنا لا أعرف شيئاً عن أخلاقه وما انتهى إليه، فقد تركني فتية صغيرة، ولم يعد لحدّ الآن، ناسياً أنّ لديه أختاً هي أحوج ما تكون إليه، وإلى رعايته وعنايته لقد نساني أو تناساني بالمرة، ولكنني لم أنس أخي، لقد كنت أدعو له بالهداية على طول الخط، فارحمني يا رب برحمتك، ولا تتركني أنجرف إلى الهاوية راضية أو مرغومة بعد قليل سوف يستأنف عمّي عملية التعذيب، ويعاود كلمات التهديد والوعيد، إنك تعلم يا إلهي أنه حبسني في غرفتي هذه منذ يومين، محاولاً إخضاعي لما يريد ولهذا فإني خائفة يا ربّاه ولكنني سأحاول الصمود، سوف أقف أمام كل شيء، حتى تصلني رحمتك ورضوانك؟ وكأنّ هذه المناجاة أسبغت على وفاق بعض الشعور بالراحة النفسية بعد أن ناجت ربّها القادر على كل شيء وأوكلت إليه

زمام أمرها في الحياة، وهل هناك راحة نفسية أعمق من راحة الإنسان السائر في طريق الله؟ وهل هناك اطمئنان أعمق من اطمئنان الذي يسلِّم أمره إلى الله؟ وهذا ما جعل وفاق تشعر بنعاس هو أشبه ما يكون بالاستسلام، وفعلاً فقد أسلمت نفسها للنوم بعد ليلة طويلة قضتها ساهرة، ولكن إغفاءتها تلك لم تستمر سوى فترة قليلة فقد استفاقت على صوت عمها وهو يقرع النافذة بصوته الحاد:

ألا تزالين نائمة يا عجوز القرون الوسطى، فنهضت مذعورة وأجابت بانكسار:

نعم يا عمّاه فقد أخذتني سنة من النوم.

قال العم وقد حاول أن يلطّف صوته: أراك منبسطة الوجه في صباحك هذا يا وفاق؟ لعلَّك قد عدت إلى الحقيقة وتركت وراءك عالم الخيال؟

فحاولت وفاق أن تبتسم، ثم قالت: لقد كنت أعيش دائماً في عالم الحقيقة يا عماه.

قال العم: ولكنها حقائق القرون الماضية، وليست حقائق القرن العشرين، والآن. فإذا كنت قد عدلت عن فكرتك العفنة، فتعالي لأفتح لك الباب بيدي هذه التي سوف تفتح لك أبواب السعادة في الحياة.

قالت: أنا لا أريد أن تفتح لي أبواب النعيم الدنيوي لتسدّ أمامي أبواب الرحمة والغفران، أنا لا أبيع آخرتي بدنياي يا عمّاه فارحمني ودعني وما أريد.

فزمجر العم قائلاً: أنا لن أدع الفرصة تفلت من يدي بسهولة، أنا لا أريد أن تبقي في صومعتك هذه متلفعة بالأغطية السوداء منطوية على نفسك مع الكتب والأوراق، إنك تجلبين عليَّ العار والشنار.

فتهدج صوت وفاق وهي تقول: أنا هكذا كنت وهكذا سوف أبقى يا عمّاه.

قال: إذن فاخرجي من بيتي فلم أعد أطيق بقاءك وأنت على ما عليه من أسلوب منحرف في الحياة.

فرفعت وفاق وجهها نحو السماء وكأنها تطلب المعونة من الله ثم قالت بقنوط هل تعني ما تقول يا عمّاه؟

قال: نعم يكفيني ما سببت لي من مشاكل وما كدّرت عليَّ صفو حياتي بأفكارك ومُثُلك، إنك مخيّرة بين أن ترضي بهذا الشاب زوجاً أو أن تخرجي من بيتي على أن لا تعودي إليه، لأرى مدى ما تنفعك مفاهيمك، ومدى ما ينصرك إسلامك الذي تدعين، قرري مصيرك يا وفاق.

فأطرقت وفاق برهة ثم قالت: لقد قررت.

قال أترضين بهذا الشاب إذن؟

فقالت وفاق: بصوت رصين: لا، أنا لن أبيع ديني بدنياي.

فثار العم واندفع نحو الباب يفتحه ويقول: إذن تعالي واخرجي فلم يبق لك مكان في هذا الدار، أما وإني لآسف على ما بذلته في سبيلك من جهود، اذهبي وفتشي عن إسلامك أو عن أخيك الذي أهملك وتركك بعد أن عرفت كيف يعيش، اخرجي بسرعة، فلم أعد أطيق بقاءك في البيت.

وكان العم يتكلّم ووفاق تلبس ابرادها للخروج، ولم تكن تملك من مال الدنيا شيئاً عدى حلية ذهبية فحملتها في حقيبتها ثم انثنت إلى مكتبتها الصغيرة فاختارت منها المصحف الشريف، وبعض الكتب الإسلامية، ثم توجهت إلى عمها قائلة: ألا تزال تصرّ على رأيك يا عمّاه؟ ألا تندم على ما أنت مقدم عليه؟

فأزبد العم قائلاً: أبداً أنا لن أضمك في بيتي بعد الآن، فلم يعد هناك من أمل، فاخرجي وفتشي عن إسلامك ومفاهيمك ونادي إليك أخاك الذي أهمل وجودك وتناساك.

فرفعت وفاق طرفها نحو السماء ثم قالت وهي تقدم نحو الباب: نعم إني ذاهبة يا عماه، وإني لسعيدة لانتصاري هذا، فقد أكمل الله نعمته عليَّ، وألهمني القوة في العقيدة، والثبات على الإسلام، فوداعاً يا عمّاه.

وكانت وفاق تنتظر أن يرجع عمّها عن قراره في آخر لحظة لكنه شيعها بكلمات السباب حتى توارت في منعطفات الشارع، وهناك، شعرت وفاق

بضيعة ما فوقها ضيعة، أنّى عساها أن تذهب؟ وإلى أيّة ناحية تتجه؟ وقد غدت وحيدة في هذا العالم الواسع، غريبة عن مجتمعها الذي يحيطها، المجتمع الذي تستنكر عليه أعماله ويستنكر عليها أعمالها، وتنقم عليه لفساده، وينقم عليها لصلاحها، فرانت عليها سحابة يأس مريرة أسلمتها لحيرة قاسية، وفيما هي غارقة في لجة الانفعالات طرفت سمعها نغمة محببة وهي ترتل آيات القرآن الكريم، وانتبهت على المقرىء وهو يتلو هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فشعرت وكأنّها هي المخاطبة في هذه الآية وتجدد في قلبها الأمل وهي تستمع إلى وعد الله بالنصر فاستعادت في لحظة بإيحاء من هذه الآية المباركة جميع ما لديها من عزيمة، وكل ما تملك من ثبات، وفكّرت إلى أين تتجه! ولكن بروح مشرقة ونفس مطمئنة، فخطرت لها صديقتها وداد ماذا عليها لو ذهبت إلى هناك وطلبت منها أن تكلّف أخاها بالبحث عن أخيها الغائب؟ فقد كان صديقه قبل أن يسافر ولعلّها إن وجدت أخاها أو عرفت بمكانه سوف تتمكن أن تكتب إليه وتطلب منه أن يعود بعد أن تحدّثه بما هي عليه.

وفعلاً فقد اتجهت إلى بيت صديقتها وداد وخيوط الأمل تداعب أوتار قلبها ووصلت إلى هناك وما طرقت الباب حتى فتحته لها وداد ولم تكد تراها حتى احتضنتها بلهفة وشوق بالغين، وراحت تقبلها وهي تردد قائلة تهاني لك على هذه البشرى السارة يا وفاق علم الله لقد استطرت لها فرحاً من أجلك يا أختاه.

فأنكرت وفاق على صديقتها هذه التهاني والتبريكات وتساءلت في حيرة عن أي شيء تهنيني يا وداد؟

فانبرت وداد تقول: أولم تصلك رسالة من أخيك يا وفاق أولم تعلمي أنه في طريقه إلينا وأنه سوف يصل اليوم أو غداً.

وكانت هذه البشرى السارة أكثر مما تتحمله وفاق فتهاوت بين يدي صديقتها وهي تردد: أحقّاً ما تقولين؟

فأخذت وداد بيدها وقادتها إلى غرفتها حيث جلستا هناك وما أن استعادت وفاق رشدها من أثر المفاجأة حتى خطر لها أمر هالها أنها قد غفلت عنه وهو أنّ أخاها قد إنجرف مع التيار، وتلونت تظرته للحياة بالمنظار الغربي، إذن فهو صورة ثانية عن عمّها الذي نبذها قبل ساعة.

فالتفتت نحو صديقتها تقول: بجد رصين وكيف علمت ذلك يا وداد وهل عرفت أي شيء قد دعاه إلى العودة؟

فقرأت وداد ما دار في خلد وفاق فابتسمت لها مشجعة ثم قالت: لقد كتب آلى أخي يقول: إنه لم يعد يستطيع البعد عنك بعد الآن وبعد أن عاش حياة الحضارة المزعومة، واطّلع على مآسيها وفواجعها، وتعرف على أمراضها وسمومها، وأنه سوف يعود ليحميك من شرّ الحضارة الخادعة، والتمدن المزعوم، هاك رسالته فاقرأيها ليطمئن قلبك يا وفاق.

وكانت الفرحة قد استولت على وفاق فلم تعد تتمكن من القراءة فها هو الله تبارك وتعالى يستجيب لها وينصرها في أحرج لحظة، وها هو إسلامها يشدّ أزرها كما كانت ترجو وتأمل، وها هي مثلها ومفاهيمها تنتصر وتعيد إليها الأخ الغائب بعد أن كفر بأفكار أوروبا وحضارتها الموهومة، فطلبت من وداد أن تقرأ لها وداد رسالة الأخ وقد جاء فيها:

لقد إنخدعت يا صديقي فترة من الزمان، ظننت فيها أنّ هذه الحياة المائعة هي الطريق إلى السعادة وقد شغلتني دنيا الغرب ببهرجها، وصرفتني عن واجبي نحو نفسي ونحو أختي التي تركتها صبية صغيرة، وأنا أقرّ لك بذلك يا صديق الطفولة والفتوة، ولكن لا عجب فقد نسيت نفسي أيضاً وأضعتها على مذبح الشهوات، وكان أن أخذت الحقائق تنكشف لي واحدة بعد أخرى، فإذا بهذه العمارات الناطحة للسحاب الساهرة للصبح على قرع الكؤوس وضرب الدفوف، إذا بها تضمّ أفظع المآسي وأهول المصائب، وإذا بهذه النوادي الزاخرة بأشكال اللهو والمجون ما هي إلاّ أحابيل تضليل للشباب المخدوع، وعملية وأد لمستقبله وكيانه في الحياة، وإذا بهذا الجيل من النساء المزهوات بالمساواة مع الرجل إذا بهن لسن سوى سلعة رخيصة جداً بين أيدي الرجال

يتحكم فيهن الرجل كما يريد ويبرزهن بالشكل الذي يهوى، وإذا بهذا الصخب في الحياة العامة، وهذا الركض وراء كل ما يسمى حضارة، وكل ما يسمى تمدن، إذا به يخفي همّاً دفيناً، ومشاكل كبار، يعجّ بها المجتمع الغربي وكل ممن سار على شاكلته، ولهذا فقد انتبهت إلى نفسي وعدت بفكري إلى أختي التي لا ريب أنها الآن قد بلغت الروعة في ريعان الشباب والفتوة فخشيت عليها مصير هذه الفتيات، وخشيت عليها أن تنحرف مع التيار الذي أخذ يغزو البلدان الإسلامية تحت أسماء مستعارة من التمدن والتقدّم، فعزمت أن أعمد إلى وطني لأحمي أختي، وأصونها بمهجتي عن الانحراف، نعم أنا أريد أن أعود، لآخذ بيدها نحو جادة الصواب، ولنذهب معاً نلتمس السعادة الواقعية في تعاليم الإسلام.

ثبات

كان المساء كئيباً تلبّدت سماؤه بالغيوم، وزمجرت الريح فيه تنذر بقرب هبوب العاصفة، وقد ضمّت خديجة إليها أولادها الثلاث في غرفة متواضعة وهي تفترش بساطاً بالياً لم يبق من معالمه شيء، وكانت ترفع طرفها إلى السماء خلسة عن أطفالها لتتابع تطوراته خشية أن تهبّ العاصفة قبل أن يعود زوجها من الخارج، حتى سمعت صوت المفتاح وهو يدور في الباب فنهضت مسرعة وأهابت بأطفالها قائلة:

قوموا فاستقبلوا أباكم.

فهتف صغيرهم قائلاً: وهل جاء لنا بالخبز يا أماه؟

فنهرته بلطف قائلة: إنّ هذا لا يهم لا تلق عليه هذا السؤال.

واندفع الأولاد نحو الأب مهللين ومعهم أمهم وقد انطبعت على وجهها ابتسامة طيبة وكأنها لم تكن تعيش ساعات القلق المريرة من قبل وكان الأب يحمل في يديه بعض الأرغفة من الخبز مع قطعة من الجبن فسارعت الأم إلى

استلامها منه ولم تمض فترة حتى أعدّت وجبة العشاء المتواضعة في أوان وإن كانت قد فقدت لونها لكثرة الاستعمال، وتحلقت الأسرة حول هذه المائدة البسيطة وحاولت الأم أن توجد جوّاً من المرح والسعادة بين أفراد الأسرة وما أن فرغوا من الطعام حتى استسلم الأطفال لنوم عميق يحلمون فيه بأنواع الحلوى وأشكال العرائس واللعب ومضت فترة سكوت على الأبوين قطعها الأب قائلاً في مرارة:

وهكذا ترين هذه السنة وهي تكاد تنتهي دون أن أحصل على عمل، وقد استنفذنا كل ما كنّا قد ادخرناه وبعنا ما تمكنا من بيعه من أثاث البيت، ولم يبق لدينا ما يمكننا من مقاومة الجوع.

فقالت الأم بصوت حاولت أن تجعله متفائلاً: لقد بقي لدينا الإيمان، وبقيت لدينا الإرادة، وهما الطريق إلى كل خير وسعادة.

فقال الأب: وأي خير وسعادة ونحن نرى الإيمان يجرّنا إلى أن نجد أولادنا يتضورون جوعاً في أسمال بالية، أما وربي أنه الإيمان الذي جعلني أتحمل هذا الشظف من العيش وأنّها الهداية التي جرعتني كؤوس الفقر والحرمان واحداً بعد واحد، فقد كنت أتقلّب في بحبوحة من العيش قبل أن. . فقطعت الأم كلام زوجها قائلة:

وأيّة بحبوحة تلك؟ ومتى كان القمار رصيداً للأسرة؟ وما قيمة الغذاء الذي يملأ الجوف ناراً؟ والكساء الذي تعقبه سرابيل؟ نحن لم نكن سعداء ومصيرنا تحدده الصدفة أو الخدعة، نحن لم نكن سعداء حينما كنّا نشبع على حساب جوع غيرنا، ونلبس في الوقت الذي يتعرّى فيه سوانا، أيّة سعادة في ذلك الجحيم؟

قال الأب: ولأجل هذه المفاهيم أقلعت عن القمار، ولأجل هذه المفاهيم أيضاً وصلنا إلى ما نحن عليه.

قالت الأم: إنّ لقمة خبز يابسة نأكلها ونحن بها أحقاء لهي أفضل بكثير من الموائد العامرة بأطائب الطعام نأكلها بعد أن ربحنا ثمرها على الموائد

الخضراء، وبعد أن سبب ربحنا الخسارة لسوانا من الناس ما أهمية أكلة لذيذة أو بزة أنيقة يعقبها عقاب الله.

قال الأب: أنا أعرف كل هذا يا خديجة وأنا أحمد الله الذي هداني للإيمان وأشكرك لمساعدتي على النهوض من ذلك الحضيض ولكن حياة الفقر مريرة وعذاب الحاجة لا يطاق...

قالت خديجة: مهما كانت حياة الفقر يا حسان فهي حياة زائلة يخالطها الأمل ويعتمل بها الرجاء وقد يعقبها اليسر أو يتبعها الرخاء، ولكن الحياة الأخرى الحياة الحقيقية التي لا تنتهي ولا انقضاء لها تلك الحياة التي يجب أن نحسب لها حسابنا ونهيِّىء للرحيل إليها أمتعتنا من الأعمال الصالحة الخيرة، فلا تأسف على ما فات، واحمد الله على ما أعدّه لك من نعيم التوبة ومثوبة الصبر على الفاقة وسبيل رضاء الله واجتناب معاصيه، ولا تدع لليأس إليك سبيلاً.

قال الأب: أنا لست يائساً يا خديجة ولكني أخشى أن أنهار أمام هذه الصعاب فيزلني الشيطان وأعود إلى ما ابتعدت عنه.

قالت الأم: لا تزال لدي حلية حرصت عليها كذكرى لزواجنا وسوف أبيعها منذ الغد ونهيش بثمنها لفترة من الزمان، سيمدنا الله خلالها بعونه ويفتح أمامها طريقاً للعمل الحرّ الشريف.

قال الأب: إذن فلأكن على ثقة من نفسي إلى فترة أخرى!

قالت الأم: نعم كن على ثقة يا حسان فإنّ الله لن يترك عباده ييأسون من رحمته، ولا يزال في الدنيا أشخاص يثمنون الاعتدال ويقدرون الصلاح، وسوف ترى كيف يبتسم لك المستقبل ويفتح لك الحظ السعيد ذراعيه.

فتأوّه الأب ثم قال: إذا صحّت آمالك يا خديجة فما هي الحكمة من هذه الأزمة التي نجتازها؟

فقالت الأم: إنها فترة اختبار ومرحلة تجربة لك ولنا جميعاً ألم تسمع الآية

التي تقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] فقال الأب ومتى سوف تنتهي هذه الفترة القاسية؟

قالت الأم: متى ما اجتزنا الامتحان بنجاح.

فقال الأب: وما هو النجاح المطلوب؟

قالت: هو أن نتحمل آلام الجوع وويلات الفقر دون أن نمدّ أيدينا إلى المال الحرام وإني لعلى ثقة من أن فترة الامتحان تكاد تنتهي بنجاحنا والحمد لله...

وإلى هنا انتهى حوار الزوجين فاستسلما للنوم وقد أوكلا أمرهما لله الواحد القهّار، واستفاقت الأم عند طلوع الفجر فأيقظت الأب ليؤديا صلاة الصبح ثم انصرفت الأم لتهيِّىء الشاي قبل أن يستيقظ الأطفال وانهمك الأب يقرأ بعض سور القرآن الكريم وأشرق الصبح، واستفاق الأولاد، فقدمت الأم لهم أكواب الشاي ولكن أحدهم احتجّ قائلاً:

أين الخبز إذن يا ماما؟ إن صديقي حامد وإخوته يفطرون على الخبز والزبد والبيض في كل صباح.

فشعرت الأم بفؤادها وهو يتمزق لوقع هذه الكلمات، ولكنها طبعت على قسماتها ابتسامة جريحة وقبّلت طفلها وهي تقول:

سوف يكون إفطارك منذ الغد كما تحب وتشتهي يا عزيز الروح إن شاء الله.

فتساءل الطفل ببراءة لماذا قلت إن شاء الله يا ماما؟

قالت لأم: لأنّ الله هو الذي يرزقنا يا ولدي وهو الذي يمكننا من تهيئة الغذاء والكساء، ولولا إرادة الله تبارك وتعالى لما تمكنا من استنشاق الهواء.

فقال الطفل: وهل سوف يرزقنا الله الخبز والبيض عند الإفطار يا ماما؟

- قالت الأم: نعم نعم يا ولدي إن ذلك سوف يكون إن شاء الله.

وكان الأب يستمع إلى ما يدور بين ابنه وزوجته وهو مذهول أمام قوة الإيمان التي تشدّ هذه الزوجة الصالحة ورأى أنّ عليه أن يؤازر هذه الأم المجاهدة ويساعدها على بعث روح الأمل والثقة في نفوس الأطفال فبدأ

يتحدث إليهم عن المستقبل، وكيف أن الله سوف يهديه إلى عمل يدرّ عليه الربح الكثير، فيشتري لهم ما يشتهون، من الحلوى، والفواكه، فيأكلون كما يأكل حامد وإخوته، ويلبسون كما يلبسون، وما أن أتمّ حديثه الذي استحوذ على اهتمام الأطفال حتى سمع طرقاً على الباب فتوجّه ليفتح الباب وهو يتساءل في سرّه عن الطارق؟ وقد قلّ من يطرق بابه بعد أن انفصل عن جماعة اللهو والمجون، وكأنّ قلب الأم قد آمل أن تكون هذه الطرقات فاتحة خير في حياتهم فوقفت في مكانها تنتظر ومضت فترة ليست بالقصيرة وإن كانت في حساب الانتظار طويلة جداً وعيون الأم متجهة إلى مدخل الدار، وعاد الأب وقد تهلل وجهه وأشرقت أساريره فاندفعت إليه الأم وهي تقول:

ظنّي بأنّ فترة امتحاننا قد انتهت يا حسان.

فأخذ بيدها في حب وخشوع وقال: نعم يا شريكة حياتي، ورفيقة آلامي وآمالي، نعم يا عزيزتي، لقد أنهى الله تبارك وتعالى فترة الاختبار واجتزناها بنجاح والحمد لله، ولكن بجهودك وبصمودك وإيمانك... حقاً لقد تمثلت فيك كلمة إمامنا جعفر الصادق عليه السلام حينما قال: «المرأة الصالحة خير من ألف رجل غير صالح» ويبدو أنّ انكشاف الأزمة كان بتوفيق من الله تبارك وتعالى وبسبب جهودك أيضاً؟

وهنا قالت خديجة بصوت تهدج من التأثر لعلّه كان رسول الحاج صاحب إليك؟

قال: بل أنه الحاج صاحب نفسه، إنه زوج صديقتك أم جهاد، وكان يقول: أنه منذ مدة يفتش عمّن يتمكن أن يأتمنه على إدارة تجارته ومساعدته في إنجاز الأعمال وقد علم متأخراً من زوجته بحاجتي إلى العمل وبملابسات وضعي الماضي والحاضر، فرأى أنّ عليه أن يختارني أنا دون سواي، لكيون الأداة التي يهيأها الله لانتشال عباده الصابرين من وهدة اليأس والقنوط، وقد قال ضمن ما قال: إنك الآن أطهر وأعف من سواك لأنّ التائب عن الجرم يكون كما ولدته أمه.

مقاييس

انتهت السيدة سعاد من ارتداء ملابسها وهي تستعد للذهاب إلى الاحتفال بمناسبة زفاف بنت صديقتها المفضلة أم سلام ثم جلست على أحد الكراسي تنتظر بنتها دعاء وكأنّها عادت فشكت في حسن مظهرها فاتجهت من جديد إلى المرآة ووقفت أمامها ملياً ثم استدارت لتطمئن من أناقتها ثم عادت إلى جلستها تنتظر وكأنها استبطأت ابنتها فقرعت جرساً إلى جوارها دخلت على أثره خادمة شابة قد جمعت شعرها على شكل تسريحة عالية وارتدت (فستاناً ميني جوب) مفتوح الصدر، يكشف عن النصف الأعلى من النهدين، وصبغت شفتيها بالروج الأحمر، فنظرت السيدة سعاد إليها برضاء، وتأملت أناقتها بدقة ثم قالت:

أراك قد انتهيت من استعدادك قبل سيدتك يا سنية؟ إذهبي وقولي لها إن أمك تنتظر، فإنّ الطريق بعيد، ويلزمنا ساعة من الزمان حتى نصل إلى هناك، ومن الضروري أن نكون أول الوافدات لصلتي الوثيقة بالأم وصلة دعاء بالعروس.

فاستدارت الخادمة في غنج وهي تقول: أمرك يا مدام.

ورأت السيدة سعاد أن تستغل فترة انتظارها لتتأكد من أناقتها ومكياجها من جديد فتوجّهت إلى المرآة وألقت نظرة عامة على ملابسها، ومكياجها، وتسريحتها ثم عادت إلى جلستها وهي تتأفف لتأخر ابنتها، وتمتمت تقول:

إنّ الساعة تقارب السابعة والنصف ويلزمنا ساعة للطريق وسوف يبدأ الاحتفال في السعة التاسعة.

وما كادت تتم كلماتها حيث دخلت سنية وهي تتأود في مشيتها بدلاعة فنظرت إليها السيدة سعاد مستفهمة فابتسمت البنت في مكر وقالت:

إنّ الست دعاء سوف تتهيأ يا ستي.

فاستشاطت السيدة سعاد وهي تقول: ماذا؟ سوف تتهيأ؟ إذن ماذا كانت تصنع لحدّ الآن؟

فتمايلت سنية ثم ضحكت وهي تقول: كانت تصلي.

قالت السيدة سعاد: كانت تصلي؟ إذن فلم تكن تستعد طيلة هذه المدة؟ يا لشذوذ هذه البنت المسكينة، ثم أردفت السيدة سعاد قائلة: اذهبي إليها مرة ثانية يا سنية وقولي لها: إنّ أمك لن تنتظر أكثر من عشر دقائق أخرى.

فذهبت سنية ثم عادت لتقول: إنها آتية يا مولاتي فأثارت هذه الكلمة السيدة سعاد ونهضت واقفة وهي تقول: ماذا تقولين؟ وكيف تمكنت من الاستعداد خلال هذه الفترة القصيرة، لاشك أنها سوف تجلب عليَّ العار في هذه الحفلة، أسفي عليها وعلى جمالها الرائع وهي تمحو معالمه بإهمالها وشذوذها.

وللمرة الرابعة اتجهت السيدة سعاد نحو المرآة وكأنها تريد أن تعوّض بأناقتها عن أناقة ابنتها وما أن عادت من أمام المرآة حتى رأت ابنتها داخلة وقد انطبعت على قسماتها بسمة ملائكية زادتها جمالاً وبهاءً وهي تقول:

ها أنا ذي على استعداد يا أماه، ولكن السيدة سعاد تسمرت في مكانها وهي تتأمل ابنتها بعين ناقدة ثم انفجرت تقول بتهكم:

طبعاً طبعاً أنك على استعداد وأي استعداد هذا أو سوف تذهبين إلى الاحتفال بهذا الثوب الطويل المغلق؟ ومع هذا الشعر البسيط المهمل؟ وبهذه الأكمام الطويلة؟ ثم أين المكياج؟ وهل هناك فتاة لا تعرف أن ترسم عينيها وشفتيها غيرك يا مسكينة؟ لقد أخرتيني طيلة هذه المدة وقد كنت آمل أن تكوني مشغولة بإعداد نفسك للحفلة فإذا بك كنت تصلِّين، ثم تقولين باعتزازها أنا ذي على استعداد.

وكانت دعاء تستمع إلى أمها بهدوء، وبعد أن انتهت الأم من حملتها الثائرة قالت دعاء بصوت مؤدب: أما أني كنت أصلِّي فإنّ الواجب الديني كان يحتّم عليَّ ذلك لأني سوف لن أتمكن من الصلاة خلال الاحتفال وسوف لن تنتهي الاحتفال قبل نهاية وقت الصلاة، وأما ثوبي فهو ليس بالطويل يا أماه أبداً ولكنه ليس ميني جوب وأمّا شعري فهو مصفف بشكل بديع ولكن بدون أن

أجلس ساعات في صالون الحلاقة أستمع إلى أنغام الموسيقى وألوث شعري بمختلف أنواع المواد، وأمّا المكياج؛ فأنا لا أجهل طريقة وضع المكياج يا أماه ولكني لا أشعر بالحاجة إلى ذلك ولا أريد أن أعتمد عليه في إبراز شخصيتي بين المجتمع.

فهزّت الأم رأسها بأسف وتبرّم وتمتمت تقول: دعينا نمضي قبل أن ترتقي المنبر وتمطرينا بسيل من المواعظ والحكم كعادتك دائماً ولكني أحسّ بمرارة الأسف وأنا أرى سنية تفوقك زينة وأناقة.

فقالت دعاء: إذا كانت المقاييس تقاس بهذا الشكل من الأناقة فإنّ لسنية كلّ الحق أن تتقدم عليَّ في هذا المضمار.

قالت السيدة سعاد: الواقع أني لست أدري كيف ستقابلين وجوه المجتمع من سيدات وسادة هناك! وبأيّ صورة باهتة سوف تظهرين وسط أجواق المطربات والمغنيات؟

فردّت دعاء بهدوء: إنّ الاحتفال ليس بمختلط يا أمّاه لو كان مختلطاً لما ذهبت إليه بأي حال من الأحوال، ثم ليس هناك أي جوق غنائي، أو أي مجموعة طرب.

فقهقهت السيدة سعاد وهي تقول مستهزئة: إذن فإنّ الدعوة لأجل إلقاء خطاب ديني في فضل الحجاب؟

فكتمت دعاء غيظها وقالت بهدوء: لا، ليس هناك خطاب ديني ولكنه اجتماع لوداع العروس قبل رحلتها إلى شعر العسل.

ولاحظت الأم أنّ دعاء تتكلم بجد وأنّها مستعدة لإطالة الحديث، فخشيت أن تتأخر عن بداية الاحتفال فقالت تريد أن تنهي الحديث: هيا بنا الآن، وخلال الطريق حدثيني بما لديك من أخبار الاحتفال.

فاتجهت دعاء إلى حيث أتت بمعطف أسود طويل فضفاض وارتدته ثم لف حول رأسها طرحة سميكة سوداء وكانت أمها قد اعتادت أن تراها في هذا الزي ولذلك لم تعترض من جديد واستقلتا السيارة ومعهما سنية تحمل علبة فيها

وسائل مكياج سيدتها لتصلح ما يفسد من مكياجها خلال الطريق، سألت السيدة سعاد ابنتها:

كيف عرفت أنّ الحفلة غير مختلطة يا دعاء؟ وأنّها خالية من الأجواق الغنائية؟

قالت دعاء: كان من المفروض أن تكون الحفلة مختلطة وأن تقام في أحد النوادي العامة وذلك تمشياً مع ذوق السيدة أم العروس، ولكن صديقتي العروس ابتهال وهي فتاة مؤمنة قوية في ايمانها كما تعلمين، أبت أن تكون حفلة زفافها على هذا الشكل من التحدي لأحكام الشريعة وآداب الإسلام، وحصل صراع بين الأم والبنت، ولكن انضمام فكرة العريس إلى فكرة العروس، وإصرار ابتهال على إلغاء الاحتفال بتاتاً، جعل أم العروس تنزل أمام رغبة ابنتها وتجعله احتفالاً خالياً من كل أنواع التفرنج، وكانت السيدة تستمع إلى ابنتها وعلامات الاستغراب بادية على ملامحها ثم قالت:

وهل أنّ العريس مثل العروس يحمل نفس الأفكار الرجعية ؟

فابتسمت دعاء بمرارة لعبارة أمها القاسية وقالت: طبعاً أنه مثلها من ناحية الإيمان والاعتدال، ولو لم يكن كذلك لما رضيت به زوجاً فالفتاة المؤمنة لا تقرن حياتها مع زوج ماجن لا يماشيها بأفكارها وعقيدتها لأنّ اختلاف الأفكار هو أقوى معول في هدم الحياة الزوجية، ثم كيف تعتبرين هذه الأفكار أفكاراً رجعية وهي من صميم ديننا وقد نصّ عليها قرآننا، إن أفكارنا هي الأفكار الصالحة يا أماه، وأن فكرة السفورة والاختلاط هي الفكرة الرجعية التي تعود بالإنسان إلى العهود البدائية حيث لا شريعة سماوية، ولا مبادىء إنسانية، وكأنّ حديث دعاء كان قد أثّر على أمها لأنّها ردّت عليها قائلة ولكن بغير حماس:

إن الحضارة تدعو إلى ذلك يا دعاء.

قالت دعاء: أيّة حضارة هذه يا أماه إنها حضارة مبطنة بالمآسي والأهوال مغلفة بالأغلفة البرّاقة التي تخفي وراءها عوامل الشر، والنزعات الحيوانية، والأغراض الشخصية، نحن لا نؤمن بهذه الحضارة الخادعة يا أماه.

قالت الأم بنغمة لا تخلو من أسف. ولكنه المفهوم العام في زماننا هذا، والمقياس الذي تقاس به الشخصية يا دعاء.

فردّت دعاء بحماس: ولهذا فنحن نسعى إلى إبطال هذا المفهوم، ونحاول أن نثبت للمجتمع أن في إمكان الفتاة أن تبرز لسبب من كمالها الشخصي وليس على حساب وسائل المكياج ومستحدثات الموضة، فهي حينما تبرز بكمالها المستقل تشعر بلذة الكمال ونشوة الانتصار، خلاف ما لو برزت على حساب تخطيطات مصممي الأزياء وواضعي خطوط المكياج فهي حين ذاك تكون وسيلة للعرض لا أكثر ولا أقلّ.

وعند هذا وصلت السيارة إلى باب الاحتفال فما كان من الأم إلاّ وربتت على ظهر ابنتها قائلة بارك الله فيك يا دعاء، ليتني أتمكن أن أكتسب منك هذا اليقين، وهذه الروح المطمئنة الواثقة.

مذكرات

١/ ٢/ ١٩٦٠

لقد عشت بالأمس ساعات عصيبة تقاذفتني فيها عوامل القلق ودانت عليَّ خلالها سحب اليأس، إنها كلمات لمياء، حينما ألّبت عليَّ بنات الصف وهي تقول: ما أرى حجاب هدى إلاَّ ضرباً من أفكار المراهقة الطائشة إنها تحاول بذلك أن تجلب إليها الأنظار؟ كانت هذه هي كلمات لمياء التي أسلمتني إلى حالة نفسية مريرة شككت خلالها إلى فترة في حقيقة مشاعري الذي جعلني أعيش تلك الساعات القاسية.

بالله ما أقسى أن يشك الإنسان في يقينه أو يتردد في واقعه، نعم إنه لشعور مؤلم، ومؤلم جداً عفا الله عن لمياء ما أقساها وهي تكيل الاتهامات للبنات المؤمنات، لقد جعلتني كلماتها أعود إلى الدار وكل ذرّة في كياني تنطق بالحيرة، والقلق، والألم، ثم راجعت نفسي بعد أن تمكنت من تهدئة عواطفي

الثائرة، راجعت نفسي لأرى مدى ما تعنيه بالنسبة لي كلمات لمياء، وناقشت الموضوع من شتى نواحيه، فرأيت أولاً، أنّ دور المراهقة ليس دور الشذوذ في الأفكار كما تدّعي لمياء، وإنما هو دور النمو نحو الكمال الجسمي والعقلي وأن الفكر يتفتح خلال هذه الفترة كما لا يتفتح في فترة سواها.

وذلك بعد أن يكون قد تخلص من شوائب الطفولة ولم يتعب بعد من جرّاء تضارب أفكار الحياة، إذن فإنّ فكرتي في خصوص الحجاب لا يمكن لها أن تكون فكرة ناجمة عن شذوذ فكري، ثم رأيت ثانياً، إن لفت الأنظار لا يتأتى بسبب من هذه الأبراد التي أتلفع بها بل العكس تماماً، فقد سبق أن مارست أساليب لفت أنظار، وذلك قبل أن يهديني الله للإيمان، ورأيت كيف كانت أنظار الرجال تلاحقني بندائها الصارخ أينما اتجهت، إني كنت ألمح في وجوههم جوعتهم الشرهة وتلذذهم بالعرض الجاهز السخي، ولكن الآن ما الذي عساه يلفت إليه أنظارهم من هذا الحجاب؟ ثم حتى لو لفت نظرهم فإنه سيعود إليهم خائباً وهو حسير، سوف تكون كل قطعة من هذه الأبراد رادعاً لهم عن انتهاك محراب الطهر وتدنيس الكيان المقدس، ثم فكّرت ثالثاً أن لمياء لم تكن تعني ما تقول، ولكنها كانت تحاول بذلك أن تثبت قدمها في الطريق الوعر الذي سارت عليه.

وبعد كل هذا لم أعد أشعر بوقع كلمات لمياء، ولم يعد لدي أثر منها عدى الأسف على شبابها أن يصبح في مهبّ الريح، ودعوت الله أن يساعدني على التمكن من هداية لمياء، وجرّها إلى طريق الصواب، ونمت وأنا أفكر في أحسن طريقة أمد بها يد العون إلى لمياء، وقد أصبحت اليوم وأنا أشعر براحة نفسية عميقة فقد صممت أن أجاهد من أجل لمياء، حتى أهديها سواء السبيل إن شاء الله.

٥/٢/-١٩٦

لقد كنت بالأمس على موعد مع صديقتي ولاء، وكان من المفروض أن تزورني عصراً لأجل أن نستذكر دروسنا ونستعد للإمتحان، ولكنها لم تحضر، وأنا جد قلقة من أجلها انتظرتها حتى يئست من قدومها، حاولت أن أتصل بها

تليفونياً فلم أتمكن، قضيت الليل كله قلقة من أجلها، ولكنها اتصلت بي قبل ساعة وقالت إنها كانت محمومة ولذلك لم تتمكن من الحضور، فدعوت الله أن يشفيها ويمنّ عليها بأبراد العافية.

أنا أحب ولاء جداً وإن كانت معرفتي بها لا تتعدى السنة، ولكنها فتاة مؤمنة، متدينة، فاهمة، إنها تشاركني أفكاري، وتعيش معي آمالي وأحلامي، لقد جمعتني وإيّاها الصدفة في بداية العام الدراسي، فجذبني نحوها إيمانها، وجذبها نحوي إيماني، فتعارفنا وكأنا لم نتجانب من قبل، وما أصدق قول الشاعر حينما يقول:

قد يجمع الرأي أشخاصاً وإن بعدوا وقـد يـفـرّق خـلـف الـرأي إخـوانـاً

٦/ ٢/ -١٩٦

اليوم هو اليوم الذي نعقد فيه اجتماعاتنا الدينية من كل أسبوع، نقرأ القرآن الكريم، ونفسّر آياته، ونتمرن على تهيئة المواضيع الإسلامية، وإلقاء المحاضرات الدينية، ولا أدري هل سوف تحضر ولاء؟ أم أن حماها سوف تعيقها عن ذلك؟

٧/ ٢/ - ١٩٦

لقد كان اجتماعنا ناجحاً، وقد كانت ولاء هي أولى الوافدات، مع أنها كانت محمومة، وتشكو من بعض الآلام، ولكنَّ قوة الإيمان، هي التي دفعت بها إلى الحضور.

وإذا حـلـت الـهـدايـة قـلـبـاً نـشـطـت لـلـعـبـادة الأعـضـاء

لله درّ ولاء، لقد تحدثت فأبدعت واندفعت في البيان فأجادت، وكأنها انصرفت عمّا يعاني، وحلقت بروحها وفكرها نحو هدفها الأعلى، الدعوة الدينية.

١٣/ ٢/ -١٩٦

لقد تحدثت في اجتماع الأمس حول موضوع لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وبعد الانتهاء من الحديث قالت إحدى الأخوات المؤمنات أن أمها

تحاول أن تفرض عليها خلع الحجاب في بعض الحالات وتوهمها أنها ما دامت مؤمنة يجب عليها إطاعة أمها لأنّ ذلك مفروض عليها من قبل الله، والحقيقة أنني قد تألمت لحال الأم الضالة، وحال البنت المسكينة، التي تحاول أمها أن تجعلها ضحية تحت شعار إطاعة الأم؟ ثم أكدت عليها من جديد أن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق حتى ولو كان المخلوق أمّاً أو أباً.

٢٥/ ٢/ -١٩٦.

منذ فترة وأنا أحاول أن أتقرّب إلى لمياء لغرض التمكن من هدايتها، وما أكثر ما عانيت من هذه، وما أكثر ما تلقيت من كلماتها الجارحة، ولكنني ولأجل غايتي المنشودة كنت أتجرّع كل ذلك بصبر وأناة، كنت أحدثها بهدوء وهي تجيب بثورة، وأنظر إليها بابتسام، وهي تواجهني بالتقطيب، ولكنني أخذت أشعر بأنّ ابتسامتي بدأت تسري إليها، وأنّ هدوئي أخذ يشملها وهي تحدثني فتفاءلت بذلك وجعلته بادرة خير، الشيء الذي شجعني على أن أهدي لها مجموعة من الكتب الإسلامية التي تبحث عن الحجاب وأسبابه وفوائده، وعن السفور ومباعثه، ومفاسدة، وكان منها كتاب الحجاب لأبي الأعلى المودودي والعفاف لمحمد أمين زين الدين. ونظرية العلاقة الجنسية لمحمد مهدي الآصفي، ومعركة التقاليد لمحمد قطب، وأمس عند خروجها من المدرسة طلبت مني أن أزورها في بيتها لأنّ لديها ما تقوله لي، ومع أنّ هذا الأمر يبدو غريباً لأنّ صاحب الحاجة هو الذي يجب أن يزور الطرف الآخر ولكني سائرة وراء غاية سامية، وهدف معين، ولذلك سوف أذهب إليها وأنا راضية فرحانة.

٢٦/ ٢/ -١٩٦

لقد ذهبت أمس لزيارة لمياء، فاستقبلتني بحرارة جعلتني لا أندم على قيامي بهذه الزيارة، وبعد أن استقرّ بنا الجلوس بدأت تتحدث: تحدثت عمّا سمعته مني، وتحدثت عمّا قرأته في الكتب التي قدمتها لها، ثم تساءلت أخيراً هل حقّاً أنّ في إمكانها أن تتعلّم لو أرادت أن تتحجب أم أنّ الحجاب سوف يكون

حائلاً دون ذلك؟ فأوضحت لها أنّ الإسلام الذي فرض الحجاب على المرأة قد دعاها في الوقت نفسه إلى طلب العلم، بل إن نبي الإسلام جعله فريضة واجبة على كل مسلم ومسلمة، وأنّ لها أن تتعلم ولكن مع حفاظها على حجابها ومع تجنبها من الاختلاط مع الرجال بالشكل الذي يؤثّر على محو الهالة القدسية التي تحيط بها.

٢٩/ ٢/ ١٩٦

بالله كم أنا سعيدة اليوم، فها أنا راجعة لتوي من المدرسة بعد أن شاهدت لمياء تلجها وهي محجبة، وتخرج منها وهي محجبة، الحمد لله الذي فتح صدرها للإيمان، اللهمّ لطفك بالبنات المسكينات، اللهم هيىء لهنّ سبل الهداية فإنهن مخدوعات، ضللتهن أفكار الحضارة الخادعة تحت شعارات العلم والتقدم.

فكأنما التعليم ليس بممكن إلاّ إذا برزت بغير غطاء

١٢/ ٣/ -١٩٦

لقد قالت مدرّسة التاريخ أمس لو نزل القرآن في هذا العصر لما أوجب الحجاب على المرأة لأنّ دور المرأة في هذا الزمان والنظرة إليها لا تمكن من الاستغناء عن المرأة ولا تستسيغ عزلها عن الحياة، كان هذا ما قالته مدرّسة التاريخ الست نهاد، فما كان مني إلاّ أن أطلب منها السماح لي بالمناقشة، ثم قلت لها: إنني أناقش ما قلتيه من زاويتين: أولاً: إن وجود المرأة في مختلف الحضارات زمان نزول القرآن أو قبله لم يكن أقل من وجودها الآن فقد كان سبق لها أن مارست شتّى أنواع الظهور حتى الحكم، فالتاريخ يحدثنا عن ملكات أمثال زنوبية، وكليوباترة، وكانت الحضارة اليونانية تركع وتسجد أمام معاني الجمال الموجودة في المرأة، ولا يزال ما نحتوه لها يعدّ من أثمن التحف الفنية، وكذلك الحال في الحضارة الرومانية والفارسية فهم جميعاً وإن كانوا قد وأدوا حق المرأة كإنسانة وشككوا في أن هل لها روح أم لا، وهم وإن منعوها عن أداء الطقوس الدينية على حساب كونها مخلوق نجس، ولكنهم كانوا يستغلون جمالها وأنوثتها بشكل واسع حتى أمروها وملكوها كما هو

الحال في كليوباترة ولكن، لما أساءت التصرف قدم لها أحد الرجال ثعباناً ساماً ورجح لها أن تموت مسمومة على أن تقع أسيرة بيد العدو فتجلب لهم العار، وهذا يدلّ على تجاهلهم لإنسانيتها وكيانها المستقلّ وإلاّ فبأي حق يفرض عليها الانتحار؟ وعلى كل حال فإنّ هذه الصور من تاريخ المرأة في مختلف الحضارات قبل الإسلام تدلنا على أن دور المرأة في تلك العصور لم يكن أقل أو أضيق من دورها في هذا العصر، إذن فالتشريع الذي شملها حين ذاك يستمر في شموله حتى الآن. أما الزاوية الثانية التي أود أن أناقش فيها فهي أنّ الإسلام لم يعزل المرأة ولم يستغن عنها لأجل فرض الحجاب أبداً بل أنّ الإسلام هو أول من جعل من المرأة شريكة مع الرجل في بنيان الأمة كما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤] وكما قال نبي الإسلام: «النساء شقائق الرجال» والإسلام لم يفرض الحجاب لغرض عزل المرأة عن الحياة، لما تدلّ عليه نفس آية الحجاب المباركة إذ يوجه الأمر فيها أولاً إلى الرجال كي يغضّوا من أبصارهم، ولو كان الحجاب عزلاً للمرأة عن الحياة لما وجد ما يبرر تشريع غض الرجال لأبصارهم ثم إن التاريخ يحدثنا عن دور المرأة المسلمة في حياة الأمة وكيف أنها كانت تشهد الغزوات مع الرسول ﷺ تداوي الجرحى وتسقي العطشى، حتى أنها كانت تحمل السلاح في بعض الحالات بمرأى ومسمع من الرسول ﷺ وكان رسول الله ﷺ يسهم للنساء من الغنائم كما يسهم للرجال.

ثم إن التاريخ يحدثنا أيضاً عن سيدات مسلمات باشرن بمهمة الدعوة إلى الدين، وعقدن الندوات للتوعية الدينية، وروين الأحاديث عن الرسول، وفسرن آيات القرآن الكريم، كل هذا يؤكد لنا أنّ الإسلام لم يعزل المرأة عن الحياة، ولم يوجّه أفكار المسلمين إلى احتقار المرأة ونبذها، حتى أنّ أفكار المسلمين في سنة مقتل الصالح كانت تتقبل أن تتولى الحكم إمرأة عندما ارتقت شجرة الدرّ إلى العرش، ويؤكد لنا أيضاً أنّ فرض الحجاب على المرأة ليس سوى استجابة لما تفرضه طبيعتها وتدعو إليه طبيعة الرجل، فالرجل بطبعه

وتكوينه تواق للمرأة، والمرأة بطبعها وتكوينها خلقت لاستمالة الرجل، إذن فظهور المرأة أمام الرجل من حقه أن يثير في الجنسين الغرائز المكبوتة، وهذه الغرائز إما أن تشبع حاجتها فتكون الفوضى الجنسية التي تشمل البيت والأسرة والأفراد وتحطم الرجل والمرأة سواء بسواء كما حدث في البلدان الغربية وكما تدلّ عليه الإحصاءات الآتية:

أ - إن ٦/١ من الفتيات الأميركيات يتزوجن وهن حاملات من علاقة سابقة.

ب -تقلّ نسبة الزواج في أميركا بصورة واضحة وبعكس ذلك تزداد نسبة الطلاق حتى شملت ما يقارب من ٢٥٪ من مجموع الزيجات.

ج - هبوط نسبة الزواج في عرض عشر سنوات إلى النصف.

هذا إذا انطلقت هذه الغرائز على سجيتها أما إذا كبتت فإنها سوف تترك وراءها مختلف أنواع العقد وأمراض الكبت من الناحية الفكرية والعاطفية.

هذا هو السبب الرئيسي في فرض الحجاب وليس كما يتوهّم البعض من أنه ختم ملكية المرأة للرجل أو عزل للمرأة عن المجتمع.

٢٥/ ٣/ -١٩٦

لقد أصبحت أشعر أنّ مدرّسة التاريخ الست نهاد أصبحت تنظر إليّ باحترام بعد أن عرفت أنني إنسانة صاحبة عقيدة، ومبدأ، وأن تمسكي بالإسلام وآدابه ليس مجرّد عادات وتقاليد بل أنه نابع عن رغبة وتصميم وإيمان، لك الحمد يا ربي إذ وفقتني للتمكن من مناقشتها عندما نالت من التشريع الإسلامي، لو كنت قد سكت في ذلك اليوم، لو كنت قد جبنت عن مواجهتها بالحق لعدتني فتاة رجعية، واقعة تحت تأثير العادات، والتقاليد حتى ولو كنت قد ناقشتها ببذاءة، لو كنت قد رددت عليها بكلمات نابية، بأسلوب جارح، أنها ما كانت لتعترف لي بما تعترفه الآن، لعدتني طالبة غير مهذبة، ولأوعزت ذلك إلى خطأ الفكرة التي أؤمن بها والتوجيهات الإسلامية التي أسير عليها، ولكنني ناقستها بهدوء، وبأدب وبأسلوب منطقي، وها أنا أرى نتيجة ذلك، لقد قالت أمس للطالبات ليتكن تتمثلن بهدى، فإنها فتاة ممتازة، لك الحمد يا ربي، يا من قلت في

محكم كتابك الكريم ﴿إن الله لا يضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ ٢/ ٤/ -١٩٦ بالأمس كنت في مكتبة المدرسة أطالع كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي وانتبهت من استغراقتي الطويلة في المطالعة على صوت الست نهاد وهي تقول ما الذي تطالعينه يا هدى؟ فنهضت واقفة بأدب وقدمت لها الكتاب فجلست على أحد الكراسي تقلّب صفحاته واحتراماً لها، ولأجل أن أتركها تقرأ بدون تحفّظ، غادرت المكتبة ولكنني لاحظتها حين انتهاء الدوام وهي تحشر الكتاب بين كتبها فعرفت أنها تريد أنة تطالعه بإتقان، انها خطوة هامة، انها فاتحة خير.

١٦/ ٤/ -١٩٦

منذ مدة وأنا أشعر أن صديقتي المؤمنة صفية تعيش في صراع نفسي مرير، وقد أثّر ذلك على نشاطها في العمل، واندفاعها في الخدمة الدينية، ومع أنّها لم تتخلّف عن جلساتنا واجتماعاتنا ولكنني أحسّ أنّ لديها ما يعذّبها وهذا ما يحزّ في نفسي ويجعلني أتألم من أجلها، ليتني أعرف السبب في آلامها. أنا أجهل عن وضعها الداخلي أي شيء لا أدري لعلّها في ضائقة مالية؟ لعلّها تخشى أن يتكشف من حالها ما لا تريد؟ ولكنها غلطانة، فنحن لا نعير زخارف الحياة اهتمامنا ولا ننخدع ببهرجها وزبرجها، يكفينا ويكفيها أيضاً أنها قد أثبتت شخصيتها في وسطنا وبرزت بين لداتها بعقيدتها وسعة اطلاعها، وعمق مفاهيمها الإسلامية نحن نثمن الجوهر ولا يهمنا العرض، فليست وسائل الحياة المادية سوى أشياء عرضية زائلة أمّا الجوهر الواقعي الذي لا يمحى ولا يزول فهو الفكر الصالح والاتجاه الخير. . ولكن صفية، يبدو أنها غير مطمئنة إلى بلوغنا إلى هذا المستوى من الواقعية في التفكير، هذا إذا كانت الأزمة التي تعانيها هي أزمة مادية، سوف أحاول أن أتعرّف على أسباب المشكلة التي تعيشها لعلّي أتمكن أن أمدّ إليها يد المساعدة.

٢٤/ ٤/ -١٩٦

لقد اكتشفت السبب الواقعي للأزمة التي تعيشها صفية، انها حالتهم الاقتصادية، وبيتهم المتواضع وخشيتها من أن يؤثّر ذلك على مكانتها بين

الصديقات، ولهذا فهي تعيش في دوامة من الآلام والانفعالات، ولكنني تمكنت من جرّها إلى عالم الحقيقة التي نعيشها قلت لها: إنّ محمد بن عبد الله أعظم رجل عرفه التاريخ، حمل إلى البشرية أقدس رسالة سماوية وهو فقير، في الوقت الذي كان يتمكن فيه، لو أراد، أن يعيش حياة الترف التي كان يعيشها كسرى وهرقل، وأنّ فاطمة الزهراء عليها السلام بنت الرسول كان بيتها متواضعاً يشمخ في تواضعها على إيوان كسرى وكان أثاثها بسيطاً يتعالى في بساطته فوق رياش فارس، وزخارف الروم، وكذلك الحال لدى صحابة الرسول الأبرار، فالتاريخ يحدّثنا عن حريق هائل شبّ في المدائن خلال ولاية الصحابي الشهير سلمان الفارسي لها، فكان أن هرع الناس إلى رياشهم وأموالهم يستنقذونها بجهد جهيد أما سليمان والي المدائن وحاكمها ووارث عرش كسرى في الأمارة، فقد حمل على ظهره كل ما يعود إليه ولم يكن ذلك يتعدى صرة صغيرة من الملابس، وقرآن ومصلاة، وإبريق ماء، وخرج من منطقة الحريق قائلاً: هكذا ينجو المخفون.

٢٦/ ٤/ -١٩٦

بالأمس التقيت بصديقة حميمة لي كانت تجمعني وإياها صلة وثيقة ولهذا فقد كنت قد عرفتها عن قرب، وعن قرب جداً فرأيتها مثال الفتاة الطيبة الطاهرة لم تكن تظن بأحد السوء، ولم تكن تضمر سوءاً تجاه أحد، وأكاد أتمكن أن أقول: إنها لم تكن تعرف الحقد والبغضاء بمعناها الصحيح، كانت تثق بكل رفيقاتها ثقتها بنفسها تماماً، وفية مخلصة، تبذل يد المعونة لكل محتاجة من أخواتها المسلمات، كانت تعطي من نفسها أكثر مما تأخذ بكثير، فهي تحسن حباً بالإحسان وإشباعاً لرغبتها في مساعدة الغير وثقة منها أنها بهذا ستكون الرابحة في الدارين، وعلى كل حال فقد كانت فتاة مثالية، ثم حدث أن ابتعدت عنها فترة لم أتمكن أبانها من مطالعتها ومراجعتها، ثم لقيتها أمس فهزتني فرحة اللقاء، ولكن صدمني الإطار القاتم الذي شمل الموقف، فقد طالعني منها منظارها الأسود الذي أصبحت لا ترى الدنيا إلاّ من ورائه، ثم عرفت أنها قد اكتشفت في مجتمعها نواح كانت تجهلها منه، واطّلعت على مفاهيم معكوسة

لم تكن تخطر لها على بال، فرأت كيف تقلب المثل فتقابل بالنقيض، فهي لم تشعر في يوم من الأيام أنّ هناك فيمن حولها من يفرق بين المحسن والمسيء في كل ظرف وحين. . وهكذا، ولهذه النواحي وأشباهها أخذت تتبرم بالحياة، وتسعى إلى العزلة والانفراد، وقد تبدل لهذا سلوكها وتغيرت طباعها وفقدت راحتها النفسية على هذا الوضع رأيت بالأمس صديقتي بعد طول افتراق فعرفت أنّ هذه المسكينة ليست سوى ضحية من ضحايا المجتمع، فما كان مني إلاّ أن سألتها قائلة وهل ندمت يا عزيزتي على ما قدمت يداك من إحسان وما وهبه قلبك من حب؟ وهنا شعرت أن صراعاً عنيفاً قام بين عقلها وعاطفتها وكنت آمل أن يتغلّب العقل فترد عليَّ - لا - ولكنها لم تتمكن من مقاومة أي من الدافعين فسكتت ولم ترد، فأجبت أنا بدلاً عنها فقلت لها برفق: قولي لا يا عزيزتي فإنّ عمل الخير في نفسه شيء جميل، وصفاء النفس بذاته شعور مريح، فلا تأسفي على شيء منهما ويكفيك سعادة أنك تطالعين صفحات ماضيك فترينها بيضاء ناصعة من كل شوب، فقولي أني لست نادمة يحفظ الله لك أجر ما فعلت. لا تندمي يا صاحبتي ولا تيأسي فما زالت الدنيا في خير ولا يزال هناك من يحفظ الجميل، ويقدّر الفضل، ولهذا فإني أرجوك بل وألحّ عليك أن لا تدفعك الخيبة من المجتمع إلى الحقد عليه، ولا يجرّنك الفشل في عمل الخير إلى الزهد فيه بل استمري على السير في طريقك الواضح، وحاولي أن ترفعي عن عينيك هذه الغشاوة القاتمة لتعودي كعهدي بك فتاة طيبة، حلّقي في سماء الكمال، ولا تهبطي إلى حضيض النقص، فإنّ أهم ما ينقص من المرأة ويحطّ من مكانتها هو الحقد، والظن السوء، لا تحقدي أو تظني بأحد السوء، احملي أختك على سبعين محمل خير وسوف ترين راحتك النفسية وقد عادت إليك كأروع ما تكون.

وهكذا بدأت أحدثها بما يعود بها إلى واقعها الذي تنكرت له، ولم أفارقها إلاّ وأنا على ثقة من أنها سوف تكون في مستقبلها كماضيها.

١/ ٥/ -١٩٦

سألتني اليوم واحدة من الأخوات المؤمنات عن معنى ما جاء في دعاء كميل

بن زياد ﷺ «يا رب، أسألك بحقك وقدسك وأعظم صفاتك وأسمائك أن تجعل أوقاتي في الليل والنهار بذكرك معمورة وبخدمتك موصولة» قالت ليس فينا من تتمكن أن تقتصر في حياتها على ذكر الله والتسبيح والتهليل فنحن إذ نعيش وبحكم لزوم التعاون مع الآخرين مهما أمكن، لا بدّ لنا أن نباشر شتّى أعمال الحياة ولا يمكننا التنصل والتزام التكبير والتهليل فقط، فقلت لها على مهلك يا أخية فنحن لسنا بمكلفين أن نقضي الليل والنهار بالتسبيح والتكبير مثل قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فهذا وإن كان من الذكر المأثور ومن الباقيات الصالحات لكن ليس هو الذكر كله، فكم يوجد من يذكر الله بلسانه وينساه في قلبه وأفعاله، ولكننا نستطيع بسهولة أن نجعل أوقاتنا في الليل والنهار بذكر الله معمورة وبخدمته موصولة دون أن نعطل شيئاً من أعمالنا للحياة، فبالإضافة إلى العبادات اليومية المفروضة، ومقدماتها وآدابها، فأنت مثلاً إذا كنت زوجة صالحة وربة بيت خيرة تكونين بذلك دائماً وأبداً ذاكرة لله مطيعة لأوامره، فقد جاء في الأخبار أنّ امرأة سألت الرسول ﷺ عمّا عندنا نحن النساء من قبال الجهاد وثوابه عند الرجال فقال صلوات الله عليه: «الزوجة الصالحة وإدارة البيت الناصحة الطاهرة»، ثم إنّ المرأة وكيفما تكون سيدة أو آنسة تتمكن أن تصبح دائماً وأبداً ذاكرة لله تعالى، خادمة لأوامره، متبعة لتعاليمه، فكل يد معونة تسديها المرأة ولو لأقربائها الأقربين إذا كانت خالصة لله تكون ذكراً لله تعالى، وكل لفتة طيبة تبديها تجاه الغير بدون أية غاية دنيوية تكون ذكراً لله سبحانه، وكل سحابة ضيق تتحملها بصبر، وكل فكرة صالحة تفكر فيها لأجل الخير، دون أي شيء آخر، وأي نعمة تحدثت بها لا مباهية ولا متعالية، وحتى البسمة والضحكة إذا خالصة بها خاصلة من كل شائبة رياء أو ملق، كل هذه تكون ذكراً لله سبحانه، ولكن يتفق لنا أن تحين لنا فرصة نتمكن فيها من إفشاء سرّ أو الجهر بسوء يكون لنا من ورائه نفع، أو لنا به مصلحة شخصية ثم لا نأتي بشيء من ذلك بوازع ديني لا غير، فنكون ذاكرين لله تعالى مطيعين لأوامره، ولذلك فمن الجدير بنا أن نبتهل إلى الله تبارك وتعالى أن يجعل أوقاتنا في الليل والنهار بذكره معمورة وبخدمته موصولة.

٥/ ٥/ -١٩٦٦إن الامتحان النهائي يقترب ولا بد لي أن أتفرّغ للتحضير لأتمكن من اجتياز هذه المرحلة بتفوق ولكي أثبت أنّ العمل الإسلامي لم يقعد بي عن الدراسة ولم يشلّ تفكيري عن المطالعة بل فتح ذهني أكثر وركّز تفكيري بصورة أعمق. ولهذا سوف أترك كتابة المذكرات إلى حين بداية العطلة إن شاء الله.

قلب يتعذب

أتراني سوف أقوى على الثبات؟... أتراني سوف أتمكن من التمسك بهذه الخيوط التي تشدني إلى الأمل؟.. أتراني أستطيع أن أبقي قدمي راسختين مع كل ما يدميهما من شوك؟.. أتراني أتمكن أن أشدّ بصري نحو مطلع النور مع كثير ما يحول بيني وبينه من ضباب؟ يا لله، أي ضباب هو هذا الذي تكاثف ويتكاثف لكي يحجب عني بريق الضياء؟... نعم، أي ضباب هذا الذي يأبى إلاّ أن أفتحها واسعة رحيبة لكي أنفذ منها ما أريد؟... ولكنني طالما نفذت من خلاله وأن أعرف أنه ضباب!... ولكنه الآن عاد أكثر ظلمة وأعمق كثافة.. إنه تمكن أن يستغلني فيرسل بعض خيوطه إلى فكري لتعشعش فيه... ولهذا فأنا أتساءل كما لم أتساءل من قبل... أتراني سوف أقوى على الثبات؟.. أية قوة هذه التي ستشدّ من عزيمتي التي أكاد أفتقدها.. وأي حارس هذا الذي سوف يحرس فكري عن انفتاحه على خيوط الضباب الكثيف التي سرَّبتها إليه قساوة الحياة.. نعم قساوة الحياة... فما أقسى أن يتابع الإنسان الذبالة الأخيرة من مصباح أمانيه وهي تنطفىء عطشاً للزيت وهو يعلم أن لا زيت هناك، ولكن عليه أن يتابع ذبذبتها بعطف وحنان؟!... ما أقسى الشعور بالنهاية والأقسى منه إذا كانت النهاية بطيئة؟.. ما أقسى أن يكافح الإنسان أمواج الحياة وهو يعلم أنّ لا ساحل هناك!.. إنه الكفاح اليائس العقيم.. ما أقسى أن تكون خيوط الغد غير واضحة، والأقسى من ذلك أن

توجد الخطوط ولكنها متشابكة الأطراف غير واضحة الأبعاد لما يكتنفها من ضباب؟!... يا لله الضباب مرة ثانية؟!.. إنه لا يريد أن ينفك عني ويأبى أن يتركني بأي شكل من الأشكال... لعن الله هذا الضباب الظالم المظلم... إنه يشيع فيّ القلق ليل نهار، والقلق ما هو إلاّ أداة لدك الإرادة مهما كانت قوية... ولكن أية إراده هذه التي سوف يبقى عليها الضباب؟... أتراني سوف أعود فأزهو بإرادتي من جديد؟...

١٩٧٠/٨/٢٥

فكر في مهب الريح

ها أنا ذي أعود إليك يا مذكراتي لأبثك ما أجد بعد أن لم أعد أقوى على الكتمان... إنّ آنية الماء التي توضع على النار لابدّ لها من تنفس وإلاّ لانفجرت تحت وطأة الغليان.. وهكذا هي آلامي يا وريقاتي، فهي تكاد تنفجر في أعماقي كبركان من نار يحيل أعصابي إلى هشيم.. ولكنك أنت الوحيدة التي أتمكن أن أبثها ما أجد لأخفف الضغط عن هذا الكيان الذي أخذ يتداعى تحت ضربات الأحداث... صحيح أنني لا أستطيع أن أكتب.. فقد يوجد ما يكتب ولا يقال، وقد يوجد ما يقال ولا يكتب.. نعم أنا أريد أن أحدثك عن ليلي وآلامه ونجومه التي تتضاحك عليَّ لسهري، وترنو إليَّ بفضول لتتعرّف على الشيء الذي باعد بين أجفاني، وولد النفرة بين عيني والنوم وبين جسمي والفراش، أنا أريد أن أحدثك عن نور القمر الذي أضحى يعذّبني بإشراقته التي طالما لا تغتني بها من قبل، وطالما أشرقت لها جنبات روحي تتجاوب معها في حنان.. أريد أن أحدثك عن الأطياف التي تتراءى لي وكأنها نذر الشقاء تتلاعب بأفكاري وعواطفي كما يتلاعب الذئب بفريسته وهو يحاول تمزيقها بأنيابه.. نعم يا وريقاتي، إنها أطياف كانت تتراءى لي منذ زمان، رفيقة بي تارة وعنيفة أخرى.. ولكنها منذ هذا الأمد الذي لا أقوى على تشخيصه لما

يتلفعه من ضباب إنها منذ هذا الأمد لم تعد تفارقني ولم تعد ترفق بي أبداً فهي عنيفة ومفرطة في العنف. . الشيء الذي جعلني أنقاد إليها ملقية سلاح المقاومة الذي طالما استنقذني منها فيما مضى. . فإلى أين ستقودني هذه الأطياف يا ترى؟. . وهل هناك من يستنقذني منها أو يساعدني في التغلب عليها، الحقيقة أنني يائسة، فإلى أين سيقودني هذا اليأس؟. . ليتني أجد من يقودني إلى مطلع النور من جديد. . حتى هذه الكتب التي كانت سلاحي الذي أصدّ به هجمات الضباب فيما مضى لم تعد تؤدّي مهمتها بالشكل المطلوب ولم تعد حروفها تعني عندي أكثر من خطوط سوداء قاتمة، لقد حاولت بالأمس أن أستعير بعض الكتب من المكتبة العامة ولكني عدت فسلمتها بعد استلامها بثلاث ساعات لأنني عجزت عن القراءة. . أنا التي طالما سحرتني الكتب بأفكارها. . فإلى أين سوف ينتهي بي الحال؟. .

١٩٧٠/٨/٣٠

حشرجة روح

هل ترى حرم عليَّ النوم الهانيء؟ أو هل سوف تعود إلى مقلتي تلك الإغفاءة اللذيذة فأتذوق من جديد طعماً للاستغراقة الحالمة التي كانت تلفني كلَّما عسعس الليل، أم تراني سأبقى أستجدي السنة فلا تجيبني، وأستدعي الرقاد فلا يواتيني؟. . وحتى إذا تسلل النوم إلى عيني على غفلة من الضباب وعلى غرة من الأطياف، فهو رقاد فزع متقطع لا يكاد يغلبني حتى يغلبه الضباب وأطيافه القاسية الهوجاء فيوقظني لأواجه من جديد واقع الحياة. . ما أحلى النوم الذي يبعدني عن الواقع المرير، وما أمرّ النوم الذي تلاحقني خلاله ظلال اليقظة القاتمة. . أتراني أتمكن أن أعده نوماً أم هو أحد أشكال العذاب وبعض أنواعه؟!. ولهذا فأنا لا أتمكن أن أقول إنني لا أنام، فأنا أنام، ولكن أي نوم؟. .وأنا لا أريد أن أقول إنني لا أضحك فأنا أضحك ولكنها ضحكة

جريحة وكأنها حشرجة روح، وأنا لا أريد أن أقول إنني لم أعد أحيى كما تحيى الأخريات أنا أحيى، ولكن أية حياة؟.. إنها أشبه ما تكون بالحجر الكاوي الذي تغطيه طبقة من الرماد الهادىء فلا يوحي للناظر بما يخفي من أنوار.. هكذا كنت، ولا أزال أضحك ليضحك سواي وأتظاهر بالسعادة ليسعد من يهمه أمري فيفرح لذلك صديقي ويأسى له عدوي.. ولكن أتراني سوف أتمكن المقاومة. أم أنّ معالم الضباب، هذا الضباب القاتم الذي يحاكي لونه لون عباءتي السوداء أتراه سوف يرسم خطوطه على قسماتي فيبدي ما أحاول إخفاءه ويفضح ما أودّ ستره.. ليتني أتمكن الثبات، فأنا لا أطيق نظرات الرحمة وهي منصبة عليَّ، ولا أريد ضحكات الشماتة وهي تتردد في مسمعي تحمل صداها المشؤوم.. ليت هناك من يحاول أن يستنقذني مما أنا فيه!

١٩٧٠/٩/٨

بقايا كيان

ما أراني إلاّ وقد انتهيت.. فقد اتّسعت سطوة القلق حتى شملت جميع اتجاهاتي في الحياة.. فما أن أمسك القلم حتى يحيله القلق إلى أداة عاطلة لأتعرف كيف تخط الكلمات، وما أكثر ما حاولت أخط به - على جموده وفتوره - ولكنها أيّة خطوط؟..

إنّها كلمات جوفاء تفتقد الحياة والرواء لأنّ هذا الضباب اللعين يأبى إلاّ أن يمتد إليها فيتسرَّب بين حروفها ليحيلها إلى أحرف باهتة لا تعني شيئاً ولا تمكن من شيء وهل يقوى الإنسان أن يعيش دون أن يكتب ودون أن يقول؟.. أية حياة هي هذه؟ إنها الحياة التي تحكي عن الميت الحي.. لا أدري، هل سأعود فأعرف أنني أحيى من جديد، أو هل سأجد اليد الرحيمة التي تمسح على جروحي والصدر الحاني الذي أسند رأسي إليه، لا بالله ما أجد؟؟..

فلا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع
١٩٧٠/١٠/٦

إلى هنا انتهت رباب من مطالعة دفتر المذكرات الذي هو ضيفها منذ ساعة بعد أن ألقته المقادير بين يديها وهو ملقى على جانب الطريق. . فشعرت بشعور الألم لهذا القلب المعذّب ولهذا الكيان الذي يوحي بالإنهيار. . ثم استسلمت إلى استغراقة طويلة استعادت خلالها ما جاء في المذكرات مثل قول الكاتبة «ليت هناك من يحاول أن يستنقذني مما أنا فيه» وقولها «أتراني سوف أعود فأزهو بإرادتي من جديد». . إذن فإنّ بيداء هذه الكاتبة المجهولة قوية بطبيعتها، ثابتة بشخصيتها، وأنها لم تتهاوَ إلاّ تحت وقع سياط قاسية وقاسية جداً. . وهي مع ذلك تتمنى لو تمكنت من الوقوف وتتوق إلى عهدها السابق من الثبات. . ورددت رباب من ألم: ليتني كنت أعرفك يا بيداء لكي أصل إليك يا طعينة الحياة، يا حبذا لو كنت أقوى على انتشالك يا ضحية الضعف البشري الذي لا يتخلص منه الإنسان إلاّ بسلاح الإيمان. . نعم ليتني كنت أعرفك يا بيداء. . . وما كادت رباب تكمل جملتها حتى أحسّت أنّها مخطئة فلا ينبغي لها أن تتنصل من المسؤولية بقول (ليتني)، فإنّ الليت لا مجال لها في قاموس العاملين، فالإرادة عند المخلصين تعمل المستحيل، والتصميم الصادق لدى النفوس الصالحة يحيل ما هو عسير إلى سهل يسير، ولهذا فقد عادت رباب لتقول في تصميم: سوف أجدك يا بيداء وسوف أستنقذك مما أنت فيه إن شاء الله.

نشطت رباب في استقصاء آثار بيداء بعد أن أعادت قراءة المذكرات، واستخلصت منها نقاطاً جعلتها دليلها الذي يقودها إلى ضالتها المنشودة، وكان من تلك النقاط أن الكاتبة المجهولة محجبة أو نصف محجبة، لأنّها مثلت سواد الضباب سواد عباءتها، ومنها أنها استعارت كتاباً من المكتبة العامة وأعادته في نفس اليوم. . . ولهذا فقد انتظرت اليوم الذي خصصته المكتبة العامة لزيارة النساء وذهبت إلى هناك واختارت أحد الكتب لاستعارته، وقدمت لها العجوز المسؤولة عن الاستعارة دفتر التواقيع لتذكر اسمها وعنوانها أمام موعد الاستلام، فأجالت عيناها في الصفحة التي أمامها عسى أن تجد

اسم بيداء فلم تلاحظ وجود أي اسم لامرأة في تلك الصفحة، ولم تشأ أن تقلب صفحات الدفتر لكي لا تثير فضول الموظفة فأخذت الكتاب وانصرفت. وبعد ثلاث ساعات عادت لتسلمه كما صنعت بيداء بالضبط وهي على أمل أن تجد اسم بيداء في دفتر التسليم. . . وتقدمت إلى المسؤولة تمدّ يدها بالكتاب وبثمن الاستعارة الخارجية ليوم واحد. . . فظهر الاستغراب على وجه الموظفة وقدمت لها دفتر التسليم وهي تقول:

عجيب أمركن يا بنات اليوم، فما هو جدوى الاستعارة لبضع ساعات؟

فكان لنون الجمع الذي نطقت به المسؤولة أثره لدى رباب، فتساءلت بلهفة:

وهل هناك غيري من أرجعت الكتاب بعد بضع ساعات؟

فأجابت الموظفة بعدم اكتراث: نعم إنهن كثيرات من بنات هذا الجيل. . .

فرأت رباب أن أحسن طريقة لمعرفة عنوان بيداء هو إثارة هذه العجوز، فأجابت متحدية: لا أظن ذلك، فإنك تظلمين بنات جيلنا يا سيدتي. . . فضحكت الموظفة وقالت بتهكم: لا تظنين ذلك؟ أنا لا أتكلم اعتباطاً، إنها التواريخ تدلّ على ذلك. . . قالت هذا وأشارت إلى الدفتر الخاص الذي أمامها. وصممت رباب أن تسير في خطتها حتى النهاية فهزّت رأسها في تشكيك وقالت: أظنك مبالغة في حكمك، فما أرجعت الكتاب إلاّ لعارض طارىء، ولا تتفق العوارض الطارئة لكلّ واحدة.

فأثار هذا التشكيك الموظفة فقلبت الدفتر بعصبية ثم أشارت تقول: أظنك تعرفين القراءة فانظري!. .

فنظرت رباب في لهفة فطالعها اسم نهلة عبد الكريم، فرفعت نظرتها الخائبة وهي تقول: هذه واحدة وهي لا تكفي للحكم فعادت المسؤولة إلى تقليب الصفحات ثم أشارت من جديد قائلة: وهذه أيضاً لم يدم عندها الكتاب أكثر من ساعات ولم تستمع رباب إلى جملتها الأخيرة لأنها كانت قد وجدت أمامها اسم بيداء محمد صالح. . . شارع. . رقم الدار. . . ت. . . ورفعت رباب عينها وهي تخشى أن تنسى الأسماء والأرقام ولهذا لم تزد على أن تقول:

نعم إنك على حق.. ثم غادرت المكتبة حيث وقفت وسجلت الاسم ورقم الدار.. ونظرت إلى ساعتها فوجدتها تشير إلى الثانية عشر والنصف فتوجهت إلى بيتها تنتظر العصر الذي سوف يجمعها مع بيداء.

سارت رباب في شارع... وهي تقرأ أرقام البيوت وقد حملت معها دفتر المذكرات الذي قادها إلى هناك.. وأخيراً وجدت البيت المقصود فوقفت أمامه مترددة واستحضرت الخطوات التي سوف تتبعها للدخول في حياة بيداء، والأخذ بيدها إلى عالم الإيمان لتهبها السعادة في الحياة.. ثم وضعت يدها على الجرس وهالها أنها وجدت يدها لا تخلو من رعشة تنبىء عن قليل من الارتباك وخاطبت نفسها قائلة:

ما دمت أعمل بدافع الخير، وما دام الدين رائدي في هذا فليس لي أن أتردد... وقرع الجرس وسرعان ما فتحت لها الباب طفلة صغيرة ذات جدائل ذهبية وعيون خضراء ملونة.. وتطلعت إليها الطفلة في حيرة فابتسمت لها رباب وسألتها:

هل أنّ بيداء موجودة في البيت؟

فردّت الطفلة في لهفة: بيداء؟ نعم، إنها هنا ولكن... وسكتت وكأنها في حيرة كيف تكمل جملتها...

فأردفت رباب: ولكن ماذا يا حلوة؟

قالت: ولكنها لا تستقبل أحداً.

قالت رباب: لعلَّها مريضة؟

قالت الطفلة: لا أدري...

وشعرت رباب أنّ الطفلة تدري ولكنها لا تريد أن تقول فقالت لها برفق: اذهبي يا عزيزتي وقولي لها أن في الباب واحدة تحمل إليك شيئاً ثميناً أضعتيه أسرعي يا شاطرة فإنها سوف تشكرك على ذلك...

وكأنّ الطفلة قد ارتاحت إلى نغمة رباب الهادئة اللينة فقالت لها: تفضلي وادخلي حتى أذهب وأخبرها بما تقولين...

فدخلت رباب وأغلقت الباب خلفها فوجدت نفسها في حديقة مهملة لم تمسها يد التشذيب منذ زمن بعيد، فرفعت نظرها نحو البيت فوجدته بيتاً يجمع بين الفخامة والقدم أصباغه باهتة، ونوافذه متداعية، وجدرانه متآكلة، فظنت أنها توصلت إلى بعض خيوط المأساة.. كانت تنتظر عودة الطفلة لتقودها إلى بيداء ولكنها فوجئت برؤية بيداء وهي تتقدم نحوها وقد شاعت على وجهها ابتسامة حزينة مصحوبة بشيء من اللهفة، وهل هناك طابع أقوى من طابع الحزن عندما يلون تعابير الإنسان بألوانه فيحيل إشراقة العين إلى ذبذبة نور باهت، ويصبغ لون الوجه بدهانه الأصفر الشاحب وهكذا كانت بيداء... ومرّت لحظة سكوت طالعت كلّ منهما صاحبتها وكأنها تحاول أن تحدد موقفها منها، أو تحاول أن تتعرّف على ما يتطلبه منها الموقف، وكانت بيداء البادئة في الكلام فقالت بلهجة مهذبة:

أهلاً وسهلاً...

فابتسمت رباب ومدّت يدها نحو بيداء مصافحة وهي تقول:

السلام عليكم...

وحاولت أن تبقي يدها في يد بيداء لمدة أطول وكأنها تريد بذلك أن تركز على معنى تحيتها فتقول: لك مني يا أختاه الأمان والاطمئنان والسلام، وما أنا إلاّ رسولة الرحمة الإلهٰية إليك لأسبغ على قلبك السلام وعلى فكرك الأمان...

وما كان من بيداء إلاّ أن دعتها إلى الدخول وقادتها إلى غرفة الاستقبال وكانت غرفة تفصح عن فخامة متداعية وثراء مندثر، وجلست رباب حيث انتهى بها المجلس وجلست بيداء بالقرب منها وهي تحاول أن تبدو طبيعية، ولكن عينيها كانت تبحث عن شيء تحمله لها رباب..

وأشفقت رباب من أن تطيل انتظارها فأخرجت الدفتر من حقيبتها وقدمته نحوها قائلة: لقد وجدته ملقى على رصيف شارع... قبل ثلاثة أيام...

فمدت بيداء يدها لاستلامه وقد ترقرقت الدموع في عينيها وأخذته وهي

تقول: الحمد لله لقد وجدته أخيراً... يا لدفتري العزيز... وضمته إلى صدرها في حنان وكأنها عادت فانتبهت إلى واجبها نحو من حملت إليها ضالتها الثمينة، فمدّت يدها نحو رباب وهي تقول بنغمة صادقة: أعطني يدك لأصافحك من جديد فأنا لا أدري بأي شكل يمكنني شكرك يا أختاه...

فمدت رباب يدها وقالت: لم أقم إلاّ بما يمليه عليَّ واجبي يا بيداء ولا داعي للشكر والثناء...

قالت بيداء: ولكن كيف تمكنت من الاهتداء إليَّ؟ أرجو أن لا تكون المصاعب قد صادفتك لذلك...

قالت رباب: أبداً فالإرادة تذلل كل ما هو صعب، وتقرّب كل ما هو بعيد، وقد كنت أريد أن أجدك يا بيداء وقد وجدتك أخيراً والحمد لله...

فرددت بيداء كلمة (الإرادة) بألم وكأنها تنعي عزيزاً افتقدته... الإرادة...

نعم ما أحلاها حينما توجد لدى الإنسان، قالت رباب: نعم إنها المنار الذي يرشد إلى مرفأ النجاة، وهي الملاذ الذي يحمي الإنسان من الانهيار..

قالت بيداء: صحيح ما تقولين، ولكنها قد تضعف أحياناً وتتلاشى في بعض الحالات...

قالت رباب: هناك نوعان من الإرادة، إرادة خيِّرة ترتكز على أسس صالحة، وإرادة طائشة تعتمد على رغبات وقتية، أما الإرادة الطائشة فهي تتلاشى مع الرغبة وتضعف أمام أول مقاومة، ولكن الإرادة الخيرة هي التي تمتلك عناصر الثبات التي تخولها الصمود أمام كل شيء فهي حينما تعتمد على أسس ثابتة يقترن وجودها بوجود تلك الأسس...

وسكتت رباب تنتظر ردّ الفعل الذي أحدثته كلماتها لدى بيداء، وأطرقت بيداء برهة ثم رفعت رأسها في تصميم وقالت: ما أراك إلاّ وقد قرأت ما كتبته في مذكراتي، فهل لي أن أعرف عنك بعض ما عرفت عني؟

فابتسمت رباب برفق وقالت: إنّ لك كلّ الحق في هذا يا عزيزتي وما أتيت إلاّ لأعرفك بنفسي ومن ثم أضع بين يديك بجميع إمكانياتها..

أنا رباب فاضل الـ. . أسكن في شارع. . وما قرأت مذكراتك إلاً لأجل التعرّف على كاتبتها ومحاولة إعادتها إليها. . وفعلاً فقد قادتني إليك كما ترين، ولهذا أرجو أن تغفري لي ذلك يا أختاه. .

قالت بيداء: أنا لا أغفر لك فقط بل إنني أشكرك على هذه البادرة، فما أقسى الأيام التي عشتها بعيداً عن هذا الدفتر العزيز، افتقدته وكأني افتقدت بعضاً من وجودي.

قالت رباب: أنا لا أقرّك على هذا التعبير، فمتى كان وجود الإنسان مرتبطاً بخواطر طارئة تحملها صفحات؟

قالت بيداء: ولكنها صفحات تعبّر عن واقع وجودي في الحياة، وتعطي صورة عن الأجواء التي أعيشها.

قالت رباب: ولكنها صورة ليست متكاملة الجوانب، فالحياة مسرح لمختلف عوامل الانطباعات، وهي كالروضة التي تحتضن تربتها شتى أنواع الزهور أو مختلف أشكال النبات زهرة عاطرة وشجرة ناظرة، وعشب متطفل ونبات مجهول وأشواك مدمية.

هذه الروضة هي صورة مصغرة للحياة بتباين ما حوت وارتباط وجود محتوياتها مع بعض، فإنَّ من طبيعة الأرض التي تحتضن الزهرة أو تفسح مجالاً للعشب ومن متطلبات الصعيد الذي يتقبل البذرة ليحيلها إلى شجرة أن يخضع لعوامل تطفل الأشواك عليه. . .

وكانت بيداء تستمع إلى رباب بهدوء ثم قالت: ولكنها قد تبقى تحتضن الشوك وحده فتدمي بدون أريج وتنبت العشب المتطفل فقط فتعيق السير بدون ثمر. .

قالت رباب: إنّ هذا غير ممكن يا أختاه، فإنّ من طبيعة الحياة تعاقب الآلام والآمال، فلا ألم بدون أمل ولا أمل بدون ألم.

قالت بيداء: ولكن قد يفترق أحدهما عن الآخر كما حدث بالنسبة لي.

قالت رباب: إنهما لم يفترقا ولكن فترة التعاقب هذه لعلّها قد استمرّت بشكل أطول. .

قالت بيداء: ولعلَّ زمن هذه الفترة سوف يمتد مع الحياة فيبعث في النفس معاني اليأس القاتلة، وهل هناك أقسى وأقوى من اليأس؟..

قالت رباب: إنّ في مقدرة الإنسان أن يتغلّب على قساوة اليأس بحلاوة الأمل.

فتأوهت بيداء بمرارة ثم قالت: وكيف، وبأي سلاح؟

قالت رباب: بسلاح الإيمان يا بيداء، ففي الإيمان ورجاء الله واليوم الآخر يتسامى الإنسان فوق هذه الحياة الفانية فتمرّ همومها حوله ولا تصدمه بعد أن استهان بجميع آلامها وأهوالها ومتاعبها ومصاعبها.. إذا تمكن الإنسان أن يسود نفسه عن طريق الرجاء لله وحده والإيمان برحمته كان سيد نفسه، ومن كان سيد نفسه كان سيد من حوله يصرفه بحكمه كيف يشاء..

قالت بيداء: ولكن قد يخيب الإنسان بالتحكم في نفسه.

قالت رباب: أنا لا أؤمن بالخيبة فليست الخيبة هي الشرّ كله بل أن الشرّ كله في العقل إذا توجه إلى حالة واحدة من الأمل الخائب مع وجود طرق أخرى، والشر في الإرادة إذا ضعفت وظلّت متمسكة بشيء غير موجود أو بشيء كان موجوداً فانعدم.. أما إذا كانت النفس على مستوى من الإيمان الذي يجعلها تتحصن ضد الانهيار ولا تعيش متطلعة إلى سراب وهي واثقة من أنه ما أغلقت باب وإلاّ فتحت أخرى، وما انقطع خيط إلاّ وهناك خيط موصول، فلتفتش عن الباب المفتوحة والخيط الموصول تاركة وراءها اليأس الذي سببه انقطاع ذلك الخيط، حين ذاك لا يخيب الإنسان بل تخيب الخيبة نفسها...

وكانت بيداء تستمع إلى الحديث بانجذاب وقد ترقرقت دمعة حارة في عينها..

وسكتت رباب تنتظر الردّ من بيداء ولكن فترة سكوت بيداء طالت بعض الشيء وكأنها تراجع وقع كلمات رباب في مشاعرها.

ثم قالت: لا أدري فلعلَّ يد الرحمة قد أرسلتك إليَّ يا رباب لتستنقذني من اليأس..

قالت رباب: ألم تسمعني الآية المباركة التي تقول: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]؟ وعند ذلك نظرت رباب إلى ساعتها فرأتها تشير إلى السادسة مساء، وكان عليها أن تذهب إلى البيت فتململت في جلستها مؤذنة بالقيام، فاهتزت بيداء لذلك وقالت في لهفة: وهل ستذهبين يا رباب؟..

فابتسمت رباب وقالت بلطف: نعم فإنّ لدي ما يدعوني إلى العودة إلى البيت..

فتساءلت بيداء: هل هو موعد هام يا رباب؟

قالت رباب: نعم إنه أهم موعد في حياة الإنسان، إنه الزمن المحدد لصلة العبد بالمعبود والفترة المخصصة لاتجاه المخلوق إلى الخالق.

قالت بيداء: إنها الصلاة ولا ريب، ولكن يمكنك أداءها هنا، نعم يمكن أن نؤديها معاً.

فأشاعت هذه الكلمات الغبطة لدى رباب ورددت في نفسها تقول الحمد لله أنها مصلية فهي إذن صالحة بفطرتها وطيبة بطبيعتها، ثم أجابت على الفور: لا مانع لدي من ذلك.

وفعلاً فقد أدتا فريضة الصلاة معاً وعادتا إلى مجلسهما فافتتحت رباب الحديث قائلة: ألم تسمعي الآية التي تقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] إذن فإنّ جميع ما نلاقيه على مسرح الحياة ما هو إلاّ إعداد للنفس البشرية لرفعها إلى مستوى الإرادة وسيادة النفس، فقد نعد النازلة تنزل بنا خسارة وهي ربح، أو نقول مصيبة نزلت لتكدير الحياة وما هي إلاّ طريق لبلورة الفكر وصقل المشاعر بشكل يساعد على مجابهة الحياة بطريقة صالحة ناجحة هيأها الله تبارك وتعالى لعبده لتتبلور عنده حقيقة إيمانه..

قالت بيداء: إنني مؤمنة يا رباب ولكنني لم أقو على المقاومة فأوشكت أن أنهار..

فردّت رباب قائلة: ولكن الإيمان هو قتل الخوف الدنيوي بالتسليم والرضى، وبالإرادة المؤمنة الصالحة القوية يتمكن الإنسان أن يجعل النكب طريقاً من طرق القدر في التعليم، وقد يكون ابتداء المصيبة في إنسان هو بداية تسرب الحكمة إليه إذا تمكن من الثبات أمامها..

وسكتت رباب وهي ترى أنّ عليها أن تدير دفة الكلام لكي لا تثقل على بيداء بنصائحها، فضحكت وهي تقول: والآن ألم تعرفي كيف اهتديت إليك يا بيداء؟

قالت بيداء وقد عرفت ما تقصده رباب: لا ولكني أؤمن أن الله هو الذي أرسلك إليَّ مهما كانت الظروف والوسائل.

فأخذت رباب تحدثها عن الخيط الذي أوصلها إليها وأعقب ذلك بعض الأحاديث العامة نهضت على أثرها رباب وهي تستأذن بالخروج فتعلقت بها نظرات بيداء في رجاء وهي تقول: أو سوف تزوريني ثانية يا رباب؟

فترددت رباب برهة، فهي مصممة على أن تزورها ثانية وثالثة ولكن طبيعة الموقف كانت تقتضي أن تقول: وهل ترغبين في ذلك يا بيداء؟

قالت بيداء في تأكيد صادق: نعم فأنا أتمنى ذلك من صميم قلبي يا رباب.

قالت رباب: إذن فقد اتفقنا فأنا أيضاً أتمنى ذلك ولهذا فسوف أعود إن شاء الله.

□□

كان اللقاء الثاني الذي جمع بين رباب وبيداء لقاء يسبقه الشوق وتغمره اللهفة. وحاولت رباب أن لا تتسرع في الدخول إلى صميم الموضوع بل تنتظر ما تنفذ منه إليه بشكل يبدو عفوياً، وفعلاً فقد واتتها الفرصة خلال حديث بيداء عن أختها الصغيرة ورغبتها الشديدة في الدراسة حيث قالت:

إنّ حوراء جد مثابرة على دراستها ولكني أخشى أن لا يدوم لديها هذا الاندفاع..

فتساءلت رباب: ولماذا؟...

فهزت بيداء رأسها في أسى وسكتت.

فأردفت رباب تقول: إنني أتنبأ أن تتعمق عندها هذه الرغبة ويتضاعف لديها هذا الاندفاع.

قالت بيداء: أرجو ذلك ولكني أشك من طبيعة الحياة أن تعطي للنفس حريتها في الانطلاق وتحقيق الرغبات.

قالت رباب: ولكن ليس من طبيعة الحياة أيضاً أن تغلق أمام الإنسان جميع المنافذ، فليس من حق من يمرّ بمصيبة أن يخيل إليه أن أيامه القادمة ما هي إلاّ سلسلة من المصائب والنكبات، وليس من حق من يمر بأزمة مالية أن يحسب إنّ الحرمان قد كتب عليه وأن حياته قد اقترنت مع الفاقة، وليس من حق من يصادف في حياته نكراناً لجميل أو خيانة لوفاء أو استهانة بعاطفة أن ينظر إلى من حوله بمنظار أسود... وهكذا مهما وجد للشر أثر في الحياة كانت للخير آثار أيضاً، ومهما تكاثفت الغيوم في سماء الإنسان كان من الممكن أن تتلاشى، ومهما إدلهم الأفق الممتد أمام النظر لا ينعدم الأمل بإشراقة فجر وليد يتلألأ به الأفق المعتم الحزين كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]..

قالت بيداء: ولكن المصائب والأزمات على أشكال فمنها ما يصبر عليها ومنها ما لا يمكن من ذلك.

قالت رباب: أما النكبات بافتقاد الأعزاء فإنّ المؤمن العاقل المتفهم لحقيقة الحياة وقصة الخليقة التي منّ الله تبارك وتعالى بها على الوجود ليمنحها فرصة التزود من العمل الصالح ولأجل أن يفتح أمامها أبواب السعي لتحقيق مفهوم العبادة الشامل لجميع نواحي الحياة، فالعبادة هي كمال للإنسان واكتمال لشخصه والطريق الذي يفتح أمامه أبواب البلوغ إلى الغاية القصوى في الحياة الثانية، الحياة الحقيقية الباقية، إن تفهم كل هذا من واقع الحياة يمكن الإنسان من الثبات أمام نكبة افتقاد الأعزاء، فما دام الإنسان قد بدأ لينتهي وما دامت الحياة تعطي وتأخذ وما دام الأعزة هم السابقون والمنكوبون هم اللاحقون،

فإنّ من واجب المؤمن العاقل أن يصمد وأن يعرف أنّ الفاقة الحقيقية هي الفاقة الروحية والحرمان الواقعي هو الحرمان الأدبي... هذه هي الفاقة وهذا هو الحرمان الحقيقيان اللذان يجران على صاحبهما شتّى أنواع الفاقة والحرمان في الحياة، ومع تمكن الإنسان من هذين العنصرين فإنّ الأمل بانفتاح المستقبل أمامه سوف يصبح أملاً منطقياً يهبه سعادة الانتظار ولذّة ترقّب الوضع الأفضل، ثم إنّ مراجعة التاريخ ودراسة أحوال الأمم والشعوب الماضية وتبدّل أحوالها واختلاف أوضاعها، وسلسلة الصعود والهبوط لدى أفرادها تحدث الإنسان المؤمن العاقل أنّ قلّما استمرّ وضع من الأوضاع على وتيرة واحدة مهما تسامى أو تردى ومهما طال أو قصر، كما ذكر أن الرسول ﷺ خرج يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك ويقول: لن يغلب عسر يسرين ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥-٦]. وقد نظم أحد الشعراء هذا المعنى في بيتين فقال:

إذا ضاقت بك الدنيا ... تفكر في «ألم نشرح»
تجد يسرين بعد العسر ... إن فكرته تفرح

قالت بيداء: ولكن الفقر قد يمنع من مواجهة الحياة.

قالت رباب: عن أي طريق يحول دون ذلك؟

فترددت بيداء ثم قالت: عن طريق الخجل مثلاً..

قالت رباب: ولماذا الخجل؟ وليس في الفقر ما يخجل، فقد يكون لدى الإنسان ما يخجله من مواجهة الحياة وهو مثقل بحمل ملاينية مثل أن يكون ضعيف الشخصية تافه التفكير، أو يكون قد جاء بما يتنافى مع الفضيلة وما يخالف خط الاستقامة في الحياة، أما الفقير المؤمن الذي يشعر باكتفائه الذاتي فهو قد يحسب فقيراً ولكنه في الحقيقة أروع معلم إنساني يلقي على الناس دروس نفسه القوية واكتفائه الذاتي في الحياة، فهو لأجل ذلك سوف يلذّ له أن يواجه المجتمع مرفوع الرأس قوي الجنان، ومتى كان الفقر عيباً وهو كما سمي في الروايات بشعار الصالحين؟ أم كيف يعدّ الفقر مخجلاً وهو الامتحان

الإلهي الذي يصقل فيه الله تبارك وتعالى نفوس عبادة فيميز بين الصابر والجازع، والطامع والقانع كما جاء في الآية المباركة: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] ولو كان في الفقر ما يشين ما عاشه نبي الإنسانية الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ.

وسكتت رباب تنتظر الجواب ولكن بيداء ابتسمت ولم تجب، فأردفت رباب تقول: ثم إنّ الإنسان المؤمن العاقل يعيش دائماً وأبداً مفهوم هذه الآية المباركة: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] ولا ينظر إلى الصدف السعيدة التي تمرّ بغيره على أنها من مختصات سواه فيحسده عليها ويستكثرها عليه، بل أنه يتفاءل بسماعها ويسعد بمشاهدتها بانتظار وصول الدور إليه كما قال الشاعر:

وكم لله من لطف خفي	يدق خفاه عن فهم الذكي
وكم يسر أتى من بعد عسر	ففرج كربة القلب الشجي
وكم أمر تساء به صباحاً	فتأتيك المسرة بالعشي
إذا ضاقت بك الأحوال يوماً	فثق بالواحد الفرد العلي
ولا تجزع إذا ما ناب خطب	فكم لله من لطف خفي

وكذلك فإن المؤمن العاقل سوف يتمكن من أن يتحكم بعواطفه ويسيطر عليها بزمام الإرادة فيما يحب وفيما يكره ففي الوقت الذي يصادف خيانة لوفاء أو تجنياً على وداد سوف يقدم عقله الحارس ليلقنه أنّ الخائن غير مأسوف عليه، فهو منذ تلك اللحظة موكول إلى قائمة الإهمال، لا وداد ولا عداء، لا مديح ولا سباب... إذن فلم الألم؟ بل ولماذا الأسف؟ ولعلَّ تكشف الخائن عن نفسه هو من مصلحته لكي يحول ذلك دون اندفاعه في الإخلاص أكثر فأكثر مع من لا يستحق الإخلاص.

قالت بيداء: ولكن ألا يتألم الإنسان إذا قوبل جميله بالنكران وجوزي فضله بالعدوان؟

قالت رباب: إنّ هذا هو شعور الإنسان الذي يتاجر بعواطفه أو يرابي بها

وليست من أخلاق الفرد العاقل الذي يحسن حباً بالإحسان ويساعد رغبة في المساعدة ويخلص تمشياً مع طبيعته الصالحة التي تدعوه للإخلاص، فإنّ هذا المؤمن العاقل لا يندم على ما أعطى ولا يأسف على ما بذل وإن بقي بدون بدل، لأنه كان مستجيباً بذلك كله إلى نداء الإيمان وتعاليم الإسلام، فهو يزهد في جزاء البشر ويأمل بما عند الله من مثوبة ورضوان، ثم إنّ عمل الخير ما هو إلاّ طبيعة الإنسان المؤمن، ولهذا فهو لا يبيع ما يمليه عليه طبعه بالأثمان وحتى لو أراد فإنّ العواطف الخيرة لا تقدر بثمن مهما كان. . .

قالت بيداء: الحقيقة أنّ العواطف الخيرة لا تقدر بثمن يا رباب، فأنا مثلاً سوف لن أستطيع أن أفي عواطفك تجاهي حقها، مهما حاولت. .

قالت رباب: أرجو أن تكوني واقعية معي يا بيداء واتركي كلمات المجاملة والإطراء، فإنّ تجاوبك معي هو أغلى ما أتوق إليه الآن.

قالت بيداء: لكني أرى ضرورة التعبير عن المشاعر إذا كانت صادقة.

قالت رباب: نعم فإنّ العاطفة الصادقة المنبعثة عن وحدة العقيدة والإيمان من المستحب لها أن تطبع بعض آثارها في الظاهر كما قال الرسول ﷺ: «إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره أنه يحبه» وكما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تجعل المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان وتحريضاً لأهل الإساءة على الإساءة»، وكذلك الشكر أيضاً ولكنه ينبغي أن يكون شكراً صادقاً معبّراً عن الحقيقة لا أكثر ولا أقل. .

قالت بيداء: إذن؟

فأجابت رباب: إذن فإنّ أثمن ما تتحفيني به يا بيداء هو انعطافك نحو أفكاري وتجاوبك معها تجاوباً واقعياً يفتح أمامك أبواب السعادة في الحياة، فنحن كما نؤمن بوجود الطرق المادية التي تجيء إلى الشقاء نؤمن أيضاً بأنّ هناك طرقاً روحية عديدة تقود إلى السعادة، كما قال الإمام عليه السلام: «أصلح آخرتك يصلح لك أمر دنياك» وكما قال أيضاً: «أصلح ما بينك وبين الله يصلح الله ما بينك وبين الناس» فليست الأخلاق الإسلامية إلاّ الطريق المهيع الذي

يقودنا إلى عالم السعادة الواقعية، ولنأخذ على ذلك مثلاً القناعة، وهي مما يحلي بها الاسلام المؤمنين من أفراده، هذه القناعة كما هي كثيرة معطياتها الروحية لحاملها، والطمع الذي هو نقيضها والذي حذر منه الإسلام ونهى عنه، هذا الطمع كم هي قاسية نتائجه وآثاره لدى الإنسان.

قالت بيداء: لقد فتحت لي يا رباب بكلماتك هذه أبواباً من الأمل لم أكن أحلم بوجودها من قبل.

قالت رباب: وهذه الأبواب هي التي سوف تبرز هذه الآمال إلى حيّز الوجود، فالأمل يبعث إلى العمل والعمل يؤدي إلى تحقيق المأمول، وهكذا بالنسبة لليأس فاليأس يورث العجز والعجز يقود إلى الفشل، والفشل هو أصدق مفاهيم اليأس.

قالت بيداء: سوف لن أيأس يا رباب وسوف أتسلح لذلك بسلاحك الذي قدمته إليَّ، سلاح الإيمان عسى أن أعود فأزهو بإرادتي من جديد.

قالت رباب: لا تقولي عسى يا بيداء بل قولي إنني سأزهو بإرادتي كما لم أزهو بها من قبل، فالإيمان هو الذي يهب النفس الاطمئنان على زلازلها وكوارثها، وإذا لم يكن كذلك فما هو إلاّ دعوى باللسان فقط، وغريزة الإيمان هي نفسها معنى الرضى بالقدر خيره وشره، فتبرز هموم الدنيا ونكباتها داخل إطار من المعاني الشريفة التي تنتزع منها شرّها وأذاها للنفس فيستحيل الفقر إلى أحد أنواع الزهد ويصبح المرض ضرباً من الجهاد، والخيبة طريقاً إلى النصر، والحزن بلورة للروح، وهكذا يستحيل البلاء إلى ثواب وحسنات.

قالت بيداء: أرجو أن أكون كذلك يا أختاه.

قالت رباب: إن كلمة أرجو تدخل على الأمر الذي لا بد لنا بإيجاده، أما الاتجاه إلى الله والسير على هداه فهو ما نتمكن أن نختاره بأنفسنا ونحققه بمطلق حريتنا، أتعلمين يا بيداء كم هو لذيذ هذا الشعور؟ شعور الإنسان الذي أوكل أمره إلى القدرة الإلهية، القدرة الحقيقية في الوجود ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] أتدرين يا بيداء كم هو رائع هذا التكيف الروحاني

للنفس الإنسانية تكيفها لعبادة الله بكل معاني العبادة التي تشتمل كل شيء حتى الصبر على المكاره والثبات في الشدائد.

إذا لم يكن عود من الله للفتى   فأول ما يجني عليه اجتهاده

وكما قال الإمام عليه السلام: «إنّ الله بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا، وجعل الهمّ والحزن في الشك والسخط».

قالت بيداء: إذا كان انفلاتي على مشاعر اليأس هو الذي قادك نحوي فهل سيضع انفتاحي للأمل نهاية لمهمتك بالنسبة إليَّ؟ أقصد هل ستتركيني بعد أن تطمئني إلى تحقيق غايتك يا رباب؟

قالت رباب: وكيف لي أن أتركك يا بيداء وتحقيق غايتي هو أقوى حبل يشدّني إليك لأنه قام على أساس الإيمان، ورابطة الإيمان هو أقوى رابطة لدي، بل هي الرابطة الحقيقية التي أؤمن بوجودها، فأنا لا أعترف بارتباط يقوم على أساس كلمات مجاملة أو ضحكات مرح، ولا أقرّ اتصالاً تتحكم فيه بروتوكولات وإتيكيتات، وأنا أؤمن أيضاً أنّ أية صلة لا تستمدّ وجودها من الوحدة الفكرية الصالحة والاتجاه الروحي الخير سوف لن تمتلك مقومات الاستمرار مهما طالت أو تعمقت، لأنّ الصلة بين اثنين لابدّ لها أن تستند إلى قاعدة تدعو إليها، وليس هناك قاعدة ثابتة لدى الإنسان عدا القاعدة الفكرية والروحية، وإلاّ فطبع الإنسان وذوقه وانفعالاته العاطفية ما هي إلاّ عرضة للتقلبات والتغيرات، ومع تقلبها وتغيرها تتلاشى معالم الصلات التي كانت قد نشأت منها، ولهذا فإنّ صلتي يا بيداء سوف لن تمحوها يد الأيام مهما كانت، بل إنها سوف تتعمق مع تعمق أفكارك المؤمنة إن شاء الله.

قالت بيداء: إذن فما أحلى الإيمان الذي من مكاسبه أخوتك الصادقة يا رباب.

قالت رباب: وما أحلى الإيمان الذي يفتح القلوب للمؤمنين بدون استئذان، وما أحلى الإيمان الذي يتسع بقلب المؤمن حتى يشمل العالم بحبه ويسبغ على الدنيا الخيرة رحمته وحنانه، كما وصفت الآية المباركة التي تقول: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

قالت بيداء: ولكن القلة هم الذين يبنون صلاتهم على أمثال هذه الأسس الثابتة.

قالت رباب: ولهذا ترين فشل أغلب العلاقات وانفصام العديد من الصلات بل تحولها إلى صلات عدائية في أغلب الحالات.

قالت بيداء: إذن فإنّ صلتنا سوف تبقى ثابتة مع أنفاس الحياة التي تتردد.

قالت رباب: نعم ما دام الإيمان رائدنا والصلاح هادينا، وسوف ترين كيف تحقق لك هذه الصلة أشكالاً من الولاء الصادق في الجهر والخفاء والتضحية الخالصة حتى في الستر والمساندة والمعاضدة في جميع الحالات، فإنّ من طبيعة المؤمن أيضاً أن يساند أخاه المؤمن، يقف إلى جانبه حتى أمام الملأ ليشدّ من أزره ويقوي معنوياته.

قالت بيداء: نعم إنّ خير التضحية ما كان مستتراً وأفضل المساندة ما كان ظاهراً، فلا خير في مساندة مخفية ولا خير في تضحية مكشوفة.

قالت رباب: وسترين أيضاً يا بيداء كيف سيستحيل محيطك الذي ستقيمين بنيانه بوحي من هدى الإيمان كيف سيستحيل إلى محيط هادىء مريح يهبك الراحة والأمان، لا عتاب ولا اعتذار، لا عقاب ولا جزاء، لا عداء ولا اعتداء، لا ظنّ سوء ولا تضخيم مشاكل، لأنّ جميع هذه الحالات تستند إلى جذور قد نهى عنها إسلامنا.

قالت بيداء: لقد شوقتني إلى هذا الحلم الساحر يا رباب.

قالت رباب: إنه ليس حلماً يا بيداء، بل إنه الحقيقة بعينها والواقع الذي تعيشه كل مؤمنة واعية لطبيعة الإيمان.

قالت بيداء: إذن فسوف أعيشه إلى جوارك يا رباب، إن شاء الله.

فأردفت رباب تقول: نعم إن شاء الله يا بيداء.

بنت الهدى

بنت الهدى

٥

لقاء في المستشفى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقلّبت الدكتورة معاد على فراشها وهي تستمع بين اليقظة والمنام إلى رنين جرس الهاتف وكأن جسمها كان يعاني صراعاً بين سلطان النوم ونداء الواجب، فاستمرّ الجرس يرن ويرن بأُسلوبه الرتيب، وبقيت هي تعاني صراعاً بين عالمي اليقظة والمنام، حتّى انتبهت مشاعرها وأحسّت بمسؤولية اليقظة، فاندفعت نحو الهاتف وهي تلاحظ الساعة فتجدها تناهز الواحدة بعد منتصف اللّيل.

إذن فلا شك أنها حالة مرضية مستعجلة، وهكذا كان، فقد كانوا يستدعونها من الطابق السابع لوجود حالة خطيرة، وما كان منها إلاّ أن أسرعت بلبس قناعها وأبرادها وخرجت مسرعة إلى حيث تجد المريض.

وأمام غرفة العلاج وجدت ممرضة أخبرتها أنّ المريض امرأة عجوز تشكو من آلام شديدة في صدرها، فأسرعت الدكتورة في الدخول حيث استقبلتها فتاة شابة جميلة الوجه، رشيقة القوام، قد ارتدت الحجاب الكامل، وكأن الدكتورة قد ارتاحت لمنظرها فشدّت على يدها مسلِّمة بحرارة وهي تقول:

- خير إن شاء الله.

قالت الفتاة: إنها جدّتي يا دكتورة، وقد انتابتها آلام قاسية منذ ساعات تعرّضت خلالها لإغماء طال بضع دقائق.

قالت هذا وسارت مع الدكتورة حيث كانت الجدّة ترقد شاحبة الوجه على طاولة الفحص وهي تئنّ من الألم.

فسارعت الدكتورة بإجراء الفحوص اللاّزمة، واستدعت معها مَن يعينها على ذلك، وكانت تعمل بجد واندفاع وكأنها الطبيبة والقريبة في وقت واحد، وكانت الفتاة تتجوّل خارج الغرفة تقطع الردهة بخطواتها القلقة جيئة وذهاباً، حتّى اكتملت الفحوص وثبت أنها مصابة بذبحة قلبية وأن عليها البقاء في

المستشفى إلى فترة، عند ذلك تمّ نقلها إلى غرفة خالية وأُعطيت بعض المهدّئات، الشيء الذي مكّنها من النوم.

وكانت الدكتورة حتّى ذلك الوقت مشغولة بتعهّد أمر المريضة وتهيئة وسائل الاسعاف المطلوبة لها، ولهذا فهي لم تتمكّن أن تتحدّث مع الفتاة إلاّ بضع كلمات قصار تتعلّق بحال المريضة، ولكنها عندما اطمأنت على راحة المريضة ووثقت من أداء مهمّتها بالشكل المطلوب التفتت نحو الفتاة التي كانت تقف في قلق إلى جوار سرير جدّتها وقد تندّت أهدابها بالدموع، فبدت عيناهامن خلالها وكأنهما نجمتان تتلألآن من وراء الغيوم. فشعرت أن عليها أن تقول لهذه المسكينة كلمة تبعث في نفسها الأمل، فحاولت أن تبتسم وهي تقول:

- أرجو أن يكون العارض بسيطاً سيما وقد أُجريت لها الاسعافات اللاّزمة منذ البداية.

قالت الفتاة: إنني جد شاكرة لك اهتمامك بأمرها يا دكتورة.

قالت الدكتورة: إنّ هذا واجب عليَّ تجاه كل مريض.

وهنا لاحظت الدكتورة أن لون الفتاة أخذ يبدو شاحباً، فأمسكت بيدها فوجدتها باردة كالثلج، فقالت لها بنحوّ بالغ:

- أجدك مرهقة جدّاً فلماذا لا تنامين ولو لبعض الوقت؟

قالت الفتاة: آه نعم إنني متعبة ولكن جدّتي كيف أتركها وحيدة؟

قالت الطبيبة: أليس لديها بنت سواك لتشاركك السهر؟

فتردّدت الفتاة لحظة ثمّ قالت: كلاّ ليس لديها بنت سواي وليس لديَّ أُم سواها.

قالت هذا وانحدرت من عينيها قطرات من الدموع زادتها جمالاً على جمال.

فتألّمت الدكتورة لحالها وقالت لها وهي تشدّ على يدها بحنوّ:

- سوف أسهر أنا عليها بدلاً عنك.

قالت: كلاّ إن هذا لا يمكن أن يكون. إن عليك أن تنامي أنت فقد أجهدت نفسك بما فيه الكفاية.

فابتسمت الدكتورة وقالت: إنني اعتدت على هذه الأتعاب ولم أعد أُحسّ بثقلها عليَّ، ثمّ إنني نمت ساعتين في بداية اللّيل ولهذا فأنت أحوج مني إلى الرقاد، ولكن انتظريني حتّى أذهب إلى غرفتي وأعود.

قالت هذا وخرجت من الغرفة دون أن تنتظر جواباً من الفتاة، فأحسّت الفتاة بعد خروجها أنها كانت أمام إنسانة رائعة من حقها أن تعتمد عليها وتركن إليها.

وسرعان ما عادت الدكتورة وهي تحمل بيدها كتاباً ثمّ قالت للفتاة:

- حاولي أن تنامي يا عزيزتي، وسوف أقضي وقتي مع هذا الكتاب وأرجو أن تطمئني على جدّتك لأنني سوف أهتم بأمرها جدّاً يا..

وسكتت الدكتورة لأنها لم تكن تعرف اسم الفتاة.

فأسرعت الفتاة تقول: ورقاء، إن اسمي ورقاء يا دكتورة.

قالت الدكتورة: وإن اسمي معاد يا ورقاء. والآن هيّا إلى السرير الثاني فأنت مرهقة جدّاً.

ولم يسع ورقاء إلاّ أن تمتثل لأنها كانت تشعر بإعياء شديد، وسرعان ما استسلمت للنوم.

أفاقت ورقاء من نومها فوجدت أنها نامت أكثر من ساعة وأن معاداً ما زالت جالسة عند رأس جدّتها تقرأ، والجدّة ما زالت مستسلمة لنوم مريح نتيجة تأثير الأوكسجين عليها، فقامت عن السرير وتوجّهت نحو معاد تحييها بلهفة وتسأل عن جدّتها، فطمأنتها معاد ثمّ ألقت الكتاب من يدها ونهضت وهي تقول:

- سوف أذهب الآن لكي أستعد لصلاة الفجر، ثمّ أُحاول أن أنام بعد ذلك ساعة قبل بداية الدوام، وسوف أمرّ عليك غداً إن شاء الله.

فشكرتها ورقاء وشدّت على يدها وهي تقول:

- لست أدري كيف أشكرك يا دكتورة معاد؟ فقد كنت بالنسبة لي يداً رحيمة ساعدتني على تحمّل الصدمة وأنا وحيدة.

قالت معاد: إنك لست وحيدة يا ورقاء ما دام الله معك، فأنا الاحظ من حجابك أنك فتاة مؤمنة، والإيمان كفيل بأن يشدّك ويسندك خلال جميع أدوار الحياة.

فأعادت ورقاء كلمات الشكر من جديد وودّعت الدكتورة حتّى باب الغرفة، ثمّ عادت لكي تجلس إلى جوار جدّتها وحيث كانت تجلس معاد من قبل، فلاحظت أن معاداً قد نسيت الكتاب الذي كانت تقرأ فيه واسترعى انتباهها اسمه الذي بدا وكأنه غريب عليها أو مستغرب لديها، فقد كان اسم الكتاب هو: (الطب محراب الإيمان).

وتساءلت مع نفسها في تفكير ساذج قائلة: ما معنى هذا يا ترى؟ وما هو ارتباط الطب مع الإيمان؟

أَوَلَيس الطب علماً لدواء الأجسام بينما الدِّين عبادة للنجاة من النار؟ إذن فكيف يصبح الطب محراباً للإيمان؟

ودفعها فضولها إلى أن تقلِّب صفحات هذا الكتاب. وقد اهتمّت بشكل أوّلي بتصميم الغلاف إذ وجدته يحمل صورة ممثلة لدماغ الإنسان وقد كتبت تحتها هذه الآية المباركة: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١].

واستمرّت تقلِّب صفحات الكتاب فتقرأ فيه سطوراً قصاراً تسلِّمها إلى تفكير طويل، ولم تترك الكتاب إلاّ خلال أداء صلاة الفجر أو قضاء حوائج جدّتها حيث كانت تعود إلى الكتاب لتغرق بين صفحاته بالمطالعة والتفكير.

وأشرق الصبح ودخلت الممرضة المسؤولة لإعطاء دواء المريضة ثمّ خرجت، وعندما ارتفع النهار جاء الدكتور المختص وفي صحبته دكتورة فأعاد الفحص وطمأنها بكلمات قِصار وخرج ومن ورائه الدكتورة مشكِّلة بمشيتها التي تتراقص فيها أردافها وأكتافها وخصلات شعرها مع رنين كعب حذائها، مشكِّلة في كل ذلك جوقة موسيقية راقصة.

واستدارت قبل أن تخرج لتؤكِّد على ورقاء أن لا تدع المريضة تتعرّض لأية حركة. وكأن هذه الكلمات القصار مكّنت ورقاء من دراسة وجهها عن قرب فوجدته مثل لوحة بالغ النقّاش في صبغها وتلوينها، وسرعان ما خطر لها الفارق بين هذا الوجه الناطق بالتكلّف ووجه الدكتورة معاد الناطق بالصفاء والنقاء.

وهنا أحسّت أنها تنتظر قدوم معاد بلهفة، فهي تحس بالحاجة إلى أن تسمع منها بعض كلمات التشجيع، ثمّ أنها تريد أن تسألها عن بعض ما جاء في هذا الكتاب، فألقت نظرة على ساعتها وحدّثت نفسها قائلة:

لماذا تأخّرت يا ترى؟

وعادت تجلس إلى جوار الجدّة التي كانت منتبهة ومرتاحة، فجلست أمامها وهي سعيدة لتحسّنها وقالت:

- لكم أنا سعيدة بتحسّنك يا جدّتي، ليتك تعلمين كم عانيت القلق من أجلك البارحة.

قالت الجدّة في كآبة: نعم لقد كنت أُحسّ ذلك منك سيما وأنك كنت وحيدة يا عزيزتي.

قالت ورقاء: ولكنني لم أشعر بالوحدة لوجود الدكتورة معاد، فقد كانت لطيفة ورقيقة إلى أبعد حد، تصوّري أنها أصرّت عليَّ أن أنام وجلست هي إلى جوارك لمدة ساعة أو أكثر.

فابتسمت الجدّة وقالت: الحمد لله الذي أرسلها لك في ساعة المحنة يا عزيزتي.

وهنا طلبت ورقاء من جدّتها أن تخلد للنوم لكي لا تجهد نفسها في الحديث. وعادت لتأخذ الكتاب تقرأ فيه من جديد، وكانت تنظر إلى الساعة بين حين وحين وهي تنتظر قدوم معاد، حتّى حان وقت الظهر فأدّت فريضة الصلاة وهي تشعر أنها تفتقد شيئاً. واستغربت هذا الشعور من نفسها وحدّثت نفسها قائلة:

ما الذي يدعوني إلى هذه اللهفة وما رأيتها إلاّ ساعات قلائل؟

وهل هي سوى دكتورة أدّت واجبها تجاه مريضة لا أكثر ولا أقل، ولعلّها سوف لن تعود إلينا ثانية؟

وهنا أحسّت أن نداء من ضميرها كان يلحّ عليها بعنف قائلاً: إن من حقّك هذا التلهّف والانتظار، لأنها إنسانة وجدتِ لديها الكثير من العطف والحنان، إنها لم تؤدّ واجب الطبيبة فقط ولكنها أدّت واجب الإنسانة الكاملة، ولولاها لكنت الآن منهارة وأنت في وحدتك المرّة مع جدّة مريضة.

وأفاقت ورقاء من أفكارها هذه على طرقات خفيفة على الباب، فنهضت تستقبل القادم وإذا بالدكتورة معاد تدخل وقد أشرق وجهها بابتسامة رصينة.

فتقدّمت ورقاء نحوها لتصافحها بحرارة لم تكن أقل ممّا أبدته معاد من حرارة ولهفة ثمّ قالت:

- لقد عرفت من الدكتورة عبير تحسّن حال الجدّة، وقد كنت مشغولة منذ الصباح إذ أنني مسؤولة عن ردهة التوليد اليوم، ولهذا أرجو أن لا تكوني عاتبة عليَّ لتأخّري عنك.

فارتبكت ورقاء وقالت: ولكن كيف لي أن أعتب عليك يا دكتورة؟ ولكنني كنت في حاجة إلى حضورك ولهذا كنت أنتظر.

فاكتسى وجه معاد بطابع الاهتمام إذ حسبت أن المريضة في حاجة إليها فمشت نحو الجدّة وهي تقول:

- كنت في حاجة إليَّ؟

- ماذا؟

- هل تشكو جدّتك من شيء؟

فزاد ارتباك ورقاء وابتسمت في براءة وهي تقول:

- كلاّ إن جدّتي بخير والحمد لله، ولكني أنا التي كنت في حاجة إليك، فهل تسمحين بالجلوس؟

فعادت الابتسامة إلى وجه معاد وقالت وهي تجلس:

- لقد جئت في هذا الوقت لكي أجلس معك إلى فترة يا ورقاء، ولكي أرى إذا كنت متعبة أو في حاجة إلى النوم.

قالت ورقاء: كلاّ إنني لا أشعر بالحاجة إلى النوم بل أنا في حاجة إلى اليقظة الكاملة، ولهذا أُريد أن أسألك عن شيء قرأته في هذا الكتاب، ثمّ أخذت الكتاب بيدها وجلست إلى جوار معاد، فقالت معاد:

- آه لقد نسيت هذا الكتاب هنا، لعلّك قرأت فيه يا ورقاء؟

قالت ورقاء: نعم قد أسلمني إلى الكثير من التفكير.

قالت معاد: لماذا؟

قالت: لأنني لم أكن أحسب أن هناك ربطاً بين الطب والإيمان، فالطب حسبما أعرف عنه: علم يتناول جسم الإنسان، والإيمان عبادة لا أكثر ولا أقل.

قالت معاد: ولكن العلم هو الذي يدعو إلى الإيمان يا ورقاء، وكلّما اتسعت أمام الإنسان معارفه العلمية تصاعد لديه مستوى إيمانه بالخالق.

قالت ورقاء: وكيف؟

قالت معاد: إن كل مَن يجهل شيئاً لا يثمِّنه يا ورقاء، فأنت الآن مثلاً لو نظرت إلى هذه المدفأة الكهربائية لما تمكّنت أن تقدِّري مدى ما توخّاه الصانع من دقة وعناية في تكوينها، ولما خمّنت ما يتطلّبه ذلك من معرفة مسبقة وتجارب متعدِّدة خلافاً لمن يعلم شيئاً ولو يسيراً عن أدواتها، وأجهزتها، وتركيبها المتقن الدقيق.

وهنا لاحظت معاد شبح ابتسامة يلوح على وجه ورقاء وهي تحاول أن تخفيها تأدّباً أمام الكلمات، فسكتت لحظة ثمّ خطر لها خاطر فسألت ورقاء قائلة:

- هل أنت طالبة يا ورقاء؟

قالت ورقاء: نعم إنني ما زلت في السنة الأخيرة من الجامعة.

قالت ورقاء هذا ولم تذكر اسم الكلية التي تدرس فيها، فأردفت معاد تقول:

- إنّك في كلية الهندسة فرع الميكانيك، أليس كذلك؟

فاستغربت ورقاء وقالت: نعم، ولكن من أين عرفت هذا؟

قالت: من شبح الابتسامة التي لاحت على شفتيك عند حديثي معك عن المدفأة، فقد عرفت أن المثل لم يكن لينطبق عليك بالذات لأنّك تعرفين عن صنعها بعض الشيء ولكنّك لم تحاولي أن تردّي عليَّ، وهذا يدل على منتهى الذوق منك وحُسن الاستماع.

قالت ورقاء: ولكن مثلك كان مطابقاً لعين الحقيقة يا دكتورة سواء انطبق عليَّ أو لم ينطبق، ولهذا أرجو أن تستمري بالحديث.

قالت معاد: نعم، ولكن العلم بالشيء ولو علماً إجمالياً من حقه أن يضاعف تثمين ذلك الشيء، نجد أنّ العلم على مختلف صوره وأشكاله يقرب أفكار العلماء إلى الإيمان بالله، وبما أن علم الطب من أهم العلوم وأدقها فإنه بالنسبة للعالم المنصف أوضح طريق للإيمان.

قالت ورقاء: هل تسمحين لي بمزيد من التوضيح؟ فأنا لا أعرف عن ديني سوى بعض التزاماته التقليدية، مثل الصوم، الصلاة، والحجاب، وطالما تعرّضت للعديد من المواقف الحرجة بسبب ذلك، إذ أن حجابي يوحي بأنني أعرف عن الدِّين الشيء الكثير...

قالت الدكتورة: إنني أُرحِّب بكل سؤال يا ورقاء.

قالت ورقاء: حتّى ولو كان سطحياً يا دكتورة؟

قالت معاد: إنني مستعدة للجواب عن كل سؤال مهما كان، ولكنني أرجو أن تتركي كلمة الدكتورة جانباً ما دام حديثنا حديثاً أخوياً تجمعنا فيه كلمة الإيمان. ناديني بمعاد وهذا يكفي، ثمّ هاتي ما لديك بعد ذلك.

فابتسمت ورقاء وقالت: أُريد أن أعرف لماذا اختار المؤلف رسم الدماغ بالذات لكي يجعله على الغلاف؟

قالت معاد: لأن الدماغ يا ورقاء هو أهم جزء من أجزاء جسم الإنسان، وهو بمثابة الحاكم العامل في مختلف أجزاء الجسم وأعصابه وخلاياه، وجسم الإنسان بجميع ما فيه من خلايا عصبية خاضع في طاعة الدماغ، والدماغ، هذا الدماغ الصغير يحتوي على ألف مليون خلية عصبية!

وهنا ردّدت ورقاء قائلة في تعجّب: ألف مليون خليّة عصبية؟!

قالت معاد: نعم، ولكل من هذه الخلايا وظيفة خاصّة وعمل محدّد لا تتجاوزه، ولا تتعدّاه، ولكنها في الوقت نفسه مترابطة في العمل، تستند كل خلية منها إلى الخلية الأُخرى لكي تساعدها في النجاح، وإذا تعطّل أي منها كان لعطله أسوأ النتائج.

وهنا سكتت معاد.

قالت ورقاء: الحقيقة أنني لم أكن أحسب أن دماغ الإنسان على هذا المستوى من الدقة.

قالت معاد: إن أحد العلماء وهو (جودسون هريك) قال عن الدماغ خلال محاضرة ألقاها في معهد التاريخ بنيويورك عام (١٩٥٧) قال:

«لو أننا جمعنا كل أجهزة العالم من التليفون، والتلغراف، والرادار، والتلفزيون ثمّ حاولنا أن نصغِّر هذه الكومة الهائلة من الأجهزة المعقدة حتّى استطعنا وبمجهود جبّار أن نوصلها إلى حجم مثل حجم الدماغ فإنّها لا تبلغ في تعقيدها مثل الدماغ».

وهنا قالت ورقاء: لطيف أن يحمل الإنسان في رأسه هذا الجهاز المتقن الدقيق، ولكن أليس من المؤسف أننا لا نعرف عن حقيقة أجسامنا شيئاً يا معاد؟

قالت معاد: إنّ الحديث عن جسم الإنسان طويل جدّاً يا ورقاء.

قالت ورقاء: وكيف ذلك يا معاد؟ ألا يمكنك أن تعطيني بعض الأمثلة؟

قالت معاد: مثلاً هل تعلمين أن أعصاب الإنسان متصلة مع جسم الإنسان بصورة كاملة؟ ولكن هذا الاتصال على شكلين:

فهناك أعصاب تسمّى بالأعصاب الإرادية، وهي التي تسيطر على مجموعة مخصوصة من العضلات التي في الجسم وتسمّى بالعضلات المخطّطة والتي منها عضلات اليد، والرجل، واللسان، وهي العضلات التي لا يمكن لها أن تعمل بدون ارادة.

وهناك أيضاً نوع ثانٍ من العضلات ليس للإرادة أي دخل فيها وإنما هي محكومة لجملة عصبية خاصّة، ومن تلك العضلات أجهزة الهضم، والتنفس، وعمل القلب، وهنا يبدو جانب من جوانب حكمة الخالق في التصميم، فلو كانت جميع الأجهزة خاضعة لعمل الإرادة لما أمكن للإنسان أن يغفل عنها

لحظة حتّى وفي حال النوم وإلاّ لتوقف القلب عن الحركة، وتعطل جهاز الهضم والتنفس عن العمل.

وكذلك الحال بالنسبة للعضلات المخطّطة التي تخضع في عملها للأعصاب الإرادية، فهي لو لم تكن خاضعة للإرادة ومنشدّة إليها، ولو لم تكن غير قادرة على العمل بدونها لاستمرّت بعملها كما استمرّت العضلات الغير خاضعة للإرادة.

قالت ورقاء: وماذا كان يحدث إذن؟

قالت معاد: لاستمرّ الإنسان يمشي ويمشي ويتكلّم ما دام حيّاً وما دام قلبه ينبض بالحياة.

وكانت ورقاء تستمع في اهتمام بالغ، وحينما سكتت بادرت تستزيدها قائلة:

- إنّ حديثك شيّق جدّاً يا معاد.

قالت معاد: يمكنك أن تقرئي هذا الكتاب لتعرفي الكثير عن أسرار جسمك يا ورقاء.

فسكتت ورقاء برهة ثمّ قالت في خجل:

- ولكنّني لا أرغب في المطالعة يا معاد، إنني أُحبّ أن أسمع من أن أقرأ.

قالت معاد: ولكن السماع وحده لا يكفي ولا يغني يا ورقاء، فما لم يعتمد الإنسان على ذهنه في فهم ما يريد لما تفهّم ما يكفيه. فالإنسان الذي يسمع أكثر ممّا يقرأ يصبح اتكالياً في فهمه للأمور، لأنه يستقبل الحقائق مشروحة وموضّحة ولا يكلّف نفسه مشقة مطالعتها واستيعابها شرحاً وتوضيحاً، وما دام الفهم معتمداً على الآخرين كانت المعلومات محدودة لأن السماع مهما كان لا يبلغ إلى مستوى القراءة في الكم والكيف.

وهنا تململت الجدّة على فراشها فقامتا إليها معاً. وانحنت عليها معاد تسأل عن راحتها فابتسمت الجدّة وشكرتها على موقفها منها في اللّيلة الماضية وقالت لها:

- إنّني دعوت لك كثيراً لموقفك البارحة مع ورقاء، وسوف أدعو لك ما دمت حيّة.

قالت معاد: إنني أشكرك جدّاً وأرجو لك العمر الطويل.

قالت الجدّة: ولكن ما هو اسمك يا ابنتي؟

قالت معاد: إن اسمي معاد.

فسكتت الجدّة لحظة ثمّ قالت: لقد سبق أن سمعت بمثل هذا الاسم من قبل ولكن ما هو اسم أبيك يا معاد؟

وهنا لاحظت ورقاء أن معاداً قد تجاهلت السؤال حيث قالت:

- إنّني سوف أزورك في كل يوم يا خالة وأرجو أن تتقدّم صحتك بسرعة بفضل الله وبفضل عناية ورقاء.

فضحكت ورقاء وهي تقول: وبفضل الدكتورة معاد أيضاً.

ثمّ عادتا للجلوس، وكانت ورقاء تودّ لو استأنفت معاد حديثها ولكن خشيت أن تطلب منها ذلك فتثقل عليها فيه، ولهذا مرّت عليهما فترة سكوت تتخلّله بعض الكلمات، وعندما أرادت معاد أن تذهب طلبت منها ورقاء أن تترك الكتاب عندها لتقرأ فيه.

□□

اسمترّت معاد تزور المريضة في كل يوم، الشيء الذي شدّ أواصر العلاقة بينها وبين ورقاء، سيما وأن ورقاء كانت تستفيد منها فكرياً فيضاعف ذلك من إعجابها وحبّها لمعاد، ولكن فجأة مرّ يوم ويومان دون أنّ تزور معاد غرفة المريضة جدّة ورقاء، وفي اليوم الثالث عندما مرّت عليهم الدكتورة عبير سألتها ورقاء:

- هل أن الدكتورة معاداً مجازة منذ يومين؟

قالت: كلاّ ولكنّها مريضة!

فندت عن ورقاء آهة تألّم وقالت:

- مريضة؟ ولكن أين هي، في البيت أم في المستشفى؟

قالت: إنها في المستشفى.

ثمّ انصرفت لكي لا تفسح الطريق لسؤال جديد.

وبقيت ورقاء في قلق حائرة، فهي تودّ أن تذهب إلى معاد ولكنّها لا تعرف كيف؟ وهل يمكن لها ذلك؟

وبعد ساعة دخلت الممرضة المسؤولة فسألتها عن معاد، فقالت:

- إنّها مريضة منذ يومين.

قالت: وهل يمكن عيادتها في غرفتها؟

قالت الممرضة: إنها ليست في غرفتها.

قالت ورقاء: أين هي إذن؟

قالت: إنها نقلت إلى الغرفة المقابلة لغرفتكم من الجهة الثانية.

فردّت ورقاء في فزع قائلة: آه إنها مريضة جدّاً إذن!!

فردّت الممرضة: إنها مصابة بانفلونزا حادّة، ولهذا ومن أجل صحّتها ووقاية لقسم الطبيبات من العدوى رجّح الطبيب نقلها إلى غرفة العلاج.

فأطرقت ورقاء تفكّر في مرض معاد بألم ثمّ قالت:

- ليتني أتمكّن أن أذهب لعيادتها.

قالت الممرضة: وماذا يمنعك من الذهاب؟

قالت: جدّتي، كيف أتركها وأذهب؟

قالت الممرضة: أنّ جدّتك بخير، وسوف أمرّ عليها أنا خلال فترة غيابك عنها.

قالت ورقاء: ولكن متى يمكنك الحضور؟

قالت: بعد الثانية عشر ظهراً.

فشكرتها ورقاء، وبقيت تنتظر ساعات بعد الظهر على لهفة وقلق حتّى حان الوقت فتوجّهت نحو غرفة معاد وطرقت الباب بهدوء خشية أن تكون المريضة

نائمة، وفوجئت أن وجدت شاباً يفتح لها الباب، فارتبكت وحاولت أن تتراجع ولكن مظهر الشاب الوقور بعث في نفسها شيئاً من الثقة، فسلّمت ثمّ قالت:

- كيف حال الدكتورة معاد؟

فأفسح الشاب لها الطريق قائلاً: تفضّلي إليها فهي مستيقظة.

فدخلت ورقاء تمشي بخطوات مرتبكة ولاحظت أن الشاب خرج من الغرفة وأغلق الباب وراءه، فقالت في نفسها: لا شك أنه الطبيب، ثمّ مشت إلى حيث ترقد معاد على السرير، فانحنت نحوها تحيِّيها بعطف وتسأل عن صحّتها بلهفة، فوجدت الحمّى لديها مرتفعة وسمعت أنيناً خافتاً يصدر عنها، الشيء الذي آلمها جدّاً فنادتها بصوت خافت قائلة:

- دكتورة معاد! دكتورة معاد! كيف أنت يا أُختاه؟

فحاولت معاد أن تبتسم وأجابت بصوت واهن:

- أرجو أن أكون بخير، كيف هي جدّتك يا ورقاء؟

قالت: إنها بخير تسلّم عليك، وتدعو لك بالصحة.

ثمّ جلست ورقاء إلى جوار المريضة، ولاحظت أنّ معاداً مستغرقة في بحران من الحمّى، وأن غدائر شعرها مبعثرة على الوسادة مع حمرة قانية تصبغ وجهها الجميل الذي كانت تراه بدون حجاب لأوّل مرّة، فودّت لو تمكّنت من مساعدتها بأي ثمن.

ومضت الدقائق طويلة ومتعبة وهي جالسة إلى جوار المريضة يعزّ عليها أن تذهب وتتركها وحيدة، ومن ناحية ثانية كانت تحسّ بالقلق من أجل جدتها المريضة ولا تتمكّن أن تتأخّر عنها أكثر من هذا.

ثمّ فتحت معاد عينها ورأت ورقاء ما زالت إلى جوارها، فقالت لها بصوت متقطّع:

- لماذا أنت ما زلت هنا يا ورقاء؟ عليك أن تعودي إلى جدّتك المريضة يا عزيزتي.

قالت ورقاء: ولكن كيف أتركك وحدك يا معاد؟

قالت معاد: إنني لست وحدي يا ورقاء، نادي لي أخي إذا خرجت.

قالت ورقاء: وأين أجد أخاك يا معاد؟

قالت: أحسبه في غرفة الاستعلامات.

فظهرت الحيرة على ورقاء وقالت:

- ولكن ما هو اسمه؟ أقصد كيف أتمكّن أن أعرفه فأستدعيه؟

فابتسمت معاد رغم حالها وقالت:

- إن اسمه سناد وهو الذي فتح لك الباب.

قالت ورقاء: آه لقد حسبت أنه الطبيب.

قالت معاد: صحيح أنه الطبيب كما خمّنت، ولكنّه أخي في الوقت نفسه، ولولا ذلك لما كنت أمامه هكذا.

قالت هذا وأشارت إلى خصلات شعرها المبعثرة.

قالت ورقاء: لقد حسبته طبيباً غريباً حين رأيته قد خرج ولم يعد.

قالت معاد: لقد خشي أن يضايقك بوجوده ولهذا خرج.

وهنا قامت ورقاء وقبّلت معاداً متمنية لها الشفاء وخرجت من الغرفة متوجِّهة إلى غرفة الاستعلامات، وكانت تشعر بالحراجة لهذه المهمّة، ولكنها وجدته أمام الغرفة وقد لاحظ انصرافها دون أن تقول له شيئاً، وبذلك تخلّصت ممّا كانت تستشعره من إحراج، وذهبت إلى جدّتها مسرعة فوجدتها ما زالت نائمة فجلست إلى جوارها تقرأ.

ولم تطل مع الجدّة سنة النوم إذ فتحت عينها ونظرت إلى ورقاء، فسألتها ورقاء عن راحتها فردّت قائلة بارتياح:

- إنّني بخير، ولكن كيف وجدت الدكتورة معاداً؟

قالت ورقاء بألم: إنها مريضة جدّاً يا جدّتي.

قالت الجدّة: شفاها الله وعافاها، ولكن مَنْ كان معها؟

قالت ورقاء: يبدو أن أخاها طبيب، وكان إلى جوارها حين ذهبت ولكنه خرج عند دخولي.

فقالت الجدّة: مَنْ هذا يبدو أنه إنسان مهذّب.

وفي صبيحة اليوم الثاني ذهبت ورقاء لعيادة معاد من جديد، فوجدتها أحسن حالاً ممّا كانت عليه وقد رحبّت بها وشكرت لها زيارتها الماضية فقالت ورقاء:

- لقد عزّ عليَّ جدّاً أن أراك في تلك الحالة سيما عندما تحسّست جبينك فوجدته يلتهب من الحرارة، فقد أحسست بأنني أُشاركك الألم ولكن بشكل روحي.

فابتسمت معاد وقالت: يبدو أن أعصاب الحس لديك مرهفة جدّاً يا ورقاء؟

فضحكت ورقاء وقالت: إنه أمر طبيعي وبسيط ولا يحتاج إلى مزيد في الحساسية.

قالت معاد: صحيح إنه أمر طبيعي، ولكنه ليس بالأمر البسيط كما تتصوّرين، فإن عملية الإحساس وسرعتها أمر يسبقه العديد من العمليات داخل الجسم.

فاستغربت ورقاء وقالت: العديد من العمليات، وكيف؟

قالت معاد: هل تريدين أن أشرح لك ذلك بالتفصيل أم باختصار؟

قالت ورقاء: كما تحبِّين يا معاد.

قالت معاد: تنتشر على مستوى سطح الجلد شبكة هائلة يا ورقاء ومهمّتها هي نقل الأخبار التي تصلها من مختلف طرق الحس، وتنتهي جميع هذه الألياف العصبية التي تتشكّل منها الشبكة تنتهي بجسيمات خاصّة ينفرد كل منها بنقل حسّ معيّن محدّد، فهناك مثلاً جسيمات تنقل الحر، وجسيمات تنقل البرد، وأُخرى تحسّ الألم، وهكذا نجد أن كل جسيمة من هذه الجسيمات تنفرد بمهمّة خاصّة لا تؤدِّيها سواها.

قالت ورقاء: وما هو عدد هذه الجسيمات يا معاد؟

قالت معاد: تتصاعد أعداد هذه الجسيمات في سطح الجلد إلى أعداد هائلة.

قالت ورقاء: فما هو عدد أجهزة إحساس الألم مثلاً؟

قالت معاد: هناك (٣ - ٥) ملايين جهاز حسّاس للألم و(٣٠٠, ٠٠٠) جهاز حسّاس للحر و(٥٠٠, ٠٠٠) جهاز حسّاس للمس والضغط.

قالت ورقاء: وما هي هذه الأجهزة يا معاد؟

قالت معاد: مهمّتها هي نقل التنبيهات عن طريق الأعصاب الحسّية حتّى توصلها إلى المنطقة الخلفية من النخاع الشوكي حيث تبلغ الأخبار إلى الخلايا. وعند ذلك تقوم الخلايا بالاتصال بالمنطقة الأمامية من النخاع الشوكي حيث ترقد هناك مفاتيح السيطرة على العضلات، ولهذا تجدين أن اليد إذا لامست الحرارة ترتدّ عنه بسرعة تبلغ جزءاً من مائة من الثانية، هذه السرعة الهائلة التي تمرّ بنا أو نمرّ بها دون أن نعلم أي تخطيط هائل جبّار سبق هذه العملية البسيطة ودون أن نستشعر الصغار أمام عظمة الخالق المبدع المدبِّر.

كانت معاد تتحدّث وورقاء تستمتع إليها بانجذاب وقد جلست على الكرسي الذي أمامها مصغية بكل انتباه. وودّت لو أن معاداً بقيت تتكلّم أكثر، وعندما سكتت أرادت أن تطلب منها الاستمرار ولكنها خشيت أن ترهق صحّتها فبقيت ساكتة تنظر إليها في إعجاب وإكبار ثمّ قالت:

إن حديثك شيِّق يا معاد فإنني محرومة ممّن يزوِّدني بالمعلومات الدينية سيّما عن إثبات وجود الخالق، فليس لديَّ من يعنيني على مجابهة الشُّبه والتشكيكات مع كثرة ما يواجهني منها في مختلف المناسبات، وليتني كنت مثلك لكي أفهم ما تفهمين وأعرف من أمر ديني وخالقي ما تعرفين، لقد كنت أتمنّى أن أدخل الكلية الطبية ولكن درجاتي لم تساعدني على ذلك.

فابتسمت معاد وقالت: إنّ معرفتي لا تستند إلى الكلية الطبية، فلو لم أكن أعرف لما استفدت شيئاً ممّا قرأت هنا.

قالت ورقاء: إذن فأنت كنت تعرفين المزيد عن دينك قبل أن تدخلي الكلية؟

قالت: نعم، لأنّ أخي كان يوجّهني ويدفعني إلى القراءة والمطالعة منذ الطفولة، وقد ساعدني على تفهّم الكثير ممّا كان يعسر عليَّ.

ولم تعلم ورقاء لماذا خطر لها أن تسأل قائلة:

- أي إخوانك هذا الذي تعهّدك بالتربية والتوجيه؟

فابتسمت معاد وقالت: ليس لي إلاّ أخ واحد، وهو الذي ما زال يتعهّدني بكل شيء، حتّى بالتمريض إذا مرضت، إنه كل شيء بالنسبة لي.

قالت ورقاء: أدامه الله لك وأدامك له يا أُختاه.

قالت معاد: تصوّري أنه عطّل عيادته من أجلي خلال أيام شدّة حماي!

وهنا قالت ورقاء: إذن فهو ليس معك هنا في نفس المستشفى؟

قالت: كلاّ فهو قد أكمل ما عليه وفتح له عيادة خاصّة.

عند هذا لاحظت ورقاء أن مدّة غيابها عن جدّتها قد طالت أكثر ممّا ينبغي، فنهضت لكي تودّع معاداً وهي تقول:

- يعزّ عليَّ أن أتركك وحيدة ولكن عليَّ أن أذهب من أجل جدّتي.

قالت معاد: لا عليك يا عزيزتي، فإن سناداً يأتي بعد قليل إن شاء الله.

قالت ورقاء: وسوف أزورك غداً أيضاً.

قالت معاد: سوف أعود صباح غد إلى غرفتي فتفضّلي إلى هناك.

قالت ورقاء: ولكنني سوف أُتعبك بالأسئلة يا معاد.

قالت معاد: إن تعبك راحة يا ورقاء، فتعالي إليَّ متى أحببت وستجدينني سعيدة بزيارتك يا أُختاه.

فضحكت ورقاء وقالت: إذن فأستودعك الله إلى لقاء غد إن شاء الله.

□ □

وفي عصر اليوم الثاني ذهبت ورقاء إلى عيادة معاد في غرفتها الخاصّة بقسم الطبيبات، فاستقبلتها معاد مرحّبة.

فقالت ورقاء: كيف أنت اليوم يا معاد؟ ومتى سوف تمارسين أعمالك لكي تعودي إلينا من جديد؟

فقالت معاد: إنني اليوم بخير ولكنني أشعر بشيء من الألم في منطقة الطحال وأخشى أن يكون ذلك من تأثير الانفلونزا، ولهذا فأنا أنتظر نتيجة التحليل.

قالت ورقاء: أرجو أن يكون الطحال سالماً. ثمّ إنّني أتصوّر أن آلام الطحال ليست مهمّة جدّاً.

فابتسمت معاد وقالت: ولكن الطحال منطقة مهمّة جدّاً في جهاز جسم الإنسان، لأنّ الله عزّ وجلّ لم يخلق عضواً من أعضاء جسم الإنسان دون أن يكون له أكبر الأثر في سلامة الجسم.

قالت ورقاء: فما هو أثر الطحال يا ترى؟ وما هي مهمّته التي جعله الله تبارك وتعالى أميناً على أدائها؟

قالت معاد: إنّه مقبرة سيارة مع الجسم تستقبل جثث الكريات الحمر عندما ينتهي عمرها الذي لا يطول عادة أكثر من شهرين، واللّطيف في عملية الدفن هذه أن ذرة الحديد التي تنقل الكريات حين موتها إلى الطحال تدفنها هناك ثمّ تعود خالية.

قالت ورقاء: ولكن لماذا تعود هي إذن؟

قالت معاد: لأنّ الجسم يستفيد منها في عملية بناء الكريات الحمر الجديدة.

قالت ورقاء: ولكن هل أنّ ذرّة الحديد هذه هي التي تصنع الكريات الحمر؟

قالت معاد: كلاّ، إنّها عنصر يستفاد منه في صنع الكريات، أما المصنع الرئيسي للكريات الحمر وحتى البيض منها فهو النخاع الموجود في باطن العظام، وهكذا ترين عظمة هذا المصنع الهائل الذي يسمّى بجسم الإنسان وكيف أن كل عضو منه ينفرد بمهمّة خاصّة وعمل معيّن.

قالت ورقاء: حدّثيني عن ذلك يا معاد.

قالت معاد: سوف أُعطيك مثلاً عن ذلك، وهو أن جهاز الدوران الذي ينقل

الغذاء والأوكسجين إلى الأنسجة العطشى له مهمّة ثانية في الوقت نفسه وهي إرجاع بقايا الاحتراق ونفايات الغذاء.

قالت ورقاء: إذن فهو يقوم بمهمّة المعبِّد للطرق والمسهِّل للمواصلات بين الأمعاء؟

قالت معاد: نعم إنه كذلك، وهكذا أيضاً جهاز التنفس الذي نعيش معه العمر دون أن نلتفت إلى عظمة خالقه المخطِّط والموجِّه له، فهو يستورد الغازات الضرورية للبدن مثل الأوكسجين ويطرح غاز الفحم. وهذه عملية تنقية للدم من كل ما لعلّه يعلق له من أكدار، يستورد ما يحتاجه البدن، ويصدِّر ما لا حاجة له به، إنها الدقة الهائلة في الخلق والرحمة المعطاء في تدبير شؤون الحياة.

قالت ورقاء: زيديني بالله عليك يا معاد.

قالت معاد: إننا نأكل كل ما يلذّ لنا، ونشرب كل ما يطيب لنا شربه غافلين عما هيّأته لنا الرحمة الإلهية من مموِّن مخلص أمين ينقل إلى الأمعاء النشويات، والبروتينات، والدسم، والماء والأملاح المعدنية، والفيتامينات، وكل هذه هي ممّا يحتاجه جسم الإنسان، ومن ناحية ثانية لا يغفل هذا المموِّن الأمين عن إلقاء الفضلات التي لا يحتاجها البدن خارج الحدود.

قالت ورقاء: وما هو هذا المموِّن يا معاد؟

قالت معاد: ليس هذا المموِّن الأمين سوى الجهاز الهضمي لدى الإنسان.

وكانت ورقاء تستمع إلى معاد باهتمام بالغ، فلما سكتت أردفت قائلة:

- والكبد ما هي وظيفته إذن؟

قالت معاد: الكبد هو مركز الجمارك العام في جسم الإنسان.

قالت ورقاء: وكيف؟

قالت: إنه ينقِّي كل ما يدخل إلى البدن عن الطريق الهضمي فلا يسمح إلاّ بمرور ما هو مرغوب فيه وصالح للجسم. إنه من خطوط الدفاع المهمّة التي

خلقها الله تبارك وتعالى للدفاع عن سلامة هذا الجسم القاصر الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً.

وعند ذلك سكتت معاد وكأنها أرادت تبديل مجرى الحديث. فأعطت لورقاء فترة سكوت وتفكّر ثمّ قالت:

- والآن حدِّثيني عن صحّة جدّتك يا ورقاء.

فانتبهت ورقاء من استغراقتها الفكرية وقالت:

- إنها أحسن حالاً والحمد لله، ولهذا تمكّنت من تركها وأتيت إليك، وقد ألحّت عليَّ أن أعود إلى الدوام في الأُسبوع القادم ولكنني ما زلت متردِّدة في موضوع الدوام.

قالت معاد: لقد طال انقطاعك عن الدراسة يا ورقاء، وأنا أيضاً أُرجِّح عودتك إلى الدوام، وسوف أحاول أن أمر أنا عليها خلال غيابك، فليس من الصالح تخلّفك عن الدراسة أكثر من هذا.

قالت ورقاء: إن جدّتي المسكينة وفّرت لي جميع أسباب الراحة، وبذلت لي المزيد من الحب والحنان، ولكنني ما زلت أشعر بالوحدة والغربة في أمثال هذه الحالات، لأنني البنت الوحيدة لابنها الوحيد الذي توفي شاباً وكان عمري حين وفاته سنة واحدة، أمّا والدتي فقد كانت قد توفيت على أثر ولادتي مباشرة.

قالت معاد: إذن فأنت بدون أُخت، وأنا بدون أُخت، فلتكن كل منّا أُختاً للثانية إذا وافقتِ على ذلك.

فأشرق وجه ورقاء وقالت في لهفة:

- أتراك جادّة فيما تقولين؟ هل تقبلين أُخوّتي يا معاد؟

قالت معاد: وأكون سعيدة بها، فهل توافقين أنت؟

قالت ورقاء: نعم وكيف لا!

قالت معاد: إذن فقد اتفقنا يا أُختاه، والآن إن عندي لك كتاباً حبّذا لو قرأتيه.

قالت ورقاء: الحقيقة أنني أصبحت أُفكِّر جدِّياً بالمطالعة، ولكنني لم أُجربها لحد الآن.

قالت معاد: إذن جرِّبي مع هذا الكتاب، ثمّ أعطتها كتاباً قرأت ورقاء اسمه فوجدته (التكامل في الإسلام) ولاحظت أنه الجزء السابع منه، فأخذته شاكرة ثمّ ودّعت معاداً وذهبت إلى جدّتها.

ومضت الأيام، وكانت معاد قد عادت إلى عملها واستمرّت تمرّ على ورقاء في كل يوم وتعنى بجدّتها حال ذهابها إلى الكلية، وكانت ورقاء قد قرأت كتاب (التكامل في الإسلام) وطلبت الأجزاء الباقية منه، لأنّه شعرت ولأوّل مرّة بالرغبة في استيعاب الكتاب، فكانت تختلس الوقت بين دوامها وتمريض جدّتها لتقرأ من الكتاب بعض المواضيع، وهي في كل ذلك تسأل معاداً عمّا يخطر لها حول ما تقرأ.

ولهذا أخذت تشعر بأنها أصبحت مشدودة إلى معاد فكرياً، وروحياً، وأن من العسير عليها أن تبتعد عنها بعد الآن.

وفي يوم من الأيام كانت ورقاء تجلس أمام عاد تستمع إليها وهي تتحدّث عن عظمة الخالق التي تظهر بعض آثارها في دقة خلق الإنسان فقالت لها:

- هل حقّاً يا معاد أن خلايا جسم الإنسان تتغيّر وتتبدِّل؟

قالت معاد: نعم إن الإنسان يتغيّر بشكل مستمر؛ الاخلاط، والخلايا، والكريات، والشحوم، والبروتينات، والماء، إلى آخر ما في جسم الإنسان من خلايا، وحتّى بالنسبة للخلايا العصبية فإنها تتغيّر وتتبدّل أيضاً، وعلى العموم فإن الجسم كلّه يتجدّد كل فترة قد تقدّر ببضع سنين ولا تزيد بحال على عشر سنين.

وهنا قالت ورقاء مستغربة: حتّى الخلايا العصبية تتبدّل أيضاً؟ ولكن كيف؟ أليست الذاكرة ترتبط بالخلايا العصبية؟ فإذا تبدّلت كان معنى ذلك أن الإنسان يفقد ذاكرته وكل معلوماته السابقة؟

قالت معاد: وهذا هو جانب مدهش من جوانب الخلق، ونحن عن هذا

الطريق نستدل على أن الذاكرة والذهنية الإنسانية عموماً ليست ظاهرة مادية ولا يمكن تفسيرها كما يقول الماديون، وإنما هي ظاهرة روحية مجرّدة عن المادة ولا تخضع لقوانينها من التبدّل والتغيّر والتحلّل.

وهكذا تلاحظين أن الذاكرة لو كانت مجرّد ظاهرة مادية في الخلايا العصبية ومرتبطة بها لنسي الإنسان كل شيء بعد مضي فترة من الزمن تبعاً لتغيّر تلك الخلايا العصبية، وأصبح عليه أن يتعلّم حتّى اسمه واسم أبيه من جديد، في الوقت الذي نجد أن الإنسان العادي يجمع في كل يوم من الصور التي يراها فقط مقدار نصف مليون صورة، تجتمع كلّها في مستودعات الذاكرة العظيمة، ومعنى ذلك أن ما يقرب من عشرة مليارات من الصور تختزن في مستودعات الذاكرة خلال متوسط حياة الإنسان العادي، هذا بالاضافة إلى المسموعات، وغيرها ممّا يلمس ويحسّ.

وكانت ورقاء تستمع بانجذاب، وعندما سكتت معاد قالت:

- إنها أرقام هائلة لا يكاد يتصوّرها الإنسان.

قالت معاد: نعم إنها أرقام هائلة، وقد قدّر البعض أن ما تخزنه الذاكرة يتسع إلى تسعين مليون مجلّد زاخر بالمعلومات.

فردّت ورقاء تقول: تسعين مليون مجلّد!!

قالت معاد: نعم، ولك أن تعرفي بعد هذا دقّة الخلق وحكمة الخالق.

قالت ورقاء: ألا يمكن لنا إثبات وجود الخالق للمنكرين عن هذا الطريق يا معاد؟ أليس في خلق الكون وما فيه حجّة بالغة لنا قبالهم يا أُختاه؟

فابتسمت معاد ثمّ قالت: إنها حجج بالغة يا ورقاء، ولكن فيهم مَنْ إذا أردنا أن نثبت وجود الله له عن طريق الاستشهاد بخلق الكون وما فيه، قال إنه يشك بوجود الكون ولا يعترف به كموجود حقيقي لم يصوِّره الوهم والخيال!

قالت ورقاء: ومَنْ هم هؤلاء يا معاد؟

قالت: إنهم المشككون الذين ينكرون وجود كل شيء حتّى أنفسهم، إنهم يتحدّثون ويفكِّرون بشكل يدعو الإنسان إلى فقدان الشعور بقيمة ما حوله،

ولهذا فهو يعيش حياة الوهم والخيال ما دام لا يجد في الكون إلاّ وهماً وخيالاً.

قالت ورقاء: وما هو موقفنا من هؤلاء يا معاد؟

قالت: إننا نتمكّن أن ندحض شبههم ببساطة.

فتساءلت ورقاء في لهفة: ولكن كيف؟

قالت معاد: إن المشكّكين يقولون أن جميع القضايا مشكوك فيها، أليس كذلك؟

قالت ورقاء: نعم.

قالت معاد: إذن دعينا نعرف ماذا يقولون عن هذه القضية نفسها القائلة أنّ كل القضايا مشكوك فيها، فهل يشكّون فيها أو لا يشكّون؟

قالت ورقاء: طبعاً إنهم لا يشكّون فيها لأنهم يؤكّدونها.

قالت معاد: إذا كانوا لا يشكّون فيها فقد اعترفوا إذن بأن بعض القضايا غير مشكوك فيها وهذا يناقض مبدأهم في الشك، وإذا كانوا يشكّون في هذه القضية أيضاً فهذا تنازل منهم عن مبدئهم ويعتبر تخلّياً عن تبنّي مبدأ الشك.

قالت ورقاء: هذا نقاش رائع، فزيديني بالله عليك.

قالت معاد: يمكنك يا أُختي أن تسأليهم منذ البدء هل تفترضون أنّ موقفنا الذي يتحلّى باليقين يتعارض مع موقفكم الذي يتّسم بالشك في كل شيء أوَلا ترون تعارضاً بين الموقفين؟ فإن سلّمتم بالتعارض والتناقض بينهما فهذا يعني أنّكم تسلّمون بأن النقيضين لا يمكن أن يجتمعا. وهذه إذن حقيقة لم يرق إليها شكّكم، وبذلك يثبت أن بعض الحقائق يجب التسليم بها، وإذا لم تسلّموا بوجود أي استحالة في أن يكون الموقفان معاً على صواب فلماذا تعارضوننا وتعتبروننا في إيماننا مخطئين؟ أليست هذه الحجّة رائعة ياورقاء؟

قالت ورقاء: نعم إنها رائعة ومنطقية تماماً.

قالت معاد: وإن هناك بعض الحجج الأُخرى لا يسع الوقت لذكرها الآن، ولهذا سوف أُأجّلها إلى اللقاء القادم إن شاء الله.

قالت ورقاء: إنّني أُقدِّر ظروفك ومسؤولياتك يا معاد، وأرجو ألاّ يطول انتظاري للّقاء الثاني، فأنا جد مشوقة إلى تكملة الحديث.

فضحكت معاد وقالت: إنه لن يتعدّى ظهر يوم غد إن شاء الله يا ورقاء، وقد أتيت لك بكتاب أرجو أن تطالعي فيه خلال هذه الفترة، ثمّ ناولتها الكتاب وذهبت إلى دورتها المعتادة على المرضى.

وفي عصر اليوم الثاني جلست ورقاء تنتظر حضور معاد وأمسكت بيدها كتاباً تقرأ فيه فترة ثمّ تستسلم للتفكير فترة أُخرى، حتّى أتت معاد، فاستقبلتها بحرارة وجلست أمامها تنتظر تكملة الحديث، ولما وجدت أن معاداً لا تريد أن تتطرّق إلى حديث أمس قالت لها:

- أكملي حديثك عن أفكار المشكِّكين.

فابتسمت معاد وقالت: أراك مهتمّة جدّاً بهذا الموضوع؟

قالت ورقاء: نعم لأنني قرأت وسمعت الكثير عنه.

قالت معاد: نحن نتمكّن أن نقول لهم متسائلين: إنكم آمنتم بمبدأ الشك هذا من خلال برهان أم لا؟ فإذا قالوا أننا آمنّا به من دون برهان، فلن تبقى لادعاءاتهم قيمة ما دامت لا تستند إلى برهان.

قالت ورقاء: وإذا اعترفوا بوجود برهان يدعوهم إلى الإيمان بمبدأ الشك؟

قالت معاد: أما إذا اعترفوا بوجود برهان جرّهم إلى الإيمان بمبدأ الشك، فنعود لنسألهم: هل أن بين البرهان الذي جرّكم إلى مبدأ الشك وبين النتيجة التي حصلت من ذلك البرهان صلة أم لا؟

قالت ورقاء: هبيهم قالوا بعدم وجود صلة بين النتيجة والبرهان.

قالت معاد: أمّا إذا قالوا بعدم وجود صلة بين البرهان والنتيجة التي هي (الشك في كل شيء)، فنحن نقول لهم: إذن فأي قيمة تبقى للأدلّة على هذه النتيجة (نتيجة الشك) ما دامت لا تمّت للبرهان بسبب؟

قالت ورقاء: هذا إذا لم يعترفوا بوجود صلة بين النتيجة والبرهان، أمّا إذا اعترفوا بوجود صلة فماذا؟

قالت معاد: أمّا إذا اعترفوا بوجود صلة بين البرهان ونتيجته التي هي الشك في كل شيء فنحن نقول لهم:

إذن فإن البرهان هو العلّة والسبب الذي أدّى إلى هذه النتيجة! ومعنى هذا أنكم آمنتم بضرورة وجود علّة، ومدلول هذا الاعتراف هو الاعتراف بوجود قانون العلِّيّة (أي قانون السّببيّة)، إذن فهناك شيء موجود غير مشكوك فيه ألا وهو قانون العلِّيّة.

قالت ورقاء: وإذا حاولوا نفي قانون السّببيّة؟

قالت معاد: إنهم إذا حاولوا نفي السّببيّة أي (العلِّيّة) فنفهم هذا منهم على شكلين:

أولاً: أن هذا النفي يستند إلى دليل.

ثانياً: أنه لا يستند إلى دليل.

قالت ورقاء: فإن قالوا أنه لا يستند إلى دليل؟

قالت معاد: نقول لهم: إنه فقد قيمته إذن لافتقاده الدليل مع حاجته إليه.

قالت ورقاء: وإذا قالوا أنه يستند إلى دليل؟

قالت معاد: أمّا إذا قالوا أنه يستند إلى دليل فإن معنى ذلك الاعتراف منهم بقانون العلِّيّة؛ إذا اعترفوا بوجود سبب لهذا البرهان حيث قدّموا هذا السبب كدليل لصدق مدّعاهم.

وعند هذا سكتت معاد فقالت ورقاء:

- هل تسمحين لي أن أكتب خلاصة هذا النقاش؟

قالت معاد: نعم ومن الصالح أن تكتبي لكي لا يذهب عن بالك بعض نقاطه.

فأخذت ورقاء تكتب حتّى فرغت من الكتابة ورفعت رأسها نحو معاد وكأنها تستزيدها من الحديث، ولكن معاداً قالت:

- لقد جئتك في مهمّة خاصّة يا ورقاء، راجية منك مساعدتي عليها.

قالت ورقاء: إنني أُرحّب بكل مساعدة منّي لك.

قالت معاد: إنها تتعلّق بزواج أخي سناد، فهل أنت مستعدة لمساعدتي يا ورقاء؟ لأنني مهتمّة جدّاً بهذا الموضوع.

قالت ورقاء: إذن، وما دام الأمر يهمّك فإنني سوف أُساعدك بكل جهدي يا أُختاه، ولكن كيف؟ وعن أي طريق؟

قالت معاد: إن أخي سناداً عزيز عليَّ جدّاً وهو جدير بكل محبّة وإعزاز إذ أنه إنسان مؤمن ويجسِّد في سلوكه جميع معاني الإيمان، ولهذا فهو رائع في كل شيء، ومحبّب إلى كل قلب، ومريح لكل إنسان، وأنا منذ مدّة أتمنّى له أن يحصل على زوجة تسعده وتصبح له قرينة بكل شيء وقد وجدتها أخيراً والحمد لله.

فردّت ورقاء قائلة: الحمد لله.

قالت معاد: وقد كنت أُريد أن أطمئن إلى اقتناعه بها لكي أصبح واثقة من سعادة الطرفين وترحيبهما بهذه الوصلة.

وهنا ردّت قائلة بصوت تشوبه اللّهفة: وهل أقتنع؟

قالت معاد: نعم ولم يبق سوى اقتناعها هي، وهذا ما أُريد مساعدتك عليه.

قالت ورقاء: وكيف؟

قالت معاد: أن تحاولي إقناعها بصلاحه لها معتمدة بذلك على شهادتي بحقه، وأنا ضمينة لك أنك سوف لن تندمي على ذلك أبداً.

وكانت ورقاء تستمع في حيرة وارتباك ثمّ قالت:

- ولكن مَنْ هي؟ وأين يمكنني أن أجدها؟

فابتسمت معاد وقالت: ألا يمكنك أن تحزري مَنْ تكون؟

قالت ورقاء: كلاّ...

قالت: خمِّني يا ورقاء.

قالت ورقاء: لا أتمكّن أن أُخمِّن.

قالت معاد: إنّك تعرفينها أكثر من كل إنسان، وهي قريبة إليك وقريبة جدّاً يا ورقاء، فهل عرفت مَنْ تكون؟

فأطرقت ورقاء وقد علت وجهها حمرة الخجل ولم تجب.

قالت معاد: أراك عرفت الآن مَنْ هي يا ورقاء. أفلا يحق لي أن أطلب منك المساعدة في أمرها؟

ولم تجب ورقاء. فعادت معاد تقول:

- ما لي أراك ساكتة يا ورقاء؟ ألا تثقين فيَّ بإبداء رأيك يا عزيزتي؟ ألم نتّفق أن نحكون أُختين؟ ثقي أن أمرك يهمّني كما يهمّني أمر سناد، وقد درست هذا الموضوع من ناحيتك كما درسته من ناحيته هو، ولو لم أكن أعرف فيه الصّلاح والخير لما عرضته عليك، ولك أن تسألي عن سناد كل من يعرفه لكي يشهد لك بحقه.

هنا رفعت ورقاء رأسها وقالت في خجل:

- إنّ شهادتك وحدها كافية يا معاد، ولكنني قد فوجئت ولم أكن أتوقّع هذا، ولهذا فإنني سوف أُفاوض جدّتي في الأمر.

قالت معاد: لكن المهم أن تكوني أنت مقتنعة فيه يا ورقاء، فهل أنت مقتنعة؟

فكادت ورقاء أن تقول: نعم، لأنها كانت تحسّ بكامل الاقتناع والارتياح، ولكنها وجدت أن من الخير لها أن تأخذ فرصة للتفكير أكثر لكي يكون جوابها بعيداً عن الارتجال فقالت:

- أعطيني فرصة للتفكير يا معاد.

قالت معاد: طبعاً، فإن من حقك ذلك يا ورقاء. ولكن ما هو مدى هذه الفرصة؟

قالت: يوم أو يومان.

قالت معاد: لك ذلك يا عزيزتي، وأرجو أن يقودك تفكيرك لما فيه الخير.

فضحكت ورقاء وقالت: هل تعلمين أنني لم أُعوِّد نفسي على التفكير في أُموري الخاصّة من قبل، لأن جدّتي عوّدتني أن أتّكل عليها بكل شيء؟

قالت معاد: إذن جرِّبي تفكيرك المستقل في هذه المرّة.

قالت ورقاء: نعم سوف أُجرِّب، والتجربة هي طريق كل معرفة كما يقولون.

فابتسمت معاد وقالت: ولكن هذه القاعدة غير صحيحة يا ورقاء.

قالت ورقاء: وكيف؟؟ أَلَيْسَت التجربة هي الأساس لكل معرفة وتصديق؟

قالت معاد: كلاّ. وليست هذه القاعدة سوى دعوى من ادعاءات التجريبيين الذين لا يريدون أن يؤمنوا بتصديق أي إلاّ بتجربة مسبقة تؤكِّدها، متجاهلين أن إيمانهم هذا هو دليل على إمكان الإيمان بقضية خالية من التجربة.

فظهر الاهتمام على ورقاء وقالت: هل لك أن تشرحي لي ذلك يا أُختاه؟ فإن لدينا مُعيدة في قسم الميكانيك ما برحت تؤكِّد هذه القاعدة بمناسبة وبدون مناسبة.

قالت معاد: سوف أشرح لك ذلك غداً إن شاء الله لأن وقتي قد انتهى وعليَّ أن أبدأ بتفقّد المرضى بعد دقائق.

جلست ورقاء بعد انصراف معاد تستعيد كلماتها فتستشعر الغبطة والسرور، وحدّثت نفسها قائلة:

أتراني سوف أستجيب لمعاد، فأكون إلى جانب أخيها آخذ عنه كما أخذت هي عنه من قبل؟

أتراه سوف يأخذ بيدي ليفتح أمامي أبواب المعرفة والهداية كما فتحها أمام معاد؟ لكم سوف أكون سعيدة لو تمّ لي ذلك، وكادت تلوم نفسها على إرجاء اعطاء الموافقة وهي لا تجد ما يحول دونها، لأنه وعلى ما يبدو لها متكامل الجوانب.

□□

وهكذا بقيت ورقاء تنسخ تصوّراتها المشرقة حتّى استيقظت الجدّة من نومها، فنهضت نحوها وقدّمت إليها ما كانت تحتاج إليه، ثمّ جلست إلى جانبها تحاول أن تخبرها بما تحدّثت به معاد فقالت:

- لقد كانت الدكتورة معاد هنا يا جدّتي.

قالت الجدّة باقتصاب: طيِّب...

فأردفت ورقاء تقول: وقد تحدّثت معي في موضوع خاص.

وهنا نظرت الجدّة نحوها باهتمام وقالت: موضوع خاص، وما هو؟

قالت ورقاء في تلعثم: إنه موضوع خطبة.

قالت الجدّة في شبه حدّة: وما أنت وذاك؟

قالت: أنّه أمر يخص أخاها يا جدّتي.

فأجابت الجدّة بنفس الشدّة قائلة: وما هي علاقتك بأخيها؟

فاستغربت ورقاء هذه الشدّة من جدّتها وقالت: إنها كانت تعرض عليَّ خطبتي لأخيها يا جدّتي.

وهنا ظهر الرعب على وجه الجدّة وقالت: وبماذا أجبت يا ورقاء؟

فارتبكت ورقاء وقالت: لقد أرجأت الأمر إلى ما بعد مشورتك يا جدّتي.

فأدارت الجدّة وجهها نحو الجدار وهي تقول: كلاّ إن هذا أمر لا ينبغي أن يكون أبداً، إنه غير ممكن يا ورقاء...

فانتفضت ورقاء انتفاضة ألم وقالت: لماذا يا جدّتي؟

فسكتت الجدّة ولم تجب.

فألحّت عليها قائلة: لماذا تقولين لي أن هذا شيء غير ممكن؟

ولكن الجدّة بقيت معتصمة بالصمت.

فأردفت ورقاء تقول: أرجوك يا جدّتي أن تشرحي لي السبب لأنني مقتنعة بالموضوع اقتناعاً كاملاً.

ولكن الجدّة استمرت ساكتة لا تجيب. فعادت ورقاء تقول:

- لماذا لا توضِّحين لي الأمر يا جدّتي؟ فلعلّك مخطئة في تشخيصك هذا؟

وهنا هزّت الجدّة رأسها في اصرار وهي تقول:

- كلاّ فإنني لست مخطئة وأنا أعرف ماذا أقول يا ورقاء، وها أنا أقول لك من جديد أن تنصرفي عن التفكير في هذا، لأنه لا يمكن أن يتم، ولهذا فأنا لا أُريد أن تعودي إلى ذكره ثانية.

فسكتت ورقاء لحظات ثمّ قالت:

- ولكن أليس من حقّي أن أعرف السبب؟ فليس من السهل عليَّ أن أُحدِّد مستقبلي نتيجة أمر لا أعرف منشأه.

وهنا قالت الجدّة: نعم إن من حقك ذلك يا ورقاء، فهل أنت مستعدّة للسماع؟

قالت ورقاء: وراغبة فيه أيضاً.

قالت: ولكنك بعد سماع ما أقول سوف يتحتّم عليك أن تقطعي علاقتك مع معاد أيضاً.

فردّت ورقاء في ذعر قائلة: أقطع علاقتي مع معاد، وكيف لي بذلك وقد أصبحت بالنسبة لي ضرورة من ضرورات الحياة؟

قالت الجدّة: إذن فلماذا تريدن أن أقول؟

فسكتت ورقاء لحظة ثمّ قالت: قولي ما لديك يا جدّتي فأنا على استعداد لاستماعه مهما كان.

قالت الجدّة: إذن فاسمعي ماذا أقول؛ إنك تعلمين أن أباك قد توفي وأنت صغيرة.

فخفق قلب ورقاء بشدّة وقد توقّعت أن تسمع أحاديث غير مريحة ثمّ قالت:

- نعم إنني أعلم ذلك.

قالت الجدّة: ولكنك لا تعلمين السبب في وفاته.

قالت: كلاّ، ولا أعرف سبباً لموته سوى حياته.

قالت الجدّة: كان هناك رجل تعرّف إليه وفرض عليه صداقته واستأثر بثقته

حتّى اتفقا أن يعملا معاً، فأقاما معملاً لصنع الأواني البلاستيكية، وتمّ إنشاء المعمل وكان أبوك سعيداً بذلك مرتاحاً إلى عمله فيه، محدّثاً نفسه بالكثير من المشاريع، وقد اتفقا أن يكون المال من أبيك والعمل على ذاك لما ادّعاه من خبرة مسبقة في الموضوع.

ولم يكن أبوك يملك المال المطلوب، فأراد أن يبيع نصف الأرض الزراعية التي يملكها، ولكن النصف كان أقل من المقدار المسموح به للبيع في ذلك العهد.

ولهذا فقد اشترى الاقطاعي حامد أفندي نصف الأرض على أن يكتبها جميعها باسمه، وأن يعطيه نصف المحاصيل عن تراضٍ، وأن يكون له حق استرجاعها بالقيمة التي باعها متى ما أراد.

وأنت تعلمين استغلال حامد أفندي وجبروته في هذه المعاملات، ولهذا فلم يكن في وسع أبيك أن يبيعها لسواه وهي ضمن الأرض التي تقع تحت سيطرته.

وكان نصف الأرض هذا لا يكفي بمتطلبات المعمل، ولهذا فقد رهن هذا البيت عند حامد أفندي أيضاً على أن يستوفي ذاك حقوق الرهن من محاصيل نصف الأرض التي في حوزته.

وعلى كل حال فقد تمّ إنشاء المعمل، وكان هو وصاحبه يتناوبان على حراسة المعمل في الليل.

وفي صباح يوم من الأيام ذهبتُ إلى المعمل مبكِّرة لحاجة عرضت لي، فوجدتُ الناس متجميعن على باب المعمل وسيارات الشرطة تقف أمام الباب، فاندفعتُ إلى الداخل مرعوبة، وهناك عرفتُ أن أوّل عامل دخل المعمل وجد أباك جريحاً مضرّجاً بدمائه وقد أُغمي عليه، ويبدو أن القاتل كان قد حسبه ميتاً.

فدخلتُ الغرفة حيث كان رجال الشرطة يدرسون الموقف وشريكه واقف يبكي بدموع التماسيح، فانحنيت عليه ألتمس منه نفساً أو كلمة، وسرعان ما تمّ نقله إلى المستشفى فذهبتُ معه إلى هناك، واتفق أن كنت إلى جانبه وحدي وإذا به يفتح عينيه وينظر إليّ ثمّ قال أنه فلان، ثمّ أغمض عينيه إلى الأبد.

وسكتت الجدّة وقد تهدّج صوتها من التأثّر.

فسألتها ورقاء من خلال دموعها التي انهمرت لتأثّرها من حديث جدّتها، سألتها قائلة بلهفة:

- وما هو الاسم الذي ذكره يا جدّتي؟

قالت: إنه عبد المجيد محمود الراجي!

فصدرت عن ورقاء آهة جريحة وقالت معيدة كلمات جدّتها:

عبد المجيد محمود الراجي؟ والد معاد وسناد؟

قالت الجدّة: نعم، إنه هو، وقد أدليت بشهادتي في وقتها، ولكنها لم تكف، وقد أثبت بُعده عن مسرح الجريمة بمختلف وسائل الغش والخداع فسُجِّلت الحادثة على أنها حادثة قتل في سبيل الاختلاس من قِبَل مجهول.

قالت ورقاء: وهل حصل اختلاس أيضاً؟

قالت: طبعاً، وقد اختلس مع المال الذي كان موجوداً في الصندوق الحديدي هناك الأوراق الرسمية للاتفاق الذي بينهما، والأوراق التي تخصّ بيع نصف الأرض وحق استرجاعها، وأوراق تصفية حساب رهن هذا البيت، وهكذا خسرنا كل شيء حتّى حق المطالبة بأرضنا، وحق ملكية هذا البيت، فإن لدى حامد أفندي أوراقاً رسمية تؤيِّد حقّه في الأرض والرهان، في الوقت الذي لا نملك نحن ما يؤيِّد الاسترجاع، وما صبر علينا كل هذه المدّة إلاّ لغاية لا يعلمها إلاّ الله.

وقد كنتُ أعرف أن لدى عبد المجيد هذا توأمين باسم سناد ومعاد، ولهذا سألت معاداً عن اسم أبيها فتجاهلت السؤال، ولكنني بعد ذلك عرفتُ اسمه من الممرضات، فهل تجدين أن من الممكن لك أن تتزوّجي إبن قاتل أبيك يا ورقاء؟

فأجابت ورقاء في مرارة قائلة: كلاّ سوف لن أتزوّجه يا جدّتي، ولكنني لن أقطع علاقتي مع معاد.

قالت هذا وقد بلّلت الدموع وجهها وهي تفكّر في معاد أكثر ممّا تفكّر في سناد.

مرّ اليوم كئيباً حزيناً على ورقاء. وفكّرت كثيراً وهي تحدِّث نفسها قائلة: ولكن أي ذنب له ولها في الموضوع؟ لنفرض أن أباهما مجرم، فهل يحق لنا أن نأخذهما بجريرته؟ كيف سوف أرد على معاد؟ وبأي حجّة سوف أرفض أخاها؟ أتراني سوف أُحدِّثها بالحقيقة؟ ولكن هل يجوز لي نبش الماضي ووصم هذين الأخوين الطاهرين بمثل هذه الوصمة؟ لعلّهما يجهلان ماضي أبيهما فكيف لي أن أكشف لهما ما يجهلان؟

وصمّمت أخيراً أن تبقى على علاقتها مع معاد، وقد تذكّرت موعدها معها في يوم غد، وانتظارها لشرح ما طلبته منها، فزاد شعورها بالخسارة وبصعوبة الانقطاع عنها، وهكذا قضت يومها وليلتها في شدّته من الحيرة والألم.

وأشرق عليها الصبح بعد ليلة ما نامت خلالها إلاّ القليل، وإذا بها تجد جدّتها وقد صمّمت على ترك المستشفى بأي حال من الأحوال، وكلّما حاولت أن تثنيها عن ذلك ألحّت تلك وألحّت حتّى رضخت لرغبتها وجمعت ما لديها من حوائج، ثمّ طلبت من جدّتها أن تؤجِّل الخروج إلى حين إخبار الطبيب المختص.

ولكن الجدّة كانت مندفعة إلى الخروج، فلم توافق على التأجيل وكأنها كانت تريد أن تبتعد بورقاء عن طريق معاد بأسرع وقت خشية أن تضعف ورقاء أمام الإغراءات.

وعندما يئست ورقاء من التأجيل، ذهبت تسأل عن معاد وهي لا تعلم ماذا سوف تقول لها، ولكنّها كانت تريد أن تراها بأي شكل من الأشكال، وفوجئت عندما علمت أن معاداً مجازة خلال ذلك الصباح فاحتارت ماذا تصنع؟ وهل يمكنها أن ترحل عنها هكذا وبدون كلمة وداع؟ وما أبعد هذا عن أحاسيس الوفاء وعرفان الجميل؟ وما أبعده أيضاً عن عهود الاخاء التي أبرمتها لمعاد؟ ثمّ خطر لها أن تترك لها ورقة، فكتبت سطوراً جاء فيها ما يلي:

عزيزتي معاد:

لا أدري ماذا أقول؟ وأنا أُواجه دوامة لا سبيل لي بالنجاة منها، وها أنا راحلة مع جدّتي التي فرضت عليَّ هذا الرحيل، يبدو أن الله عزّ وجلّ شاء أن يطردني عن فردوسه بعد أن وجدت السبيل إليه. سوف أتركك بقلب باكٍ لأُواجه المستقبل المجهول وأنا وحيدة مهيضة الجناح، سوف أعود ثانية إلى الضيعة الفكرية والحيرة النفسية فليرحمني الله، وأرجو أن لا تغضبي عليَّ فإن هناك ما يفرض عليَّ هذا التصرّف، أما أخوك فأرجو من الله أن يبدِّله بخير منِّي وما رفضته لمنقصة فيه ولكن هكذا شاء الله، وإذا رأيت أنني ما زلت أستحق أُخوّتك فاكتبي لي على عنوان صديقتي وهو... زقاق... رقم الدار...

ثمّ طوت الرسالة وسلّمتها لإحدى الممرِّضات لكي تسلِّمها إلى معاد عند عودتها، ورجعت إلى جدّتها لتتوجّه معها إلى البيت.

تعاقبت الأيام بطيئة وثقيلة بالنسبة إلى ورقاء، فقد ساءت صحّة جدّتها على أثر الحركة وبُعدها عن الطبيب، وبقيت هي موزّعة بين تمريضها ودروسها وباقي الالتزامات، إضافة إلى فكر حزين يلازمها، وحنين إلى معاد لا يفارقها، وحاجة إلى فهم جديد تلحّ عليها.

وكثيراً ما لاحظت الجدّة على عينيها آثار الدموع، فعزّ عليها ذلك، ولكنّها تجاهلته واعتبرته ضرورة كان لا بدّ منها، وبعد مرور أكثر من عشرة أيام سلّمتها صديقتها رسالة تحمل طابعاً داخلياً.

فخفق قلب ورقاء وتساءلت مع نفسها قائلة: أتراها من معاد؟ أتراها لم تنكر عليَّ موقفي منها؟

ثمّ سارعت إلى فتحها وألقت نظرة عجلى على الاسم فوجدتها من معاد، فانتحت جانباً وقرأت الرسالة، فوجدت فيها ما يلي:

عزيزتي ورقاء:

سلام الله عليكِ ورحمته وبركاته، وسلامي وأشواقي وصادق دعائي واخائي... ها أنا أكتب إليك بعد أن تخلصت من آثار المفاجأة التي أملتها عليَّ

سطورك، وكم عزَّ عليَّ ذهابك دون أن أطبع على جبينك قبلة اخاء صادق، وقبل أن تعرفي بأن معاداً ليست تلك التي تتنازل عن أُخوّتك بسهولة.

لقد وجدتك يا ورقاء كالزهرة العطرة التي وُجِدَت لتتفتّح فتنشر من حولها الأريج، ولتعطر بعطرها أجواء الربيع. ولكنها افتقدت اليد التي تسقيها الماء، ولم تحصل على الظل الذي يحميها من وهج الشمس، فقبعت في أكمامها وهي تنتظر الذبول قبل أن تتفتّح وتؤدّي رسالتها في الحياة.

وجدتك هكذا يا ورقاء وأحسست بروحك وهي تناديني إليها طالبة منّي السقاية والحماية، وسمعت نداء الواجب يدعوني للإجابة. ففتحت لك قلبي، ومددت نحوك يدي، وعرضت عليك أُخوّتي فوجدت عندك الاستجابة المطلوبة والتجاوب الذي أقرّ عيني.

ثمّ اخترتك لتكوني قرينة أخي الذي هو أهمّ شيء عندي، ثمّ وفجأة، وبدون سابق إنذار، وجدتك تختفين ولا تخلفين وراءك إلاّ بضعة سطور، ولا أكتمك بأن المفاجأة لم تكن بسيطة بالنسبة إليَّ، ولهذا فقد أقعدتني آثارها عن المبادرة في الكتابة.

أمّا الآن وقد عدت إلى نفسي، وجدت أن عليَّ ألاّ أدع أواصر أُخوّتنا تتقطّع هكذا، وبسهولة، ولهذا فها هي سطوري بين يديك تحدِّثك عنّي وتقول لك بأنني ما زلت أُختك في السرّاء والضرّاء.

وأنا لا أُريد أن أسألك عن السبب في كل ما حدث لكي لا أُحرجك، وإحراجك ممّا يعزّ عليَّ كما تعلمين، وإذا أردت مراسلتي فإن ذلك ممكن على عنوان المستشفى، هذا وأستودعك الله الذي لا يخون الودائع.

معاد

إنتهت ورقاء من قراءة الرسالة وكان شعورها مزيجاً بين الفرحة والألم، وقرّرت أن لا تخبر جدّتها بأمرها وأن تبقى على اتصال مع معاد، وفعلاً فقد بادرت إلى الكتابة في تلك الليلة، فكتبت إليها تقول:

عزيزتي معاد:

دعيني أُقبِّلك عن بُعْد، فالله وحده يعلم كم أنا متشوِّقة إليك وخجلة منك يا أُختاه، وأنت التي وجدتك على ظمأ معيناً رياً روياً، فما شربت منه سوى نهلات حتّى صدّت الكأس عن شفتي يد الزمان القاسية فأعادتني إلى الظمأ اللاّهب، وأسلمتني إلى حياة الوحدة المريرة.

لقد عشت عمري أُفتِّش في صفحات سجل حياتي عن مرفأ أمين يشدّني عبر مسيرتي الطويلة في مدرجات الحياة، وطالما هفوت لصدر حنون يحتضنني وينفتح إليَّ، فأُسند إليه رأسي المكدور، وأكشف أمامه مشاعري وأفكاري الموؤودة، وقد كنت يا عزيزتي أعيش الضيعة الفكرية، وأتمنّى لو وجدت فكراً يفتح أمامي مغاليق المعرفة، ويأخذ بيدي إلى طريق الهداية والدراية في يوم من الأيام، حتّى رأيتك... وما أكثر ما ردّدت قول الشاعر:

وإنّي لمحتاج إلى ظل صاحب يروق ويصفو إن كدرت عليه

فوجدت فيك تجسيداً للأُخت التي نسجت شخصيتها في أحلامي وسبق أن تصوّرتها في أفكاري، فتغلغل حبّك في قلبي، وملأ الإعجاب بك جوانب نفسي، وأحسست أن سفينة حياتي قد وجدت لديك مرفأها الأمين وقد آن لها أن تلقي قلاعها على ساحل أُخوّتك.

فركنت إليك كأُخت، واعتمدت عليك كموجِّهة، وأحللتك من نفسي المحل الرفيع الرفيع، وفجأة بدأت الحياة تلعب معي لعبتها القاسية من جديد، فأَخذَتْكِ منِّي أو أَخَذَتْني منك، وجَعَلَتْني أُحسّ بالضيعة مضاعفة وبالوحدة بشكل أعمق فأسلمني ذلك إلى دنيا اليأس المريرة، وعرفت أن الحياة تقسو حتّى على أنبل المشاعر والعلاقات، وأن الأقدار لا تقيم وزناً للعلاقات والصِّلات، وأن الدهر لا يصفو بعد كدر، ولا يهادن بعد حرب، وإن فاء إلى المهادنة يوماً ندم على ذلك وعاد يشنّ حربه العتيدة من جديد، وما أحسن قول ابن هاني الأندلسي في هذا حين يقول:

وهب الدهر نفيساً فاسترد ربما جاد لئيم فحسد

أو كما قال المتنبي:

أبداً تسترد ما تهب الدنيا فيا ليت جودها كان بخلاً

وهكذا بقيت أُعاني من غلواء أحاسيسي الكثير حتّى استلمت رسالتك صباح اليوم، فوجدت فيها خيطاً فضياً من خيوط الأمل. هذه الخيوط التي تشدّني إليك وبالتالي فهي تشدّني إلى خالقي يا أُختاه، فقد أصبح من العسير عليَّ أن ابتعد عنك، لأن قربك هو ذريق قربي إلى الله.

ولهذا فقد فرحت برسالتك يا معاد، كما أنها زادتني بك إعجاباً ولشخصك إكباراً، وعلّمتني درساً من دروسك في مغالبة النفس ووأد مشاعر الأنانية، والتلبّس بالنظرة الواقعية المجرّدة عن المصالح الشخصية.

فالشكر لله أوّلاً ولك ثانياً يا أُختاه. واعلمي بأنني كنت ولا أزال تلك التي تعهدين، وما زلت أنتظر منك موعداً لزيارتك في أي مكان تعيشين، هذا واسلمي لي دائماً وأبداً يا أُختاه.

ورقاء

أبردت ورقاء رسالتها ومرّت عليها أيام الانتظار وهي أحسن ممّا كانت عليه حتّى وصلها الجواب. وكانت معاد تحدِّد لهافيه موعداً لتزورها فيه في المستشفى ففرحت ورقاء بذلك.

وفي اليوم الثاني أخبرت جدّتها عند خروجها بأنها سوف تتأخّر لكي لا تقلق عليها، ثمّ توجّهت من الكلِّيّة إلى المستشفى. ويبدو أن معاداً كانت قد أوصت بها إذ أنها لم تصادف أي مضايقة حتّى انتهت إلى غرفة معاد، فوقفت أمام الباب محاولة التغلّب على آثار الارتباك التي كانت تحسّها، ثمّ طرقتها برفق فطالعها وجه معاد مشرقاً واستقبلتها بالترحاب، فجلست ورقاء وهي تغالب دموعاً طفرت إلى عينيها، وبادرتها معاد قائلة:

- أهلاً وسهلاً بك يا ورقاء، لقد أوحشني غيابك وكأنني عشت معك العمر كلّه مع أن معرفتي بك لم تتجاوز الأسابيع.

فقالت ورقاء: وأنا كذلك يا معاد، والله وحده يعلم كم عانيت وعانيت لخشيتي أن تكوني ناقمة عليَّ.

قالت معاد: لكنك حرّة في اختيارك يا ورقاء، فلماذا أنقم عليك يا عزيزتي وبأي حق؟ لعلّ أخي لم يرق لك أو لم يحتل الثقة المطلوبة عندك.

فقطعت ورقاء كلامها قائلة: أرجوك يا معاد، لا تقولي هذا، فإن كل ما حدث لم يكن نتيجة عدم الاقتناع، لأنّ شهادتك في حقه كفيلة باقتناعي به ولكن...

فقالت معاد: ولكن ماذا يا ورقاء؟

قالت: ولكن جدّتي هي التي رفضت ذلك.

قالت معاد: وهل عرفت السبب في رفضها يا ترى؟

فارتبكت ورقاء ولم تعلم بماذا تجيب، ولهذا بقيت ساكتة، ولكن معاداً أعادت السؤال...

فقالت ورقاء: إنه سبب من الأسباب.

فابتسمت معاد لهذا الجواب وقالت:

- ولكن هل هو سبب كافٍ للرفض؟

فسكتت ورقاء لحظة ثمّ خرج صوتها جريحاً وهو يقول:

- نعم إنه سبب كافٍ يا معاد.

قالت معاد: إذن فسوف لن أُلح عليك أكثر من هذا، والمهم أن نبقى على اخوّتنا يا ورقاء.

قالت ورقاء: نعم فها أنا أشعر معك بشعور من الراحة والاطمئنان افتقدته منذ فارقتك حتّى الآن مع كثرة مَنْ أرى وأجد من الصديقات والأخوات، لأنني وثقت فيك كما لم أثق بسواك، والثقة هي طريق كل قرب وود.

قالت معاد: إن هذا هو نفس شعوري نحوك يا ورقاء.

قالت ورقاء: لقد مررت بتجارب عديدة قبل اليوم، ولكنني لم أشعر بالانهيار أمام إحداها كما انهرت أمام هذه التجربة التي هدّدتني بالانقطاع عنك يا أُختاه.

فضحكت معاد وقالت: أراك ما زلت تتحدّثين عن التجارب يا ورقاء؟

قالت ورقاء: كما أنني ما زلت أنتظر حديثك عنها يا معاد.

قالت معاد: وأي حديث عنها تريدين؟

قالت: ألم تعديني أن تعودي إلى حديثك عن التجربة ومدى علاقتها بالعلم الصادق؟

قالت معاد: يبدو أن ذاكرتك قويّة يا ورقاء؟!

قالت ورقاء: وكيف لي أن أنسى هذا وهو أمر مهم بالنسبة إليَّ؟

قالت معاد: إذن دعينا ندرس الموضوع من جديد، لنعرف ماذا يقول التجريبيون؟

قالت ورقاء: إنهم يقولون بعدم التمكّن من تصديق قضيّة بدون تجربة مسبقة. وهم لا يعترفون بدور العقل في مضمار تصديق القضيّة ما لم تدعمها التجربة، إذ أنهم ينكرون وجود قضايا بديهية.

قالت معاد: ولهذا فنحن نقول لهم: هبوا أنكم جرّبتم أن تقرِّبوا قطعة من الحديد إلى النار، فرأيتم نتيجة ذلك أنه قد تمدّد من تأثير الحرارة، فكيف تمكّنتم أن تعمِّموا هذه القاعدة (قاعدة تمدّد الحديدة بالحرارة) على مجموع الحديد في العالم، مع أن التجربة أُجريت على قطعة واحدة لا أكثر؟

ومن هنا يبرز دون العقل في تعميم هذه القاعدة على كل الحديد، وحتّى في هذه القطعة التي تمدّدت نتيجة تعرّضها للنار، فإنّ التجربة أثبتت حالة التمدّد فقط وجعلتنا ندرك هذه الحالة بحواسنا، أمّا السبب الذي أدّى إلى هذا التمدّد فهو أمر لم تثبته التجربة ولكن العقل هو الذي دلّ عليه، النار حارّة، حرارتها أوجبت التمدّد في الحديد، إذن فإن علّة التمدّد هي حرارة النار.

قالت ورقاء: لطيف، لطيف يا معاد ثمّ ماذا؟

قالت: إننا نتمكّن أيضاً أن نناقشهم قائلين: إنكم تؤمنون باستحالة اجتماع النقيضين وهذا إيمان لا مناص لكم منه، لأن العلوم الرياضية بما فيها علم الحساب الذي هو أبده العلوم قائمة على أساسه ولولاه لتهاوى علم الحساب وافتقد قواعده التي يرتكز عليها.

وهنا تساءلت ورقاء قائلة: وما هو تعريف اجتماع النقيضين يا معاد؟

قالت: اجتماع النقيضين اصطلاح يعبِّر عن جمع شيء مع نقيضه في محل واحد، كأن نقول أن هذا الماء حار وبارد، أو نقول أن هذه الشمس مضيئة ومظلمة في وقت واحد، أو نقول أن فلاناً طويل وقصير، ورفض الإيمان باستحالة اجتماع النقيضين يعني عدم الإيمان بصحّة قواعد علم الحساب.

قالت ورقاء: أرجو توضيح ارتباط ما تقولين من أفكار استحالة اجتماع النقيضين مع علم الحساب يا معاد.

قالت معاد: إن مثل ذلك هو أننا لو عرفنا أن (١ + ١ = ٢) لحقّقنا بهذه المعرفة أوّل ركيزة من ركائز هذا العلم، إلى هنا فإن الموضوع لا جدال فيه ولا مراء، أما إذا قلنا أن (١ + ١ = ٣) فإنما يعني قولنا هذا دعوى اجتماع النقيضين، وتوضيح ذلك أنّ كلمة يساوي تعني المساواة، والموازاة، والمقارنة، والمماثلة.

وعلى هذا فإن واحداً زائد لا يمكن أن يساوي أو يماثل أكثر من اثنين، لأن ما يساوي الواحد إذا أُضيف إليه واحد هو الاثنان فقط لا غير، فأن نقول يساوي ثمّ نأتي بشيء لا يمكن المساواة، فهذا جمع النقيضين وهما المساواة واللّامساواة. ولهذا فنحن نقول لهم: إنكم أمّا أن تؤمنوا بعدم إمكان اجتماع النقيضين، وأمّا أنكم لا تؤمنون به، فإذا كنتم تؤمنون، فمن أين حصل لكم هذا الإيمان؟ هل جاء بعد تجربة؟

قالت ورقاء: وكيف لهم أن يجرِّبوا اجتماع النقيضين وهو محال؟

قالت معاد: إذن وما دامت تجربة اجتماع النقيضين محالة، فلا بدّ أن يكون هذا الإيمان وليد معرفة بديهية يمليها لهم العقل الذي لا يريدون أن يعترفوا بدوره المجرّد عن التجربة في الحياة.

قالت ورقاء: لعلّهم يقولون أنهم جرّبوا الأشياء فلم يجدوا في واقع الكون حالة يجتمع فيها النقيض مع نقيضه، وعلى هذا الأساس عرفوا أن اجتماع النقيضين مستحيل وغير ممكن.

قالت معاد: إن هذه التجارب السلبية إنما تدل على أن اجتماع النقيضين غير واقع وليس على أنه لا يمكن أن يقع مع أنّا جميعاً نؤمن بأنّه لا يمكن أن يقع، وهذا لا يمكن أن يستند إلى التجربة لأنّ عدم الامكان والاستحالة ليس شيئاً يمكن أن نراه في تجاربنا.

قالت ورقاء: وإذا قالوا بأنهم لا يؤمنون بعدم إمكان اجتماع النقيضين؟

قالت معاد: عند ذلك نقول لهم أنهم ينكرون وجود أهم علم قامت عليه معارفهم وهو علم الحساب...

وإلى هنا سكتت معاد معطية ورقاء فترة للتفكير، وكانت ورقاء مندمجة مع ما سمعت ومنجذبة إليه.

وبعد أن سكتت معاد فترة قصيرة قالت لها:

- لشدّ ما كنت في حاجة لأن أسمع هذا أو أعرف عنه شيئاً يا أُختاه، وما زلت أطلب منك المزيد.

قالت معاد: ولكن متى سوف تأتيني مرّة ثانية يا ورقاء؟

قالت ورقاء: سوف أُحاول ذلك متى ما وسعني، والآن عليَّ أن أذهب قبل أن تقلق جدّتي لغيابي.

□□

استمرّت ورقاء تزور معاداً بين حين وحين دون أن تعرف جدّتها بذلك أو تشك فيه، وفي يوم من الأيام عادت متأخِّرة قليلاً فوجدت جدّتها مكفهرّة الوجه متوتِّرة الأعصاب وبادرتها قائلة بعنف: أين كنت يا ورقاء؟

فخمّنت ورقاء أن جدّتها قد علمت بأمر زيارتها لمعاد، ولهذا آثرت المماطلة إلى أن تعرف الواقع، فقالت: ولماذا تسألينني يا جدّتي؟

قالت الجدّة بحدّة: لكي أعرف هل أنت قادمة لتوّك من الكلية؟

وحدّثت ورقاء نفسها قائلة: عليَّ أن أقول الصدق مهما كانت النتائج، وينبغي أن أُواجه الواقع بشجاعة، ولهذا ردّت تقول: كلاّ.

قالت: إذن أين ذهبت؟

قالت: لقد مررت على المستشفى.

عند ذلك انفجرت الجدّة تقول: إنك مررت على معاد أَلَيس كذلك؟ اعترفي يا ورقاء ولا تغالطي في الحقيقة؟ لقد كنت أحسبك أعقل من هذا، كيف تسمحين لنفسك بابنة قاتل أبيك، إنها خيانة منك يا ورقاء.

وردّت ورقاء بهدوء قائلة: ولكن من أين عرفت ذلك يا جدّتي؟

قالت: لقد اتصلت إحدى صديقاتك تسأل عنك وقالت أنك توجّهت إلى البيت منذ مدّة، ومن هنا عرفت أنك قد ذهبت إلى معاد.

قالت ورقاء: وماذا في ذهابي يا جدّتي؟ إنني رفضت سناداً لكي لا أرتبط في حياتي الزوجية مع ابن قاتل أبي. أمّا أن أقطع علاقتي وصداقتي مع معاد فإن هذا ما لا يمكن أن يكون لأنني محتاجة إليها فكرياً وروحياً، ولا أرى في ذلك أي دليل من أدلّة الخيانة.

وهنا ألقت الجدّة آخر ما لديها من سهام حيث قالت:

- إنك لا تعنين معاداً فيما تقولين ولكن من يهمّك هو أخوها، فقد عرفت من الممرضات أنه جميل وجذّاب وقد انخدعت بجماله يا ورقاء.

فردّت ورقاء بصوت متهدّج قائلة: إنك تظلمينني يا جدّتي، لا تبالغي في القسوة عليَّ، فإنني لم أره إلاّ مرّتين عن طريق الصدفة فقط، فلا تنسجي من حولي أفكاراً مريبة يمليها عليك عالم الخيال.

وفي عصر اليوم الثاني كانت معاد تنتظر ورقاء في موعدها المحدّد، ولمّا حضرت إليها لاحظت عليها شيئاً من الشحوب، ولمّا سألتها عمّا بها.. قالت: إنه من تأثير السهر الذي تفرضه عليها الدراسة. فلم تقتنع معاد بهذا الجواب

ولكنها أظهرت الاقتناع. وكانت ورقاء متعجّلة أكثر من عادتها ولهذا بادرت تقول:

إنني ما زلت أنتظر حديثك عن التجربة يا معاد.

قالت معاد: أراك متعجلة اليوم يا ورقاء، فهل هناك من جديد؟

فترددت ورقاء قليلاً ثم قالت: كلا، ليس هناك من جديد.

قالت معاد: إذن فلنبدأ بالحديث.

قالت: نعم فإنني مشوقة إلى تكملة ما شرحتيه لي حول التجربة.

قالت معاد: إن التجريبيين يقولون عن القضايا التصديقية أنها لا يمكن أن يعترف بها دون تجربة مسبقة أليس كذلك؟

قالت ورقاء: ولكنني أريد أولاً تعريفاً للقضايا التصديقية.

قالت: إن القضايا التصديقية هي كل قضية صادقة يصدقها الإنسان ويؤمن بصحتها، هذا هو التعريف المختصر للقضايا التصديقية، والحقيقة أن كل تصديق يحتاج ويعتمد على تصديق قبله، والتصديق الذي قبله يحتاج إلى تصديق قبله، ولكن لا يمكن أن نتراجع هكذا باستمرار من تصديق إلى تصديق دون أن نصل إلى بداية، وإلا كان معنى هذا أننا لن نحصل على أي معرفة أو تصديق أساساً...

فظهر على وجه ورقاء الاهتمام البالغ وتساءلت: كيف؟

قالت معاد: افترضي أنك تريدين أن تتعرفين على بنت معينة وحُسن سلوكها وأنها ثقة، فماذا تصنعين؟

قالت ورقاء: أسأل بعض رفيقاتها عنها.

قالت معاد: ولكن كيف تعرفين هذه الرفيقة لكي تسألي منها؟ فقد لا تكون معرفتك بها إلاّ عن طريق شهادة من أُخرى، ولكن أليس من المنطقي أن تنتهي هذه الشهادات عند شاهدة تعرفينها مباشرة لكي تكون هذه هي البداية لانطلاقك إلى التعرّف على الأُخريات؟

قالت ورقاء: هذا صحيح بالضبط.

قالت معاد: وهذا ما نقوله بالنسبة إلى المعارف التصديقية للإنسان عموماً، فإنها لا بدّ لها من بداية تعتمد عليها، وهذه البداية لا بدّ أن تكون معروفة لنا بصورة مباشرة وبدون أي تجربة واستدلال.

قالت ورقاء: أُذكري لي مثالاً من هذه المعرفة المباشرة.

قالت: مثله أن نقول أن بعض الكتاب أصغر من مجموع الكتاب، فنحن لو ادعينا هذا ثمّ قال لنا قائل: من أين عرفتم أن بعض هذا الكتاب هو أصغر من مجموع الكتاب؟ وهل لديكم تجربة أو دليل يثبت ذلك؟ لقلنا أن هذا أمر بديهي لا يحتاج إلى تجربة ودليل، إذ أن مجرّد قولنا بعض يعني إيماننا بوجود بعض وكل، وأن البعض أصغر من الكل.

قالت ورقاء: وإذا قالوا أنه ما دامت المعارف البديهية لا تحتاج إلى تجربة مسبقة ويتمكّن العقل المجرد عن التجربة أن يشخِّصها، فلماذا لا يدركها الإنسان منذ الطفولة ما دام العقل معه منذ الطفولة؟ ولماذا لا يبقى يدركها حتّى ولو رُدّ إلى أرذل العمر؟

قالت: عند ذلك نقول لهم أن الادراك على مرحلتين: إدراك تصوّر، وإدراك تصديق.

قالت ورقاء: عرِّفي لي الادراكين بالأمثلة من فضلك يا معاد.

قالت: الادراك التصويري كأن نتصوّر الماء، والسماء، والشمعة، والزهرة، والذهب، والفضة، وهذا هو الذي يولد عند الإنسان نتيجة لوجود أحاسيسه التي تساعده على التصوّر.

قالت ورقاء: ولكننا قد ندرك في تصوّراتنا أشياء غير ممكنة كأن نتصوّر بحراً من زئبق، أو جبلاً من ذهب.

قالت معاد: وهنا يأتي دور الادراك التصديقي وهو إثبات صحّة تصوّراتنا وانطباقها على الواقع. ولكن الادراك التصديقي الذي نعتمد عليه هنا يعتمد هو بدوره على الادراك التصوري أيضاً.

قالت ورقاء: كيف؟ ولماذا؟

قالت: لأنّه ليس من الممكن ادراك شيء والتصديق له دون تصوّره بشكل مسبق لهذا الادراك، فنحن مثلاً لا يمكن لنا أن نصدّق بوجود النخلة دون أن نتصوّرها.

قالت ورقاء: إذن فإن الادراك التصديقي يعتمد على الادراك التصوّري؟

قالت معاد: نعم، ولهذا نجد أن الطفل لا يتمكّن أن يدرك حقائق تصديقية فوق مستوى ادراكه التصورّي لمحدودية ادراكاته التصوّرية وسطحيتها، وهكذا نعرف أن الطفل أو الإنسان الذي يُردّ إلى أرذل العمر لا يتمكّن أن يدرك القضايا البديهية.

قالت ورقاء: لشدّ ما أُحسّ بالراحة عندما أستمع إلى حديثك يا معاد، أرجو أن لا يفارقني الله عنك يا أُختاه.

قالت معاد بعد شيء من لتردّد: نعم، أرجو ذلك يا ورقاء.

قالت ورقاء: بودّي لوجلست معك أكثر، ولكن عليَّ الآن أن أذهب.

فردّت معاد تقول: إذهبي بحراسة الله، ولكن لا تنسي موعدك غداً إن شاء الله.

□□

وعادت ورقاء إلى البيت فوجدت الجدّة متجهّمة الوجه وقد ردّت سلامها باقتضاب، فانحنت على يدها تقبّلها وهي تقول:

- أرجوك أن لا تغضبي عليَّ يا جدّتي لأنني أذهب إلى زيارة معاد، سامحيني من هذه الناحية، وسوف أُطيعك في كل شيء عداها.

فرفعت الجدّة رأسها وقالت بتحدٍّ: تطيعينني بكل شيء؟

قالت: نعم بكل شيء، عدا قطع علاقتي مع معاد.

قالت الجدّة: اقسمي على ذلك إذن، اقسمي أن تطيعيني بكل شيء مهما كان.

فكادت ورقاء أن تقسم لولا أن خطر لها خاطر أوحاه إليها تحفّز جدّتها، فشحب وجهها قليلاً ثمّ قالت:

- كلاّ إنني لا أُقسم ويكفي أن أُعطيك عهداً على ذلك.

قالت الجدّة: وأن يكون عهد شرف يا ورقاء.

قالت ورقاء: نعم إنه عهد شرف...

فانفرجت أسارير الجدّة، وقبّلت حفيدتها، وعادت إلى وضعها الطبيعي، ولكنها حدّثت نفسها بعد ذلك قائلة:

لقد أعطتني ورقاء عهداً أن تستجيب لي في كل شيء، ولهذا سوف تضطر لقبول قراري الذي أتخذه عند خطبة ابن عمّها ماهر لها، هذا المسكين الذي أجّلت أنا خطبته منذ السنة الماضية بانتظار أن تكمل دراستها، وقد بدأ يستعيد الموضوع من جديد، إنه شاب غني ومثقّف وإذا كان غير ملتزم دينياً فهي سوف تهديه للالتزام، وبهذا تنقطع علاقتها مع معاد بشكل نهائي.

□□

بقيت ورقاء تنتظر عصر اليوم الثاني، وما أن أكملت دوامها حتّى توجّهت إلى معاد فوجدتها تنتظرها عند باب المستشفى حيث قالت لها:

- إنّني ذاهبة إلى البيت وكنت أنتظرك لآخذك معي فإنّ عندي بعض الأشغال هناك.

فاستغربت ورقاء وقالت: إلى البيت وأي بيت؟

فابتسمت معاد وقالت: بيتنا نحن.

قالت ورقاء في تردّد: ومَنْ سوف يكون هناك أيضاً يا معاد؟

فعادت معاد تبتسم وهي تقول: لا أحد، كوني واثقة من ذلك. سوف نذهب أنا وأنت وحدنا ثمّ نعود قبل الغروب إن شاء الله.

قالت ورقاء: إذن هيّا بنا يا معاد.

قالت معاد: إن بيتنا قريب ولن نحتاج إلى الركوب، فتعالي لنتمشّى إليه.

وهكذا سارتا معاً حتّى وصلتا إلى البيت، ففتحت الباب بمفتاح كان معها، ووجدت ورقاء نفسها في حديقة صغيرة منسّقة وأمام بيت صغير دخلته مع معاد فوجدته بسيطاً في بنائه وأثاثه ولكنّه يتميّز بالذوق والتنسيق. لم يسعها إلاّ أن تسأل معاداً قائلة:

- مَنْ الذي ينظّف هذا البيت يا معاد؟

قالت معاد: إنّني آتي إلى هنا مرّتين في الأُسبوع حيث أتعهّد البيت في العناية والترتيب والتنظيف.

قالت ورقاء: ومَنْ الذي يسكن هنا؟

قالت معاد: إنه أخي سناد.

قالت: وهل يعيش وحده هنا؟

قالت معاد بشيء من الألم: نعم، فنحن وحيدان في هذه الدنيا.

فتألّمت ورقاء لمرارة هذا الجواب، واستشعرت أنه صدى لمشاعر معذّبة قد تمكّنت معاد بقوّة شخصيتها من إخفاء معالمها. ولهذا فقد أطرقت في تألّم وخشوع، ولكن سرعان ما نادتها معاد بصوت مشرق قائلة:

- ما لك يا ورقاء؟ ألا تريدين أن تساعديني في العمل؟

وكأن هذا الصوت قد أعاد ورقاء إلى وضعها الطبيعي، فأبدت استعدادها للمشاركة.

وبهذا تمّ إنجاز الأعمال بسرعة، فاقترحت معاد على ورقاء أن تجلسا قليلاً في ظلال الأشجار، فجلستا متجاورتين.

وكانت ورقاء تشعر بالسعادة لأنها قدّمت بعض المساعدة من أجل معاد، وكانت أمامهما شجرة برتقال صغيرة قد ظهر الثمر فيها لأوّل مرّة فأشارت إليها معاد وهي تقول:

- هل تعلمين أن هذه الشجرة قد غرزتها بيدي يا ورقاء، وبقيت أتعهّدها بالسقاية لأنها عزيزة عليَّ، ولهذا فأنا فرحة لمنظر ثمارها لأوّل مرّة.

قالت ورقاء: إن من حقك أن تفرحي يا عزيزتي، فما ألطف أن يرى الإنسان البذور التي بذرها وهي تنمو وتزدهر ثمّ تثمر الثمر المطلوب.

وهنا رانت على وجه معاد سحابة ألم خفيفة ثمّ قالت:

- ولكن ما أقسى أيضاً أن يشاهد الإنسان بعد ذلك هذه الأشجار التي غرز بذرتها بيديه وتعهّد سقايتها بماء عينيه وهي تقتلع عن الأرض بيد لئيمة أو نتيجة زوبعة هادرة عاتية.

فردّت ورقاء تقول بألم: آه، نعم إنه شيء قاسٍ جدّاً يا معاد، ولكنني أُريد أن أسألك شيئاً، وهو في خصوص شجرة البرتقال هذه مثلاً، ماهو سبب وجودها من الناحية الفلسفية، البذرة أم أنت؟

قالت معاد: لا أنا ولا البذرة، وإنما هو الله تبارك وتعالى، وما نحن سوى وسيلة من الوسائل التي هيّأها الله لتواجد الحياة، فالله عزّ وجلّ خلق الكون والحياة وجعل كل ما فيها سبباً من أسباب إيجاد سواه أو الابقاء على ذلك الوجود.

قالت ورقاء: يا لحكمة الخالق المبدع، ولا أدري كيف يمكن لأحد أن ينكر وجوده أو ينسب الخلق إلى سواه؟

قالت معاد: ماذا تقصدين بنسبة الخلق إلى سواه؟

قالت ورقاء: أقصد هؤلاء الذين يُرجعون السبب الأوّل في خلق الكون إلى المادة والذين يقولون أن المادة ونتيجة لحركتها الأزلية بدأت بإيجاد الأنواع!

قالت معاد: حتّى هؤلاء لو عادوا إلى أنفسهم وفكّروا بإنصاف لعرفوا أو لاعترفوا بأن الله هو الخالق المدبِّر، إذا أنهم يتفقون معنا في المقدّمات ويختلفون في النتيجة.

قالت ورقاء في تعجّب: يتفقون في المقدّمات، وكيف؟

قالت: أقصد أنهم يؤمنون معنا بأننا لم نكن موجودين ثمّ وُجِدْنا، ويؤمنون معنا أيضاً أن وجودنا يحتاج إلى موجِد لأن الوجود من العدم محال، ويشتركون معنا أيضاً في أن الموجِد لا بدّ أن يكون غير موجود من العدم بل هو

أزلي في وجوده، وإلاّ فمن الذي أوجده؟ ثمّ ولا بدّ لموجدنا أن يكون مالكاً لكل ما ملّكنا إياه، وإلاّ كان ما لدينا موجوداً من العدم، والوجود من العدم محال.

إلى هنا تنتهي هذه المقدّمات، ونعود لكي نرى ماذا يقول الإلهيون عن هذا الموجِد؟

قالت ورقاء: إنّهم يقولون أنه الله تبارك وتعالى.

قالت معاد: نعم، أمّا الماديون فيقولون أنه المادة، ونتيجة لحركتها الأزلية، ونحن هنا يمكننا أن نسأل هؤلاء الذين يوعزون خلق الكون إلى المادة وحركتها الأزلية، نسألهم متى بدأت المادة تتنوّع نتيجة لحركتها الأزلية كما يقولون؟ وأنها إذا كانت أزلية، فكيف يمكن لنا أن نعرف بدايتها لأن الأزلي ليس له بداية؟

قالت ورقاء: أنّهم لن يجيبوا على هذا السؤال لعدم تمكّنهم من وضع بداية لما يدعونه أزلياً وهو المادة وحركتها.

قالت معاد: وعندما لا نجد منهم جواباً لعدم تمكّنهم من وضع بداية للأزلي، نلتفت إلى العلم لنسأله عن عمر الأرض فنجده يقول: أن الأرض انفصلت عن المجموعة الشمسية منذ ألفي مليون عام، وأن تكامل برودتها استغرق ألف مليون عام حيث أنها بعد ذلك بدأت فيها بوادر تصلح للحياة.

قالت ورقاء: إذن فإن للحياة بداية محدّدة.

قالت معاد: نعم، وبعد الاستماع إلى هذه الحقيقة العلمية نعود إلى أزليّة الحركة لنقول: أنها إذا كانت أزلية، فإن معنى ذلك أن خلقها للأنواع أزلي أيضاً.

فقالت ورقاء باستنكار: إذن كيف أمكن للعلم أن يحدِّد عمر الكون؟

قالت معاد: إن هذا هو السؤال الذي نريد أن نطرحه عليهم يا ورقاء، إذ كيف أمكن للعلم أن يحدِّد عمر الكون؟

قالت ورقاء: هبيهم يقولون أن الحركة ليست أزلية، وأنها أي الحركة قد دخلت على المادة وأُضيفت إليها؟

قالت معاد: عند هذا نعود لنسألهم مَنْ الذي أوجد هذه الحركة؟ هل أن المادة هي التي أوجدتها؟ ولكن كيف توجدها بدون حركة مسبقة، وهم يقولون أن عملية الايجاد والخلق هي نتيجة الحركة في المادة؟ هذا إذا قالوا أن حركة المادة غير أزلية.

قالت ورقاء: لنفرض أنهم قالوا أن الحركة أزلية، ولكن المادة وقّتت لها زمن الخلق؟

قالت معاد: هذا أمر غير معقول، لأن التوقيت والتحديد لا يصدر إلاّ عن عاقل، والمادة غير عاقلة.

قالت ورقاء: كيف يمكن لنا أن نثبت كون المادة غير عاقلة؟

قالت معاد: لأنّ العلم أثبت أنّ المادة تتكوّن من شحنات كهربائية، ولهذا فهي غير قابلة للتفكير والتعقّل، فلا يبقى بعد هذا إلاّ أن تكون المادة خاضعة لعلّة توقّت وجودها وحركتها، وهذا هو ما يقوله الإلهيون.

قالت ورقاء: هبيهم يقولون أن تأخّر بداية الكون إنما كان بانتظار استكمال المقدّمات، تماماً كالمسافر يتأخّر أربع ساعات بعد الظهر يقضيها في تهيئة المقدّمات وضبط الحقائب فكذلك كانت المادة، وحين استكملت المقدّمات نشأت الحياة؟

قالت معاد: إذا قالوا هذا، فنحن نقول لهم: لماذا إذن لم تكتمل هذه المقدّمات في زمن سابق؟

قالت ورقاء: هبيهم قالوا أن الكون سوف يجيب على ذلك كما يجيب المسافر إذا سُئل لماذا لم تسافر قبل الرابعة؟ فهو يقول أن المقدّمات أخذت من وقته أربع ساعات ولو كان قد بدأ بالمقدّمات قبل الظهر لسافر قبل الرابعة، وكذلك الكون فقد فرضت عليه المقدّمات فترة زمنية فلم يتح له أن ينشىء الحياة إلاّ في اللحظة المحدودة وهي قبل ألفي مليون عام؟

قالت معاد: ولكن هذا الجواب الذي يقوله المسافر بكل سهولة لا يمكن للكون أن يقوله.

قالت ورقاء: لماذا؟

قالت: وذلك لأن أي زمن يفترض أن المقدّمات بحاجة إليه فهو موجود فعلاً لديه من خلال حركته الأزلية على ما يدعون، وإنما يصح هذا الجواب من الكون إذا كان قد بدأ حركته وتهيئة المقدّمات بنفس الطريقة التي بدأها المسافر، أي إذا كانت حركته حادثة فإن زمن الحركة يكون محدوداً، وإذا كان محدوداً فقد يعتذّر عن عدم الاسراع بظهور الحياة بأن ظهورها في وقت أسبق كان يتطلّب فترة زمنية أبعد.

قالت ورقاء: شكراً لك يا أُختاه، وبالمناسب فهل تعلمين أنني أنقم على الزمن أحياناً؟

قالت معاد: أي حين هو هذا الذي تنقمين فيه على جلستنا هذه؟

قالت ورقاء: عندما ينقضي بسرعة كما انقضى علينا في جلستنا هذه.

فضحكت معاد وتطلّعت إلى ساعتها ثمّ قالت:

- يبدو أنك قد تأخّرت أكثر ممّا ينبغي، والآن هيا بنا لنذهب.

قالت ورقاء: لقد شعرت بالراحة في جلستنا هذه بشكل لم أستشعره في المستشفى من قبل.

قالت معاد: سوف آتي بك معي في كل مرّة لكي نتخلّص هنا ولو إلى فترة قصيرة من أجواء المستشفى الكئيبة.

□ □

عادت ورقاء إلى البيت فاستقبلتها جدّتها عند الباب وقالت لها باهتمام:

- إن عندنا ضيوفاً، فاصعدي إلى غرفتك وأصلحي من وضعك، وتعالي يا ورقاء.

فاستغربت ورقاء ذلك وقالت باستغراب: ضيوف... ومَنْ هم يا جدّتي؟

قالت: إنّه الأستاذ ماهر إبن عم أبيك وأُمّه.

فردّت ورقاء بنفور: وما دخلي أنا بهم؟

قالت الجدّة: أليس هو ابن عمّك يا ورقاء؟

قالت: نعم إنّه قريبي، ولكنه رجل أجنبي من الأفضل لي أن لا أُجالسه وأُحادثه بدون فائدة.

قالت الجدّة: ومَنْ قال لك أن جلوسك معه بدون فائدة؟ إنه إنسان عظيم.

فابتسمت ورقاء في تهكّم وقالت: ما هو الوجه في عظمته يا جدّتي؟

قالت: إنه مثقّف وفاهم، وهو واسع الثراء أيضاً.

فتوجّهت ورقاء نحو السلّم وهي تقول بلهجة ساخرة: تشرّفنا.

فأمسكت بها الجدّة وقالت: لا أدعك تصعدين إلاّ إذا أعطيتيني عهداً بالنزول، ألم تعاهديني على الاطاعة يا ورقاء؟

- ولكن...

- كلاّ لا تصعدي، تعالي وسلِّمي قبل ذلك، فأنا أجدك غير نازلة لو صعدت يا ورقاء.

قالت ورقاء في توسّل: دعيني أصعد يا جدّتي، أرجوك.

قالت: كلاّ لن أدعك تصعدين، لقد قطعت لي عهداً أن تطيعيني في كل شيء، تعالى يا ورقاء.

قالت ورقاء: شريطة أن تكتفي منِّي بالسلام فقط، ثمّ أصعد بعده إلى غرفتي.

قالت الجدّة: نعم إنه كافٍ في الوقت الحاضر.

فلم تجد ورقاء بدّاً من الاستجابة لجدّتها، فتوجّهت إلى غرفة الاستقبال حسماً للنزاع، وكان الأُستاذ ماهر يجلس على الكرسي المواجه للباب وإلى جواره أُمّه العجوز.

فدخلت ورقاء وسلّمت عليهم بصوت هادىء، فنهض الأُستاذ ماهر مجيباً لها ومرحِّباً بها، ثمّ أشار إلى الكرسي الذي بجواره وهو يقول: تفضّلي بالجلوس هنا يا ورقاء.

وهنا ضمّت الجدّة صوتها إلى صوت ماهر فأردفت تقول: تعالي يا ابنتي واجلسي إلى جوار ابن عمك الأُستاذ ماهر حرسه الله.

ولكن ورقاء لم تتقدّم خطوة وإنما قالت بأدب: إن عندي دروساً مهمّة عليَّ مراجعتها يا جدّتي، ولهذا فأنا أعتذر عن الجلوس، ومع السلامة.

قالت هذا وخرجت من الغرفة تشايعها نظرات الجدّة الغاضبة وتعليقات ماهر الرخيصة. وما أن وصلت إلى غرفتها حتّى ألقت برأسها على الوسادة واندفعت تبكي في حرقة وألم، فلم تكن تعرف كيف يمكنها التخلّص من هذا المأزق الجديد.

إنّها كانت ومنذ البداية تكره ماهراً ولا ترضاه زوجاً لها لضعف شخصيته وميوعته، أمّا الآن وقد عرفت من دينها أكثر ممّا كانت تعرف، فقد أصبح من المستحيل أن ترضاه وهو على ما هو عليه من انحراف وتبذّل، وصمّمت أن تخوضها معركة قويّة وصريحة مع الجدّة مهما كلّفها ذلك من صعاب.

وبعد مضي ساعة صعدت إليها الجدّة وهي بين الشدّة واللِّين وقالت لها:

- لقد تصرّفت اليوم تصرّف الأطفال يا ورقاء، فلم يكن من الّلائق بك أن تعاملي ابن عمّك هذه المعاملة الجافّة، وهو يحبّك ويحترمك، وما جاء إلاّ للتعرّف عليك.

قالت ورقاء: ولكنّني لا أُريد التعرّف على أمثاله يا جدّتي، إنه إنسان غير صالح.

قالت الجدّة: إنّك غلطانة يا ورقاء، فهو شاب جميل ومثقّف وناجح في عمله، وليس لديه سوى أُمّه العجوز، تصوّري أنه عنده من السيارات الخصوصية ثلاث.

قالت ورقاء: ولهذا فهو إنسان تافه، وإلاّ فما حاجة فرد واحد لثلاث سيارات؟

قالت الجدّة متجاهلة كلمات ورقاء الأخيرة:

- إنّك تعلمين أنه تقدّم لخطبتك قبل ستّة أشهر وقد أجّلت الموضوع إلى ما بعد تخرّجك، وها هو قد جاء يجدِّد الخطبة، لأنك على أبواب الامتحانات النهائية، وهو يقول أنه مستعد لتقديم أغلى مهر مع سيارة مرسيدس خاصّة بك.

فقالت ورقاء: هل أنت جادّة في حديثك يا جدّتي؟ هل تحتملين حقاً بأنني أُوافق على الاقتران بماهر؟ وأن آلافه وسياراته سوف تغريني بأن أبيع ديني من أجلها؟

قالت الجدّة: وما دخل دينك في الموضوع؟

قالت ورقاء: ألا تعلمين أنه إنسان غير ملتزم حتّى بالصلاة؟

قالت الجدّة: إن حسابه ليس عليك يا ورقاء. إن له رباً يحاسبه ويعاقبه يا عزيزتي.

قالت ورقاء: إن الاقتران برجل غير متديِّن غير وارد في حسابي يا جدّتي.

قالت الجدّة: ولكنه إنسان محترم، هبيه غير ملتزم دينياً، ولكن عدم التزامه سوف لن يضرّك أنت يا ورقاء.

قالت ورقاء بشيء من العنف: إنك لا تريدين فهم ما أعني يا جدّتي، ولهذا فأنا أقول لك كلمة واحدة وهي كلاّ...

قالت الجدّة: ولكن لديك فترة للتفكير، فأنا أخشى أن تندمي على هذا الرفض.

قالت: كوني مطمئنة فإني لن أندم على ذلك.

قالت الجدّة: وإذا لم تحصلي على الرجل الذي نسجته أفكارك يا ورقاء؟

قالت: سوف لن أتزوّج حينذاك. ولكنّه غير متعذّر المنال يا جدّتي.

قالت الجدّة: أراك ما زلت طفلة يا ورقاء، وإلاّ فليس من صالحك أبداً أن ترفضي ماهراًمن أجل قضايا غير مهمّة.

فابتسمت ورقاء بمرارة وقالت:

- كيف تقولين أنّها قضايا غير مهمّة يا جدّتي؟ إنّني رفضت سناداً لأنّ أباه

قاتل أبي أي أن أباه قد أجرم بحق أبي مع أن سناداً لم يرتكب أي خطأ في حق أبي ألَيس كذلك؟ وماهر هذا هو بشخصه قد أساء لربِّي وقد أجرم بحقه لكفرانه بالنعم واستهانته بالعذاب وتجنّبه للإطاعة، وديني هو أثمن شيء عندي وأعزّ عليَّ من أبي، فكيف تريدين منّي أن أقرن حياتي مع إنسان يعاديني عن طريق عداء ديني؟

قالت الجدّة بشيء من الضيق: ها أنت ما زلت تذكرين سناداً بكل خير، ولا أحسبك إلاّ عازفة عن الزواج بسببه.

قالت ورقاء: أمّا أنني أذكره بكل خير، فهو لا يستحق منّي ذكر السوء يا جدّتي، وأمّا أنني عازفة عن الزّواج بسببه فهذا غير صحيح، لأن موضوعه قد انغلق، ولعلّه الآن في طريقه للزّواج.

قالت الجدّة: إنني لا أُريد أن تذكريه بالسوء فما وجدنا منه ما يسيء، وأنا أعترف لك بأنه إنسان كامل وأنه خير من ماهر، ولكنه ابن قاتل أبيك، وماهر ابن عمّك، ولولا هذا لما قدّمت أحداً عليه، وعلى كل حال فأنا أرجو أن تراجعي نفسك في موضوع ماهر ولا تسيئي إليَّ وإلى ذكرى أبيك في رفضه.

□□

لم تتمكّن ورقاء أن تنام ليلتها تلك، فقد هزّتها هذه الحادثة وأسلمتها للحيرة والقلق، وفي اليوم الثاني ذهبت إلى معاد فتناست هناك بعض آلامها، وفكّرت أن تحدِّثها بأمر ماهر، ولكنّها آثرت أن تستغل الوقت في حديث ذي فائدة فقالت:

- بودِّي لو أكملت حديث أمس يا معاد.

قالت معاد: ولكنّني أجدك اليوم غير منشرحة الصدر، وأخشى أن يضايقك ذلك.

قالت ورقاء: كلاّ فإنني أُريد أن أتناسى الألم بين أفكار المعرفة، فإن من أسعد الساعات عندي ساعة تزيدني علماً.

قالت معاد: إذن دعينا نبدأ معهم من جديد.

قالت ورقاء: مع مَنْ؟

قالت: مع هؤلاء الذين يقولون بأزلية المادة ويوعزون الخلق إلى حركتها فنقول لهم: هبوا أننا قلنا معكم بأزلية المادة فكيف نتمكّن أن نفسِّر انتقال المادة من حال إلى حال واختلافها في النتيجة مع أن المادة في حالتها البسيطة واحدة؟ أو كيف نفسِّر اختلاف بعض أجزاء المادة عن البعض؟

قالت ورقاء: ماذا تعنين بانتقال المادة من حال إلى حال؟

قالت معاد: أقصد تحوّل المادة، مثل الهيدروجين يتطوّر إلى أن يصل إلى اليورانيوم ثمّ اليورانيوم يتحوّل بعد اشعاعه إلى عنصر الراديوم ثمّ يتحوّل الراديوم إلى عنصر آخر، وهكذا حتّى يصير رصاصاً وهنا يقل التطوّر.

قالت ورقاء: ولماذا يقف التطوّر؟

قالت معاد: نعم لماذا يقف التطوّر؟ ولماذا يتطوّر بعض الهيدروجين دون البعض؟

قالت ورقاء: إنّهم يقولون أن التطوّر هو نيتجة لاحتواء كل عنصر على نقيضه.

قالت معاد: ولكن إذا كان هذا صحيحاً فهو يعني أن جميع الهيدروجين يحتوي على نقيضه فلماذا لم يتطوّر بمجموعه حتّى تتلاشى مادة الهيدروجين وتتحوّل بمجموعها إلى اليورانيوم؟

فردّت ورقاء تقول: نعم لماذا؟

قالت معاد: إذن فلا بدّ من وجود عاقل مؤثِّر وراء تطوّر المادة، إنّ المادة وكما أثبت العلم تتكوّن من شحنات كهربائية لا غير، إذن فهي غير عاقلة، فكيف أمكنها أن توجِد الخلق بهذا الشكل المنظّم المتقن؟

وسكتت معاد عند هذا الحد وهي تتطلّع إلى وجه ورقاء، ثمّ قالت: ماذا بك يا ورقاء؟

قالت ورقاء: لا شيء.

قالت معاد: سواء كان هناك شيء أو لم يكن، فأنا أرجو أن تكوني قويّة وقويّة جدّاً.

قالت ورقاء: سوف أكون قويّة بإذن الله يا أُختاه، وها أنا الآن قد ارتحت لجلوسي معك وازددت قوّة وثباتاً.

قالت معاد: ولكنك شاحبة الوجه قليلاً، ولهذا فآليك هذا القرص الفوار اشربيه مع نصف كوب ماء.

فابتسمت ورقاء وقالت: لقد نسيت يا معاد أنك طبيبة أبدان، وما عدت أعرف عنك سوى طب الروح والفكر.

فضحكت معاد وقالت: إنني أعتزّ بطب الأرواح أكثر من طب الأبدان.

قالت ورقاء: والآن فإن عليَّ أن أذهب، وسوف لن أتمكّن أن آتي إليك غداً لأن دوامي يستمر حتّى الغروب.

قالت معاد: أمّا بعد غد فسوف تجدينني وحدي هنا إن شاء الله.

فنهضت ورقاء وهي تقول: إذن إلى اللقاء.

وهكذا افترقتا على أمل اللقاء بعد يومين.

□ □

مرّ اليوم الثاني دون أن تتحدّث الجدّة مع ورقاء في موضوع الخطبة، وكانت ورقاء تبدو حزينة وقد عادت إلى البيت مرهقة وصعدت إلى غرفتها مبكّرة، وفي صباح اليوم الثاني حينما كانت تقف تنتظر الباص وقفت أمامها سيارة مرسيدس فارهة ونزل منها ماهر وهو يقول: صباح الخير يا ورقاء، فرصة سعيدة أن أتمكّن من ايصالك إلى الكلّيّة.

فلم تغيّر ورقاء من وقفتها شيئاً، وإنما أجابت بهدوء قائلة: كلاّ أشكرك يا أُستاذ.

قال ماهر: تفضّلي واركبي، أرجوك.

قالت ورقاء: شكراً فإنني أنتظر.

قال: هل تنتظرين أحداً؟

قالت: كلاّ بل إنني أنتظر الباص.

فضحك ماهر وقال باستغراب: تنتظرين الباص، وتمتنعين عن ركوب سيارة مرسيدس.

قال هذا بافتخار واعتزاز زاد من احتقار ورقاء له، فأدارت وجهها ناحية وهي تقول:

- أرجو أن لا تتعب نفسك بالتأخّر، فإنني سوف لن أركب.

قال: إن التعب في سبيلك راحة، واعتبري السيارة سيارتك منذ الآن، واركبي فيها دون مضايقة.

وهنا وصل الباص، فأسرعت نحوه ورقاء وهي تقول:

- ها هو الباص قد وصل، مع السلامة، ثمّ ركبت الباص تاركة ماهراً يتطلّع إلى السيارة بإعجاب ويستغرب عزوف ورقاء عنها.

وقد أثّرت هذه الحادثة في نفسية ورقاء، فذهبت ذلك اليوم إلى معاد وهي في حالة نفسية سيئة، وكان موعدها معها في البيت ولهذا ذهبت رأساً إلى هناك فوجدت معاداً مشغولة بالتنظيف والترتيب، فحاولت أن تشاركها العمل، ولكن معاداً منعتها عن ذلك، لأنها لاحظت عليها آثار الشحوب والارهاق.

وما أنت انتهت من أعمالها حتّى عرضت على ورقاء أن تجلس قليلاً تحت ظلال الأشجار، فجلست ورقاء جلسة الحائر الكئيب.

فقالت لها معاد: ما لك يا ورقاء؟

قالت ورقاء: إنني غير مرتاحة يا معاد.

قالت معاد: إن هذا واضح عليك يا ورقاء، ولكن ألم نتفق أن تكوني أقوى من الألم؟

قالت ورقاء: إنني قويّة أمام المهمّات والحمد لله، ولكن المضايقات البسيطة تتعبني يا أُختاه، فأنا منذ مدّة أعيش مع سلسلة إحراجات، إذ قد تقدّم لخطبتي ابن عمي - أي ابن عم أبي - وقد ساندته جدّتي إذ أنه في نظرها متكامل الجوانب: شاب جميل وغني ومثقّف.

وسكتت ورقاء عند هذا. فتساءلت معاد باهتمام قائلة: ومتديِّن؟

قالت ورقاء: كلاّ، وهذا هو مصدر المضايقات التي أُعانيها، لأني وبطبيعة الحال قد رفضته نهائياً ولكن جدّتي لا تفتأ تناقش الأمر بالشدّة حيناً وباللِّين أخرى، وهو ما زال يحاول مضايقتي وفرض وجوده عليَّ، وهذا هو ما يتعبني نفسياً ويجعلني أعيش في صراع مستمر.

وهنا عادت معاد تسأل في لهفة أيضاً قائلة: صراع؟ مع مَنْ يا ورقاء؟

قالت: صراع مع جدّتي ومع مضايقاته هو.

قالت معاد: لقد خشيت أن يكون الصراع مع نفسك يا أُختاه.

قالت ورقاء: كلاّ فإنّ الأمر عندي واضح لا يستوجب أي تفكير أو صراع.

قالت معاد: وهذا هو المأمول منك يا ورقاء، إن عليك أن تتحمّلي بعض المضايقات إلى فترة قصيرة تتخلّصين في مقابلها من مضايقات طويلة وطويلة جدّاً.

قالت ورقاء: تقصدين مضايقات الزواج من رجل غير متديِّن؟

قالت معاد: نعم، لأن تلك المضايقات تمدّ جذورها في الحياة الأُولى والثانية وتؤثِّر على المستقبل القريب والبعيد.

قالت ورقاء: ولكن كيف يمكنني أن أُقنع جدّتي بوجهة نظري؟

قالت معاد: لا أحسب أنها سوف تقتنع بوجهة نظرك يا ورقاء، لأنها تنظر إلى الموضوع بمنظارها الخاص، ولهذا عليك أن تستدرجيها عاطفياً حتّى تلين وتتنازل عند رغبتك.

قالت ورقاء: إنها شديدة لا تؤثر فيها العواطف، ولكنني سوف أُقاوم بأي شكل من الأشكال.

قالت معاد: ولكن ما الذي يدعوها إلى هذا الاصرار يا ترى؟ وأي مكسب لها فيه؟

فسكتت ورقاء ولم تعرف كيف تجيب، لأنها كانت تخمّن أن من أهم

أسباب إصرار جدّتها هو إبعادها عن معاد، ولكن هل كان يمكنها أن تقول لمعاد ذلك؟ لهذا سكتت وبقيت ساكتة، فعادت معاد تقول:

- لا شك أن هناك أسباباً تدعوها إلى هذا الإصرار، فإن لكل شيء سبباً يا ورقاء.

وهنا أرادت ورقاء أن تبدِّل مجرى الحديث فقالت:

- نعم ونتيجة لهذا (قاعدة أن لكل شيء سبباً) يضطر منكرو الله تبارك وتعالى أن ينسبوا الخلق إلى المادة مع عجزها عن ذلك، لأنهم لا يتمكّنون أن يقولوا أن هذا الخلق وُجِدَ بدون سبب.

قالت معاد: نعم وهذا هو ما يشترك فيه الماديون والإلهيون مع اختلاف السبب الذي يؤمنون به.

قالت ورقاء: وكيف؟

قالت معاد: أقصد أننا نحن وهم نؤمن:

أولاً: بأن الكون مخلوق أي حادث، وأن هناك مؤثراً تنتهي إليه أسباب الوجود.

ثانياً: بأن وجود الكون حقيقة لا جدل فيها خلافاً للمثاليين الذين يشكِّكون في وجود كل شيء.

ثالثاً: بإحساس الإنسان بأنه يستند في وجوده إلى قوّة أثّرت في تحقيق هذا الوجود على اختلاف في تأويل هذه القوة.

وهنا قالت ورقاء: وهل أن الماديين يعترفون في كتبهم بهذه الحقائق؟

قالت معاد: نعم، ومثال ذلك ما جاء في كتاب (نقد الفكر الديني) قوله: (في الواقع علينا أن نعترف بكل تواضع بجهلنا حول ما يتعلّق بمشكلة المصدر الأوّل للكون).

قالت ورقاء: إذن فإن هذه حقائق يشترك فيها الماديون والإلهيّون؟

قالت معاد: نعم ولكن الماديين يرجعون السبب إلى المادة وحركتها، والإلهيّون يرجعونه إلى الواحد القهّار.

قالت ورقاء: ولكنّهم كيف يدعون أزلية المادة مع ما ثبت من إمكان تغيّرها والأزلي لا يمكن له أن يتغيّر؟

قالت معاد: نعم إن الأزلي لا يمكن له أن يتغيّر يا ورقاء، لأن التغيير يحتاج إلى بداية وكل ما يحتاج إلى بداية معرّض للنهاية.

قالت ورقاء: إذن فإن ما أثبتته الفيزياء من أن الذرات مركّبة من عدّة كهارب ودقائق وأنها من الممكن لها أن تتحلّل أو تتجزّأ إلى طاقات يثبت عدم أزلية المادة، لأن الأزلي لا يقبل التركيب؟

قالت معاد: ولكن هل تعلمين لماذا الأزلي لا يقبل التركيب؟ لأننا حينما نقول أن الأزلي لا يقبل التركيب نقصد أننا لو سألنا عن هذا المركّب كيف وُجِدَ، هل كان مركّباً في الأزل أم أن أجزاءه رُكّبت بالتدريج، وهل حدث هذا أوّلاً أم وُجِدَت أجزاؤه قبله، فماذا سوف يكون الجواب؟

قالت ورقاء: هبيهم يقولون أن أجزاءه قد حدثت قبله؟

قالت معاد: إذن فإن معنى ذلك أنه حادث وليس أزلياً، لأن أجزاءه سبقته في الحدوث وهيّأت الأسباب لحدوثه.

قالت ورقاء: وإذا قالوا أن حدوثه كان مواكباً لحدوث أجزائه، أي أنه وأجزاءه حدثاً معاً ومرّة واحدة؟

قالت معاد: عند ذلك نقول لهم: أليس من الممكن أن تتجزّأ عنه هذه الأجزاء أو تنفصل عن طريق التحوّل أو التطوّر، كما تحلّل الماء إلى الأوكسجين وهايدروجين وكما انتقل الهايدروجين إلى اليورانيوم، وهذا أمر محتمل الحدوث لأن كل مركّب معرّض للانحلال ثمّ للفناء نتيجة تحلّل مركّباته وعند هذا نعود لنكرِّر القاعدة الثابتة التي تقول: أن كل ما يجوز فناؤه تستحيل أزليته.

قالت ورقاء: وما هي القاعدة التي تستخلص منها هذه النتيجة (نتيجة أن ما يجوز فناؤه تستحيل أزليّته)؟

قالت معاد: لأنه إذا كان أزلياً فإن معنى الأزلي هو أن وجوده لم يفتقر إلى

علّة أو سبب لأنه هو علّة ذاته بمعنى من المعاني، ولهذا فهو لن يتعرّض أيضاً لعلّة تحول بينه وبين علّة وجوده فتسبِّب فناءه، على خلاف الذي يفتقر إلى علّة لإيجاده، فهو متى ما افتقد تلك العلّة تعرّض للفناء، ولعلّك تعلمين أن العلم أثبت أخيراً إمكان تجزئة الذرة.

قالت ورقاء: إذن فإن الذرات، أي المادة التي ينادي بها الماديون ويقولون أنها الأصل الأوّل للحياة، هذه الذرات يمكن تجزئتها، لأنها مركّبة والمركّب ليس مستحيل التجزئة؟

قالت معاد: وبالتالي فهو ليس أزلياً إذ أنه معرّض للفناء عند افتقاد عناصره لأنه محتاج إلى علّة لوجوده، وتلك العلّة هي الحفاظ على أجزائه، والأزلي لا يحتاج إلى علّة لوجوده.

قالت ورقاء: ثمّ أليس أن في النظرية العلمية التي ثبتت أخيراً (نظرية الانتقال الحراري المستمر من طاقة حرارية عالية إلى طاقة حرارية أقل حرارة) دليل على عدم أزلية الكون؟

قالت معاد: طبعاً، لأن مجرّد الإيمان بوجود تغيير في مستويات الطاقة الحرارية في الكون يجعلنا نعرف أن الكون غير أزلي، إذ لو كان أزلياً لتساوت الحرارة في كل أجزائه منذ أمد طويل جدّاً ولتعذّرت الحياة نهائياً منذ ملايين السنين.

قالت ورقاء: وكذلك فيما أثبته العلم من اتساع الكون، والنسب التي أعطاها لذلك لدليل على عدم أزلية الكون، إذ أنه لو كان أزلياً وهو على هذه النسب من الاتساع لأصبحت المسافات بين الكواكب لا نهائية لأنها تتسع منذ الأزل، إذن فهو مخلوق.

قالت معاد: وخالقه غير مخلوق وهو أزلي غير معرّض للفناء كالمادة ألا وهو الله تبارك وتعالى.

قالت ورقاء: يؤسفني أن عليَّ أن أذهب الآن، وسوف أنقطع عنك خلال الأسبوع القادم لأن الامتحانات قد بدأت اليوم، وأُريد أن أتفرّغ للدراسة.

قالت معاد: أتمنّى لك الموفقية يا أُختاه، وسوف أنتظرك بعد أُسبوع إن شاء الله.

□□

مرّت أيام الامتحانات وقد حاولت ورقاء خلالها أن تتفرّغ إلى دروسها بشكل تام، وأبعدت عن أفكارها أحاديث ماهر وتوابعها، وفعلاً فقد تمكّنت من اجتيازها بتفوّق يدل على النجاح، وفي آخر يوم عرجت في طريق عودتها على معاد فقيل لها أنها مشغولة، فتركت لها ورقة تخبرها بانتهاء امتحاناتها وتقول لها أنها سوف تزورها عصر غد، ثمّ عادت إلى البيت فاستقبلتها جدّتها مشرقة الوجه وقبّلتها بحنان وهي تقول:

- الحمد لله الذي أبقاني حيّة حتّى رأيتك مهندسة.

فابتسمت ورقاء وقالت: ولكنني لم أحصل على النتيجة بعد يا جدّتي.

قالت الجدّة: إنها مضمونة النجاح يا عزيزتي.

قالت ورقاء: أرجو ذلك.

ثمّ صعدت إلى غرفتها فوجدت هناك باقة زهر كبيرة في إناء من الكريستال الثمين وقد تربّعت وسطها علبة بيضاء صغيرة كُتبت فوقها هذه الكلمات: (هديّتي لك بمناسبة انتهاء الامتحانات مع وافر حبيّ.. ه ماهر).

واستغربت ورقاء هذه الهديّة وخمّنت أنها هدية لموقف حاسم، ولهذا فقد نزلت إلى جدّتها وقالت بهدوء: من أين جاءت باقة الورد هذه؟

قالت الجدّة: لقد بعث بها الأُستاذ ماهر مع السائق، وقال أنه سوف يأتي مع أُمّه في المساء.

قالت ورقاء وهي تحاول أن تبدو طبيعية: وهل تعرفين أين يقع بيت هذا الأُستاذ؟

فاستغربت الجدّة هذا السؤال ثمّ قالت: كلاّ، أنا لا أعرف موقع بيته الجديد، ولكن لماذا تسألين؟

قالت: لكي أُعيد إليه باقة الزهر هذه.

قالت الجدّة في هلع: تعيدين باقة الزهر؟ هل أنتِ مجنونة يا ورقاء؟ هل رأيتِ الخاتم الماسي الذي في العلبة؟

قالت ورقاء: إنني لم أفتح العلبة ولا شغل لي بها، ولن أقبل هذه الهديّة بأي شكل من الأشكال.

قالت الجدّة: لا شك أنك مجنونة يا ورقاء، ليس هناك إنسانة عاقلة تتصرّف هذا التصرّف المشين، إنه إبن عمّك وخطيبك في الوقت نفسه.

وهنا أجابت ورقاء بشيء من العنف قائلة: ماذا قلت يا جدّتي؟ مَنْ هو خطيبي؟

قالت: ماهر.

قالت: ومتى أصبح خطيبي، مع أنني لم أُوافق على قبوله أبداً؟

قالت الجدّة: فكِّري قبل أن تقطعي بالأمر يا ورقاء، إنه إنسان ممتاز يليق لك من جميع الجهات.

قالت ورقاء: لقد فكّرت بما فيه الكفاية، وليس لديَّ إلاّ الرّفض.

قالت الجدّة: ولكن ماذا تأخذين عليه يا ترى؟

قالت ورقاء: أوّلاً وبالذات كونه غير متديِّن.

قالت: يمكنك هدايته بعد ذلك.

قالت: وإذا لم يهتد؟

قالت: دعيه هو وشأنه وأنت وشأنك، إنك لن تنامي معه في قبره يا ورقاء، تنعّمي بخيراته ودعيه يتعذّب وحده في النار.

قالت ورقاء: إن هذه لن تكون حياة زوجية بل شركة تجارية استغلالية لا أكثر ولا أقل.

قالت الجدّة: إذن؟

قالت ورقاء: إذن سوف لن أُوافق.

قالت الجدّة: وهديته؟

قالت ورقاء: إن جميع هداياه وسياراته وعماراته لا تساوي عندي شيئاً ما دام هو بشخصه يفتقر إلى الدِّين، أعيدي إليه هديّته وقولي له أن يفتش عن عروس يليق بها وتليق به.

قالت الجدّة في غضب: إنني لن أقول شيئاً من هذا، أعيديها أنتِ إليه إذا أردت.

وفي المساء حضر ماهر وحده، فرحّبت به الجدّة وجلست معه في غرفة الاستقبال، وكأنها أرادت أن تقول شيئاً تمهِّد فيه لما قد يصدر عن ورقاء فقالت: إنني أشكرك جدّاً لهديّتك الثمينة يا أُستاذ ماهر.

قال: إنها أقل الواجب تجاه ورقاء، أرجو أن يكون الخاتم على قياسها؟

قالت الجدّة: الحقيقة أن ورقاء ما زالت طفلة، ولهذا فهي في حاجة إلى تدرّج في الترويض.

قالت: كيف؟

قالت: تصوّر أنها لم تلبس الخاتم بيدها لحد الآن، لأنها تقول بأنها ما زالت تعبانة من الامتحانات.

قال: إن من حقها أن تستريح فترة، ونحن لا نريد فعلاً سوى الموافقة المبدئية ثمّ تقديم نيشان الخطوبة، وقد اخترت لذلك طقماً ثميناً من الماس وجدته ملائماً لشباب ورقاء وجمالها، وما أتيتُ إلاّ من أجل تحديد الوقت المناسب لتقديمه.

فارتبكت الجدّة وقالت: سوف أتصل أنا بكم لتحديد الوقت المناسب بعد أن أُقنِعها بالقبول.

قال ماهر: عجيب أن تكون في حاجة إلى ترويض وإقناع، إنه أمر طبيعي وبديهي الصّلاح، ولكنها على ما يبدو ما زالت صغيرة.

فتأثرت الجدّة لهذا الأُسلوب في الكلام، ولكنّها استمرّت على خطّ المجاملة ولهذا قالت:

- صحيح أنها ما زالت صغيرة ولكنها عاقلة وحكيمة والحمد لله، ولعلّ لديها وجهة نظر معيّنة سوف أتمكّن من تصحيحها خلال أيام.

وقبل أن تنتهي الجدّة من كلماتها انفتح الباب ودخلت ورقاء وهي تحمل بيدها علبة الخاتم الصغيرة البيضاء، فخفق قلب الجدّة بعنف وهزّها الارتباك لما سوف يحدث، أمّا ورقاء فقد سلّمت وجلست على أقرب كرسي من الباب.

فنهض ماهر لاستقبالها ورحّب بها بحفاوة، وما أن استقرّ بها الجلوس حتّى التفتت إليه وهي تقول:

- إنني أشكرك على باقة الزهر التي أرسلتها صباح اليوم يا أُستاذ، وسوف أتقبّلها كتحيّة طيّبة من ابن عم طيّب، أمّا هذه العلبة فأنا أعتذر عن قبولها لعدم وجود مناسبة لها.

فبهت ماهر لحظة ثمّ قال في تلعثم: ماذا تقصدين بهذا يا ترى؟

قالت: أقصد بأنك ابن عم أبي، فلتبق علاقتنا على هذا المستوى لا أكثر ولا أقل.

قال: صحيح أنني ابن عم أبيك، ولكن أليس من حقّي أن أطمع بتعميق هذه العلاقة؟

قالت باقتضاب: كلاّ.

قال: هل تسمحين لي أن أسأل عن السبب؟ لقد لاحظت منك نفوراً منذ البداية، فهي قصّرت في شيء أو هل أسأت إليك بشيء؟

قالت: كلاّ إنك لم تقصر في حقّي، ولم تسىء إليَّ، ولكن رفضي هذا من صالحك وصالحي يا أُستاذ.

قال: كيف عرفت أنه من صالحي يا ورقاء؟

قالت: لأنني سوف لن أكون القرينة الحقيقية لك يا أُستاذ؛ إن هناك فارقاً مهمّاً لا يمكننا تجاوزه في الحياة الزوجية، فلنكن أبناء عم فقط وهذا يكفي.

قال: إذا كنت تفكّرين بالفارق المادي فأنا لا يهمّني ذلك من قريب أو بعيد، إنني أنسى حينما تصبحين زوجتي بأن هناك فوارق في الحالة المعاشية، وسوف أضع جميع ما أملك أمامك تتصرّفين فيه كما تشائين.

فزادت هذه الكلمات من غيظ ورقاء، ولكنّها جاهدت أن تسيطر على أعصابها أكثر، ولهذا ردّت بهدوء قائلة:

- إنك لم تستوعب فهم ما أردت أن أُشير إليه، فالفارق الذي ذكرته ليس هو الفارق المادي.

فقاطع حديثها قائلاً: إذن فهو فارق اجتماعي؟ ولكنّنا متجانسون فنحن أولاد عم، وكل منّا يحمل شهادة مهندس.

فهزّت ورقاء رأسها في استنكار، وقالت بشيء من الحدّة: ألا تريد أن تتركني أُكمل حديثي يا أُستاذ؟

قال: عفواً تفضّلي.

قالت: إن الفارق المهم الذي أعنيه هو الفارق الديني يا أُستاذ.

قالت هذا وسكتت تنتظر ردود الفعل.

فسكت ماهر لحظة ثمّ تنحنح يداري بذلك ارتباكه. واغتنمت الجدّة هذه الفرصة لتدخل في النقاش فقالت:

- إن الفارق الديني غير مهم، فهو لن يجبرك على التغيير من وضعك يا عزيزتي، أليس كذلك يا أُستاذ ماهر؟

وكانت الجدّة قد أعطت لماهر بحديثها هذا فرصة لإستعادة وضعه الطبيعي، حيث أجاب قائلاً باندفاع:

- طبعاً، طبعاً، فأنا لا أُريد أن أمنعها عن شيء تريده هي أبداً، وإذا كان هذا هو المانع فقد ارتفع.

فابتسمت ورقاء في مرارة وقالت: إنني لا أُريد أن أُطيل الحديث، ولكنك تضطرّني إلى ذلك، الآن دعني أسألك سؤالاً واحداً: ما هو مفهوم الحياة الزوجية عندك؟

فظهرت الحيرة على ماهر، لأنه لم يكن قد فكّر بمفهوم خاص للحياة الزوجية من قبل، ولهذا تردّد لحظة ثمّ قال: حياة زوجية سعيدة!

قالت: إنك لم تذكر مفهومها عندك، وليس ما ذكرته سوى نتيجة لتحقيق ذلك المفهوم.

فضحك في بلاهة وقال: إذن فأي مفهوم تريدين؟

قالت ورقاء: أنا لا أُريد شيئاً، ولكن أُريد أن أعرف نظرتك عن طبيعة الحياة الزوجية.

وهنا تدخّلت الجدّة لتنقذ الموقف من جديد فقالت: دعكِ من هذا الكلام يا ورقاء، إنه ابن عم أبيك وهذا يكفي.

فاستدارت ورقاء نحوها وقالت: أرجو أن تفهمي ما أعنيه يا جدّتي، فإذا كان هو لا يريد أن يفهم فافهمي أنتِ على الأقل، إن الحياة الزوجية ليست شركة مادية، أو ندوة اجتماعية، وإنما هي وحدة روح وفكر ومصير، وهذا ما لا يمكن أن يتحقّق مع اختلاف السلوك وتباين وجهات النظر. وما دمنا لا نستطيع أن نلتقي فكرياً فلن نستطيع أن نلتقي عاطفياً، وعدم الالتقاء العاطفي هو أوضح دليل لفشل الحياة الزوجية، ولهذا فأنا لا أُريد لنفسي ولا أُريد له أيضاً أن نرتبط بحياة زوجية فاشلة.

وسواء فهمت الجدّة حديث ورقاء أو لم تفهم، فإنها ردّت عليها قائلة في إلحاح: إن في امكان كل منكما أن يبقى على ما هو عليه.

فتأفّفت ورقاء وقالت: إن هذا هو ما أعنيه من الفصام الفكري والعاطفي.

قالت الجدّة: أَوَليس من الممكن أن تتقارب وجهات النظر بعد الزواج؟

قالت ورقاء: كلاّ يا جدّتي، لأن ذلك التقارب يستوجب إعطاء تنازلات من الطرفين، وأنا غير مستعدّة لإعطاء أي تنازلات مهما كانت بسيطة، إن ديني أهم شيء عندي لأنه هو الذي يحدِّد مستقبلي في الغد القريب.

وهنا وجد ماهر مجالاً للدخول في النقاش فقال متحذلقاً:

- عفواً يا ورقاء، ولكن أي دخل لدينك في المستقبل، ومستقبلك مضمون كمهندسة ميكانيكية سواء كنت متديِّنة أم لا، كما ضمنت أنا مستقبلي كمهندس معماري مع عدم التزامي بالدِّين؟

قالت ورقاء: ها أنت لا تريد أن تفهم ما أقول، إن المستقبل الذي أعنيه هو مستقبلي بعد الموت، وهذا ما لم تضمنه أنت، وما أُريد أن أضمنه أنا مهما استطعت، إنني أُخطّط لمستقبلي كمهندسة لأن هذا المستقبل مهما طال فهو محدود الأمد، أمّا ذاك المستقبل فهو ما لانهاية له.

فرأت شحوباً باهتاً على وجه ماهر، وكأنّ كلمات ورقاء الأخيرة قد أثّرت عليه، ولكن الجدّة أرادت حسم النقاش، فتوجّهت نحو ورقاء قائلة بلهجة آمرة:

- إذهبي الآن إلى غرفتك، فإن لدينا مجالاً طويلاً لتدبّر الأمر.

ولما لم تتحرّك ورقاء ألحّت عليها قائلة: قومي واذهبي، كفاية كلمات صبيانية يا ورقاء.

وهنا ضحك ماهر ثمّ قال: إنها معذورة، فقد رُبِّيت تربية معقّدة منطوية، وأنا أرجو أن أفتح لها بيدي هاتين أبواب الحياة السعيدة؛ حياة الانطلاق والحرِّيّة، إنها ولا شك واقعة تحت تأثير سيِّء لعلّه من صديقة أو صديق.

ولم يفت الجدّة ما عناه ماهر بكلمته الأخيرة، فردت عليه في حدّة قائلة:

- أرجوك أن تسحب كلمتك الأخيرة يا أُستاذ، يا أُستاذ، إن ورقاء شريفة وطاهرة وليست ممّن يصادق الرجال.

ثمّ التفتت إلى ورقاء تقول: قومي واذهبي إلى غرفتك يا ورقاء.

فنهضت ورقاء وهي مغضبة، ثمّ ودّعتهم باقتضاب وذهبت إلى غرفتها حيث جلست على حافّة السرير تنتظر انصراف ماهر، وهي ترتجف من شدّة التأثر.

أما الجدّة فقد بدأت بالاعتذار من ماهر، وكأن هذا الموقف من ورقاء دفع ماهراً إلى مزيد من الاصرار وقد لبس لذلك لبوس العناد، وأحسّ بالرغبة في سحق هذه التي رفضته ورفضت معه ذهبه وعماراته وسياراته، ولهذا صمّم أن يبدو أمام الجدّة كإنسان ليِّن الجانب صبور على الأذى، فأجابها على كلمات الاعتذار قائلاً:

- لا عليك يا جدّتي إنّني سوف أُحاول إقناعها بأساليبي الخاصّة، وحاولي أنت مساعدتي أيضاً، واتصلي بي عند أوّل بادرة اقتناع.

قال هذا ثمّ ودّعها وخرج، وقد صمّم أن ينتقم من ورقاء وأن يقف بالمرصاد لكل من يتقدّم لخطبتها، فأمّا أن يدعيها لنفسه وأمّا أن يشوّه سمعتها عنده حتّى يضطرّها أخيراً إلى التنازل له، وعند ذلك يرفضها كما رفضته الآن.

وأمّا ورقاء فقد بدأت تشعر بالراحة نسبياً لأنها حسمت الموضوع وتخلّصت من ماهر، وقد حاولت أن تنسى المضايقات التي حدثت معتبرة نفسها منتصرة في هذه الجولة، ولهذا فقد نزلت من غرفتها في صباح اليوم الثاني وهي منشرحة الصدر مشرقة الوجه، الشيء الذي استغربت له الجدّة، وكانت تتوقّع أن تجدها في حالة نفسية سيئة.

وكانت ورقاء تتعجّل الذهاب إلى معاد لكي تحدِّثها بما جدّ في الأمر، ولكنها عندما ذهبت إليها عصراً وجدتها مشغولة مع حالة مرضية مستعجلة، فعادت إلى البيت وإذا بجدّتها تستقبلها عند الباب قائلة بصوت خافت:

- إصعدي إلى غرفتك دون أن يصدر عنك أي صوت.

فبهتت ورقاء وقالت: لماذا؟ ما الخبر؟

قالت الجدّة: صه، إصعدي بسرعة، وسوف أصعد إليك فيما بعد، إياك أن تنزلي قبل أن أُناديك.

فصعدت ورقاء إلى غرفتها وهي في حالة قلق وارتباك، فقد أوحى إليها منظر جدّتها بوجود أحداث غير مريحة، وكلّما ضربت أخماساً بأسداس لم تتمكّن أن تقف عند فرض معقول، وتعلّقت عيناها بعقارب الساعة تستحثّها على المسير ولكنها كانت تأبى أن تتحرّك وكأنها تحجّرت في مكانها من الصفحة السوداء.

وبعد أكثر من ساعة سمعت صوت الباب ينغلق ثمّ صوت جدّتها يناديها إلى تحت، فنزلت على عجل، فاستقبلها وجه الجدّة كئيباً شاحباً فأرعبها ذلك وقالت في فزع:

- ماذا بك يا جدّتي؟ ماذا حدث بالله عليك؟

قالت الجدّة: هل تعلمين مَنْ كان هنا قبل دقائق؟

قالت ورقاء: من أين لي أن أعلم يا جدّتي؟

قالت: إنّه حامد أفندي!!

فبهتت ورقاء وقالت باستنكار: حامد أفندي؟ هذا الاقطاعي المعروف؟

قالت الجدّة: نعم، هذا الذي شرّدنا عن أرضنا واستغلّ خيراتنا.

قالت ورقاء: وماذا كان يريد؟

قالت الجدّة: لقد جاء يطالب بحقه في قطعة الأرض التي بحوزته، وحقه في هذا البيت لأنه رهن عنده بأوراق رسمية، ولا توجد أوراق رسمية تثبت سداد الرهان لأنها سُرِقَت من المعمل كما ذكرت لك سابقاً، وهو يقول: أنه ما صبر علينا إلاّ انتظاراً لتخرّجك من الكلِّيّة ولهذا فهو الآن يطالب بحقه وتصفيه الحساب إلاّ إذا...

وسكتت الجدّة وكأنها لم تجرؤ أن تزيد على ذلك شيئاً.

فقالت ورقاء في لهفة: إلاّ إذا ماذا يا جدّتي؟

قالت الجدّة: إذا وافقنا على شيء.

قالت ورقاء وهي تتلفّت حولها في حركة لا اختيارية وكأنها تطلب النجدة، قالت: إلاّ إذا وافقنا على أي شيء يا جدّتي؟

قالت الجدّة: على قبول ابنه ناصر صهراً لنا، فهو حين ذلك سوف يُعيد إلينا أرضنا كاملة ويعترف لنا بهذا البيت.

فأحسّت ورقاء وكأن صاعقة قد انقضّت على رأسها وقالت في هلع: وماذا قلت له يا جدتي؟

قالت الجدّة: لقد أسعفني الله بجواب أنقذ الموقف مؤقّتاً.

قالت ورقاء: وكيف؟

قالت: لقد قلت له بأنك معقودة، ولم يكن يسعني غير ذلك كي لا أُثير غضبه علينا، ولا أدع له مطمحاً فيك بعد اليوم.

قالت ورقاء: ولكن كيف قلت له هذا وسوف ينكشف بطلانه من بعد؟

قالت الجدّة: ولهذا أصبح محتماً عليك أن تقبلي بماهر في أسرع وقت، فإن ماهراً مهما كان هو أفضل من ابن حامد أفندي الشاب الماجن السكِّير.

فصدرت عن ورقاء آهة جريحة، ثمّ أطرقت برهة رفعت رأسها بعدها وهي تقول:

- كلاّ إنني لن أقبل بماهر مهما كان، دعيه يأخذ منّا كل شيء، إنني أُقدم أرضي وبيتي فداء رخيصاً لديني يا جدّتي.

وهنا ثارت الجدّة ثورة عاتية واندفعت تلطم وجهها وتدق صدرها، وتنادي بالويل والثبور وتكيل لورقاء مختلف كلمات السباب وتتهمها بأقسى التهم.

فحاولت ورقاء تهدئتها، ولكنها لم تتمكّن من ذلك إلاّ بعد جهد، ثمّ صعدت إلى غرفتها وارتمت على فراشها وهي في أسوأ حال.

□□

أصبح صباح اليوم الثاني ولم تنزل ورقاء من غرفتها فحسبت الجدّة أنها نائمة، ولهذا تركتها حتّى ساعة متأخِّرة من الصباح ثمّ دخلت إليها لتوقظها وفتحت باب الغرفة ودخلت وانحنت عليها تناديها، لهالها أن رأت ورقاء غارقة في بحران من الحمّى وقد انصبغ وجهها بزرقة قاتمة وأخذت أنفاسها تتلاحق لاهثة كاوية، فنادتها قائلة: ورقاء! ورقاء.

ففتحت ورقاء عينها، ونظرت إلى جدّتها نظرات تائهة.

فقالت الجدّة: ماذا بك يا ورقاء؟ يا مهندستي الصغيرة؟

قالت ورقاء بصوت واهن متقطِّع: لا أدري.

قالت الجدّة: هل أستدعي لك طبيباً؟

قالت ورقاء: نعم، فإنني لست على ما يرام.

فنزلت الجدّة وهي حائرة ماذا تصنع، ثمّ خطر لها أن تتصل بماهر وتطلب منه إحضار طبيب، فاتصلت به في مكتبه وقالت له في لهفة: أرجوك يا أُستاذ ماهر، أنقذ ورقاء فإنه مريضة جدّاً.

فجاءها الجواب في برود قائلاً: ماذا بها؟

قالت: إنها مريضة وفي حاجة إلى طبيب.

قال: ولكن الأطباء ليسوا في عيادتهم صباحاً.

قالت: ولكن فتِّش، فقد يكون هناك طبيب غير موظّف.

قال: ولكنني مشغول وعندي الكثير من المراجعين، أجِّلي الموضوع إلى العصر، وإذا كانت لا تزال في حاجة إلى طبيب فاتصلي بي مرّة ثانية.

فلم يسع الجدّة إلاّ أن تغلق السكّة وهي بين اليأس والغضب، وصعدت إلى جوار ورقاء وهيّأت لها بعض المجرّبات. ولكن حماها كانت ترتفع ووضعها لا يوحي بأي تحسّن حتّى حان العصر، فأعادت الاتصال بمكتب ماهر فقيل لها أنه غير موجود، فقالت في توسّل: هل تعلمون أين هو؟

قالوا لها: إنه سافر في مهمّة له في خارج البلد وسوف لن يعود اليوم.

فألقت سماعة التليفون وعادت إلى جوار ورقاء تقرأ لها بعض الأدعية مع بعض آيات من القرآن الكريم، وما أن حلّ الليل حتّى أحسّت أن ورقاء قد فقدت شعورها وأن جسمها قد أخذ يتشنّج وقد بدأت تهذي بكلمات غير مفهومة، فطار صوابها وعادت إلى التليفون تطلب فيه ماهراً فلم تحصل له على أثر، وحاولت أن تحصل على سواه، ولكنها لم تتوصّل إلى نتيجة.

فخطر لها خاطر أنكرته على نفسها وأهملته وعادت إلى ورقاء فسمعت أنينها يختلط بالهذيان، ورأت جسمها وهو يتشنّج بشكل مُرعِب ولم يسعها حينذاك إلاّ أن تقول:

لعنة الله عليَّ، لقد قتلت ابنتي بيدي. ولكن عليَّ الآن أن أُنقذها بأي شكل، نعم بأي شكل.

وعادت تنزل إلى جهاز التلفون وأدارت أرقاماً معيّنة وكأنها كانت تغالب نفسها وتريد أن تحقق أمراً قبل أن تتردّد فيه، وكانت تطلب المستشفى، الطابق السابع فردّت عليها من هناك إحدى الممرضات فقالت لها متوسّلة:

- إنني أُريد أن أُكلِّم الدكتورة معاداً.

قالت الممرضة: ولكنها فوق في غرفتها ولعلّها نائمة.

قالت الجدّة: ناديها أرجوك يا ابنتي فإنني مضطرّة إليها.

قالت الممرضة: أعطيني رقم تليفونك لكي أقول لها أن تتصل بك هي فإن الخط لا يمكن أن يبقى مشغولاً مدّة من الزمان.

فأعطتها رقم التليفون وأغلقت السكة وصعدت إلى جوار ورقاء، ولم تمض دقائق حتّى رنّ جرس الهاتف، فأسرعت إليه الجدّة ورفعته وهي تقول: ألو، مَنْ، الدكتورة معاد؟

قالت معاد: نعم، إنني معاد، ولكن مَنْ أنت؟

قالت: إنني جدّة ورقاء، ولقد لجأت إليك في خصوص ورقاء، إنها مريضة ومريضة جدّاً.

فردّت معاد تقول: ورقاء مريضة؟ ماذا بها؟

قالت الجدّة وهي تبكي: لا أدري، اسرعي إليها وانقذيها، إن ابنتي سوف تموت فارحميها بالله عليك يا معاد.

قالت معاد: إنني آتية حالاً يا جدّتي، ولكن أين هو بيتكم؟

فأعطتها الجدّة عنوان البيت وعادت إلى جانب ورقاء وقد تجدّد لديها بعض الأمل، وأخذت تتابع عقارب الساعة بلهفة وقلق، ولم تمض فترة طويلة حتّى رنّ جرس الباب فاندفعت إليه وفتحته لتجد معاداً، ونسيت الجدّة في غمرة قلقها على ورقاء كل أحقادها، ولم تعد تذكر سوى أنها أمام طبيبة سوف تُعيد إليها ابنتها ورقاء، ولهذا فقد استقبلتها بالترحاب وقادتها إلى غرفة ورقاء.

فظهر التأثّر على معاد وهي تشاهد ورقاء في هذه الحالة، ثمّ طلبت من الجدّة أن تعطيها منديلاً لفّته حول رأس ورقاء ثمّ قالت للجدّة:

- هل تسمحين لي أن أستدعي معي طبيباً يا خالة؟ فإنّ الحالة شديدة على ما يبدو.

قالت الجدّة: ولكن أين سوف تجدين الطبيب في هذه الساعة المتأخّرة من الليل؟ أرجوك لا تتركيها هكذا.

قالت معاد: إنه ينتظر في السيارة أمام الباب، فهل تسمحين له بالدخول؟

قالت الجدّة: طبعاً، طبعاً، ما دام فيه شفاء ابنتي.

فنزلت معاد وعادت مع الطبيب، واشتركا معاً في الفحص والتشخيص، وبعد فترة توجّهت معاد نحو الجدّة قائلة:

- يبدو أنها مُصابة بالحمّى القرمزية وهي في حاجة إلى بعض الاسعافات التي لا تتواجد في البيت.

فبهتت الجدّة وقالت: إذن؟

قالت معاد: إذن فهي في حاجة لأن تنقل إلى المستشفى، فهل توافقين؟؟

فذعرت الجدّة ودقّت على صدرها وهي تقول: إذن فهي مريضة جدّاً يا دكتورة؟ الويل لي ما أشقاني فقد قتلت ابنتي بيدي.

وعادت معاد تقول: هل تسمحين لنا بنقلها يا جدّتي؟ قولي فإن الأمر مُستعجل.

قالت وهي تنتحب: وهل لي إلاّ الموافقة ما دامت ضرورية.

وعند ذلك اتصل الطبيب بالمستشفى وطلب سيارة إسعاف، وهكذا تمّ نقل ورقاء إلى المستشفى، ولم توافق معاد على استصحاب الجدّة معهم وتعهّدت لها أن تخبرها عن حالها أوّلاً بأوّل.

سهرت معاد وأخوها سناد الذي كان هو الطبيب الذي جاء بصحبتها، مع ورقاء حتّى الصبح وقد أُجريت لها فور وصولها كل الاسعافات المطلوبة.

وفي ساعة متقدِّمة من الصبح بدأ بعض الهدوء يظهر عليها وإن كانت لا تزال في غيبوبة، ولكن هذيانها أخذ يكون جملاً مفهومة، وكانت معاد تقف إلى جوارها وسناد يجلس على الكرسي الذي في الجهة الثانية حين التقط سمعهما هذه الكلمات التي كانت تردِّدها ورقاء بين كلمات الهذيان، كانت تقول:

«محال أن يكون أبوهما مجرماً، لقد انكسر الصحن يا جدّتي، ولكن معاداً ليست ابنة قاتل، دعيه يذهب هذا المدعو ماهر، سخيف، أرجوك أن ترحميني يا جدّتي، دعيه يأخذ البيت، أنا لا أُريد ماهراً، ماذا سوف أقول لها؟ كيف أرفض أخاها؟ ارحميني، لا تقولي أنها ابنة مجرم، إنها ملاك، لماذا قتل أبوه

أبي؟ أنا لم أره إلاّ مرّتين لا أكثر، كفاك كلاماً يا جدّتي، لا أُريد ماهراً، لا أُريد البيت، لا أُريد، لا أُريد، لماذا قتل أبوه أبي؟ لماذا؟».

هنا التفتت معاد نحو أخيها وقد شحب لونها وقالت: هل سمعت؟

قال سناد بهدوء: نعم، ومن هذا يبدو أنها معذورة في رفضها.

قالت معاد: لقد كنت أُخمِّن شيئاً من هذا، ولكن ما هو العلاج الآن؟

فابتسم سناد وقال: المهم الآن أن تعود إليها صحّتها وبعد ذلك يمكن تسوية الأمر.

□□

مرّ يومان كانت ورقاء خلالهما تصارع المرض حتّى شاء الله تبارك وتعالى أن يساعدها على اجتياز الأزمة، وكانت معاد جالسة إلى جوارها عندما فتحت عينيها ونظرت حولها لأوّل مرّة نظرة تفهّم واستغراب، حتّى استقرّ نظرها على معاد، ثمّ عادت فأغلقت عينيها وكأنها لم تصدِّق ما ترى أو حسبته حلماً من أحلام الحمّى، فانحنت عليها معاد وقبّلت جبينها بحنوّ وهي تقول:

- ورقاء كيف أنتِ يا أُختاه؟

فعادت ورقاء تفتح عينيها وتنظر إلى معاد غير مصدِّقة، ثمّ قالت بصوت واهن:

- هل أنتِ معاد حقاً أم أنني في حلم؟

قالت معاد: كلاّ إنكِ لستِ في حلم يا ورقاء فأنا معاد، والحمد لله الذي منَّ علينا بسلامتك يا أُختاه.

فأدارت ورقاء عينيها إلى الجهة الثانية تفتِّش عن جدّتها، ثمّ قالت: وأين جدّتي إذن؟

قالت: إنها في البيت، فقد نبت عنها بمرافقتك، وسوف أبعث مَنْ يأتي بها إليك ما دامت صحّتك قد تحسّنت والحمد لله.

قالت ورقاء: ولكن كيف وصلت إلى هنا؟ وكيف وصلت أنت إليَّ؟

فضحكت معاد وقالت: أنت الآن تعبانة وعليك أن تخلدي للراحة، وسوف أُخبرك غداً بجميع التفاصيل، وها أنا ذاهبة للاتصال بجدّتك.

قالت ورقاء: كلاّ لا تذهبي وتتركيني وحدي يا معاد فإنني خائفة.

قالت معاد: ولماذا الخوف يا ورقاء وأنت الآن بخير؟

قالت ورقاء: إنني لا أخاف من الحمى ولكنني أخاف من الناس.

قالت معاد: إنني سوف لن أتأخّر عنك أكثر من دقائق إن شاء الله.

وهنا فُتِحَ الباب ودخلت الجدّة مندفعة نحو ورقاء، فبادرتها معاد قائلة:

- إنّها بخير يا جدّتي وقد سألت عنك قبل لحظات.

فانحنت الجدّة تقبِّل ورقاء وهي تسكب الدموع، فسألتها معاد: كيف أتيت وحدك يا جدّة؟

فظهر الارتباك على الجدّة ثمّ قالت: لقد مرَّ عليَّ الطبيب الذي كان معك وجاء بي إلى هنا.

فردّت معاد تقول بشيء من الاعتزاز: إنه أخي سناد، فهل رأيت كم هو رائع يا جدّة؟

فاستغربت ورقاء ما سمعت، ولم تعلم كيف تفسِّر الموقف، ولكنها كانت في حالة لا تسمح لها بالمزيد من الكلام، فأخذت يد جدّتها بين يديها واستسلمت للنوم.

احتلّت الجدّة الكرسي الذي كانت تجلس عليه معاد، وعادت معاد إلى غرفتها ومهامها بعد أن اطمأنت على صحّة ورقاء، وكانت الجدّة المسكينة في حيرة من أمرها وتحديد موقفها من معاد، وقد حدّثت ورقاء بتفاصيل الموقف وكيف أنها اضطرت إلى استدعائها وطلب معونتها بعد أن خذلها ماهر، وحدّثتها بأمانة أيضاً عن الجهود التي بذلت من قِبَل معاد وأخيها من أجل إنقاذها.

وقالت لها ورقاء بعد ذلك: أُنظري يا جدّتي إلى البون الشاسع الذي بين أخلاق ماهر ومعاد.

قالت الجدّة: نعم، لقد كانت معاد وأخوها مثالاً للشهامة وتجاوز الذات، أمّا ماهر فقد ظهر زيف دعواه ولكن...

ثمّ سكتت الجدّة، وفهمت ورقاء ما وراء هذا السكوت، فسكتت هي بدورها أيضاً، وأوكلت الأمور إلى الله الواحد القهّار.

وفي صباح اليوم الثاني جاءت معاد وكانت ورقاء قد تحسّنت صحّتها وجلست على فراشها. ففرحت معاد بذلك وجلست إلى جوارها على حافّة السرير وهي تنظر إليها في سعادة، ثمّ قالت للجدّة:

- إنّ لديَّ ساعة من الوقت أتمكّن أن أجلس فيها إلى جوار ورقاء، فإذا أردت أن ترتاحي خلال هذه الساعة فتفضّلي يا جدّتي.

فرحّبت الجدّة بهذا العرض، واستلقت على الأريكة وأدارت وجهها نحو الجدار.

أمّا ورقاء فقد بدأت تشكر معاداً على موقفها منها فقالت لها:

- إن لك عليَّ حق الحياتين الفكرية والجسمية يا معاد، فكيف لي أن أفي حقك من الشكر يا أُختاه؟

قالت معاد: إن هذا واجب كل أُخت تجاه أُختها ياورقاء، وإنني جد شاكرة لجدّتك اتصالها بنا، وإلاّ لكنتِ ضحيّة من ضحايا هذه الحمّى الحمراء القاسية.

وهنا قالت ورقاء بتردّد: جدّتي، نعم، إنها راضية منكما يا أُختاه.

قالت معاد: إنك ما زلت تنادينني بنداء الأُخوة دون أن تعرفي عنّي كل شيء يا ورقاء.

فبهتت ورقاء لحظة ثمّ قالت: ماذا تعنين يا معاد؟

قالت معاد: أعني أنك ما زلت تجهلين قصّة حياتي.

قالت ورقاء: وهل لحياتك قصّة خاصّة؟

قالت معاد بصوتٍ لا يخلو من بعض الارتباك: نعم إنها قصّة تبدأ منذ كنت أنا وأخي سناد في بطن أُمّنا.

فردّ ورقاء باستغراب: كنت أنت وأخوك حملين في بطن أُمّكما؟ هل أنتما توأمان إذن؟

قالت معاد: نعم، ولم يتقدّمني بالدراسة إلاّ لأنني مرضت في طفولتي وتركت المدرسة ثلاث سنوات.

قالت ورقاء: آه هكذا إذن؟

فقالت معاد: ألم تلاحظي الشبه الشديد الموجود بيننا يا ورقاء؟

قالت ورقاء بشيء من الخجل: الحقيقة أنني لم أُركِّز النظر في وجهه يا معاد.

فابتسمت معاد وقالت: وهذا هو المأمول منك يا ورقاء.

قالت ورقاء: والآن، ما هي القصّة؟

قالت معاد: إنها تتعلّق بأبي!

وهنا خفق قلب ورقاء وقالت: تتعلّق بأبيك؟

قالت: نعم، فقد توفّي قبل أن نرى النور بشهر واحد على أثر حادث اصطدام.

قالت ورقاء بتعجّب: مات قبل ولادتكما؟

قالت معاد: نعم، ولهذا فقد وُلِدْنا يتيمين!!

وهنا تململت الجدّة وكأنها رفعت أُذنها عن الوساة لتسمع بشكل أوضح، وعادت ورقاء تقول في لهفة:

- أنتما ولدتما يتيمين؟

قالت معاد: نعم، هذا هو الواقع، أمّا الظاهر فهو أننا لم نفقد أبانا إلاّ قبل سنتين.

قالت ورقاء: لست فاهمة ماذا تعنين يا أُختاه؟

قالت: إذن إليك فاسمعي القصّة من بدايتها:

لقد كان أبي «حمزة عبد الرزاق الرحباوي» رجلاً فقيراً لا يملك من دنياه

شيئاً سوى حُسْن السيرة واعتدال السلوك وطيب السمعة، ومن أجل هذا اختارته أُمِّي اليتيمة من الأبوين وقدّمته على ابن عمّتها الشاب المنحرف الغني، وقد كانت أُمِّي إلى جانب جمالها تملك رصيداً محترماً من المال ورثته عن أبويها، وعاشت أُمِّي مع أبي إلى مدّة لا تتعدّى السنتين، وكانت أُمِّي قد بلغت من حملها الشعر الثامن عندما توفِّي أبي.

وبقيت أُمِّي تعاني آلامها وحيدة إلاّ من عمّتها وابنها الذي سبق أن خطبها من قبل، وقد قدّما لها العمّة وابنها الكثير من العناية والرعاية حتّى حانت ولادتها، واستمرت العمّة تعني بها العناية الكاملة إلى أن انقضت أيام العدّة، فعرضت عليها العمّة أن تتزوّج ابنها لكي يكون لها ولولديها والياً وكفيلاً، وامتنعت أُمِّي في البداية، ولكنهما أصراً عليها وقدّم هو لها مختلف العهود والمواثيق على أنه سوف يعتدل في سلوكه ويتفرّغ لرعايتها ورعاية ولديها، ولن تجد منه سوى الحب والحنان، وبما أنها كانت في حاجة إلى من تستند إليه في تربية ولديها وتعتمد عليه في إعداد مستقبلهما، فقد وافقت على الزواج مُرغمة.

وبعد مضي فترة وجيزة علمت أنه قد استخرج شهادة ميلادنا باسمه، وبهذا فقد نسبنا إليه، فأغضب ذلك أُمِّي وأسخطها وثارت عليه، ونقمت هذا منه، واعتبرته تعدِّياً على حقوقنا ومصالحنا، وكلّما حاول إقناعها بأنه قد أنجز ذلك لمصلحتنا لم تقتنع، فأخذتنا وذهبت إلى بيت أبيها المهجور معرضة عنه ساخطة عليه، فبدأ يبعث إليها بالرسل ويجدِّد العهود الكاذبة، ويكتب إليها أرقّ الكلمات، حتّى عادت مُرغمة من جديد.

ونشأنا نحن لا نعرف لنا أباً سواه، وطالما عجبنا لقساوته علينا مع ما نشاهده من حنان الأُبوّة لدى الآخرين.

قالت ورقاء بألم: أَوَ كان قاسياً عليكما يا معاد؟

قالت معاد: نعم، وقد نكث بجميع العهود والمواثيق، واستولى على أموال أُمِّي فبدّدها في لهوه ومجونه حتّى اعتلّت أُمِّي من جراء ذلك وبقيت عليلة حتّى توفِّيت قبل سنوات.

ولمّا بلغنا سنّ الرشد حدّثتنا أُمّنا بحديث أبينا، وقدّمت لنا برهاناً على صحّة ما تقول.

وهنا بادرت ورقاء تسأل في لهفة: وما هو البرهان يا معاد؟

قالت: إنّه الرسائل التي كان يكتبها إليها عندما هجرته وفيها يتحدّث عن أن نسبتنا إليه من صالحنا وكان يذكر أبانا في رسائله بكل خير، ثمّ أنها أرشدتنا إلى أفراد كانوا على علم بنسبنا من قبل، وهكذا بقينا نعاني مشكلة انتسابنا إليه حاملين معه تبعات أوزاره حتّى مات قبل سنتين، فوجدنا في صندوقه الخاص ورقة مختومة كتب فيها اعترافاً بعدم بنوّتنا له مع ذكر اسم أبينا وتقديم الأدلّة على ذلك وكأنّه خشي أن يورثنا شيئاً من ماله الحرام فبخل به، كما أنّنا وجدنا عنده كثيراً من الأوراق تعود للآخرين لم نتمكّن أن نستوعبها.

وقد فتحت أمامنا هذه الوصيّة طريق المطالبة بتصحيح نسبنا مع الرسائل التي لدينا من أُمّنا مع الشهود الذين سبق وأن ذكرتهم أُمّنا، وسوف تظهر النتيجة خلال هذه الأيام إن شاء الله.

فهل عرفت الآن ياورقاء مَنْ هو أبو سناد؟

فردّت ورقاء تقول بصوتٍ مبحوح من التأثّر: آه نعم (الآن عرفت أباه) ثمّ ألقت برأسها على كتف معاد وهي تقول: والآن عدت إليك يا أُختاه.

فاحتضنتها معاد وقد تندّت عيناها بالدموع وهي تقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

بنت الهدى

٦

الخالة الضائعة

الخالة الضائعة

كانت خديجة جالسة تستمع إلى خالتها تتحدث مع أُمِّها بصوت يتهدّج من البكاء وهي تقول:

وهكذا ترين كيف ذهبت أتعابي معهم هباء وكيف أنهم تجاهلوا الليالي التي سهرتها والآلام التي تحملتها والتضحيات التي قدمتها، أمّا والله لقد بعت آخر حلية لي في سبيل إرسال بشرى إلى الخارج من أجل إكمال دراستها بعد أن لم تقبل هنا في الجامعة وقد رهنت بيتي مرتين من أجل أن يصبح ولدي هشام دكتوراً ملء السمع والبصر، أتذكرين كيف أنني بعت فرش بيتي في سبيل أن أحقق رغبة بشرى في شراء جهاز التلفزيون؟ ولكن الآن، هل تراهما يذكران شيئاً من ذلك؟ أبداً لقد أقصاني هشام عن بيته لأنّ زوجته تستقبل من الزائرات طبقة لا يروقها وجودي بينهن ولأنها تريد أن تكون حرّة في بيتها تتصرّف به كما تشاء دون أن يكون عليها رقيب.

وظننت أنّ لي في بيت بشرى ملجأ ألوذ به أوليست هي ابنتي الوحيدة التي كنت أدنو إليها بمزيد من الأمل والرجاء؟ أولست أنا التي فتحت لها أبواب الحياة وجعلتها تنطلق متحررة من كل قيد، فهل تعلمين كيف كان مقامي عندها؟ لقد أخذت تعاملني كخادمة أنظف لها بيتها وأُربي لها أطفالها بينما تنتقل هي مع زوجها بين المسارح ودور السينما والنوادي.

وأمس تأخرت حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وكان طفلها يبكي بشكل مستمر وقد عجزت عن إسكاته بأي ثمن.

وعندما عادت كنت غير مرتاحة ولأول مرة أظهرت لها تبرمي لهذا الوضع وبأنّ من الواجب عليها أن تعرف بأنّ مقامي في بيتها هو مقام أمّ ولست خادمة أو مربية أطفال فهل تعلمين ماذا كان جوابها؟ آه إنّ قلبي ليتمزّق ألماً حينما أذكره لقد قالت لي وبكل صفاقة إنك تتكلمين وتنسين أنّ بيتي هو الذي تكفل

بإعالتك وإعاشتك ثم لا تنسي أيضاً بأنني كنت ولا أزال حرّة وأنني غير مستعدة أن أُقيد نفسي من أجلك أو من أجل طفلي.

وهنا لم تتمكن الخالة من الاسترسال في حديثها وأخذت تجهش في بكاءٍ مرٍّ حزين.

فنهضت خديجة وقدّمت إلى خالتها كأساً من ماء بارد وحاولت هي وأُمها أن تخففا عنها حتى سكن جأشها إلى حدٍ ما وعند ذلك أنبرت خديجة لتقول:

إنّ مما يؤسف له أن تكون تضحياتك التي ذكرتها هي التي حدت به إلى هذا الموقف العصبي يا خالة. إنك كنت تسيرين في طريق خُيِّل لك أنه من صالح ولديك وصالحك معهما وقد صوّر لك الوهم أن سعادة ابنتك منوطة بأن تكون حرة فعملت على ذلك وكانت النتيجة أنها تحررت من كل شيء، حتى من حقوق الأمومة والبنوة، ساعدتها أن تتنكّر لك بالنتيجة، هيأت لها مجالات اللهو التي تشغلها عن أداء واجبها نحو ربّها فشغلها ذلك حتى عنك وعن مراعاة مقامك الذي رفعك الله عزّ وجلّ إليه أنت حينما سمحت لها أن تنسى الآية المباركة التي تقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣] والآية التي تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] والآية التي تقول: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]. كان عليك أن تعرفي مسبقاً أن هذا السماح يستدعي نسيانها للآية التي تقول: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤] إنّ النتائج يا خالتي كانت متوقعة وغير مستغربة أبداً فشتّان بين من يسهر ليلة أمام أفلام الخلاعة والمجون وبين من يسهر يقرأ في كتاب يقول له: ومن نظر إلى والديه نظرة ماقت فقد عقّهما- ويقول أيضاً، الجنة تحت أقدام الأمهات، أنك يا خالتي بعت آخر حلية من حليّك لترسلي بشرى إلى الخارج لكي تحوز على شهادة ولكن فاتك أن سفرتها تلك لم تكن لتهيِّئ لها شهادة فقط ولكنها كانت كفيلة باجتثاث آخر غرسة صالحة مما لعلّها كانت تختفي بين ثنايا نفسها وتعيدها إليك صورة مجرّدة عن الحسّ والعاطفة.

وهنا أخذت الخالة نفساً عميقاً وكأنه حسرة وندم مرير وقالت: آه ما أصدقكِ فيما تقولين يا خديجة نعم إن الذنب ذنبي منذ البداية ولكنها غلطة تعرَّفت على نتائجها بعد فوات الأوان، كنت أُصدِّق زوجي رحمه الله وأنا أسمعه يوصيني قائلاً: إيّاك أن تنشئي أولادي نشأة معقدة كنشأة خديجة ومحمد، كان يهوّل لي نتائج ذلك بشكل جعلني أتمسك بفكرته حتى بعد موته ولكنني الآن أجد أنني كنت أسير خلف سراب فليس هناك من هو أسعد من أمك بك وبأخيك.

قالت خديجة معقّبة على كلام خالتها: وبزوجة أخي وزوجي أيضاً.

قالت الخالة: طبعاً لأن زوجك ابن خالتك يا خديجة.

قالت خديجة: لا ولكن لأننا أحسنّا الاختيار ووفّقنا إلى من يشدّنا إلى أُمنا أكثر فأكثر.

قالت الخالة في نبرة ندم صادق: ليتني كنت قد اخترت لبشرى زوجاً صالحاً يخفف من حدّة طيشها الأهوج ولم أدعها تقع في حبائل هذا الزوج المقامر السكير.

فابتسمت خديجة ابتسامة حزينة وتساءلت: إذن ما الذي غرّكما منه يا خالة؟

قالت: إنه المال والثراء الذي كان يعيشه يا خديجة، إنّ سيادته هي التي أخذت كلمة الموافقة من خديجة والمهر الذي قدّمه هو الذي جعلني أسكت على مضض وليس لشخصه أي دخل في الموضوع.

قالت خديجة: ما أحلى صراحتك هذه يا خالة ولكن من المؤسف أن تكون قد جاءت متأخرة وعلى كل حال فإنّ الله تبارك وتعالى سوف لن يدعك في حيرة وخاصة بعد أن تعرَّفت على مواطن الخطأ في سلوكك الماضي.

قضت الخالة أسبوعاً كاملاً في بيت أُختها جرت خلاله مع ابنها وابنتها بعض المفاوضات لم تكلَّل بالنجاح وكانت النتائج سلبية بشكل عميق جداً، ولهذا فقد عرضت عليها أُختها أن تبقى معها ولكن البيت كان صغيراً ولا يسع

لوافد جديد وخصوصاً مع وجود ابنها وزوجته وأطفاله، ولهذا فقد امتنعت الخالة عن قبول هذا العرض وباتت ليلتها الأخيرة بعد أن علمت أنّ لا مقام لها في بيت ولديها، باتت تلك الليلة هي من أمرها في هم عظيم لا يعلمه إلاّ الله، وعند الصباح وبينما كانت تقرأ ما تحفظ من سور القرآن الكريم دخلت خديجة عليها الغرفة ومعها زوجة محسن وأقبلت الأم بعد ذلك أيضاً، وبعد تبادل التحية قالت خديجة:

لقد جئنا أنا ومحسن في حاجة إليك يا خالة ونحن نرجو أن لا تردّينا خائبين.

قالت الخالة: إنّ حاجتكما على العين والرأس يا عزيزيَّ ولكن أتراني أتمكن أن أُنجز لكما حاجة أنا على ما عليه من ضيعة؟

قالت خديجة: ولكنَّك قادرة على تحقيق ما نطلب ثم إنك لست ضائعة ما دام الله معك يا خالة وما دمنا نحن نحيطك ونحرسك بقلوبنا وأرواحنا، والآن هل تعلمين ماذا نريد منك؟ إننا نطلب منك الانتقال إلى بيتنا فنحن وحدنا هناك وسوف يكون مقامك بيننا كأحسن أُمّ وأعزّ خالة كما أوصى بذلك الرسول ﷺ في قوله لأحد المسلمين: «أَلَكَ أُمٌ حَيَّةٌ» قال: لا. قال: أَفَلَكَ خالةٌ حَيَّةٌ؟ قال: نعم. قال: فابررها فإنها بمنزلة الأُمّ».

فأشرق وجه الخالة ولاح على جبينها بارق من سعادة ولكنها فكّرت قليلاً ثم قالت: ولكن ذلك قد يثقل عليكما وقد يحدّ من حريتكما.

وهنا تكلّم محسن فقال: أرجوك أن لا تفكّري بشيء من هذا يا خالة فأنا قد حرمت حنان الأُمّ منذ الطفولة وافتقدت ذلك الصدر الحنون ولعلَّ الله عزَّ وجلّ أراد أن يعوّضني عن ذلك بوجودك في بيتي وسوف نضع المشتمل الصغير الذي في الحديقة تحت اختيارك ولك حتى أن ترفضي استقبالنا فيه وقد فرشناه لك بشكل نرجو أن يرضيك يا خالتي وسوف تتمكنين أن تستضيفي إليك ابنك أو ابنتك متى شئت أيضاً.

وهنا التفتت الخالة إلى أُختها وكأنها تستشيرها في الأمر، فابتسمت أُختها

مشجعة وقالت: ما أراهما إلاّ مجدّين في كلامهما ورغبتهما وإن من أسباب راحتي أيضاً أن أطمئن على خديجة بقربك منها.

مضت الشهور والخالة تنعم في راحة لم يسبق لها أن مرَّت بها من قبل ولم تستشعر في لحظة أنها غريبة عن أهل الدار، وكانت خديجة تستدعيها عند استقبال زائراتها وتستصحبها معها في بعض الزيارات، الشيء الذي جعلها تكتسب بعض المعلومات الدينية التي زادت من نقمتها على انحراف ولديها وعقوقهما، وكانت تقارن بين سعادة خديجة الزوجية والتعاطف الروحي الموجود بينها وبين زوجها وبين القلق الذي تعيشه بشرى مع زوجها والمخاصمات العديدة التي كانت تنشأ بينهما نتيجة الشك والغيرة وحبّ الذات والرغبة في الاستقلال، وكانت تعتبر بعد كل مقارنة أنّ هذا الخط الذي كانت تعدّه خطأً معقداً غير صالح للحياة، هذا الخط هو الذي يمتلك إمكانية الاستمرار ويتخلص من هفوات التعرّج والتعقيد، ولم يكن يسعها إلاَّ أن تدعو الله أن يبارك هذين الزوجين المؤمنين ويهدي أبناءها لما فيه الخير والصلاح...

وفي صباح أحد الأيام وفي ساعة مبكرة جداً دقَّ جرس الباب بعنف فسارعت خديجة لتفتحه وإذا بها تجد بشرى وهي تحمل طفلها على ساعدها وقد أحاطت بعينيها هالة زرقاء وشاعت على وجهها مسحة من شحوب، فابتدرتها بالسلام ورحّبت بها قائلة أهلاً وسهلاً تفضلي.

فدخلت بشرى وهي تلتفت قائلة أين أُمي؟ أين هي أُمي؟

قالت خديجة: إنها في بتيها هنا تفضلي إليها.

ثم قادتها إلى جناح خالتها، وهناك كانت الخالة جالسة على سريرها وأمامها على المنضدة كوب من الحليب، ففوجئت بقدوم ابنتها وتحرّكت في نفسها عواطف الأمومة فخيِّل لها أنّ الشوق أو الندم هو الذي دفع ابنتها إلى الحضور، ونهضت نحوها في لهفة ومدَّت نحوها يدها تريد أن تضمها بها إلى صدرها لتطفىء في فؤادها هذا الأوار الملتهب من الحنين والحرمان.

ولكن بشرى جلست على كرسي هناك دون أن ترمي بنفسها على صدر هذه الأم المسكينة وقالت وكأنّها لم تفارق أمّها إلا صباح الأمس: لقد طردني من بيته أخيراً وكأنني سلعة رخيصة يحاول أن يستبدل بها غيرها.

فشاعت على وجه الأم صفرة قاتمة وقالت في لهفة: طردك من بيته ولكن كيف ومتى؟

قالت: إنك تعلمين كم هو سافل ماجن يا أُماه، وقد أصبح في الأشهر الأخيرة قلَّما يعود إلى البيت قبل الساعات الأخيرة من الليل، وما عاد في ليلة إلاَّ ورائحة الخمرة تفوح من ثيابته فيرتمي على الفراش وهو كأنقاض رجل، وأنا ومع كل هذا صابرة وكلَّما حاولت أن أشير إلى الموضوع كان يبادرني قائلاً:

ألم نتفق مسبقاً أننا ينبغي أن نكون أحراراً وأن لا نعيش القيود التي تفرضها الأفكار الرجعية على طبيعة العلاقة الزوجية؟

ولم يكن يسعني أمام هذا الكلام إلاَّ أن أسكت وأحاول إقناع نفسي وتعويضها عن هذا الحرمان بما لديَّ من حرية مماثلة لحريته، ولكن الأمر تفاقم أكثر وأصبح يبتز أموالي وراتبي ويحرمني حقّ التصرُّف في شؤون بيتي وأخيراً طردني أمس وفي ساعة متأخرة من الليل وقال إنه لم يعد يطيق قيود الزوجية.

وقد جلست في حديقة البيت حتى أشرق الصباح وها أنا جئت إليك كما ترين فليس لديَّ من يضمني إليه سواك لأنّ هشام ليس ممن يفتح لي بيته كما تعلمين.

كانت الأم تستمع وشحوب وجهها يتضاعف.

ولم يفت خديجة أن تلاحظ ما ران على وجه خالتها من شحوب يحكي عن الألم الذي تعانيه، وكانت بشرى تنتظر من أُمها الجواب، ولكن الأُم لم تكن تريد أن تجيب، فماذا عساها أن تقول؟ ألا يكفي هذا البيت الصالح أن احتواها هي لتضيف إليه وافدة جديدة غريبة عنه في كل شيء، ولهذا فقد آثرت السكوت مع جميع ما كان يمزّق قلبها من ألم.

وعرفت خديجة طبيعة الموقف ورأت أنّ عليها أن تتدخل لتنقذ هذه الخالة من موقفها المحرج الحزين، فقالت: حسناً صنعت بقدومك إلى أهلك يا بشرى، إنها هنا في شقتها هذه وحيدة وسوف يسعدها أن تكوني معها حتى يختار الله لك ما فيه الصلاح.

وكأنّ هذه الكلمات بعثت في نفس بشرى بعض مشاعر الإنسانية فأجابت في خجل وارتباك: لشدّ ما أنا شاكرة لك موقفك من أمي يا خديجة وها أنت تضيفين إلى أياديك يداً جديدة.

فابتسمت خديجة وقالت: دعيك من هذه المجاملات يا بشرى واعلمي أنّ هذا البيت هو بيت خالتي ولهذا أرجو أن تكوني فيه مرتاحة راحة كاملة.

وهنا نهضت الخالة واحتضنت خديجة وطبعت على جبينها قبلة حبّ وشكر وامتنان وقالت: ما أروعك يا خديجة وما أروع إيمانك الذي أبرزك على هذه الصورة المثالية.

واغتنمت خديجة قرب خالتها منها فهمست في أُذنها قائلة: ولكن أرجو أن تطلبي منها الإلتزام بالحجاب ما دامت في بيتنا.

قالت الخالة: نعم نعم لقد كنت عازمة أن أقول لها ذلك ثم اتجهت إلى ابنتها فجلست إلى جوارها وهي تقول: هل تعلمين يا بشرى بأنني شعرت خلال هذه الأشهر الأخيرة براحة لم أستشعرها في حياتي من قبل وإنني وجدت في قلبَيْ خدجية ومحسن من الرحمة والحنان ما عوَّضني عمّا افتقدته في قلبيكما أنت وهشام، فما الذي جعلكما وأنتما ابناي تتنكّران لي على هذا الشكل وجعل أولاد أُختي يحتضناني بكل رحابة صدر؟ ليتك عرفت السبب والشيء الذي ميزهما عنكما كلّ هذا التمييز.

قالت الخالة هذا ثم سكتت وكأنّها تنتظر من ابنتها الجواب.

فأطرقت بشرى وقد عرفت الجواب ولكنها كانت تصارع نفسها في إبدائه وإخفائه، وأخيراً رأت أنّ الواقع يدعوها لأن تعترف حتى ولو كان الاعتراف مرّاً فرفعت رأسها لتقول: إنه الإيمان يا أماه وهو الذي ارتفع بهما إلى هذه

القمة، وتركنا إياه هو الذي هوى بنا إلى هذا الحضيض، نعم إنه الإيمان فما أشقانا بابتعادنا عنه.

قالت الأم: الحمد لله الذي جعلك تعترفين بذلك ولهذا فإنّ عليك في المرحلة الأولى أن لا تشذّي في مظهرك الخارجي عن تعاليم الإيمان المتمثّل في هذا البيت.

قالت بشرى في استغراب: ما الذي تعنيه يا أُماه؟

قالت: أن تلتزمي بالحجاب وتحاولي تكييف نفسك مع تعاليم الدين ما دمت هنا على الأقل.

فأطرقت بشرى نحو الأرض وكأنّها تعاني صراعاً مريراً بين ما يدعوها إليه العقل وما تستفزها به النزوات والرغبات.

واغتنمت خديجة فترة سكوتها هذه وقالت: ولكن من المظنون يا خالتي أنّ بشرى قد تعرفت على مساوىء الابتعاد عن الدين بما فيه الكفاية ومن المأمول أيضاً أن تكون قد تحسَّست بالحاجة إلى تعاليم الإسلام بعد أن شاهدت عن قُرب وعن بُعد فشل التعاليم الوضعية الأخرى.

وهنا رفعت بشرى رأسها ورنت نحو خديجة بنظرة اعتراف واستسلام ثم قالت: نعم إنّ الحق هو ما تقولين يا خديجة فقد سئمت حياة التكلّف والمحاباة والركض وراء كل شارق وغارب وقد تعبت من حياة القلق والتفكك فما أحوجني إلى من يحتضنني ويهبني فكرة صالحة تبعث في روحي الأمان وتذيقني طعم الحرية الحقيقية من غير استعباد لأذواق الناس ورغباتهم ولكن ما الذي سيقوله الناس عني يا ترى؟

قالت خديجة: لقد حاولت في المدة السابقة أن ترضي الناس عنك فاستعبدت كما ذكرتِ أنت لأذواقهم ورغباتهم فما هو الذي حصلتِ عليه من نتائج صالحة لذلك يا ترى؟ يكفيك ما تجرّعت من ويلات وآلام حطمت زهرة شبابك وأذوت رواء كيانك وهو في ريعانه، ها هو إيمانك يدعوك لتعودي إليه وتعيشي مفاهيمه التي من حقها أن تتكفل بإسعادك في الدارين.

قالت بشرى في نغمة ألم حزينة: أوَ يقبلني الإيمان بعد كل ما صدر عني من أخطاء؟ فأردفت خديجة تقول: نعم فإنّ إيماننا لجدّ حدب بنّاء ورؤوف، وقد جاء في الحديث: «إنّ الله ليحبّ الشاب التائب ويكره الشيخ المقيم على المعاصي» أفلا يسعدك أن تكوني ممن يحبّهم الله ﷻ يا بشرى؟

مرّت العديد من الأسابيع وبشرى لا تزال مع أُمّها وهي تقترب خطوة بعد خطوة من الإيمان، فقد سحرتها شخصية خديجة فانجذبت إلى مفاهيمها بلهفة الظمآن المتعطش إلى الري، وقد قدمت لها خديجة العديد من الكتب لتقرأها وكانت تطلب منها المناقشة بعد إكمال كل كتاب بشكل جعل عدّة مفاهيم تتركز في ذهن بشرى بشكل ثابت، وبدأت بوادر التغير الفكري تلوح واضحة على تصرفاتها وميولها ورغباتها مما كان يشيع في نفس خديجة الكثير من شعور الرضاء.

وبعد أن تمّ انفصال بشرى عن زوجها بشكل نهائي وعن طريق الطلاق استقلّت مع أُمها وابنها الصغير الذي احتفظت به قبال جميع ما تنازعت عنه من حقوق في بيت صغير مريح، ومع أنها كانت قد خسرت من المادة الشيء الكثير ولكنها أصبحت تعيش حياة ناعمة راضية بعد أن أخذت تقترب من واحة الإيمان أكثر فأكثر.

نكران الجميل

الانتظار حالة غير مريحة ومزعجة إلى حدّ ما، ما دامت في البداية، أمّا إذا حدث ما أطالها أكثر فإنّ من حقها أن تبعث في نفس الإنسان بعض الشعور باليأس، واليأس ما هو تأثيره بالنسبة للإنسان؟ أنه ملقط حسّاس يفتش بين جنبات الروح عن بذور الراحة ليقتلعها ويستقصي ما تعمر به النفس من آثار السعادة فيجتثّها.

كانت وداد تعيش حالة الانتظار هذه بالنسبة لصديقتها هدى، فهي قد وعدتها

بزيارة قالت عنها أنها تودّ لو تكون خاصة فحددت له ساعة بعد الغروب، ولكن أين هي يا ترى والساعة تكاد تشير إلى التاسعة مساء؟

كانت بعض مشاعر القلق تتسرّب نحوها بين حين وحين فتتكفّل تلك المشاعر بإقصاء أحاسيس العتب التي بدأت تراود نفسها لطويل الانتظار فتعود لتقول لعلّها معذورة أو لعلّها مجبورة، فما سبق أن أبطأت عنها من قبل.

وحاولت أن تقطع فترة الانتظار في مطالعة كتاب ولكن أفكارها كانت تحوم بعيداً عمّا تقرأ. هناك حول هدى والسبب الذي دعاها إلى التخلّف عن الحضور، وحدَّثت نفسها قائلة: ليتني كنت أتمكن أن أتصل بها ولو عن طريق التلفون ولكن...

وعند حوالي الساعة التاسعة والنصف دقّ جرس الهاتف فهرعت نحوه في لهفة وكأنّها عرفت أنه يحمل إليها أخباراً عن هدى، وفعلاً فقد عرفت منه أنّ هدى في خير وما كان تأخرها إلاّ لأمر قالت عنه أنه ضروري! وقد أجّلت الزيارة إلى صباح الغد.

وفي صباح اليوم الثاني لم تطل مع وداد فترة الانتظار فقد وافتها هدى في بداية الساعات من النهار فاستقبلت بحفاوة وحرارة، ولكن لم يفتها أن تلاحظ آثار الشحوب التي رسمت معالمها على ذلك الوجه الذي طالما تميز بإشراقته من قبل. وعندما جلستا تتحدثان افتقدت وداد من صاحبتها تلك النغمة التفاؤلية التي كانت تميّز صوتها وتساعده على كسب استماع الآخرين.

كان صوتها حزيناً وكلماتها افتقدت آثار الحرارة وانطبعت بطابع البرودة، وكانت تحاول أن تعطي للسكوت زمناً أكثر مما تعطيه للكلام، فشعرت وداد بلذعة الأسى وهي تجد صديقتها على هذا الصمت الهادىء الحزين، وهدى لم تكن بالنسبة إليها صديقة فقط، فلطالما كانت لها مناراً في ليل داج ومشعلاً من نور في ظلام رهيب، ولطالما هدهدت روحها بمفاهيم وسقت جدب أفكارها بالحكمة والموعظة الحسنة ولهذا فهي بالنسبة إليها تعني الشيء الكثير.

وهنا شعرت وداد أنّ عليها محاولة جرّ هدى إلى التحدّث عمّا تعانيه، فقالت وقد جهدت أن تبدو لهجتها طبيعية: والآن ألا تحدثيني عمّا أخّرك عني مساء أمس يا أختاه ثم إنك كنت قد أعطيت لذلك موعداً ولم يكن من عادتك خلف الوعد.

فصدرت عن هدى شبه آهة ثم قالت: لقد أصبحت غير قادرة على إنجاز الوعد في بعض الأحيان.

وشعرت وداد أنها تتمكن أن تنفذ من هذه الثغرة إلى معرفة ما تعيشه هدى من آلام نفسية فتابعت تقول: ولكن هذه حالة غير خاصة بك يا هدى فقد يضطرّ الإنسان إلى خلف الوعد في بعض الحالات ولأجل بعض الضرورات.

قالت هدى: ولكن تتابع الضرورات في حياة الإنسان تجعله.. قالت هذا ثم سكتت وأطرقت وكأنها لم تعرف كيف تكمل جملتها.

ولاحظت وداد أنّ هناك قطرة من دمع سقطت على يد هدى التي كانت مستقرة في حجرها، فهالها الأمر! فلم تكن هدى تملك ذلك المدمع المعطاء الذي يذرف قطراته لكل مناسبة ولم تكن دموعها لتعتصر إلاَّ لأمر عظيم، فاندفعت تقول في شبه حشرجة: لآه أتبكين يا أختاه ما عهدتك باكية قبل اليوم؟ ما أثمن هذه الدمعة التي ذرفتها عيناك فلماذا لا تحتفظي بها لتذرف في سبيل الله؟

فانتفضت هدى وكأنّ هذه الجملة الأخيرة قد أصابت لديها وتراً حسّاساً ورفعت رأسها وهي تقول: أوَ تظنين أنّ ألمي ودموعي ليست من أجل الله يا وداد؟ إنها من أجل الله وفي سبيل الله ولهذا فإنني جد حزينة في أيامي هذه يا أختاه.

قالت وداد: ولماذا الحزن يا هدى ما دمتِ واثقة من سيرك في طريق الحق؟ ألا تتكفل هذه الثقة بأن تهبك السعادة والرضا؟ أليس أن في شعور الإنسان وهو يحثّ الخطا نحو لقاء نبيه ﷺ أبيض الوجه قد حفظ بعده الأمانة وأدّى ما عليه حقوق تجاه دينه ما يبعث في نفسه الغبطة ويملي عليه الفرحة؟ هذا الإنسان

الذي يكاد يسمع صوت نبيه يقول: «إنني إليهم لمشتاق». كم سيكون هانئاً سعيداً لو سار في طريق يبل به شوق نبيه إليه؟

قالت هدى: ولكن هذا هو ما يحزنني يا داود فلقد أصبحت أخشى أن أقف في منتصف الطريق فلا أتمكن أن أمثل بين يدي الرسول ﷺ ومعي صحيفة عمل تشيع على صفحة وجهه الكريم إشراقة نور ورضاء.

قالت وداد: أوَ يكون ذلك بتقصير منك يا هدى؟

فهزّت هدى رأسها في تأكيد وقالت: لا، أبداً، إنني لا أتعمّد التقصير في سبيل ديني ولا أتسبب في إهمال جانب من جوانب العمل لأجله ما وسعني ذلك ولكن قد أكون مجبورة.

قالت وداد بلهجة من يعرف الجواب مسبقاً: وهل تجبرين على معصيته؟

فابتسمت هدى ابتسامة حزينة وقالت: لا، فلو تضامنت الدنيا ومن فيها لأجل أن تفرض عليَّ معصيته لما نجحت.

فأجابت وداد ابتسامة هدى بابتسامة مثلها وقالت: إذن؟

قالت: ولكن تمرُّ بي مواقف أفتقد خلالها إمكانية التوسّع في الطاعة وأضطر إلى بعض الجمود عن السموّ نحو الكمال، فأنا يا أُختاه أصبحت أحسّ بشعور لم أكن لأستشعره من قبل ألا وهو شعور اليأس!

وهنا تساءلت وداد في لهفة: يأس؟ ولماذا اليأس يا هدى ولا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون.

فكفكفت هدى دمعة جديدة قبل أن تسقط وقالت ليس يأسي من روح الله يا وداد ولكنه في نفسي فأنا عندما أُصادف ممن حولي بوادر جفاء أو ألمس منهم بعض علامات النكران للجميل أوعز ذلك إلى قصور في شخصي أو ضآلة في طبيعة عطائي وأسلوب تعايشي وتعاملي على صعيد الإيمان. فأشعر بالأسى يمزّق صدري وأقف موقف الحيرة فلا أعود أعرف كيف أتصرف. فلا أنا أعرف مواطن تقصيري فأصلحها وأعتذر ولا أنا أتمكن أن أبرىء نفسي وأحمل الآخرين المسؤولية فأنصح وأوجّه.

كانت وداد تستمع في اهتمام بالغ ولما سكتت هدى بادرتها بالسؤال قائلة: والآن هل حدث شيء جديد؟

قالت: حدث أو لم يحدث المهم أنّ هذه الحالات عندما أخذت تلوح على مسرح حياتي بشكل متعاقب أصبحت تهدد روحياتي بالخطر.

قالت وداد: ولكن هناك في حياة المؤمن بعض الخطوط العريضة التي ترسم له طريقه في نوعية العطاء دينياً وأخلاقياً واجتماعياً فما دمتِ يا أختاه واثقة من أنك لم تنحرفي عن هذه الخطوط فلا يجدر بك أن تتركي لليأس سبيلاً. راجعي نفسك وحاسبيها وفتشي بين ثناياها عن مواطن الضعف والخطأ فإن وجدت منهما شيئاً فحاولي أن تجري لها عملية تنظيف ومسح كامل ولكن بدون يأس فإنّ الإنسان المؤمن يسعى خلال حياته وراء هدف خير. وهذا الهدف لا يتحقق إلاّ بعد تربية النفس تربية صالحة لعلّ هذه الحملة الإصلاحية سوف تضاعف من نضوج عطائك وبلورته أكثر وأكثر لأنه سوف يأتي نتيجة تجارب عديدة وممارسة طويلة فتحقق نتائجه بشكل أكثر سهولة وأقل مؤونة وأوسع نجاحاً.

قالت هدى: ولكنني فتشت بين ثنايا نفسي فلم أجد ما يؤخذ عليها ومع ذلك فقد عدت لأقول إنّ نفسي لتخادعني بذلك وهل يتمكن الإنسان أن يكتشف عيوبه بنفسه ولهذا ترين أنني لجأت إليك تطبيقاً لقاعدة أن المؤمن مرآة أخيه المؤمن لتكشفي لي عمّا يعشعش في روحي من أخطاء.

قالت وداد: أنت يا هدى وكما عرفتك دائماً لست ممن تسمح للأخطاء أن تجد إليها سبيلاً ثم إنني ومع متابعتي لحركاتك في المجتمع لم ألاحظ عليك أي نقطة قد تدفعك إلى اليأس. إنك تستمتعين بروحيات مثالية و. . .

وهنا قطعت هدى كلمات وداد قائلة أرجوك يا وداد أنا لم أقدم إليك لأستمع منك إلى كلمات المديح والإطراء. لا يا عزيزتي أنني أريد النصيحة فقط.

فابتسمت وداد لهذه المقاطعة وقالت: إنني شخصياً لم أجد في سلوكك ما يؤخذ عليه وأنت أيضاً وكما قلت قبل قليل لم تجدي ما يمكن أن يدينك. إذن

فنصيحتي إليك أن تسيري في دروب الهدى تغرسي في كل تربة بذرة وتزرعي في كل روض زهرة وتنيري على كل منعطف شمعة وإذا كان هناك من يشك في سلامة البذرة أو لا يستسيغ منظر الزهرة فإنّ ما ينبت عن البذرة وما يفوح من أريج الزهرة لكفيلان بجذبه إليهما من جديد بعد أن يثبتا وجودهما بشكل لا يقبل الجدل وهذا في الواقع هو الجانب المهم في حياة الإنسان المؤمن إذ أنه بطبيعة وجوده عطاء، والعطاء إذا كان خيراً فهو لا يهدف إلاً إلى تحقيق غاية تقرّبه من رضاء الله ورضوانه، فما دام يضع هذه الغاية كهدف له في الحياة لا يعود هناك أمر من الأمر يحول بينه وبين الانطلاق حتماً ولو لم يجد إنساناً واحداً يستجيب إليه. ثم إنني لا أكاد أعترف بشيء اسمه (نكران الجميل) ما دام الجميل من أجل الله وفي سبيل الله، والله تبارك وتعالى لا تضيع عنده الأعمال ولا تشتبه عليه الأقوال وهو يجزي على الحسنة بعشر أمثالها. وهذا الشعور، شعور الإنسان أنّ أعماله لا تطلب التثمين إلاّ من الله عزوجل وحده، هذا الشعور هو الذي يعلمه أن لا يزهد في فعل الخير مهما كانت ردود الفعل التي يجابهها ما دام واثقاً من تحقق الغاية الحقيقية وهي رضاء الله عزوجل .

كانت وداد تتكلم وهدى تستمع في هدوء ثم سكتت وداد فترة لتجد آثار كلماتها على هدى فلاحظت علامات التفهم والرضا تلوح واضحة على محياها فشجعها ذلك لكي تسترسل في حديثها فقالت: لا تدعي هذه النظرة القاتمة تلوّن حياتك وأيامك وأنت ملء الوجود والحياة والمجتمع، أنت هدى بكمالها وإيمانها وجهادها وصبرها وعملها فلا تزهدي في نفسك يا أختاه، أنت محطّ آمال ومنتجع أحلام فعيشي هذا مع نفسك أيضاً، أنت يا أختاه شعلة إيمان وانطلاقة عمل وميدان جهاد فلا تجعلي النور ينحسر والعمل يتضاءل والجهاد يلقي السلاح، أبعدي المنظار القاتم عن عينيك فإنهما خلقتا للتأمّل والنظر البعيد والتطلّع المشرق. كوني مرتاحة ما دمت واثقة من نفسك ولكن لا تهملي محاسبتها بين حين وحين لكي يمكنك ذلك من التحكم بزمامها والتعرّف على واقعها الذي تعيشه، وهنا سكتت وداد تنتظر الجواب.

وبعد فترة صمت قصيرة انبعث صوت هدى يقول في نبرة رصينة: ما أراك

إلاّ وقد كشفت أمامي واقعاً كانت السحب السوداء تكاد أن تحجبه عني أو تحجبني عنه! هو أننا بوجودنا وأعمالنا وتصرفاتنا نتجه إلى نقطة واحدة هي رضاء الله، فما دمنا لا نجد في أنفسنا ما يشير إلى انحرافنا عن تلك النقطة وذلك الهدف فإنّ علينا أن نمضي في سيرنا دون أن يعيقنا تصاعد غبار أو تناثر أشواك ولسان حالنا يردد قائلاً:

كل عذاب فيك مستعذب ما لم يكن سخطك والنار

زيارة عروس

جلست غفران بعد أداء فريضة الصلاة تتلو آياتٍ من القرآن الكريم وكانت تستشعر لعطاء ما تقرأ لذة دونها الشهد وتتجسس لمعاني ما تفهم نشوة روحية ترتفع فأفكارها نحو أجواء القدس وتحلّق بآمالها وأمانيها في سماء الحق، فهي تأخذ من كل آية درساً وتستقي من كل كلمة عبرة تفتح أمامها منافذ من نور لا تعود تبصر الحياة التي حولها إلاّ من خلالها، ثم مرّت في سياق تلاوتها بالآية المباركة التي تقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] وما إن انتهت من القراءة حتى شعرت أنّ هذه الآية لا تزال تتردد في فكرها وتملي على قلبها مرة بعد مرة، فتفتح أمامها عالماً من ذكريات وصفحات من تاريخ لعب دور البطولة فيه أفراد بلغ بعضهم الشأو وتراجع البعض في وسط الطريق، وهنا صدرت عنها آهة تشكو مرارة الذكرى.

فإنّ ما يؤلمها جداً بوادر الخيبة التي تجدها تقطع على بعض المنطلقين خط السير نحو الكمال. وتصاعدت سحابة قاتمة تحاول أن ترين على روحها لمرارة الذكريات. ولكن كانت هناك مصادر نور تنطلق من تجارب صالحة بدأت الشوط فأتمته بنجاح، وهنا برزت أمامها صورة صديقتها سعاد. فشعرت نحوها بشوق صادق فهي قد ذهبت منذ أيام مع عريسها ليستهلاّ حياتهما

الجديدة في زيارة لبعض المشاهد المقدسة وكانت هذه الذكرى كفيلة ببعث ملامح نور زاهية في نفس غفران.

وعادت بها الذكرى إلى صديقتها سعاد فتذكرتها في ترقبها وهي فتاة واستعرضت الخطوط التي رسمت أبعاد اختيارها لشريك الحياة. ثم تطلعاتها الخيرة وهي تقف على أبواب الحياة الزوجية وترفّعها عن الزخارف التي شوّهت مفهوم هذه المرحلة المقدسة التي وجدت لتكون لبنة صالحة في بناء عشّ مؤمن سعيد تدعمه شركة روحية بين زوجين ويترعرع في جنباته جيل خير من الأبناء، ولم يسعها إلاَّ أن تتوجه إلى الله العلي القدير أن يحرس صديقتها المؤمنة ويحقق لها آمالها الخيرة التي بنتها على هذه الزيجة المنتقاة.

ولم تكد غفران أن تصل في أفكارها عند هذا الحدّ حتى سمعت رنين جرس الباب فسارعت إليه لتجد إحدى صديقاتها وقد جاءت لتخبرها بعودة سعاد، فغمرتها الفرحة وقالت في لهفة بالغة إذن أنت ذاهبة إليها الآن انتظريني لأصحبك إليها يا أختاه، قالت هذا ثم توجهت لتأتي بعباءتها ولكن صديقتها أجابت في تردد: ولكن لا. ليس الآن يا غفران، فاستدارت غفران نحوها في استغراب وقالت ليس الآن ولماذا؟ قالت يبدو أنّ هناك بعض الموانع، قالت موانع!! أرجو أن تكون خيراً؟

فابتسمت صاحبتها ثم أردفت بعد فترة سكوت: لقد قيل إنها لا تزال جديدة عهد في بيتها ولهذا فهي لم تعد العدّة لاستقبال الضيوف بعد!!

فأطرقت غفران في ألم ثم رفعت رأسها وهي تقول: ولكن لا أظن أنّ سعاد تقول هذا فهل أنت واثقة مما تتحدثين؛ قالت: إنني واثقة مما نقل إليَّ ولكنني مثلك لا أكاد أصدِّق أنّ هذه هي فكرة سعاد أو ليست سعاد هي التي رسمت في خطوط زواجها صوراً من المثالية ترتفع بها عن الاهتمام بأمثال هذه الشكليات.

فأردفت غفران تقول في حيرة وألم: نعم إنني لا أكاد أصدق ولهذا دعينا نذهب يا هناء فلعلَّ في الأمر بعض الالتباس.

قالت صاحبتها ولكن ألا يخطر لك أنّ هذا العذر يخفي وراءه أعذاراً جديدة أخرى، وعلى فرض وجود ذلك فسوف يكون ذهابنا غير مرغوب فيه.

فسكتت غفران برهة ثم قالت: نعم لعلّه كذلك فإنّ سعاد ليست ممن تمتنع عن استقبال زائراتها لقلّة في أثاث أو بساطة في بيت ورياش إنها تهتم بالجوهر ولم يسبق لها أن اهتمّت بالعرض يوماً ما.

قضت غفران ساعات عصرها ذاك وهي في ألم حزين تضرب للأمر أخماساً بأسداس. ولاحت لها فكرة قاتمة تقول: لعلَّ سعاد هي أيضاً ممن لم تتمكن من مسايرة التجربة الخيرة حتى النجاح، ولكنها عادت لتهتف لنفسها قائلة: لا، إن لدى سعاد من الكفاءة ما يمكنها أن تكون وسيلة إيضاح كاملة ولهذا فهي لن تضعف أو تتراجع أمام شيء، وما كادت الساعة التاسعة تعلن عن انقضائها حتى دقّ جرس الباب من جديد فاندفعت نحوه غفران على أمل أن تجد خبراً جديداً عن سعاد وما إن فتحت الباب حتى كانت بانتظارها أروع مفاجأة إذ طالعتها من ورائه صورة سعاد... كادت غفران أن تغالط بصرها لحظة ولكن يد سعاد التي امتدّت نحوها لتصافحها بحرارة أثبتت له الواقع المحسوس فغمرتها الفرحة وطبعت على جبين صديقتها قبلة إيمان صادقة وأسعدها أن تجد أسارير سعاد وهي تنطق عن الراحة والسعادة ثم أخذت بيدها وهي تردد: مبروك يا عزيزتي وألف مبروك. ما أكثر ما أوحشتينا بغيابك يا أختاه. قالت هذا ثم حاولت أن تدعوها إلى داخل الدار فأجابت سعاد:

لا يا غفران أن هناك من ينتظرني في الخارج ولكنني افتقدت زيارتك لي عصر هذا اليوم وخمنت أنك لم تعرفي بقدومي بعد ثم لقد كنت في شوق إليك بعد هذه الفترة من البُعد.

قالت غفران ولكن ألم تعلني أنت أن موعد استقبالك للزائرات لم يحن بعد!

فرددت سعاد كلمات غفران في استغراب قائلة: موعد زيارتي لم يحن بعد ولكن لماذا؟ كيف يمكن أن أقول هذا وأنا في انتظار أخواتي منذ الساعة الأولى؟

قالت غفران لأنّ بيتك لم يعدّ للاستقبال كما ينبغي ويليق.

فضحكت سعاد ثم قالت ومتى أصبحت أستقبل زائراتي على أساس من البيت وزخارفه؟ ثم كيف أمكنك أنت أن تصدقي ذلك عني يا غفران؟

وهنا شعرت غفران بموجة من فرح وسعادة تغمرها إذ وجدت أن آمالها وأمانيها لم تخنها في هذه الأخت العزيزة ورددت في شكر صادق: الحمد لله. الحمد لله. شدّ ما أنا سعيدة بك ومن أجلك يا سعاد ولكن ما هو مصدر ذلك الخبر إذن؟

قالت إنها إشاعات.

قالت غفران: ولكن بعض الإشاعات تحمل معها أعظم الأخطار لأنها ترمز إلى مفهوم مخالف لمفاهيم الإسلام فحاولي يا عزيزتي أن تحولي بينها وبين الانتشار واجعلي من حياتك القادمة وسيلة إيضاح كاملة.

قالت: نعم سوف أحاول ذلك ولن أدع ثغرة تنفذ من خلالها الإشاعات.

فربتت غفران على ظهرها وبرفق وهي تقول: اعلمي أنّ أمرك يهمني جداً لأنه الصورة الحيّة لحياة زوجية قامت على أساس الإيمان ووضعت خطوطها على هدى من تعاليم الإسلام وغداً سوف أزورك مع مجموعة من الأخوات إن شاء الله.

فرفعت سعاد رأسها وهي تقول في اعتزاز: نعم وعلى الرحب والسعة تفترشين معي الحصير وتشربين وإياي ماء الغدير فإلى اللقاء يا أختاه.

بدأت غفران في صباح اليوم الثاني تتصل بصديقاتها تخبرهن بعودة سعاد وعزمها على زيارتها عصر ذلك اليوم، ثم خطرت لها ابنة خالتها هيفاء وكانت هذه قد كلفتها أن تخبرها عن موعد زيارتها لسعاد. فاحتارت كيف تبلغها الأمر وهي بعيدة عنها وبينما هي تفتش عن الحلّ سمعت صوت هيفاء تتحدث مع أمها في ساحة الدار فاتجهت نحوها وهي تجد أنّ حضور هيفاء قد سهّل لها العديد من المصاعب وبعد أن بادلتها التحية وجلست وإياها فترة قالت لها:

كنت أحاول أن أتصل بك لأخبرك بعودة سعاد وبأننا ذاهبتان إليها عصر هذا اليوم فإذا أحببت أن تصحبينا إليها فعلى الرحب والسعة.

فضكحت هيفاء وأجابت بأسلوب تهكمي ساخر: شكراً، شكراً.

فاستغربت غفران هذا النوع من ردّ الفعل الذي بدت بوادره على هيفاء وراجعت نفسها هنيئة، أتراها أخطأت التعبير أو أساءت التصوير، ولكنها لم تجد من نفسها ما يؤخذ عليه ولهذا رأت أنّ عليها أن تسعى إلى توضيح الموقف فأردفت تقول وقد لاح شبح ابتسامة على شفتيها: ولكن ما الذي أثارك على هذا الشكل يا هيفاء؟

قالت هيفاء إنّ كلامك واضح التكلّف وكأنّك مع هذا الأسلوب من الأخبار تريدين أن تقول: لا تأتي معنا يا هيفاء.

وهنا شعرت غفران بلذعة الألم لهذا التجني ولكنها تماسكت ولم تمسح عن وجهها ابتسامتها وإن كانت تلك الابتسامة قد اكتست بعض معاني الشحوب وقالت بصوت حاولت أن يكون هادئاً: وكيف عرفت ذلك يا هيفاء، حبّذا لو فسّرت لي الأسباب التي حدت بك إلى كل هذا التأثر البالغ.

قالت هيفاء : وهل أن من المعقول أو من المنطقي عقلاً وعملياً أن أذهب اليوم عصراً إلى زيارة سعاد وأنا لم أعرف بذلك إلاّ الساعة؟

قالت غفران: وماذا في ذلك يا هيفاء؟

قالت: إنك تتجاهلين حقيقة واضحة وهي معدات الذهاب التي تتطلب يومين على أقل تقدير!

وضعت غفران رأسها بين كفيها وأسندت ساعدها إلى حافة الكرسي الذي تجلس عليه وقالت في لهجة حاولت أن تكون طبيعية: وما هي تلك المعدات بالله عليك يا هيفاء حدثيني بها أو ببعضها إذا أردتِ؟

فنشطت هيفاء للحديث واعتدلت في جلستها وكأنها في سبيل خوض معركة حياتية وقالت: إنّ من تذهب إلى زيارة عروس تتحتم عليها عدّة مقدمات:

أولاً: أن تهيّئ لها بدلة مناسبة.

ثانيا: أن تختار يوماً لا يشغلها فيه شيء لكي تتمكن أن تصفف شعرها بشكل من الأشكال. ثالثاً: أن تكون متمكنة من ذلك من الناحية المالية.

فكررت غفران كلماتها الأخيرة وقالت: متمكنة من ذلك من الناحية المالية؟ وما هو ارتباط الناحية المالية بزيارة العروس؟

فقهقهت هيفاء بشيء من السخرية وقالت: بالإضافة إلى متطلبات البدلة والحلاقة يبرز موضوع الهدية وما أراكِ إلاّ وقد نسيت هذه النقطة الحساسة.

قالت غفران: وكيف أنساها يا هيفاء وقد أوصانا الإسلام بها وعرّفها إلينا على أنها مما يشدّ أواصر القربى ويؤكد عواطف الإخاء.

قالت هيفاء: إذن فكيف تتوقعين مني أن أذهب عصر اليوم إلى سعاد ولم أعد الهدية بعد؟

قالت غفران: وهل أنّ من شروط الهدية أن تكون مرهقة مالياً؟ إنّ ذلك لا يعود يحمل معنى الهدية بل إنه يكتسي طابع الضريبة وبذلك تفقد الهدية لذيذ عطائها وتخسر الفوائد المتوخّاة نتيجة ذلك، إن الهدية يا هيفاء وضعت لكي تكون وصلة خير بين الأخوة المؤمنين ولكي ترمز إلى دوام تذكر الإنسان المهدي للمهدى إليه وتعبّر عن الاهتمام بأمره تارة والفرحة من أجله تارة أخرى. ولهذا فهي عندما تكتسي طابع القيم المادية تتحوّل إلى عبء ثقيل يرهق الإنسان روحياً ومادياً، ألم تسمعي أنّ الرسول ﷺ كان يتقبّل الهدية ولو كانت قدحاً من لبن؟

قالت هيفاء: ولكن أليس من المخجل أن تذهب واحدة لصديقتها بهدية رخيصة؟

قالت غفران: أبداً يا هيفاء فإنّ الهدايا على مقدار مهديها وليست على مقدار من أهديت إليه، إنّ الذي يتلقى هدية وهو يعلم أنها لم تثقل على صاحبها في شيء يرتاح له بشكل صادق لا يتأتى عند الهدايا المتكلفة الأخرى، فأنت الآن يا هيفاء يمكنك أن تأخذي معك كتاباً واحداً كرمز للفرحة بدل أن تتأخري عن

زيارتها، أمّا موضوع البدلة التي ذكرتها في المرحلة الأولى فإنه يمكنك أن تذهبي إليها اليوم ثم ترسلي إليها بدلتك بعد أن يتم إنجازها.

فتفرست هيفاء في وجه غفران وقالت: ما أراك إلاّ ساخرة بي يا غفران فهل من المعقول أن يقوم أحد بهذا العمل؟

قالت غفران: وإلاّ فما هو المانع الذي يمنعك أن تلبسي ما لديك من ثياب وكلّها جميلة وأنيقة وما هو الغرض من أن تكون زيارتك للعروس مرهونة بارتداء بدلة جديدة؟

قالت هيفاء في شيء من التحدي لكي أبرز بشكل مرضيّ ولكي أكون جميلة.

قالت غفران: لا شك أنّ لك تجارب سابقة في خصوص هذا الموضوع وقد سبق أن ارتديت ما يبرزك بشكل مُرْضٍ فأين هي تلك الملابس يا ترى؟ هذا إذا كان الهدف الرئيسي هو ما ذكرت أما إذا كانت هناك أسباب أخرى فهي كما أوضحت لك سابقاً أنّ من الممكن تلافيها بشكل من الأشكال، ليتك كنت صريحة مع نفسك يا هيفاء لاعترفت بما أقول ولحاولت أن تتغلبي على هذا الطراز من التعايش مع الآخرين، فهل تعلمين كم يؤثر هذا السلوك على طبيعة العلاقات وكم يتسبب هذا في إبعادك عن المجتمع وتجنبك لصديقاتك يا هيفاء؟ كوني سهلة وقدّمي الأهم على المهم واجعلي من الأهم ذلك الشيء الذي ينسجم مع طاعة الله عزّ وجل ويتماشى مع روح الانفتاح الخالص على صديقاتك المؤمنات.

بينما كانت غفران تحاول أن تصل في أحاديثها مع هيفاء إلى نتيجة مرضية تمكنها من انطلاقة جديدة لها في الحياة، كانت سعاد تمرّ بدور مماثل له فقد نهضت عند الصباح وبعد إنجاز الأعمال البيتية انصرفت لتحضير كعكة من أجل الزائرات الغاليات، وبينما هي مندمجة في عملها مع جد مريح واندفاع صادق، تصوّر لها أفكارها طبيعة الجلسة وترسم لها صورة عن أجوائها المحببة، فهي

تكاد مسبقاً تلمح رجاء بطرائفها المحببة وإخلاص بأمثالها الحكيمة وآمال بصمتها المعبّر وهادية بمثلها التي تتمكن أن تبرزها في كل مجال وتنفذ إليها من خلال كل ثغرة، بينما هي غارقة في ذكريات سابقة رسمت لها ملامح الساعات القادمة سمعت رنين جرس الباب فسارعت إليه لتجد إحدى قريباتها التي أصبحت جارتها في بيتها الجديد، فرحبت بقدومها وجلست وإياها للحديث فأخذت تحدّثها تلك عن طبيعة المنطقة وأنها ارستقراطية إلى حدّ بعيد.

فقالت سعاد: إنني لا أستشعر أهمية لذلك فإنّ الإنسان المؤمن ليلتزم في حياته بسلوك لا يتغير ولا يتبدّل في أي محيط مهما كان أرستقراطياً أو برجوازياً أو شعبياً فإنّ له خطوطاً عريضة يسير عليها مهما كان الوسط الذي يعيشه.

فتململت جارتها لحظة ثم قالت في تردد: ولكن، لعلَّ هناك بعض النقاط مما يلفت الأنظار الشيء الذي لا يريده لك ولهذا أحببت أن أعرّفك على المستوى الرفيع للمنطقة وأنت جديدة عهد بسكناها.

قالت سعاد: أية نقاط هذه التي تعنين؟

قالت: أعني عدم وجود تلفاز في بيتكم أولاً ثم هذا النمط من الحجاب الذي تلتزمين به.

قالت سعاد: سوف أكون سعيدة أكثر لو عرفت أنّ هاتين النقطتين جديرتان لأن تلفتا إليهما الأنظار.

فاستغربت جارتها من هذا الردّ وتساءلت: وكيف؟

قالت: لأنّ ذلك يحقق لنا جانباً من جوانب العبادة التي خلقنا من أجلنا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ومن أهم نواحي العبادة ناحية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى دين الله ولهذا فأنا إذ أفهم بأن هناك مظهري الخارجي أو مظهر بيتي ما يلفت الأنظار أكون مرتاحة لأنني في ذلك كله قد حققت صامتة وأثبت حقيقة مقدسة بأسلوب عملي، فدعيني أشكرك على بوادر البشارة التي حملتيها إليَّ.

. . . كانت صاحبتها تستمع إلى سعاد وهي لا تكاد تصدّق ما تسمع وكأنها أرادت أن تتخلص من الاستمرار في حديث لا تتمكن من مجاراته فكرياً وعملياً فقالت: يبدو أنّ عندك ضيوف؟ عرفت ذلك من رائحة الكيك التي أخذت تتصاعد منذ فترة.

فابتسمت سعاد وقالت: نعم، لديَّ مجموعة من الزائرات.

فتلفتت صاحبتها حولها وكأنها تبحث عن شيء ثم قالت: فلماذا إذن لما تكملي فرش بيتك قبل استقبال الضيوف؟

قالت سعاد: ليس لديَّ ما أُضيفه عمّا هو موجود. . .

فأبدت تلك بعض علامات الاستغراب مع مسحة من الألم وقالت في صوت حاولت أن يكون حزيناً: أنت ليس عندك سجاد إذن يا سعاد ولكن كان يمكن أن تستعيري ذلك منّا، أرجوك اعتبري بيتي كبيتك تماماً، وحتى الآن يمكن أن أنقل إليك ما تفرشين قبل أن تبدأ الزيارات ويعرف عنك ذلك.

فضحكت سعاد وقالت: أنا شاكرة لك عواطفك هذه ولكنني أستميحك العذر عن قبولها لأنني لا أحسّ بالحاجة إلى ذلك أبداً.

فأبدت صاحبتها بعض بوادر الدهشة وقالت: وكيف، أليس من الجميل أن يزورك الناس فيجدون بيتك كاملاً غير ناقص؟

قالت سعاد: نعم إن ذلك جميل ولكن الكمال الذي أهفو إليه ليس عن طريق أثاثه ورياشه وليس عن طريق وسائل الديكور التي تزين جدرانه. ولكنه عن طريق انفتاحه هو ومن فيه لكل قادم وتطبيقه لتعاليم الإسلام في إكرام الضيف وبذل القرى للزائرين.

وعند العصر كان بيت سعاد يضم أروع إضمامة عطرة من الفتيات الصالحات بعد أن أعطين بكل خطوة درساً ورسمنا على كل حركة وسيلة إيضاح هادية.

اختيار زوجة

جلس مقداد يتحدّث مع أمه في ساعة اختار أن تكون من الساعات التي تُرى فيها منشرحة الصدر منبسطة الوجه، قال: إنّ لديَّ فكرة أرجو أن تدخل على قلبك السرور يا أمّاه.

فأجابته باندفاع ولهفة قائلة: وهل أجد منك إلاَّ ما يسعدني يا بني؟ فما هي فكرتك هذه يا عزيزي؟

قال: إنني أكملت دراستي كما تعلمين وأصبحت قادراً على فتح بيت وتحمّل مسؤولية أسرة، ولهذا فقد عزمت أن أجد لي شريكة حياة.

فأشرق وجه الأم بابتسامة عريضة وقالت: يا لها من فكرة رائعة ويا لها من بشرى سارة، لقد كنت أنتظر هذا اليوم يا ولدي وكمن تمنيت لك هذه وتلك ممن تزوجن من بنات عشيرتنا والحمد لله الذي جعلك تفكّر بالأمر قبل أن يفوت الأوان.

فكّرر مقداد الجملة الأخيرة في استغراب قائلاً: قبل أن يفوت الأوان؟

قالت: نعم، أعني موضوع ابنة عمك حذام فهي مستحقة للزواج ولا يخلو بيتهم دوماً من خاطب.

فسكت مقداد لحظة ثم قال بنغمة حاول أن تكون لينة: إذن فلماذا نزاحم هذه المجموعة من الخطاب؟

فبهتت الأم وقالت في تعجّب: ما الذي تعنيه يا مقداد؟

قال: أقصد أنّ ابنة عمي لا تلائمني يا أماه.

فشهقت الأم في استغراب وقالت: لا تلائمك؟ وكيف؟ من هي أحسن منها؟ لا لا يا بني إنك غلطان وسوف أذهب منذ الغد لإجراء مراسم الخطبة.

فأجاب مقداد في فزع إياك أن تقومي بشيء من هذا يا أُماه لأنني غير راغب في الموضوع.

قالت: ولكنك إذا علمت أنها أصبحت خطيبتك سوف تبدأ تنسجم معها فدع

عنك هذه الأقاويل واعلم أنني لا أريد إلاَّ مصلحتك وسعادتك فهي جميلة وصاحبة وظيفة محترمة أقصد مثقفة.

قال مقداد: لا يا أماه إن هذه الخطوة هي ما يخصني أنا بالذات ولهذا فاتركي أمر التفكير في موضوع حذام.

فسكتت الأم وكأنها تحاول أن تستحضر في ذهنها موضوعاً جديداً ثم قالت: طيِّب إذن فليس هناك من هي أجدر من ابنة خالك إذا عدونا حذام، فهذه لا تقلّ عن تلك جمالاً وهي إن كانت غير موظفة ولكن خالك رحمه الله قد أورثها تركة معتدٌ بها مما يمكنك أن. . فقطع مقداد متسلسل حديثها قائلاً في نفور:

لا لا أرجوك يا أماه فكري معي بشكل موضوعي فأنا أريد شريكة حياة ولا أريد شركة تجارية.

فظهر الغضب على الأم وقالت في حدّة: وما الذي يعوز ابنة خالك أن تكون لك شريكة حياة أيضاً؟

قال: إنها يا أماه لا تشاركني أفكاري ومعتقداتي ولهذا فليس في إمكانها أن تكون شريكتي في الحياة.

فضحكت الأم في سخرية وتهكم وقالت: إنك تتكلم وكأنّك ملاك لا يجد شريكة حياته إلاَّ في حورية، ألا تترك هذه الكلمات الفارغة يا بني، إنك شاب مثقف حائز على شهادة راقية فلا يليق بك أن تفكر على هذا الشكل الخيالي يا مقداد.

فقال مقداد: إنني لست ملاكاً ولا أحاول أن أفتش عن حورية ولكني إنسان مسلم أفتش عن فتاة مسلمة ملتزمة بأحكام الإسلام وآدابه.

قالت الأم بلهجة قاطعة: إذن فإنك سوف تبقى بدون زواج لأنك لن تجد فتاة تناسبك مع هذه المواصفات.

فابتسم مقداد في رفق وقال: لوحاولنا لوجدنا يا أماه.

قالت: وكيف وجميع البنات اللواتي أعرفهن لا يمثلن فكرتك هذه؟

قال: ولكنني أعرف من تتمثل بها هذه الشروط.

فاستفزها الجواب وقالت في استغراب: أنت تعرف! مَنْ هي مثلاً؟ ومتى أصبحت ممن ينشئ علاقات خاصة مع البنات؟

فأثارت هذه الكلمة أعصاب مقداد ولكنه تمكن من التحكم بها ولهذا ردّ عليها قائلاً: إنني أقصد من معرفتي المعرفة المباشرة ولكنني أعني بها معرفتي بوجود مثل هذه الفتاة.

قالت: ما أراك إلاّ وقد حددت موضوعاً خاصاً تريد أن تستدرجني إليه فمن هذه (الست المحترمة) يا سيد مقداد؟

فابتسم مقداد ابتسامة مرّة لهذا التهكم من أُمه ولهذه البداية المتعبة ثم قال: أرجوك أن تكوني أكثر تفهماً لموقفي يا أُماه، وقد كنت أتمنى أن تقفي إلى جانبي في هذا الأمر وتحاولي إقناع والدي في هذا الموضوع فإنّ عاطفة الأمومة من حقها أن تتغلب على كل المشاعر الأخرى.

وكأن كلمات مقداد الهادئة وعباراته التحببية جعلتها تركن إلى الليونة نوعاً ما فقالت بشيء من الرفق: وحقّ عينيك يا ابني أنا لا أفكر إلاّ من زاوية مصلحتك الخاصة.

قال مقداد: إذن فأنا أطلب منك أن تسانديني في خصوص هذه الخطوة فأنا أعرف بمصالحي يا أماه.

قالت بعد فترة تردد: نعم ما دام في ذلك ما يرضيك مع عدم تحملي لمسؤولية العواقب، والآن أين الموضوع الذي تريد يا مقداد، وما هي شمائل تلك الفتاة السعيدة التي نالت رضاك؟

قال: إنني لا أنظر إليها إلاّ من الجانب الديني، فهي كما أعرف عنها فتاة محجبة مؤمنة.

قالت: آه، إذن فهي غير مثقفة؟

قال: إنّ لديها بعض الثقافة العامة وهي من الناحية الدينية مثقفة جداً.

قالت: مثلاً ما هي الشهادة التي حازت عليها؟

قالت: السادس الإعدادي يا أماه وهو قدر يمكنها أن تفهم ما يفيدها في الحياتين.

قالت: ومن أية أسرة هي يا ترى؟

قال: إنها ابنة بيت عرف بالأمانة والصلاح وقد أعطى عنه سمعة حسنة خيرة.

قالت الآم: آه، إذن فهي لا تنتمي إلى أسرة محترمة مرموقة؟

قال: وما هو تأثر الأسرة المرموقة إذا كانت الفتاة ذات أخلاق غير صالحة وذات طابع غير محترم.

وهنا شاهد مقداد أنّ وجه أُمه أخذ يكتسي طابع الصرامة شيئاً فشيئاً، فاستعاذ بالله في سرّه من ذلك وأردف يقول في رفق: إنّ السعادة الزوجية لا تعتمد على المال والجاه والمقام يا أماه ولكنها تنطلق من زاوية التقارب الروحي والفهم المشترك لحقيقة الحياة.

وهنا أجابت الأم بنغمة جافة قائلة: وما هي مهنة أبيها يا ترى؟

قال: إنه بقّال يا أُماه.

فشهقت الأم وقالت: بقّال!!؟

قال: نعم، ولكنه رجل صالح أنشأ جيلاً خيّراً فاضلاً من الأبناء وكوَّن أُسرة مؤمنة سعيدة.

فقطعت الأم كلامه قائلة في توتر واضح: وأنت. أنت ابن الأشراف. ابن المال والثراء وربيب الثقافة والعلم. أنت حامل أعلى شهادة بشبابك وجمالك تريد أن تقرن حياتك مع ابنة بقّال؟ يا للعار! ثم تريد أن أكون أنا واسطتك في ذلك؟

قال: ولكن ما هو رأيك لو كنت قد اخترت ابنة بائع المجوهرات؟

قالت: إنّ ذلك يعدّ تاجراً وشتان بين البقّال وبائع المجوهرات يا مقداد!

قال مقداد: إنّ الفرق يبرز من الناحية المالية فقط وإلاّ فإنّ هذا يبيع خاتماً وذاك يبيع سكراً، كلاهما عاملان في سبيل الكسب من أجل العيش.

قالت: ولكن تصوّر ردود الفعل لدى أبيك وأخيك.

قال: لن تكون أسوأ من ردود الفعل لديَّ بالنسبة إلى اختيار أخي لزوجته وموافقتكم على ذلك مع أنها فتاة متحللة غير ملتزمة، وعلى كل حال فإنّ هذه هي رغبتي وهو قراري النهائي، فأما أن تقدمي أنت لأجل إنجاز الموضوع أو أستقل بنفسي في الأمر.

قال مقداد هذا بأسلوب صارم جاد عرفت الأم منه أنه يعني ما يقول، فضحكت في سخرية وقالت: وهل أنّ الموضوع يحتاج إلى إقدام وإنجاز؟ إنّ أقل إشارة منك تجعلهم يقدّمون لك ابنتهم بكل سرور.

فهزَّ مقداد رأسه في تشكيك وقال: إذن جرِّبي لنرى.

قالت: ما أعجب هذا! أذهب لأخطب لابني ابنة بقّال؟ أي جمال تمتلكه هذه الفتاة جعلك ترغب فيها وتغمض عن كل شيء؟

قالت: أقسم لك يا أماه بأنني ما رأيتها من قبل.

قالت: إذن فما يدريك ولعلَّها قبيحة؟

قال: لا، أنا أعلم بأنها ليست هكذا، ومع وجود الفضائل التي تتحلى بها لا تعود درجة الجمال تهمني يا أماه.

قالت: أما والله أن عجبي لا ينقضي منك يا مقداد! ولكن بأي وجه سوف تقابل أباك وأنت تحمل معك هذا الاقتراح؟

قال: بالوجه الذي أقابل به ربي يا أُماه، ولكنني أرجو منك أن لا تقفي ضدي وأن تساعديني ما وسعك ذلك...

وفي صباح اليوم التالي فاتح مقداد والده في الموضوع، وصادف من أبيه ثورة صاخبة أيضاً، ولكنه أصرّ على رأيه وأوضح لهم أنّ هذا أمر يجب أن يكون وأنه مصمم على إبرامه بأي شكل من الأشكال، وأنه هو وحده صاحب الأمر فيه لأنه يخصّه هو بالذات، وقد وقفت الأم موقفاً حيادياً خفف من حدّة التوتر، وأخيراً خضع الأب لما يمليه مقداد على مضض فتوجّه مقداد نحو أمه

يطلب منها أن تذهب لإجراء مراسم الخطوبة وأن تحاول تذليل الأمر بأي صورة.

قالت: إنني ذاهبة استجابة لأمرك يا بني ولكنني لا أحتمل أن الموضوع يحتاج إلى تذليل وتمهيد، فمن الذي تتقدم أنت لخطبة ابنته فيمتنع عن إعطائك يا بني؟

وعند العصر استصحبت الأم معها أكبر بناتها وألينهن جانباً وتوجهت إلى بيت العروس، وفي الطريق استفسرت البنت من أمها عن اسم هذه الفتاة التي هما ذاهبتان لخطبتها فقالت الأم: أنا لم أشأ أن أسأله عن اسمها، ولكنني أتوقع أن يكون: نهاية، أو عطية، فهل هي إلاَّ ابنة بقّال؟ وعندما تقدمتا نحو الباب وطرقتاه كانتا تستشعران حالة ترقّب وقلق خفية، وفتحت الباب لهما فتاة صغيرة السن صبيحة الوجه بادية الجمال بشكل جعلهما تستشعران بمفاجأة غير متوقعة، ورحبت بهما الفتاة وإن كان الاستغراب قد خالط نظرتها، ثم قادتهما إلى غرفة الاستقبال وذهبت لاستدعاء أمها، وكانت الأم امرأة وسط، لا بالسمينة ولا بالضعيفة، عليها مسحة من ملاحة وطيبة وقد رحبت بالزائرتين وجلست قبالهما وهي تنتظر منهما ما يكشف عن طبيعة الزيارة، وبعد تبادل بعض كلمات شكلية قالت أم مقداد: ما تكون منك هذه الفتاة التي فتحت لنا الباب؟

فابتسمت الأم وقالت: إنها ابنتي أفنان، فرددت الأخت الاسم في نبرة إعجاب قائلة: أفنان، يا له اسم بديع!

وأردفت أم مقداد تقول: وهل عندك بنت غيرها؟ قالت: لا، فهي وحيدتي.

فظهر على وجه أم مقداد وأخته السرور لأنهما عرفتا أنّ تلك الفتاة الجميلة كانت هي العروس المطلوبة. وقبل أن تتحدث أم مقداد بشيء دخلت الفتاة من جديد وهي تحمل بيدها أكواب القهوة، وبعد أن انتهت من تقديمها جلست فترة قصيرة دارت خلالها بعض الأحاديث بينها وبين الأم والأخت فكان أن انجذبتا نحوها بشكل فريد بعد أن حازت على إعجابهما بشكل كامل، وبعد أن

جمعت أكواب القهوة وغادرت الغرفة تكلمت أم قداد فقال: لقد دفعتنا غاية مباركة لزيارتكم اليوم يا أم أفنان، ثم اندفعت تتحدث عن رغبتهم في المصاهرة وإعجابهم بالفتاة، وكانت تتحدث بحرارة واندفاع يختلف مع ما كانت عليه قبل أن تدخل البيت وترى أفنان، وتحدثت عن ابنها بكل إعجاب وذكرت عنه كل ما يميزه في نظرها، من الشباب والجمال والشهادة والمال، ولكنها غفلت عن التعرّض إلى ناحية واحدة هي أهم ما في الأمر بالنسبة إلى أُم أفنان وهي ناحية دينه وإيمانه، ولهذا فقد فوجئت بما لم تكن تتوقعه من قبل إذ أنّ الأم أجابتها بلهجة مهذبة قائلة:

ولكن مما يؤسفني أن أقول إن هذا الأمر من العسير تحقيقه ولعلّه في حكم المحال.

فرددت الأم كلماتها الأخيرة قائلة: في حكم المحال، ولماذا؟

فابتسمت تلك وقالت: إن ابنتي لا تزال صغيرة.

قالت أم مقداد: ولكنها ليست صغيرة جداً، إنها في سن النضوج الكامل.

قالت الأم: ولكن هناك عقبات كثيرة ولا حاجة بنا لذكرها في الوقت الحاضر.

قالت أم مقداد: ولكن عليك أن تراجعي الأب وتتعرفي على رأي البنت فليس لك أن تبتي بهذا الموضوع وحدك يا أم أفنان.

قالت: لا أظن أنّ رأيها سوف يختلف عن رأيي.

قالت أم مقداد: إذن؟

قالت: إذن فأنا أعتذر وأتمنى لابنك أن يجد الفتاة التي تلائمه من جميع الوجوه.

فظهر الألم على وجه أم مقداد وقالت: ولكن يبدو أن ابنتكم هي جد ملائمة لابننا وهذا هو الذي دفعنا إلى طلب يدها مع كثرة من حولنا من البنات، ويا حبذا لو فسرتِ لنا سبب هذا الرفض البات وبهذه السرعة قبل أن تحاولي الاستفسار عن الولد أو الاستشارة من الآخرين.

فتململت الأم ثم قالت: إنني لا أملك إلاَّ بنتاً واحدة ولهذا فإنّ واجبي أن أؤمن مستقبلها في حياتها الزوجية.

قالت أم مقداد: ولكنني أوضحت لك أن ابننا جدير بإسعاد مستقبل ابنتك فهو متمكن من الناحية المالية بشكل كامل.

قالت الأم: إن هذا ليس الشيء المهم في نظري فإنّ المال لا يجلب السعادة ولا يطرد الشقاء.

قالت: إذن إنها وقد أخبرتك أنه يحمل شهادة عالية محترمة، إنه مهندس. نعم مهندس. وقد رددت أم مقداد كلماتها الأخيرة بشيء من الفخر والاعتزاز وكانت تتوقع أن تجد آثارها على وجه أم أفنان، ولكن راعها أن تجد تلك تهز رأسها في عدم اهتمام، ثم قالت: وهل أنني سوف أزوج ابنتي من أجل الشهادة؟ إن الشهادة لا تزيد من الكفاءة الزوجية ولا تنقص منها.

فاحتارت أم مقداد وتجرّدت من جميع أفكارها التي كانت تعيشها من قبل وشعرت أنها صاحبة حاجة ضعيفة أمام إنسانة قوية متمكنة من الموقف، وتساءلت في حيرة: إذن ما هي القواعد التي تؤمِّن مستقبل ابنتك في نظرك يا ترى؟

قالت: إنّ الأم عندما تتقدم لكي تخطب لابنها لا بدّ وأن تذكر أهم ما يميزه ولكنك لم تعرضي لشيء من ذلك ولم تشيري إليه من قريب أو بعيد.

قالت أم مقداد في استغراب: ماذا تعنين يا أم أفنان؟

قالت: إنّ ابنتي فتاة مؤمنة لا تختار ولا نختار لها إلاَّ الزوج المؤمن الصالح الذي يساعدها على التمسك بآداب الإسلام وأحكامه، وأنت لم تذكري عن ابنك ما يدلّ على إيمانه، ثم إنّ ابنتي محجبة ولعلَّ ابنكم يريد عروساً تتماشى مع أخواته ومحيطه الخاص.

وهنا أطلقت أم مقداد ضحكة عالية وقالت: نعم إنك على حق وقد فاتني أن أتحدث عن هذه الناحية لأنني كنت أتوقعها غير مهمة.

قالت الأم: ولكنها بالنسبة لنا مهمة جداً.

قالت أم مقداد: إذن فكوني على ثقة أن ابني هو أجدر ما يكون بابنتك لأنه شاب مؤمن صالح يصلِّي ويصوم ويفتش عن عروس محجبة.

وهنا تبدلت تعابير وجه الأم وظهر على نظراتها الاهتمام لأول مرة ثم قالت: إذن لماذا لم تذكري ذلك منذ البداية؟

قالت: لم يكن يخيل إليَّ أنّ ابني مع جميع ما يميّزه يفتقر إلى ذكر هذه الناحية بالذات، أما الآن وقد عرفت عنه ذلك فماذا ترين؟ واعلمي بأن وضعي الخارجي ووضع ابنتي لا يمثلان ذوق ابني ولا ينسجمان مع أفكاره وآرائه.

قالت الأم في رصانة: إذن تفضلي واذكري الأسم الكامل لكي نحاول أن نسأل عنه بشكل أوسع.

قالت أم مقداد: نعم إن لك الحق في ذلك ثم قدمت لها الاسم والعنوان بشكل منفصل وخرجت على أن تعود بعد أسبوع لتتعرّف على قرارهم الأخير.

وفي البيت كانت مشاعر انتظار متناقضة، مقداد ينتظر في استخفاف. وما إن دخلت الأم حتى طالعتها نظرات الاستفهام فجلست فترة دون أن تعطي أي إشارة ثم قالت. أما والله أنها لعجيبة! وسكتت، فبادرها مقداد في السؤال قائلاً: وما هو العجيب يا أُماه؟ هل حدث ما يريب؟ قالت: لقد حدث ما لم أكن أتوقعه أبداً يا مقداد! قال: آه أنهم رفضوا الموضوع إذاً يا أُماه...

وهنا قهقه الأب ضاحكاً في سخرية وقال: لكن أنت بسيط يا مقداد! إبنة البقال ترفض خطبتك وأنت ابن الحسب والنسب؟!

ولم يكد يكمل جملته حتى استدارت الأم نحوه تقول في أسلوب جاد: ولكنهم بالفعل قد رفضوا ذلك يا أبا مقداد؟

ففغر الأب فاه في استغراب وقال: رفضوا؟

قالت: نعم.

وهنا تساءل مقداد في لهفة: وماذا كان السبب؟

قالت: لأنهم لا يعرفوا شيئاً عن إيمانك يا بني وقد حدَّثتهم بجميع صفاتك وغفلت عن هذا الأمر؛ ويبدو أنه كان في مظهري ومظهر أختك التي كانت

معي ما جعل الأم تزهد بإعطاء ابنتها إلينا، لأنها على حدّ تعبيرها مؤمنة ملتزمة.

وإلى هنا سكتت الأم تنتظر من ابنها الاستزادة فقال مقداد: وأخيراً؟

قالت: وأخيراً عرفتُ أسباب الرفض فأفهمتهم بأنك إنسان مؤمن وعند ذلك فقد دخلت الأم في مرحلة التفكير بالأمر وقد أعطيتهم الاسم والعنوان من أجل الاستفسار، ولكن إذا أردت الحقيقة يا بني قد فوجئت بموقفهم هذا ورأيت نفسي منقادة لأن أحترم قوة الإيمان الموجودة لديهم بشكل لم تخضعهم لإغراء الأسماء والألقاب والأموال والشهادات.

وما كادت الأم تنتهي من كلماتها الأخيرة حتى قال الأب: وهل رأيت الفتاة يا أم مقداد وكيف كانت؟

فتضاحكت الأم وهي تنظر إلى مقداد بطرف خفي ثم قالت: أما هي فرائعة إلى حدّ بعيد، جميلة، ومهذبة، ومحبوبة وعلى العموم فإنّ مقداد كما يبدو يعرف كيف يختار.

وبعد مضي أسبوع حصلت الموافقة من قبل أهل أفنان وتمَّ عقد الزواج في جو هانىء سعيد.

صافرة إنذار

عاد عبد الحكيم إلى البيت ليجد أنّ زوجته إقبال لا تزال خارج الدار فجلس ينتظرها وهو يلاعب أطفاله تارة ويقرأ في كتاب تارة أخرى وحوالي الساعة العاشرة عادت إقبال، فوجدها في أروع حلّة وأبرز زينة على عادتها في التزام الأناقة، ولكنها لم تمهله لكي يمتّع نظره بمظهرها الجذّاب إذ اتجهت إلى غرفتها وتخلَّصت هناك من وسائل التصنع فبرزت حقيقتها أقلّ جمالاً وأكثر نعومة وأنوثة.

ولاحظ عبد الحكيم أنّ إقبال لديها ما تقوله له تتحب إليه بشكل لا يحدث إلاّ في الحالات التي تسبق لها طلب أو حاجة، وبعد استسلم الأطفال للنوم قالت إقبال: إنك لم تسألني عن زيارتي عصر هذا اليوم.

فابتسم عبد الحكيم واستعاذ في سره من هذه المقدمة ثم قال: أرجو أن تكوني قد حصلت على بعض المتعة والراحة؟ فاندفعت تقول وكأنها تتحدث عن الفردوس الموعود: يا لله كم كانت الجلسة رائعة والحديقة واسعة والبيت فخم والتقديم محترم جداً وقد كانت أحدث (باروكة) هي باروكة صديقتي حياة وأغلى بدلة هي بدلة أم نعمان وزوجة الدكتور عاصم، آه كم كانت جميلة ومحترمة وكم كانت بارزة مقدرة. نعم جداً جداً فضحك عبد الحكيم في ألم وتساءل من أُم نعمان أُم البدلة؟ قالت: لا إنها البدلة يا عبد الحكيم، وقال وأم نعمان ماذا كان دورها يا ترى؟ قالت وكأنها لا تريد أن تفسح له مجالاً للحديث: ولكنني كنت خجلانة جداً بشكل لم أتمكن معه أن أستشعر الأنس والسرور.

فاستعاذ عبد الحكيم بالله من جديد وحدث نفسه قائلاً: هذه هي البداية والله يستر من النهاية. وسكت فلم يعقب، قالت أراك غير مهتم بأمري يا عبد الحكيم أتراني هنت عليك إلى هذا الحد؟ فها أنت إذا لم تحاول أن تتعرّف على أسباب خجلي وكأنني غريبة عنك. قالت هذا وكادت أن تستعبر باكية، فحدث نفسه قائلاً: إنّ أمري لله الواحد القهّار لو تأخرت عن سؤالها لحظة لقامت هنا مناحة.

ثم أردف يقول: كيف يخيل إليك هذا يا إقبال؟ ألست أنت زوجتي وأم أولادي ولكنني غفلت عن السؤال فسامحيني على ذلك والآن أي شيء بعث الخجل في نفسك يا عزيزتي؟ أرجو أن لا تكون بدلتك الجديدة؟

قالت: لا فهي وإن كانت أقل من بدلة أم نعمان ولكن يمكن التعويض عنها في المستقبل وإنما الموضوع هو موضوع تجديد اليوم الذي أستقبل فيه الزائرات لقد مرّ زمن طويل دون أن أخصص يوماً للاستقبال فماذا عساهن أن يفسرن ذلك إلاّ العجز المالي والمعنوي نعم إنهن سوف يظنن أنّ زوجي إنسان

بخيل غير عارف بقواعد المجتمع وهذا ما يؤلمني جداً، نعم إنه يؤلمني من أجلك يا عبد الحكيم لأنك إنسان ممتاز فإنّ من المؤسف أن تؤخذ عنك فكرة خاطئة وأنت كما أعرفك أروع زوج وأحسن ربّ أسرة.

فابتسم عبد الحكيم وقال: أنا جدّ شاكر لك عواطفك يا إقبال والآن؟

قالت: والآن أليس اليوم هو الخامس من الشهر؟

قال: نعم.

قالت: إذن فإنّ في إمكاني تعيين يوم للاستقبال ما دمت تتمكن من ذلك، ولكن كأنك في حديثك عن اليوم الموعود تتحدثين عن فتح جديد يحتاج إلى إعداد مالي هائل، فتضاحكت في دلال وقالت: لا إنّ الأمر ليس كما تظن يا عزيزي ولكن قد يكلّف، يكلّف، وبقيت حائرة تردد كلمة يكلّف. ولا تدري بماذا تعقّب.

فقال لها مشجّعاً: عشرة دنانير مثلاً؟

فأعادت كلامه بلهجة استغراب قائلة: عشرة دنانير! لا إنها قليلة.

قال: خمسة عشر ديناراً؟

أجابت في تردد أو أكثر بقليل.

فهزّ رأسه في ألم وتأفأف قائلاً: ولكن كم هو عجيب طلبك هذا يا إقبال كيف سوف نتمكن أن نقضي البقية من الشهر بعد ذلك وقد أخذت من راتبي قسطاً وافراً من اليوم الأول من الشهر لأجل أجرة الخياط وشراء الحذاء والجنطة. والآن تريدين أن تستهلكي أكثره في يومك الموعود فكيف سوف أتمكن أن أوفر الحاجيات الأخرى حتى نهاية الشهر؟

قالت: يمكنك أن تستقرض لذلك من أحد الأصدقاء.

قال: ألا يكفيني ما تحملته من ديون حتى أضيف إليها رقماً جديداً؟

ولأجل أي شيء؟ لأجل أن تحدد زوجتي يوماً لاستقبال الزائرات.

قالت: آه إنّ ظني لم يكذّبني إذاً. فها أنت ذا أصبحت تهمل أمري بشكل

واضح لم يكن ليخطر لي من قبل، ما أتعسني وما أشقاني إن أصبحت أنا ربيبة الترف والدلال غير قادرة على تعيين موعد للاستقبال، كيف سوف أتمكن أن أواجه أهلي وعشيرتي كيف سوف أتمكن أن أنظر إلى المجتمع بعيني؟ إنّ ذلك يعني انعزالي عن المجتمع بشكل نهائي فإنّ من المخجل أن أزور ولا أزار قالت هذا واندفعت تبكي بحرقة.

وحاول أن يقنعها بمنطق الواقع ولكنها أبت أن تستجيب قالت: إنّ ذلك يعرّضني لأقسى الأمراض لأنني إذا لم أخرج من البيت يومين متتابعين أحسّ بانهيار عصبي وأفقد القدرة على تناول الطعام وبعد طويل نقاش وجدل خضع عبد الحكيم للأمر الواقع على مضض وتنازل مضطراً لما تمليه عليه زوجته.

□ □

واستعداداً لليوم الموعود بدأت إقبال توزّع الأعمال بين أخواتها وصديقاتها ولما سألها زوجها عن طبيعة دورها وما تبقى لها من مهام بعد هذه الحملة من توزيع الأشغال على الأخريات، قالت: إنّ عليَّ أن أهيىء البيت وأصف الكراسي!! وحان موعد الاستقبال وإقبال سادرة في تحقيق رغباتها بأي ثمن حتى ولو كان على حساب أعصاب زوجها وعواطفه تجاهها وكانت لا تنظر إلى ما هو أبعد من هذا اليوم ولا تحسّ بانعكاساته السيئة في حياتها الزوجية. وعند العصر حاولت أن ترتدي بدلة تزيد من تألقها واستعدّت لاستقبال الضيوف وأرسلت بأطفالها إلى أمّها وأقصت عبد الحكيم عن البيت قائلة له: إيّاك أن تعود قبل الساعة العاشرة يا عزيزي لكي لا تكدّر علينا جلستنا وسهرتنا السعيدة.

ثم بدأ توافد الزائرات قبل الغروب بنصف ساعة. وكنّ جميعهن يتبارين بأحدث أساليب الأناقة والمكياج ولم تكن تدخل واحدة منهن إلاّ وتستعرضها العيون فاحصة مدققة فتقول هذه: إنّ لون بدلتها غير مناسب. وتعلّق تلك قائلة: كان من المفروض أن تكون أطول من هذا. وتتأفأف ثالثة وكأنها وجدت أمامها حالة شاذة وتهز رأسها في قنوط ثم تتمتم قائلة: لكم يزعجني هذا الانحراف بالذوق! ما أبعد ملاءمة هذه التسريحة لوجهها. أُف، أسفي على

الموضة كيف تبدو مشوّهة. إنني أتحمل كل شيء ولا أتمكن أن أتحمل منظر تغير الشكل مع المكياج. وكانت ترتفع من هنا وهناك بعض ضحكات رنانة لم تعرف حتى صاحبتها لماذا أطلقتها على هذا الشكل.

وفي حوالي الساعة الثامنة اكتمل، فنشطت إقبال مع بعض صويحباتها لإعداد ما يستلزمه التقديم، فوزعت الصحون والملاعق والسكاكين بانتظار ما يشغلها من مقليات ومحشيات وفطائر ومعجنات. وفي تلك اللحظة رنّ جرس التلفون وكانت المطلوبة إحدى الحاضرات ولم يكن في ذلك ما يثير لولا أنّها عندما عادت كانت بادية الحيرة والاضطراب وأخذت تسأل عن صاحبة البيت التي كانت لا تزال في المطبخ ثم قالت:

يعزّ عليَّ أن أختصر الجلسة ولكن زوجي استدعاني إلى البيت لأنه سمع باحتمال وجود غارة وهمية تستدعي التعتيم، ولهذا فإن من الراجح أن أعود إلى البيت في أسرع وقت.

وما كادت تكمل جملتها حتى هاج جمعهن وماج ونسين في لحظة جميع قواعد الأتكيت في التزامه فلم يعد يسمع منهن إلاَّ: أين عباءتي؟ أين جنطتي؟ إنّ طريقي بعيد جداً. لا أدري هل أنّ أولادي في البيت أو خارجه؟ الويل لي لو عارضني التعتيم في الطريق. ينبغي أن نذهب بسرعة. وكأنهن في غمرة اضطرابهن نسين صاحبة البيت التي حضرت مسرعة من المطبخ وقد استفزتها الضجة؛ فقد كنّ يتسابقن إلى الخروج تاركات وراهن الصحون الفارغة تنتظر، وصاحبة البيت حاضرة لا تدري كيف تتصرّف وهي تحاول أن تسكن من روعهن وتهدِّىء من اندفاعهن ولكن دون جدوى.

ولم تمض ربع ساعة حتى كان بيت إقبال خالياً إلاَّ منها!! فاستدارت بعينيها وقد صعقتها الصدمة وأربكتها المفاجأة فلم تجد إلاَّ الصحون الخالية الكراسي المبعثرة، وتوجّهت إلى المطبخ لتجد المآكل التي كلّفتها الكثير من المال والعناء وحملتها المزيد من جميل المساعدات، وجدتها مصفوفة في صحونها دون أن يلقي أحد عليها نظرة، فهالها الأمر واستعرضت في فكرها جميع ما

حملها هذا اليوم من مشاق مالية وروحية، حتى أنه فتح بيتها وبين زوجها فجوة لم تكن لتوجد لولاه. وكم كانت تعقد على يومها هذا من آمال في البروز وحبُ الظهور أمام المجتمع بالمظهر اللائق، ولكن آمالها تنهار لمكالمة تلفونية واحدة لم يسعها عند ذلك إلاَّ أن تجلس فتبكي بمرارة، ثم تذكرت موضوع الغارة الوهمية والتعتيم وتذكرت أنّ عبد الحكيم سوف لن يعود قبل العاشرة كما أكّدت عليه هي من قبل، ولهذا فهي سوف تبقى وحدها في البيت وخلال العتمة، وشغلتها فكرة الخوف إلى فترة عن فشل يومها وفكّرت، لعلَّ عبد الحكيم سوف يسمع خبر الغارة فيعجل العودة إلى البيت، وخرت إلى الحديقة ولم تتمكن أن تقوم بأي عمل لأنّ الخوف كان قد استولى على مشاعرها فجلست فوق كرسي هناك تنتظر قدوم عبد الحكيم. وبعد فترة ألقت نظرة على ساعتها فوجدتها تشير إلى التاسعة! إذن أين الغارة، وأين التعتيم؟ وحاولت أن تخلع عنها البدلة ولكن الخوف كان يشلّها عن كل عمل فلم تبرح مكانها حتى حانت الساعة العاشرة وليس هناك أي غارة أو تعتيم.

وبعد ساعة العاشرة بدقائق رنّ جرس الباب فعرفت أنّ القادم هو عبد الحكيم فتوجّهت لتفتح له الباب وهي لا تعرف كيف تتصرّف من بعد هذا الفشل، وقد ترددت لحظة قبل أن تفتح الباب ثم فتحته ويدها ترتجف فظهر من وراء الباب عبد الحكيم، فحيته في ابتسامة حزينة فابتدرها قائلاً:

هل يمكنني أن أدخل أم أنني جئت مبكراً؟

فأطرقت برأسها إلى الأرض وقالت: ليتك كنت قد جئت من قبل؛ تفضّل فإنني وحدي هنا.

فدخل إلى الحديقة وهو يستغرب من خلاء الدار بهذه السرعة، ولكنه عندما شاهد الصحون النظيفة الفارغة وقف باهتاً والتفت نحو إقبال في تساؤل دون أن يقول شيئاً، فما كان منها إلاَّ أن تندفع باكية وهي تقول:

لا أدري كيف أُفسّر لك الموقف يا عبد الحكيم، لقد خرجن قبل بداية التقديم وذلك من أجل الغارة الوهمية والتعتيم.

وكانت إقبال تظن أنّ هذا الخبر سوف يثير زوجها ولكنها وجدته على العكس من ذلك، فقد ظهرت عليه بعض علامات الارتياح ثم قال:

لطيف! لطيف! ولكن أي غارة وهمية هي هذه وأيّ تعتيم؟

قالت: لقد اتصل زوج إحدى الزائرات معها تليفونياً وأخبرها بذلك وقد سبّب هذا الخبر إثارة الفزع عند الأخريات. ولهذا ترى أنهن خرجن على هذا الشكل.

فقهقه عبد الحكيم ضاحكاً وهو يقول: ما هي إلاَّ أكذوبة يا إقبال فهل أن من المعقول أن يكون هناك غارة وتعتيم من دون إخبار سابق؟ والدليل على أنها محض أكذوبة هو عدم حصول أي غارة حتى الآن.

فسكتت إقبال لحظة ثم قالت: نعم يبدو أنها كانت أكذوبة ولكن النتيجة كما ترى.

قال: أرجو أن تكون النتيجة من صالحك يا إقبال وأتمنى أن يكون هذا اليوم قد أعطاك درساً تستفيدين منه في مستقبل أيامك القادمة.

قالت: نعم إنه درس لا ينسى وسوف لن أعود لمثله أبداً ما دمت حيّة.

وفي صباح اليوم الثاني اتّصلت معها صديقتها صاحبة المكالمة التليفونية التي أثارت المشكلة لتعتذر منها قائلة: يبدو أنّ ابني كان قد سقط من السلم وانكسرت يده نتيجة لذلك فأراد زوجي أن يستدعيني دون أن يثير في نفسي مشاعر القلق فاختلق موضوع الغارة والتعتيم ولكنني جد آسفة لما سببته لك من إزعاج.

فأجابتها إقبال: لعلَّ أنّ الموضوع في بدايته كان لا يخلو من إزعاج ولكن نتائجه بالنسبة إليَّ صالحة وقد كشفت عن عيني غشاوة كانت تهددني بالخطر.

وسواء فهمت صاحبتها ما تعنيه إقبال أو لم تفهم ولكنها اعتذرت إليها من جديد وأنهت المكالمة بسلام.

نداء الضمير

جلست رواء أمام جهاز (التلفاز) تنتظر ابتداء البرامج في شيء من اللهفة، ولكن عندما ابتدأت البرامج أنكرت من نفسها أشياء كثيرة، فهي متجهة إلى التلفاز بسمعها وبصرها ولكن فكرها كان شارداً لا يريد أن يتجاوب معها كعادته من قبل، ونفسها كانت تجده قلقة تفتقد الدعة والاستقرار. وقلبها يأبى أن يخفق لكل نغمة أو يرتجف لكل إثارة. وتململت في جلستها وكأنها تريد أن تقاوم هذا النفار الذي تعانيه من نفسها.

حدثت نفسها قائلة: لقد كانت تلك كلمات قصار ومع هذا فقد كدّرت عليَّ صفو سهرتي، ولكن لا، فأي شيء يهمني منها. وبشكل لا اختياري أشارت بيدها إشارة وكأنها تبعد عنها شبحاً غير مرغوب فيه، وحاولت أن تجمع شتات أفكارها من جديد، ولم تمض فترة حتى أحسّت رواء أنّها لم تعد تتمكن من متابعة البرامج التي أمامها.

كانت هناك كلمات تنبعث من قرارة نفسها وتنطلق من عقلها الباطن، كلمات سمعتها وظنتها عابرة ولكنها الآن تجد أنها قد تركت وراءها أثراً وقد علق في فكرها من معانيها جذور. كانت تستمع إلى اللحن الذي أمامها وهناك صوت للضمير يهتف بها من الأعماق قائلاً: إنه الضياع. إنه الضعف. عندما يسلِّم الإنسان أفكاره وعواطفه إلى لحن يتلاعب برواياته وأفكاره كما يشاء، أن الكلمة ينبغي لها أن تهزّ الآخرين لا أن يهتز متكلمها ويركع له ويسجد، أنّ الكلمة الناجحة هي التي ترتفع بصاحبها لا أن يرفع لها قائلها رجليه أو يهز لروعتها منكبيه.

وخامرها السخط على هذا النداء الذي انبعث ليشوّش عليها أفكارها. أنكرت على نفسها هذا الشرود. قالت في سرّها إنها كلمات فردوس هذه التي لا تزال ترن في أذني وتلحّ عليَّ في إصرار، فما لي ولفردوس، وما هي إلاّ إنسانة عابرة في حياتي. ولكن هذه الألحان، وهذه الرقصات هي ما درجت عليه منذ الطفولة.

وغيّرت مكانها وكأنّها تحول بذلك أن تبدأ نشاطاً جديداً، وتقرّبت من الجهاز أكثر فأكثر. وحاولت أن تركّز، فما راعها إلاَّ دموعها تنهمر لأنّ المقطع كان حزيناً، فرفعت يدها لتكفكف بها قطرات الدمع وإذا بها تستمع إلى نداء الضمير وهو يقول لها من جديد:

يا له من ضعف: يا له من انقياد كامل. قبل دقائق كنت أضحك لأسباب وهمية. كان الطرب يكاد أن يطير بي على جناحيه، والآن ما الذي تعنيه هذه الدموع؟ أية حقيقة قد أطلقتها ولماذا؟ لا لشيء، لأسباب وهمية أيضاً. فهل تراني أصبحت أعيش في عالم الخيال؟ أو هل أنّ ما أحسّه هو حالة (الماخولية) أنه نوع من المرض يصوّر لصاحبه أحداثاً لم تقع، فتجده يضحك تارة ويبكي أخرى وهو سادر في عالمه الخاص؟.

وراجعت نفسها من أين انبعث هذا النداء؟ ولم تكن روحها لتطلقه من قبل. آه أنه صدى لكلمات فردوس عندما كانت تتحدّث، ولكن أتراها لم تكن قد سمعت حديثاً من قبل هذا الحديث؟ فما الذي جعلها تعيش كلماته دون باقي الكلمات؟ لأنه كان صادقاً مخلصاً هادئاً محبباً.

ولكن ها هي الأغنية تكاد تنتهي وهي منصرفة إلى متابعة صراع نفسها الرهيب إذن فلتحاول أن تنفي عن فكرها كلمات فردوس بشكل نهائي قبل أن يفوت الأوان.

وتقرّبت من الجهاز أكثر في تصميم وإصرار، وهنا شعرت أنَّ كلمة واحدة بقيت تلحّ على فكرها في تأكيد: حرام. حرام. نعم إنّه حرام. لقد قالت فردوس أنه حرام والحرام يعني العصيان والعصيان يعني العقاب. والعقاب ماذا يعني يا ترى؟ النار. نعم النار. وتمثلت لها النار بلهيبها وزفيرها، وتذكرت ما قالته فردوس، لقد قالت: إن الإنسان يوقد لنفسه النار في حياته ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] إذن فهي مع استماعها لكل لحن تشعل لها أواراً جديداً من نار في انتظار ذهابها إلى هناك. وهي لا تعلم متى سوف تذهب، لعلَّها بعد دقيقة أو بعد سنة أو لعلّها بعد عشرات من السنين، ولكنها النار على كل حال من الأحوال.

تذكرت يوم احترق أصبعها من لهيب المدفأة. لكم آلمها ذلك مع وجود العديد من وسائل العلاج. ولكن هناك ما هي وسائل العلاج يا ترى؟ لقد قالت فردوس إنّ الماء عند أهل النار من غسلين. آه إنها النار. وهنا وقفت وهي تتمتم قائلة: النار. النار. النار.

وانسحبت إلى غرفتها في صمت، وسمعت وراءها ضحكات السخرية والاستهزاء، فرددت تقول: العار ولا النار. ولكنها سمعت نداء ضميرها يردّ عليها في رفق قائلاً: ولكن أي عار هو هذا؟ إنه الوعي الحقيقي والتأمين للمستقبل. إنّ العار هو أن يفرط الإنسان بنعيم دائم من أجل لذّة وقتية وهمية. إنّ ذلك يعني النظر القصير والفكر المحدود والضعف أمام الشهوات. نعم إنّ ذلك هو العار؛ هكذا قالت فردوس أمس وهكذا سوف تقول هي بعد اليوم.

رسائل وخواطر

أختي الغالية أسماء، لا عُدِمْتُك. سلام الله عليك ورحمته وبركاته، وسلامي مع المزيد من أشواقي ودعواتي.

كيف أنت يا غاليتي؟ أرجو أن تكون أيامك بذكر الله معمورة وبخدمته موصولة. صحتي ولله الحمد جيدة وأنا أحسّ الهواء وعذوبة الماء أثراً في ذلك، خرجنا أمس في نزهة قطعنا خلالها مسافة طويلة مشياً على الأقدام ولم نحسّ بأي تعب أو بتعبير أصحّ لقد تعبنا ولكنه تعب محبب تتمكن أن تمحو آثاره شربة ماء من تلك المياه العذبة، أو نسمة هواء من نسمات الجو الرطبة، وقد انتهى بنا السير نحو روض يانع عابق بالزهور وهناك امتدّت يدي لتقطع زهرة كانت قد تفتحت بشكل رائع وما أن قطفتها حتى قال لي برير:

أتراك سمعت حوار زهرتك هذه مع جارتها تلك؟

فاستغربت كلامه وقلت: لا فأنا لم أسمع شيئاً يا برير.

قال: ما إن مددت يدك لتقطفي زهرتك هذه حتى تضاحكت في غرور

وشمخت بأنفها مع مزيد من الرفعة والاعتزاز وخاطبت رفيقتها قائلة: إبق أنت في تربتك هذه، أما أنا فسوف أذهب لأحتلَّ مكاناً سامياً وسط آنية من الزجاج وأعتلي منصّة عالية من المرمر أو الساج، أو لعلّني سوف أصبح زينة فوق صدر غادة تتهافت عليها الأنظار أو أتوج هالة من شعر يخطف بشقرته الأبصار.

نعم إبق أنت هنا أما أنا فسوف أنطلق من هذه الجذور التي تشدّني إلى التراب وأتحرر من هذه الأغصان التي تحسب أنها هي التي تمدني بالحياة، لن أحتاج بعد اليوم إلى رحمة فلاح يسقيني من العطش أو ستار يحميني من الشمس، سوف أستشعر معنى الحرية التي طالما تمنيتها من قبل، ولكن أنت أيتها المسكينة أسفي عليك يا أختاه.

وكان برير يتحدّث وأنا مصغية إليه في إعجاب، فاستزدته قائلة: بماذا أجابتها تلك الوردة يا برير؟

قال: آه إنك لم تسمعي جوابها إذن؟ لقد قالت لها في حسرة: لشدّ ما أنا آسفة من أجلك يا أختاه فما أنت إلاَّ مخدوعة، إنّ هذه الجذور التي تشدّك إلى الأرض هي عنوان حياتك، وأنّ هذه الأغصان التي تربطك بالتربة هي صمّام الأمان لحفظ روائك وبها تحيين. إنّ الحرية التي تنتظرك والتي خدعتك فجعلتك تتغنين لها وتطربين، إن هذه الحرية سوف تؤدي بك إلى الذبول وتبعث في أوراقك الجفاف فتتساقط بعد ذلك وتتطاير مع النسيم؛ هذه هي نتائج حريتك الموعودة، أما أنا فسوف أبقى حيّة نضرة ما دمت نابتة في مكان نبتت فيه بذرتي مشدودة إلى الجذور التي تهبني معين الحياة مرتبطة بتاريخي.

وإلى هنا سكت برير. فهل تعلمين يا أختاه كم كنت أشعر بالسعادة وأنا أستمع منه هذا الحوار؟ وهل علمت ما الذي كان يرمز إليه في تصويره هذا؟ ولهذا فقد عدت من نزهتي تلك وأنا أحسّ بنشوة روحية لأنني قد تعرّفت خلالها على خاطرة جديدة. وختاماً أبعث إليك بأصدق أشواقي ودعواتي واسلمي لأختك المخلصة.

زهراء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عزيزتي الأخت الغالية زهراء:

حرسك الله يا أختي ورعاك وسدّد في طريق الحق خطاك. ما أشوقني إليك يا عزيزتي وما أعمق الفراغ الذي أجده لبعدك، وأنا واثقة بأنه لولا رسائلك التي تسعدني وترويني لضقت ذرعاً بهذا الفراغ.

أمس تسلمت رسالتك فما أسعدني بها، وقد قضيت وقتاً جميلاً وأنا أعيش أفكار وردتيك حتى أنني امتنعت منذ الأمس عن قطف زهرة من حديقة الدار فأنا أكاد أسمعها تنطق بأعذب الكلام، والآن هل تريدين أن أشرح لك المعنى الذي كان يرمز إليه برير في حديثه عن الزهرتين؟ طيِّب، هاك صورة مختصرة عنه لتعرفي أنّ أسماء ما زالت تفهم ما تقرأ.

إنه مَثَّل الزهرة بالفتاة التي تتنكّر لدينها وتحاول أن تنفصل عن الجذور التي تشدّها إليه فتروح تطالب بالحرية والانطلاق بعد أن تخدعها أبواق الحرية وتغريها زخارف الدعايات، فتروح تتلاقفها الأفكار وتتلاعب بوجودها الأغراض حالها في ذلك حال هذه الزهرة المسكينة التي تتنقل من يد إلى يد وتتحوّل من كأس إلى كأس حتى تجف وتذوي، والآن دعيني أحدثك عن نفسي قليلاً، والآن دعيني أحدثك عن نفسي قليلاً، فأنا قلَّما أجد بعدك مَنْ أحدثه يا أختاه، بعد أن أصابتني حصى صغيرة رميت بها من أقرب الأحباء إليَّ وأعزّهم عليَّ الشيء الذي جعلني أنطوي على لذعة من الألم قاسية فرضت عليَّ بعض العزلة عن الآخرين. إنني يا عزيزتي دائبة خلال أيامي هذه على مطالعة كتاب يتحدّث عن طبائع الأحياء وإني لواجدة فيه متعة ومقتبسة منه فائدة ومستلهمة منه خواطر وأفكار، فما أكثر ما أقف خاشعة أمام عظمة الخالق عزّ وجل عندما يحدثني هذا الكتاب (كتاب طبائع الأحياء) عن الأحياء المضيئة مثلاً، وذلك كديدان النار التي تقطن في جوف البحار، وذباب النار الذي يقطن بين الأعشاب ويتمتع بقابلية على الإضاءة، وقوة سمع الخفاش وكيف عوضه الله تبارك وتعالى عن حاسة البصر بحاسة سمعية خارقة فهو يسمع الأمواج فوق الصوتية التي تقدر سرعة ذبذبتها بمقدار (٥٠٠٠٠٠) ذبذبة في الثانية، وغير هذا

من العبر العلمية. ولهذا فأنا أجد أنّ هذه العزلة التي فرضتها على نفسي قد فتحت أمامي مجالاً مضاعفاً للمطالعة والكتابة فما رأيك في هذا يا زهراء؟ وأخيراً لك مني دعواتي وأشواقي واسلمي لإيمانك وإلى اللقاء إن شاء الله.

أسماء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أختي الغالية أسماء لا عدمتك. سلام الله ورحمته وسلامي وأشواقي وأصدق دعواتي، وصلتني رسالتك العزيزة أمس فتسلمتها بمزيد من اللهفة وقرأت سطورها وكلماتك بأفكاري قبل أن أتابع حروفها بعيني، فكم أنت عزيزة عليَّ وكم هي كلماتك المحببة هذه أُثيرت لدي، ولكن رابني فيها سحابة من ضيق نطقت عنها سطورك وكلماتك في صمت، فما الذي تعنيه هذه العزلة التي أقحمتها على وجودك أو أقحمت وجودك فيها؟ وأنت التي يتحتم عليك أن تعيشي في قلب المجتمع لتنظري إليه في عبرة، ولتنشري حولك بين أجوائه فكرة، أتراها من أجل حصى أصابتك ممن تحبين وتقدرين، ولكن هل رأيت يا أسماء تلك الشجرة الطيبة التي تسمى بشجرة البن تارة وشجرة الجمال أخرى؟ إنّ جذورها لتمتدّ في الأرض راسخة ثابتة وفروعها الخضراء ترتفع في هدوء لتهب من لونها المشرق معنى الأمل إلى النفوس ثم ماذا؟ هل يقف عطاؤها عند هذا فقط؟ لا، فإنّ وروداً بيضاء نقية تبدأ تتوّج غصونها وكأنها أكاليل غار فتتزاحم تلك الورود وتتقارب في حنو وإشفاق يشدّ بعضها بعضاً، ومن هنا تبدأ محاولة هذه الشجرة الطيبة لأن تكون في مجموعتها عطاء ورواء للآخرين، نعم إنها عطاء، فهي تنثر لمن يرميها بحجر مجموعة من زهور، فإذا رماها الرامي بحصاة اهتزّت شفقة عليه وخفقت أغصانها حنواً لأجله ثم.. أمطرته بوابل من زهورها البيضاء تكلل رأسه بها وتنثرها أمام قدميه، تفرش بها طريقه وتعطّر بأريجها الهواء الذي يهب عليها، فهل رأيت هذه الشجرة الخيرة وهل فكرتِ في مثيل لها؟ إنه الإنسان المؤمن، هذا الذي نذر حياته لله وفي سبيل الله، فهو

حينما يرمي بحصاة يجيب عن ذلك بعظات ودعوات صالحات، وهو حينما تمتد إليه يد مؤمنة بحجر مشعلاً من نور، وهو يرتجف إشفاقاً وحنواً بدل أن يرتعد غيظاً وحنقاً. إنه يتألّم من أجل الرامي ولا يتألّم منه. أنه يحاول أن يجمع من أمامه الأحجار وينثر بدلاً منها أغصاناً من زيتون ليجنبه مؤونة الرمي بحجر قد يثقل على يديه أو يخدشهما، وذلك لأنّ الإنسان المؤمن بطبيعته عطاء وحبّ وإشفاق، إذن فما يبعدك أن تردي عن كل حصاة بزهرة، وتعوضي عن كل جرعة علقم بكأس من شهد؟ حاولي يا عزيزتي وسوف ترين كم هي لذيذة ورائعة هذه المحاولة. نعم حاولي ذلك بدل أن تعتزلي عن مجتمعك يا أختاه فليست هذه العزلة إلاّ أحد أنواع الهروب. ألا تذكرين هذا البيت من الشعر الذي سبق أن قرأناه وشككنا في إمكان تطبيقه:

وإني لمحتاج إلى ظل صاحب يروق ويصفو إن كدرت عليه

فلماذا لا تكوني أنت تلك الصورة المشعّة التي حسب الشاعر أنه رسمها في عالم الخيال؟ كونيها في عالم الحقيقة والواقع يا أختاه. وأخيراً وليس آخراً أعود لأبعث إليك بأحرّ أشواقي وأصدق دعواتي واسلمي لإيمانك دائماً وأبداً يا أختاه.

زهراء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أختاه، يا شقيقة روحي المصطفاة يا أيتها الزهراء الغالية.

رعاك الله يا عزيزتي وحرسك لإيمانك ابنة داعية ولأخواتك مرشدة هادية، كيف أنت يا أختاه؟ لكم أتمنى أن تكوني بخير وكم أدعو الله لك في مواطن الدعاء ومظان الاستجابة. اليوم صباحاً طالعتني رسالتك الحبيبة، وقد كنت ظمآنة إلى ذلك النبع الطاهر الذي أستقي معينه من خلال كلماتك يا أختاه. وفعلاً فقد كانت رسالتك كعادتك دائماً عندما تكتبين أو تتحدثين مشعل هداية

ونبراس نور، فما أحوجنا لأن نكون نحن المؤمنات أساة لبعضنا وهداة فيما بيننا ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

عزيزتي، لقد دفعتني رسالتك لأن أراجع نفسي من جديد لأناقش معها قرارها في العزلة والابتعاد. ويسعدني أن أعترف لك بأنني توصّلت إلى ضرورة الاستغناء عنه عسى أن أصبح بذلك إحدى وسائل الإيضاح لتعاليم الإسلام، فإسلامنا يا أُخيتي في حاجة إلى وسيلة إيضاح عملية تحكي عمّا تهدف إليه وسائل الإيضاح النظرية (القرآن والسنّة) والآن يا عزيزتي دعيني أسألك سؤالاً واحداً وهو: هل قرأت كتاباً خلال سفرك هذا؟ فإذا كنت قد قرأت كما أرجو فلماذا لم تذكري لي شيئاً عن ذلك وإذا لم تكوني قد قرأتِ كما أخشى فلماذا يا ترى؟ إنّ الجو الرائق والهواء العذب والطبيعة الساحرة هي مما يساعد على القراءة والكتابة كما استشعرت ذلك بشكل ملموس قبل أسبوع عندما ذهبت مع بعض الأحباب والأصحاب في نزهة على ضفاف النهر، ولا أُخفي عليك يا عزيزتي بأنّها أُمليَتْ عليَّ إملاء واستجبت لها بدافع القيام بالواجب فلم تكن نفسي لتميل إليها من قريب أو بعيد، ولكنني هناك وبعد أن استقرّ بي المقام بين أشجار التوت والزيتون ومياه النهر تنساب أمامي في بعد واستمرار، تحمل معها الزهور تارة والأشواك أخرى ويطفو فوقها المزبد مرة والسمك مرة ثانية، وكأنها في ذلك تحكي مسيرة الحياة وما تحمل معها من آلام وآمال، وأشواك وأزهار، وزبد وما ينفع الناس عند ذلك أحسست بأنني أتوق إلى شيء كنت قد جفوته منذ أيام، فامتدّت يدي إلى الجنطة تبحث عن ورقة بعد أن وجدت القلم ينتظرها في صمت واستسلام ووجدت ما أريد فكتبت هناك بعض صفحات جعلتني سعيدة في نزهتي بشكل لم أكن أتوقعه من قبل بعد أن استوحيت مما حولي خواطر لم تكن لتعرض لي لولاها، ولهذا فقد عدت راضية عن نزهتي غير برمة بها ولا قالية لتكرارها.

عزيزتي ما أراني إلاَّ وقد أطلت عليك، فإليك مني مزيد الحبّ والوداد وصادق الدعاء والإخاء، وأستودعك الله الذي لا يخون الودائع.

أسماء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عزيزتي الأخت الغالية أسماء:

لا عدمتك من حياتي ولا حرمني الله أخوتك الصادقة وعواطفك الخيرة.

ما أشوقني إليك يا غاليتي فإنني لأجد أنّ قوى الطبيعة الخلابة مهما تضافرت على أن تنسي من يطرق بابها متطلبات روحه في أقرب إخوانه وأحبابه فهي لن تتمكن من ذلك على كل حال من الأحوال حتى لو كانت قوية في إغرائها، ساحرة في روعتها وبهائها ولهذا فأنا أحسّ نحوك ونحو أخواتي الأخريات بحنين جارف يجعلني أعيش معكن في أفكاري وتطلعاتي، ويدعوني لأن أنتظر يوم عودتي بلهفة واشتياق، لعلّك تجدين أنّ رسالتي قد أبطأت عنك هذه المرة يا أسماء وذلك لأننا كنّا قد قمنا بسفرة إلى بعض المناطق القريبة وقد صادف وصول رسالتك فترة غيابنا عن مستقرنا هنا يا أختاه. ولقد قمنا برحلتنا هذه على متن سيارة صغيرة استأجرناها لهذا الغرض، وفي الطريق كان السائق يقطع المسافات بسرعة هائلة وكأنه يحاول أن يسابق الريح أو يطارد الغزلان، وعندما طلبنا منه أن يخفف قليلاً من سرعته بدا عليه أنه غير مستعدّ لإجابة طلبنا. وهنا قال له برير: لنفرض أنّ أرواحنا رخيصة يا أخي ولكن ألا تخشى على سيارتك من حوادث الاصطدام؟ فهزّ رأسه وأجاب بشيء من عدم الاهتمام قائلاً: لا، فهي مؤمَّنٌ عليها منذ اليوم الأول الذي تسلمتها فيه.

وهنا استدار برير نحوي وهو يقول: هل سمعت يا زهراء؟ قلت: ماذا؟ قال: إنه غير خائف على سيارته هذه لأنها مؤمَّنة؛ ولأنّ شركة التأمين سوف تعوّضه عن كل ضرر يصيبها، ولهذا نجد أنه يقودها باندفاع وانطلاق لم يكن ليحصل لولا هذا التأمين، فما هو الشيء الذي يوحيه لك هذا يا زهراء؟

قلت: إنه يحكي قصة الإنسان والتأمين الرباني والعوض الذي يحصل عليه قبال أيّة خسارة في الأنفس والأموال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

[التوبة: ١٢٠]. قال: ولكن شتان بين ذاك التأمين وهذا التأمين وبين ذاك العوض وهذا العوض! إن شركات التأمين لا تدفع العوض إلا بعد الكثير من وسائل الإثبات التي تستهلك من المال والجهد الشيء الكثير، أما التأمين الإلٰهي والعوض الرباني فهو يأتي تلقائياً ومضاعفاً أيضاً: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩] ولهذا نجد أنّ الإنسان المؤمن لا يمني بخسارة مهما قدم من تضحيات... واستمرّ برير يحدّثني عن شروط عقد التأمين الإلٰهي وكيف أنّ بنوده لا تتكامل إلاّ إذا توافرت لدى المؤمن النقاط التالية:

الإخلاص في النيّة.

الاستقامة في العمل.

ثمّ بدأ يشرح معاني هذه النقاط ومستلزماتها، ولهذا فقد تمكن أن يصرفني كليّاً عن التفكير في سرعة السير ووعورة الطريق ولم أنتبه إلاّ ونحن على أبواب البلد المطلوب، وقد قضينا هناك أياماً ثلاثة رجعنا بعدها إلى مكاننا غير آسفين ولا نادمين لأنّ الإقامة هناك لم تعجبنا ولم تبعث في نفوسنا أي شعور بالراحة والسعادة، وقد وجدت رسالتك تنتظرني هنا فعوضتني بعذوبتها عن مرارة الأيام الثلاث.

والآن، فما أُحيلاك يا أُخيَّتي وأنت تسألين عمّا اقرأ، وما أغلاك يا عزيزتي وأنت لا تريدين أن تهملي من أمر أختك شيئاً، إذن فاعلمي بأنني قد استصحبت معي دورة من (الميزان في تفسير القرآن) وأنا منهمكة على قراءته في جدّ، منصرفة إلى معانيه العملاقة في تأمل وتفكير، وقد بدأت أنقل عنه بعض المعاني والأفكار في دفتر خاص سوف أعرضه عليك عند العودة إن شاء الله. وختاماً أرجو من الله عزّ وجلّ أن يحرسك لإيمانك ابنة مخلصة ولأخواتك محبّة هادية.

وإلى اللقاء إن شاء الله.

زهراء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عزيزتي زهراء، ألف سلام وألف تحية والمزيد من الشوق والدعاء.

ما أطول أيام الفراق هذه يا أختاه؟ فكأني بها لا تريد أن تنتهي ولا تحاول أن تنذر بالإنقضاء، فعينيك يا عزيزتي لولا ما أغرق به نفسي من المطالعة والكتابة لضعفت أمام لوعة الفراق ووحشة البُعاد. أسأل الله عزّ وجلّ أن لا يفرّق بيننا وأن يحمي بعين جلاله هذه الوحدة الروحية والفكرية التي تشدّنا إلى بعض خلال مسيرة الحياة.

لقد كنت أمس في زيارة لبيت صديقتنا دنيا، وقد كان هناك مجموعة من الزائرات ممن لم أكن أعرف عنهن شيئاً، ولا أكذبك يا أختاه إذا قلت أنني كنت ضجرة من جلستي تلك وقد حسبت إلى فترة أنها سوف تكون حسرة عليَّ في يوم القيامة لخلِّوها من ذكر الله. ثم دار الحديث حول المعنى في اسم دنيا فكنَّ بين محبذات لهذا الاسم ومستهجنات حتى قالت إحداهن: إنّ اسم الدنيا يوحي لها بتذكر السجن فتساءلت في استغراب: ولماذا هذا الإيحاء؟ وهل هناك أوسع من الدنيا وأرحب؟ قالت في شيء من التحدّي: أوليست الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر! فإمّا أن نكون مؤمنات فنصبح في سجن وإذا أردنا أن نعيش في جنّة أصبحنا كفّاراً وخسرنا جنّة الخلد! قلت لها: على مهلك عن هذه الثورة يا أختاه، ودعيني أفسّر لك أولاً ما يعنيه هذا الحديث، ثم أخذت أشرح لها كيف أنّ السجن للمؤمن هنا نسبي كما أنّ الجنة للكافر هي بالنسبة أيضاً، فلو تحققت جميع نعم الدنيا للإنسان المؤمن لكانت نسبتها لما ينتظره من نعيم الآخرة كسجن لا أكثر ولا أقل، ولو افتقد الإنسان الكافر جميع نعم الدنيا لكان وضعه البائس هذا كجنة وارفة إذا قيس إلى العذاب الذي ينتظره في حياته بعد الموت.

عزيزتي، لعلّك رأيت كيف أنني حققت لنفسي غايتها عن طريق ذكر الله خلال تلك الجلسة، وعندما عدت إلى البيت طالعتني رسالتك العزيزة بعد أن كنت أترقّب وصولها منذ أيام، فقد أبطأت عن سطورك هذه المرة يا أختاه، وقد حمدت الله على سلامتك وسألته لك دوام الراحة والسعادة. وكم أعجبني

حديثك عن التأمين الرباني والتعويض الإلهي، فإن هذا التعويض الذي تحدثتِ عنه هو الذي يمكن الإنسان أن يقف باسماً وسط الدموع، وأن يشرق على وجه شعاع الأمل وهو في معترك العتمة والوحشة، وأنّ هذا التعويض الذي تحدثتِ عنه هو الذي يساعد الإنسان المؤمن أن يفتح صدره للآلام في رحابه وأن يمهِّد قلبه لمرامي السهام برضا واقتناع وليس بيأس واستسلام، وإنّ هذا التأمين الذي تحدّثت عنه هو الذي يحيل مرارة الحياة إلى حلاوة وعلقمها إلى بلسم وشدّتها إلى لين ودعة وقساوتها إلى رحمة وحنان، وإنّ هذا التعويض الذي تحدثت عنه هو الذي ينبغي أن يكون الهدف الرئيسي والرجاء الواقعي في حياة كل مؤمن، فما أصعب الحياة عند من لم يتطلع إلى هذا الرجاء. وما أوعر مسالكها بالنسبة لمن لم يمهّد له هذا الرجاء منعطفاتها، وما أشدّ عتمة ممراتها أمام من لم ينر له هذا الرجاء جوانبها. (سبحان ما أضيق الطرق على من لم تكن دليله). زينب وصالحة وإنعام يبعثن إليك بأعطر تسليماتهنَّ ودعواتهن، وقد رفضت إنعام أمر تعيينها الذي صدر منذ أيام وذلك من أجل أن تتفرّغ لمسؤولياتها الدينية وتربية نفسها وأطفالها الصغار.

أسماء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عزيزتي أسماء لا عدمتك،

حرسك الله ورعاك يا أُختاه، وسدّد في طريق الحق خطاك، سلام الله عليك ورحمته وبركاته، وسلامي وأشواقي، وحبّي ودعائي. كيف أنت يا عزيزتي؟ أرجو أن تكوني سعيدة مرتاحة. أما أنا، فلو كنت أديبة أُطعِّم رسائلي بكلمات الوصف والتشبيه لقلت أنني إليك في شوق جارف. وأنّ حنيني إليك كحنين الزهرة للندى وحاجتي إليك كحاجة الروض للربيع، وظمأي إلى لقياك كظمأ الرضيع إلى صدر أُمّه. نعم هكذا كنت سوف أكتب إليك لو أردت أن أصوّر لك

الجانب العاطفي من جوانب نفسي بأسلوب أدبي يا أختاه، ولكنني وكما تعلمين جيداً يا أسماء لست أديبة ولا أريد أن أقحم نفسي على الأدب إقحاماً، ولهذا ولأجل أن أتجنب مغبّة الخوض فيما لا أعرف ولا أجيد، أدع الحديث عن وصف الشوق جانباً تاركة لك أن تسألي عنه قلبك، فلا شك أنه به خبير ودعيني أحدّثك حديث نزهتنا أمس. فقد خرجنا قاصدين عيناً من عيون الماء ينحدر شلالها من أعلى قمة في الجبل وقد اخترنا أن نمضي نحوها راجلين فإنّ السير هنا ومع هذه الخضرة الزاهية في الأرض والزرقة الصافية في السماء أصبح هوايتنا المفضلة خلال هذه الأيام، وكنّا ننحدر نحو الوادي انحداراً بطيئاً حتى وصلنا إلى نهايته. وهناك ومن بين الصخور كانت تنبثق عين ماء باردة تنساب في خرير محبب وجلسنا عندها نشرب من معينها العذب تارة ونغسل وجوهنا منه أخرى، ثم تلفتُّ نحو الصخور الصلداء التي تلتف حولها ثم ترتفع صاعدة إلى قمة الجبل، فوجدت على بعضها خطوطاً محفورة، فانصرفت إلى محاولة فهم شيء عن طبيعة تلك الخطوط ثم تساءلت قائلة:

أترى أنّ هذه المنحوتة قديمة العهد يا برير؟

قال: نعم ولعلَّها جدّ عميقة في القدم!

قلت: إذن كيف أمكن لها أن تحتفظ ببقائها طيلة هذه المدة يا برير؟ ثمّ أنّها عملية صعبة، عملية نحت هذا الصخر الأصم.

قال: لا شك أنها صعبة جداً يا أسماء ولكن لولا تلك الصعوبة لما بقيت هذه الخطوط منقوشة على صفحة الصخور، إنّ الإنسان عندما يحاول أن يفتح ليده مكاناً وسطاً يحدث ذلك بسرعة وسهولة، ولا تكلفه تلك العملية أي مجهود فها هو النهر ينساب أمامه برفق، وها هي موجاته تتدافع في هدوء وليس عليه إلاّ أن يمدّ يده ليفتح لها مكاناً بين ثناياه، نعم إنّ ذلك سوف يتمّ بسهولة فائقة ولكن ما هي النتيجة؟ أنه في اللحظة التي يسحب فيها يده من الماء سوف يتلاشى أثرها وينمحي، فلا يبقى للمكان الذي فتحته لها أي عين أو أثر.

إنّ الماء يسير ويسير ويتغير ويملأ كل فراغ يجده أمامه، فلا تعود تلك

العملية (عملية فتح مكان لليد داخل الماء) إلاّ محاولة فاشلة لا تعني شيئاً سوى عبث ساعة، ولكن هذا الإنسان عندما يحاول أنّ ليده مكاناً وسط صخرة صلبة متحجرة كم سيكلفه ذلك من جهد؟ وكم سوف يتطلبه من وقت؟ وما أكثر ما يملأ عرق يديه تلك الحفرة التي يحفرها بين الصخور، وما أكثر ما تلون تلك الحفرات قطرات من دماء أراقتها أصابعه وهي تشقّ الصخرة في ثبات وإصرار، وما أكثر ما يسهر الليالي لذلك وهو مجدّ في العمل حتى يطلع النهار، ثم تتكامل العملية ويتمكن من فتح مكان ليده وسط هذه الصخور الصمّاء. فأيّة نتيجة رائعة سوف تبدو أمامه وتبرز للوجود؟ وأي واقع مريح سوف ينسيه آلام التعب وأيام النصب؟ أيّة سعادة سوف تشرق على جنبات روحه فتجعله يستهين بما أراق من عرق وبما خسر من دماء؟ ذلك أنه سوف يجد المكان الذي فتحه ليده عن طريق العرق والدماء والسهر والإعياء، سوف يجد هذا المكان كيف يبقى ثابتاً مفتوحاً لاستقبال يده في كل حال من الأحوال وكذلك سوف يعلم أنّ هذه الصخرة لن تتمكن أن تمحو عنها آثار يده بل إنها تحتضنها لتحكي بذلك قصة كفاحه لكلّ جيل من الأجيال.

إنّ هذا هو الفارق بين عمل يتكامل بسهولة ثم لا يترك أثراً وعمل لا يتمّ إلاّ بالمصاعب والآلام ثم تبقى آثاره خالدة على مرّ العصور. وهنا سكت برير وانصرفت أنا لنفسي أُراجع معها تصاعد نسبة العمل مع تصاعد الجهد والتعب الذي يواكبه ويماشيه واستعدت في ذهني الآية الكريمة التي تقول: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]، فما أحوجنا يا أسماء لأن تكون أعمالنا مما ينفع الناس لكي تحمل معها مقومات البقاء والاستمرار.

وأخيراً أتمنّى لك أياماً صالحة وأفكاراً خيرة واسلمي لإيمانك ولي، وإلى اللقاء إن شاء الله.

زهراء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عزيزتي زهراء لا عدمتك يا أختاه.

ما أروع التوقيت الزمني الذي أطلّت به عليَّ رسالتك! فقد كنت في حاجة ماسة إلى شيء يبعث في نفسي بعض الدعة أو يهبني القليل من الراحة بعد أن كنت قد اجتزت مرحلة قاسية في حساب الأحاسيس والأفكار. وقد مرَّت عليَّ أيام حملت لي معها الكثير الكثير من صنوف الأسى والعذاب والمرارة واليأس، وقد وقفت حائرة أتساءل مع نفسي بمرارة قائلة: كيف يتمكن الإنسان أن يضحك والدنيا من حوله باكية، وأنّى له أن يبتسم وهو يعيش دنيا حزينة؟ وعن أي طريق يستطيع أن يحمل روحاً مشرقة ونواقيس اليأس تدقّ في سمعه ليل نهار؟ إنه سوف ينهار ولا شك، ولكن... قد يوجد من يأبى الانهيار! نعم قد يوجد هذا الإنسان، ولكنه في حاجة إلى سلاح يمكنه من مقاومة معاول الهدم التي يتعرّض لها خلال تيارات الحياة. إنّه يتوق إلى الصمود ويفتقد مقوماته ودوافعه ولهذا يجد نفسه ولا مناص من الاستسلام... وبينما كنت أتساءل وجدت الجواب! وجدته في كلمات سماوية التقطها سمعي من مقرىء للقرآن الكريم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] فانجذبت نحو هذه الآية ووجدت من خلالها منافذ من نور كشفت عن غطاء الحيرة والتيه وعرفت أنه الإيمان، والإيمان هو سلاح الصمود والاطمئنان إلى الرحمة الإلهية العاجل منها والآجل، وهو من أهم مقومات الاعتدال في المشاعر والسلوك، فالإيمان يحيل اليأس إلى رجاء، والعسر إلى رخاء، والخوف إلى أمن ورضاء، ما دام الإنسان المؤمن يعلم أن جميعها في عين الله...

ثم توصلت إلى نتيجة حتمية لطبيعة الإنسان المؤمن وهي أن يكون التفاؤل من صفاته ما دام واثقاً من الله متكلاً عليه قانعاً بما لديه، منصرفاً عن المزيد، راضياً بما يمرُّ به أو يمرّ عليه. ولهذا فقد أخلدت إلى بعض الهدوء وتفاءلت أن هناك ما ينتظرني ليهبني الراحة بما أُعانيه، ولهذا فقد كانت لرسالتك أروع الأثر في نفسي لأنها كانت إحدى بوادر تحقيق نظرتي المتفائلة.

والآن، يا غاليتي أرجو أن لا يقلقك ما كتبت فهي هموم عابرة استطعت أن أتغلّب عليها بقوة الإيمان والعقيدة.

لك مني أسمى آيات الحب والوفاء.

أسماء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عزيزتي أسماء، يا غاليتي المصطفاة، وشقيقة روحي المنتقاة، لا عدمتك.

تحية قلب مشوق، وسلام روح لهفي أبعثها إليك مع كل خفقة قلب داعية الله تعالى أن يشملك بعين عنايته دائماً. كيف أنت الآن يا أختاه؟ أرجو أن تكوني قد تخلّصت من آثار المرارة والألم وتغلّبت على علقمها بحلاوة الصبر والإيمان. فهكذا هو حال الإنسان المؤمن الذي يعلم أنّ جميع آلامه ومتاعبه في عين الله، هذا العلم يهبه مزيداً من الصمود ويفتح أمامه العديد من نوافذ الأمل والرجاء، ويثبّت أقدامه في مسيرته مهما بعد به الطريق أو أوعرت أمامها المسالك. لقد أوحى الله تعالى إلى موسى وهارون أن: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٣-٤٦]. بمثل هذه الكلمات الإلهية أرسل الله عبدين من عبيده إلى فرعون. ويبدو لنا من سياق الآيات الكريمة أنّ الموقف كان رهيباً ومخيفاً، وأنّ النتائج كانت غير واضحة لدى الرسولين والعواقب غير مطمئنة. فهو قد يطغى فيزداد بذلك عتوّاً وإلاّ لما تسرب الخوف إلى قلبين اختارهما الله ليكونا نبيين في الأرض، رجلين مستضعفين يدخلان على أعظم جبابرة الأرض وأكبر طواغيتها، المتردّي زوراً برداء الربوبية. المتطاول بهتاناً إلى عرض الألوهية يذهبان إليه ليقولا له قل: لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، ولهذا فقد كانا بحاجة إلى ضمان أقوى وشدّ أكبر مع كل ما تنطق به طبيعة الجهاد لديهما كرسولين فقالا: إننا نخاف أن يفرط

علينا أو أن يطغى، فما هو المدّ الإلهي الذي جعلهما يذهبان إلى فرعون لا يليان على خوف أو وجل؛ إنه شعورهما بوجود الله معهما ومواكبته لخطوات جهادهما. ولم يكن إقدامهما بعد إحجامهما بسبب من أنّ الله وعدهما أن يدفع عنهما الأذى. أو أنه تبارك وتعالى سوف يقيهما ويلات الردى. أبداً. لم يعدهما الحق جلَّ شأنه بشيء من ذلك ولكنه قال عزَّ من قائل: لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى.

كان هذا يكفي، ما دام الله يسمع ويرى فهما على استعداد تام لخوض كل مهول واقتحام كل صعب وشديد.

نعم، إنّ هذا يكفي ما دام كلّه في عين الله، أن يشعر الإنسان المؤمن أنّه سائر في طريق رسمه له الله عزّ وجلّ والراسم أعرف بذلك الطريق، وأن يطمئن الفرد أنه عامل من صعيد حدّد الله له أبعاده والمحدّد يعلم باختلاف طبيعة الأرض.

إذن، فأن يكون الله مع الإنسان المؤمن لا يعني أن يفرش له طريقه بالزهور أو يؤرجها بنسمات العطور فإنّ سعادة الإنسان المشمول بعين عناية الله تنحصر في لذة إحساسه بذلك الشمول وهل هناك أصدق من هذه وأسمى؟

إذن، فنحن نستشعر معنى السعادة حتى ولو كنّا نعيش الألم أو نحيي العذاب أليس كذلك يا أختاه؟ فالإنسان المؤمن يا عزيزتي عندما ينطلق في مسيرته نحو الله قد تصادف انطلاقته تلك بعض العقبات فتعكّر سيره وتحول بينه وبين المضيّ تارة وتشمل وجوده العام أخرى، ولعلَّه يقف حائراً ليتساءل لماذا؟ لماذا كلّ هذا يا رب؟ ألست سائراً في طريق رسمته لي وحددت أمامي معالمه فانطلقت نحوه في مزيد من العزيمة والإصرار ولكن..! هذا الإنسان عندما يسير في طريق الله عليه أن يعرف أنّ الوصول إلى النهاية ليس بالشيء الهيِّن لأنَّ النهاية كبيرة وكبيرة جداً وأنها لسعيدة وسعيدة إلى حدّ بعيد ولهذا فإنّ الوصول إليها يتطلّب المزيد من البلورة الروحية ويحتاج إلى العديد من مراحل الإعداد... أن المعالم التي يراها خلال مسيرته نحو الغاية ليس سوى اليقين، الجهاد، الصمود، الإخلاص. فكيف سوف يتمكن أن يؤكّد شمول كل هذه

العناوين له قبل أن يتعرَّض لدواعيها وأسبابها أو دون أن يمرّ بما يستوجب بروز حقائقها في حياته وإثبات جدرانه لاستقبال تلك الحقائق في رحابة صدر ومزيد من الرضا، نعم كيف يأمل أن يصل إلى النهاية حيث قمة السعادة التي لا تعب فيه ولا نصب ولا سأم فيه ولا ملل دون أن يتعرّض لقليل من متاعب الصمود؟ نعم إنها قليلة مع كثرتها، ضئيلة مع عظمتها، إذا قيست إلى سموّ النتيجة. المطلوب يالله... كم هي عظيمة، وكم هي كبيرة؟ وكم هي رائعة! وهكذا تقرر لنا هذه الحقيقة أنّ صعوبة المقدمات تتناسب دائماً مع عظمة النتيجة... وأخيراً وليس آخراً يسرني أن أخبرك يا عزيزتي أنّ أيام سفرنا قد أوشكت على الانتهاء وسوف نكون عندكم خلال أيام الأسبوع القادم إن شاء الله. فإلى اللقاء، أستودعك الله الذي لا يخون الودائع واسلمي لإيماني ولي وإلى الأبد.

زهراء

عملية جراحية

حدث أن افتقدت إخلاص صديقتها وفاء إلى فترة. وما كانت قد عوّدتها على الغياب من قبل، فهي بالنسبة إليها إحدى دعائم الحياة لأنها لم تكن تفهم من حياتها غير أن تستحيل إلى بناء صالح ثم تغدو عطاء أخيراً.

وصديقتها وفاء، كانت بالنسبة إليها عاملاً مهماً يدفع بها نحو المال، فهي تسندها إن تهادت وتعاتبها إن أساءت وتنبهها إن غفلت أو تباعدت كانت لها كمرآة تعكس لها عيوبها برفق وتنبهها إلى نقاط الضعف التي لديها في مزيد من النصيحة والإخلاص، ولهذا فقد كان من حقها أن تستشعر الوحشة لغيابها وأن تحسّ بالضيعة الروحية وهي تفتقد المنار الذي كان يهديها كلما تعرّضت للتيه، ومهما حاولت أن تنتظر وجدت أنّ الانتظار سوف يكلّفها من الخسارة الروحية الشيء الكثير، فتوجهت لتتساءل في لهفة صادقة ممن لعلّه يتمكن أن يحمل

إليها من أخبار وفاء ما يروي لديها هذا الظمأ الصادي إلى ذلك النبع الرقراق، فإذا بها لا تجد من يعلم أو لا تجد من تظن أنه يعلم أو يفهم فاندفعت بنفسها تبحث عن ضالتها التي افتقدتها وافتقدت معا صمّام الأمان لروحها السائرة في طريق الله، ودخلت عليها لتجدها قائمة باسمة وإن كان الشحوب قد لوَّن وجهها بصبغة باهتة فاندفعت نحوها لتطبع على جبينها قبلة إيمان صادقة وهي تقول:

أي غيبة هي هذه يا أختاه؟ وأيّ انقطاع أبعدك عنَّا كل هذه الفترة القاسية من الزمان؟ ما أراك إلاَّ بخير فما الذي حال بينك وبيننا يا أختاه؟

وهنا سمعت الجواب هادئاً رصيناً. هيناً رحيماً وهو يقول: إنّها عملية بسيطة يا عزيزتي.

قالت إخلاص: آه عملية! عملية جراحية، ولكن أين ومتى ولأجل أي شيء؟

قالت وفاء: ما أراك إلاَّ وقد حشرت مجموعة من الأسئلة يصعب الجواب عليها معاً، فلنأخذ السؤال الأول الذي هو عبارة عن (أين) لأقول لك: في البيت!

فاستفزّها الجواب ورددت في استغراب. في البيت؟ ولكن من هو الجرّاح الذي تمكّن من ذلك وأين هو موضع الألم يا ترى؟ وما أراك إلاَّ سليمة والحمد لله؟

قالت وفاء: وها أنت قد عدت إلى مزج الأسئلة من جديد فلأجيبك على طريقتك في السؤال، أمّا الجرّاح فهو أنا يا عزيزتي وأمّا موضع المرض فهو غير ظاهر للعيان. . .

قالت وقد خيّل إليها أنّ صاحبتها يلذّ لها أن تمزح معها إلى فترة. قالت: ومتى أصبحت جرّاحة وما عهدناك إلاَّ مرشدة.

عند ذلك سمعت تلك النبرة الرصينة تتكلَّم بجدّ لا يخامره الهزل وهي تقول: إنّ كلّ إنسان يجب عليه أن يكون جرّاحاً لنفسه يا أختاه، ألم تسمعي

بذلك الإنسان الذي يستسلم لمبضع الجرّاح ليخلص من غدّة صغيرة أو يبعد عنه قطعة من لحم أو عظم فاسدة؟ فلماذا يصنع ذلك يا ترى؟ لماذا يسلّم حياته إلى إنسان آخر يعمل فيها بمبضعه كما يشاء؛ إنه يريد أن يتخلص من آفة تنهك جسمه. وهو يريد أيضاً أن يحصّن ذلك الجسم ضد سيطرتها عليه، هذا بالنسبة لآفات الروح.

وعندما شعر الإنسان أنه يحمل بين ثنايا روحه وفكره زوائد غير مرغوب فيها وهي قد تحول بينه وبين طريق السعادة الذي يسير نحوه، عند ذلك يتحتم عليه أن يسارع في العمل على التخلّص من تلك الآفات ولكن عن أي طريق؟ إنّها العملية الجراحية، باختلاف أن يقوم عقله في تلك العملية مقام الطبيب الجرّاح. ويعمل إيمانه عمل أدوات الجراحة والتخدير. ويؤدي البيت وبعض العزلة مهمة المستشفى وردهات التمريض. ولهذا فأنا لم أكن مازحة ولا مغالية قلت لك إنّ انقطاعي عنك كان بسبب من عملية جراحية.

وكأنّ خبر هذه العملية الجراحية قد أثار اهتمام إخلاص. ولهذا قد كانت تستمع إلى صديقتها وفؤادها يخفق إشفاقاً ودموعها تستهلّ خشية وحذراً. ثم انطلقت منها كلمات تعبّر عن اللهفة والترقّب وهي تقول: والآن كيف أنت يا أختاه؟ أتراني أتمكّن أن أهنئك على السلامة المتوخاة.

وانتظرت لحظات دون أن تسمع الجواب وكانت لحظات قاسية بالنسبة إليها. فلم يكن من السهل عليها أن تجد أعزّ صديقة لديها وهي تعاني أخطر الأمراض! ولكن فترة الانتظار لم تطل جداً في حساب الزمن وإن طالت في حساب الروح فقد جاء الجواب هادئاً وهو يقول: نعم أرجو أن أكون أهلاً لذلك.

وهنا حمدت إخلاص الله في سرّها ولكن أتراها كانت تكتفي بذلك الحمد فقط؟ لقد شعرت أنها أمام درس عليها أن تستثمر معارفه قبل أن يفوت ولهذا تساءلت قائلة ولكن كيف تمكنت أن تتعرفي على سلامتك يا أختاه؟

قالت: إنها الحوادث يا عزيزتي هي التي عرفتني على مواطن الداء. وهي التي طمأنتني على فائدة الدواء. أو ليست الأحداث هي أعظم مبضع لشخصية الإنسان؟

قالت إخلاص: نعم ولكن لا تنسي مبضع الجرّاح أيضاً يا وفاء.

بنت الهدى

٧

ذكريات على تلال مكة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وأخيراً. . .

بدت خيوط الفجر المضيئة لتنذر بميلاد يوم جديد، واليوم يختلف تأثيره في حياة الإنسان مع اختلاف ما يضمّ بين ساعاته من عطاء وما يحمل لمن يمدّ بهم أو يمدّ عليهم من فائدة ورواء، ولهذا. . فقد يطول اليوم ويطول تبعاً لامتداد آثاره التي يتركها في حياة الإنسان وقد يكون قصيراً جداً ينتهي مع انتهاء ساعاته المحدودة.

ويومنا ذاك. . كان حريّاً أن يكون طويلاً بآثاره خالداً بعطاءاته.

ثم. . انطلقت بشائر الصبح لتعلن النهاية لساعات الليل التي كانت طويلة بدقائقها إذا قيست بما ضمّت من أفكار وما حملت من آمال وآلام، وقصيرة بالنسبة لساعات النوم التي تقلص عددها خلالها إلى النزر القليل. . وكان الصبح ندياً بقطرات المطر مظللاً بقطع السحاب الشيء الذي جعله غير مشرق في مظهره الخارجي وإن كان في واقعه يحمل معاني إشراقة الرحمة وهو ينفتح عن فترة زمنية تنطلق بها أرواح المؤمنين في مسيرتها نحو الله ملبية في ترجيعها ذلك النداء الخالد الذي أمر الله عزّ وجلّ به نبي الله إبراهيم إذ قال عزّ من قائل:

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

وكان علينا أن نغادر البيت متوجهين نحو المطار، فوقفت لألقي نظرة أخيرة على ما أعدته من متاع للسفرة الطويلة البعيدة الأغوار خشية أن يكون هناك ما أهمل أو أغفل ولم تكن مجموع الأمتعة لتتعدى. . حقيبة واحدة فماذا عسى أن يصحب معه ذلك الإنسان الراحل إلى بيت الله؟ أوليس هو منطلق للحج نحو بيت كان خلال نشأته الأولى بوادٍ غير ذي زرع؟ نعم أوليس وهو منطلق نحو تلك الرحاب يعيش مفهوم دعاء نبي الله إبراهيم حينما يقول:

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]

وهكذا كان. . .

فقد بقي هذا البيت كعبة للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها تندثر الحضارات وتتلاشى مع كل ما تحمل معها من جلال وشموخ ويبقى هو خالداً مع خلود الدهر شامخاً مع شموخ الحق، إذن. . فماذا عسى أن يحمل معه هذا الذي طمح بآماله إلى المثول في تلك الرحاب؟ بعض متطلبات الحياة الضرورية مع قرآن كريم، وكتاب دعاء، ومنسك لأعمال الحج، ومصباح صغير لجمع الحصى من المشعر. ثم دفتر للخواطر وقلم الكتابة. وجواز سفر أخضر وجواز صحي أصفر!!!

ووقفت أتأكّد من وجود هذه الأشياء وأضع الجواز في مكان قريب لأنه هو الذي يفتح أمامي مغاليق الحدود ومن تلك الوقفة انطلقت بأفكاري إلى. . ما أعددته من متاع لسفري الطويل فسفرتي هذه كان من المفروض لها أن لا تتجاوز السبعة عشر يوماً، أمّا تلك السفرة فهي طويلة وطويلة جداً عميقة وعميقة إلى حدّ بعيد. . إنها بدون عودة. وبدون خط رجعة إنها نقلة من هذه الحياة الفانية إلى حياة أبدية باقية، فما أحوجها إلى متاع وما أحوجني خلالها إلى زاد؟. . لنفرض مثلاً أنني نسيت حاجة أو أهملتها فإنّ من السهل اليسير عليَّ أن أعوِّض عنها بما أجده هناك ولكن خلال سفرتي تلك حيث لا عودة بعدها ولا رجعة فماذا عساي أن أصنع إن وجدت نفسي قد أهملت حمل الزاد أن تجاهلت أهمية المتاع؟؟. .

عندما أعلن لنا (متعهِّد القافلة) أنَّ علينا أن نصحب معنا غطاء، بادرنا إلى حمل ذلك بدون إبطاء فلماذا؟ لأنه خبير بطبيعة الجو. . ولأنه هو الذي سوف يقوم بإحضار حوائجنا فيعلم ما سوف يهيِّئه لنا وما علينا أن نعدّه لأنفسنا ولكن. . عندما نسمع إلى الرسول الأعظم ﷺ وهو يتلو علينا آي الكتاب قائلاً: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] نسمع بدون استماع. . ونقرأ بدون اقتناع. . ونطمع بالمغفرة بدون زاد. . عجيب!! فهل ترانا كنّ نأمل

بالدفء في سفرتنا تلك بدون غطاء؟ هل كان من الممكن أن نقول إنّ المتعهد رجل كريم فلنذهب معه بدون غطاء وهو لا شك سوف يهيىء لنا ما يدفع عنّا غوائل البرد؟! أبداً إنّ هذا غير معقول لأنه غير مسؤول عن ذلك ما دام قد أنذرنا وأعلمنا بما لنا وما علينا..

أمّا ما أمرنا الله به من زاد وما أوصانا بحمله من متاع فنحن نتجاهله ونتناساه ثم نعيش على أمل أن يغفر لنا الله برحمته ويشملنا برضاه!!!

□□

وارتفعت بنا الطائرة.. بعد أن عقدنا نيّة الإحرام ونحن لا نزال على أرض مطار بغداد ورددنا كلمات التلبية قائلات «لبّيك اللّهمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك».

ورأينا الشمس تشرق علينا صافية نقية تهبنا الدفء وتغمرنا بالضياء فاستغربنا ذلك وقد كانت الغيوم تظللنا قبل دقائق وترشنا بقطرات متلاحقة من المطر! فهل أن في الإمكان أن يتغيّر الجو في مثل هذه الساعة؟ وما أبعد البون بين هذه الشمس الدافئة التي تشرق تحت سماء نقية صافية.. وبين ذلك الضباب الذي كان يشمل جوانب أنظارنا قبل قليل؟ حقّاً إنه لأمر عجيب! هذا التحوّل الطارىء على صفحات السماء وهذا التبدّل الحادث في أعالي الأفق!

أو لم نكن نتطلع إلى السماء نبحث فيها وبين طبقات السحب التي تحجبها عن أثر الشمس ؟ أو لم تختلط قطرات المطر مع دموع المودعين ويتجاوب أنين الريح مع زفرات المفارقين؟ فكيف حدث هذا يا ترى؟ أهو استجابة لدعاء داع ابتهل إلى الله قائلاً: يا محوِّل الأحوال حوِّل حالنا إلى أحسن حال.. أم ماذا؟؟

وأخيراً اكتشفنا الحقيقة فعرفنا أنّ الطائرة قد ارتفعت بنا فوق السحاب إذن فنحن الذين ارتفعنا عن السحاب وأمطاره وليس السحاب هو ذلك الذي انكشف عنّا بتحوّل سريع، فما أحلى ذلك وما أروع أن نكون محلّقين بأجسامنا في فضاء نقي وتحت شمس صافية الضياء تاركين وراءنا متاعب المطر ومصاعبه وقد كشف لنا ذلك الموقف حقيقة ما أكثر من يجهلها منّا.. وهي..

أنّ الإنسان يتمكّن من الارتفاع بروحه وفكره عن سحب الريب وغيوم الجهل والانحراف، نعم يرتفع بروحه عنها ليستنقذها نقية طاهرة دون أن تعلق بها شائبة أو يلوثها درن من الأدران.. فهو يستطيع ذلك لو أراد حتى ولو عاش في أجواء مظللة بالغيوم ثم توصلنا إلى حقيقة ثانية أيضاً.. وهي.. أنّ على الإنسان أن يسعى نحو مطلع النور بأي ثمن وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ولا يحول الإنسان من الظلمات إلى النور إلاّ إذا شاء هو ذلك وعمل من أجل أن يكون مؤهلاً لذلك التحويل، فما أحلى أن نحلّق بأنفسنا في سماء نقية كما حلّقنا بأجسامنا خلال رحلتنا تلك، وما أروع أن نلتفت فنجد ذاتنا وقد تنزّهت عن الرذائل وحلقت في سماء الكمال تاركة وراءها ويلات الانحراف وآفات السقوط كما تركنا وراءنا ونحن في الطائرة الأرض المغطاة بالوحول والآفاق الملبدة بالغيوم.

وبعد مضي مائة دقيقة أعلن لنا عن قرب هبوطنا إلى مطار جدة، وذلك يعني أننا سوف نكون بعد يوم أو يومين في مكة.. فما أعظم هذه الحقيقة وأضخم ما تعنيه، وترددت في ذهني وعلى فمي الأبيات:

قالوا غداً نأتي ديار الحمى ... وينزل الركب بمغناهم
فكل من كان مطيعاً لهم ... أصبح مسروراً بلقياهم
قلت فلي ذنب فما حيلتي ... بأي وجه أتلقاهم
قالوا أليس العفو من شأنهم ... لا سيما عمن ترجاهم
فجئتهم أسعى إلى بابهم ... أرجوهم طوراً وأخشاهم

□□

واستقرّت بنا الطائرة على أرض مطار جدة بعد أن دارت فوق مدارجه دورات طويلة، فحمدنا الله على سلامة الوصول وحسن التوفيق.. ثم تطلعت أنظارنا نحو الباب ترقب الإذن بالنزول. ومضت دقائق طوال لأنها كانت مشوبة بالانتظار... ومن خصائصه الانتظار مهما كانت أنواعه وبواعثه وأسبابه من خصائصه أن يضفي على الوقت مطاطية هائلة فيضاعف إدراكنا بأهميته إلى أضعاف كثيرة ومضت فترة ثم طلب منّا أن تبرز جوازاتنا الصحية!

فأمسك كلّ منا بجوازه (الأصفر) بين أنامله وكأني إنسان خرج لتوّه من إحدى المصحّات وبقينا نتطلع نحو الباب في مزيج من للهفة والضجر وبنظرات تنطلق بالاحتجاج... وأخيراً انفتح باب الطائرة عن رجلين صعدا ليطمئنا على سلامة القادمين من الأمراض (الوبائية) فتفحصا معظم الجوازات ومن العجيب أننا كنّا ممّن لم تصل إليهم عملية التفتيش، وكأنّ سلامتنا بدت واضحة جليَّة دون معاينة ومزيد تدقيق.. فكيف حصل هذا؟ ولماذا ألسنا مثل باقي المسافرين؟ إنه عدم الإخلاص في العمل والإهمال لا أكثر ولا أقل! والجواز الصحي عن أي شيء كان يحكي يا ترى؟ إنه كان يحمل شهادة التطعيم، ضدّ الهيضة وضد الجدري، ولم يكن هنك أي احتمال أن أحد المسافرين مصاب فعلاً بمرض الجدري أو مرض الهيضة، لا.. ولكن المطلوب التطعيم الوقائي وهو التأكّد من أنّ المسافر الوافد قد حصَّن نفسه عن التعرّض لهذه الأمراض، أخذ المسافرون بالهبوط.. وبقيتُ جالسة أنتظر خلوّ السلَّم من الزحام فبدأت أفكّر... تذكّرت نزولي في مقري الأخير والجواز الصحي الذي أسأل عنه من منكر ونكير وأهمية كلّ تطعيم وقائي يشير إليه ذلك الجواز، أنهم يطالبونني بشهادة التلقيح ضد أمراض عديدة، هذه الأمراض التي يعاني المجتمع من ويلاتها الشيء الكثير نعم هذه الأمراض التي لا تتولَّد لدى الإنسان نتيجة ضعف جسم أو قرب من المصابين وإنما هي وليدة ضعف الإيمان وتحلّل الشخصية، إنها وليدة الذوبان في شخصيات الآخرين مهما كان هؤلاء الآخرين منحرفين أو مبتذلين أو متذبذبين... إنه مصل وقائي يهب للإنسان حصانة تقيه ويلات السقوط...

نعم. إنّ الإنسان ليسأل في مقرّه الأخير عن روحه لماذا أطلقها وراء رغباتها بغير رقيب وعن فكره لماذا جعله يتجه حيث شاء دون تهذيب؟ وعن قلبه كيف أهمله فجعل آماله وأمانيه تنمو أوراقها وتمتدّ فروعها كالشجرة التي تفتقر إلى التشذيب؟ إنه ليطالب بجواز صحي ومن أين له ذلك الجواز؟ إلاّ إذا كان خلال حياته قد عمل على الوقاية وباشر عملية التطعيم. إنّ الموظف السعودي قد يهمل أو يغفل كما أهملنا أو غفل عنّا.. أمّا هناك... حيث يتلقانا ملائكة

الله الموكلين بفحص (جوازاتنا الصحية) فليس فيهم من يغفل عن صغيرة كانت أو كبيرة لأنهم ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. . .

□□

وهبطنا إلى مطار جدّة. .

فكأن هناك مجموعة من المسافرين قد اصطفّوا على شكل نصف دائرة منفتحة استعداداً لالتقاط صور تلفزيونية فانتحينا عنهم جانباً. . . فقال لنا قائل: هلاّ تفضلتم بالأشتراك؟ إنه فيلم تلفزيوني يعرض على الشاشة كأثر مرئي لهذه الرحلات!! ووددت لو أردّ عليه قائلة: نحن أيضاً في حالة التقاط صور. . . ولكن أتراه كان يفهم ما الذي أعنيه وبهذه العجالة؟ فاكتفيت أن أقول له كلا، ووقفت جانباً أشاهد الجماعة التي كانت تستعدّ للتصوير كان البعض منهم يصلح من مظهره والبعض الآخر يحاول أن يتقدم ليحتلّ مكاناً أحسن وهذا أمر طبيعي بالنسبة لإنسان يشعر أنه في معرض تصوير فهو ولا شك يحاول أن يتجنّب كلّ ما يشين من مظهره الخارجي أو يؤثّر عليه لكي يبدو على شاشة العرض بهياً متكاملاً في وقفته تلك وارتسمت في فكري صورة للعرض الأكبر خلال يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] فها هي أجهزة الالتقاط تتوجه نحونا كما كانت تتوجه منذ أصبحنا مشمولين بالتكليف الإلهي في مسؤولية حمل الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان، نعم ولكنها أجهزة التقاط تختلف عن هذه الأجهزة المادية المصطنعة. . إنّ هذه لا تتمكن أن تسجل سوى الغشاء الخارجي لجسم الإنسان، وحتى هذا فهي لا يسعها أن تصوّره إذا حال بينها وبينه شيء ولو كان غطاءً رقيقاً، أما تلك فهي تسجّل حتى نظرات العيون وخواطر القلوب. . .

يعلم خائنة العين وما تخفي الصدور. . . ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] إذن. . . فلو عاش الإنسان هذه الحقيقة ولو أحسّ بها خلال حركاته وسكناته ولمحاته ونظراته لحرص دائماً وبدا أن يبرز بالشكل

المرضيّ وأن يحتلّ مكاناً أحسن يوم يعرض فِلْم حياته أمام البشرية بدون غطاء.

ثم... عرض علينا أن نتحدّث أمام شريط للتسجيل لنبشِّر أهلنا بسلامة الوصول... عجيب! ولكن أترانا كنّا قد وصلنا؟ إنّ المسافر لا يسجّل لنفسه الوصول إلاّ إذا وصل إلى النقطة التي انطلق نحوها منذ البداية - ونحن كنّا في انطلاقتنا تلك متوجّهين نحو هدف معين لم يحققه لنا الوصول إلى مطار جدّة... ألم نكن سائرين في رحاب هذه لآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]... إذن فأين نحن من الحج وأين نحن من السلامة؟ سلامة الجسد لا تعني شيئاً في حساب الراحل إلى الله.. ولكن هي سلامة العمل وصحّة الأداء، فما أكثر سلامة الأجساد وما أقلّ سلامة الأعمال...

وصعدنا إلى مدينة الحاج.

وهي عمارة كبيرة تتألّف من طوابق عديدة تحيطها عمارات وغرف واسعة وتشرف من أحدى جوانبها على ساحة المطار ومن خصائصها أنّها ومع جميع ما قد تسبّب الإقامة فيها من مضايقات... أنها تبعث في نفس الإنسان نوعاً من الانشراح والانطلاق، وكأنّها مرحلة انتقال شيّقة ثم إنها المنزل الأخير الذي ننطلق منه نحو بيت الله الحرام، وكانت الغرفة التي توجّهنا نحوها جانبية تطل على بعض شوارع مدينة جدّة ومدخل مدينة الحاج، واجتمعنا لأول مرّة نحن النساء المسافرات ضمن القافلة في غرفة واحدة، وبدأنا نتصفّح الوجوه في تطلع لهفان وودنا لو وجدنا أثراً لطابع مميز يشمل الجميع طابع الشعور بالوحدة المنطلقة من وحدة الغاية واتّحاد الهدف في الحج... ولكن...

وقمنا ببعض المحاولات للتعرّض على رفيقات السفر فكان فيهن من تستجيب بتحفّظ وفيهن من تلوي جيدها في شيء من اللامبالاة (عدا من كانت معرفتنا بهنّ تسبق حدود هذه السفرة طبعاً) وقد كان الشعور الغالب على بعضهن هو التطلّع إلى ما في أسواق جدّة من جديد!!

وبما أننا قد أحرمنا من مطار بغداد فقد عرضنا ذلك لبعض الأسئلة عن الأسباب التي دعتنا إلى تقديم الإحرام فأخذنا نشرح طبيعة الحكم الشرعي في ذلك وكيف أنّ الإحرام يجب أن يكون من أحد المواقيت الخمسة: الجحفة، يلملم قرن المنازل. مسجد الشجرة، وادي العقيق، ولا يصح الإحرام من غيرها إلاّ بنذر شرعي، والنذر الشرعي لا ينعقد إلاّ إذا كان المكان الذي ينذر الإحرام منه أبعد عن مكة من الميقات أو بمحاذاته ومن أجل نفس هذا الحكم كنّا نشاهد في مدينة الحاج مجاميع من الحجاج وهم في طريقهم إلى الجحفة من أجل عقد نيّة الإحرام. . والجحفة تبعد عن جدة بمقدار (١٨٠) كيلومتر تقريباً.

وبتنا ليلتنا في مدينة الحاج وكنّ نحرص بعد أداء كل فريضة أن نراجع أحكام الحج في المنسك الذي صحبناه معنا فنعيد قراءة ما عرفناه ونتأكد من معرفة ما جهلناه ونتبادل نحن الستة شرح أعمال الحج ونؤكّد على أعمال العمرة لأنها أول فريضة تنتظرنا في مكة ولم يكن هذا من أجل إهمال في التحضير من قبل أو غفلة عن سير أحكام الحج وأعماله، ولكنه كان على سبيل التأكيد والتجديد ثم إنه من أجل فتح المجال أمام الأخريات للسؤال إذا كن في ريب من عمل أو شكّ في كم من الأحكام وكانت أهم نقطتين واجهتنا في إصلاح إحرام المحرمات من حولنا هي:

أولاً: إنهن كنّ يتجردن عن الجوارب فور عقدهن لنيّة الإحرام ويستعضن عنها بلبس السروال الطويل وذلك في اعتبارهنّ لسببين: أحدهما وجوب إظهار ظهر القدم حال الإحرام، وثانيهما جواز إبداء القدم أمام الرجال ظنّاً منهن أنّ جواز كشف ظهر القدم حال الإحرام ليس إلاّ احتياط استغنى عنه التشريع لعدم تأكّده.

هذا مع تأكّد حرمة كشف القدمين أمام الرجال الأجانب وعدم وجود مجال لمقايستها مع الكفين، فالإسلام حينما شرع الستر للمرأة كصيانة لكيانها ووقاية لوجودها الخاص ووجودها العام ضمن المجتمع وتجنيب لها وللمجتمع مغبّة تكشفها أمام الرجال حينما شرع ذلك لم يرد من وراء ذلك التشريع عزل المرأة

عن الحياة أو حبسها عن مجالات التعايش السليم الطاهر مع المجتمع ولهذا فقد أجاز لها كشف الوجه والكفين لأنهما كلّ ما يحتاجه الإنسان، وأيّ إنسان رجل كان أو امرأة حينما يتفاعل مع الحياة في مختلف المجالات. إنّ أي عمل أو علم لا يحتاج إلى إبراز الكتفين أو إبراز جدائل الشعر مثلاً ولكنه قد يكون في حاجة إلى كشف الوجه والكفين وهذان هما ما أجاز التشريع للمرأة إظهارهما عند الحاجة.

أمّا القدمان فما هو الشيء الذي يتوقف على كشفهما يا ترى؟ وما هو الأثر غير المرضي الذي يتركه سترهما في مجالات الحياة؟ لا شيء أبداً ولهذا وجب علينا ستر القدمين وأبيح لنا كشف الكفين. هذه هي النقطة الأولى.

أمّا النقطة الثانية.. فهي عدم إتّقان مقدار ما ينبغي كشفه من الوجه حال الإحرام!! فنحن إذ نعرف أنّ إحرام المرأة بوجهها ينبغي أن تلتزم بكشف الوجه من قصاص الشعر وحتى الذقن لا أكثر ولا أقلّ، ولعلَّ هذا يفتقر إلى شيء من الدقة ولكن أهمية فريضة الحج عميقة وكبيرة جداً أفلا تستحق قليلاً من الدقة والالتزام؟؟!

وركبنا السيارة في طريقنا إلى مكة.. وهي سيارة كبيرة حمراء غير مكشوفة كتب عليها بالخط الأبيض العريض كلمة (التوفيق) وكان هناك سيارة حمراء أخرى تساير سيارتنا وقد ركبها رجال القافلة ولم تكن تلك لتختلف عن هذه إلاّ بكونها مكشوفة السقف تمشياً مع الحكم الشرعي الذي لا يجيز للرجل المحرم الاستظلال بالظل المتنقل، وما إن تحركت بنا السيارة حتى وجدت نفسي غارقة في دوامة من الانفعالات المختلفة التي هي مزيج بين الرضا والخوف والرهبة والرغبة والفرحة والحسرة...

وانطلقت أردد على لساني كلمات التلبية «لبيك اللَّهمَّ لبيك» إنها استجابة للنداء الخالد الذي أمر الله نبيه إبراهيم عليه السلام أن يطلقه في أذان البشرية ولكن أتراها استجابة كاملة؟

إن التلبية تكون مخلصة صادقة إذا نطق اللسان وأوحاها الفكر وصدقها القلب وأكدها العمل.

إنّ حركة اللسان وحدها لا تكفي بإعطاء مفهوم التلبية إلاّ إذا تظافرت معاً جميع الجوارح لدى الإنسان، «لبّيك لا شريك لك لبّيك» إنه إقرار بالوحدانية وتأكيد على العبودية المطلقة «إنّ الحمد والنِّعمة لك والمُلك» نعم إنّ الحمد لله وحده لأنّه وحده صاحب كلّ نعمة ومصدر كلّ رحمة فهو المحمود الأول في كل ما يُحمد عليه.

وهنا تذكرت كلمة للإمام: «إنّ شكري إيَّاك يحتاج إلى شكر»، أن يكون الإنسان مقرّاً بالحمد والشكر لله لهي السعادة ما فوقها سعادة لما يتضمن ذلك الإقرار من مصادر رحمة وينابيع رضوان.

«إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبّيك» ومرة ثانية يتكرّر في كلمات التلبية الإقرار بالوحدانية، هذه الوحدانية التي تنطلق عنها وحدة الهدف ووحدة الغاية لكي يكون القصد في العبادة متوجّهاً بمجموعه نحو الله نزيهاً عن الرياء بعيداً عن الخيلاء نقيّاً عن شوائب الغرور وحبّ البروز أو الظهور خالياً مما يوجب الشرك المنافي لخلوص الأعمال لله ومن طاعة الله...

واندمجنا مع كلمات التلبية حتى شارفنا (الحديبية) وهي أول حدود الحرم للقادم من جدة، وهناك وجدنا السيارة الحمراء المكشوفة (سيارة الرجال) تنتظر! وأعلن لنا عن ضرورة تجديد نيّة الإحرام لمن أحرم من جدّة!!! واستغربت الأمر! لأنّ الحديبية ليست ميقاتاً للقادمين من العراق! وعلى كل حال فقد وقع الكثير من الهرج والمرج بين المحرمات المسكينات فتارة يطلب منهن النزول وأخرى يطلب منهن العودة إلى مقاعدهن، ثم تتلى عليهن نيّة الإحرام من خارج السيارة وعن طريق مكبّر للصوت فتأتي الكلمات ضعيفة غير واضحة فتتصاعد كلمات احتجاجهن «لم نسمع لم نعرف ماذا قال»، ومضت فترة صخب بين قيل وقال ثم انتهت بسلام والحمد لله.

وكنّا نحن المحرمات من بغداد نحمد الله ما وفقنا إليه من صحة الإحرام

وعدم احتياجه إلى تجديد أو إتمام ثم سارت بنا السيارة من جديد وكنّا نشعر أنّ كلّ ميل تطويه عجلاتها (الكليلة) تقرّبنا نحو الهدف فتخفق لذلك قلوبنا وكأنها تحاول أن تبعث من طاقاتها الحرارية قليلاً من الحرارة في السائق الذي كان يبدو وهو لا يريد أن يكلّف نفسه عناء الضغط على البنزين كانت أرواحنا تهتزّ مع طي الطريق في نشوة روحية خالصة فتودّ لو سابقت هذه العجلات الثقيلة التي لا تكاد تستجيب للمحرّك بسهولة وهي لا تعلم ولا تشعر بما تحمل من شحنات آمال تتمنّى لو سابقت الريح في الوصول إلى رحاب الله.

وأخيراً وبعد مضي ما يقرب من ساعتين بدت لنا من بعيد معالم مكة. . . فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

□□

ووصلنا إلى مكة. . .

وكانت الساعات الأولى من اللَّيل قد انقضت ونحن في الطريق وتوجهنا نحو البيت الذي خصّص لنزولنا وهو غير بعيد عن الحرم والحمد لله، فألقينا أمتعتنا وجددنا الطهارة ثم تهيأنا للذهاب إلى الكعبة، من أجل الإتيان بطواف العمرة، وهناك طلب منّا أن ننتظر لكي نتناول العشاء وبعد ذلك نذهب مع مجموع الحاجّات وبحراسة من بعض مساعدي المتعهد، ولكن أترانا نتمكن من الانتظار؟ وكل جارحة من جوارحنا قد استحالت إلى لهفة وجميع مشاعرنا أخذت تنطق بالحنين فلقد كنّا على موعد مع جبار السماء لنطوف حول الكعبة طالبين الغفران ولنسعى بين الصفا والمروة مبتغين الرضوان، عندما يعيش الإنسان في انتظار لقاء محبّب إليه لا يعود يهنأ بشيء قبل أن يتحقق له ذلك اللقاء، فهو يستحيل بجميع وجوده إلى لهفة وانتظار وهل هناك ما هو أحبّ إلى الإنسان من ساعة رحمة وآونة غفران؟ ولهذا فقد عزَّ علينا الانتظار، ولماذا ننتظر يا ترى أمِنْ أجل غذاء؟!.

ولكن ما أهمية الغذاء المادي بالنسبة للغذاء الروحي الذي ينتظرنا هناك، أم من أجل الحصول على حراسة الحارسين؟ أو لم يقل إمامنا جعفر الصادق عليه السلام في وصيته لمن يريد الحج إلى بيت الله الحرام: «ولا تعتمد على

زادك وراحلتك وأصحابك وقوتك وشبابك ومالك مخالفة أن يصير ذلك عدوّاً ووبالاً فإنّ من ادّعى رضا الله واعتمد على شيء سواه صيّره عليه عدوّاً ووبالاً ليعلم أنه ليس له قوّة ولا حيلة ولا لأحد إلاّ بعصمة الله تعالى وتوفيقه» إذن فليس هناك ما يدعونا إلى الانتظار. . .

وانطلقنا نحن بمجموعتنا الصغيرة نحو بيت الله الحرام وكان الطريق الذي يفصل بيننا وبيته عبارة عن سوق يسمى بسوق الليل وهو مليء بزخارف الحياة التي عرضت للأبصار بشكل يساعد على الإغراء. . . ولكن. . . أترانا كنّا نبصر من هذه الزخارف شيئاً؟ أم ترانا كنّا نتحسس آثار وجودها ونحن مندفعات نحو بيت الله الحرام تسبقنا الآمال بالغفران وتحدو بنا الأماني لنيل الرضوان؟ . . .

إنّها رحلة. . تلك الخطوات. . رحلة الإنسان الذي هرب إلى الله عزّ وجلّ من ذنوبه تائباً وعلى أخطائه نادماً، رحلة الإنسان الذي يستشفع إلى الله قائلاً: «إلى من يذهب العبد إلاّ إلى مولاه وإلى من يلتجىء المخلوق إلاّ إلى خالقه» وقاربنا البيت المبارك وكنّا نهبط في طريقنا إليه لأنّه في وادٍ بين الجبال والمرتفعات.

ولكنه هبوط جسمي يبعث إلى الارتفاع الروحي ويبلغ أسماعنا دويّ السعادة وهم في مسيرتهم المباركة بين الصفا والمروة وكان لذلك الدويّ المبهم الكلمات أعظم الأثر في الترهيب والترغيب فهل حقّاً أننا على بضع خطوات من بيت الله الحرام؟ وهل حقّاً أنّ هذه النوافذ الحديدية المرتفعة تطلّ على أقدس بقعة خلقها الله وتشرف على أول بيت وضع للنّاس؟ وهل حقّاً أنّ هذا الوجود الضعيف قد انطلق بآثامه وأخطائه هارباً من الله إلى الله وها هو قد أوشك أن يحظى بالمثول أمام كعبة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها؟ إنها نعمة لا يكاد يصدقها الإنسان لنفسه، وهذا الدوي الذي كلّما دنونا نحوه أكثر تكشف عن كلمات تقول: «الله أكبر لا إله إلا الله. الحمد لله. لا إله إلاّ الله وحده وحده. . . أنجز وعده ونصر عبده. وغلب الأحزاب وحده» هذه الكلمات هي التعبير الواضح عن كل ما يشتمل عليه الحج من شعارات

ومفاهيم، الوحدانية لله والخضوع لعبوديته والتوكّل عليه، والثقة بنصره لعباده الصالحين.

□□

ووقفنا أمام الكعبة وكانت وقفتنا من الجهة المقابلة للحجر الأسود حيث يجب أن يبدأ الطواف من هناك وكان المطاف محتشداً جدّاً لا تبدو منه سوى رؤوس رفعت وجوهها نحو السماء ترتجي الرحمة من العليّ الأعلى وتهتف في قنوط المساكين قائلة: «اللَّهمَّ إني إليك فقير، وإني خائف مستجير، فلا تغيّر جسمي ولا تبدِّل اسمي».. ولاحظت صعوبة الطواف وهو في قمة ازدحامه وتلفّت حولي أتطلع إلى الوجوه التي تقف إلى جانبي وأدرس مدى تمكنهن من خوض هذا البحر البشري الزاخر، فأسعدني وأراحني أن أجد اللهفة لديهن قد طغت على كل شيء فأمدتهن بطاقات من الإرادة والتحمّل والثبات والإصرار على بلوغ الهدف بأي ثمن فسمينا بسم الله الرحمن الرحيم وتراجعنا قليلاً عن مواجهة الحجر الأسود لنطمئن من مرور جميع جسمنا أمامه ثم.. اندمجنا مع مجموع الطائفين...

وبدأنا نفقد الإحساس بصعوبة السير وسط الحشد الهائل ولم نعد نبالي بما نتعرّض إليه من ضيق بعد أن اندمجت جميع مشاعرنا في ترديد هذه الكلمات: «اللَّهمَّ أدخلني الجنَّة برحمتك، وأجرني برحمتك، يا ذا المنّ والطول والجود والكرم، إنّ عملي ضعيف فضاعفه لي، وتقبّله مني، ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، اللَّهمَّ البيت بيتك والعبد عبدك وهذا مكان العائذ بك من النار».. وكنّا كلَّما أكملنا دورة واحدة عددناها مع بعضنا بصوت مسموع لكي نتجنّب الشك والنسيان فليس بغريب أن يندمج الإنسان الطائف مع أهدافه وعطاءاته فينسى العدد والحساب ويبقى يدور ويدور وكأنه لا يريد الله يترك دورته حتى يستوثق من الغفران، ولهذا كنّا نهتم بحفظ العدد واتّقانه فإنّ الطواف هو رمز لدوران الإنسان حول غاية يؤمن بها أو هدف يسعى إليه، فهو يلف حولها لكي يبدأ من حيث ينتهي، وهو يشعر الإنسان أنه انطلق من الله وسوف يعود إلى الله وأنّه دار ضمن حدود وأبعاد رسمها الله عزّ وجلّ فليس له أن

يتعدّاها فينقص منها أو يزيد، إنّ دورته حول هذا الرمز الإلٰهي ترسم له حدود تحركاته في الحياة فهو إذ يتحتم عليه هنا أن يدور بأقدام ثابتة ينقلها من فوق الأرض باختياره يتحتم عليه أيضاً خلال دورته الكبرى في دوامة الحياة أن لا تزل به قدم أو يندفع وراء غاية دون رؤية أو استبصار وهو في دورته المقدسة هذه إذا اندفع إلى الأمام بدون خطوات ثابتة عليه أن يعدو من النقطة التي ارتفعت فيها قدماه عن الأرض، يعدو ليبدأ سيره من جديد وذلك الحال في مسيرة الحياة فإنه متى ما تعدّى حدودها باندفاع أو انحراف له أن يعود ليباشر سيره من جديد وفقاً للحدود التي حددها له الله عزّ وجلّ - وذلك ما يسمى بالتوبة - إنه رمز يطبع بطابعه جميع تحركات الإنسان في حياته القادمة خلال جميع مجالاتها وأبعادها.

وأكملنا دوراتنا السبع وقد كانت النهاية من حيث البداية وهي مواجهة الحجر الأسود وكما احتطنا فتأخرنا عن الحجر في البداية فقد احتطنا وتعدينا موضعه المبارك قليلاً في النهاية.. ثم انسحبنا من بين الجموع ونحن نحاول أن يكون انسحابنا هادئاً لا يعيق طواف الطائفين وخرجنا وكل جارحة من جوارحنا تنطق بالحمد لله ربّ العالمين.

□ □

وتوجهنا إلى مقام إبراهيم لنصلي إلى جواره أو خلفه صلاة الطواف، وهي ركعتان كصلاة الصبح لا تختلف عنها إلا بالنية فقط، وكانت تلك البقعة المباركة مليئة بالمصلين ولولا شمولنا بعين عناية الله ورحمته لتعذر علينا أن نجد لنا مصلى هناك، وبدأنا نصلي على التعاقب لكي تحرس أربع منا المصلية الواحدة مخافة أن تتعرض لما يفسد صلاتها من آثار الزحام.. ومن هنا تبرز حقيقة جديدة لعميق أهمية الصلاة في حياة الإنسان، فهي تواكب حياته في اليوم خمس مرات وهي ترافقه حتى في عبادة الحج لكي لا يبتعد عن هذه الصلة الوثيقة التي تشده بالخالق دائماً وأبداً، إنها ركعتان لا غير ولهذا فهي صغيرة إذا قيست مع حجم عبادة الحج الكبير وضخامة أعماله وواجباته، ولكنها مع ركعاتها القليلة كانت ركناً من أهم أركان الحج يجب الاتيان بها مع اتقان

الكلمات والتأكد من الحركات وخلوص النية في الأداء، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] إنها سلاح هذه الصلاة، سلاح يجند الإنسان المصلي ليقف في خط الدفاع يدافع به عن روحه ليحتفظ بها قوية عزيزة لا تعرف الخضوع لغير الله ولا تلتمس الرجاء إلا من عند الله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ويدافع بها عن فكره لكي لا يشمله الخمول أو يرهقه الشذوذ أو تتبعه الحيرة والضيعان والتذبذب والتيهان ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ويدافع بها عن وجوده كله عن أعصابه لكي لا يشدها اليأس وهو يتمكن أن يدعو من خلالها قائلاً «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» وعن أعضاء جسمه لكي لا يضعفها الخمول أو يوهنا الجمود فيبعث فيها الحركة باتباعه لرياضة الصلاة وتفاعلها الصالح مع كل عضو من أعضائه وله أن يعبر عن ذلك خلال تحركاته فيها قائلاً «بحول الله وقوته أقوم وأقعد». . نعم إنها سلاح قوي لا غنى للإنسان عنه ولهذا نجده يواكب حياة الإنسان ليجعله دائماً وأبداً قوياً في دينه ثابتاً في عقيدته صلباً في إرادته وإبعاد وجوده، وانتهينا من الصلاة وكانت صلاتنا خلف المقام المبارك بمكان قريب والحمد لله وكان علينا أن نتوجه بعد ذلك للسعي وقد كنا نشعر بالتعب ولكن ومن جديد عرفنا. . كيف يتبلور التعب عن راحة، وكيف يتفتح العناء عن طاقات سعادة، عرفنا كيف يستحيل العذاب إلى عذوبة وكيف تهب المرارة معنى الحلاوة، كانت قلوبنا تخفق بشدة ولكننا لم نكن نعرف من تتابع خفقانها أنها مرهفة ولم نكن نجد في تلاحق ضرباتها أنها مجهدة. كلا. ولكننا كنا نحس بالشوق يستغذها ونستشعر الفرحة وهي تداعبها فنجدها وكأنها ضائعة بهذا الكيان الذي يحبسها ويفرض عليها قيوده والتزاماته تواقة لأن تنطلق في رحاب هذا البيت لائذة بالحرم كالحمام الوديع، أو محلقة في أجوائه كالملاك الطاهر، أو مرفرفة حول قواعده كالنسمات العذاب، ولهذا لم نكن نريد أن نجلس لنستريح وإنما ذهبنا تحت خطى الشوق واللهفة إلى المسعى المبارك. . .

ووقفنا بين الصفا والمروة. . .

وهو رواق بنيت سقوفه وجدرانه من المرمر الخالص وامتد في وسطه صفان الدارابزون لا يتعدى الفاصل بينهما المترين، تتخللهما بين كل مسافة قصيرة فتحة متوسطة الاتساع من أجل مرور المستطرفين، وكان إعداد هذين الصفين من أجل حصر السعاة الراكبين بينهما، حفاظاً على راحة السعاة المشاة، والسعي يختلف عن الطواف بحرية السير فيه، أو الركوب، فللإنسان الساعي أن يختار الركوب إذا أراد حتى ومع تمكنه من السير وذلك ما لا يصح خلال الطواف إلا عند العجز الكامل أو الضرورة القصوى، وكان هذا الرواق الطاهر يقع بين ربوتين أو جبلين مجدبين أحدهما وهو الصفا تعتليه قبة منبسطة العمق والثاني الذي هو المروة يكون سقفه مستوياً إلا من تعاريج البناء ويبلغ طوله حوالي الميل والنصف، ومن الصفا كان يجب علينا أن نبدأ السعي فارتقينا هضبته المباركة وأدينا نية السعي قائلات «أسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط لعمرة التمتع إلى حج الإسلام لوجوبه امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى» ثم بدأنا نسير سيراً رتيباً يتخلله الدعاء والابتهال، وكانت الأصوات من حولنا تتصاعد قائلة: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

فما أروع أن تصبح الخطوات وهي مسيرة مؤدية لشعائر الله، وما أضخم الحقيقة التي يشترك في الانصياع إليها وجود الإنسان بجميع أبعاده وجوارحه وأحاسيسه. إنها حقيقة العبادة بشمولها الواسع لشخصية الإنسان منها هي السعي، لا يتطلب من الحاج سوى نقل أقدامه فوق أرض منبسطة ملساء ولكن ومع كل خطوة ترتسم صورة للعبادة، وخلال كل شوط يسجل رقماً لأداء الواجب. وبعد أن أنهينا أشواطاً أربعة جلسنا على مرتفعات الصفا لنسترد شيئا من الراحة لأجسامنا وأقدامنا التي أرهقها المسير ومن هناك انطلقنا نفكر... فعدنا بأفكارنا إلى حيث سعت السيدة هاجر أم اسماعيل وهي تفتش عن ماء تروي به ظمأ وليدها الغالي فهي تنطلق تبحث لتعود... وتعود لتنطلق من جديد وهي في كل هذا موزعة القلب بين طفل ضامئ وأمل في وجود ماء. نعم... لقد لاقت هاجر الكثير من التعب والنصب وتعرضت لشديد محنة

وأذى، ولكن وبما أن ما لاقته وما تعرضت إليه كان في سبيل الله ومن أجل الانصياع إلى أوامر الله، فلا زالت كل هذه الملايين من الأقدام السائرة في كل موسم في كل عام، ما زالت تتقصى آثار تلك الأقدام الطاهرة في مسيرتها المباركة، ثم ألم تكن هاجر إمرأة، إذن أفلا يمكن لنا أن نعد هذا الجانب من الحج هو تخليد لجهود المرأة في عالم العبادة والفداء، ثم ألا يمكن لنا أن نعرف من هذا أيضاً أن المرأة قادرة على رسم خطوط بارزة في ميدان العمل والجهاد؟ وعدنا إلى إكمال أشواطنا السبعة بعد فترة إستراحة وتفكير. . وأنهينا الأشواط السبعة على هضبة المروة وكنا قد صحبنا معنا مقراضاً صغيراً من أجل التقصير إذ يجب علينا عند الانتهاء من السعي أن نقصر قليلاً من شعر رأسنا أو نقلِّم قليلاً من إضفر يدنا. وقد احتطنا فجئنا بالتقصيرين وبذلك إنتهينا من عمرة التمتع للحج. . . فالحمد لله على ما هدانا والشكر له على ما وفقنا إليه. . .

□□

وقضينا ثلاثة أيام في مكة بين زيارة وطواف حتى عصر اليوم الثامن من شهر ذي الحجة الحرام، حيث كان علينا أن نذهب إلى عرفات. . ومع أن وجوب الوقوف في عرفات يبدأ مع زوال اليوم التاسع وينتهي عند الغروب ولكن عادة الحجيج هي الخروج إلى عرفات عصر اليوم الثامن أي يوم التروية. وذهبنا بعد الظهر إلى الحرم المبارك وجلسنا أمام الكعبة الشريفة ننتظر الغروب، وسرح بي الفكر إلى الواقع الرائع الذي نعيشه أفتراها كانت حقيقة واقعية جلستنا تلك؟ وراق لي أن أكتب بضع كلمات على ورقة صغيرة حاولت أن أصور بها ما أعيشه من أفكار، إنها أعز كلمات كتبتها خلال سفرتي تلك لأنها كتبت عن كثب من الكعبة وانطلقت من أشرف بقعة في أقدس مكان، وارتفع صوت أذان المغرب هاتفاً بكلمة العزة الخالدة: الله أكبر. لا شيء أكبر من الله هذا الكبر الذي يقره الإنسان لجبار السماء يشعره بالصغار أمامه تبارك وتعالى ولكنه صغار تجاه الخالق وتواضع تجاه المخلوقين، إذ إنه عندما يعترف أن الله أكبر لا يعود يحس بكبر أحد سواه وهذا ما عناه الشاعر محمد إقبال في قوله «سجدة للإله تنجيك يا إنسان من ألف سجدة للعبيد» أية متعة هذه التي تسمو بروح

الإنسان فوق كل شيء لأنه لا يعود يحتاج لشيء سوى الله؟ وأية صفة هي عنده التي ترتفع بمعنويات الفرد المؤمن حتى لا يعود يخضع لأحد أو يتنازل لأحد لأن الله وحده أكبر. . ومن هنا نعرف مدلول الحديث النبوي الشريف الذي يقول «من أعطى الذل من نفسه فليس منا» واستجبنا للنداء الخالد فتوجهنا للصلاة على مقربة من الكعبة، وذلك لأن البيت كان غير مزدحم لكثرة من خرج إلى عرفات من الحجاج، وبعد أن انتهينا من الصلاة عقدنا نية الإحرام للحج قائلات «نحرم لحج الإسلام أداءً قربة إلى الله تعالى». . . وخرجنا من الكعبة متوجهات نحو البيت الذي ننزل فيه. . وهناك وإلى جوار المنزل كانت تقف سيارات النقل حيث سارت بنا نحو عرفات. . .

كان الطريق الذي يفصل بين مكة وعرفة ليس بالطويل أو البعيد، ولعله لو أجتيز في الحالات الطبيعية لما استغرق أكثر من نصف ساعة مع أكثر التقادير، ولكنه وفي تلك الليلة المزدحمة بالحجاج كان لا يكاد يقطع إلا بعد جهد جهيد وزمن طويل. ولهذا سلك السائق بنا طريقاً ملتوياً عله يكون أقل زحاماً وأكثر انفتاحاً ولكن يبدو أن سائقنا لم يكن الوحيد الذي قصد هذا الطريق إذ وجدناه والحمد لله غاصاً بالسيارات زاخراً بالحجيج. فدعونا الله أن يعظم شعائره ويزيد من هداية القلوب التي تهفو إليه. ووصلنا أخيراً إلى عرفات. وكان ظلام الليل يضاعف من هيبة تلك الصحراء التي لا يرى فيها سوى خيام بيضاء امتدت بينها شوارع رملية تتطلب الهداية إليها إلى خبير ممن مارس طبيعة التربة ونشأ على بساطها الطاهر. وتوقفت بنا السيارات إلى جانب أحد الشوارع ونزلنا منها نحمل في يد حقيبة ضمت ملابس الإحرام الاحتياطية والسجادة والمصحف وكتاب الدعاء وتحمل في اليد الثانية إبريقاً فارغاً لتهيئة الماء وسرنا وراء دليلنا نلف حول بعض الخيام وننعطف مع انعطاف الممرات التي بينها حتى وصلنا إلى حيث الخيمة التي أعدت لنا. . .

دخلنا الخيمة لنجدها مضاءة بالكهرباء ولكنها غير مفروشة. . فتصاعدت من حولنا أصوات إحتجاج قائلة ما هذا؟ كيف نجلس؟ كيف سوف ننام؟ هذا وضع عجيب! فآلمنا أن نسمع كلمات الاحتجاج هذه بالنسبة لافتقاد مواد ترف لا

تأثير لها على طهارة تلك البقعة أو قدسية تلك الليلة. ولكننا تمكنا والحمد لله وبشكل غير مباشر أن نشيع في الخيمة جواً من الدعاء والابتهال ولم تمض مدة طويلة حتى فرشت لنا الخيمة بالسجاد والرياش ومع ما كان لهذا الفراش من راحة جسمية، فقد شعرت بأنه شيء مرغوب فيه لواقع الحياة، فهو يذكرنا من جديد بالحرص على نعومة العيش والتسابق على ما هو أحسن من وسائل المادة ولكن ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وأصبح علينا الصباح ونحن في عرفات وهو الموقف الوحيد الذي يتحتم أن يؤمه الحجاج في وقت واحد، وخلال ساعات معينة منذ الزوال وحتى الغروب... فيا له من حكمة في التشريع تهيىء للمسلمين فرصة إجبارية للاجتماع والتعرف على بعض فيتمكن الإنسان المسلم خلال تلك الساعات أن يدرس عن كثب أخلاق إخوته المسلمين وعاداتهم وأفكارهم ويتطلع على ما لديهم من جديد في مجالات العلم والعمل، ثم أن المسلمين خلال ذلك ليتمكنوا وبسهولة أن يبحثوا مع بعضهم أهم مشاكلهم العامة ويضعوا لها حلولاً مستقاة من حكمة الآخرين وتجاربهم... هذا لو أديت شعائر العبادة في الحج بمضمونها المطلوب طبعاً، وقد جاءت عدة تفاسير للسبب الذي من أجله سميت هذه البقعة بعرفات ومن بينها تعارف المسلمين على أرضها المقدسة، ومنها أنها البقعة التي تعارف عليها آدم وحواء بعد هبوطهما من الجنة، ومنها أنها البقعة التي نزل فيها جبرئيل على نبي الله إبراهيم وقال له إعترف لله بما لديك. وبما أن التفسير الأول هو أكثر الثلاثة صحة وأقربه إلى الواقع الذي تدل عليه سائر أعمال الحج. فنحن نأخذ به ولكن ومع كل الأسف... مع وقف التنفيذ فلماذا؟

...لأن هذا المفهوم غير واضح في أذهان الحاج منهم لا يعرفون من عرفات سوى جانب الصلاة والدعاء من العبادة، ولهذا فإن أي إقدام على ذلك يعد تطفلاً غير مستساغ اللهم إلا في مجالات خاصة جداً... وانقضت ساعات النهار الأولى والجميع بين دعاء أو صلاة أو قراءة قرآن.. والحقيقة إن

ساعات الحج في عرفات لا تكاد توازي بثمن لأنها بجميع دقائقها عطاء، حيث يحلق الإنسان بروحه بعيداً عن عوالم المادة وخدعها وغرورها، فيروح يعترف بآثامه تارة ويستغفر منها أخرى وهو يتضرع إلى الله تعالى قائلاً «اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك وأسعدني بتقواك ولا تشقني بمعصيتك».

وكيف يمكن لإنسان أن يعبد رباً لم يره؟ إنه يراه بالدلائل فإن قصرت الباصرة عن رؤيته فيجب أن تقصر البصيرة عن ذلك، وهل تعرف السعادة إلاً بتقوى الله... إن تقوى الله هي التي ترسم للمتقي طريق الخير في الحياة وتحدد له خطوط مسيرته الفاضلة، حيث توجد منه فرداً صالحاً جديراً أن يكون نواة للمجتمع الصالح ثم ينطق بحقيقة الشد الذي يشده نحو مولاه ويعترف بانقطاعه التام لرحمة الله الواحد القهار إذ يبسط يده بالدعاء قائلاً: «أنت كهفي حين تعييني المذاهب في سعتها وتضيق بي الأرض برحبها ولولا رحمتك لكنت من الهالكين»... وهكذا هو الإنسان - هذا الإنسان التائه في عالم الغرور الراكض في حياته وراء السراب الذي خيل إليه أنه سوف يخرق الجبال طولاً... هذا الإنسانَ لا يشعر حماية الله له حاجته إلى الله إلا عندما تعييه المذاهب وتضيق به الأرض. عند ذلك يتوجه إلى القوة الوحيدة القادرة بعد أن يستشعر عجز ما عداها عن حمايته. وقديماً قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

«أدع الله في الرغبة كما تدعوه في الرهبة» ومن خلال هذه الدعوات يستشعر الحاج انقطاعه إلى الله فيروح يدعوه بلسان أوبقه ذنبه واخرسه جرمه قائلاً: «فها أناذا يا إلٰهي بين يديك يا سيدي خاضع ذليل حقير» شعور مطلق بالانقطاع الكامل التام لله تبارك وتعالى حيث لا مناص من الاعتراف بالذنب ولا فكاك من الشعور بالتقصير وحيث لا يعرف بهذا الشعور أو بذاك الاعتراف سوى الله وحده.. ولهذا نجد أن ساعات الحاج في عرفات هي ساعات بناء للروح وصهر للأفكار وتعقيم للقلوب وهي بالنسبة لمن هو في مستوى الحفاظ على مكاسبهم الثرة واستند لها بالشكل الصحيح مرحلة انتقال من الظلمات إلى النور وطريق إرتقاء من الحسن إلى الأحسن، فيا لها من ساعات ومن العجيب أن نجد هناك من يحمل هماً لطعام أو شراب أو فراش أو مهاد، الشيء المادي

الوحيد الذي يحرص عليه الإنسان هناك ويتمنى لو حصل على مزيد منه هو الماء نعم الماء. . لأنه الوسيلة الوحيدة إلى الطهارة، والطهارة هي من شروط صحة العبادة. والماء لم يكن وافراً بالشكل المطلوب لأن المنطقة هناك لم يكن قد امتدت نحوها أنابيب الإسالة. . وكان على متعهد القافلة أن يهيىء الماء للحجاج. . . كان موضع الماء مشكلة تثير الخوف لدينا من نفاذه. . والمشكلة الثانية كانت المرافق الصحية!! حيث يتعذر على الإنسان الدخول إليها والخروج منها سالماً من النجاسات وحيث كان حجاج ثلاثة أو أربعة من المتعهدين يقفون في انتظار أخذ أدوارهم والمرافق لا تتعدى المرفقين أو الثلاثة. . .

وانقضى النهار وفي آخر ساعة منه باشر العمال في جمع الخيام مقدمة لنقلها إلى منى وجلسنا كلٌّ إلى جوار أمتعتها تحت السماء وفوق الرمال وكنا خلال تلك الساعة نشعر بحسرة الوداع لهذه البقعة الطاهرة وتلفتنا حوالينا علّنا نتمكن أن نحتفظ بأكثر مقدار ممكن من الذكرى، وحان وقت الغروب فأدينا الصلاة وتناولنا شيئاً من الأكل ثم نادى المنادي بنا قائلاً - هيا نحو السيارات - فقد كان علينا أن نتجه من هناك إلى «المشعر الحرام».

□□

وسرنا نحمل أمتعتنا يحدونا مساعد متعهدنا وهو يحمل بيده مكبرة للصوت يدنيها من فيه أكثر مما يجب فينبعث الصوت أجشاً غير واضح الحروف. ولهذا فقد كنا نسير باتجاه مشرجة مكبرة الصوت غير فاهمات ما تعنيه تلك الحشرجة. . . كانت كل واحدة منا تحمل بالإضافة إلى أمتعتها الخاصة إبريقاً مملوءاً بالماء لأننا كنا في طريقنا إلى مزدلفة وأصل تحصيل الماء هناك يكاد أن يصبح معدوماً ولهذا فقد أخطرنا من قبل المتعهد أن نحمل أباريقنا ملأى بدل أن نحملها فارغة! ومضينا نلف وندور بين الخيم والسيارات نبحث عن السيارات التي أعدت لنا فلا نتمكن أن نهتدي إليها لتشابه المواقف والمعالم، وكانت ظلمة الليل تزحف نحو تلك البقاع بسرعة فتبعث في نفوسنا الرهبة والهيبة وتشعرنا بالخوف من الضلال في ذلك الليل الرهيب، فنروح نحث

الخطى وراء مكبر الصوت لا نلتفت يمنة ولا يسرة لكي لا ننحرف عن الطريق، وقد تجمعنا مع بعضنا وحرصنا أن لا نكون بعيدات، كان صوت أحد مساعدي المتعهد يرتفع من ورائنا بين فينة وفينة وهو يقول - مزيداً من الانتباه إلى الطريق إن الانحراف عن الخط يعني الضلال - سيروا وراء الصوت الذي يحدوكم - .. نعم كان علينا أن نسير وراء الصوت الذي يحدونا، وكان علينا أن نلم شملنا فلا نتفرق لكي لا نتعرض للضياع ولكن ألسنا دائماً وأبداً مدعوين لأن نسير وراء صوت الحق الذي يدعونا «والرسول يدعوكم لما يحييكم به».

نجتمع ونتقارب ونسير متكاتفين وراء صوت غير واضح الكلمات يخرج عن مثلنا لا يزيد عنا إلا لقديم معرفته في الطريق ثم نصح آذاننا عن نداء الرسول... هذا النداء الخالد الدائم في دعوته لنا للسير وراءه نحو الجنان... ما لنا نخشى الضلال لتحذير من إنسان ولا نخشى التيه الذي يحدونا إلى النار، وقد حذرنا عن ذلك كل نبي أو وصي نبي؟ وما لنا لا نلتفت يمنة ولا يسرة خشية أن نفتقد آثار الدليل ونروح خلال حياتنا العامة نتقلب يميناً وشمالاً متجاهلين الأمل الإلهي الذي يقول: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود: ١١٢]... وضلالنا هنا... ما هي نتائجه يا ترى؟ نحن مهما ضللنا أو انحرفنا سوف نجد أمامنا أناساً مثلنا لا تفرقهم عنا سوى الألوان أو الجنسيات أو الأخلاق والعادات... أما ضلالنا عن مسيرة الحق فسوف يسلمنا إلى أيدي ملائكة غلاظ شداد وسوف يعرضنا إلى نار نورها ظلمة وشرابها الصديد وطعامها الزقوم... فما أبعد الفرق بين الضلالين... وما أجهلنا عندما نقتفي هذه الآثار ونتجاهل تلك الحقائق.

ووصلنا أخيراً إلى موقف السيارات حيث سارت بنا نحو مزدلفة المشعر الحرام.

ووصلنا إلى مزدلفة والليل يكاد ينتصف لا لبعد في الطريق بل لإزدحام في حركة المرور، ومزدلفة ليس سوى أرض منبسطة منبسطة قاحلة لا شجر فيها ولا ماء ولا شيء يعلو أرضها سوى الجبال حتى المخيمات التي تنتصب في منى وعرفات لم يكن في مزدلفة منها أثر، والمزدلفة هي المشعر الحرام الذي

نزل فيه قول الله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ [البقرة: ١٩٨] وافترشنا البطانيات التي كنا نحملها بالإضافة إلى ما حمله المتعهد من فراش معنا وجلسنا لكي نستريح قبل المباشرة بجمع الحصى. وكنا حينما نتجه بأبصارنا لا نجد إلا أشباح الناس وهم بين منحني لجمع الحصى على ضوء مصباح صغير في يده.. وبين سائل يتحسس الطريق نحو جماعته... وكانت ملابس الإحرام البيضاء هي الوحيدة التي ترى في تلك الصحراء الواسعة ومن خلال سواد العتمة... وهنا ينبغي لي أن أعترف بالعجز عن تصور ساعات مزدلفة وأرضها وسمائها وروعتها وعطائها وهيبتها وجلالها فهي وكما عشتها في تجربتي الخاصة فوق التصوير والتمثيل... ولا يمكن لإنسان أن يفهمها إلا إذا عاشها عن فهم وإدراك... وبعد أن أرحنا أجسامنا من تعب الطريق باشرنا بجمع الحصى لأجل رمي الجمرات، وكان علينا أن نجمع تسعة وأربعين حصاة والمستحب أن نضيف إليها إحدى وعشرين واحدة أخرى من أجل إحتمال عدم إصابة الرمي، ومضينا ننحني نحو الأرض نطلب الحصى. كانت الحصاة الواحدة أثمن لدينا من حبة اللؤلؤ لأنها من مكملات حجنا وشروط صحته.. أما حبات اللؤلؤ فلم تكن لتجدينا شيئاً في ذلك المجال. إن هذه الحصيات التي نلتقطها من المشعر الحرام لكي نرمي بها الجمرات في منى ليست سوى رمز لسلاح من الإيمان لنرمي به الشر والعصيان والخروج عن طاعة الخالق هذه المعاني التي ترمز إليها الجمارات.. ولهذا أراد التشريع الإسلامي أن يعلمنا بأننا عن طريق الإيمان وحده نتمكن أن نحارب الشر ونقابل الجور.. فالإيمان هو الذي يتكفل بتسليحنا للمجابهة وتحصيننا ضد الإنهيار، ومن هذا نعرف الحكمة التي فرضت أن يكون الحصى من المشعر الحرام الداخل ضمن الأرض المقدسة، وكانت كل واحدة منا تحمل معها كيساً صغيراً من الخام أعد خصيصاً لحفظ هذه الحصيات الثمينة فجمعنا المقدار المطلوب وحرصنا أن نغلق عليها الكيس بدقة واتقان. ثم اضطجعنا لننام قليلاً فإن تواصل التعب من حقه أن يؤثر على التفاعل الكامل مع العبادة وكانت جنطتنا الصغيرة هي وسائدنا خلال النوم بعد أن افترشت كل

واحدة منا نصف بطانيتها وتغطت بالنصف الثاني وأباريقنا الثمينة جداً إلى جوار رؤوسنا واستيقظنا قبل الفجر بساعتين فجددنا الطهارة وتوجهنا للدعاء، وكان أروع ما قرأناه خلال تلك الساعات هي المناجاة السفرية المنسوبة إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ففي هدوة ذلك الليل الرهيب وفي فضاء ذلك الأفق الرحيب ومع الظلمة التي لا يلون سوادها سوى مصباح يدوي صغير كان من الرائع جداً جداً أن يرتفع صوت خاشع ليقول:

إلٰهي لئن جلت وجمت خطيئتي | فعفوك عن ذنبي أجل وأوسع
إلٰهي ترى حالي وفقري وفاقتي | وأنت مناجاتي الخفية تسمع
إلٰهي لئن خيبتني وطردتي | فمن ذا الذي أرجو ومن ذا يشفع
إلٰهي فانسني بتلقين حجتي | إذا كان لي في القبر مثوى ومضجع
إلٰهي أقلني عثرتي وامح حوبتي | فاني مقر خائف متضرع
الٰهي لأن أقصيتني وأهنتني | فما حيلتي يا رب أم كيف أصنع
إلٰهي وهذا الخلق ما بين نائم | ومنتبه في ليله يتضرع
وكلهم يرجو نوالك راجيا | لرحمتك العظمى وفي الخلد يطمع

... وحان وقت الصلاة فأديناها ودعونا لإخواننا من المؤمنين والمؤمنات.. ثم ارتفع أذان الصبح وكنا نلاحظ بوضوح الخيط الأبيض وهو ينبلج من الخيط الأسود وهنا تبدو بوضوح الحقيقة العلمية التي ترمز إليها الآية المباركة ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾ [آل عمران: ٢٧] فإن الإيلاج يعني التدخل التدريجي، وهكذا هو الأمر بانبثاق النهار عن الليل ودخول الليل على النهار ولهذا نجد الخط الأبيض يلوح رويداً من وراء الأفق الممتد. وكنا قد استصحبنا معنا بوصلة لتعيين القبلة في أدعيتنا وصلواتنا وعلى هداها، أيضاً أدينا صلاة الصبح وبقينا ننتظر طلوع الشمس لأن التشريع لا يجيز للرجال مغادرة مزدلفة قبل ذلك. وهذا التشريع مما تختص به الشيعة دون الفرق الأخرى من المسلمين، ولهذا كانت السيارات تمتلىء بالحجاج وتغادر المشعر عند منتصف الليل حرصاً على سهولة السير وتلافي حرارة الشمس والتمكن من الوصول إلى رمي الجمرات بسهولة.. وهنا أحب أن أقف أمام

هذه النقطة التي أجدها مهمة جداً بالنسبة لأعمال الحج وتنظيمه وتوفير الراحة لكل فرد مؤمن، فالمرأة غير مجبرة شرعاً على المكوث حتى الصباح كما حدثنا الرواة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: أنه أرسل العلويات منذ الليل إلى منى لكي يجتنبن مشقة الزحام ويوفر لهن المجال للرمي بسهولة. إذن فلماذا يفرض على كل امرأة أن تتحمل المصاعب التي تتولد عن التأخير من أجل الرجال وفي إمكانها شرعاً أن تؤدي واجبها وتأوي إلى خيمتها في منى والشمس لم تشرق بعد! نعم ألا يجدر بالرجال أن يحرصوا على ذلك فيهيأ للنساء ركب خاص ينقلهن في الساعات الأخيرة من الليل إلى منى؟

وعلى كل حال فقد ركبنا السيارات وسارت بنا لا نقطع من الطريق نصف فرسخ إلا وتقف نصف ساعة لإنقطاع خط السير، وكانت الشمس قد ارتفعت بحرارتها الكاوية والماء الذي معنا قد استنفذته الليلة الماضية وليس من السهولة بمكان أن يجتمع العطش والحر والتعب لولا إحساس الإنسان بأنه في طريقه إلى عبادة، وكان ذلك الصباح هو اليوم العاشر من ذي الحجة الحرام، أي يوم العيد. عيد للروح التي بلغت مطلوبها من الحج، وعيد للقلوب التي تعيش مفاهيم الحج، وعيد للإنسان الذي يشعر بالسعادة لأنه وصل إلى هذه البقاع وتمكن من العمل على ما يريده الله فإن أجسام الحجاج خلال ذلك اليوم تكون في قمة تعبها وجهدها وهي بعيدة عن العيد بالمفهوم السطحي الذي يتعارف عليه. ومن نظافة الجسم أو جديد اللبس إنه عيد بمفهوم العيد الصحيح عيد التكامل الروحي للإنسان. . وارتفع النهار أكثر فأكثر والسيارة لا تتمكن أن تسير وكنا نجد الحجاج وهم يتركون ما يركبون لكي يقطعوا الطريق راجلين فوددنا لو تمكنا من السير ولكن ذلك كان يتطلب وجود دليل معنا ولم يكن في سيارتنا أي دليل أللهم عدا رجل واحد وكلّه المتعهد بمداراتنا ولكنه كان أعجز من ذلك بكثير وبعد لأي سمعنا صوت متعهدنا وهو يسألنا عن راحتنا في الطريق وكان قد وصل مع مجموعة الرجال، فاقترحنا عليه أن يرسل معنا من يتكفل بإيصالنا إلى منى مشياً على الأقدام، فهيأ لنا - أثابه الله - إثنين أحدهما حاج من الحجاج والثاني أحد المساعدين فنزلنا من السيارة وعرض على

الباقيات النزول فامتنعن عن ذلك ولم تلتحق بنا سوى سيدتين منهن فأصبحنا بمجموعنا سبعة ورجلين. وسرنا وسط زحام الطريق يحدونا الأمل في سرعة الوصول وقطعنا مسافة طويلة تخللتها الكثير من الصعوبات حتى وصلنا إلى منى. . ومنى بلدة فيها البيوت الصغيرة والعمارات الكبيرة ومنها المحلات المتنوعة والمساجد المتعددة ولكنها بلدة صغيرة لا يمكن لها أن تستقبل عشراً من معشار هذا الحجيج ولهذا فقد انتشرت على شوارعها الخيم واتسع نطاق الخيمات من يمين البلد ومن شمالها إلى حيث يرمي البصر وكان الدخول إلى منى من خلال شارع يسمى بشارع العرب وهو طويل وعريض يمتد من بداية منى حتى نهايتها. .

وتتشعب منها جميع الشوارع الفرعية الأخرى، وسرنا في هذا الشارع نفتش عن موقع خيمتنا الذي قيل أنه بالقرب من البريد وغير بعيد أيضاً عن الجمرات. وبعد أن أرهقنا السير طلب الرجلان منا أن نقف ليذهبا هما لاستطلاع الطريق فوقفنا إلى جانب بائع مرطبات وكنا قد بلغنا القمة من العطش والظمأ والتعب فطلبنا منه ماء. فلم يلتفت نحونا وبعد أن كررنا الطلب مرات عديدة قال: لا يوجد عندنا ماء إشربوا بارد. مع أن الماء موجوداً والثلج كان وافراً لديه. ولكن البارد كان من حقه أن يعرضه لربح أكثر. ومع أننا كنا نشكو من أعراض الزكام والسعال ولكننا إضطررنا إلى شراء البارد لنروي به بعض ظمئنا بعد أن تعذر علينا شرب الماء وأمرنا لله الواحد القهار.

ووصلنا أخيراً إلى الخيمة وكانت قد هيئت وفرشت منذ الليل فارتخينا قليلاً وتناولنا وجبة صغيرة من الأكل ثم جددنا الطهارة وتوجهت نحو رمي الجمرات ووقفنا أمام جمرة العقبة يتعدى لأمتار الخمسة والستة، ويرتفع بمقدار مترين تقريباً وقد قام هذا النصب فوق هضبة ترتفع عن الأرض بما يقرب الثلاث أمتار يحيطها سياج منخفض وعلى مقربة منه كان يبدو شامخاً راسخاً جبل العقبة حيث تمت بيعتا العقبة عندما كان النبي ﷺ يجتمع في شعاب الجبل مع الأنصار من الأوس والخزرج أثناء موسم الحج، وكان الواجب على كل حاج أن يرمي في حصياته السبعة متعاقبة نحو هذا النصب المرتفع فوق الهضبة،

ولهذا كانت الآلاف من الأيدي تمتد لرمي حصاها الواحدة تلو الأخرى. . . ومن العجيب أن لا تشتبه الحصوات على الرماة ولا يجهل الرامي مكان حصاته حتى يجدها تستقر في المكان المقصود أو يجدها قد هوت قبل أن تصل إليه فيعود ليرمي بدلاً عنها واحدة. ولم يكن الرمي مزدحماً جداً لعدم وصول الكثير من الحجاج ولهذا تمكنا أن نصل إلى مقربة السياج المحيط ورمينا حصياتنا بشكل هادىء ومطمئن والحمد لله.

وبعد أن انتهينا من الرمي كان علينا أن نعود. . . والعودة تعرضنا لأن نكون في مواجهة الرماة وذلك يعني أن نصبح معرضات للإصابة بالحصى التي ترمي من بعيد فتصيب تارة وتخطىء أخرى، ومن الطريف أن بعض الحجاج كانوا يعقبون حصاهم بما لديهم من أحذية مخرقة أو نفايات متفسخة ولهذا فقد كان علينا أن نشق طريقنا بين الصفوف ونحن منحنيات تجنباً أن نكون مرمى لما يرمي به (الشيطان) وما أن تخلصنا من منطقة الزحام حتى وجدنا عددنا قد نقص واحدة. فكدر ذلك علينا فرحتنا بإتمام مهمة الرمي وتلفتنا يمنة ويسرة نبحث عنها بعيون حائرة وسط هذه الجموع الغفيرة العدد المتباينة اللون واللغة، ثم حاولنا أن نفتش فمنعنا الدليل الذي كان معنا عن ذلك وذهب هو يفتش عنها وسط المجاميع وكنا نحن نساء قافلة اليعقوبي لدينا ما يميزنا عن الآخرين وهو قطعة قماش خضراء كتب عليها اسم المتعهد واسم المطوف. ومع أن صاحبنا المساعد لم يكن يعرف القراءة والكتابة ولكنه كان يشخصنا من طبيعة لون القطعة وصورة كتابتها فذهب لكي يجدها تقف في جانب من الجوانب وعاد يصحبها وهو يشعر بالانتصار لعثوره عليها بسهولة، والحقيقة وحفاظاً على الواقع نسجل شكرنا لهذا الإنسان الذي استشعر مسؤولية حمايتنا لبضع ساعات هي من الصعوبة بمكان مع أنه أجير لدى المتعهد لا أكثر ولا أقل أثابه الله على ذلك ووفقه لهداية في طريق الخير. . . ولم نتمكن أن نعرف عنه سوى أنه سائق سيارة إستصحبه المتعهد مع سيارته إلى مكة وأنه ينادي بأبي حيدر.
وعلى كل حال فقد عدنا نحو الخيمة لنجد أن الركب لم يصل بعد وكان الظهر قد حان فأدينا صلاتنا ثم وكلنا من يذبح الهدي بدلاً عنا لتعذر ذلك بالنسبة لنا

وأوصيناه أن يحتسب ثلثها نيابة عن صديق كان قد وكلنا باحتسابه وثلثها الثاني نيابة عن فقير كنا قد طلبنا إذنه في ذلك قبال مقدار من المال والثلث الثالث نيابة عنا، ثم توجهنا للنوم لأن أعراضاً للحمى والزكام كانت قد بدأت تتفشى بيننا شديدة عند بعضنا وخفيفة عند الأخريات، وبعد الظهر بقليل وصلت بعض طلائع الركب وعصراً وصلت وجبة منه. وبعد أن عرفنا باكتمال الهدى كان علينا أن نقصر ونحل إحرامنا. وفعلاً فقد قصرنا وبذلك تحللنا من شروط الإحرام عدا الطيب والنساء فإن ذلك لا يصح إلا بعد طواف الحج.

ونمنا ليلتنا في منى وذهب مجموعة من الحجّاج بعد منتصف تلك الليلة نحو مكة المكرمة لأداء طواف الحج ولكن إنحراف صحتنا خلال تلك الليلة منعنا عن الالتحاق بهم.. وفي صبيحة اليوم الثاني كان علينا أن نرمي الجمرات الثلاث الصغرى ثم الوسطى ثم الكبرى... وموقع الجمرات ليس ببعيد عن مخيمنا والطريق الذي يفصل بيننا وبينه واضح المعالم مستقيم الشوارع.

وهذه من أكبر النعم التي منَّ الله بها علينا... ولهذا فقد توجهنا صباح اليوم الحادي عشر للرمي وحدنا، وكان الرمي مزدحماً جداً والناظر إليه عن بعد لا يجد سوى رؤوس مرفوعة وأيدٍ ممتدة وحصى تنهال كالمطر على الجمرات، منظر رهيب يومي بالكثير... ووصلنا إلى مقربة من الجمرة الصغرى فوقفنا ننتظر لحظة مناسبة نتمكن خلالها أن نلج هذه الجموع، نعم هذه الجموع التي جاءت تؤكد على الجانب السلبي من هذه الجموع التي جاءت تؤكد على الجانب السلبي من العبادة. فهي عندما طافت حول البيت وسعت بين الصفا والمروة أكدت على طبيعة مسيرتها في الحياة وأنها تنطلق من الله لتعود إليه وذلك هو الجانب الإيجابي جانب الطاعة الكاملة والانصياع التام للخالق جلَّ وعلا... وهنا. هنا، عليها أن تؤكد على الجانب السلبي من العبادة فهناك رسمت عبادتها كلمات الإطاعة... الانقياد.. وهنا ترسم عبادتها كلمات رفض المعصية ورمي ما يعكر مسيرة الانقياد.. إنه الجانب السلبي، فلا يكفي في مفهوم التوحيد الخالص أن يعبد الإنسان ربه ويعبد معه سواه، وليس من علامات العبادة الصادقة أن يطيع الإنسان خالقه ثم لا يرفض ما يتعارض مع

أمر الخالق، ولهذا إشتملت أعمال الحج على الجانبين السلبي والإيجابي. . . ثم هذا الإصرار على الرمي لأيام ثلاثة وبحصوات سبع لكل مرة من المرات. إنّ هذا الإصرار هو بمثابة التأكيد والتشديد على رفض ما هو باطل ومحاربة كل ما يرمز إلى الشر من قريب أو بعيد. إنها عهود ومواثيق تعبر عنها هذه الحصيات. وترمز إليها هذه الجمرات ولا يفوتنا ملاحظة الانسجام بين عدد أشواط الطواف والسعي وبين عدد الحصى لكل رمية وعدد أدوار الرمي. فالعدد في جميع ذلك لا يتعدى السبعة وهذه حكمة نتمكن أن نفهم بها الموازنة التي ينبغي أن يحتفظ بها الإنسان في نفسه. نعم الموازنة بين مستوى تقبل المعروف ومستوى رفض المنكر: إنه تشريع كامل متجانس النواحي والأطراف ولكن مما يدمي القلب أن نجد أكثر متلقي هذا التشريع غير واعين لحكمته وشموله الواسع. لو كانت هذه الأيدي التي تمتد لترمي هذا النصب الحجري. . . لو كانت تمتد دائماً وأبداً لترمي كل ما يرمز إلى معصية الخالق إذن لما كان للشر مقر على الأرض. ولكن. .

ووجدنا أخيراً منفذاً تغلغلنا خلاله مقتربات نحو الجمرة ومن رحمة الله وعنايته بنا أن تمكنا من الوصول إلى أقرب نقطة حيث أدينا واجبنا بسهولة وعدنا بسهولة أيضاً. وكذلك كان الحال في رمي الجمرتين. فالحمد لله رب العالمين. .

وبقينا ننتظر لكي نعود إلى مكة لأداء طواف الحج وبما أن المبيت واجب في منى فكان علينا أحد أمرين. . إما أن نذهب عصراً ونعود قبل منتصف الليل وإما أن ننتظر حلول منتصف الليل ثم نخرج بعد ذلك، وقد إخترنا الشق الثاني فنمنا في بداية الليل ساعة أو ساعتين ثم استيقظنا بعد منتصف الليل بقليل فجددنا الطهارة وخرجنا بصحبة شقيق المتعهد وخمس من نساء القافلة ورجلين من رجالهن. . واستأجر لنا صاحبنا سيارة أوصلتنا إلى باب الحرم المكي (باب سعود) كان الطريق خالياً هادئاً تنساب السيارة فيه إنسياباً مريحاً وكنا نشعر بالغبطة كلما اقتربنا من مكة. . فقد كنا على موعد مع ساعات عبادة وعطاء. . ودخلنا الحرم وكان لهيبته أكبر الأثر في نفوسنا وكأننا ندخله للمرة

الأولى.. وهذا من خصائص ذلك الحرم الطاهر فهو لا يفقد في نفوس داخلية هيبته وروعته مهما تكررت الزيارات وتلاحقت المشاهدات.

وبدأنا نطوف.. وكان طوافنا هذا أسهل من طوافنا الأول بكثير وذلك لقلة الزحام وهدوء الطواف ولهذا فقد أدينا طوافنا بسهولة لم نكن نتوقعها مطلقاً وخرجنا من الطواف لنتجه نحو الصلاة. ووقفنا نصلي في أقرب نقطة من مقام نبي الله إبراهيم وبعد ذلك كان علينا أن نذهب نحو المسعى فاسترحنا قليلاً ثم سمينا باسم الله وتوجهنا نحو الصفا والمروة وبدأنا نقطع الأشواط هناك جيئة وذهاباً.. وكان صاحبنا يحمل بيده علماً أخضراً وهو يسير أمامنا لكي لا نضل عنه.. ولكن المجال لم يكن يدعو إلى ذلك ولم يكن هناك أي خطر للضلال أو لم يكن للضلال أي خطر. وعلى كل حال فقد سرنا داعيات مرة وساكنات أخرى حتى أنهينا أشواطنا السبعة والحمد لله فهل إنتهت أعمال الحج بهذا يا ترى. كلا فقد كان علينا أن نطوف طواف النساء. ولولا طواف النساء، هو طواف حول الكعبة الشريفة فيه من القرب والخشوع الشيء الكثير، لولا هذا لكان غير مرغوب فيه لأن وجوبه يأتي بعد أن يكون الحاج قد صرف من الطاقات أكثرها. ولكن الشعور بالقرب من تلك البقعة المباركة لابد وأن يتغلب في نفس الحاج على كل تعب ونصب وطفنا طواف النساء.. وكان الطواف قد ازدحم عن طوافنا الأول نسبياً ولكن وعلى كل حال لم يكن بالشكل المتعب جداً ثم أدّينا صلاة الطواف الواجبة وبذلك أنهينا جميع أعمال الحج.. عدا رمي الجمرات لليوم الثالث..

أي شعور من الشكر والامتنان لله الواحد القهار يشعره الحاج عندما ينتهي من نطق آخر كلمة في تشهده من الصلاة؟

لقد أحسست بالضعة والعجز الكامل عن التمكن من شكر الله على هذه النعمة فسجدنا سجدة الشكر.. ولكن شكرنا لله يحتاج إلى شكر.. وذهب صاحبنا بعد الصلاة ليأتي لنا بكوز من ماء زمزم. فيا لعذوبة ذلك الماء المالح!! عذوبة معنوية تنسي الشارب مرارته الحسية.

وكنا نحس بمزيد الحاجة إلى الماء فشربنا حتى ارتوينا وغسلنا وجوهنا ثم حمدنا الله من جديد. . ولا يسعني هنا إلا أن أسجل كلمة شكر لصاحبنا شقيق المتعهد ذاك فقد عاملنا معاملة جيدة ووفر لنا في تلك الساعات جميع ما تمكن عليه من أسباب الراحة. فأسأل الله تعالى أن يجزيه عنا خير الجزاء. . وللقارىء أن يتصور مدى حاجتنا في ذلك الوقت إلى الراحة وهي لا تتم إلا بالعودة نحو منى والطريق كان مهدداً بالإزدحام كلما قرب انتهاء الليل، ولكن كان علينا أن ننتظر فإن أحد الحجاج الذي صحبنا في منى قد انفصل عنّا بالطواف والسعي هو وزوجته وكان علينا أن ننتظره لكي نعود معاً. . هكذا قال صاحبنا المتعهد. . وحفاظاً على آداب المصاحبة فقد خضعنا للأمر الواقع وجلسنا ننتظر. طالت المدة دون أن يتفضل صاحبنا فيمر علينا مرور الكرام حتى يئس متعهدنا من عودته واعتقد أنه قد عاد بزوجته إلى منى، فخرجنا نسحب أقدامنا في الأرض سحباً لشدة التعب والسهر وهيّأ لنا صاحبنا سيارة نقلتنا إلى مدخل منى حيث تعذر عليها أن تستمر لكثرة الزحام فنزلنا لا لنمشي ذلك الطريق الطويل ونحن متعبات مرهقات نعسانات مريضات. . ولكن. . وأخيراً وصلنا إلى الخيمة والشمس لم تشرق بعد فحمدنا الله على السلامة. . ووجدنا حاجتنا (زوجة الحاج الفاضل) تغط في نومة عميقة ثم استيقظت لكي تقول (لماذا تأخرتم؟)!!

وكنا في حاجة ماسة إلى النوم فنمنا قريرات العين لتمكننا من أداء الواجب بالشكل الصحيح. واستيقظنا بعد ساعتين لتناول إفطارنا وكنا قد استعدنا بعض قوانا والحمد لله.

□□

كان علينا أن نرمي الجمرات لليوم الثالث وبينما كنا نتحدث عن أحسن وقت نتمكن فيه من الذهاب إذ بمجموعة من السيدات يدخلن الخيمة عائدات من الجمرات وكل واحدة منهن تنادي بالويل والثبور للإزدحام المرير وصعوبة الوصول إليه، فهذه تقول كدت أختنق - وتلك تقول - إنه موت محقق - وأخرى تقول - إنه الهلاك بعينه. . تهويل ومبالغة غير مستحبة أبداً. . وتلفت

حولي فوجدت الوجوه وقد علتها مسحة من القلق.. وكأن أخواتي خيِّل إليهنَّ أن هناك تطوراً جديداً قد حدث في نطاق رمي الجمرات.. وإن صعوبة المرمى قد تصاعدت إلى مستوى الموت والهلاك فأردت أن أحسم فترة الانتظار المشوبة بالقلق، ولهذا اقترحت عليهن الذهاب نحو الجمرات.. فجددنا الطهارة لأن من مستحبات الرمي هو أن يكون الرامي حافظاً للطهارة، ثم توجهنا نحن الخمسة نحو المرمى... كانت مهمتنا في ذلك اليوم هي أسهل منها في اليومين الماضيين فلم نلحظ من قريب أو بعيد أثر من آثار الهلاك أو الموت أو الاختناق وخرجنا من محوطة الجمرة الكبرى صخبات ضاحكات لأننا بذلك كنا قد أنهينا جميع أعمال الحج.. نعم أنهيناها باطمئنان ولم نتعرض فيها لشك أو نسيان.. إنتهينا منها واعيات ولم ننصرف عنها جاهلات.. وأخيراً إنتهينا منها راغبات في العودة غير برمات لشيء أو ساخطات على أمر ما من الأمور.. ولهذا كنا نضحك.. ولهذا أيضاً كنا نحس بالغبطة والسعادة.. فالحمد لله على ما أنعم وأسدى. وعدنا إلى الخيمة وهناك كانت الخيمة أشبه ما تكون بسوق خيري.

إذ أن مشتريات الأيام الثلاث كانت قد انتثرت بين جوانبها ومشتريات تلك الساعات الأخيرة. كانت مكدسة تنتظر الشد.. وعلى كل حال فما أن انتهينا من الصلاة والغداء حتى نادى المنادي بنا أن هيا نحو السيارات للعودة إلى مكة.. وسارت بنا السيارة ونحن نودع في أبصارنا وأفكارنا هذه المعالم الحبيبة.. فكم هو من الصعوبة بمكان أن ينظر الإنسان إلى ما يحب نظرة وداع قد لا يكون من ورائه لقاء.. هذا الشعور أقسى ما يحسه المفارق فيود لو تزود معه بأكثر مقدار ممكن من الذكريات.. وطلبنا من الله تبارك وتعالى أن يرزقنا العودة ثانياً.. ثم وصلنا إلى مكة حيث آوينا إلى غرفتنا في العمارة التي كنا ننزل فيها قبل الخروج إلى عرفات.. وغرفتنا تلك صغيرة.. ونحن كنا بمجموعتنا سبعة، وقد عرض علينا المتعهد منذ البداية أن نتنازل عن إثنتين منا و ثلاث يلتحقن في غرفة ثانية ولكنني وقد عز عليَّ التفريق والتميز وصعب عليّ أن أفترق مع من صحبتهن منذ بداية الرحلة رفضت ذلك وآثارت ضيق المكان

مع الجماعة على سعته مع الفرقة.. ولهذا فقد كنت قد أخرجت أمتعتي إلى الفسحة التي تجمع باقي الغرف لكي أوفر شيئاً من المكان.. وكنت قد صادفت منذ ساعة ورودنا مكة قبل سفرنا إلى عرفات صادفت بعض المتاعب من قبل إهمال بعض رجال القافلة. إذ كان الواحد منهم يصعد في طلب زوجته أو أمه أو أُخته ويدخل الشقة بدون إستئذان ولا يهمه أن تكون هناك امرأة مارة أو أن يكون هناك باباً من أبواب الغرف مفتوحاً، ولكنني وجدت أن هذا أمر لا يستحب السكوت عليه فطلبت من المتعهد أن يمنع ذلك وخولته أن يوجه الطلب باسمنا إذا كان يخشى من التأثرات.. ولكنه استجاب للأمر برحابة صدر ونادى في طابق الرجال قائلاً: لا يصح لرجل أن يجتاز باب شقة النساء في الطابق الثاني.. واستجاب الرجال لذلك والحمد لله فكان واحدهم يقف وراء باب الشقة ثم يطرقها منادياً على من يريد من السيدات كان هذا هو وضع غرفتنا في مكة.. وكانت الشقة تحتوي على حمام واحد ودورتين للمياه.. وليت هذا الحمام لم يكن موجوداً لأنه أصبح مصدر متاعب للجميع وطالما نجمت بسببه الكثير من الخلافات والنزاعات.. أما ماء الشرب فقد كان مالحاً جداً وظني أن المتعهد كان قد عجز عن توفير ماء للشرب لكثرة ما تستهلك النساء منه لغسيل الملابس والأجسام ولهذا كنا نتجرع مرارة الماء وملوحته بصمت.. ما دامت تلك المرارة بسبب من حلاوة العبادة... وأصبح علينا صباح اليوم الثالث عشر ونحن في مكة، ومكة بلدة تضفي على من يؤمها جواً من الانطلاق الروحي والانشراح النفسي فهي بجميع معالمها محببة إلى النفس قريبة إلى الروح وعلى القرب منها غار حراء.. وهو على قمة جبل عظيم هائل الارتفاع وإذا أردنا أن نعين موقعه في ذلك الجبل وجدناه ينحدر عن القمة من الجانب الثاني نازلاً من الناحية الثانية لكي نحد فتحة الغار الصغير.. هذا الغار الذي انطلقت من بين جدرانه أقدس رسالة عرفها التاريخ فإن أحجاره هي تلك الأحجار التي استقبلت ميلاد شريعتنا الخالدة.. حيث دخل إليها محمد بن عبد الله ﷺ لكي يعتزل الناس وينصرف إلى عبادة الله الواحد القهار ثم خرج عنها وهو حامل لرسالة السماء... هذه الساعات التي احتضنت

محمد ﷺ داخل الغار كانت هي الحد الفاصل بين الظلمات والنور، وبين الحياة والدمار فما أعظمها من ساعات كانت الأرض خلالها قد تفتحت لتستقبل رسالة السماء، ويا لها من خطوات تلك التي خطاها محمد بن عبد الله ﷺ وهو خارج من هذا الغار ليطل على العالم برسالته مضيئاً في معانيها مشاعل نور وواضعاً من مفاهيمها سفن نجاة.. نعم إنه غار حراء حيث شقت في الجبل المؤدي إليه بعض خطوط ملتوية بين صخور وأحجار يتمكن الصاعد أن يجد آثارها كلما صعد وحيث يطل الصاعد إليه على مكة بجميع مبانيها ومعالمها فيقف خاشعاً أمام تصوره لحقيقته الشامخة... حقيقة أن يكون الإسلام قد انطلق من بين هذه الأحجار الصلبة الجرداء ليهدد كسرى في إيوانه وهرقل في عزته وسلطانه كما وأن الزائر في مكة يمكن أن يزور مقابر قريش حيث رقدت أمام المؤمنين خديجة وفاطمة بنت أسد أم الإمام أمير المؤمنين وأجداد النبي وأعمامه... ووقفنا عند قبر خديجة الذي لا يكاد يعرف لولا بعض أحجار صغيرة فوقه.. وسرح بنا الفكر إلى حيث كانت السيدة خديجة تحتضن الرسالة وتتبناها كما إحتضنت صاحب الرسالة وتبنته من قبل... نعم السيدة خديجة هذه التي يعلمنا تاريخها أن للمرأة لو أرادت أن تكون ركيزة في وجود الأمم وبانية من بناتها.

.. ووقفنا على قبرها نتساءل: أين نحن من خديجة، ثم لنتساءل أيضاً وبعد أن نعرف مدى البون الشاسع الذي يفصلنا عنها نتساءل أترانا مسلمات حقاً؟ وما هي علامات إسلامنا يا ترى؟ إنّ الجانب الإيجابي وحده لا يكفي لأن يوجد من الإنسان إنساناً مسلماً حقاً لأن جميع العبادات المفروضة هي مما ينفق الناس ويحقق لهم المصالح الخاصة والعامة.

أما الجانب الذي يحقق للفرد إسلامه ويخوله أن ينتسب إلى الإسلام مانحاً إياه أحقية ذلك الانتساب هو الجانب السلبي من جوانب العبادة... والجانب السلبي هو ترك ما نهانا الله عنه واجتناب ما أمرنا الله باجتنابه...

فهل نحن مسلمات حقاً وكان علينا أن نبقى في مكة مدة ثلاثة أيام ثم نسافر

بعدها متوجهين نحو المدينة المنورة. . . وفي اليوم المقرر للسفر ذهبنا إلى الحرم الشريف لنطوف طواف الوداع.

وكان المطر ينهمر بغزارة فيغسل جدران الكعبة ويضفي على الموقف بشكل عام هيبة جديدة من نوع فريد وكان الوداع قاسياً جداً لولا بصيص الأمل في عودة اللقاء وقديماً قيل:

«ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل».

□ □

وعدنا من البيت الحرام ونحن نلتفت وراءنا لنلقي آخر نظرة على ما نحب، وكأننا مع كل لفتة كنا نجدد عهداً جديداً في الولاء ونؤكد وعداً مسبقاً في وحدانية العبودية وخلوص الطاعة. . كانت نظراتنا تلك حكاية عن قلوب عاشت سعادة الروح في القرب وها هي تسير نحو مرارة الشوق في البعد. . . حكاية أرواح وجدت راحتها حيث تسير منطلقة نحو مناها السحيق. . . نعم لقد كانت تلك النظرات حكاية عسى أن يحققها الله لقلوب أملتها في صدق وأرواح أوحتها في إخلاص. . وعدنا إلى النزل حيث وجدناه صاخباً ثائراً يشوبه جو من التوتر وتنطلق من إحدى زواياه ثورة عارمة ونقمة مدمرة فراعنا الموقف وتساءلنا عن السبب؟ ثم عرفنا أن بعض الحجاج كانوا قد اقترحوا على المتعهد أن يؤخر لهم نقلاً خاصاً بهم نحو المدينة وذلك على طريق سيارة صغيرة مستقلة لكي يتجنبوا مضايقات المطار، ويبدو أن هناك بعض المعاكسات الغير مقصودة قد حالت بينهم وبين مواصلة السير وتسبب ذلك في ضياع جوازات السفر العائدة إليهم!. وجلسنا ننتظر إنتهاء هذا الموقف المسرحي ولكن أين جلسنا يا ترى؟ كان الفراش قد تجمع في ساحة الشقة مقدمة لنقله والأمتعة قد رميت فوق بعضها إستعداداً لتحميلها في السيارة. . . فجلسنا على أطراف سجاجيد!! وأمرنا لله الواحد القهار. . بعد أن عرفنا أننا لا يمكن أن نخرج من مكة إلا بعد الحصول على الجوازات الضائعة!! وكان لهذا الصخب واللغط أسوأ الأثر في تلوين إنطلاقتنا الروحية التي عشناها في عيون مودعة دامعة وقلوب مشفقة خائفة. . فقد بدأ الماء يسري إلينا ونحن

نجلس وسط ساحة حرب نبالها الكلمات وقذائفها الدعوات.. وكلما حاولنا رد الغيبة أو تلطيف الموقف زاد الطين بلة حتى كاد أن يصيبنا شيء من ذلك الرشاش!! فسكتنا وأمرنا لله ولكن وضعنا النفسي كان قد تدهور جداً وبدأت أعصابنا تنذر بالإرهاق. وأخيراً وبعد ساعات طوال سمعنا بنبأ الحصول على الجوازات المفقودة فألف الحمد لله رب العالمين.. وانطلقنا من الشقة خفافاً كأننا طيور طال بها السجن في قفص من حديد وذهبنا إلى حيث كانت السيارات.. فصعدنا إلى أماكننا فيها.. وسارت بنا على إسم الله وبركاته.. وبذلك غادرنا مكة تلك البقعة الحبيبة.. ولكن شتان بين دخولنا إليها ملبيات وبين خروجنا عنها مرهقات متعبات...

□□

وقبل أذان الفجر بساعة دعينا إلى المضي نحو الطائرة فحمدنا الله على نهاية الانتظار واستقل كل منا مقعده في الطائرة النفاثة (ترايدنت) وبقينا ننتظر التحليق وكنا نأمل أن نصلي صلاة الفجر في المدينة لأن المدة بين جدة والمدينة لا تستغرق أكثر من ثلاثة أرباع الساعة وطال بنا الانتظار والطائرة تأبى أن تقلع عن الأرض وعرفنا أن هناك خلل يتطلب الإصلاح.. وبدأ السأم يدب إلى نفوسنا ونحن نتابع الساعة خشية أن يتعارض وقت السفر مع وقت الصلاة وكدنا أن نقترح النزول إلى أرض المطار لتأدية الصلاة لولا أن مضيف الطائرة أعلن عن عدم التمكن من إصلاح الطائرة وليس علينا إلا الهبوط!!!

فنزلنا وعدنا من جديد نفترش أمتعتنا وسط آلاف الحجاج وقضينا النهار بطوله هناك وبعد الغروب بقليل دعينا إلى ركوب الطائرة فركبناها وقلوبنا وجلة خشية أن لا تكون قد برأت من عارضها بشكل كامل ولكنها وبعد دقائق أقلعت عن أرض مطار جدة.. وبهذا كنا قد توجهنا نحو المدينة المنورة.

ووصلنا إلى المدينة المنورة، وهي تبعد عن جدة حوالي الـ (٤٢٠) كيلومتر ووقفت أمام قبر الرسول ﷺ، إن من أبرز المشاعر التي يعيشها الإنسان وهو مائل أمام القبر الشريف هو شعور الخجل والتقصير!! حينما يجد أن عليه أن يقدم حساباً لقائده الذي يقف أمامه.. نعم إن عليه أن يقدم حساباً عن الوديعة

التي خلفها لديه وهو القائل: «إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً» فكيف كان احتضانه لهذه الوديعة وما هو مدى تمسكه بهما؟ وهل تراه وعى مضمون التمسك، وعرف أنه التمثل والطاعة والاستجابة كما يدعوان إليه؟ سعيد ذلك الذي يجد نفسه وقد وفى لرسوله باحتضان مخلفاته والتمسك بهما، نعم سعيد ذلك الإنسان ويا لها من سعادة وهو يقف في بقعة طاهرة قال عنها الرسول ﷺ (بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة) ولكن لمن تتفق هذه السعادة يا ترى؟؟ سؤال حبذا لو طرحه على نفسه كل زائر لتلك الرحاب، وفي المدينة المنورة أيضاً زرنا مراقد الأئمة الأطهار الحسن المجتبى والإمام زين العابدين وأبي جعفر الباقر والإمام جعفر الصادق عليهم أفضل الصلاة والسلام وكانت زيارتنا لمراقدهم الشريفة من وراء جدار البقيع حيث أن السلطة هناك لا تسمح للمرأة بالدخول إلى تلك البقعة الطاهرة!!

وقد خصصت ساعات محدودة من كل يوم تفتح فيه الأبواب لزيارة الرجال فقط.. وفي القرب من المدينة المنورة زرنا مقابر شهداء أُحُد الأبرار ومسجد قبا، وهو أول مسجد بني في الإسلام، ومسجد القبلتين حيث نزل الوحي فيه بتغير القبلة من بيت المقدس نحو الكعبة الشريفة. وغيرها من الأماكن الشريفة، وفي صبيحة اليوم الخامس فارقنا المدينة متوجهين نحو العراق وكلنا لسان شكر لله عزّ وجلّ على ما وفقنا إليه.

أنغام الرحيل

فرصة العمر وأغلى مطلب ... تهب الإنسان أحلى الإرب

□□

أيها الراحل عن أوطانه ... لاهياً عنها وعن إخوانه

لا يبالي بجوى تجنانه ... قاده الشوق إلى إيمانه

سائراً نحو النعيم المرتجى ... في رحاب الله أو قبر النبي

□□

فرصة العمر وأغلى مطلب ... تهب الإنسان أحلى أرب

□□

أيها الراحل سر نحو النعيم ... نحو وادي زمزم نحو الحطيم

نحو بيت الله والركن العظيم ... في رحاب الله ذي العفو الكريم

نحو سعي الحق أو نحو الصفا ... واذكر الله بقلب وجب

□□

فرصة العمر وأغلى مطلب ... تهب الإنسان أحلى الإرب

□□

أيها الراحل قف جنب المقام ... حيث إبراهيم قد صلى وصام

ثم صل في خشوع واحترام ... واتجه فيها إلى رب الأنام

واطلب العفو من الرب الذي ... جعل التوبة عتق المذنب

□□

فرصة العمر وأغلى مطلب ... تهب الإنسان أحلى الإرب

□□

أيها الراحل إن جئت الصفا ... فاسعِ للمروة تبغي شرفا

وابتهل فيها بقلب قد هفاً ... نحو عفو الله اسمى من عفا

ثم قصر بعد سبع وانثني ... شاكراً لله نيل الطلب

□□

فرصة العمر وأغلى مطلب ... تهب الإنسان أحلى الإرب

□□

أيها الراحل يهنيك المسير ... نحو وادي خيبر نحو الغدير

نحو بدر أحد نحو البشير ... نحو غار في حراء مستنير

بضياء المرسل الهادي الذي ... شع نوراً في بلاد العرب

□□

فرصة العمر وأغلى مطلب ... تهب الإنسان أحلى الإرب

أيها الراحل خذها فرصة ... لك واغنم في ذراها عبرة
ودع الروح لتمضي حرة ... في سماء الحق تبغي جنة
عرضها طولاً كأرض وسما ... وهي تحيى بشعور عذب

□□

فرصة العمر وأغلى مطلب ... تهب الإنسان أحلى الإرب

□□

أيها الراحل هذي عرفات ... فاغتنمتها فرصة قبل الفوات
واشغلن ساعتها بالدعوات ... وإغسل الذنب بسيل العبرات
جبل الرحمة فيها فأته ... رحمه الله بقلب وجب

□□

فرصة عمر وأغلى مطلب ... تهب الإنسان أحلى الإرب

□□

ثم عند الظهر قفها وقفة ... تائباً لله فيها توبة
واسكب الروح عليها عبرة ... تغسل الذنب وتعطي جنة
لا يلقاها سوة قلب نقي ... واستقم فيها لوقت المغرب

□□

فرصة العمر وأغلى مطلب ... تهب الإنسان أحلى الإرب

□□

أيها الراحل ذي مزدلفة ... نحوها فاطر الدجى في عرفه
يذكر الله بها من عرفة ... تائباً عن كل ما اقترفه
ليس فيها أرض وسما ... وظلام وخشوع مرهب

□□

فرصة العمر وأغلى مطلب ... تهب الإنسان أحلى الإرب

□□

إنها ليلة سعد وخشوع ... وابتهال ودعاء ودموع
ومناجاة إلى وقت الطلوع ... ما أحيلاها أراض وربوع
يستميل القلب فيها راحة ... تزدهي من كل زهر طيب

□□

فـرصـة عـمـر وأغـلـى مـطـلـب　　تـهـب الإنـسـان أحـلـى الإرب

□□

أيـهـا الـراحـل قـد نـلـت الـمـنـى　　إذ تـوجـهـت إلـى أرض مـنـى
مسجد للخيف يعطيك الهنا　　فـيـه تـنـسـى كـل جـهـد وعـنـا
أيـهـا الـراحـل وارم الـجـمـرات　　فـي حـصـا مـعـدودة لـلـطـلـب

□□

فـرصـة عـمـر وأغـلـى مـطـلـب　　تـهـب الإنـسـان أحـلـى الإرب

□□

وتـوجـه بـعـدهـا لـلـكـعـبـة　　طـف وصـل وابـتـهـل لـلـتـوبـة
ثـم فـأت لـلـصـفـا والـمـروة　　واشـكـر الله لـهـذي الـنـعـمـة
ثـم طـف فـيـهـا طـوافـا ثـانـيـة　　لـيـس مـن جـهـد بـهـا أو نـصـب

□□

فـرصـة الـعـمـر وأغـلـى مـطـلـب　　تـهـب الإنـسـان أحـلـى الإرب

□□

أيـهـا الـراحـل يـهـنـيـك الـوصـول　　في رحاب القدس في قبر الرسول
فيه تسمو نحو باريها العقول　　تـنـمـحـي الآلام والـهـم يـزول
يـهـب الأرواح أمـنـاً ورضـا　　وهـو يـروي كـل قـلـب مـجـدب

□□

فـرصـة الـعـمـر وأغـلـى مـطـلـب　　تـهـب الإنـسـان أعـلـى الأرب

□□

أيـهـا الـراحـل زر تـلـك الـرحـاب　　وبـقـيـعـا مـا بـه غـيـر الـتـراب
فـغـدت جـدرانـه تـحـكـي الـخـراب　　وانـمـحـت آثـارهـا فـهـي يـبـاب
وبـه أربـعـة يـرجـى بـهـم　　نـيـل عـفـو الله يـوم الـتـعـب

□□

فـرصـة الـعـمـر وأغـلـى مـطـلـب　　تـهـب الإنـسـان أحـلـى الإرب

لن أنثني

قسما وإن ملىء الطريق ... بما يعيق السير قدما
قسماً وإن جهد الزمان ... لكي يثبط في عزما
أو حاول الدهر الخؤون ... بأن يريش الي سهما
وتفاعلت شتى الظروف ... تكيل آلاما وهما
فتراكمت سحب الهموم ... بأفق فكري فإدلهما
لن أنثني عما أروم ... وإن غدت قدماي تدمى
كلا ولن أدع الجهاد ... فغايتي أعلى وأسمى

□ □

أنا كنت أعلم أن درب ... الحق بالاشواك حافل
خال من الريحان ينشر ... عطره بين الجداول
لكنني اقدمت أقفو السير ... في خطو الأوائل
فلطالما كان المجاهد ... مفردا بين الجحافل
ولطالما نصر الإله ... جنوده وهم القلائل
فالحق يخلد في الوجود ... وكل ما يعدوه زائل
سأظل أشدو باسم إسلامي ... وأنكر كل باطل

□ □

إسلامنا أنت الحبيب ... وكل صعب فيك سهل
ولأجل دعوتك العزيزة ... علقم الأيام يحلو
لم يعل شيء فوق اسمك ... في الدنا، فالحق يعلو
وتطبق الدنيا مبادئك ... العزيزة وهي عدل
وسينصر الرحمن جند ... الحق ما ساروا وحلوا
السيخلمن ين الاله ... وكل ما يعدوه يبلو
وأثل باسمك دائماً ... أشدوا فلا ألهو وأسلو

بنت الهدى

٨

الباحثة عن الحقيقة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لقيتها فأحسست أنني لم أعرف معنى الحياة قبل أن ألقاها، كان كل ما فيها يشدني إليها بعنف، وقوة، وعذوبة، ورقة، عيناها الكحلاوان كانتا كقبس من نور لم أعد أعرف كيف أبصر طريقي بدونهما، خصلات شعرها الشقراء المنسابة كانت بالنسبة لي خيوطاً من ذهب تعلقت بأطرافها نفسي وتابعت تموجاتها خفقات القلب عندي، واستمعت إليها تتحدث فوددت لو بقيت تتحدث وبقيت أستمع إليها العمر كله، وكت أشاهد المعجبين من حولها يتزاحمون على القرب منها ويتنافسون على سماع كلمة من كلامها فهم يحومون حولها كما يحوم الفراش على ضوء المصباح، أما أنا فقد شغلت بها عن كل شيء حتى عن الدنو منها والتحدث إليها، كنت كالعابد السابح في ملكوت عبادته الغارق في مشاعر صوفيته قائماً في محرابه لا يريم، وهكذا كنت أنا في جلستي تلك مستغرقاً في الانجذاب إليها مشغولاً بذلك عن كل شيء حتى عن الحركة نحوها لا أريد أن أغير من وضعي شيئاً لكي لا أخسر لحظة من لحظات هذا الفناء في ذاتها، وكانت هي - كما كنت أنا - طالبة في الصف الثالث من الجامعة ولكنها جديدة بالنسبة لهذه الجامعة بالذات إذ وفدت إليها أخيراً مع غيرها من الطلاب الذين اندمجت جامعتهم مع جامعتنا في مطلع هذا العام، ولهذا فقد كنت أراها للمرة الأولى ويبدو أن غيري من المعجبين كان قد رآها من قبل، ولم أكن لأبرح مكاني ذلك لولا أنها قد انصرفت مع شلة من الطلبة والطالبات وقد ألقت عليَّ نظرة فضول قبل انصرافها وكأنها تنكر عليَّ عزوفي عن الدنو منها، وقد نبهني انصرافها إلى أن الدوام قد انتهى وإن عليَّ أن أنصرف أيضاً فجمعت كتبي وسرت نحو البيت وأنا لا أكاد أبصر أو أحس شيئاً سواها.

□□

ومرت الأيام وأنا أراها من بعيد فلا أجرأ على الدنو منها مع كثرة من يدنو،

وكنت أجدها توزع على من حولها ضحكات بريئة وتتقبل منهم المداعبات الصغيرة ثم تنفر منهم عند أي تجاوز للأدب أو تهاون بالكرامة وكان ذلك مما يحببها إلي أكثر، ويحببني عن الدنو منها بشكل أكبر، وكنت ألاحظها أحياناً وهي تتطلع نحوي بشيء من الاهتمام وبنظرة تختلف عن نظراتها للآخرين، وخمنت أنها تعجب من هذا الإنسان الذي لم يضعف أمام إغراءات جمالها ولم ينقد نحو نداء أنوثتها، وعجبت أن تعتب علي لهذا الترفع الموهوم جاهلة أن هذا الإنسان الذي تعتب عليه قد ضعف فافتقد كل شيء حتى الجرأة على الدنو منها، وإن هذا الذي تتصوره أقوى من الآخرين ما هو إلا أضعفهم وأكثرهم انقيادا، وكانت نظراتها تلك تسلمني إلى مزيد من العذاب، فكنت أعود إلى غرفتي كئيباً حزيناً أراجع المعاني المستترة وراء نظراتها أكثر مما أراجع دروسي، وأفكر في موقفي منها أكثر مما بمستقبلي، لقد كانت تحسب أنني غافل عنها وأنا لم أكن أعيش إلا بها ومن أجلها، لكن كنت أتمنى أن أبدو على حقيقتي ولو إلى دقائق فاطلق عن نفسي هذه القيود التي تشل حركتها وأروح أرفل في سعادة التحليق مع أماني العذاب، فتغدو كل دقة من قلبي حكاية حب وتستحيل كل خلجة من خلجاته إلى صورة من صور الفناء، أتراني أتمكن أن أصف بعض مشاعري نحوها؟ أو أعبر عما كنت أحسه؟ أبداً فقد كان الحب يعصف بقلبي ويطغي على وجودي كله فيا لطول ساعاتي تلك ويا لثقل مرور الزمن علي حين ذاك كنت أتمنى لو يقف مرور الزمن حينما أكون أمامها وأستبطأ لحظات مروره حينما أكون بعيدا عنها، طالما تمنيت أن أموت في جلسة من جلساتي أمامها وهل كنت أجد للحياة معنى بدونها؟ كنت أحب الحياة من أجلها وأتمنى الموت خشية عدم الحصول عليها، ليتها كانت تسمع نبضات قلبي وتفهم حديثها أو أن تصغي إلى حديث فؤادي وتتابع نشيده الذي لا ينفك عنه لحظة من زمان (احبك) صحيح أنها خفقات قلب ولكنها كانت حكاية حب، نعم حكاية حب هي بالنسبة لي حكاية عمر فقد بدأت أوقت عمري وأحداثه منذ أبصرت بها عيناي وفي صباح يوم من الأيام وكنت قد بكرت بالجلوس في ركني المنعزل من الحديقة أنتظر قدومها كعادتي في كل

يوم مكتفياً بالنظر إليها من بعيد وبالنجوى الصامتة التي يرددها لها قلبي، وهل كان للقلب حديث سواها بعد أن أصبحت أراها في كل شيء خضرة الرياض الزاهية، وزرقة السماء الصافية، وإشراقة القمر المنيرة، وأحسها مع كل شيء مع نسمة الهواء العذبة، ونهلة الماء الرائقة، وأريج الزهر الفواح. . . وفي ذلك الصباح لم يطل انتظاري لها فقد رأيتها تدخل ثم تلتفت حولها وكأنها تبحث عن أحد، ثم رأيتها بعد ذلك تتوجه نحوي فلم أصدق ما أرى ولكنها الحقيقة بعينها ولم تمض لحظات حتى كانت تقف أمامي بقوامها الممشوق وابتسامتها الخلابة، آه نعم لقد رأيتها أمامي، وسمعت صوتها بأذني وهي تقول. . . مرحبا فؤاد. . أتسمح لي أن أجلس معك قليلاً فإن لديَّ سؤالاً؟ فارتبكت واحترت كيف أتصرف، أنها تسألني هل أسمح؟ عجباً! أوليست هي معي منذ رأيتها حتى الآن؟ إنها لم تبرحني ولم أبرحها لحظة فما معنى أن تسألني هذا السؤال؟ أتراها تهزأ بي وهي تسألني هل أسمح؟ وهل تراني أتمنى غير ذلك؟ ثم اسعفني لساني بالكلام فقلت متلعثماً:

نعم، نعم، تفضلي واجلسي وجلست إلى جواري ولم نفترق إلا بعد أن عرفت عني كل شيء وعرفت أنها تبادلني نفس الشعور وشعرت أنني ملكت الدنيا بأسرها حينما ملكت قلبي هذه المعبودة الصغيرة.

□□

وانصرفت سندس إلي وحدي، وبدأت ترفض الحائمين حولها بعنف، أما أنا، فقد انصرفت إليها بجميع وجودي مع أنني عرفت أنها من دين غير ديني، ولكن لم يكن الدين ليؤثر على الحب الذي كنا نعيشه، فما عرفنا من الدين غير رموز ونعوت أمليت علينا إملاء من قبل أهلنا ونحن لا نفهم منه سوى اسمه، فأنى لهذا الدين المغلف بالضباب في أذهاننا أن يؤثر على هذا الحب الواضح المعطاء؟ ولهذا فقد شربنا من كؤوس السعادة أحلاها وغدونا لا نفترق إلا الساعات القليلة من الليل ولم يكن يكدر صفاء هذا الحب سوى مضايقات زميل لها في الدراسة كان قد انتقل معها من تلك الجامعة وكان يبدو مغرماً بها إلى حد بعيد زاعماً بأن له الحق الأول في القرب منها لأنه يماثلها في الدين

وينتمي إلى نفس البلد الذي تنتمي إليه وكان دائباً على ملاحقتنا بالأذى وتهديدنا بالوعيد، ولكن حبّنا كان لا يسمح لنا بمزيد من الاهتمام حتى حدث أن اصطدمنا بواقع كنا في غفلة عنه، ماذا لو انتهيت فترة الدراسة وكان علينا أن يذهب كل إلى بلده وأهله؟ ماذا سوف نصنع حين ذاك وقد أصبحنا بشكل يتعذر علينا اللقاء. . . لا شيء سوى المبادرة بالزواج، ولكن الزواج كان حتى ذلك الوقت آخر ما نفكر فيه، ومع هذا رضينا بهذا الحل إبقاء على حبنا وعلاقتنا، عند ذلك واجهتنا عقبة واحدة وهي الاختلاف في الدين، لأن الزواج لا يتم إلا إذا اتحدنا في الانتساب إلى دين واحد، وأبدت هي استعدادها لأن تنتسب لديني فشكرتها على مبادرتها هذه وصرت أسأل عن أقصر طريق لإنجاز الموضوع فقيل لي إنَّ علي أخذها إلى عالم ديني يعلمها الشهادتين وبذلك تصبح مسلمة مثلي، ثم حاولت أن أعرف كيف يمكنني الوصول إلى مثل ذلك العالم الديني؟

وبعد أيام أرشدني أحدهم إلى بيته. . . فتوجهنا إليه في مساء يوم من الأيام، وكنت أتصوره شيخاً قد انحنى ظهره وابيضت حاجباه وملأت التجاعيد وجهه الضامر القميء، وكنا قد قدرنا معاً قبل أن نصل بأننا سوف لن نتمكن أن نفهم كلامه حينما يحرك به شفتيه بعبارات لا شك أنها عتيقة تتخللها كلمات من الذكر والتسبيح، قالت سندس: إن عليك أن تفهم ما يقول.

قلت: ولماذا علي أنا بالذات؟ فتضاحكت وقالت:

لأنه يماثلك في الدين فهو مسلم وأنت مسلم، ولهذا عليك أنت بالخصوص أن تفهم تمتمته العتيقة، ولا أنسى أنني أجبتها ببرود قائلاً: آه، نعم إني مسلم، وعندما وقفنا أمام الباب التصقت بي سندس قائلة:

فؤاد هل تعلم بأنني خائفة؟ ولا أنكر أنني كنت خائفاً مثلها. فهي أول مرة كان عليَّ أن أدخل فيها إلى بيت عالم ديني، نعم عالم ديني يعتبرني ولا شك من المارقين العصاة، كنت أخشى أن ينهرني ويقسو عليَّ بكلماته، كنت أخشى أن يمتنع عن استقبالي لأنني منحرف (على حد زعمه) فلطالما حذرني أصدقائي

من الاحتكاك بمثل هؤلاء، فهم حاقدون على كل شيء، الشباب، والجمال، والثقافة، والمال، لأنهم لا يقدرون على امتلاك شيء من هذه الأشياء ولعل عجزهم هذا هو الذي جرهم إلى سلوك هذا الطريق. فالفشل قد يدفع صاحبه أحياناً إلى الانتحار وهؤلاء أعقل المنتحرين فهم يبنون لأنفسهم قواعد تدر عليهم أحياناً المال والجاه دون أن يكلفهم ذلك أي عمل. . . ولكن، ومع أن أفكاري كانت غير مريحة بالمرة فقد تظاهرت بالجرأة وقلت لها:

ولماذا تخافين يا حبيبتي؟ إنه أمر روتيني سوف ينجز خلال دقائق تصبحين بعدها مسلمة مثلي! قالت:

وأنت كيف أصبحت مسلماً؟ فتحيرت بماذا أجيب ثم قلت:

آه. نعم. أنا كيف أصبحت مسلماً؟ في الحقيقة لست أعلم ولكنها الوراثة، قالت:

وهل أن الدين ينتقل عن طريق الوراثة؟ فضحكت قائلاً:

أقصد أنني ابن أسرة مسلمة ولهذا أصبحت مسلماً والظاهر أنها لم تقتنع فقد ردت عليَّ قائلة:

لقد قلت لا أدري وهو الصحيح يا حبيبي، فضغطت على يدها قائلاً:

نعم إنه الصحيح يا حبيبتي. . . ثم طرقنا الباب ففتحه لنا طفل صغير أسمر اللون نافذ النظرات تبدو عليه خمائل الذكاء مع شيء من الخجل، ثم قادنا إلى غرفة جانبية منعزلة وجدنا فيها العالم الديني، وكانت مفاجأة لست أنساها أبداً وأنى لي أن أنسى تلك اللحظات؟ فقد وجدتني أمام شاب لا يتجاوز الأربعين من عمره مشرق الوجه، جميل الطلعة، حسن الزي نظيف المسكن والملبس، وقد استقبلنا بكلمات ترحيب حديثة مهذبة وبصوت هادىء رصين، وحينما أعطاني يده للمصافحة وجدتها يداً نظيفة مترفة يبتعد كل البعد عن تلك اليد السوداء المعروفة ذات الأظافر السمراء التي كنت أتصورها للعالم الديني، وأحسست بالراحة والركون إلى هذا الإنسان والتفتُ نحو سندس أَستطلع رأيها فيه فوجدت نظراتها تحكي عن الاعجاب والاستغراب.

وعندما استقر بنا الجلوس همست لها قائلاً: ألا تزالين خائفة؟ قالت: كلا بل إنني أحس بالراحة، ثم بدأت في الحديث فوراً فحدثته عن الحب الذي جمع بين قلبينا منذ سنين وكيف أننا الآن في حاجة لأن يشهد هو بإسلامها، ولهذا فأنا أرجوه أن يكرر الشهادتين لتعيدها هي أمامه، فابتسم بلطف وقال بنغمة هادئة: ولكن هذا لا يكفي يا ولدي، فاستغربت أن يناديني بيا ولدي وهو لا يكبرني إلا سنوات، ثم قلت بشيء من العجب: كيف! قال:

إن الإسلام ليس مجرد ترديد كلمات وشعارات جوفاء إنه يا ولدي عقيدة وفكرة، قال هذا وسكت كأنه لا يريد أن يسترسل بحديث غير مطلوب منه، والحقيقة أن هذا السكوت قد أعجبني منه لأنني كنت أمقت أولئك الذين يغتنمون أصغر فرصة للتمشدق بما لديهم من كلمات ولإبراز ما يعرفون من معلومات، ولكنني كنت أريد أن أعرف أكثر فأنا صاحب حاجة أريد أن أنجزها على أي شكل، ولهذا فقد استزدته من الكلام قائلاً:

إذن؟ فابتسم من جديد وقال بنفس الأسلوب الهادىء:

بودي لو ساعدتك يا ولدي ولكنني في الحقيقة مسؤول عن هذا الدين الذي انتسب إليه، فإنني وبصفتي عالم ديني لا أتمكن أن أعطي الإسلام على شكل قشور جوفاء. وهنا لا أدري كيف سمحت لنفسي أن أصبح ملحاحاً في ذلك اليوم لأنني عدت ألح عليه قائلاً:

إنه مجرد تسهيل أمر لنا ولا أعتقد أنه يضرك بشيء.

والعجيب أنه لم يغضب ولم يعرض عني بل رد علي بهدوء أيضاً قائلاً:

لو كان الأمر خاصاً بي لحاولت أن أسهل أمركما ما وسعني ذلك ولكنني مسؤول عنه يا ولدي... ومن جديد عدت لكي ألح عليه بقولي:

إنها جلسة خاصة سوف لن نحدث بها أحداً ولن نعرضك لأي مسؤولية والمهم أن تنجز لنا الأمر بسرعة، وهنا تململ العالم الديني في جلسته وكأنه يريد أن يتغلب على ما بعثه الحاحي الرخيص في نفسه من امتعاض وفعلاً فقد تغلب على ذلك وبقي متمسكاً بأسلوبه اللين وقال:

أنا لا أفكر بالمسؤولية أمام الناس يا ولدي فلا مسؤولية عليَّ من هذا الباب. وسكت على عادته ينتظر مني حثه على الكلام، فقلت:

إذن فأية مسؤولية هي يا ترى؟ قال:

إنها مسؤوليتي أمام الله عز وجل وأمام هذا الدين الذي جعلت من نفسي هادياً إليه، لعلك تتصور أن العالم الديني يتمكن أن يتصرف كما يحلو له في الدين والدنيا ولكن الحقيقة أن العالم الديني هو أكثر الناس مسؤولية وأحرجهم موقفاً دينياً ودنيوياً، فليس من السهولة بمكان حمل هذه الأمانة الضخمة، أمانة العطاء الديني وتحويله إلى الناس بالشكل الصحيح، وكانت كلمات العالم الديني تنفذ إلى فكري وتداعب عواطفي، سيما وقد أحسست بأنني الححت عليه أكثر مما يجب ولكنني (واكررها من جديد) كنت صاحب حاجة لا أرى إلا قضاء حاجتي ولهذا عدت لأقول:

إذن ماذا تطلب منا؟ قال بشيء من البرود: أنا لا أطلب شيئاً ولكنك أنت الذي تطلب مني أن أشهد لك بإسلام خطيبتك وتريد أن يكون إسلامها مجرد ترديد كلمات قصار لا أكثر ولا أقل وأنا لا أشهد بإسلامها إلا بعد أن تعرف عن الإسلام ما يجعلها تثق فيه، وهنا فهمت ما يعنيه وتأثرت لموقفه وأكبرت حلمه عليَّ ولكنني مع الأسف كنت ملحاحاً عليه في جلستي تلك، فأردت أن أتكلم وأن أعود لأطلب منه تسهيل الأمور فلم أكن أتصور أن في إمكان سندس أن تفهم الإسلام أو تفهم شيئاً عن الإسلام، أو فهمت أنا شخصياً عنه شيئاً يا ترى مع أنني ابن أسرة مسلمة فكيف سوف تفهمه سندس؟ ولكن سندس وقد عرفت أنني لا أريد أن أنزل عن موقفي اللجوج فبادرتني قائلة:

إنه على حق يا فؤاد، أرجوك أن لا تلحّ عليه أكثر أنني أكبر فيه واقعيته وحرصه على أداء الأمانة بالشكل الصحيح. والحقيقة بأنني أقررتها في نفسي على ما قالت ولكنني سألتها في قلق:

إذن ماذا نصنع؟ قالت:

قل له أن يؤدي أمانته بالشكل الصحيح ويتصرف كما يرضي ضميره، قلت:

وأنت هل سوف تفهمين شيئاً عن الإسلام؟ قالت:

ولماذا لا أفهم؟ ألم أفهم دروس الفلسفة في الجامعة؟ وكان العالم الديني يستمع إلى حديثنا وهو يلاعب مسبحة سوداء بين أصبعه، وكانت مسحة من الرضا أو الراحة تبدو على قسماته بعد أن عرف أن سندس قد فهمت ما يعنيه، فقلت له بشيء من الخجل:

إذن فنحن نطلب منك إجراء ما ينبغي ونحن على استعداد لدفع ما يستحق.. عند هذا فقط ظهرت على العالم الديني علامات الاستياء وقال بشيء من الجفاء:

نحن هنا لا نتاجر بالدين ولا نطلب على ما نؤديه جزاء إلا من الله، إن رجل الدين كله عطاء ولا يفكر يوماً بالأخذ... وأحسست بالندم ونظرت إلى سندس فوجدتها تنظر إليَّ باستنكار وتأنيب ثم همست قائلة:

لقد أسأت إليه، لقد أخطأت التصرف.. فعدتُ لكي أقول بتوسل:

الحقيقة إنني أعتذر إن كنت قد أسأت إليك ولكنها أقاويل عديدة جعلتني أفكر على هذا الشكل، فعاد يبتسم مشجعاً وهو يقول ولكن الإنسان لا ينبغي له أن يصدق كل ما يسمع حتى يتأكد بنفسه من صحة ما يقال، قلت في لهجة صادقة:

نعم فإنني كنت غلطان، والآن أرجوك أن تتفضل بما تراه، قال:

الحقيقة يا ولدي أن حاجة الإنسان للدين حاجة ضرورية وحتمية لا غنىً له عنها ولا يمكن لأي شيء عدا الدين أن يسد له تلك الحاجة، قلت معترضاً أو متسائلاً:

ولماذا؟ قال:

لأن الإنسان بطبيعته البشرية وبتكوينه الفطري تواق إلى الراحة، والراحة لا تتكامل بدون سعادة فهو تواق للسعادة أيضاً والسعادة لا تتحقق إلا إذا شملت جميع جوانب الإحساس لديه، الفكر، والعاطفة، والدين هو المنهج الوحيد الذي يتكفل بتجسيد مفهوم السعادة الفكرية والعاطفية، وذلك لما فيه من مثل خلاقة وعطاءات بناءة، وأنظمة وقوانين تربوية صالحة... وهنا عدت لأقول:

ولكنك ذكرت أن ليس هناك ما يعوض عن الدين، أو ليس في العلم وتقدمه وآثاره ما يعوض عنه بعد كل ما قدم من وسائل تكفلت بتحقيق الراحة والنعيم للإنسان؟ قال:

كلا يا ولدي فهو حتى لو أراد أن يستعيض بالعلم عن الدين ويلتمس ضالته من السعادة في رحابه، سوف لن يتمكن أن يجد فيه ما يريد لأن العلم عاجز عن تحقيق السعادة بمفهومها الصحيح، فهو وإن وفر له عن طريق التكنولوجيا جميع أسباب الراحة الجسمية فجعله يقطع العالم عن طريق الطيران بساعات، ويستمع إلى الصوت البعيد عن طريق الأثير، ويشاهد سطح القمر وهو جالس في بيته بواسطة التلفاز، لكنه لن يتمكن أن يحقق له السعادة الكاملة لأنه لن يتمكن أن يقضي على الظلم الذي لا تتقبله طبيعة الإنسان أو أن يمحو ما تكره الفطرة الإنسانية من نفاق ورياء، وحقد واعتداء واستغلال القوي الضعيف، والتزاحم على المال والمقام، لأن جميع ما يقدمه العلم خاضع لعاملين يتحكمان به هما عامل الخير وعامل الشر، والإنسان هو الذي يوجّه منجزات العلم ومخترعاته بالوجهة التي يريد، فالطائرة قد تكون مثلاً قد تكون قاذفة قنابل مدمرة وقد تكون وسيلة نقل مريحة، والتلفاز قد يصبح أداة إعلامية صالحة وقد يستحيل إلى جهاز خلاعي مقيت، والبارود نجده يستعمل مرة في شق الطرق ويستعمل مرة أخرى في إزهاق أرواح بريئة، وهكذا وإلى آخر ما في العلم من منجزات، إذن فسوف يبقى الإنسان يصطدم مع ما لا يريده ولا يرغب فيه وذلك يعني عدم تحقيق السعادة الكاملة والراحة الحقيقية... قلت: ولماذا لا تكون المثالية الأخلاقية هي العوض عن الدين؟ أعني لو تحقق شمول هذه المثالية واستيعابها لمناطق الحس لدى الإنسان لعمت مشاعر الإنسانية وطبقت قواعد العدالة بين المجتمع؟ قال:

ولكن هذه المثالية الخلقية لن تستطيع هي أيضاً أن تحقق له السعادة أو تشيع في نفسه الرضا، لأن المثالية الأخلاقية وليدة حالات طارئة وليست قاعدة ثابتة راسخة، فالرحمة مثلاً، وهي إحدى مظاهر هذه المثالية وهي أيضاً مما تتوق إليه طبيعة الإنسان هذه الرحمة لا تتواجد في قلب الإنسان إلا بعد وجود

مقدمة، والمقدمة هي أن يبصر هذا الإنسان ما يستدعي الرحمة وما يثير لديه دوافعها، ومثل ذلك لو تصورنا غنيا يعمر قلبه بالرحمة والرأفة وهو مجبول على مساعدة الفقراء والمساكين، هذا الغني لا يتمكن أن يساعد أكثر من الفقراء الذين يراهم فقط وفقط لأن هذا الفقير هو الوحيد الذي يثير في نفسه عوامل الرحمة، أما لو لم يبصر بفقير لهو لن يستفيد من رحمته شيئاً ولن يستفيد منها المجتمع أيضاً، والرحمة هنا مثال عن الأخلاق والتعاطف الاجتماعي، ولهذا، ولكون هذا التعاطف ليس نتيجة لقواعد ثابتة فهو لن يؤدي دوره الكامل في سبيل تحقيق الراحة والسعادة للإنسان البشري لمحدودية مجالاته وضيقها... وكنت أستمع إليه مقتنعاً ولكن خطر لي أن أسأل من جديد قائلاً:

ولكن ما رأيك بشعور المصلحة المتبادلة؟ أليس فيه ما يغني عن الدين ويحقق الراحة للإنسان؟... قال:

كلا، فإن هذه المصلحة المتبادلة لا يمكن لها أن تحقق السعادة والراحة أيضاً، قلت: لماذا؟ قال:

لأن فيها ثغرات لا تمكنها من تحقيق السعادة والراحة وهي تعارض المصالح وتباينها بين الأفراد، فما أكثر ما تكون مصلحة زيد قائمة على أساس من نقيضها عند عمر، وما أكثر ما شُيّدت صروح على أنقاض صروح وعُمّرت بلدان نتيجة خراب بلدان، وسعد أفراد لما شقى به الآخرون، إذن فإن الشقاء سوف لن ينمحي بتحقيق قانون التبادل المصلحي والسعادة سوف لن تتواجد نتيجة سيادة المصلحة في المجتمع، وسوف يبقى الإنسان يواجه ما لا يريد، ويجد ما لا يريح، ولهذا فهو يبقى يفتش عن الراحة التي تتوق إليها طبيعته في كل حال من الأحوال... قلت:

ولكن ألا تتمكن التربية الصحيحة والتنوير الفكري، والتهذيب النفسي من تحقيق ذلك للإنسان؟ قال:

ولكن هذه التربية الصحيحة التي تتصورها تحتاج هي بدورها إلى مربين، والمربين في حاجة لمربين أيضاً وهكذا ما لا نهاية، فالتربية لا تبدأ من الصفر،

والصفر لا يخلق أرقاماً، ولهذا يبقى الإنسان حاملاً معه الشعور الملح بالحاجة إلى الدين، الدين الذي يحقق له جميع صور السعادة والراحة منطلقة من قواعد ثابتة لا تتغير ولا تتلون ولا تخضع للتبديل والتحريف، عند هذا سكت العالم الديني وبقينا نحن ساكتين منجذبين لما كنا نسمع، وبعد لحظات من السكوت قلت:

لماذا سكت يا أستاذ أترانا قد أتعبناك أو أخذنا من وقتك أكثر ما ينبغي؟

قال: كلا ولكنني أردت أن أعطيكما مجالاً للراحة ولإبداء الرأي فيما سمعتما، فالتفت نحو سندس فوجدتها تقول:

أطلب منه أن يستمر فأنا منسجمة معه تمام الانسجام وليس لدي أية مناقشة، قلت:

إذن تفضل وأكمل الحديث يا أستاذ، قال:

والآن وبعد أن عرفنا حاجة الإنسان الضرورية للدين سوف نعرف بالضمن ضرورة وجود النبوات والرسالات، ولكن بقي علينا أن نعرف ما هي أوصاف الدين أو ما هي أوصاف الرسالة التي تحقق الراحة للإنسان، قلت:

نعم فما هي أوصاف هذا الدين؟ قال:

أولاً: أن يكون منسجماً مع الفطرة وأن لا يكون متنافراً مع ما جبلت عليه الطبيعة الإنسانية.

ثانياً: أن يكون ملائماً للعقل ولا يحتوي على أشياء يعجز العقل عن استيعابها.

ثالثاً: أن يكون متمكناً من تقديم قدوة، أي من تقديم وسائل إيضاح تمكن من التعرف على جوهره وغاياته وتمكن من السير على منهاجه، والإسلام هو الدين الذي يتكفل بتقديم كل هذه الصور والأوصاف، إلى هنا وسكت العالم، فحاولت أن أصبر نفسي عن السؤال إلى دقائق ثم سألت في لهفة وفي شيء من التحدي قائلاً:

وكيف يمكن لنا أن نعرف أن الإسلام هو الدين الذي يتكفل بتقديم كل هذه الشروط والخصائص؟ فتنحنح العالم وقال:

وهذا هو ما أريد أن أشرحه لها يا أستاذ ولكنه سوف يستوعب مقداراً طويلاً من الوقت فهل لديكما المدة الكافية؟ عند ذلك نظرت إلى ساعتي وكنت قد غفلت عن متابعتها (على خلاف عادتي) طيلة مدة الحديث فوجدتها تقارب العاشرة مساء وكان علينا أن نعود قبل ذلك بساعة لكي تصل سندس إلى بيت الطالبات قبل أن تغلق الأبواب، ولهذا فقد اضطررنا أن نؤجل الحديث إلى جلسة قادمة، فحصلنا منه على موعد في اليوم القادم، ثم قمنا لننصرف وكانت أجواء الوداع تختلف كل الاختلاف عن أجواء اللقاء، فقد خرجنا ونحن نتشوق الرجوع بينما كنا قد دخلنا ونحن نستعجل الخروج، وفي منعطف الشارع أحسسنا أن هناك من يتبع خطواتنا، ولم نتمكن أن نميزه من بعد وشعرت سندس ببعض الارتباك خشية أن يكون هو باسم زميلها في الدراسة ومحبها المفتون، ولكنني حاولت أن أطمئنها وأبعد عن ذهنها الشكوك، وكان السرى في تلك الساعة من الليل مع إطلالة القمر وهدوء الطريق كفيلا لأن ينسينا كل شيء حتى فضول هذا المتتبع الرخيص فتماسكت يداها وثقلت خطواتنا وبدأ الصمت يحكي باستمراره أعذب حديث وينطق لطوله بأروع الكلمات، حتى وصلنا أخيراً إلى دار الطالبات، وكانت الساعة قد تعدت الحادية عشر مساء، وبالطبع فقد وجدنا الأبواب مغلقة والبيت غارق في السكون والظلام، وما كان يسعنا أن نطرق الباب فهو أمر غير مسموح فيه ولهذا فقد وقفنا وراء الباب حائرين، وكان موقفنا ذاك ما لا نحسد عليه أبداً، وبعد فترة من الحيرة قلت:

إن علينا أن نقرر أمرنا يا سندس، فالليل يتقدم ومن غير المعقول أن نقف هنا حتى الصباح، ليتنا كنا قد خرجنا من هناك قبل ساعة، فردت عليَّ بهدوء غير متوقع قائلة:

ولكننا لم نكن نلهو هناك يا فؤاد أتراك نسيت بأننا كنا أصحاب حاجة وكان تحقيق حاجتنا يتطلب البقاء؟ ثم إنني أشعر بأن الفائدة التي حصلنا عليها

تعوضنا عن صعوبة هذا الموقف ولولا خشيتي أن يكون باسم قد تتبع خطواتنا وأنه سوف يسعى إلى وضع العراقيل في طريقنا لما أهمني من أمر هذا الموقف المحرج شيئاً يا فؤاد، فأعجبني كلامها وأحسست بأنني أشعر نفس شعورها لولا إحساسي بالمسؤولية تجاهها، ولهذا فقد وافقتها على ما قالت وحاولت أن أبعد عنها المخاوف ثم عرضت عليها أن تذهب معي إلى بيتي الصغير، وصعب عليها ذلك ولكن لم يكن يسعها الرفض فتوجهنا معا إلى هناك، وعندما كنت أفتح الباب لاحظت أن هناك من كان يتتبع خطواتنا ولكن سندس لم تلاحظ شيئاً من ذلك إذ لم يبد عليها أثر للقلق، ودخلنا البيت، ولأول مرة ظهر الارتباك على سندس ثم قالت بشيء من الخجل:

أين سوف أنام يا فؤاد؟ قلت:

كما تشائين يا حبيبتي، قالت:

سوف أنام في غرفة الإستقبال لتنام أنت هنا في مكانك، فسكت لحظة ثم قلت لها:

بل تنامين أنت هنا وأنا الذي أنام في غرفة الإستقبال.

□□

وفي صباح اليوم الثاني وبينما كنت أبحث عن سندس بين مجموع الطالبات تقدم مني أحد الطلاب الجدد وسلمني رسالة ثم اختفى بين المجموع، فانتحيت جانباً وقد ارتابت نفسي مما فيها وفتحتها فوجدت فيها ما يلي...

(أتراكما تحسبان أنني لن أتمكن من تحطيم صروح بنيتماها على أنقاض آمالي؟ إن لدي ما يمكنني من القيام بأي عمل فأما أن تنسحب عن حياتها وتتركها لي من جديد وأما أن أقدم على أي شيء، نعم على أي شيء وأول عمل أقوم به هو إخبار أهلها بما اتفقتما عليه، نعم إخبارهم بأنها بدأت تقضي لياليها بين بيوت المشعوذين من المسلمين وبيتك الخالي). وارتج علي ولم أعرف كيف أتصرف، فتركت محاولة البحث عن سندس وجلست في زاوية يجب علي أن أفعل، ولكن ماذا كان عساي أن أفعل؟ وهل كان من الممكن لي

أن أنسحب عن سندس وهي حياتي التي لا غنىً لي عنها ولكن وجودي في حياتها سوف يعرضها للبلاء وهذا ما لا أريده لها بأي وجه من الوجوه، فعلي أن أدبر الأمر بشكل يجنبها من كل سوء ولا يدع ثغرة ينفذ منها إلى أغراضه وذلك لا يتم إلا إذا عقدنا زواجنا في أقرب وقت ولهذا فقد صممت أن لا أدع سندس تعرف بأمر هذه الرسالة وأن أتعجل العالم الديني في إنجاز مهمته ليتم عقد زواجنا قبل أن يتخذ باسم أي إجراء، ثم وبعد ذلك لن يستطيع أهلها القيام بأي مبادرة ما دمنا قد اجتمعنا بشكل رسمي معترف به، وفعلاً فقد أخفيت أمر الرسالة وكان وقت المحاضرة التالية قد بدأ منذ دقائق فالتحقت بها وأنا أحاول أن أبعد عن فكري أمر الرسالة وصاحبها، ثم التقيت مع سندس بعد الدرس وشعرت أنها غير مرتاحة نفسياً لما صادفته من متاعب عند الصباح من المسؤولية عن دار الطالبات لتغيبها في الليل فطيبت خاطرها، وقلت لها: إننا سوف نذهب عصر اليوم إلى العالم وفي غد يعقد زواجنا بشكل رسمي وتنتهي بذلك متاعبنا، فهزت رأسها بشيء من الريب وقالت: لا أحسب أن الموضوع ينتهي اليوم يا فؤاد.

قلت: أرجو أن ينتهي وسوف أستعجله قدر جهدي، فقالت لي شبه مؤنبة:

كلا، أرجوك أن لا تفعل وأن لا تنسى أن حاجتك مهما كانت مستعجلة لا تخوله الحق بالتهاون في مسؤوليته يا فؤاد.

نعم إنك على حق، وعلى كل حال سوف نرى، قالت:

نعم سوف ترى، قلت:

إنني سوف أمر عليك قبل الساعة الخامسة لنكون هناك في تمام الساعة الخامسة فكوني على استعداد.

□□

وذهبت إليها عصراً فوجدتها تقف أمام الباب وقد ارتسم على وجهها شيء من الشحوب، وعندما أخذت يده وجدتها باردة كالثلج فرابني منها ذلك وقلت: ماذا بك يا حبيبتي؟ فابتسمت وقالت:

لا شيء، قلت:

أرجوك أن تخبريني بما لديك، فأنت لست على ما يرام، فعادت لتقول بشيء من الإصرار: لا شيء، نعم لا شيء، فنظرت إلى عينيها الصافيتين المشعتين بالنقاء والسناء، بتحمل ألم أو سقم، قالت:

نعم إنك أنت روحي المنفصلة عني ولكنني لا أشكو شيئاً، قلت:

ولكن عينيك وشحوب وجهك يخالفان ما يقوله لسانك، قالت:

أرجوك أن لا تعرضنا للتأخير هيا بنا لنذهب قبل أن يسبقنا الوقت، فلم يسعني سوى أن أسير معها والأفكار تتقاذفني يمنة ويسرة وكان أخشى ما أخشاه أن تكون سندس قد استملت رسالة تهديد على غرار رسالتي، وكنت أحاول خلال الطريق أن أتحدث إليها بكل ما من حقه أن يريحها، وفعلا فقد اندمجت معي إلى حد ما وتظاهرت بالمرح والانطلاق، ولكنني عندما نظرت إلى عينيها وجدت أن مسحة الألم ما زالت منطبعة على صفحة تلك العين الخضراء وطرقنا الباب ففتحت لنا على الفور وذهبنا إلى الغرفة حيث كان يجلس العالم الديني وكنا في هذه المرة نستشعر في تحركاتنا بشيء من الحرية افتقدناها في المرة السابقة، واستقبلنا العالم الديني بالترحاب المصحوب بشيء من التحفظ، وبعد أن استقر بنا الجلوس طلبت منه أن يبدأ بالحديث وقلت بشيء من الخجل بأننا نود لو اسرعنا بالعودة لأن تأخرنا البارحة قد سبب لنا بعض المتاعب، فأظهر الأستاذ شيئاً من الاهتمام ثم قال:

إني آسف إذا كان حديثي أمس سبباً في تأخيركما فأجبته بلهجة صادقة قائلاً:

كلا، كلا، كنا مرتاحين ولهذا فقد غفلنا عن الوقت وعلى كل حال فإن ما حدث ليس بمهم، فابتسم وقال:

لولا التعب ما عرف الإنسان معنى الراحة يا ولدي، ولولا الشدة لما ميزنا نعمة الرخاء أليس كذلك؟ قلت:

نعم لعله كذلك، قال: أنت تقول لعله وكأنك غير واثق مما تقول ولكن ألم يصدف لك أن شربت كأساً من الماء بعد ساعات تعب وعطش طويلة، ثم وفي

مرة أخرى تشرب نفس الماء ومن نفس الكأس ولكن بعد دقائق قصار من شرب كأس روية فهل وجدت الفرق بين الكأسين لذة وطعما، وثمنا وقيمة، ثم ألم تسر في الشمس مسافة طويلة وأنت تبحث لك عن ظل تستظل فيه من وهجها المحرق، ثم وأخيراً تجد ذلك الظل المنشود فتلوذ به وتركن إليه، فهل أن هذا الظل يعني لديك نفس ما يعنيه الظل المستمر الذي تعيشه في بيتك، وكذلك عندما يعرض الإنسان فيقعده المرض عن الحركة ويحرمه من ملاذ الحياة ثم يقدر له أن يشفى، فهو ومما لا ريب فيه سوف يكون سعيداً بصحته أكثر مما كان سعيداً بها قبل مرضه، إنه وبعد أن يشفى سوف يعرف أن الصحة كنز لا مثيل له فيبدأ بالحفاظ على ذلك الكنز وبالفرحة لتملكه، كنت أستمع إليه وأتصور كل دور من الأدوار التي كان يتحدث عنها فأجدها مطابقة لواقع أحاسيسنا فقلت له مقتنعاً: تماماً كما تقول، قال: ولهذا نجد أن بعض المتاعب بل بعض المحن تكون من صالحنا نحن البشر وإن من نعم الله علينا أن خلق في نفوسنا الإحساس بالألم والتعب والسقم والحمد لله، وهنا لم يسعني إلا أن أردد معه قائلاً بإخلاص:

الحمد لله، قال: والآن فلنعد لكي نبدأ من حيث انتهينا بالأمس، قلت:

نعم فكلنا آذان صاغية، قال: لقد سبق أن عرفنا حاجة الإنسان إلى الدين، وعرفنا أوصاف الدين الذي هو صالح للإنسان في كل مجال من مجالات الحياة وكيف أنه ينبغي أن يكون منسجماً مع الفطرة، وملائماً للعقل، ومحتوياً على القيم التي تنشىء الإنسان الصالح وتمكنه من تقديم المثل الأعلى، أي وسيلة الإيضاح، ثم قلنا أيضاً أن الإسلام هو الدين الذي يتكفل بكل هذا وإن أطروحته التي أملاها الله تبارك وتعالى عن طريق النبوة تحتوي في مضمونها على كل متطلبات النفس الإنسانية مع انسجام كامل لمطاليبها، فالإيمان بالغيب مثلاً، وهو مما يدعو إليه الدين ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ هذا الإيمان بالغيب نجده منسجماً تمام الإنسجام مع الفطرة الإنسانية، فالإنسان وأي إنسان على اختلاف ميوله وأفكاره ومعتقداته

يشعر دائماً وأبداً بأن هناك قوة خارج حدود ما يسمع ويرى، وهو وبدون أن يقصد يركن إلى هذا الشعور ويطمئن إليه ويلوذ به عند الشدائد والمحن، ومثله ذلك المسافر الذي يركب طائرة تحلق به على ارتفاع عال جداً ثم وفجأة يعلن الطيار عن عطب قد أصاب الطائرة وأنه عجز عن إصلاحها ولهذا فهي مهددة بالسقوط بين لحظة ولحظة، وعلى الركاب أن يستعدوا لشد أحزمة النجاة، ومحاولة الهبوط من باب الطوارىء، عند ذلك يتوجه كل إلى ما يتمكن عليه من محاولة أساليب النجاة، أما الراكب الذي يعجز عن ذلك ولا يتمكن من القيام بأية محاولة فماذا عسى أن يصنع وهو يجد الموت منه قاب قوسين أو أدنى؟ أتراه سوف يستسلم وييأس! كلا، إنه سوف يبقى يأمل بالنجاة وينتظرها ولكن من أين؟ وعن أي طريق وجميع الطرق مغلقة أمامه؟ أنه سوف يشعر بالحاجة إلى الإيمان بالغيب وبضرورة وجود قوة عليا هي فوق قوى العلم والتكنولوجيا، ولذا فهو سوف يبقى ينتظر حدوث معجزة عن طريق الغيب حتى اللحظة الأخيرة، ومثل آخر عن حاجة الإنسان للإيمان بالغيب هو تلك الأم التي تحمل بيدها طفلها المريض بعد أن عجز الطب عن علاجه ولكنها لا تبرح تتابع أنفاسه وتنتظر له طريقاً للشفاء، نعم طريقاً لا تتمكن أن تعرف مصدره لأن الطرق التي تعرفها قد سدت أمامها ولكنها ما زالت تتلفت وتنتظر أن يوجد ما يفتح أمامها طريقاً جديداً تحت تأثير قوة تفوق هذه القوى العاجزة، هذا هو مصداق الحاجة الكاملة للإيمان بالغيب، وانسجام الإنسان بالغيب مع الفطرة الإنسانية، ثم ربان السفينة الذي يضل طريقه بين أمواج البحر المتلاطم ويفتقد كل مؤشر للطريق، هذا الربان التائه ما الذي سوف يستشعره في ذلك الموقف العصيب؟ لا شيء سوى الحاجة إلى هداية من جهة عليا هي فوق إمكانياته الخاصة وخارج حدود المعالم والمؤشرات، أو ليس في هذا دليل على حاجة الإنسان للإيمان بالغيب وانسجام هذا الإيمان مع طبيعة فطرته الإنسانية؟ كما جاء في معجم (لاروس) للقرن العشرين «إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات

العالمية الخالدة للإنسانية» وهذا فنحن نجد أن هذه النزعة، نزعة الرغبة إلى الإيمان بالغيب موجودة حتى عند الأطفال، فهذا الطفل الذي يبقى يتسائل عن الأسباب وعن أسباب هذه الأسباب، إنه في تساؤله هذا يبحث عن مصدر أعلى يستشعره بفطرته البدائية دون أن يتمكن من التعبير عن ذلك الشعور، وما ذلك المصدر الأعلى الذي يسعى للتوصل إليه سوى الغيب، وبهذا نجد أن فكرة الإيمان بالغيب التي هي ضرورة من ضرورات الدين تنسجم تمام الانسجام مع فطرة الإنسان وهذا الإيمان بالغيب الذي هو غريزة فطرية لدى الإنسان ليس إلا صورة عن الإيمان بالله، وضرورة هذا يقتضي ضرورة ذلك مع اختلاف وضوح الصورة وشحوبها، ثم ومن أمثلة انسجام نظريات هذا الدين مع الفطرة هو وحدة هذا الكون واتحاده وارتباطه، وهنا نظرت إلى ساعتي خشية أن يسبقنا الوقت وحينما وجدت أن لدينا قليلاً منه سألته قائلاً:

ما الذي تعنيه يا أستاذ في فكرة الاتحاد والارتباط في الكون، قال:

أن الحديث عن ذلك قد يطول يا ولدي ويبدو أنك تتعجل العودة ولهذا فمن الممكن تأجيله إلى جلسة قادمة، فنظرت إلى سندس أسألها رأيها في التأجيل، فقالت:

نعم إن ذلك هو الأصلح لكي لا نقع بما وقعنا فيه أمس سيما بعد أن. وسكتت، فقلت لها:

بعد أن ماذا؟ قالت:

لا شيء وليس هذا وقت الحديث ولكن حاول أن تأخذ منه موعداً على أن لا يكون قبل يوم الأربعاء لأنني سوف أكون خلال هذه الأيام مشغولة بالامتحان، قلت لها:

إن اليوم الأحد وهذا يعني أن يكون الموعد بعد ثلاثة أيام، قالت:

نعم وهو كذلك، فاستدرت نحو الأستاذ وطلبت منه ذلك فقال:

يؤسفني أن لا أتمكن من إعطاء موعد لكما في يوم الأربعاء لأن لدي مواعيد مسبقة وساعات فراغي فيه محجوزة!، قلت:

إذن في يوم الخميس، فابتسم بلطف وقال:

وكذلك الخميس والجمعة يا ولدي فإنه عطلة آخر الأسبوع بالنسبة لنا وعلينا أن نتفرغ فيه لقضاء حوائج المؤمنين ورد أسئلتهم وحل مشاكلهم ولهذا فإن موعدنا سوف يكون عصر يوم السبت الساعة الرابعة من بعد الظهر، فتصورت كل هذه الأيام وهي تمر دون أن نحصل على النتيجة المطلوبة فشق علي ذلك ولهذا قلت له مستعطفاً:

ولكن ألا يمكنك أن تتفرغ لنا ولو ساعة أو ساعتين؟ قال: بودي لو كنت أتمكن من ذلك ولكن ما دامت أوقاتي مشغولة بين دروس وعمل خلال هذهِ الأيام فكيف يسعني أن أحدد لكما موعداً فيها؟ قلت:

ألا يمكن تأجيل بعض الدروس؟ فابتسم من جديد وقال:

أراك قد اقتنعت قبل قليل أن وجود الامتحان سبباً كافيا للتأجيل لأهميته بالنسبة لها، فلماذا لا تقتنع أن الدروس التي لدي مهمة عندي بشكل يوجب التفرغ لها؟

فافحمني جوابه وأخجلني في الوقت نفسه فسكت برهة وأنا لا أعرف كيف أجيب ثم قلت متلعثماً:

الحقيقة أنني لم أكن أخمن أنك ما زلت مشغول في الدراسة، قال:

ولكن كلمة الدروس هي أعم من الدراسة والتدريس ثم إن العلم بحر لا يمكن النفاذ إلى أعماقه إلا بعد جهد متواصل وطويل، وقد يواكب ذلك الجهد عمر الإنسان كله، لأنه كلما انفتح له باب من العلم تطلع إلى أبواب وأبواب، قلت:

آه وهل أنتم أيضاً كذلك؟ فضحك ضحكة قصيرة ثم قال:

وهل نحن فئة خاصة تختلف عن الآخرين يا ولدي؟ إن أحدنا كأي باحث من الباحثين يبحث في علوم الدين وما يدور حول تلك العلوم وما يمت إليها بصلة أو يؤثر عليها من قريب أو بعيد، ثم يبقى دائباً في بحثه وتنقيبه يفتش عن

الفكرة البناءة والرأي العملاق مهما طال به العمر، قلت: إذن فأنكم لا تكتفون بدراسة الحلال والحرام فقط؟ قال:

إن معرفة الحلال والحرام هي الجوهر الرئيسي في دراستنا ولكن هذه المعرفة بمفهومها الصحيح وبأبعادها الحقيقة تتطلب معرفة العديد من العلوم الأخرى قلت:

أرجو أن أعرف ماذا تعني من مفهوم الحلال والحرام الحقيقي وأبعاده الصحيحة؟ قال:

إن معرفة الحلال والحرام تتطلب أولاً معرفة العديد من العلوم التي تؤدي إلى صحة تلك المعرفة مثل علم المنطق، وعلم الأصول، وعلم الكلام، وعلم الحديث هذا بالإضافة الى التمكن من معرفة أسباب التحريم والتحليل ومصادرهما وغاياتهما لأن المعرفة المجردة لا تكفي للعطاء الموجه ولهذا فإن على كل من يجعل نفسه في مصاف الهادين أن يعرف مسبقاً أسباب الهداية وحقيقة الهدى والهداة ومن ثم يعرف الله عز وجل الذي هو مصدر الهداية في الوجود ومعرفة كل هذا ليس بالشيء السهل اليسير فهو يتطلب الكثير من الجهد والعناء ويتطلب الطويل من البحث والإستقصاء، قلت:

ولكنني لم أكن أتصور هذا يا أستاذ فقد كنت أحسب أن العالم الديني هو أخف الناس مؤونة وأنعمهم عيشاً وأقلهم مسؤولية، فأبتسم الأستاذ إبتسامة جريحة وقال:

وهذا مما يؤسف له يا ولدي لأن التصور كفيل بإيجاد هوة بين العالم الديني والشاب المثقف، بينما نجد أن كلاً منهما محتاج للثاني في سبيل إكمال رسالته في الحياة، ولعل المستقبل يكشف لك ما تجهله من هذا الباب؟ قلت:

نعم أرجو ذلك من صميم قلبي، قال الأستاذ:

ومن أجل أن لا نخسر الإستفادة من هذه الأيام إليكما هذا الكتاب لتقرآ فيه.

ثم قدم لنا كتاب - الدين - لمحمد عبد الله دراز وكتاب - نشأة الدين - لعلي النشار.

□□

مرت الأيام بطيئة وثقيلة ونحن بين اللهفة لأن نسمع عن الأستاذ من جديد، وبين الخوف أن يسبقنا الوقت قبل تكامل خطتنا بالشكل المطلوب وحاولنا خلال تلك الأيام أن نقرأ الكتاب الذي أعطاه الأستاذ لنا وفي اليوم الذي يسبق موعدنا مع الأستاذ إستلمت رسالة تهديد جديدة من باسم وكانت عبارتها أقسى من الرسالة الأولى، ولا أنكر بأنها أرقتني في ليلتي تلك وخشيت أن تكون لها عواقب وخيمة حقيقية، وفي الصباح وعندما لقيت سندس في الجامعة جبنت عن أخبارها بأمر الرسالة خشية أن يقلقها ذلك كما أقلقتني سيما وقد وجدتها متلهفة إلى موعدنا عصر ذلك اليوم، وقد عادت إلى وضعها الطبيعي من الناحية النفسية فخمنت أن كآبتها السابقة كانت وليدة حالة طارئة وليس ولها أي إرتباط مع تهديد باسم، إذن لماذا أثير أمامها ما يكدرها ولماذا ألون أفكارها بهذه الظلال القاتمة، وحان العصر فذهبنا إلى بيت الأستاذ، ولكن فوجئنا إذ وجدناه منحرف الصحة طريح الفراش، فجلسنا دقائق ثم رأينا أن علينا أن ننصرف لكي لا نثقل عليه ولكنه أبى علينا ذلك وقال: أنه على إستعداد للحديث، فقلت له: بأننا لا نرضى أن تكون فائدتنا على حساب صحته، فابتسم قائلاً:

إن صحتي هي من أجل فائدتكم يا ولدي، قال هذا ثم إعتدل في جلسته وبدأ بالحديث قائلاً:

لقد إنتهى بنا الحديث في جلستنا السابقة إلى ذكر ترابط الموجودات ووحدتها وشعور الإنسان تجاه إحساسه بهذا الترابط وبهذه الوحدة، فاعلما يا ولدي أن الإنسان عندما يحس أنه جزء لا يتجزأ من هذا الوجود الرحب، نعم جزء قد شد إلى الأجزاء الباقية إليه، هذا الشعور، شعوره بالانسجام الكامل مع ما حوله يجعله يستشعر السعادة نتيجة إحساسه بأنه مسنود من قوة هائلة هيأت له كل هذه الأسباب وشدته إلى جميع هذه الموجودات كما شدّ الجميع هذه الموجودات إليه، ولهذا فهو لن يشعر بالغربة ولن يحس الضيعة والوحدة ما دام قد عرف حقيقة وأسباب الاتحاد في المخلوقات التي حوله، وعلى العكس منه ذلك الذي لا يعلم لماذا جاء؟ ولماذا هو موجود؟ وما هي أبعاد علاقته مع هذا الوجود الواسع الذي لا يكاد يساوي هو ذرة من ذراته، أنه

عندما يعلم مثلاً أن هذه الشمس الهائلة بكل ما فيها من عظمة وشموخ إنما هي مسخرة للحفاظ على مصلحته، وهو عندما يعرف أن هذا الثبات الدائم في مستوى حرارتها البالغ (اثني عشر ألف درجة فهر نهايت) إنما كان من أجل الحفاظ على الحياة التي يحياها هو وسط هذا الكوكب الحي، وهو عندما يجد أن هذا البعد الذي يفصل أرضه عن الشمس والذي يقدر بما يقرب من (٩٣،٠٠٠،٠٠٠) ميلاً، لم ولن يدخل عليه أي زيادة أو نقصان حرصاً على سلامة حياة كرته الأرضية التي يعيش عليها لأنه لو نقص هذا البعد بمقدار النصف لاحترق جميع ما على هذه الأرض من شجر أو مدر، ولو تصاعد هذا الفاصل الذي بين الشمس والأرض فصار ضعف ما عليه الآن كانت البرودة التي تنتج عن ذلك كفيلة بالقضاء على الحياة في الأرض، أنه حينما يجد أن هذه الأرض التي تدور حول محورها مرة في كل أربع وعشرين ساعة، إن دورتها العظيمة هذه إنما صممت خصيصاً بشكل يمكنه من الحياة، لأنه لو فرض أن هذه السرعة كانت قد انخفضت إلى مائتي ميل في الساعة لكان معنى ذلك هو أن يطول الليل ويطول النهار عشر مرات بالنسبة لما هو عليه الآن، فما الذي كان ينتج عن ذلك؟

الناتج هو أن تحرق حرارة الشمس كل شيء فوق سطح الأرض، حتى ولو يبقى شيء لم يحترق فإن برودة الليل الطويلة كفيلة بالقضاء عليه إذن فإن توقيت حركة الأرض وتحديد زمان دورتها ما نظم بهذا الشكل إلا من أجل الإنسان، فما هو شعور الإنسان تجاه معرفته لجميع مقدمات الحياة الجبارة التي وضعت من أجله؟

ثم، البحار، هذه البحار التي تملأ ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، لو حدث وكانت أعمق مما هي عليه الآن ولو بضعة أقدام فماذا كان سيحدث؟

لأُنجذب ثاني أوكسيد الكاربون والأوكسجين نتيجة إمتصاص الماء لهما، وماذا يعني إنجذاب ثاني أوكسيد الكربون والأوكسجين؟

أنه يعني الإختناق للإنسان والحيوان، إذن فإن هذه البحار الجبارة حدد عمقها من أجله وهو ومن أجل سلامة وجوده في الحياة، ثم هذه الأرض التي

يعيش عليها الإنسان ولا يكاد يحس بها سوى أنها أرض حجرية أو ترابية صلبة ولكنه عندما يدرس أبعادها ويتابع خطوطها الجغرافية يأخذه العجب لسعتها وقوة تحملها لما يرسو عليها من جبال شامخات وهضاب راكنات ولصمودها أمام جميع ما إمتلأت به رقعتها من ماء البحار والأنهار، ثم ماذا؟ لا شيء سوى أن ينصرف عن هذا التفكير إلى سواه وقد إمتلأت نفسه بالهيبة والاعظام، فكيف به إذا علم أن هذه الأرض التي بهرته بعظمتها وصمود قشرتها قد صممت قشرتها خصيصا بشكل يلائم مصلحته هو، فهو محتاج إلى نسبة معينة من الأوكسجين الموجود في الهواء فلو كانت قشرة الأرض أكثر سمكا بمقدار عشرة أقدام مثلاً لانعدام الأوكسجين من الهواء إذ أن القشرة الأرضية كانت ستمتصه كله، ومثلاً آخر، عندما يرفع الإنسان رأسه إلى أعلى ماذا سوف يرى؟

لا شيء سوى الغلاف الهوائي الذي يحيط الارض فتسحره الزرقة الهادئة التي يعكسها هذا الغلاف في النهار وتبهره الروعة المنيرة التي تبرز من خلاله الكواكب في الليل فكيف به لو علم أن كثافة هذا الغلاف الهوائي حُدّدت طبقاً لمصلحته هو كأنسان يراد له أن يعيش فلو كان الغلاف الهوائي للأرض ألطف مما هو عليه الآن لأحرقت النيازك كل يوم غلاف الأرض الخارجي، ولسقطت على مختلف بقاع الأرض وأحرقتها لأن هذه النيازك تواصل رحلتها بسرعة أربعين ميلا في الثانية ولهذا ومن نتائج هذه السرعة الهائلة سوف يحترق كل شيء يمكن إحراقه على الأرض حتى تصبح الأرض هشيما في وقت ليس ببعيد... والهواء ونسب أجزاء الهواء المحددة التي لا تختلف بأي حال من الأحوال لو علم الإنسان أن هذه الأجزاء إنما وزعت بهذه النسب الثابتة من أجله وهو ومن أجل البقاء عليه وكذلك لو نظر إلى هذا القمر المنير في عليائه وعرف أن بعده وقربه إنما جاء لمصلحة الإنسان، لمصلحته هو فإن بعد القمر عن الأرض يبلغ حوالي (٢٤٠) ألف ميل وهذا هو الحد المناسب للإبقاء على الحياة الطبيعية فوق الكرة الأرضية وذلك لما يعرف من تأثيره على حركة المد في الماء ولكن لو فرضنا أن هذا البعد كان بمقدار (٥٠) ألف ميل مثلا تصاعدت نسبة المد، تصاعداً هائلاً بشكل يغمر فيه الماء الدنيا كلها،

والهواء، وما تحمله النسب التي فيه من أوكسجين، ونيتروجين، وثاني أوكسيد الكاربون، ما تحمله هذه النسب الدقيقة من مصلحة لاستمرار حياة الإنسان بشكل لو زادت فيه أو قلت لتعذرت الحياة، وشيء آخر يقدمه الهواء للإنسان ألا وهو هذا النور المنتشر في الكون نور الشمس المشرق الذي يغمرنا منذ الصباح حتى المساء وهذه الزرقة الساحرة التي نلاحظها في أعالي الجو فلولا الهواء أو لولا جزيئات الهواء لرأينا الشمس كالقرص الأبيض في صحيفة سوداء لا أكثر ولا أقل، ولكن إشعاع الشمس حينما يصطدم مع جزيئات الهواء تبعثره هذه الجزيئات وتشتته في الكون فينتشر على هذا الشكل الذي نراه. ثم كان من حكمة الخالق أن يكون للشمس موجات مختلفة الألوان وإن يكون اللون الأزرق منها أقصر موجة من الألوان الأخرى، إذن فهو أكثر تشتتا بالهواء من الألوان الأخرى، ومن أجل هذا ظهرت السماء لنا نهارا وفي الصحو زرقاء تبعث في النفس الراحة والإطمئنان، . .

لو علم الإنسان هذا وعلم غير هذا مما أعد خصيصا لاستقباله وصيانة وجوده لعرف أنه جزء لا يتجزأ من هذا الكون الرحيب. . . عند هذا سكت الأستاذ وكأنه يريد أن يرتاح قليلا بعد أن ظهر عليه التعب، وعز علينا سكوته لأننا كنا نتابع ما يقول من حقائق طالما عرفناها من قبل معرفة باهتة وقد أبرزها لنا داخل إطار جديد جذاب ولم تمض دقائق حتى عاد يتحدث من جديد قائلا :

والآن، ألا ترون مدى إنسجام هذا الواقع مع فطرة الإنسان الإجتماعية التي تأبى له الإنعزال ثم، أن إيجاد هذه الغرائز في نفس الإنسان، (غريزة الإيمان بالغيب وغريزة النظرة الوحدوية) هذه الغرائز لم توجد بدون هدف فهما بوجودهما يشكلان السبب الرئيس الذي يقود الإنسان إلى تتبع الحقائق وإستقصاء الواقع، فهذه الغريزة التي تدعو إلى الإيمان بالغيب تفرض على الإنسان التطلع إلى أسرار الغيب ومعرفة ما وراء الغيب، وهذه الغريزة التي تفرض على الإنسان الرغبة في الشعور الوحدوي وتدعوه إلى نبذ مشاعر العزلة هذه الغريزة تجره لأن يعرف إرتباطه مع الكون بكل أبعاد ذلك الإرتباط، وبما

أن جميع ما في الكون قد وضع لأجله أليس من حقه أن يعرف الواضع والسبب في ذلك لكي يذكر فيشكر؟ ثم أنها تدفعه بالضمن إلى تتبع أبعاد هذا الاتحاد والتضامن، ودراسة النظم التي قامت عليه تلك الأبعاد، ثم إنه أيضاً عندما يتعرف على دقة تلك النظم وانسجامها، وترابطها يقف ليتساءل:

إذن فما دام أن لكل شيء نظاماً، وما دام هذا الوجود الرحب بما فيه من ذرة صغيرة إلى نجمة كبيرة يخضع لنظام دقيق لا يتحول ولا يتبدل وما دام الإنسان هو أفضل المخلوقات وأجدرها بالوصول إلى رحلة الكمال فهل من المعقول أن يترك الإنسان هو وحده دون جميع هذه المخلوقات بدون نظام؟ هل يمكن أن تنظم حياة النملة والنحلة ولا تنظم حياة الإنسان؟ وعندما يصل في أفكاره إلى هنا يعود ليتساءل قائلاً:

ولكن ما هو النظام الكامل الصالح لهذا الإنسان؟

والآن هل لي أن أسألكما هل طالعتما الكتاب الذي أعطيتكما إياه؟ فأجبناه بصوت واحد قائلين: نعم لقد استقصيناه كله، قال:

إذن هاكما هذا الكتاب فهو يعطيكما شرحاً واسعاً عما ذكرته لكما الآن، ثم أعطانا كتاباً جديداً وسكت لحظات قال بعدها:

لقد أعطيتكما يا ولدي صورة مختصرة عن هذا الجانب، أما ما سبق أن ذكرته لكما من ضرورة أن يكون الدين الذي يؤخذ به ملائماً للفكر وغير منافر للعقل مهما تقدم به العمل والرقي فإن الإسلام هو الدين الوحيد الذي لا توجد فيه ثغرة واحدة يمكن أن ينفذ منها ما يمكن ادعاء منافرته للعقل، ويمكننا أن نستدل على ذلك بعدة نقاط، وكان صوت الأستاذ قد أخذ يتهدج وقد ضايقته نوبة من السعال لاحظت أنه يحاول التغلب عليها للاسترسال بالحديث فشعرت بعطف بالغ نحوه ونسيت كل ما يدعوني للتعجل في إنهاء الموضوع، فبادرته قائلاً:

أرجوك أن ترتاح يا أستاذ، إن التعب يبدو واضحاً عليك، نحن على استعداد لأن ننتظر بضعة أيام حتى تشفى فابتسم بلطف وقال:

ولكنك كنت تتعجل الأمر قبل أيام؟ قلت:

نعم أنني أرغب في التعجيل ولكن ليس على حساب صحتك يا أستاذ، قال:

ولكن دور الانفلونزا كما تعلم غير محدد الأبعاد فكيف يمكنني أن أحدد لكما موعداً قادماً يا ترى؟ قلت:

إنني سوف أمر عليك للإطمئنان على صحتك بعد يومين أو ثلاثة، قال:

إذن سوف نحدد الموعد حسب وضعي الصحي بعد ثلاثة أيام إن شاء الله ويمكنكما خلال هذ المدة مطالعة هذا الكتاب ثم قدم لنا كتاباً باسم- قضية الالوهية - لعبد الكريم الخطيب.

□□

عدت إلى البيت مبكراً لأن سندس كانت على موعد مع إحدى صديقاتها للذهاب إلى الخياطة وقد حاولت أن أستغل ساعات فراغي في مطالعة الكتاب، والحقيقة أنني انسجمت مع الكتاب واندمجت مع ما فيه بجميع مشاعري وأخذت أسجل في مسجلتي الصغيرة بعض الحقائق التي استفدتها منه. . لكن وحوالي الساعة العاشرة مساء رن جرس الباب فاستغربت ذلك ولم يكن لدي موعد مسبق مع أي صديق أما الصديقات فقد كنت قطعت علاقتي معهن بشكل نهائي منذ عرفت سندس، وخمنت أنه صديق متطفل، فعز على أن يقطع سلسلة أفكاري فذهبت لكي أفتح الباب وأنا أحمل معي مسجلتي الصغيرة وكتابي ليعرف القادم أن لدي ما يشغلني عنه، وما إن فتحت الباب حتى طالعني وجه فتاة في مقتبل الشباب تراجعت خطوات عندما رأتني وكأنها فوجئت من رؤيتي ثم قالت بصوت متهدج:

آه أراني قد أخطأت الباب في هذه المرة أيضاً، قلت لها:

أي باب كنت تطلبين؟ قالت وهي ترتجف:

إنني غريبة عن هذا البلد وقد وصلت لتوي إليه ولديَّ بعض الأقارب فيه وقد أعطوني العنوان مغايراً على ما يبدو فإن بابك هو آخر باب طرقته في هذا الشارع دون أن أحصل على من أريد، قالت هذا وقد انطبعت على وجهها

علامات الذعر الشديد فآلمني حالها وودت مساعدتها بشكل من الأشكال فقلت لها:

أعطيني العنوان لكي أفتش أنا عنهم، قالت:

إنهم أعطوني إسم نفس هذا الشارع مع رقم الدار التي أمام دارك ولم أجد في تلك الدار سوى عائلة غريبة، فاستغربت الأمر وقلت:

ألا تعرفين أحداً سواهم هنا لكي آخذك إليهم؟ فانخرطت في البكاء وهي تقول:

كلا فقد أتيت بمهمة خاصة تتعلق بهم، ولا أنكر أن الموقف كان محيراً بالنسبة لي ولهذا فقد بقيت ساكناً لا أعرف ماذا علي أن أقول، فقالت وهي تبكي:

يبدو أن علي أن أبقى أتجول في الشوارع حتى الصباح؟ وهنا نظرت إليها في تمعن فوجدتها جميلة وصغيرة، فعز علي أن أدعها لرحمة الليل ووحوشه، ومن ناحية ثانية فقد صعب علي أن أدخلها البيت وليس فيه أحد سواي، فترددت برهة ثم خطر لي خاطر فقلت لها:

إنني وحيد في هذا البيت ولهذا فلا يسعني إلا أن أدعوك للدخول والمبيت فيه على أن أخرج أنا عنه حتى الصباح، فظهرت عليها بعض علامات الهدوء ثم قالت:

ولكن أين سوف تذهب أنت؟ قلت: !

لا عليك، إنني رجل ويسعني أن أنام حيثما اتفق، قالت:

إن هذا كثير، وكانت طيلة هذه الفترة تقف على عتبة الباب الخارجي وأنا أقف داخل البيت، ولما وجدتها تتمنع عن أمر لا مناص منه خرجت إلى ما وراء الباب محاولاً اقناعها بالدخول وأنا أقول:

هذا الباب مفتوح فادخلي ولن أعود إلى البيت حتى الصباح، وهنا لمح أمامي برق خاطف من بعيد لم أتمكن أن أعرف مصدره فتلفت باحثاً عنه ثم سألتها:

هل لاحظت نوراً قد برق من ورائنا؟ فتلفتت هي بدورها وقالت:

آه نعم لعله ضوء سيارة من بعيد، فلم أحاول أن أبحث عن الموضوع أكثر، فقالت بشيء من الارتباك:

ولكنني أخاف أن أقضي بمفردي هنا قلت:

إذن؟ قالت:

إذن أنا أنام في الصالون وتنام أنت في غرفتك قلت:

كلا بل تنامين أنت في الغرفة وأنام أنا في الصالون، دخلنا البيت وقدتها إلى غرفة منامي وقلت لها وأنا أغلق الباب ورائها:

سوف أنام في الصالة ولن أفتح عليك الباب حتى الصباح فكوني مطمئنة، قالت:

أشكرك يا أخي ويؤسفني أن لا أعرف اسمك، فأجبتها ببرود قائلاً:

لا حاجة لأن تعرفي اسمي أو أعرف اسمك، ثم توجهت إلى الصالون وهناك انتبهت إلى أن المسجلة كانت لا تزال تعمل وتسجل فحمدت الله أن الفتاة لم تلتفت إلى وجودها أو إلى كونها تشتغل وتسجل، وكان الشريط يكاد أن ينتهي فأغلقتها واستسلمت للنوم ولكن فكرة صغيرة أقلقتني وهي أن الهاتف كان في غرفة المنام فماذا لو طلبني أحد؟ ثم عدت فأبعدت هذه الفكرة عن ذهني فليس من المحتمل أن يطلبني أحد في منتصف هذا الليل وهي سوف تغادر الغرفة عند الصباح واستيقظت في الساعة السابعة صباحاً فخرجت من الصالون فوجدتها واقفة أمام باب الغرفة وكأنها تنتظرني ثم قالت:

لست أدري كيف أشكرك وها أنا ذاهبة ولكنني أرجوك أن لا تحدث أحد بأمري لأن ذلك سوف يجلب لي المتاعب، فضحكت في شيء من السخرية ثم قلت:

وكيف لي أن أتحدث عنك وأنا لا أعرف عنك حتى اسمك؟ قالت:

آه نعم أنت لا تعرف اسمي هو فدوى ناجي، قالت بشيء من اللامبالاة:

تشرفنا، وبعدها ودعتني وخرجت، فدخلت غرفتي فوجدت أعقاب سكاير أجنبية ولاحظت صورة سندس تحركت من مكانها فابتسمت وقلت لنفسي:

إن مجرد رؤيتها لهذا الصورة كفيلة ببعث الاطمئنان إلى نفسها وعلمها بأنني لا أعبأ بمثلها مع وجود مثل صاحبة هذه الصورة ثم دخلت الحمام لأغسل فلاحظت أنها قد دخلت الحمام أيضاً لأن باب الحمام كانت مغلقة بأحكام في الوقت الذي لم يكن من عادتي أن أحكم إغلاق الباب لصعوبة فتحه بعد ذلك، واستغربت منها هذا التجوال ولكنني أوعزته إلى الفضول ثم لبست ملابسي وتوجهت نحو الجامعة، وهناك رأيت سندس تقف بمفردها في ناحية من الساحة الأمامية فتوجهت نحوها كعادتي في كل صباح ولكنني فوجئت بأنها ردت علي بشيء من الفتور، وفوجئت أيضاً بأنها تجاهلت يدي التي مددتها إليها والتي طالما احتضنت يدها دقائق طويلة في كل صباح، وحاولت أن أغالب نفسي فسألتها قائلاً:

ماذا بك يا سندس هل أنت مريضة؟ فسكتت لحظة ثم قالت:

مريضة، كلا، إنني لست مريضة، فقلت:

إذن ماذا بك؟ فبقيت ساكتة ولم تجب، فعدت أقول:

هل سهرت البارحة مع المذاكرة فأتعبك السهر؟ وهنا نظرت إلي نظرة طويلة وعميقة وحزينة ثم قالت بصوت مبحوح:

وأنت هل سهرت البارحة للمذاكرة؟ والحقيقة بأنني في تلك اللحظة كنت قد نسيت كل شيء عن ليلة البارحة تلك ولهذا فقد ترددت قليلاً ثم قلت:

كلا لقد نمت حتى الصباح، فابتسمت هي في مرارة وقالت بشيء من التهكم:

لا أشك أن نومتك كانت مريحة جداً، وهنا تذكرت نومتي في الصالون وكيف أنها لم تكن مريحة أبداً وأردت أن أحدثها عن ذلك ولكن وعدي الذي قطعته لفدوى منعني من الحديث، ولهذا فقد تلكأ لساني وأنا أقول:

كلا إنها لم تكن مريحة جداً، فعادت تنظر إلي تلك النظرة العميقة الحزينة ثم قالت:

أتمنى لك نوماً مريحاً أكثر في المستقبل! . قالت هذا، واستدارت متوجهة نحو مدخل الجامعة فمشيت بجانبها وأنا أفكر فيما تعنيه كلماتها ولكنها تجاهلت وجودي حتى دخلنا الصف، وبعد انتهاء الدوام مباشرة طلبت منها موعداً للعصر فقالت أنها مشغولة وتركتني نهباً للحيرة وانصرفت بخطوات متعبة. . .

وفي اليوم الثاني توجهت للجامعة فافتقدت وجود سندس هناك وعرفت أنها لم تداوم في ذلك اليوم فقلقت من أجلها واتصلت بها تليفونياً حال وصولي إلى البيت فردت علي المشرفة فطلبت منها أن أتحدث مع سندس، فذهبت ثم عادت لتقول أنها مشغولة! قلت:

هل هي مريضة؟ قالت:

كلا أنها بخير، ثم أنهت المكالمة، فاستغربت ذلك وصممت أن أمر عليها عصراً وبقيت أعد الساعات بانتظار العصر وأنا بين الحيرة والقلق حتى حان العصر، فذهبت إليها وطلبت من المساعدة أن تستدعيها فذهبت فترة ثم عادت لتقول:

إنها مشغولة! فهالني هذا الجواب وعدت أسألها فقلت لها متوسلاً:

أرجوك أن تعودي إليها لتقولي لها بأنني أريدها لأمر هام ومستعجل فذهبت وبقيت أنتظر على أحر من الجمر ولكنها عادت لتقول:

لقد قالت: إنها مشغولة ولا تستطيع مقابلتك الآن، قلت:

ألا يمكن أن أذهب أنا إليها، قالت بشيء من الحدة:

أنت تذهب إليها؟ أذهب رحمك الله إياك ولا تسبب لنا فضيحة يا شاب، وهنا لم يسعني إلا أن أعود إلى البيت وأنا في أشد حال وأقسى وضع.

□□

كانت ساعات الليل بطيئة ومريرة لم تذق عيناي فيها النوم، وأنّى لي أن

أنام؟ وحبيبتي غاضبة علي دون أن أعرف السبب، وفي الصباح تعجلت الذهاب إلى الجامعة على أمل أن ألقاها هناك وفعلاً فقد وجدتها تقف بين مجموعة من الطالبات وقد علا وجهها المشرق شيئاً من الشحوب فحاولت أن أتقدم نحوها محيياً ولكنني جبنت عن ذلك ما دامت وسط هذه المجموعة وبقيت أتابعها حتى وجدتها تسير بمفردها فأسرعت وراءها وناديتها بصوت متهدج:

سندس، سندس، وكأنها أرادت أن تلتفت ثم عدلت عن الالتفات وأسرعت في خطواتها فلحقت بها ووصلت إليها وأنا أقول:

سندس ماذا بك يا حبيبتي؟ فوقفت ونظرت إلي نفس نظراتها العميقة الحزينة ثم هزت رأسها وقالت:

لا شيء، قلت: هل أنت غاضبة علي؟ فترددت لحظة ثم قالت بمرارة:

نعم، فهالني الأمر، فإنني قد أتصور أي شيء ولكن أن تكون سندس غاضبة علي فهو فوق ما أتصوره وأتحمله ولهذا فقد ارتج علي لحظات ولم أعرف بماذا أجيب، وكانت سندس قد تركتني خلاف هذه اللحظات بعد أن ألقت علي نظرة عتاب عميقة أخرى، فتهاويت على أقرب مقعد، ولا أريد أن أقول بأنني رحت في بكاء حار لأن حالي كان يجل عن البكاء، ثم انتبهت على نفسي بعد فترة فوجدت أن علي أن أعود إلى البيت لأن حالي لم يكن يساعد على دخول المحاضرات، وفعلاً فقد توجهت نحو البيت وهناك رحت أفكر وأفكر دون أن أصل إلى السبب الذي أغضب سندس علي ثم خطر لي أن مبيت فدوى عندي هو الذي أغضبها ولكنني عدت فاستبعدت ذلك لأنها لا تعلم بالموضوع وكيف لها أن تعلم، ثم خطر لها أن أحدثها بالأمر ولكنني تذكرت العهد الذي قطعته لفدوى بالكتمان، ثم إن سندس لم تكن ممن يشك في حبي، ولا ريب أنها كانت ستفاتحني بالأمر مستفسرة قبل أن تعلن ثورتها علي بهذا الشكل، وقضيت ليلتي تلك لم يغمض لي خلالها جفن ولم يهدأ لي فكر، وفي الصباح خرجت من البيت مبكراً وذهبت لأنتظرها عند مدخل الكلية ولكن انتظاري لم يسفر عن شيء لأنها لم تأتِ في ذلك الصباح، ولهذا فقد تركت الجامعة

بدوري وخرجت وأنا لا أعلم ماذا أصنع؟ وإلى أين أتوجه؟ فحرت أتجول في الشوارع على غير هدى وإذا بي أتذكر صاحبنا العالم الديني وإنه منحرف الصحة وتذكرت وعدي له بالمرور عليه فوجدت أن علي أن أذهب إليه، ثم أن قلق روحي في حاجة إلى هدوء نفسه المريح وفعلاً فقد قصدت بيته مسرعاً، وأمام الباب حاولت أن أسبغ على وضعي بعض آثار الهدوء، ثم طرقت الباب ففتحه لي الصبي الصغير الذي فتحه في أول مرة فسألته عن صحة الأستاذ، فقال:

إن صحته أحسن وسألني إذا كنت أحب أن أدخل إليه؟ والحقيقة أنني كنت أحب ذلك فإن الإحساس الذي يشدني إليه كان قوياً جداً سيما وأنا في ساعاتي الحرجة تلك، كان مثلي مثل الغريق الذي تعوزه أسباب النجاة ثم يلمح مناراً هادياً من بعيد فيتوجه نحوه متأرجحاً بين النجاة والغرق، ولهذا فقد طلبت من الصبي أن يقودني إليه، فسار إلى جواري خطوات ثم رفع رأسه نحوي ونظر إلي ببراءة قائلاً:

لماذا جئتما متفرقين في هذه المرة؟ ولم أفهم بالوهلة الأولى ماذا يعنيه ولهذا فقد سألته:

ماذا تعني يا عزيزي؟ قال بشيء من الخجل:

أقصد لماذا لم تأتيا معا كالعادة؟ ففهمت عنه في هذه المرة وأجبته باختصار أنها مريضة يا عزيزي، قال:

مريضة! ولكنها كانت هنا قبل دقائق، فتوقفت عن السير والتفت نحوه في لهفة قائلاً:

كانت هنا قبل دقائق؟ وكأن الصبي فطن إلى أنه قال مالا ينبغي أن يقال فعلا الإحمرار وجهه ولم يرد علي، فحاولت في هذه المرة أن أبدو طبيعياً ثم عدت أسأل:

إذن لقد سبقتني في الزيارة وهل انتظرت كثيراً؟ قال بأسلوب مما يريد أن يختصر الحديث:

إنها لم تدخل، استفسرت عن صحة أبي من عند الباب وذهبت، وحدثت نفسي قائلا إذن فهي قد سبقتني إلى هذه المبادرة، وهي ما زالت مشدودة لهذا الأستاذ كما أنني ما زلت مشدوداً إليه، ودخلت على الأستاذ فوجدته أحسن حالاً وإن كانت آثار الحمى لم تفارقه بعد، وجلس يحدثني بمختلف الأحاديث فارتحت إليه وودت لو تحدثت إليه بمشكلتي ولكن الخجل منعني عن ذلك وكنت أنتظر منه أن يذكر هو شيئاً عن سندس ولكنه لم يتعرض لذكرها ولم أطل البقاء فقد خشيت أن أثقل عليه وهو مريض فاستأذنت منه مع طلب موعد للمجيء، فظهر عليه بعض التردد الممزوج بالاستغراب ثم قال:

الساعة الرابعة من عصر يوم غد إن شاء الله، فشكرته على ذلك وخرجت متوجهاً إلى البيت، ومن هناك اتصلت بدار الطالبات مرتين فلم ترد علي سندس وكنت أريد أن أخبرها الموعد عساها تذهب فنلتقي هناك، ولما يئست من ردها علي اعتراني شعور مرير باليأس وانطلقت مني كلمات غير معينة بالنسبة لي وهي تقول:

ماذا أصنع يا إلهي؟ كيف يمكنني أن أعرف السبب؟ وفجأة قفزت إلى ذهن كلمات الأستاذ وحديثه عن ضرورة الإيمان بالغيب وحاجة الإنسان لذلك الإيمان، فها أنا الذي لم أتذكر من قبل أن لي ربا يُعبد ها أناذا ألوذ به في ساعة العسرة بشكل فطري وعفوي. وكان في استعادة هذه الكلمات ما دفعني لأن أجبر نفسي على العودة لمطالعة الكتاب الذي أعارني إياه الأستاذ على أمل أن أنصرف إليه عن أفكاري وفعلا فقد حاولت أن أقرأ، ولكن وجه سندس الغاضب الحزين كان يتراءى لي من بين الكلمات فيشدني نحوه، ونظرتها العميقة العاتية كانت ترتسم أمام عيني فتحول بيني وبين رؤية أي شيء عداها، كنت أحس بها وقد ملكت زمام وجودي بأجمعه واستحوذت في مشاعري برمتها، ولهذا فقد عز علي أن أقرأ مالا أفهم فأغلقت الكتاب وقد خطر لي أن أكتب بضع كلمات أرسلها لها عند الصباح، وفعلاً فقد أخذت القلم وكتبت وإذا بالبضع كلمات تتكاثر حتى تملأ صفحات وصفحات، وختمت رسالتي بهذين البيتين:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والانام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب

وكأن هذه الكلمات قد حققت لي بعض الراحة لأنني توهمت أنها سوف تكون شفيعتي لديها، وأنها كفيلة بمسح الشوائب التي خالطت فكرها عني، ولهذا فقد تمكنت من نوم متقطع وبكرت في الذهاب إلى الجامعة على أمل أن أوصل رسالتي إليها بأسرع وقت، وفعلا فقد وجدتها تسير وسط مجموعة من الطلبات فأعطيت الرسالة لأحد المساعدين وطلبت منه أن يوصلها لها ولم تمض دقائق حتى عاد المساعد وهو يحمل بيده الرسالة قائلاً:

لقد رفضت أن تستلمها، فعرفت أنها خمنت ان تكون الرسالة مني، والعجيب انني لم أحس تجاهها بأي غيظ فقد كنت أعتقد بأنها معذورة وان لديها ما يدفعها إلى هذا الموقف، وهذا ما كان يحيرني بالأمر، ولم أعدْ ظهر ذلك اليوم الى البيت، فقد كان لدي ما يدعوني إلى البقاء في الكلية، ولهذا فقد توجهت راساً إلى بيت الأستاذ وعندما وصلت إلى هناك وجدت سندس تقف أمام الباب تنتظر الاذن بالدخول، ففهمت من ذلك بأنها قد أخذت موعدا من الاستاذ كما أخذت انا موعدا منه، فتقدمت نحوها محييا فردت بشيء من البرد واللامبالاة ولاحظت أن الهزال والاصفرار قد بدا واضحاً عليها وان هالة زرقاء تحيط بعينيها وتحكي عن الساعات طويلة من السهر فمددت نجوها يدي وأنا أقول:

هل أنت سندس حقاً أم انني في حلم؟ فأطرقت ولم تجب، فاردفت قائلاً: لطيف ان يشدنا حبل واحد نحو هذا البيت، وفي البيت هذا دليل جديد على اتحاد وجودنا، فرفعت رأسها ونظرت الي نفس نظرتها الحزينة العميقة ثم قالت: صحيح ان طبيعة الحبل الذي يشدنا الى هذا البيت واحد ولكن لم يعد في هذا دليل على اتحاد وجودينا يا فؤاد...

فطار لبي لهذه الكلمات الرصينة الحزينة وقلت في صوت جريح: أرجوك أن ترحميني يا سندس فأنا لا أعرف الحياة بدونك ولا أعترف بوجودي منفصلاً

عن وجودك، أنت لي الحياة برمتها، لماذا تقولين هذا وأنت نفسك لا تعترفين به؟ فهزت رأسها بأسف وقالت:

سواء اعترفت أم لم أعترفت فانه هو الواقع الذي يجب أن يعاش، فقلت في توسل؟ لماذا؟ لماذا يا سندس؟ بماذا أسأت اليك يا ترى؟ صارحيني بكل ما لديك يا حبيبتي فأنا لا أكاد أفهم شيئاً يا سندس، وهنا عادت تنظر الي بعمق وحزن ايضاً ثم قالت: انت لا تريد أن تفهم شيئاً يا فؤاد، قلت: كلا بل انني أريد وأقسم لك بأنني على استعداد لأن أسمع منك كل شيء، فهزت رأسها في انكار ثم قالت:

ليس هذا وقت الحديث فإن لدي موعد مع الاستاذ في الساعة الرابعة، قلت: وأنا أيضاً لدي نفس الموعد قالت:

طيب إذن دعنا نتناسى مشاكلنا الشخصية لنتمكن من الاستفادة، قالت هذا وطرقت الباب، وسرعان ما فتح لنا فدخلنا إلى الأستاذ.

□□

وبعد أن استقر بنا الجلوس قال:

أرجو أن تكونا قد استمتعتما بقراءة الكتاب؟ فشعرت بشيء من الخجل لأنني لم أكمل مطالعة الكتاب، ومما أخجلني أكثر هو أن سندس أجابت (ولأول مرة تجيبه بشكل مباشر) ولكن بشيء من الاستحياء قائلة:

أما أنا فقد استمتعت به واستفدت منه كما أنني سجلت بعض ملاحظاتي أو استيضاحاتي عنه وعن الكتاب الأول وقد أتيت بالدفتر معي لتطلع عليه إذا سمحت، قالت هذا وقدمت دفتراً صغيراً على شكل دفتر المذكرات، فظهر الارتياح على الأستاذ وأستلم الدفتر قائلاً:

إن هذه بادرة تبشر بالخير وسوف أطالع الدفتر دقة وعناية إن شاء الله، ثم التفت إلي ينتظر جوابي عما سأل وكأنه قرأ الجواب مرسوماً على صفحة وجهي فلم يشأ أن يحرجني ولهذا انصرف عني بسرعة وقال:

والآن فلنعد إلى الحديث لقد سبق منا القول بأن الدين المطلوب هو الدين

الذي يشتمل على خصائص انسجامه مع الفطرة، وذكرنا لذلك أمثلة استخلصناها من العقيدة الإسلامية كالإيمان بالغيب، والنظرة الوحدوية للكون، ولقد قلنا أيضاً أن من شروط الدين المطلوب هو ملاءمته للعقل لأن الدين هو اختياري لا سبيل للجبرية فيه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ لأنه عقيدة يجب أن ترتكز في الصميم من العقل والقلب، وما لم يكن الدين عقيدة راسخة في الفكر والقلب فهو لا يعدو أن يكون طقوسا وعادات وأسلوباً من أساليب الحياة، إذن فهو اختياري للإنسان ولا يمكن أن يؤخذ عن طريق الجبر، فإن الإجبار قد ينجح في سبيل التطبيق أما في سبيل اليقين والاعتقاد فلا فائدة للإجبار بل إن المطلوب هو الاقتناع واليقين، وعن طريق الاقتناع واليقين، يحصل الاختيار للدين الأصلح ثم وإن حسن الاختيار ومعرفة الأصلح، وسبر أغوار كل حقيقة تعتمد على مدى تكامل الرشد وتصاعد الوعي لدى الإنسان، وتصاعد الوعي، وتكامل الرشد أمران اختياريان للفرد، إذن فإن الدين أمر اختياري يعتمد على العقل وينطلق منه، والإسلام هو دين العقل ولا يوجد في أحكامه وقوانينه ما يخالف قاعدة من قواعد العقل أو يتنافر مع حقيقة من حقائق التصور الصحيح، ولهذا فنحن نجده يتحدث إلى العقل ويدعو إلى التدبر والتفكير ونبذ التقليد في العقيدة والتفكير كما جاء في الآيات المباركة التي تقول:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ وغيرها كثير من الآيات.

هذا هو الإسلام في آياته المباركة يدفع الإنسان إلى التفكير والتعقل ثم يعطي للعقل حريته في الاختيار بعد إيضاح الحجة له وتقديم الدليل..

وبما أن طريق الاقتناع يحتاج إلى وضوح في البيان، ورسوخ وجلاء في البرهان، وحكمة متكاملة الجوانب في الاستدلال فقد جمع الإسلام كل هذا في رسالته التي قدمها للبشرية وهي القرآن، ولهذا فنحن نتمكن أن نقول أن هذا

هو مما اختصت به رسالة الإسلام دون سواها من الرسالات، فإن كل دين في حاجة إلى بيان لطبيعة الرسالة وإلى معجزة تؤكد أو تدعم وجود الرسالة، أما الإسلام فإن بنيان رسالته هو أولى معاجزه وأهمها فقد عجز عن مجاراته أكابر علماء اللغة وافذاذ أصحاب البيان بعد أن تحداهم القرآن وطلب منهم:

أولاً: أن يأتوا بكتاب مثله **(قل لئن اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)**.

ثانياً: ولما عجزوا عن ذلك تحداهم بما هو أقل **(أم يقولون افتراه قل فآتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين)** فلم يتمكنوا من مواجهة أي من هذه التحديات مع أنهم أرباب الفصاحة والبلاغة، وكذلك أن كل دين في حاجة أيضاً إلى رسالة، وإلى برهان يستدل به على الرسالة، والإسلام جمع هذين الأمرين في رسالته التي هي (القرآن) فإن البراهين العلمية سواء منها الإجتماعية، أو الإقتصادية، أو الفلكية، أو ما يتعلق بجسم الإنسان كلها مجموعة ضمن هذه الرسالة فكم من الحقائق العلمية كشف العلم بعضها ولم يكتشف البعض الآخر بعد أن ذكرها القرآن الكريم منذ أكثر من ألف وثلاثمائة سنة على لسان رسول الله أمي لا يعرف الكتابة والقراءة.

وكم من الأفكار الإجتماعية التي دعا إليها الإسلام قبل أكثر من ألف وثلاثمائة سنة قد توصل العلم أخيراً إلى ضرورة تطبيقها مثل إعلان حقوق الإنسان، ومحاربة الرق، ووضع الحلول الإقتصادية التي تحول دون الاحتكار والاستغلال وغير ذلك مما تتمكنان من مراجعته مفصلاً في كتاب - الإنسان في القرآن - للعقاد و - التعصب والتسامح - الغزالي. إذن. فإن رسالة الإسلام قائمة بذاتها وهي تدل بنفسها على نفسها ويكون استقلالها هذا مستنداً على أسس قوية يرضاها العقل وتنسجم مع واقع طبيعة الإنسان لأنه ومن خلال نظمه يحفظ للإنسان كرامته وحريته في حسن الاختيار، فلا يكبل أفكاره بخيوط من الجهل ولا يخدر أحاسيسه بحبوب من الشعور بالخطيئة والذنب والصغار، ولا يملي عليه أطروحته مرتكزة على الجانب العبادي فقط متجاهلاً

حياته ومتطلباتها فيما عدا ذلك، فهو يشمل بالتشريع مختلف النواحي ولا يهمل جانباً دون أن يضع له القواعد الصالحة لكل زمان ولكل فرد من الأفراد ويمكننا أن نقدم على ذلك دليلاً صغيراً مستمداً من أسماء السور القرآنية، فإن سور القرآن التي يبلغ عددها (١١٤) سورة وقد تعددت أسماء بعض السور فكان لها أكثر من أسم واحد ونحن لو راجعنا هذه الأسماء التي لم توضع بدون هدف وغاية وقد وضعها رسول الإسلام بأمر من الله تبارك وتعالى، لو راجعناها لوجدنا أن قسما من أسماء السور تشير إلى الكائنات الطبيعية مثل البقرة، النحل، النمل، العنكبوت، الشمس، النجم، القمر، الدخان، الرعد، الحديد، وغيرها مما تندرج ضمن الموجودات الطبيعية، ثم إن قسماً من أسماء السور أيضاً تشير معانيها إلى المواقف الإجتماعية والسياسية مثل الأحزاب، والمؤمنون والشورى، والنساء، والصف، وهذه الأسماء تدور حول أوضاع وأشكال المجتمع والقسم الثالث من الأسماء هو ما يحمل معه آثاراً تاريخية مثل آل عمران، الأنبياء، يونس، هود، يوسف، ابراهيم، سبأ، محمد، الروم، مريم، نوح، وهذه الأسماء كلها تدور حول التاريخ وأبطاله وإحداثه، والقسم الرابع يشير إلى المصير وما وراء العالم مثل القارعة، والحاقة، والواقعة، أما القسم الخامس فهو ما يشير إلى المسائل الإقتصادية مثل الأنفال والأنعام، والمائدة، أما السادس مثل عبس، والهمزة، والمطففين، فهي تدور حول الأخلاق وقواعد السلوك، والقسم السابع من الأقسام هو ما يدور حول العبادات كالحج، والسجدة، إذن، فنحن نتمكن أن نتوصل إلى هذه النتيجة وهي أن أسماء (٣٢) سورة وضعت للكائنات والموجودات الطبيعية، وأن أسماء (٢٩) سورة وضعت للعقيدة والمبدأ الفكري وأسماء (٢٧) سورة وضع للمجتمع بما فيه من أصناف اجتماعية وسياسية وأسماء (١٧) سورة وضعت للتاريخ وفلسفته وأسماء أربع سور وضعت للأخلاق والسلوك، وأربع أيضاً للقضايا المادية والإقتصادية ثم سورتان فقط خصص أسماها للعبادات والشعائر الدينية، وهذا مما يوضح لنا فكرة الشمول في رسالة الإسلام فهي حينما تريد أن تربط الإنسان بالله لا تربطه

عن طريق العبادة المحددة فقط ولكنها تربطه مع الله عن طريق مختلف أدوار حياته ووجوده حتى تستحيل العبادة من الجهاد في سبيل الله إلى الإبتسامة في وجه الأخ المؤمن، ونتمكن من هذا أيضاً أن نعرف أن هذا أيضاً هو مما يميز الشريعة الإسلامية عن غيرها من الشرائع حيث أنها تجعل من جميع متطلبات الحياة الروحية منها والجسدية، إذا أديت بالشكل الصحيح، عبادة، خلافاً للشرائع التي تجعل العبادة وقفاً على الجسد فقط ولهذا فهي لا تعدو أن تكون طقوساً وعادات تنتهي بمجرد انتهاء أدوارها ولا تخلف أي أثر في حياة الفرد والمجتمع ولا تعنى بتربية الروح من قريب أو بعيد وخلافاً أيضاً للشرائع التي تجعلها من خصائص الروح وعلى حساب الجسد حيث يفرض على الجسد أحكاماً صارمة قاسية من التعذيب والحرمان وفي أحاديث قادمة نوضح ذلك أكثر إن شاء الله. وسكت الأستاذ فسكتنا لسكوته لحظات ثم طلبت منه موعداً جديداً! فقال أنه بعد يومين في تمام الساعة الرابعة من بعد الظهر، فنهضت ونهضت سندس معي وودعنا الأستاذ وخرجنا شاكرين معجبين.

□□

ووقفنا وراء الباب لحظات وكل منا لا يعرف كيف يتصرف، ثم كنت أنا البادىء بالكلام فقلت:

هل تسمحين لي أن أسير معك قليلاً يا سندس؟ فنظرت إلي نظرة طويلة ثم قالت:

كلا! قلت:

ولكن عندي ما أريد أن أقوله لك يا سندس فأنا لا أطيق منك هذا الصدود وأريد أن تصارحيني بكل شيء، لا شك أن هناك ما عكر صفاء روحك يا حبيبة الروح،

قالت:

ولكنني ذاهبة إلى دار الطالبات ولا أتمكن أن أتأخر دقيقة واحدة، قلت:

إذن فاسمحي لي أن أسير معك إلى هناك على الأقل، قالت:

كلا! إنني لن أسمح بذلك يا فؤاد فأنا أتمكن أن أذهب بنفسي إلى هناك كما أنني أتمكن أيضاً أن آتي إلى هنا بمفردي بعد يومين، قلت متوسلاً:

ولكن ما الذي يدفعك للمجيء إذن؟ فرفعت رأسها بشيء من التحدي وقالت:

إنني أصبحت صاحبة قضية في هذا الموضوع وما أنا إلا باحثة عن الحقيقة لحسابي الخاص وإنما هو أنت الذي علي أن أسألك، ما الذي يدفعك للمجيء إذن؟ لأن الحقيقة ينبغي أن تكون واضحة لديك من قبل الآن، قلت:

ولكنها لم تكن واضحة لدي في يوم من الأيام، إنني لم أكن أعرف عن الإسلام أكثر مما تعرفين ولهذا فأنا الآن أريد أن أعرف من أجل المعرفة يا سندس، قالت:

إذن فلنستمر بمتابعة المعرفة من أجل المعرفة، قلت:

ومن أجلي أنا أيضاً يا سندس، قالت:

من أجلك أنت؟ قلت:

نعم أفلا أستحق منك ذلك؟ فسكتت لحظات ثم قالت:

الحقيقة أنك كنت تستحق مني كل ما هو حسن وجميل، قلت:

كنت؟ قالت:

نعم كنت، قلت:

وأي شيء جعلني عندك في خبر كان وأنا ما زلت أعيش فيك ولك خلال كل لحظة من لحظات حياتي، فلم أعد أعرف للحياة معنى بدونك وبدون حبك يا سندس، فصدرت عنها آهة جريحة ولم تجب فأردفت أقول:

وإذا كنت لا تسمحين لي بساعة من وقتك فإليك هذه السطور عسى أن تكون شفيعتي لديك، قلت هذا ومدت يدي نحوها بالرسالة التي كانت لا تزال في جيبي بعد أن رفضت استلامها عند الصباح، فترددت لحظة قلت لها خلالها متوسلاً:

خذيها بالله عليك يا سندس فإنك لن تخسري شيئاً باستلامها، إن من الحيف أن تتسبب فرية صغيرة كل ما بنيناه من صور حب وحنان، فمدت يدها وأخذت الرسالة ثم قالت:

ما معنى الفرية يا فؤاد؟ قلت:

الفرية هي الكلمة الموضوعة أو الخبر المكذوب. قالت:

وإذا حدث ما يؤكدها أو إذا وجد ما يدل على صدقها هل تبقى مجرد فرية أو تتحول إلى حقيقة يا فؤاد؟ قلت:

إن الثقة إذا بلغت أتمها فلا ينبغي أن يوجد ما يزعزعها مهما كان قالت:

ولكن قد يشك الإنسان حتى بنفسه أحياناً، قلت:

عند ذلك عليه أن يكون صريحاً مع نفسه فيحاسبها ويراجعها لكي يتوضح لديه الشك من اليقين فلماذا لا تكوني صريحة معي يا سندس فسكتت برهة ثم قالت:

دعني أفكر أولا، قلت:

شريطة أن تقرئي هذه السطور، فعادت تقول بشيء من الضيق:

سوف أقرأها بعد أن أنتهي من تفكيري في الأمر والآن مع السلامة، قالت هذا وإتجهت نحو بيتها خطوات مثقلة...

أما أنا فقد عدت إلى البيت وأنا أهدأ مما كنت عليه لأنها رضيت أن تأخذ الرسالة أخيراً، ولهذا فقد تمكنت من مطالعة الكتاب الذي أرشدنا إليه الأستاذ ومن مراجعة دروسي أيضاً ثم تذكرت أبياتا شعرية كنت قد نقلتها قبل مدة عن أحد الدواوين على أن أقدمها لسندس وكان مطلعها هو:

رأيتك في يومي وأمسي الذي انقضى ولي حيثما أمضي إليك وصول

فخطر لي أن آخذها معي لأسلمها لها عند الصباح ولكنني إفتقدتها من بين أوراقي ولما فتشت عنها لم أجدها بل إفتقدت خلال التفتيش أيضاً صورة صغيرة لسندس كانت قد أهدتها لي في بداية علاقتنا وصورة صغيرة لي أيضاً،

فاستغربت ضياع هذه الصورة مع أنها كانت محفوظة بين أوراقي المهمة في الجرار الذي إلى جوار سريري وعلى كل حال فقد قضيت ليلتي تلك بين النوم والمطالعة والتفكير وعند الصباح ذهبت إلى الجامعة أنتظر سندس هناك ولكنها لم تحضر لا في ذلك اليوم ولا في اليوم الذي بعده ولم أرها إلا عند باب الأستاذ في عصر اليوم الثالث.

تقدمت نحوها وهي واقفة أمام الباب فحييتها بلهفة مصحوبة مع كلمات حب جمدت على شفتي وأنا أرى جمود ملامحها وأسمع جوابها المقتضب، ثم أردت أن أطرق الباب فقالت:

لقد طرقتها قبلك، قلت:

إذن لماذا لم يفتح لحد الآن قالت:

إنه مفتوح ولكن يبدو أن الأستاذ خارج البيت وقد طلب أن ننتظره حتى يعود، قلت: إذن دعينا ندخل فليس من اللائق وقوفنا هنا، فسكتت لحظة ثم قالت:

نعم ليس أمامنا غير هذا، ففتحت الباب وكنا نعرف الطريق إلى غرفة الأستاذ فتوجهنا إليها، وهناك حاولت إن أنتهز هذه الفرصة لأتحدّث معها بشيء مما أريد ولكنها سبقتني إلى الحديث حيث قالت بنبرة ساخرة مشوبة بالألم:

هلا أخبرتني ماذا رأيت في يومك يا فؤاد وماذا رأيت في أمسك الذي انقضى؟ فاستغربت منها هذا السؤال ولم أفهم عنها شيئاً ولهذا فقد سكت لحظات ثم قلت:

ماذا تعنين بسؤالك هذا يا سندس؟ قالت:

أقصد من الذي رأيت في يومك وفي أمسك؟ قلت:

أتمكن أن أقول بأنني لم أر سواك، وهنا تذكرت الأبيات الشعرية التي ضاعت مني ووددت لو كانت معي، إذن لقدمتها إليها ثم حاولت أن أقرأ لها ما أحفظه منها فقلت:

رأيتك في يومي وأمسي الذي انقضى ... ولي حيثما أمضي إليك وصول
فأنت معي فيما جهدت لنيله ... وأدركني منه ونى وخمول
وأنت معي فيما أحاول في غدي ... ويصبو إليه خاطري ويميل
وأنت معي في كل درب قطعته ... وأنفقت فيه العمر وهو طويل
إذا أخمدت دنياي كل توثب ... وأوشك أن يعرو الشباب خمول
تراءيت لي في كل أمر أخافه ... فأشرق دربٌ وضاء سبيل

وهنا قاطعتني سندس بشيء من النفور قائلة:

كفاية، كفاية أرجوك فإن من المؤسف أن لا تكون هذه أول بادرة شعرية منك يا فؤاد... ومن جديد، لم أفهم عنها ما تريد أن تقول فقلت:

ولكنني لم أتحدث معك بالشعر من قبل! قالت:

نعم أنك لم تتحدث معي أنا بالشعر ولكنك بدأت تتحدث بالشعر مع الآخرين، قلت: وهل لي حديث مع سواك يا سندس وأنت حديث نفسي الوحيد؟ قالت:

يمكن الكتابة أن تعوض عن الحديث أحياناً، فرددت عليها بلهفة قائلاً:

وهل عوضت كتابتي إليك عن الحديث يا سندس؟ فهزت رأسها في أسف وقالت:

لو كانت قبل الآن لأمكنها أن تعوض وتزيد لأنها منمقة إلى أبعد حد ولكن... قلت:

أرجوك لا تقولي أنها كانت منمقة فأنا لم أنمق كلمة منها وإنما هي عصارة روح ونفثات قلب وسفيرة آمال كبار وعذاب، إنني لم أتكلف بتنميق كلمة منها يا سندس ثم لماذا تقولين، لو كانت قبل الآن، ماذا حدث الآن يا ترى؟ لماذا لا تريدين أن تكوني صريحة معي وما اعتدنا على الغموض في عالم العلاقة والحب؟ قالت:

بودي أن أتمكن أن أكون أكثر جرأة على التحدث بالحقائق المرة ولكنني جبانة وعندما أتألم من شيء لا أقوى على ذكره ولهذا فعليك أنت أن تكون صريحاً يا فؤاد، قلت:

أنك أنت التي يجب أن تكشفي لي ما تحسين وما تعانين، قالت:

ولكن ليس من المعقول ألا تكون قد عرفت ما يضنيني يا فؤاد! قلت:

لك أن تعدّينني غبياً أو أي شيء آخر ولكنني لم أفهم على أي حال من الأحوال وأنا على استعداد لأن أقدم حياتي لمن يعرفني بذلك، قالت:

آه إذن أنت لم تخمن حتى الآن، قلت:

كلا ولكنني تصورت قضية معينة سرعان ما استبعدتها فأبعدتها عن ذهني، قالت:

وما هي قضيتك هذه يا فؤاد؟ فأردت أن أذكر لها مبيت فدوى عندي ولكن العهد الذي قطعته لها بالكتمان حال دون ذلك فبقيت ساكتاً لحظات وأنا أعاني صراعاً عنيفاً بين الحديث وعدمه، وإذا بها تقول في صوت حزين:

ها أنت وعدمه، وإذا بها تقول في صوت حزين:

ها أنت لا تجرأ أن تذكر قضيتك يا فؤاد ومن حقك أن لا تجرأ على ذلك وها هو الأستاذ قد وصل، وفعلاً فقد كان الأستاذ يطرق باب الغرفة المفتوح برفق استعداداً للدخول، فنهضت واقفاً لاستقباله وأنا شبه مشلول الحركة والحس وقد صممت أن أحدثها بكل شيء بعد انتهاء المحاضرة فإن قلب سندس أثمن عندي من الوجود بأسره، واعتذر الأستاذ عن تأخره لأمر طارىء ثم جلس وسألنا عن مطالعتنا للكتاب الذي ذكره لنا أخيراً ثم أعاد دفتر سندس إليها بعد أن أجرى على ملاحظاتها بعض التعديلات وأوضح لها بعض الشبهات ثم بدأ يحدثنا قائلاً:

لقد وقفنا في الحديث الماضي عند فكرة الشمول في الرسالة الإسلامية وكيف أنها هي الرسالة الوحيدة التي تشد الفرد بخالقه عن طريق مختلف أدوار حياته الإجتماعية، والإقتصادية، والعاطفية، والسياسية، حيث تصبح جميع تحركاته في الحياة عبادة صغيرها وكبيرها ما دامت جميعها منسجمة مع القانون الإلهي لمسيرة الحياة سواء ما كان منها إيجابياً كإقامة الصلاة وايتاء الزكاة أو سلبياً كاجتناب الظلم والابتعاد عن البغي ونبذ الفواحش ما ظهر منها وما بطن

والتنزه عن النفاق وقول الزور، أما ما كان يستند منها إلى الذهن كالتفكر في خلق السماوات والأرض وسير حقيقة الخليقة إنسانها وحيوانها جمودها ونباتها، أو ما كان روحيا أي ما كان يرتبط بالروح من أعمال كالصيام والاعتكاف حيث يبرز الجانب الروحي وتأثيره في حقل الروح والارتفاع والإحسان، أوما يتعلق منها بتوجيه مشاعر الإنسان وسلوكياته من عقيدة وتفكر وعواطف وتنظيم لشؤون الأسرة وتصحيح أبعاد الروابط التي تربطه مع الكون والحياة، قلت مستغرباً:

وهل أن العبادة تشمل كل هذه الجوانب الواسعة؟ قال: نعم أن شمول نظرة العبادة في الإسلام وسعت كل هذا يا ولدي وأعطت لكل جانب من جوانبه القيم الصحيحة وتكفلت بتقديم القدوة الصالحة ويمكنكما في هذا الخصوص مطالعة كتاب (نظرة عامة في العبادات) أما اليوم فنحن نريد أن نعرف مدى تكفل هذا الدين بطرح القيم التي من حقها أن تكون الإنسان الصالح، وهنا سكت الأستاذ برهة فسألته قائلاً:

ما الذي تعنيه بالضبط من القيم يا أستاذ؟ قال:

القيم هي عبارة عن الأحكام يا ولدي ولهذا فأنا أريد أن أقول أن أحكام الإسلام أحكام بناءة تبني شخصية الفرد وتبني شخصيته على أساس أنه جزء غير متجزء عن المجموعة البشرية أيضاً، فالشريعة الإسلامية حينما تضع له الأحكام تراعي بذلك مصالحه كفرد ومصالحه كواحد ضمن أفراد المجتمع، وبذلك نجد أن التشريع يشكل وحدة موضوعية يتجاوب بعضها مع بعض ويساند كل جانب منها الجوانب الأخرى. . . وهنا قالت سندس: وما هو مثل ذلك يا أستاذ؟ قال:

إن أحد أمثلته هو تحريم الخمر والقمار فإن ذلك يتكفل بالإضافة إلى تنزيه الفرد وتحصينه من مغبة إضرار ذلك وويلاته بالإضافة إلى هذا فهو كفيل بسد باب واسع من أبواب الجريمة التي حرمها الإسلام، الجرائم التي تكون نتيجة فقدان الشعور أو الجرائم التي تترتب نتيجة الاعتداء على الحقوق في القمار التي تأتي بسبب من التهالك على هاتين العادتين، ولهذا نجد أن هذا الحكم.

(الحكم بتحريم الخمر والقمار). يتكفل بصيانة الفرد كفرد وصيانة المجتمع كمجتمع ومثال آخر هو فرض الستر على المرأة أمام الرجال الأجانب، عند هذا سكت الأستاذ فقالت سندس في صوت ينبيء عن اللهفة:

حقاً لقد كنت أتمنى لو أسمع شيئاً عن مفهوم الحجاب في الإسلام وأسبابه ودواعيه... فابتسم الأستاذ ثم قال:

دعيني أولاً أوضح لك سؤالك فأنت في الحقيقة تريدين أن تعرفي أسباب ودواعي الستر الذي فرض على المرأة في الإسلام وليس الحجاب لأن الحجاب في الإسلام مفهوم هو أخص من الستر ولهذا فإن السؤال ينبغي أن يكون عن الستر الذي هو أعم في التشريع لأن كلمة الحجاب تحمل معها بالضمن معنى الاحتجاب ولم يكن هدف التشريع هو حجب المرأة عن الحياة وإنما ستر مفاتنها فقط وفقط ولهذا نجد أن كلمة الحجاب لم تذكر في القرآن الكريم إلا في الآية المباركة التي تقول: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ وهذه الآية خاصة بنساء النبي ﷺ وهي تعني الحجاب معنى الاحتجاب وهو التزام تأدبي خاص بنساء النبي لرفعة مكانتهن وسمو مقامهن، قالت سندس:

إذن فإن الإسلام عندما فرض الستر على المرأة لم يكن يريد من وراء ذلك عزلها عن الحياة وحبسها بين الجدران؟ قال الأستاذ:

كلا يا ابنتي وأنا أتمكن أن أقدم إليك الدليل على ذلك من نفس آيات الحجاب فالآيات المباركة من سورة النور تقول:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُولِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ

بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أفلا تلاحظين أن غض البصر جاء في البداية كحكم إلزامي للرجل وللمرأة سواء بسواء فلماذا هذا الحكم يا ترى لو لم يكن من المفروض أن تعيش المرأة على مسرح الحياة كما يعيش الرجل سواء بسواء؟ فلو كان الستر مما يحجب المرأة عن الحياة لما بقيت هناك ضرورة لغض البصر لا للرجال ولا للنساء، قالت سندس:

آه نعم إن هذا صحيح يا أستاذ، قال الأستاذ:

ثم إن دور المرأة المسلمة في صدر الإسلام يؤكد أيضاً هذه الحقيقة فقد شاركت المرأة المسلمة خلال تلك الفترة في تحمل مسؤولية العلم من أجل الدين حتى أنها أحياناً كانت تشهد الحروب والغزوات لتداوي الجرحى وتسقي العطشى وتبعث الحماس في نفوس المتخاذلين ولهذا نجد أن فرض الستر على المرأة في الإسلام جاء كإجراء وقائي للمجتمع ككل بما فيه المرأة، قلت: وكيف؟ قال:

لأن مما لا ينكر هو ما تتمتع به المرأة من جوانب إثارة وفتنة للرجل وهذه الإثارة هي عبارة عن تحريك لغرائز معينة لديه وهنا يقف به الحال على مفترق طريقين، فأما أشباع هذه الغرائز وتلبية رغباتها ومتطلباتها وأما وأدها والسيطرة عليها عن طريق الكبت وكل من هذين الطريقين وعر المسالك وخيم العواقب فإطلاق الغرائز على سجيتها دون حدود من دين أو قيود من عرف لا تعني سوى الفوضى الجنسية والتشتت الأسروي والتفكك العائلي والويلات الإجتماعية كما دلت عليه بعض الأرقام في البلدان التي سمحت بالإثارة أولاً ثم سمحت بحرية الغرائز المثارة ثانياً فقد جاء في بعض الاحصاءات أنه (تتعرض تسع فتيات للغصب والاختطاف من أصل كل إثني عشرة فتاة في بريطانيا. . .) وإن (الجرائم ارتفعت بنسبة ٨٤٪ خلال سنوات قليلة بينما ارتفعت جرائم المراهقين إلى خمسة أضعاف خلال النصف الأول من عام- ١٩٧٥. . .) كما أنه جاء في تصريح لمندوبة الأمم المتحدة التي كلفت بدراسة أوضاع المرأة في

الشرق العربي عام-١٩٧٥- (إن ١٥٪ من السويديين مصابون بالأمراض العصبية والنفسية و٤٠٪ من الدخول في السويد ينفق على معالجة هذه الأمراض وذلك سببه الحرية التي نالتها المرأة في السويد بالشكل الذي تمارسه) كما جاء في تقرير آخر عن الاتحاد الأمريكي للخدمات الأسرية أنه (أصبح انهيار الأسرة والذي وصل الآن إلى درجة وبائية هو المشكلة الإجتماعية الأولى فكل عام يفصل الطلاق بين أكثر من مليون شخص والمعدل الحالي هو سبعة أضعاف ما كان قبل مائة سنة وأصبح عدد الأطفال غير الشرعيين ثلاثة أضعاف ما كان عليه سنة- ١٩٣٨- ويولد سنوياً أربعة ملايين طفل غير شرعي في الولايات المتحدة) بينما نجد أن نفس مندوبة الأمم المتحدة تقول في تقرير لها (إن من حق المرأة السويدية أن تطالب بحريتها فإن المرأة في الشرق العربي قد وصلت إلى قمة حريتها في ظلال الإسلام) هذه هي بعض الأرقام التي تعطينا فكرة عن مخاطر إطلاق الغرائز المثارة على حريتها. إذن فلا يبقى أمامنا سوى الكبت. . . والكبت مع توفر دواعي الإثارة أمر مرهق للرجال نفسياً وعصبياً وفكرياً، ولهذا فهو قد يدفعه إلى مختلف الأمراض النفسية والجسمية، فلنفرض أننا جئنا بإنسان ووضعنا أمامه مائدة جمعنا عليها كل ما لذ وطاب مما يتصاعد عطرِهِ وتنتشر رائحته ثم ماذا؟ ثم نمنع هذا الإنسان من الأكل نمنعه بالقوة أو نمنعه بلطف، فيمتنع نفسه هو تأدباً، فإلى أي شيء نتوصل؟ نتوصل بالنتيجة إلى منعه من الأكل لكنا لن نتوصل إلى منعه من الرغبة في الطعام والشهية إليه لأن هذه مشاعر لا يمكننا ولا يمكنه هو أيضاً أن يحول دون استثارتها مع وجود هذه الأنواع الشهية من الطعام، ووضع الرجل تجاه المرأة لا يختلف عن وضع هذا الإنسان تجاه الرغبة في الطعام، إذن، فإن الوضع الوحيد الذي يجنب المجتمع مضار الإثارة وردود فعلها بشكليه هو أن تستر المرأة مفاتنها التي من طبيعتها أن تثير الرجل، وبذلك تجنب نفسها وتجنب الرجل ويلات الإثارة، قالت سندس:

إذن فإن ستر المرأة ما هو إلا مصلحة اجتماعية، وعملية وقائية؟ قال الأستاذ:

نعم ولكن بالإضافة إلى ذلك هو مراعاة لمكانة المرأة والحفاظ عليها وتجنبها عن الابتذال وأن تصبح سلعة رخيصة تلتهمها كل عين وتملأ من مفاتنها أنظار الرجال، ويمكنكما مطالعة كتاب - العفاف - لزين الدين و - الحجاب - للمودودي، قالت سندس:

ولكنني كنت قد سمعت أن الستر دخل في الإسلام عن طريق تسرب العادات الإيرانية بين المسلمين؟ قال الأستاذ:

ولكن الستر شرع في الإسلام قبل فتح المسلمين لبلاد فارس بسنوات، ثم إن الستر المفروض على المرأة في الإسلام يختلف عما كانت عليه المرأة في إيران، قالت سندس:

كما أنني كنت قد سمعت أن هذا الستر شرع لأسباب اقتصادية، قال الأستاذ:

ماذا تعنين بالأسباب الاقتصادية يا ابنتي؟ قالت:

أعني أن الرجل عندما أراد استغلال المرأة واستعبادها فرض عليها هذا الستر ليحبسها في البيت ويستفيد من أعمالها وصناعتها: قال الأستاذ:

ولكن التشريع الإسلامي هو أبعد ما يكون عن هذا لأنه ضمن للمرأة حقوقها الكاملة وأعطاها حق تملك كل ربح من العمل.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ﴾.

إذن فأي شيء يستفيد الرجل من تشغيلها ما دامت هي المالكة الحقيقية لما تكسب؟ وبالمناسبة فإن هذا حق لم تحصل عليه المرأة الأوربية إلا مؤخراً حيث كانت تعمل بنصف أجرة الرجل، قالت سندس:

لعلني لا أثقل عليك بالسؤال يا أستاذ؟ قال الأستاذ:

كلا تفضلي واسألي على الرحب والسعة، قالت:

في خصوص موضوع الستر الذي فرض في الإسلام على المرأة لقد سبق أن سمعت أنه تعبير عن نزعات الرهينة وإنكار الذات فهل لهذا شيء من الواقع؟ قال الأستاذ:

إنك يا ابنتي لو كنت قد تعرفت على حقيقة الإسلام أكثر لعرفت تلقائياً أن هذه دعوى لا أساس لها من الصحة، وهنا بدت عني أول بادرة تدل على أنني مسلم اختلف عن سندس حيث قلت:

إن نبي الإسلام هو الذي يقول لا رهبانية في الإسلام، فابتسم الأستاذ ونظر إلي مشجعاً وهو يقول:

اسمعي ها هو ابن الإسلام يعرف أن لا رهبانية في الإسلام وهناك الآية المباركة التي تقول:

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ وقد جاء في التاريخ أن عباس بن مضعون أحد الصحابة الكرام أراد أن ينصرف إلى العبادة فترك جميع ملاذ الحياة بما فيها النساء فذهبت زوجته إلى رسول الله ﷺ تشكوه إليه، فأغضب ذلك رسول الله ﷺ وخرج إلى المسجد وصعد المنبر ونهى أصحابه عن ذلك وهو ﷺ الذي يقول:

«حبب إلي من دنياكم ثلاث، الطيب والنساء وقرة عيني الصلاة» قالت سندس:

إذن فهو لا يعدو أن يكون إجراء وقائياً للمرأة والمجتمع؟ قال الأستاذ:

نعم وإنك لو طالعت الكتابين اللذين ذكرتهما لك لعرفت تفصيل ذلك بما لا يسعه المجال لضيق الوقت، قالت سندس بشيء من الخجل:

هل لي أن أسأل أكثر؟ قال نعم تفضلي وإسألي ما تريدين، قالت: ما هو مقام المرأة أو ما هي نظرة الإسلام للمرأة وهل هي في حقوقها مشابهة للرجل أم لا؟ فإبتسم الأستاذ وقال:

إنها متساوية وليست متشابهة قالت:

وكيف؟ قال:

لأن التساوي يختلف عن التشابه يا إبنتي فالتشابه أمر غير ممكن لاختلاف تكوينهما وتباين إستعدادهما، أما التساوي الذي هو ما يقتضيه العدل فهو موجود فإن حقوق المرأة في الإسلام لا تقل عن حقوق الرجل بأي مجال من

المجالات والفارق هو فارق الإختلاف فقط، تصوري أن رجلا يملك أشكالا مختلفة من الثروات ثم أراد أن يوزع ما يملك على أولاده في حياته فهو لا شك سوف يضع القسمة على أساس من كفاءة أولاده وإستعدادهم وميولهم فيعطي الأرض الزراعية لمن له ميول في الزراعة ويعطي الأموال التجارية لمن هو أعرف بالمعاملات المالية وهكذا فهو يحرص على أن يكون الناتج متساوياً وإن باختلاف إستعداد وخبرات كل من أولاده وهكذا الحال في المستوى الكلي لحقوق المرأة والرجل فهما متساويان ولكن غير متماثلان نظراً للإختلاف التكويني الوجودي بينهما ولهذا نجد أن للمرأة ما للرجل وعليهما ما عليه في كافة مجالات العمل الدنيوية منها والأخروية فإن ما تجنيه المرأة من أجر على العبادة هو عين ما يجنيه الرجل وما تعاقب به المرأة على تركها للعبادة هو عين ما يعاقب به الرجل، وهذا يدلنا على أن حق المرأة مساوٍ ومماثل لحق الرجل في حال ومساوٍ وغير مشابه لحق الرجل في حال آخر، فهي تتشابه وتتساوى في مسيرة الإنسان لله، مسيرة المخلوق للخالق، وتتساوى ولا تتشابه في مسيرة الأحكام من الله للناس مسيرتها من الخالق للمخلوقين، هذا من ناحية حقوقها ولعلك لو قرأت كتاب - المرأة في الإسلام - للعقاد - الأسرة المسلمة - للبكاء لتمكنت من إستيعاب ذلك أكثر، أما سؤالك الثاني حول نظرة الإسلام للمرأة ومدى تقييمه لوجودها فأنا أرجو أولاً أن تحددي الشبهة الموجودة لديك عن ذلك، قالت:

هل ان الأسلام يعتبر المرأة هي رأس كل خطيئة وانها هي التي اغوت آدم فاكل من الثمرة.

كلا يا ابنتي فإن الإسلام لا يحمل المرأة هذا الوزر وقد ذكرت قصة آدم عليه السلام في القرآن الكريم ولآيات التي تذكرها تقول: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ وهذه الآيات تدل بوضوح أن الغواية كانت لكليهما والاستجابة أيضاً من كليهما سواء بسواء ولا تحمل حوا أية مسؤولية خاصة، قالت سندس:

إن هناك من يقول أن المرأة انما خلقت من اجل ايجاد الرجل فوجودها

مقدمة لوجود الرجل وليس وجودا قائماً بنفسه فما هو موقف الإسلام من هذا؟ قال: أن هذا مما لا يوجد في الإسلام فأن الله تبارك وتعالى لم يخلق المرأة من اجل الرجل فقد كان يتمكن عز وجل ان يوجد الرجل بطريقة أخرى وإن يخلق عند الرجل الغزائر التي تجعله في حاجة للمرأة ولكنه خلقها كموجود مستقل يستند الى وجود الرجل بالمقدار الذي يستند وجود الرجل إليه، والآية الكريمة تدل على ذلك حين تقول. . .

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.

والآية الأخرى التي تقول: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ثم الآية المباركة التي تحكي عن سبب الخليفة من غير تمييز بين رجل وامرأة.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.. قالت سندس: وما هو دورها بالنسبة للأولاد؟ هل يعتبرها الإسلام كائن تفريغ فقط فقط كما تعتبر في بعض المجالات أم لا؟ قال الاستاذ:

إن الإسلام يعطي للأم مقامها الرفيع ويضع لها الحقوق الكاملة بالنسبة لأولادها ويعترف لهل بدورها في أعداد الجنين مثل الآية المباركة التي تقول.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾.

ثم إن الإسلام قال على لسان نبيه ﷺ إن الجنة تحت أقدام الأمهات وبهذا وضع طريق الوصول إلى رضاء الله تعالى هو رضاء الأم وهذا يدل بوضوح على تركيز وجود الأم في حياة الأبناء والإعتراف بدورها الفعال في ذلك، وأنا أرجو أن تطالعي كتاب - الطفل بين الوراثة والتربية - وكتاب - مع الولد ووالديه - للسيد حسن الصدر، عند هذا كان موعد أذان المغرب قد حان فسكت الأستاذ فقلت له:

متى سوف يكون اللقاء القادم؟ قال:

بعد أسبوع حيث تتمكنان من مطالعة الكتب التي ذكرتها لكما.

وخرجنا من عند الأستاذ ووقفنا في الشارع لحظات لاحظت خلالها أن عيون الرجال كانت تلتهم سندس بنظراتها وهذا شعور لم أكن لإفطن إليه من

قبل فعز علي ذلك وتمنيت لو حلت دونه بأي شكل، وأحسست أن سندس بدأت تشعر بالحرج حيث كانت تلم أطراف فستانها بتحفظ، ومرت فترة صمت ثم قطعتها سندس قائلة:

مع السلامة وإلى اللقاء هنا عند الأستاذ، ثم إستدارت فقلت لها: إنتظري فإن لدي ما أريد أن أقوله لك، ولكنها لم تنتظر فمشيت نحوها وأنا أقول:

سندس، سندس دعيني أحدثك بأمر لعله يلقي ضوءا على الموقف، وفي تلك اللحظة مرت سيارة أجرة فاستوقفتها وركبت فيها دون أن تنظر إلي، فما كان مني إلا أن رجعت إلى البيت مخذولا، وفي البيت حاولت أن أهدأ ولكن ثورة روحي كانت عنيفة جدا فعدت إلى الشارع أتجول فيه على غير هدى ثم مررت على السوق واشتريت الكتب التي ذكرها الأستاذ وفي ساعة متأخرة من الليل عدت إلى البيت مرهقاً جسماً وروحاً ولكنني وفي الأيام الأخرى حاولت أن أقرأ الكتب وأن أقنع نفسي بالأمل فحصلت على شيء من الهدوء النسبي مع أن تفكيري في سندس لم يبارحني لحظة وأنى له أن يبارحني وقد ملك على جميع المنافذ فلم تكن سندس بالنسبة لي صديقة فقط ولكنها كانت حياتي التي لا غنى لي عنها...

□□

ثم مرت الأيام وأنا أتلهف إلى يوم اللقاء وفي الوقت المحدد كنت عنده وقد وصلت سندس بعدي قليل، وكان يبدو متعجلا إذ شرع بالحديث بعد دخول سندس مباشرة فقال:

نعود اليوم لنعطي مثالاً جديداً عن القيم البناءة التي في الإسلام، فالإسلام قد حرم الصلاة في الأرض المغصوبة، والدار المغصوبة ولهذا التحريم جانبان: جانب خاص، وجانب عام، أما الجانب الخاص فهو أن من أهم العبادات في الإسلام هي عبادة الصلاة حيث تسمو بها الروح منطلقة من عقال العالم المادي مقرة بالعبودية الخالصة لله الواحد القهار ولهذا ولكي تكون صادقة وطاهرة ونزيهة ينبغي لها أن ترتفع عن إنسان صالح وصادق ونزيه ومن مكان طاهر ونزيه لم يدنسه الظلم الغاشم ولم يشوهه الاستغلال الظالم فإن

لصفاء الروح إنه بصفاء العطاء وروح المصلي في المكان المغصوب بين حالتين: فهي أما ساخطة عن الظلم منكرة له وأما راضية به مؤيدة لوجوده، وسخطها عليه كفيل بتكدير صفحتها وإعاقة صفاء انطلاقها ورضائها به كفيل أيضاً بطمس معالم آثارها في نفسه ومحو إثبات وجودها صفاء انطلاقها ورضائها به كفيل أيضاً بطمس معالم آثارها في نفسه ومحو إثبات وجودها عند ربه لأنه خلط طاعة الله مع معصيته وتقرب إلى الله في حال بعده عنه، هذا من الناحية الخاصة، أما من الناحية العامة فهو ما يترتب على ذلك من إستنكار للغصب ورفض لقبوله والاستكانة له، وفي هذا حماية لحقوق الإنسان واحترام للملكية... وسكت الأستاذ فخطر لي أن أسأل:

لماذا اختيرت سورة الفاتحة من بين سور القرآن جميعها لكي تكون الجانب الرئيسي في الصلاة؟ قال:

لأن الفاتحة قد جمعت في آياتها مجمل العقيدة الإسلامية من حمد وتسبيح، وإطاعة وتوحيد واعتقاد بالبعث والنشور، وطلب للهداية إلى آخر ما زخرت به هذه السورة المباركة من مفاهيم... قلت:

لماذا كانت آيات الصلاة غير موجهة لله تبارك وتعالى عدد الآيات الثلاثة في نهاية سورة الفاتحة؟ قال:

لكي يفهم الإنسان المصلي أن الصلاة هي له أكثر مما هي لله تبارك وتعالى وأنه هو الذي سوف يستفيد من عطاءاتها الروحية والعقائدية والتربوية، قلت:

بالمناسبة لقد جاء في آية كريمة أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر مع أننا نجد الكثير ممن يؤدون الصلاة لا يتناهون عن المنكر؟ قال:

إن الصلاة يا ولدي تنهى عن الفحشاء والمنكر ولا تمنع عنه، فهي لا تكبل الإنسان تجاه الفحشاء والمنكر بأغلال من حديد ولكنها تتكفل بإعطاء القيم التي تحول بينه وبين الفحشاء والمنكر وجانب العطاء فيها ثابت ولكن جانب القبول في نفس المصلي غير ثابت فهناك من يتقبل هذا العطاء بقبول واعٍ يردعه عن التردي بمزالق الفحشاء والمنكر وهناك من لا يتقبلها أو لا يعي ما تقبّل منها

فتراه لا يتجنب عن منكر ولا يتوقى من فحشاء كما جاء في الحديث الشريف «ليس لك من صلاتك إلا ما وعيت» قلت:

وهل أن جميع أشكال العبادة هي للعبد أكثر مما هي لله؟ قال:

نعم ولو قرأت كتاب (نظرة عامة في العبادات) بدقة لعرفت الجواب مفصلاً، كما أنه من مميزات الشريعة الإسلامية هو بروز الصفة الإنسانية في قوانينها وتنظيم قواعدها، فلا إقليمية ولا عنصرية، ولا طبقية أو شعور الأنانية وهذا هو الشيء الذي يبدو واضحاً وجلياً في نظمها وتشريعاتها روحاً وموضوعاً كما جاء في القرآن في خطاب الآية المباركة للرسول ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ وكذلك فإن في الأمثلة التي تدل على تكفل التشريع الإسلامي بتقديم القيم التي تكون الإنسان الصالح كفرد وبالتالي لتكوين المجتمع كمجموع هو توزيع المسؤولية على الأفراد «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته» وفي هذا اعطاء فرصة لكل فرد لأن يبني نفسه ويبنِي من حوله وما حوله، وشتان بين مجتمع تغذي روحياته بروح الإنفرادية، والإتكالية، واللامبالاة، وبين مجتمع تقوم قواعده على أسس من الشعور بالمسؤولية الفردية والجماعية، إن تشريعاً يقلد المسؤولية لكل فرد من أفراد المجتمع بشكل يحسسه فيه بأنه هو بنفسه صاحب قضية وحامل رسالة، تشريع كهذا جدير ببناء المجتمع الفاضل المتماسك الجوانب وأيضاً أن مما يميز التشريع الإسلامي هو دمج الأخلاقية ضمن قوانينه والتأكيد على احترام الأخلاق والاهتمام بالحفاظ عليها وجعلها قاعدة من قواعد تثبيت الشريعة حتى قال نبي الإسلام «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وقال أيضاً «اكملكم إيماناً احسنكم أخلاقاً» ويمكنكما أخذ فكرة عن ذلك بمراجعة كتاب - الأخلاق ودورها في الحياة - للسيد حسين الصدر.

إلى هنا سكت الأستاذ ونظر إلى ساعته فعرفنا إن وقتنا معه قد انتهى فاستأذنا للخروج وطلبنا موعداً جديداً فكان بعد اسبوع أيضاً فودعناه وخرجنا... وأمام باب البيت لفت نظري أن سندس لم ترفع الغطاء عن رأسها في هذه المرة كما كانت تفعل سابقاً وأردت أن اتكلم وأن أحدثها عن مبيت فدوى عندي

ولكنها عاجلتني أن سلمتني مظروف أزرق مغلق ثم انصرفت مسرعة في خطوات مرتبكة قلقة، فاردت أن أفتح الرسالة ولكن وجدتني في حاجة لأن أقرأها وحدي لأنني لم أخمن ردود فعلها علي ولهذا فقد أسرعت للبيت وقبل أن أخلع ملابسي جلست على حافة السرير وفتحتها بيد مرتجفة فقرأت فيها ما يلي:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السلام عليك يا فؤاد ورحمة الله وبركاته.

كثيراً ما ترددت قبل أن أكتب إليك هذه السطور ولكن وجدت أن الموقف أصبح حرجاً أكثر مما يطاق وأن هذا الوضع القلق أخذ يؤثر علي ويلون شتى جوانب نفسي، فأنا كنت اخمن كل شيء واتوقع كل شيء عدى ما حدث فلماذا حدث هذا يا ترى؟ لماذا تناسيت في لحظات جميع ما عقدنا من عهود وما أبرمنا من مواثيق؟ لماذا ضعفت يا فؤاد فاستهنت بكل هذه الكنوز من الحب وتجاهلت عيون العواطف الدفاقة التي طالما تدفقت في قلوبنا من قبل؟ لماذا هدمت يا فؤاد تلك الصروح الشامخة من الآمال والأحلام لماذا؟ نعم لماذا؟ ولعلك عرفت الآن ماذا أعني وماذا أقصد وستجد مع هذه الرسالة الأدلة التي وصلتني على ذلك بالإضافة إلى ما حمله سمعي إلي من دليل فأنا لا أريد أن احتفظ بدلائل خيانتك ولك بعد هذا أن تعلم كم تعذبت وكم اتعذب لولا ما يربط على قلبي من النور الذي بدأ يلون حياتي بشكل جديد، واعلم بأنني حينما أعرض عنك لا يعني هذا بأنني سوف أتوجه إلى سواك فإن هذا ما لا يكون أبداً لأنك أنت...

سندس

وفتحت المظروف الثاني فإذا به صورتي الصغيرة التي أفتقدتها وصورة لسندس كانت قد اهدتها إلي والأبيات الشعرية التي افتقدها ثم الشيء الذي هو أدهى وأمر صورتي وأنا أقف أمام باب بيتي وأمامي فدوى وأنا أشير إليها ادعوها للدخول، عند ذلك عرفت كل شيء وتكشفت أمامي خيوط المؤامرة

التي حبكوها ضدي وأنا سادر في غيي وغفلتي حتى كدت أن أخسر سندس بعد أن خدعت بشكل فظيع فلم تكن حادثة فدوى سوى قصة مفتعلة صمم أدوارها باسم الذي التقط لنا صورة في حال دعوتي لها للدخول وتذكرت الضوء الذي لمح أمامي حين ذلك ثم يبدو أنها لما قضت ليلتها في غرفتي فتشت في كل مكان حتى حصلت على صورتي وعلى صورة سندس التي أهدتها لي وعلى الأبيات الشعرية التي كنت كتبتها من أجل سندس وفهمت في تلك اللحظة أيضاً معنى سؤالها لي أن ماذا رأيت في يومك وفي أمسك؟ إذ كان هذا هو مطلع الأبيات التي حسبت أنني قدمتها لغيرها، وخمنت أنهم اتصلوا بها وطلبوا منها أن تتصل بغرفتي في ذلك الصباح الباكر ولا شك أن فدوى هي التي ردت عليها والله أعلم بما قالت وهكذا تكشفت أمامي الحقائق المرة دفعة واحدة، ولم أحاول أن أستسلم للألم وانهار أمام المفاجأة، فنهضت مسرعاً وخرجت متوجهاً نحو سندس لكي أشرح أمامها كل شيء ولكن وفي منتصف الطريق فطنت إلى حقيقة كانت قد غفلت عنها وهي الطريقة التي أتمكن أن أثبت بها براءتي أمامها مع هذه الأدلة الحسية التي تدينني أمامها، وشعرت بالتردد ثم أحسست بالانهيار وخطر لي أن أعود إلى غرفتي أفكر في الموقف الذي علي أن أتخذه معها فعدت وأنا في أشد حالات الحيرة والألم وجلست في غرفتي أفكر، وشعرت بحاجة شديدة إلى من يهديني لما ينبغي لي أن أصنع وفجأة امتدت يدي إلى القرآن الكريم الذي كان موضوعاً على أحد رفوف المكتبة وهو في داخل علبة مذهبة وكان قد وضع هناك إلى ذلك الحين للزينة فقط أما خلال أزمتي الروحية تلك فقد شعرت أنه منقذي الوحي، وفتحته في لهفة فإذا بالسورة التي تطالعني فيه هي سورة محمد فرحت أقرأ وقد كان لمعاني السورة وإيقاعها الساحر أثر عظيم في نفسي فشعرت بشيء من الراحة وبعد أن أكملت السورة نهضت لأضع القرآن الكريم في مكانه فإذا بعيني تقع على مجموعة من شرائط التسجيل فتذكرت أنني حينما كنت أحاور فدوى وراء الباب كان جهاز التسجيل يعمل بيدي ولا شك أنه سجل الحديث كله، وفعلاً فقد أخذت أجرب الشرائط أبحث عن ذلك الشريط حتى وجدته ووجدت فيه تسجيلاً كاملا لما وقع منذ أن

فتحت الباب لفدوى إلى أن ودعتها وذهبت لأنام في الصالون فحمدتُ الله على ذلك وشعرت بامتنان عظيم لخالقي الذي دبرني دون أن أشعر، وكان الوقت قد تأخر بشكل لا أتمكن فيه من زيارة سندس فأجّلت الموضوع إلى الصباح ونمت مطمئن البال وفي الصباح الباكر بكرت في الذهاب إلى الجامعة وأنا أرسم في فكري صوراً عديدة لما سوف أقوله لسندس عند اللقاء، تصورت نفسي أركع أمامها مقدماً لها شريط البراءة كما قدمت لها قلبي من قبل وكانت جميع خلجات جسمي ونبضات قلبي قد استحالت إلى كلمات حب وهناك عرفت أنها لم تداوم في ذلك الصباح فإتصلت بالقسم الداخلي أسأل عنها فقيل لي أنها مسافرة إلى أهلها فاستغربت ذلك منها وعدت خائباً إلى البيت.

□ □

ومرت الأيام وأنا أسأل عنها في كل يوم فيكون الجواب أنها ما زالت مسافرة وفي اليوم المحدد ذهبت إلى الأستاذ وأخذت معي الشريط والرسالة التي شرحت لها فيها كل شيء وكنت أمل أن أجدها هناك وفعلا فقد وجدتها قد سبقتني بدقائق ولكنني فوجئت إن رأيتها تلبس ملابس الحداد وقد غطت رأسها بغطاء أسود زادها فتنة وجمالا وتمنيت في تلك اللحظة أن لا تقع عليها عين رجل سواي وعجبت لنفسي ولأمثالي كيف كنت لا أشعر بهذا الشعور من قبل؟ وسلمت عليها فأجابتني بشي من التحفظ فقلت لها وأنا أشير إلى ملابس الحداد متسائلاً:

خيراً؟ ماذا أرى؟ فأطرقت قليلا ثم رفعت وجهها وقد أغروقت عيناها بالدموع وهي تقول:

أبي قد توفي! فهزني حزنها وأثر علي صوتها الكئيب وشعرت أن دموعها قد انتقلت إلى عيني وخرج صوتي متهدجاً وأنا أقول:

انا لله وانا إليه راجعون، وسكت لا أعرف بماذا أزيد ومرت فترة صمت قصيرة كان لابد لأحد أن يقطعها وكان العالم الديني ساكتاً إحتراما لحزنها وأنا كنتُ ساكتا أفكر بحالها وبموقفي منها أما هي فقد بادرت إلى قطع حبل

الصمت حيث وجهت الحديث إلى الأستاذ قائلة: أرجو أن تبدأ حديثك يا أستاذ فقد خلفت ورائي العديد من الأسباب التي تدعونني للبقاء وأتيت من أجل الاستفادة منك وليس من الجامعة كما أنني تمكنت من قراءة الكتب التي ذكرتها لنا ولم تصرفني عنها الآلام والأحزان لأنني أصبحت أجد أن متابعة هذا الأمر هو أهم شيء في حياتي ولهذا فأنا أرجو أن تمارس حديثك كالعادة قال الأستاذ:

بارك لله فيك يا بنتاه وأرجو من الله عزَّ وجل أن يلهمك الصبر والأجر وإنني أبارك فيك هذا الشعور الصالح البناء والحقيقة أنني قد أطلت عليكما مع أنكما كنتما تتعجلان الأمر ولولا مساعدتكما لي بالمطالعة لاحتجنا إلى مدة أطول، قالت سندس:

الحقيقة أنني لولا رغبتي لأن أسمع منك أكثر وأكثر لتمكنت أن أقول بأنني قد حصلت على القناعة الكافية ولكنني لا أريد أن أخسر بذلك قسماً من الحديث ونحن ما زلنا ننتظر حديثك عن الإسلام وتمكنه من تقديم قدوة صالحة أو مثل أعلى أو وسيلة إيضاح، قال الأستاذ:

لقد سبق أن مررنا في حديثنا بمراحل:

أولها: توضيح أن الدين ضرورة حتمية في حياة الإنسان.

وثانيها: تناول وصف للدين الصالح وكيف أنه ينبغي أن يكون ملائماً للعقل ومنسجماً مع الفطرة ومتمكنا من تقديم القيم التي تبني الإنسان والمجتمع وأن يكون قادراً على تقديم قدوة ومثل أعلى.

وقد تحدثنا بإيجاز عن كل مرحلة من هذه المراحل وعرفنا أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يتكفل بذلك وبقي علينا أن نذكر ما قدمه الإسلام من قدوة أو وسيلة إيضاح، لأن الفكرة التشريعية وأي فكرة كانت لا يمكن أن يكتب لها النجاح ما لم تقدم مثالا معبرا عن طبيعة ما تدعو إليه وموضحا ابعاد الخطوات التي وضعها، فإن عدم تقديم القدوة أو وسيلة الإيضاح يعني عدم واقعية هذا التشريع وإستحالة تطبيقه على الوجه الصحيح، ولكن حقيقة أن الحديث عن

القدوة طويل وطويل جداً فإن أول قدوة وهو نبي الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ كما جاء في الآية المباركة ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ والحديث عن رسول الله ﷺ وحده يحتاج إلى ساعات وساعات بالإضافة إلى القدوة الثانية إبن عمه وخليفته علي بن أبي طالب عليه السلام والأئمة الأحد عشر من ولده عليهم السلام ويمكنكما مطالعة كتاب - عبقرية محمد - الإمام علي - لعبد الفتاح عبد المقصود، وسلسلة - في رحاب أهل البيت - لبحر العلوم، ثم هناك أيضاً شخصيات إسلامية أخرى يستحق كل منها أن يكون قدوة صالحة على مدى التاريخ أمثال عمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري ومصعب بن عمير وميثم التمار ويمكنكما لدراسة شخصية هؤلاء العظام مطالعة كتاب - بين يدي الرسول - ومن مدرسة الإمام علي - لبحر العلوم، ولهذا فنحن نؤجل اللقاء القادم إلى بعد مطالعتكما لهذه لكتب عند ذلك يمكنكما أن تتصلا وتحددا موعداً أرجو أن يكون هو الموعد الأخير إن شاء الله. . .

عند هذا شكرنا الأستاذ للخروج، وفي الخارج وقفت أمام سندس وأنا أريد أن أقول لها شيئاً، ولكن وقفتها المحتشمة الوقور وأبرادها السوداء التي تلف جسمها وتغطي رأسها اضاعت علي الكلمات فلم أعد اعرف ماذا أقول؟ ورحت افتش عن عبارة أبدأ بها ولكنني عجزت عن الحصول على شيء، فبدأت الحديث قائلة:

مع السلامة يا فؤاد ثم استدارت لتذهب وهنا خرج صوتي مبحوحا وهو يقول: كلا يا سندس فإن لدي ما أقوله لك، فوقفت هنيهة ثم قالت: ماذا لديك يا فؤاد؟ قلت: إنني أريد أن أثبت لك براءتي اريد أن تعرفي انني لك انت وحدك يا سندس وأنني لم اخنك غمضة عين، فشحب وجهها قليلاً ثم قالت: آه وكيف تثبت ذلك يا فؤاد: إنني أريد أن أحدثك بكل شيء ولكن ليس هنا وعلى قارعة الطريق، قالت: إذن أين؟ قلت: في أي مكان تقترحين، قالت: لا أعرف مكاناً مناسباً أقترحه، قلت: ما رأيك أن تأتي معي للبيت؟ قالت بصوت يفصح عن التأثر: أنا آتي معك إلى البيت؟ كما جاءت فدوى؟! كلا إنني لن آتي، قلت: لو أتيتي لعرفتي عن فدوى كل شيء، قالت بإصرار:

ولكنني لن آتي يا فؤاد قلت: وذهابي معك إلى القسم غير ممكن بطبيعة الحال وجلوسنا في مكان عام غير ممكن ايضاً لأن لدينا أحدايثَ خاصة فماذا نصنع إذن؟ فالتفتت سندس الى البيت العالم الديني وكأنها تريد أن تقول شيئاً وبقيت ساكتة، فخمنت ماذا تريد أن تقول فسألتها: ماذا خطر لك؟ قالت: لماذا لا نعود الى بيت الأستاذ؟ قلت: ونطلب منه خلوة نتحدث بها؟ قالت:

خلوة؟ لا، بل نتحدث أمامه أو ليس هو أبونا الروحي وباعث النور في حياتنا إذن فلماذا لا نجعلها شاهداً على ما نقول؟ والحقيقة أنني ارتحت لهذه الفكرة ولكنني شعرت بالحرج لتنفيذها، قلت.

ولكن كيف نعود إليه وما انصرفنا عنه الآن؟ قالت:

إذن فليس لدينا وسيلة ثانية وليذهب كل منا إلى مكانه، فشعرت بقلبي وهو يهوي خشية أن تتركني قبل أن تعرف براءتي ولهذا قلت لها بتوسل:

انتظري دقائق فقد يفتح الله علينا يا سندس، فابتسمت بمرارة وقالت:

وهل ترى أن الوقوف على فارعة مما يستساغ يا فؤاد؟ قلت:

صحيح أنه أمر بعيد عن اللياقة ولكنني سوف أطرق باب الأستاذ فهو إنسان نبيل ولن يحرجنا على أي حال من الأحوال قلت هذا وتقدمت نحو الباب بضع خطوات وإذا بالباب يفتح ويخرج منه العالم الديني، وما إن رآنا حتى استغرب وقوفنا هناك طيلة هذ المدة فسألنا باهتمام قائلاً:

ماذا؟ هل كنتما تنتظران سيارة؟ وجرأني سؤاله وما بدا عليه من اهتمام بأمرنا لأن أقول له بشيء من الارتباك:

الحقيقة بأننا في حيرة يا سيدي فإن لدينا مشكلة لا نعرف المكان المناسب لعرضها ثم خطر لنا أخيراً أن نختار بيتك فهل تأذن لنا؟ فمد يده يفتح الباب وهو يقول:

تفضلا وادخلا إلى نفس الغرفة التي كنا فيها قبل قليل ولن يضايقكما أحد، قلت ولكنا أردنا أن نعرض مشكلتنا أمامك لتبارك لنا حلها، قال:

أما الآن فإن لدي موعداً ولكنني سوف أعود إليكما بعد ساعة أرجو أن تكونا خلالها قد توصلتما إلى الحل الصحيح.

□□

واستقر بنا المقام في الغرفة وهنا كدت أن أنكر نفسي فقد وجدتني وفي حال كوني فانياً في حب سندس لا أجرؤ حتى أن أمس يدها ووجدت هذا الحب الذي يملأ وجودي كله قد غلق بقدسية كان يفتقدها من قبل، فأنا الآن أغار عليها حتى من نفسي، وأنا الآن أهاب حتى النظر إلى عينيها، ولا أجرأ حتى لمس أطراف أناملها، وقد ضاعفت هذه المشاعر من رغبتي فيها وحرصي عليها، فقد أصبحت أحس أنها بالنسبة لي أمل كبير وكبير جداً علي أن أسعى لتحقيقه واجتهد لنيله وقد كان هذا الإحساس كفيل بإعطاء حبي شكلاً جديداً يزيده روعة وحرصا وإصراره، وتمنيت أن أبقى صامتاً مندمجاً مع مشاعر الحب الطاهرة التي نورت جنبات روحي بنورها المشرق ولكن كانت أمامي مهمة إثبات براءتي وغسل الشوائب عن قلب سندس وفعلاً فقد بدأت أتحدث بحديث تلك الليلة وكانت تستمع إلي بهدوء انتهيت وكأن الصدق الذي كان الاقتناع بعد أن انتهيت من الحديث، وانتظرت أن تطلب مني الدليل ولكنها لم تطلب وقالت بصوت يعبر عن الراحة والفرحة:

الحمد لله، نعم الحمد لله الذي لم يخب أملي فيك وأعادك إلي وأنت أحس مما كنت، قلت:

أراك لم تطالبيني بالدليل على ما ذكرت؟ قالت:

لقد اقتنعت بدون دليل لأنك مسلم والمسلم لا يكذب، قلت:

ولكنني أريد أن أقدم الدليل لكي أرتاح أنا يا سندس ثم قدمت لها الشريط قائلاً:

هذا هو الشريط الذي يحكي عن موقفي في تلك الليلة والذي كان يعمل داخل المسجلة التي كنت أحملها بيدي، قالت:

كلا أنني لا أريد أن أسمعه لكي تعلم بأنني ما زلت أثق فيك، قلت:

إذن دعي الشريط لديك يا سندس، فأخذته وهي تقول:

استجابة لرغبتك يا فؤاد، وبعد هذا بدأنا نتحدث فترة عاد خلالها الأستاذ فشرحنا له أمرنا بإيجاز فبارك لنا صلاح حالنا وودعناه وانصرفنا وكلانا يشعر براحة كان قد افتقدناها منذ زمان.

□□

ومرت الأيام، ونحن دائبان على مطالعة الكتب التي ذكرها لنا العالم الديني وكنت عند الفراغ من مطالعة كل كتاب ازداد حباً بديني وإيماناً به وأعجب لنفسي لماذا وكيف كنت أدعي الإسلام دون أن أعرف عنه شيئاً، أما سندس فكانت قد التزمت بالحجاب بعد أن التزمنا معاً بالصلاة، وبعد أن انتهينا من مطالعة الكتب اتصلنا بالأستاذ نطلب منه موعداً فحدده لنا في أقرب فرصة، فذهبنا إليه وعندما استقر بنا الجلوس قال:

هل قرأتما الكتب التي ذكرناها؟ قلنا بصوت واحد:

نعم لقد قرأناها، قال:

وهل تعرفتم على المثل التي قدمها الإسلام؟ فأجبنا قائلين:

نعم لقد تعرفنا عليها وتمنينا أن نسير على خطاهم.. فالتفت العالم الديني نحو سندس وهو يقول.

والآن فإذا حصلت لديك القناعة الكافية بحق الإسلام فتفضلي وأسلمي يا بنتاه، وهنا بادرت أنا قائلاً:

أرجوك يا مولاي أن تلتفت إلي أولا فإلتفت نحوي قائلا بإستغراب.

أنت؟ قلت:

نعم أنا فإن علي أن أسلم أولا فلم أكن أعرف عن إسلامي ما عرفت ولم أكن مسلما إلا بالإسم فقط، فإبتسم الأستاذ ونظر إلي نظرة عميقة ثم قال:

ولكنك لا تحتاج إلى أن تردد الشهادتين يا ولدي ويكفيك أن تكون مؤمناً إيماناً بالإسلام وبما جاء فيه، قلت:

أنني مؤمن به كل الإيمان يا سيدي قال:

وهل أنت مستعد لأن تضحي من أجل الإسلام؟ قلت مؤكدا:

نعم وبكل شيء، قال:

أعطني مثلا عن ذلك، قلت:

أنني الآن لو علمت أن سندس غير مؤمنة بهذا الدين لروضت نفسي على تركها مع أنها أحب إلي من نفسي ومن الوجود وما فيه، فعاد يلتفت إلى سندس وهو يقول:

وأنت يا إبنتي؟ قالت:

إنني أشعر تجاه الإسلام بنفس الشعور فأنا لم أعد أرضى بفؤاد لو لم يكن مسلماً واقعياً مع أنه أعز إنسان عندي وأغلى ما في الوجود لدي، قال:

إذن فبارك الله فيكما ووفقكما لمراضيه وجعلكما نواة صالحة لجيل صالح خير وبعد هذا شهدت سندس شهادة الإسلام وقدم لها الأستاذ مصحفاً كريماً مذهب الحروف كما أنه قدم لي علبة من الحلوى النادرة فشكرناه من صميم قلوبنا وودعناه وخرجنا بعد أن ولدنا على يده من جديد، وبعد فترة تم عقد قراننا وعشنا في أسعد حال. وعندما رزقنا الله ولدا أسميناه بإسم العالم الديني تيمناً به ولكي لا ننسى فضله علينا.

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

صدق الله العلي العظيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

بنت الهدى

٩

كلمة ودعوة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إلى المجد يا فتيات الهدى لنحيي مآثرنا الخالدات
ونمضي سوياً إلى غاية لأجل لقاها تهون الحياة
ونكتب تاريخنا... ناصعاً مضيئاً بأعمالنا الزاهرات
فأما مقام العلى نرتقيه وأما قبوراً تضم الرفاة

النجف الأشرف

بنت الهدى

الاهداء

إلى فتاة الإسلام المفدى...

إلى من استحالت برسالة السماء إلى سيدة وقائدة بعدما كانت مسودة وموؤودة! إلى حفيدة حاضنات الإسلام خديجة والزهراء بنت سكينة والحوراء. إلى المتطلعة لحياة سعيدة خيرة تنشد بها سعادة الدنيا والآخرة.

إلى أختي المؤمنة في كل مكان، أهدي هذه البضاعة المزجاة والمجموعة الاسلامية، كمذكرة أخوية تزداد بها مناعة ووقاية من السموم الأجنبية الفاتكة، وهي بالوقت نفسه بلسم لجراحها وشفاء لصدرها وقوة جبارة لبعض نقاط ضعفها بعون الله تعالى.

نجف الأشرف

بنت الهدى

تمهيد

من أنت

كتبت إليَّ أخت مسلمة وسألتني قائلة: لماذا بالله عليك لا تصرِّحين عن إسمك الصحيح لنعرف من أنت ومن تكونين؟

فإليك يا أختاه جوابي لعلّك تعرفين منه مَن أكون أنا؟.

فأنا أولاً وبالذات أختك المخلصة الدائبة على تتبع آثارك وتعقب خطواتك بدافع الحب والعطف، وأنا أيضاً متطوعة مختارة لأجل قضية الإسلام وحمل مشعله الوهاج ما وسعني حمله وعلى قدر طاقتي وإمكانياتي في الجهاد، وأنا أيضاً من أريد أن أجعل من نفسي مثلاً ونموذجاً أجري عليه تجارب أدب الإسلام التي قد يظن البعض الجاهل أو المتجاهل أنها تجارب فاشلة، فأنا أريد أن أثبت بنفسي ما يحدثنا به التاريخ الاسلامي عن أمهات وأخوات لنا في صدر الإسلام ناهضن بثقافتهنَّ أعاظم الرجال مع تمسكهنَّ بالإسلام وتعالميه.

ولا يخفى عليكِ يا أخيّة أني لم أكن لأقول هذا وشبهه لو أنك كنت تعرفين إسمي الصغير التافه، وهذا أحد الدواعي لعدم ذكري لذلك الاسم الذي أكاد أنساه أنا نفسي فلماذا لا تنسينه أنتِ أيضاً يا عزيزتي؟.

فأنا في أكثر أوقاتي أصبحت مندمجة معكنَّ ومنصرفة عن نفسي إليكنَّ، ولهذا فأنا في أكثر أوقاتي أكون بنت الهدى تاركة ورائي تلك الحروف التي لا دخل لها بما أنا في سبيله.

نعم حروف لا تتعدى الأربعة فما خطرها إذن؟ وما شأنها بالنسبة للغاية التي أبتغيها؟ فلكِ أن تتصوريني كما تشائين.

تصوريني سيدة عجوزاً قد أكتمل عمرها وتقدمت بها السنون، فهي تضع النظارات على عينيها وتدني النور إليها، أو تدنو هي من النور، ثم تمسك القلم

وتقرّب نحوها الدواة وتباشر الكتابة إليكِ، وهي بين حين وآخر تعيد ترتيب أوراقها ثم تضع القلم جانباً برهة لتريح يدها ورأسها، ثم تعود مرة أخرى لتكتب وتستأنف ما قطع عليها التعب. وأخيراً... وعندما تنتهي من الكتابة تستلقي على ظهرها لتستريح وهي تشعر بدوّار وإعياء.

ولكِ أيضاً أن تتصوريني امرأة قد تخطّت الشباب أو كادت قليلة الكلام كثيرة الفكر، لا تكتب إلا بعد طول تروٍّ وتأملٍ إذا كتبت إقتضبت، وإذا تحدثت اختصرت، ومن رأيها الخاص أن الكتابة لا يمكن أن تجتمع مع أي شيء آخر، فهي إذا كتبت تركت كل شيء، وإذا كان لديها أي شيء تركت الكتابة، وإذا أرادت أن تكتب تنفرد بنفسها في غرفتها الخاصة فتجمع فوق منضدتها شتى الكتب لتختار من بينها الموضوع الملائم. فهي حريصة جداً على أن لا تكتب إلا في مكانها الخاص، وفي جوّ ملائم هادىء، وهي حريصة أيضاً أن يدل مظهرها على شخصيتها وأن يرسم في خطوط جبينها وحركاتها خطوط أفكارها وميولها.

ولكِ أيضاً أن تتصوريني فتاة شابة في ريعان الشباب ضاحكة الثغر، طلقة المحيا تندمج في كل موضوع ولا يفوتها شيء مما حولها ترضي كل جليس، إذا كتبت تكتب بسرعة وبدون أي مقدمة، وإذا تكلمت تتكلم بهدوء وتحسب لكل كلمة حسابها ليس عندها أي مكان خاص بها تستنزل فيه الإلهام، أينما خطرت لها خاطرة أو عنت لها فكرة سجّلتها على ورقة أو أي شيء آخر حتى ولو كان علبة سيجارة، وهي حريصة على أن لا يتأثر مظهرها بأفكارها وميولها، وأن لا تكتب أفكارها على قسماتها وحركاتها، ولهذا فهي بين ذلك كله فتاة كباقي الفتيات لا تتميّز عنهنَّ بشيء إلا بقوة الإرادة وسموّ الروح، وهي تستطيع أن تتحمّل كل شيء، وأن تُجاري كل أحد سوى جهل الجاهلات بأحكام الإسلام، ولكنها مع هذا لا تكاد تعرف أنها هي تلك الغيورة الصارمة في تعاليم دينها، فإن لها طريقتها الخاصة باتباع هذه التعاليم لا يتأثر منها مظهرها، تصوري هكذا إذا شئت.

وتصوريني: إذ أكتب إليك أفترش الأرض والحصير وأجعل من رجلي

منضدة أريح فوقها أوراقي المبعثرة لأملي عليها أفكاري! نعم تصوريني هكذا، وإذا شئتِ فتصوريني شابة تشعر بشعوركِ وتمرّ بالمرحلة التي تمرِّين بها وتنظر إلى كل ما تنظرين إليه ولكن من وراء منظار الواقع والحقيقة، لا تغشها المظاهر الخلابة ولا تغريها كل أساليب الإغراء، تصوريني هكذا إذا شئتِ بل تصوري أية صورة من هذه الصور حيث تجديها أقرب إلى فكرك فاختاري منها إحداها، أو اختاري غيرها، وكوني مثلي فأنا لا أنظر إلى الإنسان تحت إطار إسمه أو مظهره أو ملبسه، وإنما أنظر إلى روحه وقلبه وأفكاره، وتذكري دائماً وقبل كل شيء أني أخت لكِ متواضعة وقريبة منكِ كثيراً وأكثر مما تتصورين، لأن القرب للروح والفكر والرأي:

قد يجمع الرأي أشخاصاً وإن بعدوا   وقـد يـفـرق خـلـف الـرأي إخـوانـاً

وأخيراً فرجائي إليكِ أن تنسي تلك الحروف القليلة، واذكريني أنا بشخصي الروحي لأكون فخورة بذلك، وثقي أن ليس لإسمي أي دخل فيما أكتب وفيما تقرئين، ودومي للمخلصة لكِ إلى الأبد

النجف الأشرف

بنت الهدى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله فاتحة كل خير، وتمام كل نعمة، والسلام على مصدر الهدى والحكمة، «سيدنا ونبينا محمد نبيّ الرحمة».

وعلى آله ومن والاه من الأصحاب والأمة... ربِّي إغفر لي ولأخواتي اللأَّتي سبقنني بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا، وثبِّتنا على دينك.

ربِّ اشرح لي صدري ويسَّر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقه قولي.

أختاه...

ها أنا ذي ألتقي بكِ في هذه المذكرات لأحدثكِ حديث الأخت المحبة ولأناجيكِ مناجاة الصديقة الناصحة، ولأناديكِ نداء الصاحبة المشفقة، فاجهدي بالله عليكِ يا أخيَّة أن يداعب أذنيكِ الرقيقتين صدى كلماتي، وأن يصل إلى قلبك الفتيّ المتفتّح للحياة الحرّة الشريفة لحن أنغامي.

وكلي أمل وكلّي رجاء أن تهبيني شيئاً من ذات نفسكِ وفكركِ فتقبلي على مطالعة هذه الصفحات شاعرة بإحساسك المرهف بأن هذه الكلمات ليست إلا هتافاً أخوياً من أخت مؤمنة ناصحة مشاركة لكِ في مشاعركِ ملتقية معكِ في عواطفكِ، فهي تحسّ ما تحسِّين به، وتدرك ما تدركينه وتفكّر في كلّ ما تفكِّرين لأجله من شعب الحياة وألوانها، وقد جاءت لتلتقي معكِ بروحها وبأفكارها على صفحة قرطاس، وكلها حبّ لكِ وإخلاص ولا تحمل لذاتك إلا تقديراً وإحتراماً.

فاسمعيني إذاً يا أختاه... وأنا أناجيكِ بلسان الإسلام ديننا المفدى الحبيب، ومبدئنا العادل الخالد... إنصتي لي يا أخيَّة، وأنا أناجيكِ بلسان

القرآن العظيم الذي إرتفع بالمسلمين عامة وبنا نحن النساء خاصة إلى درجة عالية وعالية جداً.

فاسمعيني ما أقول: وغلّفي سمعكِ العزيز عن الكلمات الفارغة الجوفاء، التي ربما تسمعينها من قوم مغرضين متهمين هم أقسى من يكون عليكِ وأبعد الناس عن رعاية حقوقكِ وعقباكِ، أو جهلاء بعداء عن مفاهيم الإسلام وآدابه «فإن العلم يدعو للإيمان» وهو فريضة على كل مسلم ومسلمة.

فهيّا معي إلى درس هذه المفاهيم السماوية الخالدة وهلّمي بنا للتمسّك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها لترتفع إلى حيث شاء الله تعالى لنا من العزّة والكرامة والحشمة.

حقوق المرأة في الاسلام

أختاه. . .

مرحباً بكِ وأنت تلتقين معي على هذه الصفحة لنراجع السير ونتابع السبر، ولنرجع بذاكرتنا معاً إلى أزهر عهود البشرية: عهد الاسلام في فجره المشرق السعيد، لنستقرىء دور المرأة المسلمة في ذلك العصر الذهبي ولنتطلع إلى موقعها في الإسلام ونظامه الاجتماعي.

هذا الإسلام الذي ركَّز للمرأة كيانها في ذلك العصر الرهيب الذي كانت الفتاة به موؤودة! تسود وجوههم إذا بشّروا بها.

نعم في تلك الفترة المتبقية، وبين معترك تلك الأفكار الهوجاء وافانا الله تعالى بدين الاسلام، فأشاد بالمرأة في القرآن، وجعلها في صفّ واحد مع الرجل، لها ما له وعليه ما عليها، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٍۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وهكذا خلق الإسلام من المرأة المسلمة خلقاً إجتماعياً جديداً، وركّز لها مكانتها في الأوساط الإسلامية، وارتفع بمعنوياتها حتى شهدت الحروب ونزلت إلى سوح الجهاد، وكتبت لها أنصع صفحة في تاريخ الأمة الإسلامية منذ عهد خديجة أم المؤمنين أول حاضنة للرسالة المحمدية، واستمر التاريخ يحدثنا عن أمهاتنا اللاتي استنَرْنَ بنور الإسلام السماوي فقدّمن الضحايا والشهداء من إخوانهنَّ وأفلاذ أكبادهنَّ، ولم يكن المصاب ليزيدهن إلا غيرة وحماساً وتفانياً في سبيل تركيز راية إسلامهنَّ الخالد!

فما أجدرنا اليوم إذ تمتحن رسالتنا الحبيبة بشتّى المحن أن نرفع مشعل الدعوة الاسلامية، ونستثمر علومنا وتعلمنا في سبيل الدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن نذكر دائماً وأبداً أن نبيّ الرحمة ﷺ كان قد أوصانا بطلب العلم وجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة لكي يكون للمرأة المسلمة

نصيبها من الدعوة إلى مبدئها ونظامها الخالد، ولكي تكون قادرة على صدّ هجمات المغرضين، وردّ دعايات المرجفين. لا لتتلاعب مع الريح مصفرّة أو محمرّة شرقيّة كانت أو غربية، ولكن لكي تسير على الطريق المهيع السويّ وتتمسّك بالاسلام ديناً ومبدأ ونظاماً، ولكي تتفهمه لترى فيه كل ما تطمح إليه من تقدم ورقيّ وازدهار فلا تعود تتطفَّل على المبادى الدخيلة والأفكار المستوردة الضحلة.

ومن ثمّ أرادها أن تتعلّم لتعرف جوهر الاسلام على حقيقته الرائعة لتتعرّف على إنحلال الغربيات وتحجّر الشرقيات. أرادها أن تكون شعلة من نور سماوي، ويحاول المجتمع الفاسد أن يحيلها إلى لفحة من نار أرادها أن تكون ريحانة عطرة، ويريدها المفهوم الحيواني أن تغدو كورقة صفراء ذابلة تتلاعب بها الريح، خلقها لتكون ربّان سفينة فجعلتها الحضارة الكاذبة لعبة ساعة من الزمان خلقها لتصبح مدرسة أجيال! ولكن قوى البشر تجهد لتحويلها إلى آلة صمّاء...

فإلى الإسلام يا فتيات الإسلام وإلى الدعوة إليه يا حفيدات خديجة والزهراء وبنات سكينة والحوراء، فإن فيه الأمن والأمان وهو أعذب مَعِين ننهل منه وأصفى غدير نرد فيه ولن ينخذل أو يرتد (فاشلاً) من يدعو إليه - وإليه فقط - أبداً فقد مرّت على إسلامنا الحبيب أهوال وأهوال على مرّ العصور، ومنذ أشرق نوره في مكة (أم القرى) ولكنه خرج منها جميعاً أوسع دعوة وأقوى حجة وأصلب عوداً!

فالله قد وعدنا النصر، والله لا يخلف الميعاد.

والسلام على من اتّبع الهدى.

تقصير المسلمات

جمعتني الظروف مرة مع بعض فتيات من بنات الإسلام وهنَّ لا يحملن من الإسلام إلا اسمه، ولا يعرفنَ منه شيئاً اللّهمَّ إلا اسم نبيهنَّ ﷺ لا أكثر ولا

أقل! ولذلك فلم يسترعين إنتباهي من قريب أو بعيد فما عليَّ منهنَّ، وكيف لمثلي أن تتسلّل إلى حيث قد تسلّل قبلها الشيطان ولكن بعض كلماتهنَّ إسترعت إنتباهي بصورة خاصة جعلتني أحسّ بمرارة ما فوقها مرارة فقد كنَّ يذكرنَ في حديثهنَّ الراهبات المسيحيات، ويشدنَ بتمسكهنَّ بالتقاليد الدينية عندهن، ويذكرن لباسهنّ ومسوحهن بكل إكبار وإجلال وإعجاب في الوقت الذي ينظرن فيه إلى المتمسكات بالإسلام على أنهن شبح رجعي مخيف! فلماذا؟ وهل هذا يرجع لشيء سوى لتقصيرنا نحن المسلمات ولتقاعسنا عن التبشير بديننا والدعوة إليه وعلى وجهه الصحيح؟ وهل هذا لشيء إلا لانطوائنا على أنفسنا كلٌّ يعمل على شاكلته؟ ناسين أن من ورائنا نشئٌ يجب أن نغذيه بمعتقداتنا، ونفهمه معالم ديننا الواضح المستقيم، ولكن الراهبات المسيحيات لا يفتأن يبشرن ويدعون ومن ورائهنّ قوى تبشيرية هائلة تجنّد لدعوتها القوة، والمال، والجاه وكل شيء! والراهبة لها نظام خاص ولها مسؤولية معينة تعرف منها مواهبها، وتدل على واقع شخصيتها! على العكس تماماً مما نحن فيه! فنحن إما خائفات جبانات، وإما جاهلات عاجزات، وإما مسالمات خجولات، وإما مقيّدات محكومات هذا عدا من خالفت الطريق وانحرفت عن ركب الدعوة. فنحن لو لم نكن على هذا الحال من الفرقة، والتشتّت والغفلة، والجهالة واختلاف الآراء والأهواء، وتضارب الأفكار والميول، لو لم نكن هكذا لاستطعنا أن نحفظ مكاننا وكياننا كمثل أعلى للمرأة المسلمة المتمسكة بالاسلام، ولتمكنَّا من فرض شخصيتنا على بنات جنسنا جميعهنّ ولما تركنا بنات الإسلام ينجذبن إلى قوة شخصية الراهبات ويعجبن بصمودهنَّ وثباتهنَّ، فنحن فينا من تستطيع أن تقهر العالم بصمودها! وفينا من تتمكن أن تقف أمام كل تيّار رافعة الرأس راسخة القدمين، واثقة من الفوز الأخير، ولكن من أين لأمثال أولاء الفتيات أن يتعرفن على هذه وأشباهها؟ وهنَّ كثيرات والحمد لله! نعم من أين لهنَّ أن يعرفنَ ونحن على ما عليه من فرقة وعدم تنظيم ولهذا فلن نتمكن أن نصل من دعوتنا المستوى الذي نريده لها وتستحقه، وكيف لنا أن نرفع صوتنا عالياً على كل صوت إسلامي وغير إسلامي، ما دمنَ بنات الإسلام

جاهلات بنا غافلات عنَّا؟! فإلى متى نظلّ على ما نحن عليه من غفلة وسبات، أما آن لنا أن نفيق؟!

ضحية المجتمع

أختاه..

دعيني أحدثك اليوم عن واحدة من أخواتنا المسلمات، وهي صديقة حميمة لي كانت تجمعني وإياها صلة وثيقة تتعدى القرابة والصداقة! ولهذا فقد عرفتها عن قرب وعن قرب جداً فرأيتها مثال الفتاة الطيبة الطاهرة فضميرها ناق كالبلور، وفؤادها خالٍ من كل عوامل الحقد والخداع، وفكرها صافٍ كصفاء صفحة السماء، وروحها عذبة رقراقة كالزهرة المتفتحة في الأكمام! لم تكن تظن بأحد السوء ولم تكن تضمر سوءاً تجاه أحد. وأكاد أتمكن أن أقول أنها لم تكن تعرف الحقد والبغضاء بمعناها الصحيح! كانت تخدعها البسمة وتسحرها الكلمة العذبة. وتتملكها عبارة واحدة محببة كانت تثق بكل رفيقاتها ثقتها من نفسها تماماً! هي وفيّة مخلصة تبذل يد المعونة لكل محتاجة من أخواتها المسلمات. كانت تنتهز الفرصة للمشاركة بأعمال الخير في نطاقها الخاص وعلى القدر الذي تستطيعه. كانت متواضعة في سلوكها وتصرفاتها وإن تكن في الواقع جديرة بكل تكبّر واستعلاء. إذا كان التكبّر والاستعلاء دليلاً على سموّ المكانة، أو أصالة المنبت. فإن لها من أصالة المنبت ما تتمكن أن تباهي به النجم في السماء! كانت تعطي من نفسها أكثر مما تأخذ بكثير، فهي وبدافع من غريزتها الطاهرة كانت تشعر أن الحب شيء مقدس لا يساوم عليه ولا يقابل بمثيل. كانت تحسن حباً بالإحسان وإشباعاً لرغبتها في مساعدة الغير، وثقة منها أنها بهذا ستكون الرابحة في الدارين... وعلى كل حال فقد كانت فتاة مثالية قلَّ أن رأيت لها مثيلاً في بنات حوّاء! ثم حدث أن ابتعدت عنها مدة من الزمان لم أتمكن إبَّانها من مطالعتها ومراجعتها. ثم عدت ولقيتها مرة ثانية

وكانت قد بلغت في شبابها قمة الفتوة وريعانها شباب ناضج وعقل مكتمل ورأي مستقيم، نعم رأيتها غير التي عرفت من قبل! وقد طالعني منها أول ما طالعني منظارها القاتم الذي أصبحت لا ترى الدنيا إلا من ورائه. ثم عرفت منها أنها وفي هذه المرحلة الدقيقة الحساسة من العمر قد اكتشفت في مجتمعها نواحٍ كانت تجهلها منه. واطلعت على مفاهيم خاطئة لم تكن تخطر لها على بال، وقد تعرّفت إلى كل هذا عن طريق غير مباشر، فهي ما سمحت لنفسها يوماً أن تنزل عن أفقها العالي ولكن وعلى أي حال عرفت كيف يقابل الوفاء بالخيانة والحب بالحقد والنصح بالخديعة، واكتشفت كيف أن المفاهيم الخيّرة تنعكس في نظر المجتمع إلى مفاهيم عدائية!

وكيف تنعكس المثل وتقابل بالنقيض! فهي لم تستشعر في يوم من الأيام أن هناك فيمن حولها من يفرق بين المحسن والمسيء في كل ظرف وحين خلافاً لما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تجعل المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء فإن في ذلك تزهداً لأهل الإحسان بالإحسان وتحريضاً لأهل الإساءة على الإساءة» وهكذا ولهذه النواحي وأشباهها أخذت تتبرّم بالحياة وتسعى إلى العزلة والانفراد وترأب بعواطفها وألطافها على أن تضع الأشياء في غير موضعها اللائق بها. وقد تبدل لهذا سلوكها وتغيّرت طباعها وفقدت تلك الراحة النفسية التي كانت تتمتع بها من قبل! وعلى هذا الوضع رأيتها كما قدمت فما رأيك بالله عليكِ يا أختاه؟ أليست هذه المسكينة ضحية من ضحايانا نحن بنات حواء؟ نحن اللواتي لا نفتأ نشيع في المجتمع روح النفرة والبغضاء. والحسد والصدأ لا يطيب لنا السمر إلا بأكل لحوم أخواتنا بالغيبة. ولا نسمع كلمة عن إحداهنَّ إلا وحسبنا لها سبعين حساباً كل واحد أسوأ من الثاني! فإلى متى وحتى متى نبقى سائرات في هذا الطريق الشائع المعوّج؟ أما آن لنا أن نستفيق من سباتنا فنعقم نفوسنا ونطهّر سريرتنا؟ أما آن لنا أن نثبت بأن المرأة المسلمة يمكن أن تكون قدوة لغيرها من النساء وأنها متبوعة لا تابعة. أما آن لنا أن نميز الخبيث من الطيّب والعمل الصالح من العمل الفاسد حتى لا نخسر

أرواحِ فتياتنا الطاهرة ونحافظ على سريرتهنَّ النقية. وأخيراً فلا يخفى أني أنا أيضاً واحدة من بنات حوّاء مثلي كمثلهنَّ وعلى هذا فلا مؤاخذة من أخواتي ولا عتاب. ثم سألت صاحبتي هذه قائلة: هل ندمتِ يا عزيزتي على ما قدّمت يداكِ من إحسان وما وهبه قلبكِ من حب؟ وهنا شعرت أن صراعاً عنيفاً قام بين عقلها وعاطفتها وكنت آمل أن يتغلّب العقل فتردّ عليَّ (لا). ولكنها وكأنّي بها لم تتمكن من مقاومة أي من الدافعين فسكتت ولم ترد عليَّ فأجبت أنا بدلاً عنها فقلت: قولي لا يا عزيزتي فإن عمل الخير في نفسه شيء جميل، وصفاء النفس بذاته شعور مريح، فلا تأسفي على شيء منهما ويكفيكِ سعادة أنكِ تطالعين صفحات ماضيكِ فترينها بيضاء ناصعة خالصة من كل شوب، فقولي: إني لست نادمة يحفظ الله لكِ أجرَ ما فعلتِ فتربحي بذلك الربح الكثير، لا تندمي يا صاحبتي ولا تيأسي فما زالت الدنيا في خير، ولا يزال هناك من يحفظ الجميل ويقدّر الفضل، ولهذا فإني أرجوكِ بل ألحُّ عليكِ أن لا تدفعكِ الخيبة من المجتمع إلى الحقد عليه. لا يجرّنكِ الفشل في عمل الخير إلى الزهد فيه، بل استمري على السير في طريقك الواضح، وحاولي أن ترفعي عن عينيكِ هذه الغشاوة القاتمة لتعودي كعهدي بكِ فتاة طيبة رقيقة مرهفة، حلّقي في سماء الكمال ولا تهبطي إلى حضيض النقص، فإن أهم ما ينقص من المرأة ويحطّ من مكانتها هو الحقد والظنّ السوء، فلا تحقدي وتظنّي بأحد السوء، إحملي أختك على سبعين محمل خير، وسوف ترين راحتكِ النفسية، وقد عادت إليكِ كأروع ما تكون!! وهكذا رأيت أن أحدثها أشباه هذه الأحاديث ولم أفارقها إلا وأنا على ثقة أنها سوف تكون في مستقبلها كماضيها، ولكن ما يدريني ولعل لبنات حواء الأخريات تأثيراً معاكساً يعود بها القهقري مرة أخرى عصمها الله وحرسها منهنّ. ولابدَّ أن أراجعها مرّة ثالثة إن آجلاً أو عاجلاً إن شاء الله.

يا فتاة القرآن

أختاه . .

ما أسعدني وأجدرني بالفخر وأنا أراكِ معي في حقلنا هذا بروحكِ الفيَّاضة وقلبكِ الفتيّ يا بنت الإسلام العظيم. ويا فتاة القرآن الخالد ويا نبعة المجد، وزهرة العزّ الشامخ، وسليلة الجهابذة من الآباء والأجداد، نعم معي في هذا الحق لنمضي في سيرنا نحو الأمام، لا يعيقنا كسل ولا وهن، ولا يقعدنَ بنا ملل أو سأم فنحن مع الله، ونور الله لا يطفأ ونحن في سبيل الحق، حتى نصل المرفأ الأمين وليس الدرب ببعيد بل أنه سهل يسير لا يتطلب إلا صموداً كصمود الأولين، ودعوة حسنة إلى ديننا الحبيب، فإسلامنا - والحمد لله - بخير، وفيه من الطاقات ما يصمد بها أبد الدهر.

ولكننا نحن، نحن الذين جرفتنا الحضارات المختلفة، واندفعنا في تقليدنا الأعمى لكل ما هو أجنبي غريب، فنسينا أن لنا من مبدئنا السامي ما يرتفع بنا عن وهدة التطفل، وأن فيه من الإمكانيات الإصلاحية ما يصوننا عن التذبذب بين الأفكار المستوردة والإصلاحات المعكوسة التي يوحيها إلينا الاستعمار بشتّى أنواعه وأشماله والتي لا يراد منها إلا تفسيخ مجتمعنا الاسلامي، ليسهّل النفوذ إليه من ثغراته المفتوحة، ومن جوانبه المفككة.

فالمجتمع - أي مجتمع كان - لا يمكن أن يتركز إلا على روحيات أفراده ومعنوياتهم، فإذا سمت الروحيات سما المجتمع، وإذا ارتفعت المعنويات إرتفع وإعتصم من الأدران، وهذا ما يريده الإسلام للمجتمع الإسلامي، حياة حرّة نظيفة كلها صدق وإخلاص وتعاون ووفاق لا تشوبها البغضاء، ولا يعكّر صفاءها الحقد والخداع، حياة طيبة طاهرة يكون المسلمون فيها إخواناً والمسلمات أخوات تسودهم المحبة وتظلّهم راية القرآن، قلوبهم واحدة، وأيديهم واحدة، واتجاههم واحد.

نعم هذا الذي يريده الإسلام للمسلمين، وهذا ما لا يريد أعداؤه والحاقدون، بل وهذا هو ما يرغب الاستعمار والطامعون لأنهم يريدون أن

يسيطروا علينا تحت ستار من التضليل والخداع ملوّن بألوان حضاراتهم البرّاقة - لننجرف وراءهم بدافع التجديد والتبديل!.

وفعلاً فقد انجرفنا بقصد أو بدون قصد، مع كل الأسف. فالواحدة منا نحن المسلمات تدخل المعاهد العلم لتتعلّم وهذا ما يرحّب به الاسلام بل ويدعو إليه... ولكن في نطاق من الحشمة والفضيلة طبعاً، فلا بدَّ للمرأة أن تتعلّم لكي تسمو بالنشء الذي تعدّه للغد. ولكي تكون جديرة بتحمّل أخطر مسؤولية في المجتمع، لكونها المدرسة الأولى في الحياة، إذن فلتتعلّم المرأة المسلمة ولتجتهد في طلب العلم أيضاً، فقد جاء الرسول ﷺ قوله: «أطلب العلم ولو في الصين» فالعلم أينما كان هو العلم لا يتحوّل ولا يتبدّل ولا تتغيّر نتائجه ومعانيه، ولذلك فنحن نرى أن كثيراً من علماء العالم قد توصلوا إلى غايات واحدة في إكتشافاتهم العلمية، ولكل منهم فكرته في الحياة، إذن فقد يجمع العلم أشتاتاً متباينة وقد تتفق عليه بأفكار متضاربة... ولكن الثقافة، هذه الثقافة الأجنبية التي غزت بلادنا ظلماً وجوراً، والتي لا يمكن لمتبعيها إلا الابتعاد عن روح الإسلام ومعانيه! هي نقطة الداء في حياتنا الاجتماعية والفكرية، فالعلم شيء والثقافة شيء آخر. وفي عدد قادم سوف أوافيك يا أختاه، بشرح واسع للفرق بين المفهومين وموقف الاسلام من كل منهما إن شاء الله وإلى اللقاء.

منزلة المرأة الصالحة عند الامام الصادق عليه السلام

أختاه...

دفعتني رواية مقدسة وردت على لسان الإمام أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام أن أعود فألتقي بكِ ثانية بعد أن كنّا إفترقنا فترة كنت فيها تلك الفضولية الملحاحة المستطلعة عليكِ أنتِ وحدكِ لا غير، وكنت أتفاءل أيضاً بأنّكِ سوف تشبعين فضولي بما سوف تطالعين به من إنتاج أدبي إسلامي، تتبيّن

فيه كفاءتك في هذا الميدان، ولكنني مع الأسف لم أزدد إلا فضولاً، ولم أكتسب إلا حسرةً وألماً، فكلما قلبت صفحات وطالعت وريقات إفتقدت صوتك بين الأصوات! ولم أكد أحس مكانك في مفترق التيارات، ولست أدري وأيم الحق ما الذي حدا بلبوات الإسلام إلى هذا السكوت المشين والعي أعيذهن منه!؟ أو لتجاهل بعمق رسالتهنّ في الحياة؟ أو الجهل لخصوصيات إسلامهنّ لا قدَّر الله؟ أو لدواعٍ أخر يمليها عليهنَّ مجتمع فاسد في إفراطه أو تفريطه؟ هذا المجتمع الذي ندعو إلى إصلاحه إصلاحاً جذرياً كي لا يكمم أفواه النساء بأكمام التحلل الأجنبي أو التعنّت الجاهلي. والله وليّ التوفيق. . .

والآن وبعد أن أستميحك العذر إذ كنت قد أسأت إلى مشاعرك العزيزة فما أنا إلا أختك الناصحة التي تأبى أن تكون دائماً على هامش الحياة مدعوة وليست بداعية. أعود الآن إلى الرواية التي جاءت على لسان الامام العظيم أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام إذ يحدد فيها مفهومه عن المرأة الصالحة فيقول: «المرأة الصالحة خير من ألف رجل غير صالح» وهو يقصد بها أن يقرر بأن الإنسانية في نظر الإسلام لها قيمة واحدة، وميزان واحد للكرامة بقطع النظر عن كل الصفات الطبيعية التي يتميز بها الأفراد، وهذا الميزان الواحد في نظر الإسلام هو الصلاح والتقوى، فمهما كانا متوافرين كانت الانسانية أفضل وأكمل، ومهما إبتعد الإنسان عنهما خسر بذلك كرامته في مفهوم الاسلام كائناً من كان، فلا الرجل بما هو رجل يفضل المرأة، ولا المرأة بما هي مرأة تفضل الرجل في حساب الإنسانية العامة، بل قد تكون المرأة الواحدة خيراً من ألف رجل إذا كانت صالحة! ولا يتعارض هذا مع الوظائف التي وزعت على الرجل والمرأة في الأسرة الإسلامية، ولا مع القيمومة التي أعطيت للرجل على المرأة فيها، فإن هذه القيمومة التي إضطلع الرجل بموجبها بإدارة معاش البيت والحفاظ على وحدته، لا تعبر إلا عن توزيع طبيعي للوظائف في مجتمع صغير وهو الأسرة والمتكونة من أب يعيل ويحافظ، وأم تلد وتربّي، فهي ليست قيمومة أفضلية، وإلا لكان كل رجل قيماً على المرأة التي يعايشها وإن كانت أمه وأخته وليس الأمر كذلك، هذا بعض ما عناه الإمام عليه السلام في قوله:

«المرأة الصالحة خير من ألف رجل غير صالح» والصلاح هنا معنى عام يمتد إلى كثير من النواحي والمجالات، فصلاح المرأة لنفسها هو تطبيقها لأحكام الإسلام على سلوكها الخاص. فصلاح المرأة لبيتها أن تشيع روح الاستقرار والسعادة، وتكفل أولادها إذا كان لها أولاد كفالة تتيح لهم إكتساب الشخصية الإسلامية الحقيقية وتبث في نفوسهم بذور الورع والتقوى والأدب، وصلاحها للإنسانية أن تساهم في الحقول النافعة التي لا تتعارض مع وظائفها الأولية. وأهم تلك الحقول هو تبنّي الدعوة إلى أشرف مبدأ عرفته الإنسانية ألا وهو الإسلام.

فإلى هذا الصلاح يا أخوتي المسلمات، إلى الصلاح والإصلاح في مختلف الميادين والمجالات لتكون الواحدة منكنَّ خيراً من ألف رجل غير صالح، وألف إمرأة غير صالحة، والسلام عليكنَّ وعلى من إتبع الهدى.

لماذا ابتعدنا عن الإسلام

أختاه...

أراني حريصة في لقائنا اليوم على أوجه ندائي الأخوي هذا إلى كافة المسلمين بدافع من الغيرة الإسلامية والأخوة الإيمانية، فأقول: يا أيها الأخ المسلم الكريم، لقد أصبح الإسلام وديعة عندك وأمانة لديك، وقد حرصت الرسالة الإسلامية على أن تكون داعية لها وممثلاً لنواميسها ومثلها، ومرآة لإشعاعها الخالد وكمالها المعجز، وقد شملك النداء السماوي: (كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته) والرعاية تختلف باختلاف الظروف والحيثيات، فاجهد أن تكون نعم الراعي الذي يمثل جوهر الدعوة الإسلامية الخالصة ولا تنحرف بها عن طريقها المعبد، ولا تفقدها روحها المعنوية التي عجزت القرون، وأتعبت الأيام، واحرص على أن لا تضيف إليها هوامش من فكرك الخاص، أو عواطفك المحدودة فإنها هي الرسالة السمحاء التي جاءت

لإسعاد البشرية جمعاء، وأتت لترفع الثقل المقيت عن كواهل الانسانية عامة وعن المرأة خاصة!.

فقد انبثقت رسالة محمد ﷺ لتمحق الحيف وتزيل الضيم وتفكّ القيد الأثيم عن مخذول ومظلوم، وقد شملت إصلاحاتها المرأة المسلمة التي كانت رهينة لعادات همجية، وقوانين جائرة، وتحت سجن من القيود الظالمة الجاحفة. فتعالى صوت المصلح الأول ﷺ مدوياً في الآفاق: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وتردد صوته صلوات الله عليه (النساء شقائق الرجال) فعند ذلك فقط نظر المجتمع إلى المرأة نظرته إلى مخلوق بشري له مكانته اللائقة في الحياة! وله قدسيته في المجتمع الإنساني! وبوسعه أن يفيد ويستفيد. نعم لم يحمّلها الإسلام أعباء الجاهلية ولم يفرض عليها قيوداً قاسية، ولكنه صانها بإكرام من الحجاب يقيها شرّ الذئاب وجعلها درة مصونة في الأصداف. والإكرام لا تمنع إنتشار عبق الزهور، والصدف لا يحجب تلألؤ الدرة البيضاء. وكذلك الإسلام الحبيب، فلم يفرض على المرأة المسلمة قيوداً تسحق شخصيتها كما تفعله القوانين الجائرة التي ترجع بكيانها القهقري إلى عهد الظلام والجهل، وقد قال حامل رسالته المقدسة ﷺ وما ذلك إلا طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ليعدها كما أعد الرجال للدفاع عن رسالتهم المباركة، وليمكنها من تبيان ما خفي عن الجهلاء من كمال الشريعة الإسلامية، فما الذي يدعوكم يا أنصار المرأة المتحررة إلى مثل هذا الضجيج؟ وإلى المتزمتين أوجه خطابي: لماذا فرضوا على المرأة قيوداً وحدوداً لم ينزل الله بها من قرآن، فالضغط يولد الإنفجار، والتزمّت يدعو إلى النقمة على جميع الأمور حتى الشرعية الضرورية، وقد ينأى بالمرأة عن تعاليم الإسلام الحقيقية لا سيما إذا كانت ناشئة فتية، وفي هذا ما فيه أخطار تواجه فتياتنا المسلمات! فإن العقيدة أي عقيدة كانت لا تقوم إلا على أساس من الفهم والحب والمرونة لكي تكون راسخة ثابتة لا تطيح بها زوبعة. ولا تزعزعها كلمة سامة مغرية. فالله الله يا أخواني المسلمين لا تدخلوا في روع فتياتكم إنهنَّ أسيرات من جراء كونهنَّ

مسلمات متمسكات بتعالم محمد الرسول العظيم ﷺ فينظرن إلى المنحرفات المتحللات نظرة الأسير إلى الطلق فإن الإكثار في الشيء صنو الإقلال منه. والإفراط توأم التفريط. فاسمعني يا أخي المسلم ولا تتحكّم مع ميولك. ولا تندفع وراء أهوائك تحت ستار من الدعوة إلى تطبيق الإسلام، فالإسلام سمح سهل لا يريد للمرأة إلا العزة والكرامة والمكانة اللائقة. فالإسلام مثلاً يفرض على المرأة إطاعة زوجها وأبيها في بعض الأمور التي لا تتلاءم مع مصلحتها العامة. ولكنه لم يجعل منها ألعوبة في يد الرجل يفرض عليها سيطرته فرضاً بدافع من قرابة أو سموّ مكانة فيتحكم بتصرفاتها وحركاتها وسكناتها، وبهذا تزهد المرأة حتى في الطاعة المفروضة للأزواج والآباء. فرجائي منك يا أخي المسلم أن تبذل قصارى جهدك لبث روح الإسلام الحقيقية في نفوس فتياتنا الحبيبات.

رأي المرأة في الزواج

أختاه...

ضمني وبعض بنات الإسلام مجلس جرنا الحديث فيه إلى حقوق المرأة في البيت والمجتمع، ومدى تركيز كيانها في الأوساط المسلمة، فإذا بإحداهنَّ تنبري لتقول بحرارة وألم، إنّ المرأة في الإسلام مهضومة الحق، مهيضة الجناح، لا تعدو أن تكون سلعة في أيدي الرجال تتقاذفها أهواء الآباء والأزواج، فهي: إما أن تباع للزوج بيع الإماء، أو تقدم له هدية متواضعة كعلبة من الشوكولاتة!

وكنت أستمع إليها وهي مندفعة بثورتها الظالمة التي قامت على مفهوم خاطىء، وتولدت نتيجة إهمال المسلمين العارفين بحقيقة الإسلام لإظهار صفحته المتبلورة البيضاء، وبعد أن أتمّت ترجيح كلماتها التي أخذتها عن ألسن السوء بدون وعي أو قصد، قلت لها وكلّي إشفاق على هذه الزهرات

اليانعات التي أطاحت بها الريح السامة إلى حيث الوحل قلت: على مهلك يا صاحبتي إنكِ المسكينة دعيني أحدثكِ حديث الأخت الناصحة التي لا تريد لكِ وأمثالكِ إلا الخير والصلاح والعزّة والكرامة، فما أنا إلا أنثى مثلكنّ أشعر بما تشعرن به وأحسّ ما تحسسنه، وطالما ثرت لكرامتنا المضاعة على أيدي رجال ظلموا الإسلام حقه، فانتسبوا إليه وهو منهم براء! وما أكثر ما نقمت على الأوضاع الهمجية التي سيطرت على بعض أخواتنا الضعيفات! هذه الأوضاع التي لم ينزل الله بها من سلطان، والتي خلقها بعدنا عن روح الإسلام وتعاليمه الحكيمة. نعم ثرتِ كما تثورين، واندفعت وراء غضبي كما تندفعين، ولكن لا على الإسلام الحبيب ولا على رسالته القدسية. بل على المجتمع الفاسد وعلى أبناء وبنات الإسلام العاقين له، المارقين عن مثله وتعاليمه، والذين كان سلوكهم المعوجّ مبعثاً لهذه الصيحات الباطلة، لاستبدادهم بمصير الفتيات وفرض سلطتهم القاسية في تقرير مستقبلهنَّ على ميولهم ورغباتهم الخاصة! وحسب مصالحهم الذاتية دون إستشارتهنّ؟.

ولكن الإسلام يا أختاه مبدأ زاخر بجميع ما تصبو إليه النفس البشرية، حامل في تعاليمه شتى أنواع السعادة والهناء، وقد إنبثقت رسالته لتمحق الظلم لا لتظلم، وجاءت لعقاب الظالم لا لخلق جيل ظلوم، وقد تحمل في أكثر ما حمل الخير للمرأة المسلمة التي كانت من قبل ضائعة بين أنياب الجاهلية! والعادات القبلية في الشرق! والقوانين الزمانية في الغرب؟ حتى قال الرسول ﷺ قولته الخالدة (النساء شقائق الرجال). وقد أعطاها الإمكانيات التي تخوّلها حفظ جميع حقوقها الاجتماعية في جميع الميادين التي تتفق وكيانها الخاص! ولنضرب لذلك مثالاً بالأمر الذي ذكر، في مطلع حديثك وهو حريتها في اختيارها الزوج:

فقد ورد عن أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه، وقد ذكر حديث تزويج فاطمة عليها السلام، وأنه طلبها من رسول الله ﷺ فقال: يا علي إنه قد ذكرها قبلك رجال فذكرت ذلك لها فرأيت الكراهية في وجهها، ولكن على رسلك حتى أخرج إليك، فدخل عليها فأخبرها وقال ﷺ: إن علياً ذكر من أمرك شيئاً فما

ترين؟ فسكتت، ولم تول وجهها، ولم يرَ منها رسول الله ﷺ كراهة فقام وهو يقول: (سكوتها إقرارها) وقد جاء في الحديث عنه ﷺ: (تستأمر البكر ولا تزوج إلا بأمرها)، وقد جاءت فتاة إليه ﷺ فقالت: (إن أبي زوجني من ابن أخ له ليرفع خسيسته وأنا له كارهة) فقال ﷺ لها: أجيزي ما صنع أبوك: لا رغبة لي فيما صنع أبي، قال ﷺ: فاذهبي فتزوجي من شئتِ، فقالت: (لا رغبة لي عما صنع أبي الخ).

وقد إستشار رجل الامام موسى بن جعفر عليه السلام في تزويج إبنته من إبن أخيه فقال: «إفعل، ويكون ذلك برضاها، فإن لها من نفسها حظاً». نعم هذا هو الإسلام بمعناه الصحيح. وهذه هي أحكامه العادلة التي إرتفعت بالمرأة إلى أفق الحرية والكرامة في عصر ما كان يقيم للمرأة أي حساب، ولكن الذنب ذنبنا نحن المسلمين! بعد إذ انحرفنا عن جادة الإسلام، وتجاهلنا أن لنا في إسلامنا حقوقاً ظفرت بها حضارة من الحضارات، وحتى الآن والجرم جرم الذين عرفوا الحق ولم يظهروه، وسكتوا عنه وتركوكنّ لأبواق الدعايات المغرضة، وللتعاليم العدائية التي تصل إليكنَّ تحت مسوح التمدّن والتحضّر، ولكن لي وطيد الأمل إنكنَّ سوف ترجعنَ إلى أحضان الإسلام الرحب إن عاجلاً أو آجلاً إن شاء الله.

بعد أن تفشل جميع الأنظمة عند التطبيق، وسوف تجدن في نظام الإسلام نظاماً مثالياً خالداً يحقق للمرأة سعادتها وكرامتها، وقد وعدنا الله نصره والله لا يخلف الميعاد.

في عيادة الطبيب

أختاه...

ها أنا ذي ألتقي معك وقد هزتني حادثة مررت بها إذا زارتني إحدى أخواتي المسلمات، وهي شاكية من ظلم بنات الإسلام المتطرفات مستعبرة من

ضلالهنّ، فقد جمعها مع بعضهنّ مجلس (في عيادة طبيب) في بغداد أجبرت على المكوث فيه مدة طويلة الانتظار مكّنت لجاراتها المخدوعات أن يكشفن لها عمّا آلت إليه روحيّاتهنَّ، وعما إنحططنَ له من درك مظلم مخيف، فهنَّ يستهين بالمثل، ويكفرن بالقيم، ويرين فيما كانت قد إلتزمته الأخت المؤمنة من أحكام الإسلام أساليب رجعية جاهلية، وقد تكشّفن لها على حقيقتهنّ المرّة، فإذا هنَّ جاهلات يدعين المعرفة تائهات ويتظاهرن بالهدى والرشاد، وصاحبتنا المسلمة في كل ذاك تدافع وتجادل ما وسعها الدفاع ولكن أنّى لصوتها أن يصل إلى مسامع غفلت عن الحق وصمتت عن الحقيقة، وأنّى لكلماتها أن تخترق الحجب السود التي حجبتهنّ عن الصواب والتي حالت بينهنّ وبين الهدى، وكيف لصوت أن يعلو على أبواق جهنمية ترجع ألحانها على أوتار القلوب الفتية وتسكبها في الآذان الغافلة التواقة؟ وكيف لكلمة واحدة أن تقف أمام التيار الخاطىء الذي جرف الكثيرات من بناتنا البريئات؟ وهل يمكن لصرخة مؤمنة أن تكشف الغبار الأسود الذي غلف المجتمع ولونه بلونه القاتم المغبر؟ فلسنا أول ضحية من ضحايا المجتمع العليل الذي تجرد عن قيمه ونأى عن قوانينه وأحكامه ولن يصلح المجتمع هذا، ولن يتركّز كيانه في الوجود إلا إذا رجع إلى صوت الإسلام في ندائه الملائكي، وتمسك بدستوره السماوي، وتباعد عن التبعية المبغضة لكل ما هو أجنبي غريب. فهل يمكن لأمة أياً كانت أن تتقدّم وتتحضّر بحضارات أجنبية لا تمتّ لها بصلة لتكون بذلك متقدمة، فإنها لم تتقدم خطوة، ولم تزدهر لحظة، وإنما الأفكار الخارجية والدعايات الأجنبية هي التي تقدمت وازدهرت على حسابنا نحن أعداءها الحقيقيين، فيا حرقة قلبي على زهرات يانعات نالت منهنّ الأفاعي فشوّهت أريجهنّ العذب الفوّاح، ويا أسفي على لبوات خدرهنّ الأفيون الاستعماري بشتى أشكاله فأطفأ فيهنّ شعلة الإسلام، وأفقدهنّ نور الرشاد، وتصرّف فيهنّ تصرّف اللاعب بالدمى لا حول لهنَّ تجاهه. ولا طول في الوقت الذي قد غنين فيه بما لهنّ من مبدأ زاخر بالحضارة السامية، والكرامة، واستطردت صاحبتنا المسلمة كلامها فقالت: إنهنَّ قلنَ لي: إنكِ رجعية قديمة

متوحشة فأجبتها: لا عليكِ يا أخيّة فهذه أنغام سمعناها وسنسمعها أيضاً ما دام المكروب الأجنبي يسري في عروق مجتمعنا المسكين، وما دمنا متمسكين بمبدئنا الحق داعين إلى نهجه القويم. ونصيحتي لكِ يا أخيّة ولجميع أخواتنا المسلمات: أن لا تقعد بكنّ هذه التخرصات ولا تثنيكنّ أمثال هذه النغمات المشؤومة بل تزيدكنّ عزماً وقوة، وشدة ومضاء، لتثبتنّ لهنّ صواب نهجكنّ وخطى سيرهنّ المتعرّج ذات اليمين واليسار، وأوضحن لهنّ أنهنَّ هنَّ اللواتي رجعن بسلوكهنّ إلى أبعد عصور الجاهلية، حيث لا أحكام، ولا قوانين، ولا مثل، ولا مفاهيم، المرأة والرجل والحيوان في عرفهم سواء، غايتهم الماء ولقمة العيش!

وأما نحن فسنصل إلى حيث ما وعدنا الله من نصره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

بنت الهدى

ذكر الله في الليل والنهار

سألتني واحدة من الأخوات المسلمات عن معنى ما جاء في دعاء كميل بن زياد رضي الله عنه وهو من خاصة أمير المؤمنين عليه السلام كقوله: «يا ربّ أسألك بحقك وقدسك وأعظم صفاتك وأسمائك أن تجعل أوقاتي في الليل والنهار بذكرك معمورة وبخدمتك موصولة».

وقالت: هل أن هذا منسوب وغير صحيح؟ أو أن البشر جميعاً قد خرجوا عن هذه القاعدة؟ فليس فينا من يتمكن أن يقتصر في حياته على ذكر الله تعالى والتسبيح والتهليل. فنحن إذ نعيش (وبحكم لزوم التعاون مع الآخرين مهما أمكن) لا بدّ لنا أن نباشر شتى الأعمال في الحياة، ولا يمكننا بأي حال من الأحوال التنصّل وأن نترك كل شيء ونلتزم بالتهليل والتكبير فحسب، فلت لها: على مهلك يا أخيّة فليس هذا الدعاء بمنسوب أو غير صحيح بل هو

صحيح ومعروف، ولكن المعنى ليس كما تظنين فقط. إذ لسنا بمكلفين بالتسبيح والتهليل والتكبير (كقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر في كل أوقاتنا، وليس ذكر الله وخدمته هو ما ذكرتيه ونحوه كما تفهمين منه ويتبادر النظر السطحي إليه فهو أي كل من التسبيح والتهليل والتكبير وإن كان من الذكر المأثور ومن الباقيات الصالحات لكن ليس هو الذكر، كله أو كل الذكر وليس هو أي الذكر وقفاً على إدارة حبات المسابح إو تقليب وتصفح كتب الأدعية. لا، ليس هذا وحده كما قلت ذكر الله تعالى وليس ذكر الله هذا لا غير.

فكم يوجد من يذكر الله بلسانه وينساه بقلبه وأفعاله!! فنحن نستطيع وبسهولة - أن نجعل أوقاتنا من الليل والنهار بذكر الله معمورة دون أن نعطّل شيئاً من أعمالنا للحياة، أو نقعد عن المباشرة لمهامنا المعتادة، فأنت مثلاً إذا كنت زوجة صالحة وربّة بيت خيّرة تكونين بذلك دائماً وأبداً ذاكرة لله مطيعة لأوامره، فقد جاء في الأخبار أن إمرأة سألت الرسول الأعظم ﷺ عمّا عندنا نحن النساء في قبال الجهاد وثوابه عند الرجال؟ فقال صلوات الله عليه: الزوجة الصالحة وإدارة البيت الناصحة الطاهرة!

ثم إن المرأة وكيفما تكون سيدة أو آنسة تتمكن أن تكون دائماً وأبداً ذاكرة لله تعالى خاضعة لأوامره متبعة لتعاليمه، فكل يد معونة تسديها المرأة ولو لأقربائها الأقربين إذا كانت خالصة لله تكون ذكراً لله تبارك وتعالى وكل لفتة طيبة تبديها تجاه الغير بدون أي غاية دنيوية تكون ذكراً لله، وكل سحابة ضيق تتحمّلها بصبر لا مجبرة ولا مغصوبة على ذلك تكون ذكراً لله، وكل فكرة صالحة تفكر فيها لأجل الخير دون أي شيء آخر تكون ذكراً لله، وأي نعمة تحدثت بها لا مباهية ولا متعالية تكون ذكراً لله، وحتى البسمة والضحكة إذا وجدت بها خالصة من كل شائبة رياء أو ملق تكون ذكراً لله إلخ..!

وكم يحدث لإحدانا أن تسمع كلمة عن أخرى قد تحمل على خير وقد تحمل على شرّ، فإذا أخذناها بمأخذ الخير وحملناها عليه نكون بذلك ذاكرين لله ولكن يتفق لنا أن تحين لنا فرصة نتمكن فيها من إفشاء سرّ أو جهر بسوء يكون

لنا من ورائه نفع، أو لنا به مصلحة شخصية ثم لا نأتي بشيء من ذلك بوازع ديني لا غير فنكون ذاكرين لله تعالى مطيعين لأوامره! وعلى العكس من هذا (لو سرنا في حياتنا لا سمح الله) نكون ناسين لله غافلين عنه ولو تتبعنا جميع أساليب القدس المبطّن! فإن ذكر الله ليس كما تظنين يا أختاه. ولعمري أن حقيقة ذكر الله تبارك وتعالى: «لو تفكرنا وتأملنا» تعقيم النفوس من الأدران، وتطهير الغايات والدوافع أي غاية كانت وأي غاية وأي دافع كان، ولهذا جاء في المأثور عن الأئمة الأطهار عليهم السلام: «إنّما الأعمال بالنيات» - فنوعية العمل من نية صاحبه - «وإن نية المرء خير من عمله» فقد فضلت النية الصالحة وحدها - وإن لم يتفق تحققها في الخارج - على العمل الصالح ظاهراً ولكن بلا نية صالحة ولا غاية مرضية طاهرة!

فجدير بنا أن نبتهل إلى الله العليّ القدير أن يجعل أوقاتنا في الليل والنهار بذكره معمورة، وبخدمته موصولة. والله وليّ التوفيق.

المرأة بين الاسلام والجاهلية

أختاه...

تحية إسلامية عطرة...

ما أحلى أن نعود فنلتقي مرة ثانية لنتابع ما وقفنا عنده، ولنمضي في سيرنا المستقيم إلى مطلع النور وإشراقة السعادة الهائلة المتبلورة في صفحات سجلّ إسلامنا المتلالئ الذي بعث به محمد صلى الله عليه وآله نبيّاً للعالمين، وجاء ليكون المربّي الأول للمجتمع العليل آنذاك الذي كان يرزح تحت وطأة العادات القبلية والحزازات والمشاحنات العصبية، وحتى في البلدان المتحضرة آنذاك كالروم والفرس، فقد كانت القوانين الجائرة قائمة هناك على قدم وساق.

والأجدر بنا في لقائنا هذا أن نتطرّق إلى إحدى نواحي إنحلال ذلك المجتمع فنراجع حال المرأة في تلك الفترة المغبرة لنرى ما كانت عليه من

إنعدام معنوي، وتفاهة روحية. ففي الروم والفرس - مثلاً - كانت المرأة لا تعدو كونها آلة إنتاج كأنها خلقت لتفيد المجتمع لا لتستفيد منه، ومن ثم كانت وسيلة لعقد الصداقات وحلّ المخاصمات تقدم هي فيها كهدية متواضعة لا حول لها على المنع ولا طول.

وأما في جزيرة العرب، فقد كانت تسودّ وجوههم إذا بشروا بها ويتوارون من الخجل كأنها قد إرتكبت بقدومها عليهم أبشع جريمة في الوقت الذي جاءت لتلد رجالاً، وتنشىء أجيالاً، وفجأة وفي غضون ذلك العصر المغبر، وبدون سابق مقدمات إنبثقت رسالة محمد الأمين ﷺ، لتكون رحمة للعالمين (للملايين)، ولتكون رسالة عالمية تصلح العوج بالهداية، وتقيم الحق بدستورها السماوي، وهناك جاء دور المرأة المسلمة لتكون عضواً فعالاً في المجتمع، ولتشعر بمكانتها المعنوية التي سلبت منها فيما مضى، وكيف لا نكتسب روح الثقة بإنسانيتها وكرامتها؟ والآية الكريمة تنصّ على وجودها الأدبي والمعنوي، والكلمات النبوية الخالدة التي نأخذ بيدها لنرفعها إلى أوج العزة والكرامة فهي مخلوقة كالرجل سواء بسواء ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ [النساء: ٧] ثم يقول نبيّ الرحمة ﷺ قولته المأثورة: «النساء شقائق الرجال».

وهكذا أخذت المرأة تحتل مكانها الطبيعي على أساس آيات القرآن وكلمات الرسول ﷺ، وأخذ المجتمع الإنساني يؤمن بقدسيتها وجدارتها بالحياة، ويقر لها بممارسة كل الحقوق التي تنسجم مع طبيعتها كأنثى، ومن جانبها أيضاً أخذت تبني شخصيتها على أساس المفاهيم الإسلامية الكاملة من الفضيلة، والعفة، والأخلاق. أدركت مهانة الرذيلة فارتفعت بروحها ومشاعرها عنها، واحتفظت بنفسيتها نقية صافية متألقة وفهمت بشاعة الكذب فعملت على ألاّ تكذب؛ وتعرفت على مواطن الضعف في الخداع فحرصت على ألاّ تخدع، وملكت أن تخلق لنفسها كياناً خاصاً فجهدت على إبداع ذلك الكيان، وضربت المثل العليا على الأمومة الحنانية والزوجية السعيدة المخلصة.

ثم إنها عرفت أيضاً أن تفي الإسلام حقه فمشت مهدية بهداه، تحمل راية التبشير والدعوة إليه، وقد زخرت نفسها بالعقيدة الإسلامية الفياضة، وإندفعت في عروقها دماء التضحية والمفاداة، وكانت كلما إدلهمّت الخطوب إزدادت حماساً وإندفاعاً وإيماناً بقضيتها، فهذه (الزرقاء بنت عدي) تقف بين صفوف المجاهدين تبث روحها ووعيها وتقوم بأداء رسالتها قائلة: (يا أيها الناس إنكم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم وجارت بكم عن قصد المحجة فيا لها من فتنة عمياء صماء). إلى أن تقول: (إن خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء). وهذه (أم الخير بنت الحريش تخطب في الصف الاسلامي المجاهد من أبنائها وإخوانها لتأجج فيهم نار البطولة وتفجر نور الإيمان، فتقول: (أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، (وتقوى كلمة الشيطان لما إخترنا المنايا على خفض العيش وطيبه).

لك الله يا أم الخير ما أروع كلماتك وأسماها، أنت في هذه الكلمات تلقنين النساء من بناتك المسلمات دروساً في التضحية للمبدأ والعقيدة، فلم يكن إندفاعك الثوري لأجل مكسب رخيص، ولا موجة عاطفية مبتذلة، وإنما كان غضبة للحق، وانتصاراً للمثل الاسلامية العليا، وتحدياً للظالمين المنحرفين عن جادة الاسلام السوي، الذين عطلوا الحدود وأبطلوا الحقوق.

هكذا كانت المرأة تحتل مركزها اللائق في المجتمع الإسلامي، وتشارك في مسؤوليات الدعوة والتوجيه، وتعتبر نفسها عضواً فعالاً مسؤولاً عن تركيز دعائم الحق، وإعلاء كلمة العدل، وتباشر مسؤولياتها بالأساليب التي تتفق مع طبيعتها.

ولكن على مرّ الزمن وتعاقب السنين، وأخذت المرأة المسلمة تفقد شخصيتها مرة أخرى، وتبعد عن دورها الذي أتاحه لها الإسلام، وذلك بنتيجة سوء فهمها الإسلام والبعد عن روحه ومفاهيمه من ناحية، وبنتيجة تغذية الثقافة الاستعمارية المسمومة المناقضة للإسلام، والتي لا تنطوي في الحقيقة إلا على القضاء على أصالة المرأة وأنوثتها وكرامتها كأنثى.

هكذا ضاعت المرأة بين الفهم الخاطىء للإسلام والمفاهيم الوافدة من

الغرب! وأصبحت المرأة المسلمة بين أمرين، فإما إمرأة لا حظّ لها من الوجود الاجتماعي ولا نصيب لها من المساهمة في كل الحقوق الاجتماعية والفكرية، وإما امرأة متفرنجة قد تجرّدت من أنوثتها واعتبرتها شيناً وعاراً، وراحت تزاحم الرجال بمناكبها وتسترجل لتكتسب حقوقها في الحياة العامة..

والإسلام لا يقرّ هذا ولا ذلك، فلا هو يفرض على المرأة أن تكون كمية مهملة تماماً في الوجود الاجتماعي كله لا لذنب جنته إلا أنوثتها عاراً يجب أن تتخلص منه لتلتحق بقافلة الرجال، بل هو النظام الوحيد الذي أقر للمرأة بخصائصها الطبيعية، واعترف بها كأنثى، ثم لم يجعل هذه الأنوثة عيباً أو معيقاً عن حصول المرأة على حقوقها وكرامتها الانسانية، أو عن مساهمتها في الحياة الفكرية والاجتماعية في حدود العفة والفضيلة.

فالإسلام يحفظ للمرأة حقوقها وكرامتها، لا أنه يجردها من أنوثتها ليهبها تلك الكرامة كما تصنع الحضارة الغربية.

المرأة بين مفهومي العلم والثقافة

أختاه...

كنت قد تحدثت في إحدى الأعداد السابقة عن الثقافة والعلم واختلاف مفهوميهما وموقف الإسلام من كل منهما، وقد افترقنا آنذاك على أن نعود فنلتقي ثانية لنتابع ما وقفنا عنده من بيان خطورة غزو الثقافة الأجنبية لبلادنا الإسلامية، واستيلائها على مفاهيمنا ومثلنا العريقة وتخديرها لأفكارنا بأفيونها الاستعماري البغيض، وتشويهها لصفحة نتاجنا الإسلامي الذي هو مرآة حضارتنا العميقة.

ولنأخذ - على ذلك مثلاً - الرسم فهو في حدّ ذاته شيء حسن وحسن جداً، وقد خلد وخلد كثيراً ممن نبغوا فيه وأصبح عنواناً لحضارات مختلفة توسعت في الرسم بشتى أنواعه وأشكاله من نحت، وتمثيل وتصوير، ولكنه في الوقت

ذاته يطبع متتبعيه وهواته بطابعه الخاص لأنه مرتبط بموجهة النظر العامة عن الحياة والكون والمفاهيم المأثورة عنها، فإذا أخذت خطوطه وقواعده عن فنان يؤمن بوجهة النظر المادية عن الحياة والكون ومدلولاتها الأخلاقية والاجتماعية أصبحت الصورة مادية متحللة من القيم الروحية.

وأما إذا بني الفن على وجهة النظر الصحيحة للحياة والكون، أصبح ناطقاً معبراً عن الإنسانية السامية، ومشيراً إلى المفاهيم الحكيمة العالية، وكذلك الأدب بشعره ونثره وهو الشيء الذي لا غنى لنا عنه لتنوير أفكارنا وتهذيبها وإبراز مشاعرنا وتنسيقها، قد أصبح عند بعض الأدباء المتطرفين سلعة رخيصة تأخذ عن الأدب الغربي مباذله وتكشفه، ومن الأدب الشرقي ماديته وانحرافه وكفره بالقيم والأخلاق الفاضلة الخيّرة!

وقد إستحال بعض أدبائنا مع كل الأسف، إلى مترجمين وناشرين لا أكثر ولا أقل!!، أفكارهم غريبة عنهم بعيدة عن واقعهم ومجتمعهم، تستهويهم الصيحة، وتطربهم النغمة، وتسكرهم الرشفة، فيغنون بأمجاد الأعداء وهم في غفلة ساهون، ويهللون للأفكار السامة وهم لا يكادون يفقهون منها شيئاً، وقد تشبعوا بالثقافة الأجنبية التي أدخلها الاستعمار إلى بلداننا منذ عهد بعيد وهي التي إنحرفت بجيلنا الناشىء ذات اليمين وذات اليسار، وحرصت على تشويه إنتاجاتنا الأدبية بكل أشكالها ونواحيها. ومن جراء هذا الفهم الخاطىء للثقافة وهذه الثقافة الدخيلة إنتشر في ربوعنا مفهوم إستعماري عدائي موجه نحونا نحن بنات الإسلام بالذات! فشوهوا علينا دعوتنا لطلب العلم واستجاباتنا لدعوة الرسول إذ جعلوا من التعليم والسفور توأمان لا يفترقان!!

فكأنما التعليم ليس بممكن إلا إذا برزت بغير غطاء! في الوقت الذي يكون ذلك سهلاً ويسيراً إذا طبق النظام الإسلامي، وتطهرت معاهدنا من النفوذ الأجنبي، وارتفع شبابنا عن وهدة الجنس وتسامى عن حضيض الرذيلة، وإذا عمّت النظرة الأخيرة وشاعت الفكرة الانسانية الفاضلة بين المجتمع الاسلامي، وإذا إكتسبن فتياتنا شيئاً من صمود أمهاتهنّ المسلمات وراجعن عهودهنّ الزاهرات، أيام كنّ يعقدن النوادي الأدبية ويفحمن أعاظم الرجال!

وهنّ كالزهرة في الأكمام لم يعقهنّ الخمار عن خوض الميادين ولم يقعد بهنّ الحذر عن الانطباع بطابع الثقافة الإسلامية الصادقة، وما أحلى أبيات وردت عن لسان شاعرة نابغة إذ تقول:

بيد العفاف أصون عز حجابي ... وبعصمتي أسمو على أترابي
وبفكرة وقادة وقريحة ... نقادة قد كملت آدابي
ما عاقني خجلي عن العليا ولا ... سدل الخمار بلمتي ونقابي

بنت الهدى

دور المرأة المسلمة في الطف

أختاه...

وبعد، فما أروعه من لقاء يجمعنا على صفحة قرطاس وفي غضون هذه الأيام أيان محرّم الحرام، وبعد أن عشنا الأسبوعين المنصرمين مع أعظم كارثة إسلامية نستعيد ذكراها المستقرة في أعماق نفوسنا نحن المسلمين، ونمجد خلودها الصاعد على مرّ العصور، ونتابع حوادثها البطولية الرائعة، لنستمد منها اسمى معاني الكفاح المتبلور بالاشعاعات السماوية، والزاخر بالمثل الروحانية، المليء بكل المعاني الخيّرة التي تمثلت في يوم الطف - من عاشوراء -، ذلك اليوم الذي لم يزل ولا يزال عبرة في صدور المسلمين، وغرة في تاريخ الإسلام. ومشعلاً وهاجاً ينشر معالم العزة القعساء والإيمان الصحيح. وطريقاً مهيعاً للخلود الروحي، والبقاء الأدبي المعنوي!.

وإني لحريصة في لقائنا هذا أن أغتنم هذه الفرصة لأتحدث فيها عن دور من أهم أدوار هذه الذكرى المقدسة، والذي يجيء أثر الإمام عليه السلام مباشرة. فأذكر السيدة (زينب عليها السلام) بنت علي عليه السلام وأخت الحسنين عليهما السلام سليلة البيت الهاشمي العريق. وعقيلة الطالبيين. وزهرة أهليها الأعلين وريحانة النبوة السماوية. وقداحة الشجرة المباركة، التي أصلها ثابت في الأرض

وفرعها في السماء، (زينب) هذه التي دبّت وترعرعت في مهد الحنان الفاطمي والعطف المحمدي، والتي هيأت منذ اليوم الأول لتسجل أروع صفحة في جهاد المرأة المسلمة والتي أحاطتها ظلال عاشوراء منذ الفجر الأول لولادتها. فهذا التاريخ يحدثنا صادقاً وحتى على لسان المستشرقين أمثال (رونالدسون) في كتابه (عقيدة الشيعة) و(منس) في كتاب (فاطمة وبنات محمد) نعم يحدثنا أن البيت النبوي كان يرى في وليدته الصغيرة جيشاً صامداً أمام حوادث الدهر المقبلة فأخذ يهيّئها لذلك. وعندما لمّح لها الإمام عليه السلام في يوم من الأيام عن دورها المقبل أجابته في جدّ رصين: (أعرف ذلك يا أبي، أخبرتني به أمي لتهيّئني لغدي). يالله ويا لروعة عقيلة بني هاشم.. ويا لعقيدة الإسلام.. التي تهب الروح المسلمة طاقة تقاصر دونها الطاقات.

ثم درجت زينب عليها السلام وتقدمت بخطاها نحو صباها الحزين بعد فقد الرسول الكريم صلى الله عليه وآله والأم الرؤوم عليها السلام ومضت منطلقة بوصية الأم النائية فأصبحت للحسن والحسين عليهما السلام أماً ثانية لا يعوزها حنان الأمومة بما فيه من إيثار وتضحية. ثم تتابعت الحوادث وتعاقبت وعقيلتنا تتابعها عن بعد أو قرب وقد إندمجت مع رسالة جدها الخالدة تستمد منها النور الوهّاج والقبس المضيء، حتى وقفت بها عجلة الزمن في يوم النور الخالد، ويوم الجهاد الشامخ فكانت هي أول من تحس مواطن الخطر في كربلاء! وحينما سمعت الإمام عليه السلام يقول: (يا دهر أفّ لك من خليل...) فرجعت إليه وهي تقول: (واثكلاه، ليت الموت أعدمني الحياة..) فيروح أخوها الحبيب يسليها ويواسيها، ثم يشرح لها الوضع الراهن على حقيقته، ويوصيها بوصاياه...

منذ تلك الساعة أخذت على عاتقها تحمّل المسؤولية الكبرى واضطلعت بأروع مهمة تاريخية، وهي تركيز نداء الحق الذي أستشهد لأجله الميامين! فنراها وقد خرجت من المعركة، بعد إذ فقدت فيها أعز ما يفقد، نراها شامخة كالطود، راسخة كالجبل الأشم! تخاطب يزيد فتقول: (أظننت يا يزيد، حيث أخذت علينا أقطار الأرض، وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى إن بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك عنه

فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوثقة، والأمور متسقة.. فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] فوالله ما فريت إلا جلدك، ولا حززت إلا لحمك.. ولأن اتخذتنا مغنماً لتجدنا وشيكاً مغرماً، حين لا تجد إلا ما قدمت يداك...).

هكذا خرجت بنت علي عليه السلام من الطف وهي أرفع ما تكون روحاً، وأرسخ ما تكون من عقيدة وثبات.

ولقد كانت خطبتها المأثورة في الكوفة هي الشرارة الأولى للأخذ بالثأر، ولحركة التوابين! فلقد كفكفت دموعها وهي تلمح الكوفة مهد صباها اليانع، وعاصمة عزها الشامخ وأشارت للجموع الباكية بالسكوت، ثم قالت: (أما بعد يا أهل الكوفة... أتبكون، فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرنّة، إنما مثلكم كمثل الذي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، تتخذون إيمانكم دخلاً بينكم.. ألا ساء ما تزرون.. أي والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً، أتعجبون لو أمطرت المساء دماً، ألا ساء ما سوّلت لكم أنفسكم إن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون...).

واستمرت بنت الرسالة تدعو إلى رسالة الإسلام على يقين وبصيرة لم يشغلها المصاب الهائل! ولم تقعد بها الشدائد عن المضي قدماً في طريق الدعوة والهداية! حتى أنها كانت إمتداداً لحياة أخيها الشهيد عليه السلام وآله الأطهار، فلنقتبس ومضة من روحها الجبارة، ولنستمد طاقة من طاقتها المثالية لنحتفظ بكياننا الاجتماعي، الذي بنته لنا، هي وآلها الميامين، تحت راية الإسلام الشامخة، ولواء القرآن المظفر، ولا يقعدنّ بنا وهن أو كسل، فهذا الغد المشرق يفتح ساعديه لاستقبالنا لنرقى إليه وبيميننا وبشمالنا كلمة (لا إله إلا الله فالغد لنا إن شاء الله).

غد لنا لا لمبادىء العدى ولا لأفكارهم القاحلة
غد لنا تزهر في أفقه أمجادنا وشمسهم مائلة

غد لنا إذا تركنا الونى ... ولم تعد أرواحنا خاملة
غد لنا إذا عقدنا اللوا ... لديننا في اللحظة الفاصلة
لا وهن، لا تشتيت، لا فرقة ... نصبح مثل الحلقة الكاملة
إذ ذاك لا نرهب كل الدنا ... ولا نبالي نكبة نازلة
غد لنا وما أحيلى غد ... كل الأماني في غد ماثلة
إذ ينتشر دستور إسلامنا ... تهدي الورى أفكاره الفاضلة

بنت الهدى

المغالاة في المهور

أختاه...

ما أسعدني وأنا أتوجه إليك بهذا النداء، وما أشد فخري واعتزازي إذ أكتب إليك من جديد وأنا واثقة هذه المرة من أنك تقرئين ما أكتب، وتستمعين إلى ندائي بقلبك وفكرك وعواطفك. وقد كنت أنتظر هذا اليوم بفارغ صبر، والآن وقد تحقق حلمي الذهبي، وأصبحت واثقة من وصول صدى صوتي إليك ونفوذه إلى صفحات قلبك الطاهر بعدما تحسست بقلبي وعيني المحصول الرائع لسنتين خضناهما معاً جنباً إلى جنب، وقلباً مع قلب، ويداً واحدة وفكراً واحداً حتى تبلورت أفكارنا، وتعقمت من الأدران وخلصت من كل شائبة، وغدوت أرى فتياتنا الناشئات وقد تبدلت نظرة أكثرهن نحو واقع الحياة، واكتسبت أفكارهن إطارات جديدة تشعرهن بالمسؤولية وتنبههنّ إلى رسالتهنَّ الغالية.

والآن، وبعد أن أبعدتني الظروف عنك شهوراً قليلة في حساب الزمن، كثيرة في حساب قلبي وعواطفي، أعود إليك وأنا أكثر ما أكون لهفة وحنيناً إلى لقائنا هذا، وعلى صفحات نشرتنا الغالية الأضواء وهي قد تخطت عامها الثاني موفورة الكرامة، مكللة بأكاليل الفخر الواقعي والمجد الحقيقي المرتفع عن

كل مادة أرضية غلت أو رخصت! فأنا أشعر وكأن الأضواء قد أصبحت جزء من حياتي لا يتجزأ! لأنها تقربني إليك، وتجمعني بك في أول كل شهر، لأنها أيضاً تستطيع أن ترفع عن كاهلي بعض ما أحسه من مسؤولية تجاه ديني أولاً وبنات جنسي ثانياً، وأنا واثقة أيضاً من أنك تشعرين نحوها نفس الشعور، فإن نسبة القارئات والمشتركات في الأضواء مبشرة بكل خير والحمد لله.

أختاه... أنا أريدك معي في هذا اللقاء لنعالج معاً نقطة حساسة في حياتنا نحن المسلمات تمسّ كرامتنا وعزتنا بالصميم. وتجعل من فتيات الاسلام سلعة رخيصة كالإماء في سوق الرقاق! فأنا أريد أن أتحدث وإياك عن المهر أو الصداق بعد أن أصبح الغلو فيه موضة ومظهراً من مظاهر البذخ والدلال والاعتزاز بالفتاة، متى أصبحت الفتاة سلعة يساوم عليها؟ وأي ضمير إنساني يسمح أن تكون للفتاة قيمة معينة قد تزيد وقد تنقص؟. وهي المخلوقة الطاهرة التي جاءت لتنشىء أجيالاً وأجيالاً؟ وأنا ذا أكتب هذا إنما أكتبه للآباء أولاً وبالذات، فهم وحدهم المسؤولون عما وصلن إليه بناتهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون، فهم في الوقت الذي يريدون فيه أن يرتفعوا ببناتهم ينزلون بهنَّ إلى مصاف الإماء! جاهلين أو متجاهلين جميع الأضرار الاجتماعية التي تنتج عن غلاء المهور وفي عصر كعصرنا هذا!! فهم يظنون أن البنت مهما غلت بنفسها غلت بمهرها في الوقت الذي يعلمنا فيه الإسلام، وواقع الحياة، أن الفتاة مهما غلت بنفسها رخصت بمهرها وقبلت الزواج على أنه شركة روحية لا أكثر ولا أقل.

ولكن فتاتنا المسكينة لا تزال تحت وطأة بقايا الجاهلية، فهي إما فتاة متحررة منطلقة من كل قيد وشرط، وإما فتاة مسكينة لا حول لها ولا طول، ولا تتمكن حتى من إثبات وجودها وإبداء رأيها في هذا المضمار! فأنا لا أكاد أصدق أن هناك فتاة واحدة تقبل بكل عواطفها أن يحدد لها قيمة عقد الزواج. ولكن العرف الأعمى والتقاليد الظالمة هي التي إنحرفت بنا عن طريق إسلامنا وما جاء به من تعاليم. أوليس لنا في رسول الله ﷺ وابنته أسوة حسنة إن كنا مسلمين؟ فإن فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين وبنت سيد الأمة وحامل

الرسالة والنبوة، كان صداقها درع باعه إبن عمها ليشتري بدراهمه مستلزمات المعيشة! وقد زفّت إلى بيت ليس فيه إلا حشية من قش، وبعض الأواني ومطحنة للطحين! ولم تكن صلوات الله عليها مغصوبة في ذلك أو مجبورة عليه، فقد إستشارها أبوها فوافقت ولم يكن يبت في أمرها بغير رضاها، نعم وافقت وهي تعلم أن عريسها فقير في ماله متواضع في بيته، ولكنه عليّ أمير المؤمنين عليه السلام وكفى بذلك فخراً. كانت تتمكن أن تخطب إلى أثرى رجل في مكة، وكانت تتمكن لو أرادت أن تأخذ الدنيا زاهية براقة، فهي بنت رسول الله قبلة أنظار الخاطبين وكعبة الطالبين، لكنها إختارت السعادة الواقعية وفضلت الراحة الروحية، وأرادت بهذا بنفس الوقت أن تعطينا درساً نعتبر فيه في كل عصر وزمان، فهل نحن معتبرون؟.

النفوس العالية

أختاه...

تحية وإخلاصاً ودعاء،

وبعد، فأراني وأنا مدفوعة في هذه المرة إلى أن أخصص ندائي وأوجه إلى أخت واحدة لا غير، أخت عرفتها من بعد ولم أتعرف إليها عن قرب، وأغلب الظنّ أني لن أتعرف إليها عن قرب ولن تتعرف إليّ هي أيضاً عن قرب، فهي أخت مسلمة لا تجمعني وإياها سوى الوحدة تحت راية الاسلام، والالتفاف حول كلمة لا إله إلا الله، ولكني وإستجابة للدافع الروحي الذي يهيب بي أن أكتب إليها وأن أخصها في هذا اللقاء، سوف أوجه إليها ندائي ساحقة جميع الاعتبارات التي قد لاتجوز لي مخاطبة من لا أعرف عنها أي شيء أللهم سوى كونها مسلمة ومحافظة على تعاليم الاسلام، وسوى ما قيل عنها أنها من كربلاء أو من أسرة تنتسب إلى كربلاء، ولا أدري مقدار الصحة من هذا ولكنها قبل أي شيء شريكة لي في المبدأ والعقيدة، وأختي في الله وفي الإسلام فإن لي الفخر

بأن أعتبر نفسي أختاً متواضعة لكل مسلمة، وأن أعتبر جميع المسلمات أخوات لي عزيزات، وكفى بهذا سبيلاً يبرر لي الكتابة وأني إذ أكتب هنا أعتمد بإيصال ما أكتب إليها على كل أخت مسلمة، وأخ مسلم يعرف عنها أكثر مما أعرف.

فلعلها ليست ممن يقبلن أمثال هذه الصفحات، أو لعلها لا تعرف عن نشرتنا الإسلامية شيئاً، والآن فإليكِ يا أختي ندائي فاسمعيني بالله عليكِ واستمعي إليَّ بروحكِ وقلبكِ معاً، فقد بلغني عنكِ يا أخيّة أنك طرقت أبواب العلم عن طريق المدارس والمعاهد سواء أكنت مدفوعة إلى ذلك بدافع المجتمع والمحيط أو بدافع الرغبة الشخصية، حتى إنتهيت في سيرك إلى كلية الحقوق لتحصلين على أكبر رقم من الثقافة. وإلى الآن فليس في هذا ما يسترعي الاهتمام أو يستوجب الانتباه، فما أكثر الفتيات اللاتي حصلنَ على معدلات فتحت لهنَّ أبواب الكليات فاندرجت أسماؤهن في سجلّ المتعلمات، ومشين في ركب الثقافة الحديثة التي تتطلب السير وراء كل معالم الحضارة المستوحاة من الخارج، فأصبحن في هذا كغيرهنّ من ملايين الفتيات لا يفرقن عنهنَّ! فأصبحن في هذا كغيرهنّ، إلا أنهنَّ تابعات والأخريات متبوعات، ولكنكِ أنتِ يا من لا أعرف عنك حتى اسمك، أنتِ نعم، أنتِ وحدك وبالذات دخلت الكلية مرفوعة الرأس ثابتة الأساس، صريحة في غايتكِ واضحة في سلوك طريقك، إذ أنَّكِ دخلتها وأنتِ متمسكة بأكمامكِ الغالية وأممتها وأنتِ حريصة على حجابك الطبيعي (فمرحاً لك يا أختي، ومرحاً لنفسك العالية) التي لم تهن ولم تنكل ولم تتراجع أو تتقهقر أمام التيارات والإغراءات، والتهاويل، والأباطيل! وأنك وبصمودكِ هذا لتثبتي للمجتمع الغافل أن هناك من بنات جنسكِ من تسعى وراء العلم بمفهومه الصحيح لا لما يتطلب من مقدمات تستوجبها الثقافة الجديدة! وأني إذ أوجه إليكِ هذا النداء أراني حريصة وحريصة جداً على أن يصل إليكِ بأي طريقة ممكنة، ولا قصد في كل ما أقصد إلا تشجيعكِ ومساندتكِ فحسب، فأنتِ، وكما ستشعرين والحمد لله غنية عن التشجيع وإن كنتِ محتاجة إلى مساند ومعاضد، ولكني أريد وغايتي الحقيقية هي أن أهمس

إليكِ بكلمات أحب أن تأخذينها بمأخذ الحقيقة، وتنظرين إليها بمنظار الواقع، فاعلمي يا أخيّة أن هناك من يترقّب بكِ وسلوككِ الفرص، وأن هناك من يودّ أن يزحزحكِ عن رأيكِ بأية وسيلة ممكنة ولو عمل المستحيل، وأنّ هناك ممن لم يساعدهنَّ الحظ على تعقيم أرواحهنَّ يودن لو يشترينَ سفوركِ بنصف أعمارهنَّ، كما وأن هناك من لم يجدنَ لديهنَّ القوة الكافية، والجرأة الوافية لمواجهة التيار المنحرف يتمنين بل ويسعين بل ويسعين إلى فلّ صمودك، وإلى تضعضع روحيّاتكِ بأي ثمن لكي لا يكون لكِ السبق عليهنَّ، فإن الغد لكِ لا محالة﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [النساء: ٨٩]، نعم أن الغد لكِ ولنا إن شاء الله وهذه طلائعه البيضاء أخذت تنتشر في الأفق والحمد لله فكم فتاة في عمر الزهور تلج المدارس وهي في أبراد الحجاب، وكم من اللواتي مشين وراء النفير الأجنبي ونزعن حجابهنّ في غفلة وغرور أخذن يتراجعن وبدأن يستفقن من كابوس المفاهيم الخاطئة التي أملاها علينا الاستعمار الغاشم بعد أن أراد أن يستعمرنا في كل شيء حتى في أعزّ وأطهر ما عندنا وهو المرأة! نعم هذه كلها بوادر خير وبواكير نجاح فامضي يا أخيّة في طريقك غير هيابة ولا وجلة، ولا تدعي للمتربصات بكِ سبيلاً إلى تشفٍّ أو مدخلاً إلى نقد، كوني مثلاً يقتدى به ولا تكوني ألعوبة تقتدي، كوني متبوعة لا تابعة، قاومي الاغراءات، أصمدي أمام كل شيء، فإني لأعلم أن العقبات أمامكِ كثار وأن دربكِ لا يخلو من شوك وعثار! ولكن النكوص عار والتراجع شنار، فالموت أولى من ركوب العار والعار أولى من دخول النار!!.

ثم إني أريد أن أهمس في أذنيكِ أيضاً بأني قد سمعت وأكثر الظن أنك أيضاً تسمعين أن الحجاب والتستر يسترعي الانتباه أكثر من السفور، ويستوجب لفت النظر أكثر من التكشف، ولكن لا، فما هذه سوى دعوى الرجال المتعطشين إلى التطلع إلى محاسنكِ، ومحاسن بنات جنسكِ المسكينات، فدعيهم وما يقولون وسيري على بركة الله ولا تهني فإن لكِ الغلبة في الغد، وليس ببعيد، والآن فلا أدري هل سوف يصل ندائي هذا إلى أعماق قلبكِ وفكركِ؟ أم هل سوف يصل إليكِ على الأقل؟.

أسأل الله أن يكون كذلك، ودمت للمعجبة..

أختاه...

غد لنا مهما ادّعى ملحد   وارتجلت مبادىء وافده
غد لنا إذا صمدنا ولم   نضعف أمام العصبة الجاحدة
فالله قد واعدنا نصره   والحق لا يخلف من واعده

موقف المرأة في الإسلام

أختاه...

مرحباً بكِ وأنتِ تلتقين معي على هذه الصفحات، فلنراجع السير ولنتابع السبر ونرجع بذاكرتنا معاً إلى أزهر عهود البشرية. عهد الإسلام في فجره المشرق السعيد. لنستعرض دور المرأة المسلمة في ذلك العصر الذهبي ولنتطلع إلى موقعها في الإسلام ونظامه الاجتماعي، هذا الإسلام الذي ركّز للمرأة كيانها في ذلك العصر الجاهلي الرهيب الذي كانت الفتاة فيه موؤدة تسودّ وجوههم إذا بشروا بها. نعم في تلك الفترة المقيتة وبين معترك تلك الأفكار الهوجاء، وافانا الله تعالى بدين الإسلام، فأشاد بالمرأة في القرآن وجعلها في صف واحد مع الرجل لها ما له وعليها ما عليه، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٍۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وبهذا خلق الإسلام من المرأة المسلمة خلقاً إجتماعياً جديداً، وركّز لها مكانتها في الأوساط الإسلامية، وارتفع بمعنوياتها حتى شهدت الحروب، ونزلت إلى سوح الجهاد وكتبت لها أنصع صفحة في تاريخ الأمة الإسلامية منذ عهد خديجة أم المؤمنين أول حاضنة للرسالة المحمدية، واستمر التاريخ يحدثنا عن أمهاتنا اللاتي استنزن بنور الإسلام السماوي فقدّمن الضحايا والشهداء من إخوانهنَّ وأفلاذ أكبادهنَّ، ولم يكن المصاب ليزيدهنَّ إلا غيرة وحماسة وتفانياً في سبيل تركيز راية إسلامهنَّ الخالد.

فما أجدرنا اليوم إذ نمتحن رسالتنا الحبيبة بشتّى المحن أن نرفع مشعل الدعوة الإسلامية وننشر علومنا وتعاليمنا في سبيل الدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن نذكر دائماً وأبداً أن رسول الله ﷺ كان قد أوصانا بطلب العلم وجعلها فريضة على كل مسلم ومسلمة لكي يكون للمرأة المسلمة نصيبها من العودة إلى مبدئها ونظامها الخالد، ولكي تكون قادرة على صدّ هجمات المغرضين وردّ دعايات المرجفين لا لتتلاعب مع الريح مصفرة أو محمرّة شرقية كانت أم غربية، ولكن لكي تسير على الطريق المهيع السوي وتتمسك بالإسلام ديناً وعقيدة ونظاماً، ولكي تتفهمه لترى فيه كل ما تطمح إليه من تقدم ورقيّ وازدهار، فلا تعود تتطفّل على المبادىء الدخيلة والأفكار المستوردة، ومن ثمّ أراها أن تتعلّم لتعرف جوهر الإسلام على حقيقته الرائعة لا لتتعرّف على إنحلال الغربيات وتحجّر الشرقيات، أراده أن تكون شعلة من نور ملائكي، ويحاول المجتمع الفاسد أن يحيلها إلى لفحة من نار بهيمية، أرادها أن تكون ريحانة عطرة، ويؤيدها المفهوم الحيواني أن تغدو كورقة صفراء ذابلة تتلاعب بها الريح، خلقه لتكون قائدة سفينة فجعلتها الحضارة الكاذبة لعبة ساعة من الزمان، خلقها لتكون قائدة سفينة فجعلتها الحضارة الكاذبة لعبة ساعة من الزمان، خلقها لتصبح مدرسة أجيال ولكن قوى الشر تجهد لتحويله إلى آلة صمّاء.

فإلى الإسلام يا فتيات الإسلام، وإلى الدعوة إليه يا حفيدات خديجة والزهراء وبنات سكينة والحوراء، فإن فيه الأمن والأمان وهو أعذب معين ننهل منه وأصفى غدير نرد فيه ولن ينخذل أو يرتد من يدعو إليه وإليه فقط أبداً.

فقد مرّت على إسلامنا الحبيب أهوال وأهوال على مر العصور، ومنذ أشرق نوره في مكة ولكنه خرج منها جميعاً أوسع دعوة وأقوى حجة وأصلب عوداً، فالله قد وعدنا النصر والله لا يخلف الميعاد والسلام على من إتبع الهدى.

ستـرفـع رايـة إسـلامـنـا　　نـحـو الـعـلـى خـفـاقـة صـاعـدة
ويـنـتـصـر دسـتـور قـرآنـنـا　　رغـم أنـوف الـزمـرة الـحـاقـدة

الطلاق في نظر الإسلام

أختاه. . .

قالت صاحبتي وهي تحاورني بأسلوبها التهكّمي: هبينا جاريناكِ بما تدعينه للمرأة المسلمة من تركيز وسموّ في محيطها، إذا كان مسلماً حقيقياً فما عساكِ أن تقولي أنتِ في الطلاق وتشريعه، وفيه ما فيه من هدم للسعادة الزوجية وتخريب للعشّ الهانىء، وهو لا يعدو أن يكون كلمة ينطق بها الرجل متى شاء وأنّى رغب، أفليس في هذا إجحافاً بالمرأة ووأداً لحقوقها الطبيعية؟ فقلت لها وبصوتي رنّة المرارة والأسى عليها وعلى جميع مثيلاتها من التائهات المخدوعات، قلت: فاتكِ يا أخيّة أن تراجعي أحكام الطلاق كما شرعت وعلى حقيقتها الناصعة الواضحة وإن لم يفتك مراجعة أحدث أزياء باريس لهذا العام. فهكذا أنتِ ومثيلاتك المسكينات تتسابقن لتحرزن قصب السبق في أضاليل الأعداء ولتتفاخرنَ بتفاهات الاستعمار التي لا يراد منها إلا تخدير أرواحكنَّ بأفيونها السام، فهل فاتك أن الإسلام حمانا إذ شرع الطلاق، جاء به كآخر دواء لحياة مريضة موبوءة. وبعد إذ تشغل جميع الأساليب الحكيمة لترميم ما تصدع من الحياة الزوجية كما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥] فإن تشريع القضاء يضع الحل الوحيد والنهائي للمشكلة أو الانحطاط إلى درك الرذيلة، وتسد أمام الزوجين أبواب الخلاص والفراق مع إستحالة الحياة والانسجام بينهما وانعدام الروابط الروحية والمعنوية، وفاتك أيضاً يا صاحبتي أن الطلاق أبغض الحلال عند الله تعالى كما قد روي عن الرسول الأكرم ﷺ - ما من شيء أبغض عند الله من بيت يهدم بالفرقة -، وكما روي عنه صلوات الله عليه أيضاً - تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتزّ منه العرش!!- ولكن الإسلام أراد أن يهيىء للزوجين غير المتكافئين، أو غير المتوافقين طريقة سليمة تقيهما شرّ الهبوط إلى الرذيلة، ولذلك فقد شدّد فيه ووكد لكي لا يستهين به الرجال، ولا يعتبرونه مضغة في

الأفواه، كما جاء في الرواية: - إن الله ﷻ إنما شدّد في الطلاق وكرر القول فيه من بغضه للفرقة-، وأن الله ﷻ يحب البيت الذي فيه العرس ويكره البيت الذي فيه الطلاق -. والإسلام كما أنه أباح للرجل الطلاق عند الضرورة، أباحه للمرأة في حالات معينة إذا رفعت شكواها إلى حاكم الشرع المسلم وأقرها على ذلك، كما وقد أباح لها أن تشترط في العقد على زوجها فرض الطلاق عليها متى شاءت، إن كانت على غير ثقة وركون من زوجها المقبل، مع قلة ما يتفق هذا في مجتمع إسلامي لا يفرض على المرأة إرادة تتعارض ومصلحتها الخاصة.

وإني لآسفة جداً لكونكنّ تأخذنَ أحكام الإسلام من مجتمع فاسد لا يعرف من الإسلام إلا إسمه، فيخيل للرجل فيه أنه وقد خوّل هذه السلطة، وله أن يستعملها وفقاً لأغراضه الشخصية، ويتخيل للمرأة فيه أنها أسيرة مهيضة الجناح لا حول لها ولا طول، إلا إذا نقمت على الإسلام وكفرت بمثله وتراكضت وراء المبادىء المستوردة، فتروح تسعى لتثبت وجودها تحت بريق متكهربة كاذبة، ولو كانت تعلم الحقيقة لاستطاعت أن تثبت كيانها الأدبي والاجتماعي على ضوء منهج الإسلام التربوي والاجتماعي تستطيع أن تشترط الطلاق، وهي تتمكن من الفسخ إذا اكتشفت في زوجها عيباً شرعياً، وهي حرّة في إثبات شكايتها أمام الحاكم الشرعي المسلم ليحكم لها في الطلاق، وهي قبل ذلك كله حرة في إختيار الزوج الذي ترضاه لنفسها في محيطها ومجتمعها الإسلامي الحقيقي! لا في محيط متأرجح متحلل لا يمكنها من ذلك إلا بعد أن تسف إلى حيث الوحل اللزج، وبعد أن تفقد عبير أنوثتها وتملأ منه أنوف الشباب ولهذا فلن يصلح المجتمع، ولن تنال المرأة حقوقها كاملة إلا إذا تمّ تطبيع الحكم الإسلامي الحقيقي كما هو لا أكثر ولا أقل وعلى حقيقته الناصعة البيضاء وليس هذا ببعيد ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ [الصف: ١٣].

ستـرفـع رايـة إسـلامـنـا نـحـو الـعـلى خـفـاقـة صـاعـدة
ويـنـتـصـر دسـتـور قـرآنـنـا رغـم أنـوف الـزمـرة الـحـاقـدة

نفثة الصدر للمرأة المسلمة

أختاه. . .

وأخيراً طوينا صفحة عام كامل من حياتنا معاً على صفحات الأضواء، عام كامل ضم في حناياه الكثير الكثير من الآلام والآمال واليأس والرجاء والكسل والنشاط.

عام كامل خضناه بحراً أجاجاً تارة، وشربناه كأساً رقراقة أخرى، فحوادث الدهر نشر ولفّ وللأيام أقدار وآراء.

عام كامل كنت أسعى فيه إلى لقائك على هذه الصفحات عند مطلع كل شهر، وطالما تلهفت واستعجلت هذا اللقاء الذي يشدني إليك، ويدنيني من أخواتي المسلمات اللاتي يستشعرن معي خطورة مسؤولياتنا في الحياة وعمق واجبنا أمام مبدئنا السماوي.

نعم كنت أتلهف وأتشوق واثقة من أن كثيراً من بنات الإسلام كنَّ يتلهّفنَ ويتشوَّقنَ بدورهنَّ أيضاً، وذلك لما دلّ عليه هذا الاقبال المشكور من السيدات والآنسات للحصول على مجلة الأضواء، ولكن الذي حزّ في نفسي وآلمني هو ما تحسسته في غضون هذه المدة من روح إنطوائية تقمصتها بنات الإسلام، وفكرة يائسة خاطئة قعدت بهنَّ عن مجال الدعوة والتبشير في الوقت الذي يتحتم به علينا أن نكون أكثر تفاؤلاً بالمستقبل من أي وقت مضى بعدما دلّت عليه نتيجة الأرقام في فشل المجتمعات الغير إسلامية، وعجز الأنظمة الأخرى عن إستيعاب تحقيق حاجات الإنسانية. فمن بين نظام رأسمالي يرزح تحت وطأة الرأسمال ويئنّ من سياط الطبقية والعنصرية ويتحدر أثراً لانعدام المعنويات وإضمحلال القوى الأدبية، أو مجتمع إلحادي مادي يفتقر إلى الروح. ويفتقد حتى حرية التفكير أو تقرير المصير! وأنا لا أريد هنا أن أعدد نقاط الضعف في الأنظمة المرتجلة، أو أثبت عجزها عن القيام بالمجتمع البشري في الوقت الذي إنبعثت فيه دعوة الإسلام عالمية شاملة، الناس عنده

كأسنان المشط، لا فضل لأحدهم إلا بالتقوى. وهذا ما عجزت عن إدّعائه أحدث الأنظمة العصرية، نعم لا أريد أن أدخل في هذا، فلقد بحثه قبلي كبار الأدباء والفلاسفة الإسلاميين وأثبتوا صدق فكرتهم بدراسات موضوعية خالية من شوائب العاطفة والعصبية!. ولكنني أريد أن أقول أننا يجب أن نكون أكثر تفاؤلاً بالمستقبل ويقيناً بحاجة المجتمع إلى الإسلام، لما أصبح واضحاً جلياً خيبة المجتمعات الغير الإسلامية، ولا أقصد هنا مجتمعات أجنبية فقط، بل أعني مجتمعات في قلب الدول التي تسمى الإسلامية وهي أبعد ما تكون عن روح الإسلام ومعناه الصحيح، فهي إذ تضجّ بالمشاكل وتصبح تعجّ بالعثرات والكبوات كانت تتمكن وببساطة أن تتجنبها باتباعها الطريق السوي. نعم هذه المجتمعات المنحلة التي قنّعت بأقنعة الحسد والنفاق وبطنت ببطانات الغشّ والخداع، والآلام والحسرات، كما نراه على صفحات المجلات في كل يوم وأسبوع. نعم هؤلاء الضالون الذين ألقوا بأنفسهم مختارين إلى أنياب هذا الوحش الضاري الذي يسمونه الحضارة الحديثة! هؤلاء جاهلون أو متجاهلون مدى ما جلبوا على أنفسهم ومجتمعهم وتربيتهم الغالية من شقاء وبلاء!. ولكن التجارب التي أخذت تمرّ بهم والأزمات الشائكة التي أخذوا يمرّون بها سوف توقظهم وتوقفهم على الواقع وتدلهم على طريق الخلاص والنجاة وهو طريق الإسلام لا غير!.

وأنا لا أريد أن أنكر وجود مجتمعات إسلامية أيضاً، ولكنني أقول أنها من نقاط ضعف متركزة أولاً وبالذات على المرأة المسلمة في هذا المجتمع، فهي إما أن تكون جاهلة قانعة بالجهل، صابرة على ظلمة الفكر، لا تعرف للثقافة باباً إلا أبواب التهتك والتحلل، فهي غافلة عن كونها مدعوة للتثقف ولطلب العلم الذي جعله الرسول الأعظم ﷺ فريضة على كل مسلم ومسلمة، وهي غافلة أيضاً عن قدرتها على تنوير أفكارها وتوسيع معارفها بطرق صحيحة تكون فيها كالزهرة العطرة بين الأكمام، وإما أن تكون متعلمة مثقفة ولكنها منطوية على معارفها لا تتعدى نطاق دراستها الخاصة، ولا تشعر بأية مسؤولية موجهة

نحوها لاستثمار تعلمها لخدمة المجتمع المسلم، فهي تفخر لكونها مسالمة لا تعرف للنقاش والجدل سبيلاً، وقد فاتها أن الجدل الشريف والنقاش الهادىء الناشىء عن عقيدة صحيحة مفخر يقلد صاحبه أكاليل الفخار لا كالجدل والنقاش حول قشور وسفاسف وعصبيات وعنصريات. فالساكت عن الحق شيطان أخرس.

ولنأخذ على هذا مثلاً: فقد كتبت على صفحات الأضواء مواضيع كثيرة ولم تكن كتاباتي كلها مثالية، ولا يمكن أن تكون خالية من هفوة أو غفلة ولو من وجهة بعض النظريات فقط، فما الذي عقد بالعارفات من بنات الإسلام عن أن يصححن ما كتبت؟ أو ينبهنني إلى ما غفلت عنه؟ أو يبدين وجهة نظر فيما ادَّعين؟ فهل هذا العجز فيهنَّ، وما أكثر القادرات منهنَّ. أم الجهل، وفيهنَّ والحمد لله العارفات المتنورات، أو الخمول والكسل؟ نعم لخمولهنَّ وعدم شعورهنَّ بالمسؤولية! وإلا فما أحلى وما أبهى أن تجتمع أصواتنا نحن المسلمات لنبعث صرخة واحدة لا تنطق إحدانا إلا عن لسان وأفكار الباقة اليانعة من بنات الإسلام، ولا تكتب إحدانا إلا بعد أن نثق أن هناك من بنات جنسنا جيشاً صامداً يقف أمام الصدمات وينبهها على الهفوات. ولست أعني بهذا أو أبتغي إستجداء أدب أو فكرة، فهذا لا يكون منّي إن شاء الله تعالى، وأنما أقصد توحيد الآراء وتحديد الأفكار، فإني إذ أكتب هنا لا أهدف إلى أي غرض أو مصلحة شخصية، إكتفائي الذاتي المعنوي والأدبي ما يكفيني مشقة الخوض في هذا المضمار، ولكني أكتب لأكون قريبة منك دانية إليك عساني أن أسمع لكِ صوتاً أو أحرّك من مشاعركِ وتراً. والله من وراء القصد.

أختاه هيا للجهاد وللفدا ... وإلى نداء الحق في وقت الندا
هيّا اجهري في صرخة جبارة ... إنّا بنات محمد لن نقعدا
إنّا بنات رسالة قدسية ... حملت لنا عزاً تليداً أصيدا

المرأة والعمل

أختاه...

وبعد، فتعالي معي لأطلعك على ما بعثت به إليَّ إحدى أخواتنا العزيزات وما تفضلت بسؤاله مشكورة، فليس هناك شيء أحب إليَّ من أن يتهيأ لبنات الإسلام الجو الملائم لإبراز بعض مرتكزاتهنَّ الوهمية لتتبلور فكرتهنَّ وتتعقّم من الأدران بما يتلقى من أجوبة وتصحيح. نعم بعثت إليَّ لتقول بعد أن تلطّفت بالأطناب بمجلّة الأضواء وكتّابها قالت: إنكِ ذكرتِ غير مرة أن الإسلام يفتح أمام المرأة المسلمة أبواب العمل، ولكن كيف لها أن تعمل، وما عساها أن تعمل دون أن تخالف تعاليم الإسلام، ومن ضرورات العمل أن تسير في صفّ واحد مع الرجل كأن تصبح دكتورة أو مهندسة أو إدارية، فنحن حينما نراجع أحكام الإسلام، نرى أنه يمنعها بأحكامه وقوانينه من ممارسة أمثال هذه الأعمال، فهو على هذا يريد أن يجعلها مستضعفة لا تصلح إلا للنسل وطبخ الطعام، إلى هنا إنتهت كلمات الأخت المتعلقة بالموضوع، فإلى هذه الأخت العزيزة وإلى كافة أخواتنا المسلمات أوجه جوابي الذي أرجو أن يكون وافياً بالمقصود. والآن دعيني أولاً أن أوجه لكِ هذا السؤال، لماذا سمّيت المرأة بالجنس الناعم وهناك في النساء من هي أطول من بعض الرجال قامة وأصلب عوداً، وأغلب الظن أنك تعلمين سبب هذه التسمية، وذلك ما ضمته حناياها من نعومة وما طوت عليه جوانحها من رقة هذه النعومة، وهذه الرقة التي لولاها لما سارت سفينة الحياة، ولأصبح كل فرد من المجتمع لقيطاً وابن لقيط أو مشرداً تائهاً في ظلمات الكون، فلولا هذه الروح البلورية ولولا هذا الإحساس المرهف والشعور الحساس لما إستطاعت المرأة أن تقوم بوظيفتها المقدسة، فتكابد آلام الحمل وأثقاله وتتحمل مضاعفاته وأضراره، ثم ترحب بالوليد القادم وتبذل له من جهدها وحبها الكثير الكثير وتدعه يسلب منها لذة النوم ويملك عليها حريتها في الليل والنهار وتغذيه من عصارة روحها حليباً سائغاً هنيئاً، ثم هي فوق ذلك ممرضة له إذا مرض، ملاعبة إياه إذا ضجر، قد تعمل

جله المستحيل وقد تتحمل من ورائه الأخطار والأهوال، ولكنها في كل ذلك راضية قانعة بل فرحة مستبشرة تدفعها إلى ذلك كله عاطفة صادقة وحب خالص، ولكن هذا الحب الخالص وهذه العاطفة الصادقة موجودة عند الأب والأم سواء بسواء، فما السبب في كون الأم هي التي تتحمل أوفر قسط من المسؤولية وحدها دون الأب سوى شعورها المرهف وعواطفها الرقيقة، فإن الله حينما كونها في تركيبها العضوي الخاص وأوعدها طبيعياً لإعداد الإنسانية وصناعتها وأعدها إجتماعياً لقيادة العائلة الإنسانية وتدبير شؤونها وفقاً لما تقتضيه وظيفتها الطبيعية. أقول حينما أعدها الله تعالى لذلك، حباها وزودها بدروع باطنية تقاوم بها الآلام التي تنتج عن قيامها بدورها الطبيعي والاجتماعي في العائلة الانسانية، وهل هناك درع أقوى وأقوى من الحب، كما أن الله تبارك وتعالى حينما كوّن الرجل وأعده إعداداً خاصاً للقيام بدور الكفاح في الحياة وإخضاع الطبيعة لمطالب الإنسان، أسبغ عليه العوامل التي تهيِّئه للكفاح والتي تجعله جديراً بمواجهة مشاكل الحياة الخارجية بعزيمة ومضاء، فهو بذلك قد وزع لكل ما تقتضيه مسؤوليته في الحياة، فلولا أن تكون المرأة عاطفية ورقيقة لتبرّمت بمشاكل الأمومة وتخلّت كل امرأة عن وليدها ولو بأن تلقي به إلى ملجأ أيتام وبذلك تنحل عرى الأسرة ويستحيل المجتمع إلى مجتمع متفكك واهي فعلاً. ولكون المرأة إنسانة ملائكية وروح سماوية تعبق بالطهر والحب وتشعّ بهالات القدس والحنان، ولهذا فإن طبيعتها هي أولاً وبالذات لم تخلق لما تذكرين من أعمال، وهي وإن مارستها فإنها لا تخلو من نقاط ضعف تقعد بها عن السير إلى نهاية الطريق، فإذا سلّمنا ما لا ريب فيه أن من ضرورات الحياة أن تكون المرأة عاطفية، ومن واجبات إستمداد حياة المجتمع أن تكون المرأة خالقة أجيال وباعثة مستقبل، ثم تصبح هذه المرأة طبيبة، ويتفق في مرة أن تدعى لعيادة مريضها وهي في حالة المخاض أو تذهب لعيادة مريض مشرف على الهلاك، وإذا بذبالة حياته تنطفي بين يديها وهي تلك المخلوقة المرهفة الشعور الفياضة العاطفة، أو أنها تصبح محامية مثلاً أو قاضية ثم تذهب لتدافع أمام القضاة أو لتقضي بالعدل بين المتخاصمين، وإذا برحمتها الأنثوية وبأوتار

قلبها الحساس تنعطف نحو المجرم بعد أن تسمع منه شكاته وتعرف أنها هي المسؤولة عن جريمته وعدلها أو عن حياته وفنائه، فهل تتمكن إمرأة خلقت لتحيي أفراداً أن تلقي بواحد إلى مخالب الموت أو إلى السجن الرهيب، وإذا صادف ذلك وتمكنت من هذا فإن ذلك يكون دليلاً على تحررها من شخصيتها الحقيقية وعدم صلاحيتها للقيام بدورها كامرأة في الحياة، وفي هذا من الخطر ما يهدد المجموعة البشرية، ثم نأتي لنطالع موقفها وهي مهندسة فنراها تدعى مرة مثلاً لتضع تخطيط جسر، أو سدّ، أو تحدد شق شوارع في عرض الصحراء، فيتحتم عليها أن تتحمّل الشمس في القيظ الكاوي والصقيع في الشتاء المتجمد، وكثيراً ما يستوجب عملها ممارسة أعمالاً خشنة لا تتلاءم مع نعومتها وطراوة جلدتها، وهي مع ذلك لا تتمكن من القيام بدورها الأنثوي أيضاً فهي دائماً وأبداً في حركة مستمرة وتنقل، وإذا حصل وكانت ربّة بيت تعتمد على الخدم والوصائف بإدارة عشها السعيد ومملكتها الصغيرة، فسلام على ذلك البيت الذي تديره خادمة وعلى ذلك العش الذي تحرسه وصيفة، والويل للأولاد البريئين الذين يترعرعون في أحضان المربيات وعلى صدور المرضعات، وكذلك الحال بالمرأة الإدارية التي يتحتم عليها أن تتخلى عن بيتها ومن فيه وما فيه ثلثي النهار تقريباً فتجلس في دائرتها تنجز طلبات الأجانب وتقوم بما تكلّف به شرعاً وعرفاً تاركة أفلاذها فريسة للملل والسأم وطعمة سائغة تحت أنياب الانحراف والفساد، كما أخذت تدل عليه النتائج في المجتمعات الغربية وفي مجتمعاتنا المتطفلة عليها، فإن حضن الأم أول مدرسة في الحياة ولا يمكن للطفولة والفتوة أن تكون طفولة سليمة وفتوة معتدلة صالحة إذا لم يواكب سيرها حنان الأم ولم تتابعها عيونها البصيرة، والآن فلعلّكِ عرفت يا أختاه أن الإسلام إذ يفتح أمام المرأة أبواب العمل مع كونه يلزمها بالصيانة والحجاب لا يعتمد من ذلك العمل أمثال ما ذكرتيه من أعمال، ولا أريد أن أقصد من هذا أن تكون مهندسة بدون أن تخالف تعاليمه كما هو ميسور في مجتمع إسلامي صحيح لا يمنعها من ذلك، ولكنه يقبل هذا بوصفه إستثناءً وحالة فريدة لا تكون هدفاً للمرأة وحالة إجتماعية ولعلكِ لا تجهلين أن

هناك أعمال كثيرة يمكن القيام بها مع مسايرة الإسلام في شرائعه وأحكامه، وهل يطلب الإسلام من المرأة إلا الحجاب الذي لا يعدو كونه أبراداً تقيها الزوابع ودروعاً تصدّ عنها هجمات الوحوش الجائعة وعدا هذا فهي حرّة طليقة لها ما للرجل وعليها ما عليه. وأخيراً فلعلّك تنبَّهتِ إلى ما كنت قد غفلتِ عنه والسلام عليكِ وعلى جميع أخواتنا المسلمات.

بنت الهدى

١٠

بطولة المرأة المسلمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بطولة المرأة وعلاقتها بالحضارة

قد يكون أهم ما يميز الإسلام في موقفه من المرأة عن غيره من المبادىء والنظم التي عاشت قبله واستجدّت بعده، هو نظرته الإنسانية إلى المرأة والرجل على السواء في كل تشريعاته ومفاهيمه ونظرته للمرأة بما هي أنثى إلى صف نظرته للرجل بما هو ذكر، فالإسلام حين ينظر إلى الرجل بوصفه إنساناً وينظمه ويوجهه ينظر إلى المرأة باعتبارها إنساناً أيضاً ويساويها مع الرجل على الصعيد الإنساني في كل تنظيماته وتوجيهاته، لأنهما سواء في كرامة الإنسانية وحاجاتها ومتطلباتها. وأما حين ينظر الإسلام إلى المرأة بما هي أنثى وينظم أنوثتها ويوجهها، ينظر في مقابل ذلك إلى الرجل باعتباره ذكراً، ويفرض على كل منهما من الواجبات ويعطي لكل منهما من الحقوق ما يتفق مع طبيعته وفقاً لمبدأ تقسيم العمل بين أفراد المجتمع، وتنشأ عن ذلك الفروق بين أحكام المرأة وأحكام الرجل.

فمردّ الفرق بين أحكام المرأة وأحكام والرجل إلى تقدير حاجات ومتطلبات الأنوثة والذكورية، وتحديد كل منهما وفقاً لمقتضيات طبيعته. أما في مجال التنظيم الذي يرتبط بإنسانية الإنسان فلا فرق بين المرأة والرجل، لأنهما في نظر الإسلام إنسان على السواء. وقد شرحنا هذه النظرة الإنسانية للإسلام إلى المرأة التي تساوي فيها الرجل في كتاب (المرأة مع النبي) بكل تفصيل، وقلنا أن الإسلام وحده هو الذي نظر إلى المرأة نظرة إنسانية على قدم المساواة مع الرجل، بينما لم تنظر الحضارات الأخرى وحتى الحضارة الأوروبية الحديثة إلى المرأة إلا بوصفها أنثى وتعبيراً عن المتعة والتسلية والموقف الحضاري لكل مجتمع من المرأة ينعكس بدرجة كبيرة. وبقدر تغلغل تلك الحضارة على دور المرأة في تاريخ ذلك المجتمع وطبيعة موقفها من الأحداث. فالمرأة في

مجتمع يؤمن بإنسانية المرأة والرجل على السواء تمارس دورها الاجتماعي بوصفها إنسانة فتساهم مع الرجل في مختلف حقول البطولات الإنسانية، وتقدم أروع النماذج في تلك الحقول نتيجة للاعتراف بمساواتها مع الرجل على الصعيد الإنساني. وعلى العكس من ذلك المرأة في مجتمع ينظر إليها بوصفها أنثى، قبل أن ينظر إليها بوصفها إنسانة، فإنها تنكمش وفقاً لهذه النظرة، وتحرم من ممارسة أي دور بطولي على أساس إنساني، بل يرغمها المجتمع على التعويض عن ذلك بمختلف ألوان الظهور على أساس أنوثتها، وما تعبر عنه من متعة ولذة للرجل. ونجد خير مصداق لذلك في تاريخ المرأة التي عاشت في كنف الإسلام، وفي ظل مختلف الحضارات الأخرى فكان دورها ومختلف بطولاتها تتكيّف وفقاً لطبيعة المبدأ ومفهومه الحضاري عنها. فقد عبّرت في ظل الإسلام عن إنسانيتها أروع تعبير وأقامت بطولاتها على هذا الأساس، بينما لم تعبر في المجتمعات الأخرى اللاإسلامية إلا عن أنوثتها، ولم يتح لها أن تقيم لها مجداً إلا على أساس هذه الأنوثة وبقدر ما فيها من وسائل الإغراء للرجال لا على أساس إنسانيتها وبقدر ما فيها من طاقات الخير والإصلاح.

بطولات المرأة الأوروبية القديمة

ولنبدأ أولاً بالمرأة اليونانية، ففي اليونان مثلاً وهي أرقى الأمم القديمة حضارة وتمدناً في التاريخ القديم، بذلت محاولات للارتفاع بالمرأة اليونانية وانتشالها من حضيضها الذي كانت تعيشه في عصره البدائي القديم. وفعلاً فقد تمكنوا من ذلك، ولكن على أي حساب وبأي دافع؟ على حساب تكوينها الجسماني ومظهرها الخلقي لا غير، فتفننوا في نحت التماثيل الفاضحة ونقش الصور المكشوفة وجعلوا من المرأة رمزاً للجمال والحب والعشق ومصدراً للشهوات الحيوانية والأهواء الوحشية، وبهذا فقد رفعوا المرأة من وهدتها كإنسانة ساقطة إلى صورة خليعة وتمثال من البرونز، يركعون بين يديه إكباراً لنواحي الجمال التي يبرزونها فيه. وكان من جراء جريهم وراء الشهوات الحسية أن تغلبت عليهم المادة، وجرفهم تيار الغرائز البوهيمية وسيطرت عليهم الأهواء الجامحة. وهذه العوامل هي أقوى معول يهدم حضارة الأمم

ويحط من مكانتها في التاريخ. ولهذا فنحن نرى المرأة اليونانية لا تذكر في التاريخ إلا كصورة نقشتها ريشة مصوّر أو تمثال أبدعه فنّان. نعم هذا كل ما تبقى للمرأة اليونانية لأنها كانت قد تسنّمت المجد على حسابه ولسبب منه.

وقد تسنّم الرومانيون ذروة المجد والرقي بعد اليونان. وفي الرومان أيضاً نلاحظ سلسلة الصعود والهبوط التي كانت تعيشها المرأة في الأمة الرومانية، فقد كانت لعبة طيّعة يتلاعب رجلها بها كما يشاء حتى في حياتها في بعض الأحوال. وبالتدريج تضاءلت عند الرومان فكرتهم الوحشية على المرأة بعد أن أخذوا يحاولون التقدم نحو المدنية والحضارة، فحاولوا أن يرفعوا من مكانة المرأة وأن يجعلوا منها مخلوقة لها كيان في المجتمع فماذا صنعوا؟ وبأي شيء رفعوا من مكانة المرأة عندهم؟ وماذا كان دور المرأة الرومانية في محاولة التمدن تلك: لا شيء غير تبجيل المومسات وتقديس الشهوات وإباحة النساء حتى أضحت بعض المومسات يتلاعبن بأحوال الدولة وشؤونها وكانت بيوتهنّ نواد تضم كل متحضّر ومتمدّن. ولهذا فقد عمّت الفوضى الحيوانية من جرّاء ذلك واختلّ نظام الدولة وانحطّت مكانتها كأمة. وفعلاً فقد ذوت دولة الرومان وتلاشت حضارتهم ولم يبقَ للمرأة الرومانية من ذكر في التاريخ سوى كونها أنثى ساعدت على هدم حضارة أمة.

بطولة المرأة الأوروبية الحديثة:

ثم جاءت أوروبا المسيحية بعد ذلك فكان دورها فيها دوراً سلبياً على طول الخط، ولم تحاول هي أو لم يحاول علماء أوروبا المسيحية ومفكروها بأن يهيّئوا للمرأة أي مجال تلعب فيه أو أي منفذ منه إلى زاوية التاريخ، حتى جاءت أوروبا الجديدة فحاولت أن تنهض بالمرأة الأوروبية وأن تجعل منها عنصراً فعالاً في المجتمع ففتحت لها أبوابه لتلجه كما تشاء. وولّته فعلاً واحتلت مكانها فيه إلى جوار الرجل ولكن لا لكونها إنسانة ذات كيان روحي مستقل بل لكونها أداة منَّ أدوات تسلية الرجل الذي منَّ عليها بولوج المجتمع، وفتح أمامها مغاليقه. ثم حاولت أوروبا الجديدة أن تتظاهر بمساواة المرأة مع الرجل في قوانينها ونظمها، وتوصلت إلى ما يبدو في ظاهرة مساواة، ولكن

واقع مساواتهم هذه جاءت مختلفة عن حقيقة المساواة، فلم تبرح المرأة الأوروبية خاضعة لنفوذ الرجل عليها في كل المجالات وحتى فيما تملكه هي أو فيما يحق لها التصرف فيه. وفي قبال هذه المساواة الموهومة إستنفذ الرجل منها كل ما يشاء دون قيد أو شرط واستعرضها كسلعة رخيصة بعد أن فقدت جميع مقومات أنوثتها من عزّة وكرامة، وبعد أن خسرت شخصيتها كأنثى وكيانها كامرأة واختصر دورها في الحياة، على تحقيق رغبات الرجل ومتابعته فيما يتفنن لها من أسباب الأناقة وما يهيىء لها من طرق الدعارة والاستهتار. هذا هو في الواقع كل ما أحرزته المرأة الأوروبية الحديثة وهذا كل ما تمثله اليوم وما تذكر به في الغد يوم تشع الحقيقة في العالم. وهذا هو حال المرأة في مجتمع ينظر إليها كأنثى لا كإنسانة.

بطولة المرأة المسلمة

أما المرأة المسلمة فقد اعتمدت ببطولتها على إنسانيتها فقط بعد أن تبوَّأت مكانتها السامية في الإسلام على حسابها الخاص وعلى كونها إنسانة كالرجل المسلم، وهو إنسان لها ما له وعليها ما عليه وإن اختلفت عنه بالوظائف والتكاليف التي وزعت على البشر كل حسب ما تتطلبه فطرته ويقتضيه تكوينه. ولهذا ولكونها في الصعيد العام إنسانة كالرجل برزت شخصيتها لامعة وضّاءة وسجّلت لها في التاريخ ذكراً عطراً كأروع ما تسجله إنسانة مستقلة لها عقيدتها ورسالتها السماوية. وقد عرفت المرأة المسلمة قيمة النصر الذي أحرزته والمستوى الرفيع الذي ارتقت إليه بعد أن قضت عصوراً عاشتها وهي في مهملات التاريخ، ولهذا فقد سعت جاهدة للعمل على إثبات كفاءتها لذلك. وكان في كثرة النساء المبادرات للإسلام أصدق دليل على ما حمله الإسلام للمرأة المسلمة من خير وصلاح، وما هيّأ لها من محل رفيع، وفعلاً فقد سجّلت المرأة المسلمة في التاريخ الإسلامي أروع صفحات كتبتها بالتضحية

والفداء، وخطتها بدماء الآباء والأبناء بعد أن أكد الإسلام على اعتبارها في الصعيد الإنساني كأخيها الرجل لا أكثر ولا أقل، فكما أن بطولة الرجل المسلم كانت في مجالين وفي اتجاهين في مجال التضحية والجهاد وفي مجال حمل فكرة الدعوة، كانت بطولة المرأة المسلمة أيضاً في المجالين مجال التضحية والفداء ومجال حمل فكرة الدعوة وفي كلا الصعيدين كانت تعمل كإنسانة لا كأنثى.

بطولة المرأة في ميدان حمل الدعوة:

أما ميدان حمل الدعوة فقد شهدت المرأة المسلمة في صدر الإسلام الحروب والوقعات، وجهدت على أن تبرهن بمواقفها البطولية تلك كونها تعمل للإسلام على أساس من إنسانيتها. التي أقرّها لها الإسلام ولها الحق في الدفاع عن الرسالة التي تدين بها. وتاريخ المرأة المسلمة يحدثنا عن بطلات ضاهَيْنَ في بطولتهنَّ الرجال واقتحمن لظى الحروب غير هيابات ولا وجلات. وهذه إحداهنَّ وهي نسيبة بنت كعب بن عمر بن عوف الأنصارية وقد كانت سيدة جليلة القدر كبيرة القلب، عالية الهمّة، رفيعة الروح، وقد أسلمت في أوائل من أسلم وما أن خرج زوجها غزية بن عمرو وإبناها حبيب وعبد الله إلى أحد حتى خرجت معهم متطوعة مختارة، وفي أحد كانت تقوم بفعاليات مهمة فهي تسقي العطشى، وتداوي الجرحى، وتطيّب المرضى. وفي مرة خرجت في أول النهار كعادتها لتسقي جرحى الحرب من المسلمين فانتهى بها المطاف إلى رسول الله وهو في أصحابه والنصر للمسلمين، فلما أنهت مهمتها وعادت لاحظت أن النصر قد جانب المسلمين فانحازت إلى رسول الله، فلما إنهزم المسلمون أخذت السيف وجعلت ترمي بالقوس بين يدي رسول الله، وقد أقبل ابن قميئة وهو يصيح دلّوني على محمد فلا نجوت إن نجا، فاعترض له مصعب بن عمير وناس معه وقد كانت نسيبة أم عمارة فيهم فضربها وضربته على ذلك ضربات ولكنها لم تصبه لأنه كان قد تدرّع بدرعين من حديد. وقد حدّثت نسيبة عن وقعة أحد فقالت: إنكشف الناس عن رسول الله فما بقي إلا نفر يتممون العشرة وأنا إبنايَ وزوجي بين يديه نذبّ عنه والناس يمرّون منهزمين. ورآني

رسول الله لا ترسَ معي فرأى رجلاً مولياً ومعه ترس فقال لصاحب الترس: ألقِ ترسكَ إلى من يقاتل فألقى ترسَه فأخذته وجعلت أترس به عن رسول الله. هذا ما روته أم عمارة عن موقفها في أُحد وعن موقف الرسول منها واهتمامه بأمرها وهي تذود عنه مع القلة من الرجال، وقد استمرت نسيبة بمهمتها تداوي وتطبِّب وتقاتل عندما تدعو الحاجة إلى ذلك، حتى جرح ابنها عبيد بن زيد وجعل دمه يسيل وهي لاهية عنه بقتال الأعداء حتى نادى رسول الله ابنها فقال: إعصب جرحك فتنبّهت إلى ابنها وأقبلت إليه ومعها عصائب قد أعدتها للجراح فربطت جرحه والنبي واقف ينظر إليها. ثم قالت لابنها بعد أن انتهت من تضميد جراحه إنهض يا بني فضارب القوم فجعل النبي يقول: ومن يطيق ما تطيق أم عمارة، ثم أقبل الرجل الذي ضرب إبنها، فقال رسول الله هذا ضارب إبنكِ، قالت نسيبة: فاعترضت له فضربت ساقه فبرك، قالت: فرأيت رسول الله يبتسم حتى رأيت نواذجه وقال إستقدت يا أم عمارة، ثم أقبلوا يعلونه بالسلاح حتى أتوا على نفسه فقال النبي: الحمد الله الذي ظفرك وأقر عينكِ من عدوكِ وأراكِ ثأركِ بعينكِ. وفي رواية أن رسول الله كان يقول: لمقام نسيبة يوم خيبر خير من مقام فلان وفلان. وكان الرسول يراها يوم أُحد وهي تستبسل بالجهاد وقد شدّت ثوبها ومئزرها على وسطها حتى جرحت ثلاثة عشر جرحاً، وكان رسول الله يذكر شجاعتها ويقول إني لأنظر إلى ابن قميئة وهو يضربها على عاتقها.
وكان أعظم جراحها وقد داوته سنة ولم يمنعها جرحها هذا عن السعي إلى خوض غمار الحرب عندما نادى رسول الله إلى حمراء الأسد فشدّت عليها ثيابها فما استطاعت من نزف الدم وأعياها الخروج فباتت ليلتها وهي تداوي جراحاتها المتعددة. فلما رجع رسول الله من الحمراء أرسل إليها عبيد الله بن كعب المازني يسأل عنها، فرجع إليه بخبر سلامتها ففرح بذلك، وكأنه كان قد إفتقد مكانها مع المجاهدين هناك فأراد أن يطمئن على سلامتها وأن يشجعها ويرفع من معنوياتها وأن يبيّن لها أن قلبه الكبير ورسالته السماوية تتسعان لكل من نذر قلبه للإسلام، وأنها بجهادها ذاك حازت عند ربها درجة المجاهدين الأبرار. وقد روي عن الرسول أنه قال يوم أحد ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا

وأنا أراها تقاتل دوني. هذه هي نسيبة في صدر الإسلام، وهذه آيات بطولتها وجهادها بين يدي رسول الله ﷺ وهي مندفعة وراء عقيدتها الخالصة، وهذا هو موقف الرسول الأعظم من المرأة المسلمة، وحتى بعد الرسول لم تكن جذوة الحماس الديني لتخمد في صدر نسيبة وقد أضاءها في جوانحها رسول الله ورسالته الخالدة، فقد شهدت قتال مسيلمة باليمامة وتطوعت للجهاد وللدفاع عن العقيدة الإسلامية وأبلت في تلك الوقعة كما فقدت ولدها أيضاً وهي صابرة محتسبة لم تهن ولم تنكل، وأنّى لها أن تنكل أو تتراجع وهي التي واكبت سير الرسالة منذ فجرها الأول ونذرت نفسها لقضيتها العادلة منذ شهدت بيعة الرضوان مع القلائل الذين شهدوها، وهي التي روي عنها أنها أتت النبي فقالت ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرون، فكان أن نزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلى آخر الآية وبهذا أثبتت أن للمرأة المسلمة في الإسلام شأناً ومقاماً ينص عليه القرآن الكريم، وما كانت نسيبة لتندفع هذا الاندفاع الثوري وتقوم بهذه التضحيات الجسام لو لم يقرّ لها الإسلام حقوقها كاملة في الحياة، ولو لم يساوِ بينها وبين الرجل على صعيد إنساني واحد، ولو لم يخلق لها الإسلام الجو الذي مكّنها من أن تلعب دورها البطولي فيه على أساس إنساني، فنسيبة إمرأة ونساء قريش نساء أيضاً ولكل من نسيبة المسلمة والمرأة القريشية الكافرة قلب إمرأة وعاطفة أنثى، ومع هذا فقد خرجن القريشيات إلى القتال مع أزواجهنَّ ليضربن الدفوف ويذكين فيهم الأحقاد ويحملن مراود ومكاحل فإذا تكعكع أحدهم ناولنَه إياها وقلنَ له أنت امرأة. وخرجت نسيبة المسلمة وغيرها من المسلمات ليقاتلنَ ويطببّنَ ويداوينَ ويثبتنَ حين يفرّ الرجال، وقد روت أم عمارة عنهنَّ قالت رأيتهنَّ يوم أحد وقد ولّين منهزمات مشمرات وهنَّ يتبعن الرجال المنهزمين على الخيول على أقدامهن فيسقطن في الطريق، فأي روح هذه التي جعلت من نسيبة داعية مسلمة تقاتل مع النبي حتى تجرح وتقاتل بعده حتى تقطع يدها وجعلت نساء قريش يضربن الدفوف ثم يولين الأدبار منهزمات، إنها روح الاسلام وما يهبه للمسلمات من معنويات عالية. أعلى الله

مقام أم عمارة ورزقها الخلد موئلاً ومقاماً وجعلنا ممن يقتفين آثارها ويهتدي بهداها وجعل من المجتمع الإسلامي الحاضر مجتمعاً إسلامياً واقعياً يمكّن المرأة المسلمة الواقعية من القيام بمهمتها كمسلمة وجعل المسلمات كأمهاتهنَّ في مطلع الإسلام جديرات بتحمّل مسؤولية الدعوة للإسلام والحفاظ عليها.

وهذه بطلة ثانية وهي نسيبة بنت الحارث الأنصارية وكانت تعد من فواضل نساء عصرها ومن خيرة نساء الصحابة، وقد غزت مع رسول الله في أكثر غزواته تمرض وتداوي وتقوم برسالتها كمسلمة على أروع وجه وأبهاه. وكان تمريض مرضى الحرب وتطبيب جرحاه يعد في ذلك العصر الذي لم تكن وسائل العلاج المستحدثة موجودة فيه يعد ضرورة من أهم ضرورات الحرب ومقوم من مقومات إنتصارها وصمودها أمام الأعداء، فلولا وجود المطبب والمداوي لتلاشى الجيش ولانشغل كل جندي بأخيه وبصديقه ورفيقه. لهذا فقد أسهم لها رسول الله سهم رجل تقديراً منه لمواقفها البطولي وتشجيعاً لها ولغيرها من المسلمات على مساندة الدعوة والقيام بما يقوين عليه من أعمال وتضحيات.

فالإسلام لا يريد أن يعزل المرأة المسلمة عن الدعوة ولا يريد أن يقعد بها عن مواكبة سير الرسالة وهو يعلم أن المرأة عضو فعّال في كل مجتمع ولا يمكن للمجتمع الإسلامي أن يعيش وقد شلَّ أحد أعضائه ولهذا فنحن نرى أن الرسول الأعظم كان يعني بالمتطوعات من المسلمات ويسهم لهنّ سهم اللواتي شهدنَ الوقعات مع رسول الله يداوين ويطببن، معاذة الغفارية، وأم منيع بنت قيس بن الصلت الغفارية، وقد روي عن أمية هذه أن قالت جئت رسول الله في نسوة من بني غفار، فقلنا إنَّا نريد أن نخرج معك إلى خيبر يا رسول الله، نداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا. فقال رسول الله على بركة الله، قالت: فخرجنا وقمنا بواجبنا في الجهاد، نعم هكذا كنَّ النساء المسلمات وقد حبَّب الاسلام إليهنَّ الفداء وجعلهنَّ يستهنَّ بمصاعب الحرب وأهواله وسعينَ إليها مندفعات غير هيابات ولا وجلات. وهكذا كان رسول الله رؤوفاً بالمسلمات بارّاً بهنَّ، ولا يردُّ لهنَّ طلباً ولا يحطّ من مكانتهنَّ ولا يشعرنَ بعجزهنَّ، فالمرأة إنسانة كما أن الرجل إنسان ولكل إنسان حقه الطبيعي

في الدفاع عمَّا لديه والذود عمَّا يعتزّ فيه، وبما أن الاسلام هو أغلى شيء لدى المرأة المسلمة لم يشأ نبيّ الرحمة أن يحرمهنَّ من لذّة الذود عنه، فهنَّ متطوعات مندفعات وراء حماسهنَّ الديني. . وممن شهدنَ الغزوات مع رسول الله أيضاً حمنة بنت جحش وهي من المهاجرات، وقد شهدت أُحد فكانت تسقي العطشى، وتداوي الجرحى، وبرزة بنت مسعود بن عمر الثقفية، وأم زياد الأشجعية، وهي سادسة ستّ نسوة خرجن يوم خيبر فبلغ ذلك النبي فبعث إليهنَّ فقال بإذن مَن خَرجتنَّ، فقلنَ له خرجنا ومعنا دواء نداوي الجرحى ونناول السهام ونسقي السويق ونغزل الشعر ونعين في سبيل الله، فقال ﷺ أقمن، فلما فتح الله عليه خيبر قسَّم لهنَّ كما قسَّم للرجال، وكذلك أم سليط وهي من فضليات نساء عصرها وقد حضرت مع النبي أُحداً وكانت تزخر القرب للمجاهدين وتقوم على مداواة المرضى منهم، وأم سنان الأسلمية وقد استأذنت الرسول عند خروجه إلى خيبر فقالت: يا رسول الله أخرج معك في وجهك هذا أخرز السقاء، وأداوي المرضى، فأذن لها رسول الله وقال اخرجي على بركة الله تعالى فإن لكِ صواحب قد كلّمنني وأذنت لهنَّ من قومكِ ومن غيرهم، فإن شئت فمع قومكِ، وإن شئت معنا، فقالت أم سنان معكَ يا رسول الله فقال رسول الله تكوني مع أم سلمة زوجتي فكانت وشهدت فتح خيبر، كذلك أم الضحاك بنت مسعود الأنصارية، وأم العلا الأنصارية، وكعيبة بنت الأسلمية، وأم سليم بنت ملحان بن خالد وقد شهدت يوم أُحد وسقت فيه العطشى، وداوت الجرحى ثم شهدت يوم حنين وأبلت فيه بلاءً حسناً، وكانت قد حزمت خنجراً على وسطها وهي حامل يومئذٍ بعبد الله بن أبي طلحة، فقال أبو طلحة يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر إن دنا منّي أحد من المشركين بقرت به بطنه وأقتل هؤلاء الذين يفرّون عنك كما تقتل هؤلاء الذين يقاتلونك فإنهم بذلك أهل فقال لها رسول الله: يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن. . .

أُولاء جميعهنَّ وكثير من المسلمات كنَّ يبذلنَ مهجهنَّ رخيصة في سبيل المبدأ والعقيدة وهنَّ في ذلك غير ملزمات، فالإسلام لم يفرض الجهاد على النساء ولم يكلفهنَّ بشيء منه رأفة بهنَّ وحرصاً منه على فرز وظائفهنَّ عن

وظائف الرجال وتفرغنَّ لما تدعوهنَّ إليه طبيعتهنَّ الأنثوية، ولهذا فنحن نرى أن كثيراً من النساء المجاهدات كنَّ يستأذنَّ النبي في الجهاد ولا يخرجنَ بدون إذن منه مع حرصهنَّ الشديد على الخروج، وكأن المرأة المسلمة كانت تتوق إلى ما كتب للرجل من أجر في الجهاد وتأسى لحرمانها منه فحاولت أن لا تدع فرصة الجهاد تفوتها وهي الحريصة عليه، فخرجت تطبّب وتداوي ثم تضرب وتقاتل، فقد كانت المرأة في صدر الإسلام تأخذ الاسلام من منبعه الزاخر فتنطبع روحياتها وعواطفها إنطباعاً إسلامياً واقعياً فيهون لديها العزيز والغالي في سبيل عقيدتها ومبدئها السماوي وتقدم الضحايا من الأخوة والأبناء قريرة فخورة، ثم تحاول أن تقوم بنفسها أيضاً بدور إيجابي في معارك الحق مع الباطل فتستأذن في شهود الغزوات وتشهدها فعلاً وتبلى فيها البلاء الحسن، ولم يكن موقفها ذاك إلا بدافع من يقينها بالحق الذي هي عليه، وثقتها من أن النعيم السماوي سوف يضمّ من تفقده من الأعزاء والأحباء. هذا اليقين الذي تغلب في المرأة المسلمة في صدر الإسلام على المشاعر العاطفية التي يزخر بها قلب كل أنثى، فالتاريخ يحدثنا عن صفية بنت عبد المطلب بن هاشم وهي زوجة العوام بن خويلد بن أسد وقد شهدت غزوة أُحد تطبِّب وتداوي، فلما انهزم المسلمون قامت وبيدها رمح تضرب في وجوه القوم وتقول انهزمتم عن رسول الله، فلما رآها رسول الله قال لابنها الزبير بن العوام ألقها فأرجعها لترى ما بشقيقها حمزة بن عبد المطلب، فلقاها الزبير فقال: يا أماه، إن رسول الله يأمركِ أن ترجعي فردّت عليه قائلة ولِمَ؟ فقد بلغني أنه مُثِّلَ بأخي وذلك في الله عَزَّوَجَلَّ قليل فلما أرضانا بما كان من ذلك لأحتسبنّ ولأصبرنَّ إن شاء الله تعالى، فلمّا جاء الزبير رسول الله وأخبره بذلك قال خلِّ سبيلها، فأتت صفية أخاها حمزة فنظرت إليه وصلّت عليه واسترجعت واستغفرت له ولم تزد. . هذا كان هو ردّ فعل مقتل حمزة رضوان الله عليه لدى أخته صفيّة لأنها كانت مسلمة، وكانت على يقين راسخ من أن أخاها قد مضى على حق وقتل شهيداً في سبيل الذود عن رسالة السماء فقالت كلمتها الخالدة ذلك في الله عَزَّوَجَلَّ قليل.

وأي شيء أشدّ هولاً من أن ترى أخت صفية أخاها الشهيد حمزة وهو قتيل وقد مثلت فيه آكلة الأكباد، ولكن صفية ماذا كان موقفها من ذلك كله. هل نادت بالويل والثبور، هل جزعت وأقامت الدنيا صراخاً وعويلاً، هل شتمت ولعنت قاتليه، هل أظهرت التبرّم بالحرب، هل وقفت موقف الأنثى أم موقف الإنسانة، أبداً لم تقف موقف الأنثى بل موقف الإنسانة الصابرة، صلّت عليه واسترجعت واستغفرت له، فلم تكن صفية لتجزع من الحق أو تتبرّم بما يفرضه الإسلام ولكنها بكته ما دامت جاهدة مقروحة ومن رثائها له وقولها:

فوالله لا أنساك ما هبت الصبا ... بكاءً وحزناً محضري ومسيري
فيا ليت شلوي يوم ذاك واعظمي ... لدى أضبع تقتادني ونسور

كما أن موقف الخنساء بنت عمر بن الشريد من فقدت أخويها قبل الاسلام، وأولادها الأربعة بعد الإسلام، يدلّ بوضوح على الروحيات السامية التي كنَّ يعشنَ بها النساء المسلمات في صدر الإسلام. فقد فقدت الخنساء أخويها صخراً ومعاوية في عصر الجاهلية، إنتزعتهما منها أيدٍ حاقدة وحزازات عصبية قبلية فأفرطت في الجزع لذلك ونظمت بهما المراثي الطوال التي ضاهت بها أكابر الشعراء ودأبت على أن تشهد سوق عكاظ في كل سنة على هودج مكلل بالسواد تنشد المراثي وتنعى أخويها القتيلين، وأشعارها في رثاء صخر تشير إلى لوعتها المحمومة وصبرها الذائب في أتون الحقد والضغينة ومما قالته في صخر رائية:

يؤرقني التذكر حين أمسي ... ويردعني مع الأحزان نكس
على صخر وأي فتى كصخر ... ليوم كريهة وطعان خلس
فلم أرَ مثله رزءاً لجن ... ولم أرَ مثله رزءاً لأنس
ألا يا صخر لا أنساك حتى ... أفارق مهجتي ويشق رمسي
ولولا كثرة الباكين حولي ... على اخوانهم لقتلت نفسي
يذكرني طلوع الشمس صخرا ... وأذكره بكل غروب شمس
وما يبكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

ومما قالته في أخيها معاوية:

فأقسمت لا ينفك دمعي وعولتي   عليكَ بحزن ما دعا الله داعية

ثم تمضي السنون والخنساء لا تنفك تبكي أخويها بمرارة وأسى، حتى تشرق شمس الإسلام فتسلم الخنساء مع مَن أسلم وهي لا تزال تبكي أخويها ليل نهار حتى تتقرّح أجفانها لذلك، فيقال لها ما قرح مآقي عينيكِ فتقول: بكائي على السادات في مضر، فيقال يا خنساء إنهم في النار، فتقول ذاك أطول لعويلي عليهم كنت أبكي لصخر على الحياة وأنا اليوم أبكي له من النار، ثم حضرت حرب القادسية ومعها بنوها وهم أربعة فقالت لهم: من أول الليل يا بني أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين ووالله الذي لا إله إلا هو، إنكم بنو إمرأة واحدة ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ولا هجنت حسبكم ولا غيّرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعدَّ الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين وإعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوّكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب وقد شمّرت عن ساقها واضطرمت لظى على سياقها وجلّلت ناراً على أوراقها، فتيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها عند إحتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة في الخلد والمقامة.. وفعلاً فقد خرج أولادها الأربعة واستبسلوا في القتال حتى قُتل الواحد تلوَ الآخر، فلما بلغها الخبر قالت: الحمد لله الذي شرَّفني بقتلهم وأرجو من ربِّي أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته... هذا هو الإسلام وهذه هي روحياته المثلى التي تحبّب إلى الأم شهادة ابنها وتهون لديها مصابها فيه، وهذه هي المرأة المسلمة التي لعبت دورها في المجتمع المسلم كإنسانة وعلى حساب إنسانيتها التي أقرّها لها الإسلام والتي اختصت بها المرأة المسلمة في ظلّ شريعة الإسلام دون غيرها من النساء، والأمم غير الإسلامية فعندما شعرت المرأة المسلمة أن الإسلام يحلّها في مجتمعه المسلم محلّ الإنسانة ذات الكيان الخاص، رأت أن عليها أن تثبت لها ذلك الكيان وأن تبرهن في

سلوكها عن جدارتها للمحل الذي أحلها منه فخلدت لها في صفحات التاريخ أروع آيات البطولة والفداء، وقد تمكنت المرأة المسلمة في صدر الاسلام أن تبرهن على ذلك وتؤكده، ويكفي المرأة المسلمة فخراً موقف الحوراء زينب عليها السلام عندما قالت كلمتها المأثورة وهي على جثمان أخيها الإمام الحسين لتقول: أللهمَّ تقبَّل منَّا هذا القربان ولم يكن فقيد الحوراء كغيره ممن فقدته النساء، ولم تكن مصيبته كغيرها من المصائب وهو الإمام والأخ والحبيب، وبعد أن تقدمه إلى الشهادة خيرة بني الأب والعم والأصحاب والأنصار. فأي عقيدة هذه التي دفعت الحوراء إلى هذا الفداء؟ والحوراء أنثى لها ما لدى كل أنثى من رقة عاطفة ومشاعر حساسة، ثم هي أخت وقد فقدت في فقد أخيها ركنها الركين وحصنها الأمين وريحانة أبويها وجدها العظيم، ثم هي أيضاً مسلمة وقد شاهدت قوى الظلم تبغي على الحق وتردي بضعة النبوة والرسالة، ولكن ومع كل هذا تقف على جثمان أخيها لتقول اللهمَّ تقبَّل منَّا هذا القربان، يا الله ما أقدس قربانك يا بنت رسول الله، وأسمى معنوياتك يا عقيلة بني هاشم، وما أروع هذا الفداء الذي افتديتِ به شريعة جدّك ورسالة السماء فركّزت بذلك أركان الدعوة الاسلامية على مدى العصور والأجيال.

بطولة المرأة في حمل الفكرة:

وأما على صعيد حمل الفكرة ونشر الثقافة الإسلامية ومفاهيم الشريعة الجديدة وأحكامها، فما أكثر النساء اللواتي أخذن الاسلام من منبعه الزاخر فبشَّرن به ودعونَ إليه بعد أن تعمّقن في فهم الإسلام. فكنَّ مدارس إسلامية يروين عن النبي ويروي عنهنَّ.

وفي طليعة الروايات عن النبي والناشرات لأحكام الإسلام الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء صلوات الله عليها فقد روت عن أبيها، وروي عنها ابنها الحسن والحسين عليهما السلام، وزوجها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وعائشة وسلمى أم رافع، وأنس بن مالك، وأم سلمة، وأرسلت عنها فاطمة بنت الحسين وغيرها.

وروت عن الرسول أيضاً أسماء بنت عميس الخثعمية، وروت عنها أم جعفر وأم محمد إبنتا محمد بن جعفر. وروت عن النبي أيضاً أم اسحاق بنت سليمان وروى عنها محمد بن العباس بن الوليد عن أبيه عن أمه عن أم إسحاق عن أبي عبد الله. وممن روين عن النبي أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية. وأسماء هذه كانت محدثة فاضلة، ومجاهدة جليلة، من ذوات العقل والدين والخطابة، حتى لقبولها بخطيبة النساء. وقد أتت النبي وهو في أصحابه فقالت: بأبي وأمي أنت يا رسول الله، أنا وافدة النساء إن الله عزّ وجلّ بعثك إلى الرجال والنساء كافة، فآمنا بك وبإلٰهك وإنَّ معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم ومقضى شهواتكم وحاملات أولادكم. وأنكم معشر الرجال، فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ، فإن الرجل منكم إذا خرج حاجاً أو مجاهداً حفظنا لكم أموالكم وربينا أولادكم أفلا نشارككم في هذا الأجر؟ فالتفت النبي إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: ما سمعت بمقالة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه؟ فقالوا يا رسول الله: ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا. فالتفت إليها وقال: افهمي أيتها المرأة واعلمي من خلفك من النساء، إن حسن تبعّل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله فانصرفت وهي تهلّل وقد روت أسماء بنت يزيد ٨١ حديثاً عن النبي ﷺ. وروى عنها ابن أختها محمود ابن عمر الأنصاري، وأبو سفيان مولى بني أحمد، وعبد الرحمٰن بن ثابت الصامت الأنصاري، ومجاهد بن حبيب وغيرهم.

وموقف أسماء هذا يعطينا صورة واضحة عن مكانة المرأة في الإسلام، وعن قوة شخصيتها التي أكسبها إياها الإسلام، وعن روحياتها السامية التي منحها الإسلام أهم مقوماتها. وقد روت عن رسول الله أيضاً فاختة أم هاني بنت أبي طالب. وقد روت ٤٦ حديثاً، وروى عنها مولاها أبو مرة، وأبو صالح بازام، وابن إبنها جعدة المخزومي، وابن يحيى بن جعفر، وابن إبنها هارون، وعبد الله بن عياش، وعبدالله بن الحارث بن نوفل، وابنه عبدالله،

والشعبي، وعبد الرحمن عن أبي ليلى، وعطاء، وكريب، وعروة بن الزبير، ومحمد بن عقيبة بن أبي مالك. وقد روت عن النبي أيضاً فاطمة بنت قيس بن خالد الأكبر بن وهب القرشية الفهرية ٣٤ حديثاً، وروى عنها القاسم بن محمد بن أبي بكر بن أبي الجهم، وأبو سلمة بن عبد الرحمٰن، وسعيد بن المسيّب، وعروة بن الزبير، وعبد الله بن عبد الله بن عبيد بن مسعود، والأسود بن زيد، وسليمان بن يسار، وعبد الله البهي، ومحمد بن عبد الرحمن بن ثابت، وسحيم مولى فاطمة بنت قيس، وعائشة، وأم سلمة وغيرهم. وكذلك روت عن النبي أيضاً نسيبة بنت الحارث الأنصاري وهي من نساء الصحابة، وقد روى عنها أنس بن مالك، ومحمد بن سيرين، وعبد الملك بن عمير، وحفصة بن سيرين، وإسماعيل بن عبد الرحمٰن بن عطية وأم سراحيل. ومن الروايات عن النبي أيضاً أم مبشر بنت البراء بن مقرور الأنصارية، وهي صحابية، روت عن النبي عشرة أحاديث، وروى عنها جابر بن عبد الله الأنصاري، ومحمد بن عبد الرحمٰن بن خلاد الأنصاري، ومجاهد بن جبير، وقد روت عن النبي أيضاً ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية أم المؤمنين، وقد روت عن النبي ستة وسبعين حديثاً، وروى عنها إبن أختها عبدالله بن عباس، وابن أختها الأخرى يزيد بن شداد بن الجهاد، وابن أختها عبد الرحمن بن السائب الهلالي، وإبن أختها الأخرى يزيد بن الأصم، وربيبها عبد الله الخولاني، ومولاتها ندبة، ومولاها عطاء بن يسار، ومولاها سليمان بن يسار وإبراهيم إبن السباق، وعبيد الله بن عتبة وغيرهم. وممن روين عن النبي أيضاً ميمونة بنت سعد مولاة النبي، وقد روى عنها أيوب بن خالد بن صفوان، وطارق، وعبد الرحمن، وهلال بن أبي هلال المدني، وأبي زيد الضبي، وآمنة بنت عمر بن عبد العزيز، وزيارة بن أبي سورة، وعثمان بن أبي سودة. ومن الراويات عن النبي ﷺ أيضاً أم سلمة أم المؤمنين، وقد روت عن رسول الله وعن أبي سلمة وعن فاطمة الزهراء عليها السلام ٣٨٧ حديثاً، وروى عنها ابناها عمرو وزينب إبنا أبي سلمة إبن عبد الأسد، ومكاتبها نبهان وأخوها عامر بن أمية وابن أخيها مصعب بن

عبدالله بن أمية، ومولاها عبدالله بن رافع، ونافع، وسفينة، وأبو كثير، وابن سفينة، وخيرة أم الحسن البصري، ونعمان بن بشار، وأسامة بن زيد عن الحارثة، وهند بنت الحارث الفراسية، وصفية بنت شيبة، وأبو عثمان الهدى، وحميد، وأبو أسامة إبنا عبد الرحمن بن عوف، وسعيد بن المسيب، وأبو وائل، وصفية بنت محصن الشعبي، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وابناه عكرمة وأبو بكر، وعثمان بن عبدالله بن وهب، وعروة بن الزبيرة، وكريب مولى إبن عباس، وقبيعة بن ذؤيب، ونافع مولى بني عمر، ويعلى بن مملك، وعبدالله بن عباس، وعائشة، وأبو سعيد الخدري، وآخرون.

أنظر إلى هذه المدرسة الإسلامية الحيَّة التي كانت تتمثل في المسلمات العالمات الفاهمات، وانظر إلى كفاءتهنَّ لذلك بعد أن كانت المرأة قبل الإسلام موؤودة وهي وليدة ومملوكة للرجل، وهي إمرأة ومشكوك في إنسانيتها عند مختلف الأمم وفي شتّى الشرائع والقوانين، ولكن الإسلام والمرأة في ظلّ شريعة الإسلام إرتفعت بكيانها وعلى حساب إنسانيتها إلى محلّ رفيع خوّلها أن تكون راعية للرسالة السماوية وشارحة لأحكامها وآدابها. فالمرأة المسلمة والرجل المسلم بالنسبة للرسالة والدعوة سواء، فقد إمتدت إليهما معاً يد الإسلام لترفعهما من وهدة الجهل والضلال، وأشرقت عليهما معاً أيضاً شمس الرسالة لتضيء لهما طريق الحق في الحياة، ولهذا فإن عليهما معاً أن يعملا في سبيل الإسلام ما وسعهما عمله. وكثرة النساء المسلمات اللواتي روين عن الرسول يدلّ دلالة واضحة على الوعي الإسلامي الذي كان يضيء أفكار المسلمات، وممَّن روين عن النبي أيضاً أم هشام بنت الحارث الأنصارية، وسبيعة بنت الحارث الأسلمية. وقد روي لها عن رسول الله اثنا عشر حديثاً، وروى عنها فقهاء المدينة والكوفة كعمر بن عبدالله بن الأرقم، ومسروق بن الأجدع، وزفزني بن أوس بن الحدثان، وعبيد أبو سوية، وعمر بن عتبة بن فرقد. وروت عن النبي أيضاً ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب الهاشمية،

وهي مهاجرة من المهاجرات الأولى، روت عن النبي وعن زوجها المقداد بن الأسود أحد عشر حديثاً، وروى عنها إبن عباس، وعائشة، وابنتها كريمة بنت المقداد، وإبن المسيب، وعروة بن الزبير، والأعرج وغيرهم. وروت عن النبي أيضاً أم الحصين بنت إسحاق الأخمسية، وأم حكيم بنت أمية، وأم إسحاق الغنوية، وأسماء بن وائلة بن الأسقف الليثية، وأمامة بنت حمزة بن عبد المطلب، وأمية بنت رقيقة، وإنسية بنت حبيب بن يساق الأنصارية، وأم بجيد الأنصارية وخولة بنت قيس الأنصارية، وأم عثمان بنت سفيان القرشية، وكثيرات غيرهنَّ من المسلمات اللواتي كنَّ يأخذن الإسلام من مصدره لروايته والدعوة إليه، واللواتي حملن بأكفهنَّ مشعل الدعوة والهداية.

هذه هي المرأة المسلمة الإنسانة في صدر الإسلام التي خلّدت لها في تاريخ الأمة الإسلامية أسمى ذكر وأروع أثر. والمرأة المسلمة اليوم هي بنت تلك المرأة المسلمة التي عرضت صدرها لحراب الأعداء وشهدت بعينها قتل الآباء والأبناء. فما الذي يقعد بالمرأة المسلمة البنت عن أن يعد تاريخ المرأة المسلمة الأم، وأن تقفو خطواتها في الحياة، لا شيء غير أنها إفتقدت وبالتدريج ونتيجة لابتعادها عن روح الإسلام الحقيقية إنسانيتها، وعادت مجرّد أنثى تتلاعب بها الأهواء والتيارات، وتسخرها ميول الرجال، ويستهويها كل لمح كاذب أو وميض خادع، ولهذا فقد وقعت في أحابيل شائكة شوّهت أنوثتها وأفقدتها شخصيتها كإنسانة في الحياة، فهي مهما سمت أم حاولت السموّ لن تتمكن أن تسمو كإنسانة مستقلة مادامت تخضع لأحكام الرجل في إتخاذ طريقتها في الحياة وتتبع ما يمليه عليها من أساليب الخلاعة الرخيصة. فما الذي يمنع المرأة المسلمة اليوم من أن تشقّ طريقها في الحياة ثقافةً وعملاً مع محافظتها على حجابها الذي يلزمها الإسلام به؟ لا شيء غير غضب الرجال لذلك، وسخطهم عليه، لأنه سوف يحول دون متعة إستجلاء مفاتن المرأة ومحاسنها. فهل السفور من شروط طلب العلم؟ أو هل الخلاعة والتهتك من شروط الثقافة والتمدن؟ لا وألف لا ليس للسفور ولا للخلاعة أي دخل من

قريب أو بعيد في العلم والثقافة، ويمكن التمييز بينها وبسهولة أيضاً متى ما عادت المرأة المسلمة، وأحست بوجودها كإنسانة لا كأداة من أدوات إرضاء الرجل. ولكن أعداء الإسلام لن يسمحوا بفرز العلم عن السفور والثقافة عن الخلاعة، فهم يحاولون بشتّى الأساليب المغرية ربط الاثنين معاً ليحطوا من شأن المرأة المسلمة ومن مكانتها في العالم، ولكي لا يكون بدلاً عن أم عمارة واحدة ألف أم عمارة، وبدلاً من أروى واحدة ألف أروى، وهذا ما يخشاه أعداء الإسلام، وهذا أيضاً ما يجب على كل مسلمة أن تسعى إليه جاهدة.

بنت الهدى

١١

المرأة مع النبي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نساء في حياة النبي ﷺ

كان عصرَ الظّلام، وإن كان لها عصرَ النور، وكان عصرَ الجهل، وإن كانت فيه أعرفَ ما تكون. كان عصر الوحشيّة البغيضة ولكنها كانت مثالاً للإنسانية الكاملة. فهي عقيلة خيرة شباب عصره عبد الله ابن عبد المطلب، ومَنْ الّذي ينكر عبد الله أو ينكر من فضله شيئاً، وهو حلم عذارى قريش ومرمى آمال الفتيات، وقد تخيّرها هي دون سواها لتكون له زوجاً ولنسله أُماً، فمَن أجدر من آمنة بنت وهب وهي المتحدرِّة من أعرف الأُسرة، والمتقلِّبة في أعزّ أحضان، أن تحتلّ هذه المكانة الفذّة.

نعم، كانت صاحبتنا هذه هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرّة بن كعب، وقد جلست إلى ظل شجرة وارفة الظلال لتستعيد ذكرى أيام عِذاب وسويعات هناء وصفاء، وتنصت إلى صدى الزمن الفائت، وهو يتردّد في أعماقها كأروع ما يكون الصدى، وتستمدّ من ذكرى حبيبها الغائب رصيداً من الشجاعة يساعدها على مُرِّ الفراق.

فأنّي لها الآن بذلك الزّوج البارّ الّذي فارقته مُرغَمة وفارقها مُرغَماً أيضاً، وما أحوجها إليه في أيامها هذه الّتي توشك أن تستقبل فيها قادماً جديداً ووليداً عزيزاً. . ما أحوجها إلى ذلك الحبيب الغائب ليهدهدها بحنانه ويشاركها آمالها وأمانيها وينتظر معها ابنهما البكر.

فها هي تكاد تستمع إلى دقّات قلب جنينها الغالي وهي سعيدة لذلك لولا سحابة من ألم ظلّلت سعادتها لبُعْد الأب الحبيب، ولكنها تعود لتقول عسى أن يكون اللقاء قريباً، وهي تأمل أن يصلها خبر قدوم الغائب المنتظر في غضون هذه الأيام.

فعبد الله كما لا تشكّ آمنة لحظة سوف لا يألو جهداً في الإسراع بالرجوع، وسوف يبذل كل محاولة ممكنة لإنجاز مهمّته في أسرع وقت، وقد خلّف وراءه في مكّة زوجة عروساً تحمل له في أحشائها جنيناً، وتضمّ له في قلبها حبّاً وحنيناً.

ولهذا فلا تشكّ آمنة في رغبة زوجها بالأوبة السريعة وفي أنه لن يماطل في سفره ولن يتقاعد عن اللّحوق بأهله سريعاً مهما طاب له المقام في الخارج، فهي لا تنسى أبداً ساعة إذ أقبل إليها مودِّعاً، وقد أوشكت القافلة على المسير.

وهي لا تنسى أبداً أيضاً تلك الخطط العريضة الواضحة من الحبّ والعطف، وهي مرسومة على وجهه المشرق المضيء، ولا تنسى أبداً كيف أنه مكث معها، وكأنه لا يريد أن ينصرف، أو كأنه لا يتمكّن من الإنصراف حتّى انتزعه إخوته من أمامها انتزاعاً، وهم يهوِّنون عليه مدّة البُعْد، ويمزحون معه ويتضاحكون، وهي سائر إلى حيث تنتظره العير.

وفي كل لفتة من لفتاته كانت تقرأ معنى من معاني الحبّ حين يلتهب، ويشدّ إنساناً إلى إنسان. كان زوجها المسافر يحسّ بأنه مخلِّف وراءه شيئاً لم يسبق لغيره من المسافرين أن خلّف مثله. . .

وكان يشعر أن آمنة وهي تحمل له جنينه الغالي، قد بدت لعينيه في تلك اللّمحات داخل إطار من نور مقدّس، ووسط هالة من الإشعاع السماوي، ولكنه كان مضطرّاً إلى السفر، فسافر وهو على أمل لقاء قر يب.

وهكذا تستمرّ آمنة بنت وهب سارحة مع أفكارها وأحلامها، وتستمرّ أفكارها وأحلامها معها أيضاً، عنيفة بها مرّة، ورفيقة بها أخرى حتّى تنتزعها من انطلاقتها الحلميّة.

تلك أصوات غليبة وصلت إلى سمعها من صحن الدار، وحركة غير طبيعية أخذت تدبّ في أرجاء البيت فتهتزّ لهذه الظاهرة الجديدة لحظة، ويخامرها قليل من أمل وتساورها لمحة من رجاء.

ماذا لو كان الحبيب الغائب قد عاد هو ومن صحبه من الإخوان، وماذا لو كان ما تسمع رجع صدى قدومهم على غير ميعاد.

ماذا لو كان عبد الله قد اختصر المدّة ورجع إلى أهله وإليها، وإلى جنينها الحبيب، ثمّ تنهض متعجّلة وهي بين اليأس والرجاء، وتذهب متلهّفة الخطى وقلبها يكاد يسبقها في المسير، وتذهب لتسأل عن الخبر اليقين، وتلقي سؤالها بصوت كأنه حشرجة روح . .

ماذا هل قدم عبد الله!؟.

فهي تشعر أن هناك واردين جُدُداً، وهي تحسّ أنّ الدار ليست على هدوئها الاعتيادي، ولكنّها لا ترى عبد الله. وكانت تتوقّع أن تبصر به قبل السؤال، ولكنّها حينما لم تَرَ عبد الله، وحينما وثقت من قدوم المسافرين الّذين صحبوا زوجها في السفر انبعثت آهاتها كلمات سألت فيها عن عبد الله، وتسمع الجواب وهي لا تكاد تفهم منه إلاّ القليل؛ فقد أذهلتها الصدمة، وشلّت حواسّها المحنة الّتي شعرت بها قبل أن تسمعها وعرفتها بدون أن تخبر بواقعها، وكان الجواب. . . لا لم يجيء عبد الله ولكنّهم الآخرون.

فتعود تسأل وهي لا تعلم أنها تسأل وتستفهم وهي في غنًى عن الاستفهام: إذن فأين عبد الله، وما الّذي قعد به عن متابعتهم في السير؟. . . فيُقال لها: إنّه مريض وقد أفاء إلى قوم في منتصف الطريق يستضيفونه حتّى يقوى على السفر، وهي تسمع الجواب وتفهم منه غير الّذي قيل، فتنطلق روحها من فمها إلى كلمات مرّة وتقول: آه، مَنْ لي بعبد الله ومَنْ لوليدي بأبيه؟.

وهكذا تتلاشى أحلام آمنة وينهار صرح أمانيها، فنراها وقد تسربلت بأبراد العزاء بعد أن انطفأت شعلة السعادة المتوهِّجة في صباها الريان، فهي رابضة بعيداً عن اللّذّات والرفيقات. . منصرفة عن الدُّنيا وما فيها من مباهج. . عاكفة على آلامها الممضة، منطوية تحت سماء الحزن القاتم وفي إطار من الألم المرير. . فهي لا تحيا إلاّ للذكرى ولا تعيش إلاّ على حطام السعادة المفقودة بعد أن افترقت عن رفيق دربها السعيد، وأصبحت وهي الزهرة الناضرة رهينة الثكل الممض والحزن القاتل.

فآمنة كادت بعد فجيعتها بعبد الله أن تزهد في الحياة، فما عادت تشعر

للحياة معنى وهي خلوّ من عبد الله، وعبد الله كان لها الحياة الروحية بكل معاني الحياة، ولكن بارقة من أمل وشعور لا إرادي أخذ يشدّها للحياة الّتي أنكرتها، وأخذ يشعرها بوجودها حيّة مع الأحياء، ويذكّرها أنها لم تمت يوم مات عبد الله.

فقد أخذت تشعر أنّ عليها تجاه عبد الله واجباً يجب عليها أن تؤدّيه، وأنّ في أحشائها وديعة لفقيدها الغالي، لا يمكن لها بأي حال من الأحوال أن تنساها، أو تتناساها. وأحسّت أنّ رسالتها بالنسبة لعبد الله لم تنته بعد، فما دام طفله معها فهي مسؤولة أن تعيش، ولهذا فقد أقامت على لوعة مريعة وألم ليس فوقه ألم.

وما أكثر ما كانت تسترجع ذكرى أيامها مع الزوج الغالي وأيامها قبل أن يدخل حياتها وتدخل حياته، وكيف أنه اختارها هي دون سواها مع كثرة الإغراء الّذي أُحيط به من فتيات قريش، ولهذا فما أكثر ما حُسِدَت عليه وما أكثر ما اعتزّت به وفرحت!.

فلم يكن عبد الله بن عبد المطلب بالعريس الهيِّن، فهو غصن بني هاشم، ومنار فتيان قريش، فماذا لو لم يفرِّق الموت بينهما؟ وماذا لو تركهما يتذوّقان الهناء، ولو إلى مدّة قصيرة؟ وماذا لو أمهله الموت حتّى يرى وليده العزيز؟ وماذا لو رحم الموت هذا الجنين الّذي سوف يستقبل الدُّنيا أو تستقبله الدُّنيا، وهو يتيم وحيد؟.

وهي لا تزال تذكر ساعة الوداع ولا تنسى وصايا عبد الله لها أن تحافظ على جنينها ما وسعها الحفاظ، ولكن أين هو الآن وقد آن للعزيز المنتظر أن تبصر عينه نور الحياة؟ وفعلاً فقد استقبلت الدُّنيا محمّد بن عبد الله وهو يتيم يكفله جدّه وتحضنه أُمّه الثاكلة آمنة بنت وهب، وهي المرأة الأُولى في حياة النبيّ ﷺ.

ثمّ تمضي الأيام تتبعها الأسابيع والشهور وآمنة عاكفة على وليدها الغالي تفديه بالنفس والنفيس، حتى بلغ السن الّذي يتحتّم به عليها أن تدفع به إلى

المراضع؛ فقد كان المفهوم السائد في ذلك العصر أنّ الطفل الّذي ينمو في البادية ويترعرع في جوّها الطلّق يكون أشدّ عوداً، وأقوى عزيمة من الطفل الحضري، وعلى هذه القاعدة المتّبعة دفعت به أُمّه إلى حليمة السعدية.

وهكذا أصبحت حليمة المرأة الثانية في حياة رسول الله ﷺ، وقد رجعت حليمة وزوجها إلى أحياء بني سعد وهي تحمل معها طفلاً يتيماً لم تتمكّن أن تحصل على غيره، في الوقت الّذي حصلت فيه باقي المرضعات على أطفال أغنياء استلمنّهم من أيدي أبويهم محمّلين بالزاد والمال الوفير..

ومنذ أن ضمّت ساعداها هذا اليتيم، أحسّت أنه أصبح لها كل شيء، وأحسّت أنها تودّ جادّةً أن تصبح له كل شيء أيضاً، وما أن سافرت به حتّى بدأت تتعشّقه وتفنى فيه، ولم يستقرّ بها المقام إلاّ وهي تشعر بأنها تحمل معها كنزاً ثميناً دونه الكنوز، وعرفت بدافع من أعماقها بأنها هي الرابحة الحقيقية دون سواها من المرضعات.

وقد بدأت تلوح لها بوادر تؤيِّد عندها هذا الشعور؛ فقد عمّت البركة جميع الحي وتزايد الخير بالزاد والمال، وقد أفضت بما تراه لزوجها ونبّهته إلى بوادر الخير الّتي أخذت تلوح لهم.

فقال لها: عسى أن يكون لهذا الغلام شأن، وأوصاها بالعناية به والحرص عليه؛ ولكن حليمة لم تكن تحتاج إلى أيّ توصية، فقد ازدحمت في قلبها جميع عواطف الأُمومة تجاه هذا الطفل الصغير، وتفجّر في فؤادها ينبوع من الحنان لا يمكن له أن ينفد أبداً.

وقد كانت تقدِّمه على أولادها، وتحلّه في أعلى منزلة من قلبها ورعايتها وبرّها وكرمها. وقد اختلقت كثيراً من المعاذير والحجج لتتمكّن من استبقائه عندها أكبر مدّة ممكنة، فما كانت تتمكّن أن تنفصل عنه أو أن يفارق أحضانها ويبعد عن ساعديها، فقد كان بالنسبة لها ينبوعاً للخير والبركة والسعادة والهناء.

وكذلك كان محمّد بن عبد الله أيضاً، فهو يحبّها ويركن إليها ويحترمها صغيراً وكبيراً، ويحفظ فها جميلها بكل احترام، وقد عاشرها سعيداً وفارقها

غير قالٍ، ولا عاتب، وقد بقي يذكرها بالخير والإعزاز حتّى بعد النبوّة، فقد كان ﷺ يناديها بيا أُمّي، وإذا أقبلت إليه أفسح لها مجلساً إلى جواره، وقد يتّفق أن يهوي على صدرها فيقبّله وهو أكثر ما يكون برّاً بها وحدباً عليها..

ثمّ يرجع محمّد بن عبد الله إلى كنف أُمّه وجدّه لكي يحظى برعاية الأُم في أوائل صباه، ولكي ينشأ في ظل جدّه وتوجيهاته. ولكن القدر سرعان ما يقف معه مرّة أُخرى لينتزع منه أُمّه، وهو لا يزال طفلاً طريّ العود.. يصحبها في سفرةٍ تقصد بها أخواله ومعهم وصيفتها الأمينة أُمّ أيمن؛ وفي وسط الطريق، وبين أميال مترامية وصحراء لا متناهية يمدّ القدر يده لينتزع منه آخر ركيزة له في الحياة، فتلحق العلّة بأُمّه وينتزعها الموت من بين يديه. ويعود محمّد الصغير يتيماً مرّة أُخرى أو بعبارة أُخرى يتيماً مرّتين.

ولا تمهله يد الزمن حتّى تفقده جدّه البار الّذي كان يعوّضه بحنانه عن حنان الأُبوّة وبعطفه عن عطف الأُمومة. وعند هذا يكفله عمّه أبو طالب ويفتح له بيته وقلبه ويفسح له في مكانه وحنانه.

وتكفله فاطمة بنت أسد زوجة عمّه الكريمة كأحسن ما تكون الكفالة. تحلّه في المحل الرفيع من قلبها ورعايتها. وتمدّ له يد العون والحدب بكل ما تستطيع.

وفاطمة هي المرأة الثالثة في حياة الرسول العظيم، فلم تكن تحسّ أن محمّداً يختلف بقليل أو كثير عن أولادها الباقين، بل إنّها كانت تحسّ بأن لمحمّد شأناً يخوّله أن يحتلّ الصّدارة في قلبها، وعواطفها، وكانت تتابعه بعينها وهو ينمو إلى الشباب الزاهر، ثمّ يكتمل شبابه ويغدو رجلاً ملء السمع والبصر.

كانت ترى فيه حصناً ورصيداً روحياً لها في مستقبل أيامها، وكانت تستمدّ من وجوده العزيمة والمضاء. ولشدّ ما كانت تعتزّ بأن تراه وهو يحتضن وليدها الغالي عليّاً، فهي فخورة بهذا الاحتضان الروحي ومتفائلة به خيراً.

فمحمّد هو أوّل شخص ابتسم له ابنها عليّ بعد إذ خرجت به من الكعبة وهي تحمله بين ساعديها الحنونين، فهي لا تنسى أبداً أن عليّاً وُلِدَ في الكعبة وفي

أشرف بقعة فيها، وها هو عليُّها العزيز، وقد أخذ ينمو ويترعرع تحت رعاية وتوجيهات ابن عمّه الصادق الأمين محمّد ابن عبد الله ومحمّد رسول الله أيضاً بعد إذ غدا شابّاً.

وفي أوج شبابه لم يكن لينسى لفاطمة بنت أسد حبّها ولم يكن ليتنكّر لحنانها مطلقاً، فهو لها كولدها في كل أدوار حياته وفي كل أحواله، وقد استخلص لنفسه ولدها عليّاً بعد إذ عمّت المجاعة في مكّة.

وكان عمّه أبو طالب كثير العيال مرهقاً بتكاليف العيش، وكان رسول الله قد استقلّ في ذلك الحين ببيته ومع زوجه خديجة، ومنذ أن فتح لابن عمّه بيته وقلبه لم يفترق عنه يوماً واحداً في كل الظروف والملابسات.

وكانت فاطمة بنت أسد ترى هذا الامتزاج العاطفي بين ابنها وابن عمّه فتسرّ له وتفرح فيه، فهي تُكْبر محمّداً وتعجب فيه وتعتمد عليه، وتركن إليه، وكان الاثنان يحلاّنها محلّ الأمّ لا فرق بين ابنها وابن عمّه.

فقد جاء في الروايات أنّ الإمام عليّ بن أبي طالب لمّا أخبر رسول الله بوفاة أمّه قال: إن أُمِّي قد توفِّي يا رسول الله، فيردّ عليه رسول الله: بل أُمِّي أيضاً يا عليّ...

وناهيك عمّا تحمل هذها الكلمة من تسلية للابن الفاقد أمّه، وما تعطي للأُمّة من دروسٍ في الوفاء والإخلاص، وحفظ الجميل، وقد أعطاها ثوبه المبارك لتلفّ به مع كفنها كي يكون لها ستراً ومعاذاً، وجلس على قبرها بعد أن انفضّ الجمع، وأخذ يدعو لها ويسأل الله أن يجزيها عنه خيراً، ويستعيد في فكره أيامها معه إذ هو طفل صغير، وحنانها عليه حينما كان يتيماً وحيداً، ورعايتها لهوهو شاب فتي. وأخيراً قام عن قبرها وهو حزين كئيب.

فقد كانت هي المرأة الثالثة الّتي دخلت في حياته، والتي نشأ في ظلال عواطفها إلى حين استقرج به المطاف عند قرينته خديجة بنت خويلد.

أما خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب فقد كانت سيّدة نساء عصرها كمالاً وجمالاً ومكانة

وكرامة، فهي سليلة دوحة ثابتة الفرع، وفرع شجرة عميقة الجذور، وقد عُرفَت بين قومها بسموّ الروح وعلوّ الهمّة وقوّة الشخصية، وثبات الفكرة وصواب الرأي.

وقد كانت مع كل هذه الثروات المعنوية والأدبية ثريّة في مالها أيضاً، وقد كانت تفتِّش عمّن تستودعه المال ليتاجر لها به، على أن يكون أميناً صادقاً مخلصاً. فهي جادّة في طلب ضالّتها من بين شباب قريش وشيوخها، وبما أنها امرأة لا تُتاح لها المراقبة الدقيقة، كانت تحتاج إلى صاحب ثقة تتمكّن أن تودعه مطمئنة مرتاحة.

ومحمّد بن عبد الله كان يفتِّش بدوره أيضاً عمّن يدفع له مالاً يتاجر له به. فهو وإن كان فتى قريش الأوّل ومحطّ أنظارهم جميعاً، ولكنه لم يكن ليستغني عمّا يحتاج إليه غيره من رجال قريش. ويسمع كما يسمع غيره أن خديجة بنت خويلد تفتِّش عمّن يتاجر لها بمالها، فيتقدّم إليها عارضاً عليها استعداده للقيام بهذه المهمّة.

وخديجة بنت خويلد تلاقي في عرضه بالقبول بل بالرضا والاطمئنان، فهي تعرف محمّد بن عبد الله وتعرف عنه الكثير أيضاً، ولم يكن في مكّة مَنْ لا يعرف محمّداً الصادق الأمين.

فخديجة راضية لهذه الشركة ومتفائلة بها خيراً، وتدفع له أموالها وهي واثقة من أنها قد سلّمتها ليد أمينة حريصة على أداء الأمانة، ولذلك فقد أخلدت إلى راحة نفسية عميقة، وظلّت تنتظر رجوع محمّد بن عبد الله وغلامها ميسرة الّذي أرسلته مع محمّد، ورجع محمّد ورجع معه ميسرة.

وكان، يحمل لها معه الربح الزاكي الوفير، وتخلد خديجة بنت خويلد إلى غلامها ميسرة تسأله عمّن رافق في السفر، وتحلف عليه أن يشرح لها كل ما وجده منه وما رآه عليه، وهي على شبه يقين من أن غلامها سيقصّ عليها من أمر رفيقه عجباً، وغلامها مندفع يعدِّد لها مناقب محمّد، ويصف لها حركاته وسكناته والإعجاز في سلوكه وأُسلوبه وكل شيء فيه، وهي منصتة له بقلبها

وفكرها وبكل جارحة فيها تستزيده ولا تنكر من حديثه شيئاً، ولا تستغرب منه خبراً، فهي قد عرفت أن محمّد بن عبد الله رجل لا كالرِّجال، وقد سمعت عنه ما جعلها على يقين من أن له في مستقبله شأناً سماوياً.

وخديجة في ذلك الحين امرأة في نهاية العقد الرابع من عمرها، وكانت قد تزوّجت ومات عنها زوجها وهي في ريعان الشباب.

خديجة بنت خويلد ـ وقد أثّرت عليها شخصية محمّد بن عبد الله، واستولت على أفكارها وأمانيها روحه السامية بكل ما فيها من معاني الكمال ـ تودّ من صميم قلبها أن تقرن به حياتها الثمينة، وأن تكون له كأروع ما تكون الزوجة الوفية المخلصة.

نعم، خديجة بنت خويلد الغنيّة بمالها وجمالها وعزّها ومجدها، تبعث إلى محمّد بن عبد الله الصادق الأمين، وتطلب إليه الزواج حبّاً في شخصه، وتفانياً في روحه ونفسه.

وقد كان، في ذلك الحين شاباً في أواسط العقد الثالث من عمره المبارك، وهو يتمتّع بكل معاني الكمال من الجمال والعزّة والكرامة وسموّ المكانة وعلوّ الرتبة وقوّة الشخصية، وقد كان يتمكّن بسهولة أن يخطب له أي فتاة من فتيات قريش مهما علت بشأنها وجمالها.

فهو منار شباب قريش والمقدّم عليهم في كل مضمار، ولكنّه بدافع خفيّ وجد نفسه يندفع إلى خديجة بنت خويلد السيِّدة الّتي تكبره بخمس عشرة سنة متجرِّداً عن العواطف الشهوانية والأهواء المادِّية، مترفِّعاً عن كل ما يصبو إليه غيره من متعة جسدية، وغايات رخيصة.

فهو كان يرى في الزواج شركة روحية مقدّسة لا تطغي عليها المادّة ولا تتحكّم فيها النزعات الحيوانية.

فالزواج في نظر الرسول الأعظم امتزاج روحين، ووحدة هدف، وغاية وتعانق قلبين طاهرين قبل أن يكون صلة جسدية..

ومَنْ أجدر من خديجة بنت خويلد بأن تحتلّ في قلب محمّد وفي حياته مكان

الصّدارة، وفعلاً فقد دخلت خديجة في حياة رجلها الخالد كإمرأة رابعة، ولكنها لم تدخل في حياته وهو محمّد بن عبد الله فحسب، بل وهو رسول الله وخاتم أنبيائه أيضاً.

وهكذا كانا متفرقين ثمّ جمعهما القدر السماوي دون أن يشعرا ليضمّ ثروة خديجة إلى دعوة محمّد؛ وما أحوج الدعوة إلى رصيد تسلك به الطريق، وقد وجد كل منهما ضالّته المنشودة في قرينه وصفيّه، فخديجة بنت خوليد ربيبة الترف والدّلال والمتقلِّبة في أحضان النعمة والثراء، تفنى في رجلها الحبيب الفقير، وتتعرّف في كل لحظة على معنى من معانيه، يزيدها فناءً فيه ويحبِّب إليها ذلك الفناء.

ومحمّد بن عبد الله أحسن رجال قريش شكلاً، وأعرقهم أصلاً، وأصدقهم لساناً، وأقواهم جناناً، وأذيعهم صيتاً، وأعلاهم درجةً، وهو في الخامسة والعشرين من عمره الشريف، يخلص لزوجته الوفية خديجة وهي في الأربعين من عمرها المبارك يخلص لها خلوص الزواج الواثق، ويركن إلى حنانها وعطفها ركون الابن إلى أُمِّه.

وخديجة هي رابعة امرأة دخلت في حياته ﷺ، ولكن أتراه كان نسي النساء الثّلاث اللاّتي تقدّمنها؟.

أتراه قد أهمل ذكرهنّ أو تجاهل وجودهنّ في حياته الماضية؟.

كلاّ؛ فإن محمّد بن عبد الله لم يكن من النمط الّذي نيسى مَنْ أحبّوه، أو يتجاهل ذكر مَنْ لم يتجاهلوه.

وما أكثر ما كان يسرح مع أفكاره في ساعات عزلته، ويرجع بها إلى الوراء إلى أيام حداثته، وصباه الأوجل، من عهد أُمّه آمنة إلى مرضعته حليمة، إلى زوجة عمّه الكريمة فاطمة بنت أسد، ويقف معهنّ عند كل لمحة حبّ، أو لفتة عطف، ويدعو لهنّ بالرحمة والغفران. وكان يرى حياته الماضية وكأنها شريط يتتابع ويتلاحق أمام عينيه بكل ما يحمل هذا الشريط من إكرام وآمال ومحن ومصاعب.

ثمّ يعود ليستقرّ بأفكاره عند واقعه الحالي، ويُركّز على خديجة هذه السيِّدة الطاهرة الّتي يحسّ بها كقوّة خفية تشدّ ظهره، وتسند كيانه، وكأنه كان يعلم أنها سوف تقف معه إذ لا واقف غيرها، وتصدِّقه حين لا مصدِّق سواها.

وتمضي السنون تتلاحق والأحداث تتابع، ومحمّد بن عبد الله هو وخديجة بنت خويلد يشقّان طريقهما معاً في الحياة وقد ظلّلتهما سماء الحبّ وأحاطتهما يد الإخلاص والوفاء.

وكان ﷺ كثيراً ما يعتكف الساعات الطوال في غار حراء، يعتزل بها الدُّنيا بروحه وفكره وجسده، ويروح يسبح في ملكوت السماوات.

وما أكثر ما كانت تستبطئه خديجة وتفتقد قدومه في وقته المعيّن، فتذهب بنفسها غير واثقة من أن تنيب عنها خادمه أو ترسل دونها رسولاً. تذهب لتفتِّش عنه في الأماكن الّتي تعلم أنه يزورها دائماً، وخصوصاً غار حراء.. فقد كان هو الخلوة المفضّلة لدى رسول الله ﷺ.

وقد كانت خديجة تحمل له بيدها الطعام والماء ولا تذهب إلاّ للإطمئنان على سلامته، فقد كانت تشجِّعه على هذا الإعتكاف لثقتها من أنّ وراء هذه الخلوات رسالة مقدّسة سوف يحملها بعلها الغالي.

ولذلك فلم تكن تتبرّم لغيابه أو تعتب عليه، وكانت تشعر بروحها وهي تذهب معه أينما ذهب، فهي معتكفة معه في الغار، وهي سارحة وإيّاه في البراري والقفار، فإن فاتها أن تسايره جسمياً فإنها لم تكن لتفارقه روحياً وفكرياً.

وكانت تتابع حركاته وسكناته بعينها الساهرة الحنون وهي رفيقة به عطوفة عليه.

وفي أحد الأيام يدخل على خديجة زوجها المصطفى، بعد أن كان قد أمضى في غار حراء الساعات الطِّوال، فتنشط لاستقباله هاشّة باشّة، ولكنها تنكر منه حاله ولونه وتنكر منه ما يبدو عليه من ضعف وإعياء، فهو شاحب اللّون مجلّل بالعرق، ويطلب إليها أن تدثِّره وهو يرتعد. فتدثِّره خديجة وهي

ملحاحة في التعرّف إلى ما يخامره، فلم تعهد بمحمّد ضعفاً، ولم يصدف لها أن رأت الاضطراب بادياً عليه كما تراه الآن، وهي تعلم أنّ زوجها الحبيب لا يضعف ولا يتخاذل لأي سبب مهما كان مؤثِّراً ومهما كان صعباً.

ولذلك فهي تسأله في إصرار وإلحاح وهو يتهرّب من الجواب ويماطل في الردّ، ولكن خديجة الزّوجة وخديجة الرّفيقة والصّديقة تأبى إلاّ أن تتعرّف إلى حاله، وتفهم السبب كيما لا تتأخر عن موقفها الطبيعي في السير معه في كل مضمار، وإلى كل غاية.

وأخيراً يخبرها الرسول بما سمع، ويشرح لها ما أحسّ، ويقص عليها خبر الروح الّذي فاجأه في غار حراء وقال له: إقرأ، فيجيبه: ما أنا بقارىء، فيكرِّرها عليه ثلا ثاً، ويردّ الجواب نفسه ثلاثاً أيضاً، فيقول الروح:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ صدق الله العظيم.

وهنا تسأله خديجة وهي نشوة روحية نشطة: أَلَمْ تسأله مَنْ أنت؟ أَلَمْ تسأله عن اسمه؟ فيجيبها ﷺ قائلاً: سمعته يقول: أنا جبرائيل جئت أُبلِّغك رسالة ربّك، ثمّ يردف وكأنه يريد أن يبثّ خديجة ما يحس وأن يشاركها بأفكارها، قال: لقد خشيت على نفسي.

فتجيبه رضوان الله عليها باندفاع وحماس:

كلاّ والله، ما يخزيك الله أبداً، إنّك لتصل الرّحم، وتحمل الكلّ، وتكسو المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وتصدِّق الحديث، وتؤدِّي الأمانة.

بهذه الكلمات البليغة الحكيمة ردّت خديجة على زوجها مشجِّعة مصدِّقة، وكلّها اطمئنان إلى صدق محمّد بن عبد الله، ثمّ ينزل عليه الوحي ليأمره بأن ينذر وأن يبلِّغ ويدعو إلى رسالة السماء، وينهض رسول الله لكي ينذر وتنهض خديجة أيضاً تهبّ معه بكل طاقاتها وإمكانياتها المعنوية والعاطفية والمادِّية.

ومضت تواكب سيره المبارك في كل مضمار، وعندما خرج ليصلّي في المسجد لأوّل مرّة، وخرج معه ابن عمّه علي بن أبي طالب عليه السلام، كانت

خديجة ثالثهما في الصّلاة، لم تقعد بها خيفة ولم يثنها عن اندفاعها الإسلامي تردّد أو شكّ، فهي تعرف محمّداً كما لا يعرفه غيرها من الناس، وتثق فيه ثقة مطلقة.

وهذه إحدى نواحي الإعجاز في النبيّ، فإن أكثر عباقرة التاريخ كانوا يعانون الأمرّين من تصرّفات زوجاتهم، وعدم تصديقهنّ بعبقريّتهم، فإنّ الإنسان الاعتيادي مهما كان عبقرياً فذّاً لا يمكن له أن يخلو من نقص ونقاط ضعف، إذا فرض فأمكن له أن يخفيها عن كل أحد لا يمكن له أن يخفيها عن كل أحد لا يمكن له أن يخفيها عن زوجته الّتي هي أقرب الناس إليه.

ولكن بالنسبة إلى رسول الله وزوجته خديجة انقلبت هذه القاعدة، فأصبحت الزوجة أوّل مصدِّقة ومؤيِّدة، لأنّه ﷺ كان فوق مستوى غيره من الرِّجال مهما كانوا عباقرة وأفذاذاً، فكلّما كان الشخص قريباً منه كان أكثر حبّاً له، وأكثر عقيدة، وأرسخ إيماناً برسالته ودعوته.

فقد كانت عواطله الإنسانية عامّة شاملة لكل نواحي الحياة سيّان في علاقاته الداخلية، أو الخارجية، حتّى أنه كان إذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه قام معه فلم ينصرف حتّى يكون الرّجل هو الّذي ينصرف عنه.

وإذا لقيه أحد فتناول يده ناوله إيّاها، فلم ينزع يده منه حتّى يكون الرّجل هو الّذي دع يده...

وكان أشدّ حياء من العذراء في خدرها..

وكان أصبر الناس أقذار الناس...

كان عطوفاً على كل ضعيف، بارّاً بكل مسكين، ما ضرب أحداً وما نهر خادماً قط.

وقد روي عن أنس أنه قال: خدمت النبيّ ﷺ عشر سنين، فما قال لي أُفّ قط، ولا قال لي لشيء صنعته لِمَ صنعته، ولا لشيء تركته لِمَ تركته.

وحتّى زيد بن حارثة الّذي خُطِفَ من أهله وهو صغير ثمّ اهتدى إليه أبوه واهتدى هو إلى أبيه على لهفة الشوق بعد اليأس من اللقاء، فلمّا خُيِّر بين

الرجعة إلى أبيه وبين البقاء مع الرسول اختار البقاء مع السيِّد عن الرجعة إلى لوالد؛ وشقّ عليه أن يفارق ذلك الرصيد العامر بالعطف والحنان؛ والّذي غمره بحبِّه ومواساته، إذ هو ضعيف شريد لا يرى ذويه، ولا يدري مَنْ هم ذووه.

وحتّى مولاه ثوبان، والمولى في أغلب الأحوال يكون كارهاً لمولاه حاقداً عليه قالياً له نظراً لما يحسّ من تقدّم سيِّده عليه ومالكيّته له، ولكن ثوبان نحل وظهر عليه الحزن في ليلة ونهاره، فلمّا سأله ﷺ عن سبب ذلك، قال: قرب منيتي وخوفي من فراقك لأنك في الجنّة سوف تكون في درجات الأنبياء فلا أستطيع أن أراك.

ولهذا نزلت الآية الكريمة الّتي تبشِّر المؤمنين المخلصين بصحبة الأنبياء والصالحين: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾.

هذه نواح تكتشف عن رسول الله ﷺ بما هو إنسان كامل حتىٰ في نظر زوجته ومولاه ومرافقه، هؤلاء الّذين تنكشف لهم على الخصوص أخفى نواحي النقص، وأدقّ نقاط الضعف.

هكذا كان ﷺ في نبوّته وقبلها..

هكذا كان في محيطه الضيِّق، وفي محيطه الواسع.

ولهذا ولكونه الرجل الكامل والإنسان الكامل، بعثه الله بالنبوّة، وحمّله ثقل أقدس رسالة بُعثت للناس.

وهكذا بُعث محمّد الرّجل الأوّل والإنسان الأوّل ليكون النبيّ الأوّل. وكانت خديجة من ورائه تساند وتعاضد. فما أكثر ما امتحنت وإياه، وما أكثر ما شدّد عليهما الكفّار وتهدّدت حياتهما بالخطر، وما أكثر ما رجع إليها الرسول وهو مُصاب بجروح ورضوص من قِبَل الأعداء، ولم تكن لتزيدها هذه الأحوال إلاّ صموداً ولم تكن لتهبها إلاّ قوّةً وعزيمةً وثبات إرادة.

فقد نفذ نور الإسلام إلى الأعماق من روحها وفكرها، فاستنارت بنوره واهتدت بهداه، ومن خصائص ازسلام ومميّزاته بوصفه عقيدة ثورية تتسق مع

الفطرة والعقل وتغمر الوجود الإنساني كلّه أنه إذا استقرّ في قلبٍ، وأي قلب كان، فتح أمامه أبواباً للتضحية والفداء.

فما أكثر النِّساء المسلمات اللاّتي قدّمن الضحايا من الآباء والأبناء وهنّ أكثر ما يكنّ ثباتاً وقوّة. بل وكنّ يستهنّ بالموت من أجل القضيّة الإسلامية أمثال أمّ عمار بن ياسر الّتي صمدت على كلمة الإسلام أمام كل الوسائل الوحشية الّتي اتّخذت لتعذيبها والتنكيل بابنها وزوجها، وكان رسول الله يمرّ عليهم وهم يعذّبون فتطفر الدموع من عينيه ويبشّرهم بالجنّة نزلاً.

وكثير غيرها من النِّساء المسلمات اللاّتي اعتنقن الإسلام في أحرج أدواره وأشدّها ولكن المجال لا يتّسع لنا لذكرهنّ جميعاً، ولعلّنا سوف نلتفت إلى هذه الناحية من حياة المرأة المسلمة في رسالة خاصّة تبيِّن مواكبة المرأة للإسلام وأثرها في الدعوة الإسلامية.

فقد كانت المرأة المسلمة تذهب إلى ساحات الجهاد لتشجِّع إخوتها وأولادها على خوض غمار الحرب وهي معهم تطبِّب وتداوي وتسقي العطشى وتعين المصاب. ولا يزيدها فقد الأولاد والإخوة والأعمام إلاّ حرصاً على الإسلام وتفانياً فيه.

وقد كانت المرأة المسلمة تسمع بأُذنيها نعي أعزّائها وأحبّائها وهي لهفي في الوقت نفسه للإطمئنان على سلامة رسول الله. وعلى هذا فلا عجب إذن إذا كانت خديجة زوجة الرسول أوّل مصدِّقة به وأقوى ساعد لديه. ، والواقع أنني حينما أُراجع سير النِّساء المسلمات في صدر الإسلام وأقرأ تضحياتهنّ ومواقفهنّ، أكاد أسأل جادّةً هل نحن مسلمات حقاً؟.

هذا الإسلام هو الّذي نوّر قلب خديجة بعد إذ انبثقت أنواره من غار حراء ومن بيتها هي بالذات. ولهذا فقد كانت خديجة (رض) جديرة بهذا الاندفاع الإسلامي، وهي الّتي اصطفت محمّداً لنفسها منذ زمن بعيد، وبعد أن عرفت أنه صاحب رسالة مقدّسة، ولذلك فهي لم تفاجأ ولم تستغرب عند سماعها بخبر الوحي الّذي نزل على زوجها في غار حراء. وقد قنعت من زوجها

بكلمات قلائل سرعان ما صدّقته بعدها وآزرته وهي أقوى ما تكون فكرة راسخة مركّزة، وإحساساً فيّاضاً صادقاً.

واستمرت خديجة أُمّ المؤمنين تحيا بحياة الرسالة المحمّدية وتستهين في سبيلها بكل المصاعب والمحن، وقد بذلت في هذا الطريق كل ما تملك من مال حتّى أصبحت وهي الغنيّة الواسعة الثراء فقيرة لا تملك شيئاً، وقد استنفدت بدعوتها رصيدها الضخم من المال ولم يبق منه حتّى النزر القليل.

فهي تطوي جوعاً إذا طوى النبيّ، وتشبع إذا يشبع بالّذي يشبع فيه، وهذا يبيِّن مدى التفاوت بينها وبين باقي أُمّهات المؤمنين. الفارق الّذي جعل رسول الله يحنّ إليها إلى آخر يوم من حياته الشريفة.

فهي قد بذلت للإسلام كل ما تملك يوم كان الإسلام وحيداً. وصلّت مع رسول الله يوم لا مصلِّية غيرها. بينما احتجّت أُمّهات المؤمنين الأُخريات على النبيّ، بعد أن عمّت كلمة الإسلام جميع البقاع واطلبن بزيادة النفقة وتوسيع المعيشة عليهنّ.

ولم تثنهنّ نصائح النبيّ عن ذلك حتّى أنه جاء في الروايات أن أبا بكر دخل على النبي ﷺ ومعه نساؤه فوجده حزيناً وعرف السبب في ذلك، فقام على ابنته يريد أن يجأ عنقها لأنها آلمت الرسول واعترضت طريق دعوته بمطاليبها المادّية حتّى نزلت الآية الكريمة الّتي خيّرت نساء النبيّ بين متاع الحياة الدُّنيا وبين رسول الله ﷺ، فاخترن صحبة الرسول الأعظم بعد أن قُطعت أمامهنّ السبل.

وقد كانت خديجة (رض) لا تألو جهداً في بذل يد العون للدعوة الإسلامية بكل ما يسعها ذلك وقد حدث مثلاً أن فرضت قريش على بني هاشم حصاراً في منطقة تسمّى بمنطقة الشِّعب أو «شعب أبي طالب»، وقد منعوا عنهم في هذا الحصار الماء والزّاد، وكان الموت جوعاً يهدِّد جميع بني هاشم لولا أموال خديجة، فإنها كانت تبعث مَنْ يشتري لهم الطعام سرّاً وبأغلى ثمن، تستنثر وتستعين بأولاد إخوتها وأخواتها على ذلك، وبذلك أمّنت الغذاء لبني هاشم المحاصَرين في الشعب.

فلهذا ولغيره من المواقف الفذّة في تاريخ الإسلام احتلّت رضوان الله عليها الصدارة في قلب النبي وفي حياته الشريفة.

وقد توفِّيت رضوان الله عليها في السنة الثالثة عشر للبعثة، وقد حزن عليها رسول الله ﷺ حزناً عظيماً، وكانت وفاته في عام وفاة عمّه «أبي طالب». ولذلك فقد سمِّي ذلك العام بعام الحزن لحزنه على فقدها وفقد عمّه «أبي طالب».

نعم، توفِّيت خديجة المرأة الرابعة التي دخلت حياة النبيّ في أحد أدوارها، ولم تخرج من حياته أبداً، فقد خلَّفت له أغلى وأثمن ذكرى مقدّسة، وهي الصدِّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء سيِّدة نساء العالمين، وقد جاء في بعض الروايات أنها خلّفت للنبيّ أربع بنات هنّ: زينب ورقية وأُمّ كلثوم وفاطمة (وسوف نناقش هذا الموضوع في محلِّه إن شاء الله).

وقد أصبحت الزهراء قطب الرحى في حياة أبيها العظيم حتّى أنه كان يسمِّيها بأُمّ أبيها. وقد قامت منه مقام البنت والأُم؛ فهي تجهد أن تعوِّضه بجنانها عمّا افتقده بافتقاد أُمّها خديجة، وهي تسعى أن تكون لرسالته كما كانت أُمّها من قبل. لم تمنعها حداثة السن عن التعرّف إلى جميع مشاكل أبيها وآلامه مهما كانت المشاكل مهمّة ومهما كانت الآلام هائلة. لم تضعف ولم تهن ولم تتردّد أو تتراجع.

وقد جاء في رواية عن ابن مسعود قال: بينما رسول الله يصلِّي عند البيت وأبو جهل وأصحابه جلوس، وقد نُحِرَت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيّكم يقوم إلى سلى جزوء بني فلان فيضعه بين كتفي محمّد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلمّا سجد النبيّ ﷺ وضعه بين كتفيه، فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر، لو كانت لي منعة لطرحته عن ظهره، والنبيّ ساجد لا يرفع رأسه حتّى انطلق إنسان فأخبر فاطمة فجاءت وطرحته عنه ثمّ أقبلت عليهم تؤنِّبهم على ذلك.

هذه إحدى الروايات الّتي تدلّ على منزلة الصدِّيقة في قلب أبيها ومحلِّها من

دعوته ورسالته، وكأنها قد شعرت مع حداثة سنّها بأنها مسؤولة عن أن تكون المرأة الخامسة في حياة رسول الله ﷺ، فقد واكبت سيره بكل شجاعة وإقدام.

ونحن الآن لا نكاد نتصوّر مدى ما كانت تتطلّبه من شجاعة، هي وجميع المسلمات في ذلك العصر.

فنحن الآن، وبعد أن عمّت كلمة الإسلام جميع الأقطار الإسلامية والحمد لله، لا تكاد تجرؤ إحدانا أن تجهر بالكلمة الإسلامية صريحة واضحة. وكانت الزهراء عليها السلام قد انصهرت بأفكار الإسلام روحياً وفكرياً.

فقد كانت وهي بنت أعظم رجل عرفه التاريخ وريحانته الغالية والّتي كان النبيّ يدعوها بأُمّ أبيها ويقول: «فاطمة بضعة منّي، مَنْ أرضاها فقد أرضاني، وَمَنْ أغضبها فقد أغضبني». وكان يقول حينما يقبّلها: «إني أشمّ منها رائحة الجنّة»، وهي الحوراء الإنسيّة، وكانت عنده بمنزلةٍ ما فوقها منزلة. فكانت آخر مَنْ يراه عند سفره وأوّل مَنْ يلقاه عند رجوعه من السفر. وكانت هي من انحصر فيها نسله ﷺ ولم يكن رسول الله ﷺ يجهل ذلك.

نعم، كانت هي هكذا وكانت أكثر من هذا، ولكنها ومع كل هذه المميّزات الروحية والمعنوية كانت بسيطة في أُسلوب حياتها لا تكاد تختلف عن أي امرأة فقيرة، فبيتها متواضِع للغاية لا يحوي إلاّ النزر القليل من الأثاث الضروري الّذي لا يمكن الاستغناء عنه.

فهي مثال المرأة المسلمة المترفِّعة عن المواد الدنيوية والصاعدة بروحها وروحياتها إلى أُفق الكمال وسماء العصمة والفضيلة. فإنّ النفس البشرية إذا استنارت بنور الإسلام وإذا نفذت إلى مكنوناتها تعاليمه وحِكمه استغنت بمعنوياتها عن كل ما تحتاج إليه النفوس الضعيفة من مقوّمات لشخصيتها.

نعم، هكذا كانت فاطمة الزهراء، وهي ريحانة النبوّة وزهرة الهاشميين، فتاة ترعرعت في أحضان الأُبوّة الرحيمة، وهكذا كانت وهي عروس تزفّ إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام. فقد خُطِبَت إلى أبيها من قِبَل كثيرين

كان منهم أكابر الصحابة والرسول يردّهم بشتى الحجج والمعاذير ويقول لهم أنه ينتظر فيها أمر السماء.

فقد كان ﷺ يعلم أنّ نسله قد انحصر في فاطمة، وأنّ فاطمة وبعلها وأبناءها هم الّذين سوف يكونون الامتداد لرسالته ولدعوته السماوية. ولهذا فقد كان ينتظر الرّجل الجدير بتحمّل هذه المسؤولية، فلم يكن يتوخّى في زواجها مالاً ولا ثراءً ولكنه كان ينتظر لها الكفء.

وفي يوم مبارك، وبعد أن كان النبي ﷺ قد ردّ كل من تقدّم لخطبة الزهراء وبمن فيهم أبو بكر وعمر، أقبل عليّ أمير المؤمنين عليه السلام إلى رسول الله ﷺ كما كان يقبل، فيحيِّيه ويجلس إليه كما كان يجلس.

ولكن الرسول يحسّ أن ابن عمّه قادم لأمر هام، وقد عرف ذلك بفراسته الشخصية وبالإيحاء النبوي، فيقبل عليه وهو يسأله متلطّفاً مشجّعاً وكلّه حبّ وحدب على الشباب العزيز الجالس أمامه، هذا الشخص الغالي الّذي آخاه واصطفاه والّذي فتح له قلبه رضيعاً ومهدّ له بيته صبيّاً.

وها هو الآن يوشك أن يسلِّمه أغلى شيء عنده وأعزّ مخلوقة عليه، ثمّ يقول: ما حاجة ابن أبي طالب وما الّذي يشغل فكرك يا ابن العم؟ وكانت هذه الكلمات الرحيمة هي الّتي شجّعت ابن عم الرسول على أن يقول بصوت خفيضٍ وهو يغضّ بصره أمام رسول الله ﷺ، قال: ذكرت فاطمة بنت رسول الله، ثمّ يسكت ولا يقوى على الإضافة أكثر ممّا قال.

فيجيبه الرسول وهو على ما عليه من بِشْر ورقّةٍ لا متناهية: مرحباً وأهلاً. ويسكت لحظة ليعود فيسأله حدباً مشفقاً: وهل عندك شيء؟ فيجيبه عليّ وهو لا يزال مغضّاً ببصره إلى الأرض: لا، يا رسول الله. فيمسك الرول لحظة ثمّ يتذكّر أن عليّاً أصاب درعاً من مغانم بدر فيعود ليسأله: أين درعك الّذي أعطيتك إيّاه يوم كذا؟.

فيجيب عليّ وقد غلبه التأثّر لما يلقى من بِرّ النبيّ ورعايته وما يلمس من روح ابن عمّه وصفائها وهو يعلم أنه جاء يخطب إلى النبيّ ﷺ فاطمة الّتي هي أعزّ

مخلوقة عند رسول الله، فيجيب: هي عندي يا رسول الله. فيقوم النبيّ ﷺ ثمّ يدخل على ابنته الغالية ليرى رأيها فيما يطلبه ابن عمّه وأخوه ويقول لها متلطّفاً رفيقاً بارّاً: يا عزيزة أبيها الغالية لقد ذكركِ ابن عمّك عليّ، فما رأيكِ في خدت يا بنتاهگ والزهراء كانت تعرف ابن عمّها عليّاً، وتعرفه كما لا يعرفه غيرها من الناس.

فهو سيف أبيها ودرعه والفادي له بنفسه، والبائت، على فراشه، وحامل لوائه. هذا عد أنها كانت تسمع دائماً مدحه والإعجاب فيه من رسول الله ﷺ. وكانت تشعر دائماً وأبداً أن ابن عمّها عليّاً هو أقرب المسلمين للرسول وأحبّهم إليه، وهي الآن على ثقة من أنّ رسول الله ﷺ راغب في هذا محبِّذ له، وإلاّ فما كان ليسألها عن رأيها فيه، فما أكثر ما خطبت إلى أبيها قبل اليوم وكان يردّهم دون أن يسألها عن رأيها في الخطّاب.

وعلى هذا ولكونه جاء ليرى رأيها في علي بن أبي طالب، عرفت الزهراء عليها السلام رأي أبيها في عليّ وفي هذه الخطبة؛ ولكنّها مع هذا تسكت ولا تتمكّن أن تجيب، فما عساها أن تردّ على رسول الله ﷺ وحياؤها العذري يمنعها من التصريح بما تريد، ورضاها بهذا الخاطب وقبولها لهذه الخطبة يمنعانها من الرّفض؟.

فتطرق إلى الأرض ولا تجيب، والرسول ﷺ في كل هذا يتطلّع إليها ويقرأ ما ينطبع على ملامحها من أحاسيس وانفعالات ويشعر أنها راضية، ويحسّ أنها مرتاحة مسرورة، فيقوم وهو متهلّل الوجه، باسم الثغر ويقول: سكوت الباكر علامة رضاها، فلا تردّ عليه ولا تعترض.

فيبتسم ويخرج إلى ابن عمّه ليخبره برضا الزهراء ويقول له: أين الدرع يا عليّ؟ فيذهب عليّ مسرعاً ويأتي بالدرع، فيأمره النبيّ أن يبيعها ليجهّز العروس بثمنها. وقد اشتراها عثمان بأربعمائة وسبعين درهماً حملها عليّ عليه السلام ووضعها أمام الرسول، فتناولها بيده الكريمة ثمّ دفعها إلى بلال ليشتري ببعضها طيباً وعطراً ويدفع الباقي إلى أُمّ سلمة لتشتري جهاز العروس.

ثمّ يجمع النبيّ صحابته وآله ويشهدهم أنه زوّج ابنته فاطمة من ابن عمّه عليّ بن أبي طالب على أربعمائة مثقال من الفضّة على السنّة القائمة والفريضة الواجبة، ثمّ قدّم للضيوف حلوى العرس الهاشميّ النبويّ وهو وعاء تمر.

على هذا النمط البسيط وعلى هذا النحو القدسي تمّت خطبة الزهراء بنت رسول الله إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وتأخّر الزفاف إلى الوقت الّذي يتمّ فيه جهاز العروس ويهيّأ بيت العريس.

نعم، هكذا بكل بساطة تمّت خطبة أعظم خطيبين. فالزهراء عندما خِطِبَت لابن عمّها لم تكن تفكِّر في شيء ممّا يشغل أفكار غيرها من العرائس. لم تكن تهتم بما يملك عريسها من مال وما يهيِّأ لها من أثاث ورياش. لم تكن تحفل بالسفاسف من الأمور كأن تكون خطبتها رسمية عامّة شاملة تعمر بالترف والبذخ. لم تكن تحفل بكل هذه الأمور الدنيوية، فهي ابنة رسول الله وابنة خديجة الكبرى.

أوَلَيْسَت أُمّها هي الّتي بذلت المال رخيصاً في سبيل العقيدة؟.

أوَلَيست أُمّها هي الّتي استبدلت القصر الشامخ بالبيت المتواضع والترف الزاهي بشظف العيش ومُرِّه؟.

وها هي ابنتها فاطمة تُخْطَب إلى عليّ أمير المؤمنين بهذه الروعة اللاَّمتناهية الّتي كوّنته هذه البساطة في الخطبة، فالإمام عليّ كان يخطب شخص الزهراء بنت رسول الله، والزهراء عليها السلام قبلت بالزواج حبّاً بعليّ وبشخصه لا غير.

فلو أن خاطبها كان غير عليّ بن أبي طالب لما رضيت أن تفارق أباها وبيته إلى أي زوج كان، ولكنها كانت تعلم أنها بزواجها من عليّ ابن أبي طالب تتقرّب إلى أبيها وإلى رسالته أكثر منها قبل الزّواج، وأنها إذا قرنت حياتها بحياة عليّ تمكّنت أن تسند عليّاً بجهادها الإسلامي وأن تركِّز جهاد ابن عمّها بمؤازرتها له، ولذلك فقد تلقّت عرض الزواج بكل ارتياح.

وإني لأعجب لما كتبته الدكتورة بنت الشاطىء في كتاب (بنات النبيّ)، وما علّلت فيه رضا الزهراء بعليّ بن أبي طالب وما بيّنته في أُسلوب هو أقرب إلى

الخيال القصصي منه إلى الواقع. فقد عزت الدكتورة بنت الشاطىء زواج فاطمة، والدافع الّذي دفعها لذلك دخول عائشة في بيت النبيّ وفي حياته بعد أن كانت الزهراء مُعْرضة عن الزواج في إصرار.

وهذه الفكرة القصصية الخيالية كان من الممكن فرضها على عائلة غير عائلة رسول الله، وعلى أُسرة غير أُسرته ﷺ، كأن تأتي الدكتورة لتحدِّثنا حديث أُسرةٍ عاديّة مكوّنة من أب وأربع بنات وأُم، ثمّ تتزوج البنات الثلاث وتعرض الرابعة عن الزواج إيثاراً لصحبة أبيها على غيره، وتموت الزوجة الأُولى فتدخل في حياة الأب زوجة جديدة لا تؤثِّر تأثيراً بالغاً على مكانة البنت الرابعة الّتي كانت في البيت.

ولكن الزوجة الثانية الّتي تدخل في حياة الأب بعد الأُم الراحلة امرأة ثانية تستهويه وتمتلكه، وعند ذلك تفهم البنت الرابعة الّتي آثرت صحبة أبيها على الزواج أنها لم تعد كما كانت في بيت أبيها وفي قلبه، بعد أن شغلت المرأة الجديدة حياة أبيها واستمالت قلبه نحوها، ولم تترك للبنت الباقية في بيت أبيها مجالاً لدلال أو رغد من العيش.

وهنا يجب أن تفترض أوّلاً أنّ ربّ الأُسرة رجل ضعيف الشخصية ضئيل العاطلة مندفع وراء ملذّاته الحسِّية لكي نتمكّن من الإنسجام مع هذه الأُقصوصة ونصدِّقها كما هي.

فإنّ أي زوج وأي أب إذا كان قوي الشخصية ولو قليلاً، وإذا كان يحمل عاطفة أبوية ولو عاطفة جزئية، لا يمكن لنا أن نصدِّق أنه يخضع لسلطان امرأة مهما كانت تلك المرأة ومهما تمتّعت به من سحر وفتنة، ولا يمكن للمرأة تلك أن تجعل بيته يضيق بابنته الّتي كانت حسب بداية الأُقصوصة تمتنع عن الزّواج حبّاً في أبيها وإيثاراً لصحبته.

ومن المؤكّد أنّ بيت الأب لا يضيق بابنته إلاّ إذا ضاق الأب بابنته، ولا يضيق الأب بابنته إلاّ إذا كان معدوم العاطفة مسلوب الشخصية.

عند هذا وبعد كل هذه الفروض يمكن لنا أن نصدِّق هذه القصّة كما جاءت بها الدكتورة (كصورة من حياتهنّ).

ولكن هذه الأُقصوصة إذا طالعتنا بها الدكتورة وهي تنسبها إلى أهل بيت النبوّة، وإلى أُسرة يكون الأب فيها رسول الرحمة وتكون البنت فيها فاطمة الزهراء سيِّدة نساء العالمين، لا يمكن لنا أن نصدِّقها بأي حال من الأحوال.

ولا يصحّ لنا أن نصدِّقها أيضاً لما تستلزمه من فروض لا تنطبق على أهل البيت عليهم السلام.

فنحن إذا سلّمنا أنّ الزهراء كانت رابع بنات أربعة، فيجب علينا أوّلاً أن نتعرّف على أزواج أخواتها، والسبب في عزوفها عن الزواج بعد، زوج أخواتها الأُخريات، ونرى أن أُختين من أخواتها قد لاقيا من المحن والاضطهاد الشيء الكثير حتّى أنّ زوجيهما أرجعاهما إلى بيت رسول الله عداءً لهما ولرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فنحن إذا سلّمنا بوجود أخوات للزهراء، وجب علينا أن نسلِّم بزواجهنّ وبأزواجهنّ، وفي هذا دليل كافٍ نفهم منه عزوف الزهراء عن الزواج إذا صحّ أنها كانت عازفة كما تزوّجت أخواتها بعد أن رأت بعينها المصائب الّتي أصابت أخواتها من هذا الزواج.

وشتّان بين أزواج أخواتها وبين مَنْ رضيت به زوجاً لها وقريناً. فزواج أخواتها ونوعيته أكبر مثبِّط لها عن قبول هذه التجربة. وخطبة الإمام عليّ لها وخصوصياته أكبر دافع لها لقبول العرض بالرضا التام.

كان ذاك هو المانع، وكان هذا هو الدافع لا أكثر ولا أقل. طبعاً هذا إذا سلّمنا مع الدكتورة بوجود أخوات للزهراء عليها السلام، ثمّ أنها كانت تعلم أن حاجة أبيها لها وهو في مكّة أكثر منها وهو في المدينة، فقد كان الاضطهاد والشِّرك والظلم قد خفّ وتلاشى في المدينة. ولمّا علت كلمة الإسلام اطمأنتّ الزهراء على أبيها وعلى راحته النفسية، ثمّ أنها حينما كانت ترفض الزواج كانت ترفضه لكي لا تخرج من حياة أبيها ولكي لا تبعد عن رحابه وعرينه.

وزواجها بعليّ كما كانت تعلم واثقة أنه سوف يقرِّبها لأبيها ويدنيها إليه أكثر

وأكثر، وأنها لن تترك بيت أبيها بل ستكوّن لأبيها بيتاً جديداً هو بيتها الّذي يضمّها وابن عمّها عليّ بن أبي طالب.

وفعلاً فقد كان رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية الكريمة كلّما مرّ على باب فاطمة وعليّ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ صدق الله العظيم.

وقد عرفت الزهراء كل هذا، ولأجل هذا رضيت بابن عمّها وآثرت بيته على البقاء في بيت أبيها. ولا دخل لأي امرأة من نساء النبيّ في زواجها ودواعيه، وإنما أعرضت عن الزواج لعدم وجود الكفء، وأقدمت عليه بعد أن وثقت من كفاءة الزوج.

ولا أدري كيف سمحت الدكتورة بنت الشاطىء لنفسها أن تفسّر قبول فاطمة للزواج بدخول عائشة في حياة النبيّ، وتقلّص مكانة البنت في قلب أبيها؟ هذه البنت الّتي كانت كل شيء لأبيها في قلبه وحياته.

وقد جاء في الاستيعاب عن السيِّدة عائشة نفسها أنها سُئلت أي الناس كان أحبّ إلى رسول الله؟ قالت: فاطمة، فسُئلت: فَمَن الرّجل؟ قالت: زوجها. وجاءت هذه الرواية أيضاً عن الترمذي، وفي الاستيعاب بسنده عن ابن بريدة عن أبيه، وفي المستدرك بسنده عن جميع بن عمير وصعصعة، وقد رواه الترمذي بسنده عن بريدة مثله.

وروى الحاكم في المستدرك وصحّحه بسنده عن جميع بن عمير قال: دخلت مع أُمّي على عائشة فسمعتها من وراء الحجاب وهي تسألها عن عليّ فقالت: تسألينني عن رجل والله ما أعلم رجلاً كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من عليّ، ولا في الأرض امرأة كانت أحبّ إلى رسول الله من امرأته فاطمة؟ وقد كان رسول الله يكرّر دائماً أن فاطمة بضعة منّي يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها، وأن فاطمة شجنة منّي، يبسطني ما يبسطها ويقبضني ما يقبضها، إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة الواضحة.

ونشطت أُمّ سلمة لكي تجهِّز العروس الغالية، فاشترت لها قميصاً بسبعة دراهم، وخماراً بأربعة دراهم، وقطيفة سوداء خيبرية، وسريراً مزمّلاً بشريط، وفراشين من خيش حَشوُ أحدهما ليف وحَشوُ الآخر من صوف الغنم، وأربع مرافق من أدم الطائف حَشوُها إذخر، وستراً رقيقاً من صوف، وحصيراً هجرياً، ورحى لليد، ومخضباً من نحاس؛ وهو إناء تغسل فيه الثياب، وسقاءً من أدم، وقبساً للبن، وشنّاً للماء، ومطهّرة مزفّتة، وجرّة خضراء، وكوزاً من خزف، ونطعاً من أدم، وعباءة قطوانية، وقربة ماء.

ولمّا أتمّت أُمّ سلمة هذا الجهاز البسيط الرائع روعة قدسية لا متناهية، جاءت به إلى رسول الله ﷺ فجعل يقلّبه بيده الكريمة وهو يقول: بارك الله لأهل البيت. ثمّ إنه رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهمّ بارِك لقوم جلّ آنيتهم الخزف. وفي بعض الروايات أنه استعبر وبكى وهو يقلّب جهاز حبيبته المتواضِع.

وكان العريس مشغولاً بدوره أيضاً يجهِّز بيته ويهيِّئُهُ لاستقبال ابنة رسول الله. وكان جهاز الإمام عليه السلام أن نشر رملاً ليّناً في صحن الدار ونصب خشبة من حائط إلى حائط للثياب وبسط إهاب كبش ومخدّة ليف.

وفي رواية ابن سعد عن بعض من حضرن عرس فاطمة قلن: دخلنا البيت مع العروس فإذا إهاب من شاة على مصطبة ووسادة فيها ليف وقربة ومنخل ومنشفة وقدح، هذا ما رُوي عن أثاث أمير المؤمنين وهو في طريقه لمصاهرة رسول الله.

وعندما أتمّ الإمام تجهيز بيته وتهيئته، وعَلِمَ أصحابه أنه قد أكمل ذلك، قال له جعفر وعقيل: ألا تسأل رسول الله يدخل عليك أهلك؟ فقال لهم: الحياء يمنعني من ذلك.

فقاما عنه ولقيا أم أيمن مولاة رسول الله، فذكرا لها ذلك، فدخلت إلى أُمّ سلمة فأعلمتها وأعلمت نساء النبيّ أن عليّاً قد أتمّ تجهيز بيته، وهو يرغب أن

ينقل إليه أهله. فاجتمعن عند رسول الله وقلن: فديناك بآبائنا وأُمّهاتنا يا رسول الله إنا قد اجتمعنا لأمر لو كانت خديجة في الأحياء لقُرَّت عينها به.

ورُوي عن أمّ سلمة أنها قالت: لمّا ذكرنا له خديجة بكى رسول الله وقال: خديجة وأين مثل خديجة، صدقتني حين كذّبني الناس، وآزرتني على دين الله وأعانتني عليه بمالها، إنّ الله عزّ وجلّ أمرني أن أُبشِّر خديجة ببيت في الجنّة من قصب الزمرّد لا صخب فيه ولا نصب.

وقالت أُمّ سلمة: فديناك بآبائنا وأُمّهاتنا إنك لم تذكر من خديجة أمراً إلاّ وقد كانت كذلك، غير أنها قد مضت إلى ربّها فهنّأها الله بذلك وجمع بيننا وبينها في الجنّة، يا رسول الله هذا أخوك وابن عمّك عليّ بن أبي طالب يحبّ أن ندخل عليه زوجته. فقال النبيّ: حبّاً وكرامة.

ثمّ إنّه دعا بعليّ فدخل وهو مُطرق حياءً، وقامت أزواج النبيّ ودخلن البيت، فسأله النبيّ أتحبّ أن أُدخل عليك أهلك؟ فأجاب عليّ وهو مُطرق: أجل فداك أبي وأُمّي، فقال: أُدخلها عليك إن شاء الله. ثمّ قام إلى نسائه وأمرهنّ أن يزيّنّ فاطمة ويطيّبنها ويصلحن من شأنها في حجرة أُمّ سلمة وأن يفرشن لها بيتها الّذي هيّأه ابن عمّها.

فدبّت الحركة في بيت النبوّة، وعمّت الفرحة على وجوه أهل البيت، وشاعت ابتسامة محبّبة على وجه الرسول وهو يرى نفس الابتسامة قد غمرت وجه ابن عمّه وأخيه، وغمرت قلب الرسول موجة من رضا لما آنسه على ابن عمّه من لهفة وشوق ولما أحسّ به من نشاط حيوي شاع على عليّ في حركاته وتصرّفاته.

وفُرِش بيت العروس الجديد وزُيِّنت العروس وطُيِّبت ونُحِرت الذبائح وأُطعم الطعام، وأمر النبيّ ﷺ أن يُنادي على رأس داره: أجيبوا رسول الله، فبسط النطوع في المسجد وصدر الناس وهم أكثر من أربعة آلاف رجل وامرأة رفعوا ما أرادوا ولم ينقص من الطعام شيء.

ثمّ دعا رسول الله بالصحائف فملئت، ووجّهها إلى منازل أزواجه، ثمّ أخذ صحفةً فقال: هذه لفاطمة وبعلها، وبعد أن أكل الناس وشبع كل جائع أتى رسول الله ببغلته الشهباء، وثنى عليها قطيفة وجاء إلى فاطمة الزهراء وهي بين نساء المسلمين وقد هيّأنها للزفاف، وأخذ بيدها وقال لها: اركبي، ثمّ ساعدها على الركوب وأمر سلمان أن يقود البغلة، وسار ﷺ خلفها ومعه حمزة وجعفر وعقيل وبنو هاشم كلّهم مشهرين سيوفهم وهم يكبّرون ويهلّلون، ومشت نساء النبيّ وراء العروس وهنّ يرجزن ويكبّرن، ونساء المسلمين من حولهنّ يتلون الأشعار في مدح العروسين حتّى دخلن الدار المباركة.

وأنفذ رسول الله إلى عليّ، فدعاه وأخذ بيد فاطمة فوضعها في يده وقال: بارك الله لك في ابنة رسول الله، ثمّ جمعها إلى صدره وقبّل بين أعينهما، وقال لعليّ: يا عليّ! نِعْمَ الزوجة زوجتك. ولفاطمة: يا فاطمة! نِعْمَ البعل بعلك.

ثمّ دعا بماء فأخذ منه جرعة فتمضمض بها ثمّ مجّها في القصب وصبّ منه على رأسها ونضح على صدرها، وفعل بعليّ مثل ذلك وقال: اللهمّ بارِك فيهما وبارِك عليها وبارِك لهما في نسلهما، ثمّ أنه قام لينصرف فلم تملك فاطمة الزهراء دمعها، ولحظ ذلك أبوها فتمهّل برهة ثمّ قبلها في حنوّ. وقال أنه تركها وديعة عند أقوى الناس إيماناً وأكثرها علماً وأفضلهم أخلاقاً وأعلاهم نفساً.

ثمّ انصرف وهو يدعو للعروسين، وكانت أطياف خديجة في تلك الساعة تعاوده ملحاحة، فقد شعر في تلك الليلة بفراغ لخديجة عجز حتّى هو أن يسدّه بالنسبة لابنتهما الغالية. وما أكثر ما كان يشعر بهذا الفراغ في شتىٰ المناسبات والظروف.

وبهذا بدأت الزهراء حياتها الجديدة في بيت الزوجية السعيد، البيت الّذي شهد أسعد مناسبات أهل بيت النبوّة، وأصبح مصدراً لإشعاعات الرسالة ومنبعاً زاخراً بالخير والبركة، وقد تلاشت القيم المادّية في أرجائه حتّى استحالت إلى لا شيء، وتعالت المثل الروحانية فيه فأصبحت كل شيء.

وأمّا أخوات الزهراء الثلاث فهناك شكّ من الناحية التاريخية في بنوّتهنّ للرسول ﷺ، حتّى ذهب بعض المؤرخين إلى التأكيد على أنّهنّ ربيباته وبنات

السيِّدة خديجة من زوجها الأسبق، ولهذا الشك مبرِّراته التاريخية، فنحن إذا جمعنا بين طائفة من المسلّمات التاريخية انتهينا حتماً إلى الشك في بنوّتهنّ على أقل تقدير. فالتاريخ يقرِّر:

أوّلاً: أنّ المدّة الّتي قضاها النبيّ في حياته الزوجية مع خديجة قبل البعثة لا تزيد على خمسة عشر عاماً، لأنه تزوّج في الخامسة والعشرين من عمره المبارك وبُعِثَ في الأربعين.

ثانياً: أن زينب هي كبرى الأخوات الثلاث وتصغرها رقيّة بثلاث سنوات وأُمّ كلثوم أصغر منهما معاً، وإن لم يحدِّد التاريخ التفاوت بينها وبين أُختيها بالضبط.

وثالثاً: أنّ الأخوات الثلاث للزهراء كنّ قد تزوّجن جميعاً قبل البعثة وسعدن في حياتهنّ الزوجية وأنجبت بعضهنّ أولاداً، ثمّ أُرجعن بعد البعثة إلى بيت النبيّ بدافع من التنكيل به وإحراجه.

هذه مسلّمات تاريخية ثلاث إذا جمعنا بينها كان من الطبيعي أن تلقي ظلالاً من الشك أو مبرِّرات لإنكار بنوّة الأخوات الثلاث للرسول الأعظم، لأنّهنّ لو كنّ بناته لما كان من الممكن أن يزيد عمر كبراهنّ وهي زينب عن أربعة عشر عاماً في وقت البعثة ولا عمر رقية عن إحدى عشرة سنة ولا عمر أُمّ كلثوم عن عشر سنوات على أكثر تقدير، لأنّ الفاصل الزمني بين بدء الحياة الزوجية للنبيّ وخديجة وبين البعثة خمسة عشر سنة كما تقرِّره المسلّمة التاريخية الأولى.

وبعد أخذ الفوارق الّتي تقرِّرها المسلّمة التاريخية الثانية بين أعمار الأخوات الثلاث ينتج ما قرّرناه من عدم اجتياز أُمّ كلثوم للعقد الأوّل من عمرها في وقت البعثة، وهذا لا ينسجم طبيعاً مع ما يحدِّثنا التاريخ في المسلّمة التاريخية الثالثة من زواج البنات الثلاث قبل البعثة، لأن من غير المألوف أن تتزوج أُمّ كلثوم قبل إكمال عقدها الأوّلوتعيش مع زوجها مدّة ثمّ ترجع إلى بيت أبيها وهي لم تكمل العاشرة بعد.

وهكذا يتّضح إنّ افتراض بنوّة زينب ورقية وأمّ كلثوم للنبيّ يكلّفنا على ضوء المسلّمات التاريخية الثلاث السابقة افتراضاً آخر يقضي بزواج أُمّ كلثوم في التاسعة أو العاشرة، وهذا الافتراض وإن كان ممكناً من الناحية العقلية ولكنّه غير مألوف إلى درجة قد تسمح للباحث بعدم قبوله.

وأمّا إذا انطلقنا في توفيقنا بين المسلّمات التاريخية الثلاث الآنفة الذكر من القول أنّ البنات الثلاث ربيبات الرسول فسوف يُتاح لنا أن نتقدّم بتاريخ ولادتهنّ إلى ما قبل زواج النبيّ بخديجة، وأن نتصوّر أمّ كلثوم قبل البعثة فتاة مكتملة لها كل مؤهّلات الزواج.

أضف إلى هذا أن خديجة إذا كانت زوجة معطاء بدرجة أنها تعطي زوجها وهي في العقد الخامس أربعة من الأولاد كما يفترض القائلون ببنوّة أخوات الزهراء الثلاث للنبيّ، أفليس من حقنا أن نتساءل عن عطائها لزوجها السابق قبل النبيّ حين كانت في أوج شبابها ونشاطها؟ إلى كثير من هذه الأسئلة الّتي لا نجد لها جواباً أفضل من القول بأنّ الأخوات الثلاث ربيبات النبيّ وبنات خديجة من زوجها السابق.

وعلى أيّ حال من الأحوال فهنّ نساء عشن في حياة النبيّ سواءً كنّ بناته أو ربيباته، فإنّ قلب النبيّ يتّسع للبعيد البعيد فضلاً عن الربيب القريب.

فأمّا زنيب كبرى الأخوات فقد تزوّجت من ابن خالتها أبي العاص بن الربيع بن عبد العزّى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وقد سعدت معه وعاشا معاً حياة زوجية هانئة، حتّى انبثقت رسالة الإسلام وانطلقت كلمة الحق ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ولكن أبا العاص يأبى أن يترك دين آبائه، وتمنعه العصبية الجاهلية أن يسلم كما أسلم غيره، فيُقال عنه أنه ترك دين الآباء والأجداد ودخل في دين زوجته.

وزينب وقد أسلمت مع أوّل مَنْ أسلم، تشقى لعزوف زوجها عن الإسلام وتتألّم لهذا أشدّ الألم، فهي تُعزّ زوجها وتحبّه لكونه قرينها ومصدر سعادتها في الحياة ولكونه أبا أمامة، ابنتها الوحيدة الغالية. ولكن الإسلام أحبُّ إليها

ورسول الله ﷺ أعزُّ عليها، وتبقى تنتظر اليوم الّذي يشرح الله فيه قلب زوجها للإسلام وهي تأمل أن يكون ذلك اليوم قريباً.

وتظلّ ترقّب كلمة الإسلام وهي تغزو بنورها القلوب والأرواح، وتدعو الله مخلصة أن يكون زوجها فيمن اهتدى بنور الإسلام، وما أكثر ما دعته إلى الإسلام وحبّذت له ذلك وعدّدت له أسماء أكابر الرِّجال الّذين دخلوا في دين الله طائعين، ولكنّه كان يردّ عليها دائماً أنه لا يرضى أن يُقال أنّ أبا العاص أطاع زوجته وعصى عشيرته، ولهذا فقد ظلّلت حياة زينب سحابة قاتمة من الهموم والأحزان.

ويهاجرالنبيّ إلى المدينة ويخلف زينب في مكّة وهي تتابع عن بُعْد انتصارات رسالة الإسلام، وتفتخر لهذه الانتصارات وتزداد أملاً في إسلام أبي العاص.

ولكنّها تصحو في يوم لترى قريشاً وقد شاع فيها خبر هام، فقد عاد ضمضم بن عمر الغفاري وكان مسافراً في تجارة إلى الشام مع أبي سفيان، فما بلغ مكّة حتّى وقف على بعيره وحول رحله وشقّ قميصه وصاح؛ يا معشر قريش! اللّطيمة اللّطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمّد وأصحابه، لا أرى لكم أن تدركوها، الغوث الغوث.

ولهذا فقد تهيّأت قريش للحرب، ونهضت لمواجهة الإسلام، وفي مقدّمتهم طبعاً أبو العاص زوج زينب، وعرفت زينب أنها الحرب فإمّا انتصار المسلمين الّذي تودّه وتأمل فيه وإمّا انتصار قريش. وإذا انتصر الإسلام فسيندحر زوجها أبو العاص، وإذا انتصر أبو العاص فالويل لها بكسيرة الإسلام ورسول الله.

فظلّت زينب وليس في مكّة مَنْ هي أتعس منها وأشقى، حتّى أتتها عاتكة بنت عبد المطلب لتخبرها بانتصار رسول الله واندحار المشركين من قريش، ويهزّ النبأ السعيد زينب وتفرح له لحظة، ولكنّها سرعان ما تذكر أنّ زوجها في جيوش المشركين ولا بدّ أن يكون قتيلاً أو جريحاً.

ولكنها تأبى أن تُظهر شيئاً من هذا لكي لا تشوّه فرحة الانتصار السعيد، وتسكت على جزع وفرح مزدوجين، وقد كانت عينا عاتكة تلاحظها بتفحّص

دقيق، فلاحظت عليها ما أرادت أن تخفيه، فأسرعت قائلة: أن أبا العاص أسير عند رسول الله هو وكثير من رجال قريش، وهنا تكتمل الفرحة عند زينب وتشعر بلذّة الانتصار الحقيقي.

وتنشط نساء قريش بتهيئة الفدية، وتبعث كل امرأة منهنّ أكبر فدية ممكنة، فهنّ يغالين فيها ويفاخرن بكثرتها، ولكن زينب تبعث لرسول الله فدية معنوية رمزية وهي قلادة أُمّها خديجة الّتي أهدتها لها ليلة الزفاف، وتؤثّر هذه الفدية المتواضعة على الرسول، فهي قلادة خديجة حبيبته المصطفاة. ويطرق إلى الأرض لحظة ثمّ يرفع رأسه ليقول لأصحابه: إذا رأيتم إطلاق أسيرها فأطلقوه. فلا يتردّد المسلمون لحظة في إطلاق سراح أبي العاص.

ويستدعيه رسول الله ويسرّ إليه أمراً ويلحق أبو العاص بأهله، فتستقبله زينب فرحانة فخورة وهي تأمل أن يكون قد أسلم واهتدى إلى الحق، ولكنّها تراه ليس كما تعهد، فقد بدا وهو مُثقل بالهموم والأحزان ويقول لها والعبرات تكاد تسبق كلماته: لقد أتيتُ مودِّعاً يا زينب، فقد أمرني رسول الله أن أبعث بك إليه.

فلا تبهت زينب لهذا الخبر ولا تستغربه مطلقاً، فهي كانت تعلم أن رسول الله لن يبقيها مع أبي العاص إذا يئس من إسلامه. ثمّ إنّها مشوّقة إلى رسول الله وإلى أخواتها الحبيبات. ولكنها ستشقى بفراق أبي العاص، وسوف تألم للبُعْد عنه، وسوف يشقّ عليها أيضاً أن ترى ابنتها أمامة وهي كاليتيمة بين لدّاتها.

وعلى كل فقد أخذت تتهيّأ للسفر إلى حيث الإسلام والأحبّاء. وسافرت بعد حصار شديد فرضته عليها قريش انتقاماً وتنكيلاً، وخلفت وراءها أبا العاص وهي أشفق ما تكون عليه، ولم تشغلها فرحة لقاء الأحبّة عن أبي أمامة، فقد كانت تدعو الله دائماً وأبداً أن يهديه للإسلام.

ويخرج أبو العاص في تجارة، وتتعرّض له قوّات المسلمين في الطريق، فيفرّ هارباً، ويلتجىء إلى زينب فتحميه وتردّ عنه غضب المسلمين، وتعود فتدعوه إلى الإسلام لكنّه يسكت فلا يجيب، ويطلب إليها أن تردّ إليه تجارته

لأنه يأبى أن يرجع إلى قومه وقد خان الأمانة، فتتوسّط زينب في ذلك عند المسلمين فيردّوا له تجارته وأمواله كاملة، ويرجع بها إلى مكّة، ويسلِّم الأموال إلى أصحابها حتّى يتأكّد من أنه قد أبرأ ذمّته من كلّ وديعة وأمانة.

ثمّ يرجع إلى المدينة ويدخل على رسول الله فيسلم بين يديه، ويقبل الرسول إسلامه قبولاً حسناً ويردّ إليه زينب، وتعود السعادة لترفرف فوقهما مرّة أخرى، ويخلدان إى راحة نفسية عميقة وإلى حياة زوجية سعيدة.

وأمّا رقية وأُمّ كلثوم فقد خُطِبا إلى عتبة وعتيبة ابني أبي لهب قبل الإسلام وزُوِّجا قبل الإسلام، ولاقيا أصناف العذاب من أُمّ جميل حمّالة الحطب قبل الإسلام أيضاً.

وما انبثقت كلمة الإسلام إلاّ وأرجعت حمّالة الحطب رقية وأُمّ كلثوم إلى بيت رسول الله ظنّاً منها أن ذلك يؤذي الرسول ويثقل عليه.

ولكن الأمر بالعكس تماماً فإن رسول الله قد سرّ لذلك وأنس لخلاص الأُختين من الأساليب الوحشية الّتي كانت تتفنّن بها أُمّ جميل.

ويتقدّم عثمان بن عفّان ليتزوّج رقية ويهاجر بها الهجرتين، ولكنّها نظراً لما لاقته من أهوال وما تحمّلته من مصاعب داخلية وخارجية نزلت بها العلّة وتخطّفتها أيدي الموت وهي في ريعان الشباب. ويعود عثمان بن عفان ليخطب إليه أُمّ كلثوم وتتمّ الخطبة ويتمّ الزواج، وتعيش أُم كلثوم حتّى تتوفّى قبل رسول الله بمدّة قليلة على بعض الروايات.

ظلّ رسول الله ﷺ مدّة بعد خديجة وهو لا يفكِّر في الزواج، حتّى جاءته خولة بنت حكيم وأخذت تحبِّب إليه الزواج واستئناف الحياة الزوجية، وقالت فيما قالت: إن شئت البكر وإن شئت الثيِّب، فأجابها ﷺ: فَمَن البكر؟ فتقول: عائشة بنت أبي بكر. ويقول: مَن الثيِّب؟ فتقول: سودة بنت زمعة، وقد آمنت بك واتّبعتك، فاختار سودة.

وسودة هي بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن لؤي، وأُمّها الشموس بنت قيس النجاري من الأنصار، وكان زوجها الأوّل ابن عمّها السكران، وقد

أسلما معاً وهاجرا إلى الحبشة مع مَنْ هاجر في الهجرة الثانية ثمّ رجعا إلى مكّة، وتوفّي عنها زوجها بعد رجوعهما من الهجرة، وكانت رضون الله عليها من أسبق النّساء إلى الإسلام، فآمنت وهاجرت وهجرت أهلها. وقد نجا بها زوجها إلى الحبشة فراراً من إعنات المشركين لهما.

فلمّا مات لم يكن لها ملجأ سوى أن تعود إلى أهلها فتصبأ وتؤذى، فهم يحقدون عليها لإسلامها وهجرتها وفرارها مع زوجها إلى الحبشة، فهم إذا نالوها سوف لا يتوانون عن النيل منها بأي ثمن، ولذلك فقد اختارها رسول الله ليضمّها إلى حمايته وليعوّضها عمّا لاقت في سبيل إسلامها. وهكذا قدّم رسول الله المصلحة العامّة على مصلحته الشخصية، والمعنى الروحي على لذّات الحسن والمال والمتاع، والثيّب على البكر.

وكانت نِعْمَ الزوجة المخلصة المتحسّسة لمسؤوليتها كأُمّ للمؤمنين. وقد عُرِفَت أنها الزوجة الثانية للرسول، وأنها وافدة على دار تضم بين جدرانها فاطمة الزهراء ريحانة النبوّة والرسالة.

وقد تزوّج بعدها بعائشة بنت أبي بكر، وكانت بنت التسع سنين على بعض الروايات. وكانت من القلائل اللاّتي لا يقف طموحهنّ عند حدّ ولا تكاد تستقرّ أو ترتاح دون أن تبلغ القمّة من المجد بأي ثمن. وكانت عصبية المزاج حادّة الطبع عنيفة في سلوكها. وكانت أيضاً حادّة الطبع عنيفة في سلوكها. وكانت أيضاً حادّة الذكاء شديدة الغيرة تغار على قلب زوجها فلا ترضى أن يشاركها فيه أحد.

وقد رُوي عنها أنها قالت: استأذنت هالة بنت خويلد على رسول الله ﷺ فعرف في استئذانها استئذان خديجة فارتاع لذلك وقال: اللهمّ هالة. قالت: فغِرت وقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين، هلكت في الدّهر، وقد أبدَلك الله خيراً منها؟ فتغيّر وجهه تغيّراً ما كنتُ أراه إلاّ عند نزول الوحي أو عند المخيلة ينزل أرحمة هو أم عذاب؟ وقال: ما أبدلني الله خيراً منها؛ قد آمنت بي إذ كفر الناس، وصدّقتني إذ كذّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عزّ وجلّ منها الولد إذ حرمني من أولاد النِّساء.

وكانت حريصة أيضاً على أن لا تدخل في حياة النبيّ امرأة تفوقها جمالاً أو تزيد عنها في إحدى الخصال.

فالتاريخ يروي أن رسول الله ﷺ لمّا أراد أن يخطب إليه أسماء بنت النعمان، وكانت من أجمل أهل زمانها، قالت السيِّدة عائشة: أن رسول الله ﷺ قد وضع يده في الغرائب ويوشكن أن يصرفن وجهه عنّا. وذهبت إليها وقالت: إن أردتِ أن تحظي عند رسول الله فتعوّذي بالله منه، فلمّا دخل عليها رسول الله قالت: أعوذ بالله منك، فقال: عذت معاذاً، ثمّ خرج وألحقها بأهلها. وكانت تقول بعد ذلك: ادعوني بالشقيّة. وقد ماتت كمداً.

ولم يكن ليقعد بها حبّها للرسول وإيثارها له عن أن تنقاد لطموحها، وقد أخرج ابن سعد في طبقاته عن عائشة أنها قالت: ما غرت على امرأة إلاّ دون ما غرت على مارية، ومارية هذه بعث بها المقوقس صاحب الإسكندرية إلى رسول الله في سنة سبع من الهجرة ومعها أُختها وألف مثقال ذهباً وعشرون ثوباً ليناً وبغلته الدلال وحماره غفير ومعهم خصي يُقال له مابور وهو شيخ كبير. وقد بعث بهم جميعاً مع الحاطب بن أبي بلتعة.

وقد عرض الحاطب بن أبي بلتعة على مارية الإسلام ورغّبها فيه فأسلمت هي وأُختها، ثمّ تزوّجها رسول الله فولدت له إبراهيم، وكان مُعجباً بها وقد كانت بيضاء جعدة جميلة، وقد وهب رسول الله لمن بشّره بولادة إبراهيم عبداً.

وقد حدّثت السيِّدة عائشة قالت: لمّا وُلِدَ إبراهيم جاء به رسول الله إليَّ فقال: أُنظري إلى شبهه بي. قلت: ما أرى من شبه. فقال رسول الله ﷺ: ألا ترين إلى بياضه ولحمه؟ فقلت: كل من سقي ألبان الضأن ابيضّ وسمن.

هكذا كان شعور السيِّدة عائشة تجاه مارية حينما أحسّت أنها أخذت تحتل مكانة في قلب النبيّ ﷺ. وهكذا كان شعورها تجاه ابن رسول الله وقد حمله بيديه فَرِحاً به طروباً لقدومه. ولكنها لسبب من طموحها وغيرتها أجابته بهذا الجواب.

وكانت هذه الانفعالات تدفع بها إلى مواقف وتصرّفات خاصّة كأن تكسر

صحاف بعض زوجات النبيّ إذا جئن للنبيّ بطعام مع طعامها، وكان رسول الله يغرِّمها الصحفة فيدفع بصحفتها للتي كسرت صحفتها، فإنّها في سبل تملّك رسول الله ﷺ لم تكن تتوانى عن أي شيء حتّى عن الطعن في بنوّة ابن رسول الله، وحتّى عن النيل من مقام السيِّدة خديجة. وقد ظلّت بعد النبيّ وتوفِّيت ليلة الثلاثاء لسبع عشر خلون من شهر رمضان من السنة السابعة أو الثامنة والخمسين للهجرة.

ومن النِّساء اللاّتي دخلن في حياة النبيّ صفيّة بنت حيي ابن أخطب من سبط هارون بن عمران من بني إسرائيل، وأُمّها برّة بنت السموأل من بني قريظة، وكان قد تزوّجها سلام بن شكيم القرظي ثم فارقها، فتزوّجها كنانة بن الربيع من يهود بني النضير وقُتِلَ يوم خيبر. واصطفاها النبيّ من بين الأسرى وخيَّرها بين الإسلام واللّحوق بأهلها، فاختارت الإسلام وأسلمت فتزوّجها رسول الله. وقد ذهبت إليها عائشة متنقِّبة فسألها النبيّ: كيف وجدتيها؟ فقالت: وجدتها يهودية. فقال: لا تقولي هذا فإنّها أسلمت.

كما أنّ من النِّساء المسلمات اللاّتي اشتركن في حياة النبيّ الزوجية أُمّ سلمة، واسمها هند بنت أبي أُمية سهيل زاد الركب بن المغيرة المخزومية، وأُمّها عاتكة بنت عامر، وكانت قد تزوّجت أبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، وهاجر بها إلى الحبشة الهجرتين، فولدت له هناك زينب وسلمة وعمر وورده. وقد حضر أبو سلمة أُحُداً فقُتِل إثر جرح. وقد تزوّجها الرسول بعد ذلك وكانت سيِّدة صالحة كاملة، وتوفِّيت في عهد يزيد بن معاوية بعد قتل الحسين عليه السلام.

ومن زوجاته أيضاً حفصة بنت عمر بن الخطّاب، وقد وُلِدَت قبل البعثة بخمس سنين، وتزوّجها عنبس بن جذامة، وهاجرت معه إلى المدينة، فماتعنها بعد رجوع النبيّ من غزوة بدر. ثمّ تزوّجها النبيّ، وتوفِّيت في شعبان سنة خمس وأربعين في خلافة معاوية، وقد صلّى عليها مروان ودُفنت في البقيع.

ومن زوجاته أيضاً بنت عمّته زينب، وكان قد زوّجها بزيد بن حارثة، ولكنها لم تستطع أن تنسجم معه، ولم يستطع هو أن ينسجم معها أيضاً، نظراً

لاختلاف أجوائهما وتباين منزلتهما. ولكن رسول الله أراد أن يعطي في هذا درساً إسلامياً لكل من يتعالى أو يتسامى بشيء غير الإسلام، وأراد أن يفهم المسلمين أنّ الرّجل بإسلامه ودينه وأنّ المسلم كفء المسلمة. ولكنّه بعدما رأى استحالة التوافق بينهما أشار عليهما بالطّلاق، وتزوّجها النبّي حِرْصاً على أن يعوِّضها بعدمّا صُدِمَت فيه في زواجها الأوّل، وبهذا فقد أعطى رسول الله ﷺ درسه، ولم يغبن حق زينب بل جعلها أُمّ المؤمنين وزوجة رسول الله ﷺ.

وأخيراً فأُولاء نساء عشنَ في حياة النبي ﷺ كلّ منهنّ حسب مكانتها وكفاءتها في الحياة.

بنت الهدى

١٢

المرأة في شريعة النبي

قيمة المرأة في الإسلام

المرأة هي المدرسة الأولى في الحياة، وهي أحد العنصرين الأساسيين في تكوين المجموعة البشرية. فنحن حينما نذكر المرأة نرى أنها مدرسة نشء ومربية أجيال. وحينما نأتي لنتحدث عن دورها في المجتمع نلاحظ أنها في الواقع نقطة لانطلاق المجموعة البشرية، ولولاها لما كان هناك بشر على وجه الأرض.

ونظراً لكونها المعهد الفطري للوليد، ولكون صدرها هو واهب الحياة للجيل، اهتم الإسلام بأن يلقي الضوء في شريعته وأحكامه على المرأة ومكانتها في المجتمع والحياة، وأن يرتفع بها إلى مصاف الرجل، لها ما له وعليها ما عليه، بعد أن كانت المرأة مهضومة الحق في جميع الأنظمة الدولية التي وجدت قبل الإسلام.

حتى أن كثيراً من الأمم كان قد راج فيها وأد البنات خوفاً من عار وجودهن على وجه الأرض. وكان العلماء وزعماء الديانات يبحثون ويتناقشون على طول قرون عديدة في أن المرأة هل هي إنسان أو غير إنسان، وهل تحمل روحاً أم لا، وكانت الديانة الهندوكية مثلاً قد سدّت أبواب تعليم كتبهم المقدسة على المرأة لعدم جدارتها لذلك. والديانة البوذية لم يكن فيها سبيل للنجاة لمن اتصل بامرأة. وأما في الديانات النصرانية واليهودية فقد كانت المرأة هي مصدر الإثم ومرجعه فيهما. وكذلك اليونان فلم يكن للمرأة عندهم أي نصيب من العلم والحضارة ولا ثقافة ولا حقوق مدنية، وعلى مثله كانت الحال في الروم وفارس والصين وما عداها من مراكز الحضارة الإنسانية. وكانت نتيجة لهذا المقت العام الذي كانت تشعر به المرأة أنها نسيت أنّ لها مكانة إجتماعية وأن لها كياناً خاصاً.

ولكن الإسلام هو الدين الوحيد الذي جاء لكي يعطي الصنفين الذكر

والأنثى حقه في الحياة، وهو الدين الوحيد الذي أصلح عقلية الصنفين وبعث في الأذهان فكرة إعطاء حقوق المرأة وحفظ كرامتها. ومن ناحية أخرى فتح أمامها أبواب العلم والمعرفة وأباح لها أن تتعلم ما تشاء من العلوم المقدسة كقراءة القرآن ودراسته وتفسيره إذا أمكنها ذلك. وقد جاء في الروايات عن رسول الله ﷺ أنه قال: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. وقد أشاد القرآن بالمرأة وخصها في آيات كثيرة تبين مكانتها في المجتمع ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥] ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

وذلك لكي تشعر المرأة المسلمة بمسؤوليتها في المجتمع، ولكي يشعر المجتمع بوجودها وباعتبارها عضواً أساسياً في حياته، ولكي لا تستغل إمكانياتها العاطفية والتكوينية إستغلالاً ظالماً. وعلى هذا الأساس فإن المرأة المسلمة قد حصلت في ظل الإسلام على حقوق وإمكانيات لم تحصل عليها أية امرأة سواها في شتى القوانين والتشريعات. وقد ارتفع الإسلام بالمرأة لحسابها الخاص ولمجرد كونها إنسانة وأعطاها حقها الطبيعي في كل أدوار حياتها الاجتماعية، ونحن الآن في صدد إعطاء فكرة مختصرة عن المرأة في تشريعات الإسلام ومفاهيمه.

المرأة

جاء في الروايات الواردة عن الإمام أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام رواية يحدد فيها مفهومه ومفهوم الإسلام عن المرأة فيقول: (المرأة الصالحة خير من ألف رجل غير صالح) وهو يقصد بها أن يقرر أن الإنسانية في نظر الإسلام لها

قيمة واحدة وميزان واحد للكرامة بقطع النظر عن كل الصفات الطبيعية التي يتميز بها الأفراد. وهذا الميزان الوحيد في نظر الإسلام هو الصلاح والتقوى، والأفضلية عند الإسلام هي أفضلية العمل الصالح.

فمهما كان الصلاح هنا متوفراً كانت الإنسانية أفضل وأكمل. ومهما ابتعد الإنسان عنه خسر بذلك كرامته في مفهوم الاسلام كائناً من كان. فلا الرجل بما هو رجل يفضل المرأة، ولا المرأة بما هي امرأة تفضل الرجل. ولا يتعارض هذا مع الوظائف التي وزعت على الرجل والمرأة في الأسرة الإسلامية، ولا مع القيمومة التي أعطيت للرجل على المرأة فيها. فإن هذه القيمومة التي إضطلع الرجل بموجبها بإدارة معاش البيت والحفاظ على وحدته، لا تعبر إلا عن توزيع طبيعي للوظائف في مجتمع صغير وهو الأسرة المتكونة من أب يعيل ويحافظ وأم تلد وتربي، فهي ليست قيمومة أفضلية وإلا لكان كل رجل قيماً على المرأة التي يعايشها وإن كانت أمه أو أخته وليس الأمر كذلك.. هذا بعض ما عناه الإمام الصادق عليه السلام في قوله إن المرأة الصالحة خير من ألف رجل غير صالح. وقد أراد الإمام أن يفتح أمام المرأة مجالاً يمكنها فيه من أن تسمو بصلاحها على ألف رجل غير صالح، وأن تثبت للمجتمع أنها مؤهلة للتفوق على الرجال إذا تقدمت عليهم بالتقوى والصلاح، وانعكس ذلك في مختلف حقول حياتها العائلية والاجتماعية ولا يكفي أن تكون صالحة في بعض، تلك الحقول دون بعض بل المرأة الصالحة هي التي انشرح صدرها للإسلام وتعاليمه، فطهرت روحياتها من عوامل الشرّ وعقمت فكرتها من شوائب الأهواء الشيطانية وحسنت سيرتها في محيطها الخاص ومحيطها العام، وأغلقت أمام عواطفها جميع أبواب الحسد والرياء والمكر والخداع، وفتحت مشاعرها لتلقى كل ما هو خير وسليم، وسلم منها المجتمع وسلمت منه لا تظلم مسكيناً ولا تهضم حقاً ولا تعتدي على أحد ولا تظن بأحد السوء. وتحمل أختها المسلمة على سبعين محمل من الخير كما قد أوصاها به الله ورسوله. هذه هي المرأة التي جعل منها الإمام خيراً من ألف رجل غير صالح.

وهذا هو مفهوم الإسلام عن المرأة بما هي إنسانة لها عملها الصالح الذي يرتفع بها إلى حيثما تشاء تبعاً لمدى توفيره فيها.

والآن فهل لي أن أقول كلمة أخيرة وقبل أن أبدأ بالبحوث الباقية، فأقول الصلاح بمعناه الحقيقي قلّما يتفق لنا نحن بنات حواء، وإذا صادف فاتفق لواحدة منا قام مجتمعها الظالم في إبعادها عنه أو إبعاده عنها بأي سبيل، وحتى بدون أن تشعر هي أيضاً. والذنب في هذا ذنبنا نحن وذنب مجتمعنا الفاسد الذي تنعكس فيه المفاهيم وتنقلب القيم ويتنكر للمثل، وإلا فإن أبواب الرقّي الحقيقي مفتوحة أمامنا لا ترد وافدة ولا تمتنع من قبول قاصدة وإسلامنا يعزّز ذلك ويشيد فيه ويدعو إليه.

المرأة والعمل

يقوم تقسيم الوظائف في كل مجتمع ومحيط على أساس تقبل الأشخاص لتلك الوظائف وإمكانياتهم للقيام بها على أحسن وجه. وتقسيم العمل يؤدي إلى سهولة القيام به مهما كان صعباً ويؤدي أيضاً إلى سرعة الانتاج مهما كان بطيئاً. وتقسيم العمل والوظائف يساعد المتخصص في كل قسم منه على النبوغ في ذلك القسم والتعمق فيه خلافاً لما لو اختلف توزيع العمل وتعاقبت الأعمال المختلفة على العامل فإنه سوف يخسر مرونته وعبقريته التي قد يحرزها في عمل واحد.

فإن لكل شخص من الأشخاص إستعداده الخاص وطبيعته الخاصة به وتكوينه الفطري والنفسي، فنحن لا ينبغي لنا مثلاً أن نجعل من فنان مهندساً أو نجعل من مهندس فناناً، فإن لكل منهما هوايته واستعداده الخاص، لا ينبغي لأي منهما أن يخالف اتجاهه الطبيعي أو يعاكس أهواءه واستعداده.

فنحن إذا أجبرنا العامل الميكانيكي مثلاً على أن يكون فناناً، وإذا أجبرنا الفنان على أن يكون مكيكانيكياً، نحكم مواهب كل من الطرفين بالعدم، في

الوقت الذي نحصل فيه على أبرع عامل ميكانيكي وعلى أروع فنان لو تركنا كلاً منهما يسير وراء هوايته وطبيعته الفطرية. فتقسيم العمل يعتبر من أهم الظواهر الطبيعية، وقد شمل حتى تكوين الإنسان وتركيبه العضوي، فإن لكل عضو من أعضاء الإنسان عمله الخاص وفائدته الخاصة، وبهذا تكون جميع أعضاء الإنسان متساوية من ناحية الاستهلاك ومتوازية في إنجاز المهام مثلها في ذلك كمثل تقسيم العمل في المعمل الصناعي، فتقسيم العمل في المعمل الصناعي من شأنه أن يستوجب إستعمال كافة الآلات الموجودة في مصنع من المصانع في وقت واحد.

ولا شك أن هذا الاستعمال مفيد من عدة نواحي، فهو مفيد للآلات نفسها إذ أن الحركة أفضل لها من الوقوف، كما هو مفيد بالنسبة للإنتاج إذ أن العامل الذي يتخصص في إدارة آلة معينة يستطيع أن يحصل على أكبر فائدة مرجوّة منها؛ وبذلك تصل قوة الانتاج إلى أقصى درجتها وحتى على الصعيد الدولي فإنا نجد تقسيم العمل قد انتشر بين الدول والأقاليم بل وحتى في الدولة الواحدة نفسها، وذلك تبعاً لصفات السكان فيها واستعدادهم الذاتي. لأن أنواع العمل وبحسب تربتها ومناخها ونوع المعادن الموجودة فيها ونوعية المحصولات التي تنتجها والقوى المتحركة وتوزيعها.

فقد تتخصص بعض الدول في صناعة المنسوجات وبعضها في صناعة المواد الكيميائية مثلاً، وقد تتخصص غيرها في تربية الأغنام أو زراعة القطن أو إنتاج النفط، بناءً على استعداد الدولة وإمكانياتها. ولا شك أن تقسيم العمل بين الأفراد في جميع المجالات له أثر كبير في حياتنا الاجتماعية، فعلاوة على المزايا العديدة التي يتضمنها فإنه يحكم الروابط بين الأفراد ويشعر الإنسان بحاجته إلى أخيه الإنسان وبأنه لن يستطيع أن ينتج بنفسه كافة الأشياء اللازمة له، فهو مضطر إلى أن يعتمد على غيره في الحصول عليها.

وعلى هذا فإن كل واحد من المجموعة البشرية يشعر بأنه مشدود جذرياً إلى أخيه الإنسان، وهذا الشعور يولد التقارب اللاإختياري في المجتمع. فإذا كان تقسيم العمل شاملاً لكل المجالات في جميع الأحوال، وإذا كانت الحياة

قائمة على أساس تقسيم العمل في جميع نواحيها، فمن الطبيعي جداً أن يأخذ الإسلام بهذا المبدأ في تقسيم العمل بين المرأة والرجل فيسند لكل منهما الدور الذي هو أكثر كفاءة للقيام به.

فإن لكل من المرأة والرجل مزاجاً خاصاً وتكويناً معيناً لا ينبغي لأي منهما أن ينحرف عنه أو ينفصل منه.

فتوزيع المهام إذاً بين الرجل والمرأة لا يقوم على أساس تسخير أحدهما للآخر بل على أساس تقسيم العمل وإعطاء كل منهما نوع المهمة التي تنسجم مع طبعه ومزاجه. ولولا توزيع هذه الوظائف والتهيئة التكوينية لهذا التوزيع لما أمكن البشرية أن تعيش على وجه الأرض. فكما أن على المرأة أن تقوم بوظائفها الطبيعية في الحياة كذلك على الرجل أيضاً أن يقوم بمهامه بالنسبة للمجتمع والحياة، ويكون إنجاز هذه الوظائف الطبيعية على سبيل التعاون والتكافؤ لا على سبيل التسخير والاستخدام.

هذا هو التقسيم السماوي للوظائف البشرية دون استغلال من أحد الطرفين. وهكذا شاءت العدالة الربانية أن تجعل البشر متساوين في الوظائف متكافئين في الأعمال دون ظلم أو إجحاف وتقسيم الوظائف على هذا النحو يحفظ لكل من الطرفين مكانته الاجتماعية، ويحافظ في الوقت نفسه على كيانه الخاص، ويجعلهما معاً خادمين للمجتمع على صعيدين متساويين، وكل حسبما تفرضه عليه طبيعته ويدله إليه تكوينه.

ولذلك فقد أسند للمرأة خدمة المجتمع في داخل البيت وأسند للرجل خدمة المجتمع في خارج البيت. وذلك لأن المرأة بطبيعتها الأنثوية الرقيقة أجدر بإدارة البيت الذي يقوم على الحب والعطف والحنان.

ولكن هذا التوزيع العادل للوظائف أخذ يستغل من قبل بعض دعاة الشر لإبرازه في صورة معاكسة تماماً للواقع تنتج عنه تصورات خاطئة عن أن المرأة في الإسلام لا تعد إلا كونها أداة عمل وآلة إنتاج تحت سيطرة الرجل. وكان نتيجة لهذه الدعايات السامة أن أخذت المرأة المسلمة تستشعر بنقطة ضعف موهومة وصارت تحاول أن تمحو عنها هذا النقص.

وبما أن الوسيلة الوحيدة التي تمكنها من ذلك هي عدالة السماء وتفهمها الواقعي للحكمة العادلة في هذا التوزيع، وبما أنها قد انصرفت عن هذه الناحية بعد أن توهمت اليأس منها، فإنها لم تتمكن من الاهتداء إلى ما تسعى، مهما حاولت ذلك ومهما بذلت في سبيل ذلك الغالي والرخيص من عزتها وكرامتها وطهرها الغالي الثمين.

المرأة والحجاب

الحجاب ليس كما يتوهم البعض من أنه ختم ملكية المرأة للرجل، فإن المرأة والرجل من الناحية الإنسانية سواء لم يخلق أحدهما ليملك الآخر بل خلق أحدهما ليتمم الآخر ويكمله، ولكل منهما جانبان مزدوجان: فالرجل إنسان يسمح له بالمشاركة في خدمة المجتمع على أن يظهر في مجال الخدمة كإنسان لا أكثر ولا أقل. إذن فعدم تظاهر المرأة بأنوثتها لا يؤخذ دليلاً على أن الإسلام أراد أن يحجبها من المجتمع، فهي عندما تتصل بالمجتمع تتصل به لحساب كونها إنسان طبعاً فكما أن للرجل أن يثبت إنسانيته في الوجود، للمرأة أيضاً أن تثبت وجودها الإنساني، حالها في ذلك حال الرجل سواء بسواء. وفي والنواحي التي يتحتّم على المرأة التستر فيها يتحتم على الرجل ذلك أيضاً، فكما أن المرأة لا يمكن لها أن تتظاهر بأنوثتها وبكونها الجنس الناعم عن طريق الخلاعة والتبرج، لا يمكن للرجل أن يتظاهر برجولته وذكورته ولا يمكن له أن يعيش في المجتمع الواسع إلا كإنسان، كالمرأة التي لا يمكن لها أن تعيش في المجتمع الواسع إلا كإنسانة، وفي المواطن التي يظهر فيها الرجل علاوة على كونه إنساناً يمكن للمرأة بل ويجب عليها أن تظهر بمظر الأنثى علاوة على كونها إنسانة.

وبما أن جاذبية المرأة وسحرها أقوى وأشد تأثيراً من جاذبية الرجل وسحره، كان حجاب المرأة أوسع وأشمل من حجاب الرجل. فالمرأة التي

تظهر في المجتمع بمظهر إنسانة بدون إشارات وهوامش تشير إلى أنوثتها، تكون مساوية للرجل. على العكس تماماً من المرأة الغربية، التي إن قال لها الرجل أنها حرَّة في تصرفاتها وفي كل شيء تكون في الواقع مقيّدة بإرضاء الرجل أي رجل كان وإشباع رغباته، إذا فرض عليها تظاهرها بأنوثتها باسم الحرية على ما يتطلّب ذلك من تعب وجهد وعلى ما يستنفد ذلك من وقت المرأة.

فهل من الإنسانية أن تكون المرأة سلعة تعرض سيطرتها المطلقة بوصفها مالكة للمال، بينما يمنح هذه السيطرة للزوج لا على ماله فحسب بل على مال زوجته أيضاً، وفقاً لأحد أشكال أربعة سمح القانون بصياغة العقد طبقاً لأي واحد منها تبعاً لما يقع عليه إختيار الزوجين. والأشكال الأربعة هي كما يلي:

أولاً - شركة الزوجين وهو تقسيم أملاك الزوجين إلى ثلاثة: قسم عام للزوجين غير قابل للقسمة، وقسم خاص بالزوج، وقسم خاص بالزوجة، وللزوج وحده حق إدارة الأقسام الثلاثة كرئيس للشركة.

والثاني - بدون شركة أو استبعاد الشركة: وهو أنه لا يوجد في هذا القسم أملاك عامة، فكل زوج يحتفظ بأملاكه الخاصة، لكن للزوج وحده حق إدارة أملاكه وأملاك زوجته وإستثمارها.

الثالث - فصل الأملاك. وفي هذا القسم منافع الزوجين منفصلة، فكل واحد منهما يحتفظ بملكيته لأملاكه واستغلالها وإدارتها على شريطة أن تترك الزوجة إلى زوجها جزءاً من إيرادها إشتراكاً معه في نفقات المعيشة.

الرابع - المهر وهو تقسيم أملاك الزوجة إلى مهر وغير مهر: فالمهر ما جعلته المرأة مهراً عند الزواج من أملاكها أو ما أعطي إليها في عقد ترتيب أملاكها من أقاربها مثلاً، وللزوج حق إدارته وإستثماره فقط.

ولنقف الآن عند الشكل الأول من هذه النظم وهو شكل الشركة الزوجية، ففيه أن للزوج إدارة ماله الخاص ومال الزوجة الخاص ومال الشركة. وحق

إدارة أملاك شركة الزوجية خاص بالزوج كرئيس لها وهو حق خوّله له القانون فلا يجوز إنتقاصه ولا إلغاؤه بشرط في عقد ترتيب أموال الزوجين. وسلطة الزوج في إدارة الأموال المشتركة تكون في الأعمال الإدارية ومباشرة رفع الدعاوى أمام القضاء. وفي الأعمال الإدارية المحضة تكون سلطة الزوج فيها غير محدودة فيؤجر ويستأجر العقار من غير تحديد، وله قبض الإيراد وله أن يتصرف فيه كما يريد ويقبض رأس المال من غير مراقبة ولا إذن من أحد. وكذلك له السلطة غير المحدودة في التقاضي، فسلطة الزوج في ذلك غير محدودة وليس للزوجة الرجوع عليه بأي تعويض ولو أخطأ خطأً فاحشاً أو أدار إدارة سيئة أو بذَّر تبذيراً يجعله مسؤولاً قانونياً، فهو يعمل كمالك حقيقي ليس عليه أي مسؤولية قبل أي شخص كان، وللزوج أيضاً لعيون الرجال المتعطشة؟ وهل أن من مستلزمات إنسانية المرأة أن تصرف الساعات الطوال في محلات «الكوافير» وتحت أيدي المواشط مع ما يلزم ذلك من إستهلاك وقت مادي ومعنوي؟

كل هذا لأجل أن تُرضي الرجل، فهل يمكن لهؤلاء النساء أن يظهرنَ ولو مرة واحدة فقط بدون علامات تدل على أنوثتهنَّ معتمدات على شخصيتهنَّ أو على معارفهنَّ؟ وهل خطر لإحداهنَّ مرة في أنها لو دعيت إلى الحفل الفلاني سوف تكون المبرزة بين لذاتها لما تملك من معرفة أو لما تتمتع به من شخصية؟ بل إن أفكارهنَّ تتجه أول ما تتجه في أمثال هذه المناسبات إلى أناقتهنَّ وإلى تحصيل الأسباب التي تجعل إحداهن أكثر جاذبية وفتنة من الأخرى.

وأنا لا أريد أن أقول أن من مستلزمات الأناقة التبرّج، أو أن التبرّج من مستلزمات الأناقة، ولا أريد أن أدعو إلى التقشّف، ولكني أريد أن أنبّه اللاَّتي جعلنا في التبرّج والتأنّق عماد شخصيتهنَّ أن الواقع يؤكد أن هذا شيء ثانوي لا يعدو كونه إرضاءً للرجل ولو بسبعين واسطة.

المرأة والملكية

للمرأة المسلمة الحق الكامل في التملك الشخصي والتصرف الكلي فيما تملك من مال وعقار، وفي كل أدوار حياتها، سواء أكانت بنتاً أو زوجاً أو أماً، وفقاً للنظام العام. وليس للزوج المسلم حق في أن يتصرف بما يخص زوجته المسلمة أو أن يمس شيئاً مما تملك بغير إذن منها ورضاء.

ومن هذا نرى أن الإسلام قد أعطى بتشريعه هذا للزوجة المسلمة حقوقاً لم تحصل عليها في تشريعات أي حضارة أخرى منذ أقدم العصور وحتى الآن. ففي الشرائع الحديثة التي تعتبر القمة في التشريع البشري وُضعت شروط عامة للزواج، وَرُبِطَ عقد الزواج بعقد آخر أطلق عليه إسم عقد ترتيب أملاك الزوجين، وهذا العقد يجعل ثروة الزوجة إلى حد كبير تحت سيطرة الزوج ويحرمها من إدارة أملاك الزوجة الخاصة لكن سلطة الزوج في ذلك تختلف عن سلطته في إدارة أموال شركة الزوجية كالآتي:

أولاً - لا يجوز منع الزوج من مباشرة سلطته في إدارة أموال شركة الزوجية حتى ولو بشرط في عقد ترتيب أموال الزوجين، ولكن منع الزوج من إدارة أملاك الزوجة الخاصة يجوز إشتراطه في عقد ترتيب أموال الزوجية، فيمكن للزوجة بعد الشرط أن تحتفظ بإدارة أملاكها لنفسها خاصة.

ثانياً - سلطة الزوج على أموال شركة أموال الزوجية سلطة مطلقة كمالك حقيقي ولكن سلطته على أملاك الزوجة الخاصة سلطة إدارة عادية فقط.

ثالثاً - الزوج غير مسؤول في إدارته السيئة والإسراف والتبذير في شركة أموال الزوجة بخلاف إدارة أملاك الزوجة الخاصة فهو مسؤول عن كل خطأ أو إسراف أو تبذير كمدير عادي. وعلى هذا فنحن نرى أن سلطة الزوج على الزوجة في أملاكها الخاصة أقل منها في أموالها الخاصة إذا صحَّ لنا أن نعتبر أن تلك الأموال تعتبر أموالاً لها بعد الزواج.

ولكن عقد الزواج في التشريع الإسلامي لا يتعدى شخص الزوجين إلى مالهما أو عقارهما إطلاقاً فلا علاقة للزوج بمال زوجته إطلاقاً لأي سبب

كان. فالزوجة حرّة في أن تبيع وتشتري وترهن وتوكل من تشاء لما تشاء بلا معارضة من الزوج إلا في حدود القانون العام من إسراف أو تبذير أو سفه مثلاً فليس للزوج إذاً دخل في مالية الزوجة ولا في أهليتها.

فهي كاملة الأهلية في التصرّف بأموالها وأملاكها قبل الزواج أو بعده بلا فارق، ومهما كانت الزوجة غنية فليست ملزمة في المساهمة بنفقات البيت ولا في نفقات الأولاد، وإذا أنفقت فإنما تنفق نتيجة لروح التعاون لا لحق شرعي أو عرفي. والمهر وما يدفع إلى الزوجة قبل الزواج أو بسببه من الزوج أو من غيره من الأقارب والأصحاب هو ملك خاص للزوجة لا شأن للزوج به ككل أملاكها وأموالها.

هذا هو الزواج في الإسلام، وهذه هي المقارنات التشريعية بينه وبين باقي القوانين الوضعية، وهذه هي الأحكام المرأة في الإسلام والتي تدل على أن الزوجة المسلمة قد حصلت على حق لها في تشريعات الإسلام كما لم تحصل عليه أي زوجة في أي حضارة.

ثم هذه هي المرأة الغربية وقد أعطيناك عنها لمحة موجزة إذ هي الزوجة ورأينا إستغلال الرجل لها وتلاعبه بأموالها دون حسيب أو رقيب.

وبعد كل هذا يقال أن المرأة الغربية حرّة متحرّرة، وأن المرأة المسلمة أسيرة مستعبدة. ونحن لو أردنا أن نأتي على جميع المقارنات التشريعية للمرأة المسلمة والمرأة الغربية لضاق بنا المجال. ولعلنا سوف نبحث هذا الموضوع في رسالة أخرى إن شاء الله، ولكن الآن يكفينا لإثبات حرية المرأة المسلمة وعبودية المرأة الغربية هذا المثل الواحد الذي ذكرناه في حق المرأة بالتملك.

وقد قنعت المرأة الغربية من الرجل أنه فتح أمامها أبواب الخلاعة والتكشف وهيّأ لها سبيل الاستهتار والتبرّج. وحتى هذا فإنه لم يكن لحساب المرأة الغربية ولا كان إرضاءً لها ولرغبتها الخاصة بل كان لحساب الرجل وإشباعاً لنزواته ورغباته. فحتى في عالم الخلاعة والتبرج ليست المرأة الغربية مختارة حرة وإنما هي خاضعة أيضاً لشركة جسدية تقابل الشركة المالية ويكون للرجل

في هذه الشركة حق التصرف والاختيار. أيضاً فقد تعجبه التسريحة الفلانية أو الزينة الفلانية وقد لا يعجبه الزي الفلاني. وفعلاً فإن أكثر مصممي الأزياء من الرجال يخلعون على المرأة الزي الذي يروق لهم والذي رضي عيونهم وأذواقهم.

وعلى كل حال فإن المرأة الغربية مسخرة للرجل ولميوله ونزواته.

وأما الإسلام فهو لا يقيد المرأة المسلمة بأي قيد ولا يوجه إليها أي تكليف خاص به دون الرجل إلا بالحجاب. والحجاب كما قدمنا في الفصول السابقة ضرورة من ضروراتها وحقيقة واقعية من حقيقتها الأنثوية وليس له أي أثر على سلوكها العام أو الخاص..

فتصوروا أيهما شريعة الكرامة والحرية الحقيقية بالنسبة للمرأة، شريعة تقول: من تزوج امرأة لمالها حرمه الله من مالها لأنها تريد من الرجل أن ينظر إلى المرأة بالمقاييس الإنسانية لا بالمقاييس النقدية، وأن يعتبرها شريكة له في حياته لا تجارة رابحة، وبين شريعة أخرى تنزل بالزواج عن مفهومه الإنساني الخير وتربط بينه وبين إنشاء شركة مالية لحساب الرجل يخرج فيها الرجل وهو يملك كل شيء وتخرج منها المرأة وهي لا تملك شيئاً سوى جواز المرور الذي حصلت عليه من الرجل نفسه.

نعم سوى جواز المرور في الشارع والدخول إلى المنتديات متكشفة متهتكة.

بقي علينا الحديث عن مسألة قد تثار بشأن ملكية المرأة وحقها من التملك في الإسلام وهو مسألة الإرث، إذ أن الإسلام جعل للرجل فيه مثل حظ الأنثيين، وقد تفسر هذه التفرقة لحساب الرجل.

ولكن الواقع أن هذا الفرق مرتبط بوضع الالتزامات التي وضعها الشارع بين الرجل والمرأة، فالرجل المسلم هو المسؤول الشرعي والعرفي لأعمال الزوجة والبيت، وهو المكلف بتهيئة مؤونة العيش ومستلزمات الحياة لمن يعول. ولهذا فإن من حقه الطبيعي أن يختلف عن المرأة في الإرث ويكون له

من الإرث مثل حظ الأنثيين، على العكس تماماً من المرأة المسلمة فهي غير مسؤولة شرعاً ولا عرفاً عن أي نفقة أو صرف كما قدمنا في هذا الفصل، ولذلك فليس في هذا أي هضم لحقوق المرأة ولا أي مكسب للرجل دونها من الميراث، فهي في الحقيقة تشاركه في الزيادة التي يأخذها باعتبار المسؤولية التي تقع على الرجل تجاهها.

المرأة البنت

قال رسول الله ﷺ: «نعم الولد البنات ملطفات مجهزات مؤنسات» هذا هو التقريظ النبوي المقدس للبنت وهذه هي فكرة الإسلام عن الوليدة وعن أهميتها في الوجود.

وقد يعتبر هذا الحديث طبيعياً في مثل هذا العصر وبعد أن ركّز الإسلام للمرأة كيانها الخاص وبعد أن عمّت فكرة الإسلام عن كون البنت والولد في ميزان واحد. ولكن هذا الحديث جاء على لسان رسول الله ﷺ في عصر كانت العوائد الجاهلية فيه مستحكمة وكانت البنت فيه موؤدة خوفاً من عار بقائها في الحياة. وكان من أسباب عار الرجل أن يكون أبا بنات حتى أن أعداء رسول الله ﷺ كانوا يجعلون من أبوة رسول الله للبنات سبيلاً إلى الاستهزاء والسخرية. وقد جاء في الروايات أن رسول الله ﷺ بشّر بإبنته فنظر إلى وجوه أصحابه فرأى الكراهة فيهم فقال: ما لكم؟!.. ريحانة أشمّها ورزقها على الله عز وجل.

وهكذا نرى أن الاسلام إرتفع بالبنت الموؤدة إلى ريحانة وإلى خير الولد.
وقد روي عن رسول الله الأعظم ﷺ أنه قال: إن الله تبارك وتعالى أرق على الإناث منه على الذكور، وما من رجل يدخل فرحة على امرأة بينه وبينها قرابة إلا فرحه الله يوم القيامة.

وهكذا وعلى هذا النحو غرس الإسلام في صدور المسلمين حب البنات وأفهمهم أنها فلذة لهم مثلها في ذلك مثل الولد سواء بسواء. وجاء في الروايات أنه ولد لرجل من أصحاب الإمام أبي عبد الله عليه السلام جارية، فدخل على أبي عبد الله فرآه مسخطاً فقال له: أرأيت لو أوحى الله إليك أن أختار أنت لنفسك ما كنت تقول؟ قال: كنت أقول يا ربّ تختار لي. قال: فإن الله عزّ وجلّ قد إختار لك. ثم قال: إن الغلام الذي قتله العالمُ الذي كان مع موسى وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١]، أبدلهما الله عزّوجلّ بجارية ولدت سبعين نبياً.

وقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً أن رجلاً تزوج بالمدينة فلما جاءه سأله أبو عبد الله كيف رأيت؟ فقال: ما رأى رجل من خير من امرأة إلا وقد رأيته فيها، ولكن خانتني. فقال: ما هو؟ قال: ولدت جارية. فقال أبو عبد الله: لعلّك كرهتها، إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١]. وهذه الرواية تدلنا على المهمة العسيرة التي واجهت الإسلام في مطلعه الأول عندما ركّز للبنت مقاماً معترفاً به شرعياً ورسمياً وعاطفياً. فبعد مضي حوالي القرن نرى أن هذا الرجل يعتبر أن زوجته قد خانته لأنها ولدت له جارية، وهذا هو السبب في كثرة الروايات التي وردت عن النبي يحبّب فيها البنت ويقرّبها إلى القلوب ويجعلها ريحانة، ونعم الولد.

البنت حينما تصبح زوجة

الزوجية في الإسلام هي رباط مقدّس يقوم على أساس الوفاء والحب والإخلاص. وقد اهتم الإسلام في هذه الناحية من حياة المرأة المسلمة وأعطى الزوجة الصالحة مفهوماً طاهراً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض، ولا هضم فيه لحق أي من الطرفين: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ومن هذا نعرف أن الإسلام جعل من العلاقة الزوجية علاقة متكافئة، للزوجة فيها ما للزوج وعليها ما عليه. وأما الدرجة التي أعطيت للرجال على المرأة فذلك مردّه لتكوين المرأة وتكوين الرجل.

فالمرأة، ونظراً لطبيعتها التي خلقت لها، تكون أضعف من الرجل وأرق. وهي تتعرض في أدوار معينة من حياتها إلى أعراض طبيعية، لها التأثير البالغ على قواها الجسمانية والفكرية خلافاً للرجل الذي هو في منأى عن أمثال هذه الأعراض وآثارها النفسانية والجسمانية، وقد أكد الطب القديم والحديث على هذه الناحية، وعلى أن المرأة وفي معدل ٧٤٪ تتعرض في أدوار معينة ونتيجة لتركيبها العضوي وكيانها الأنثوي إلى أعراض من نتائجها تقليل قوة إمساك الحرارة في الجسم، وإعاقة النبض عن السرعة وهبوط في ضغط الدم، وتقليل عدد خلاياه. وتؤثر هذه الأعراض أيضاً على الغدد الصماء واللوزتين وعلى الغدد اللمفاوية وتقلل إخراج أملاح الفوسفات والكلوريد من الجسم، ويختل فيها الهضم ويقل فيها التحام الشحم والأجزاء الهيولينية في المأكولات مع أجزاء الجسم، وفيها يبلد الحس وتتكاسل الأعضاء وتتخلف الفطنة والذكاء وقوة تركيز الأفكار إلى آخر هذه الأعراض التي تكون المرأة في معرض لتلقيها بين حين وحين. ووجود أمثال هذه الأعراض أو بعضها من حقه أن يؤثر على المرأة وعلى وجودها الاجتماعي. وهذا ضرورة من ضرورات المرأة ونتيجة من نتائج تقسيم الوظائف بين البشر. ولذلك فهي تحتاج دائماً وأبداً إلى من يشدها في جميع الأحوال وإلى من يسندها في كل وقت، وهي ستجد في الرجل وجودها الثاني الذي لا يطرأ عليه أي تغيرّ أو تبديل.

ولذلك جعل الإسلام للرجل درجة على المرأة وليس في هذا أي إجحاف لحق المرأة أو أي ظلم لها، بل هو نتيجة طبيعية لما قدمناه. وكذلك في أوقات الحمل الذي بعد أقدس مهمة تنجزها المرأة في الحياة، تصاب أكثر النساء بأعراض كثيرة تكون من مستلزمات الحمل وتوابعه وتستهلك هذه الأعراض من المرأة جهداً بدنياً شاملاً. وقد صرح كثير من الأخصائيين أن الشهر الأخير من أشهر الحمل لا يصح فيه أن تكلّف المرأة جهداً بدنياً أو فكرياً، وعند ذلك

أيضا يأتي دور الرجل الزوج لكي يسيِّر معها دفة الحياة. والمرأة بطبيعتها الناعمة تحتاج إلى ركن قوي تستشعر في ظله الأمن والرضاء.

ولو لم يكن للرجل على المرأة درجة لأصبح الرجل بالنسبة للمرأة كواحدة غيرها من النساء، وعند ذلك تفقد هذا الشعور الذي تحتاجه كل أنثى وهو شعورها بأنها في حِمى مكين وبأنها مسنودة إلى جبهة قوية.

فالمرأة كما عرفنا لا يمكن لها بأي حال من الأحوال أن تتجرد عن أنوثتها التي هي ضرورة من ضرورات وجودها الإنساني. والأنوثة تعني الرقة والنعومة، والرقة والنعومة لا بد لها ممن يعوضها عن ضعفها بقوته وعن رقتها بصلابته.

وإلا فإن الإسلام هو أول نصير للزوجة بجميع أحكامه ومفاهيمه. وقد جاء في الروايات عن رسول الله ﷺ أنه قال: خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي. وجاء في الروايات أن النساء في عهد النبي كُنَّ قد وجدنَ فيه لأنفسهنَّ نصيراً مشفقاً وملجأً حتى أنهنَّ كُنَّ يشكين إليه أدنى اعتداء يصلهن من أزواجهنَّ وكان أزواجهنَّ يحذرون أن يبدر منهم إليهنَّ ما يشكينه إلى النبي.

وجاء في الروايات عن الرسول ﷺ أنه قال: خير متاع الدنيا المرأة الصالحة. وجاء عنه أيضاً: ليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة.

وعلى هذا النحو جعل الإسلام من الزوجية نموذجاً جديداً، وأسبغ عليها مفاهيم سامية لا لبس فيها ولا غموض والزوجة في الشريعة الإسلامية لها من الحقوق الزوجية ما عليها، وبهذا أوجد الإسلام من الزوجية رباطاً محكماً ثابت القواعد له شروطه وأحكامه وليس متعة لهوٍ عابرة.

فالزوجة إذن ليست آلة مستخدمة للرجل وليست وسيلة لإنجاز مهامه وقضاء حوائجه، وليس للرجل عليها أي حق في هذا الباب كما قد أجمعت عليه الروايات والأخبار وأجمع عليه أيضاً جميع الفقهاء. وقد ترك الإسلام التعاون القائم بين الزوجين إلى رغبة الزوجين في هذا التعاون واستعدادهم لذلك، ولا

ريب أن الحب المتبادل إليهما ذلك التعاون، فهو تعاون متكافىء قائم على أساس الحب والرحمة والإخلاص. وعلى هذا فإن المرأة لا تشعر بأي غضاضة في ذلك فهي مخيّرة لا مسيَّرة ومندفعة ولا مدفوعة. وبما أن بيت الزوجية هو مملكة الزوجة الخاصة وعشُّها السعيد فلا ريب إذن من أن تكون المرأة أكثر اندفاعاً لتعمير هذا العشّ وتشييده من الرجل الذي يكون نطاقه أوسع من البيت وأعم. فالمرأة عندما تشعر أنها هي القائدة الواقعية للبيت وللمجتمع الصغير الذي تحس فيه براحةٍ نفسية إذا أحسنت قيادته وحدها وأثبتت كفاءتها لتلك القيادة التي هي في الواقع بداية لقيادة المجتمع الواسع.

الزوجة حينما تصبح أماً

الأمومة رسالةٌ مقدسة كُلفت المرأة بأدائها نظراً لكون دور الأمومة هو أدق أدوار الوظائف في الحياة. والمرأة ولكونها عاطفية بالطبع والفطرة يكون لها من عاطفتها الفياضة دافعٌ يشدها إلى تحمّل مهام هذا الدور ومشاكله. والأم وفي كل عصر من العصور كانت لها الأهمية القصوى في ذلك العصر، وكانت الأمم المتقدمة تولي الأم اهتماماً خاصاً وتتخيرها وتنتقيها من بين مئات من النساء. فقد كان يتفق للرجل قبل الإسلام أن يقتني العديد من الجواري والزوجات ولكنه يحدد نسله في واحدة يكون على ثقة من عراقة أصلها وأصالة فرعها، ولكن ذلك كله كان لحساب الولد لا لحساب الأم بما هي أم، ولكن الإسلام فتح أمام الأم آفاقاً جديدة أخرى تخص شخصها وكيانها الخاص، فمكانة الأم قبل الإسلام مكانة آلة الإنتاج التي يحرص على أن تكون سليمة مستحكمة لكي تنتج الإنتاج السليم. ومكانة الأم بعد الإسلام مكانة الواهبة للحياة بما يستلزم ذلك من حقوق والتزامات. ولذلك فقد خوّلها الإسلام إمكانات واسعة وجعلها تحسّ بأنها تلد الولد لنفسها وللمجتمع وليس للمجتمع فحسب، وجعل الولد يشعر بأنه مدين بحياته ونشأته للأم. وبذلك إرتفع بها من

دائرتها الضيقة في الأمومة إلى أفقٍ عالٍ من الرفعة والمكانة. وأصدق دليل على ذلك ما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: الجنة تحت أقدام الأمهات.

فهل هناك غاية في السمو أعلى من أن تكون الأم طريقاً للجنة ومن أن يكون رضاؤها باباً يلج منه المؤمن إلى جنات النعيم.

نعم الجنة التي وعِد المتقون بها والتي هي غاية كل مسلم وحصيلة عمر ينقضي بالخير والصلاح تكون تحت أقدام الأمهات، وتكون الأم هي الطريق المؤدي إليها برضاها عن الولد وبإرضائه لها. فالإسلام يعلم أن الأم وبما تكابده لأجل وليدها من آلام ومحنٍ وأسقام جديرة بأن تكون وسيلة لولدها في دخول الجنة، وأن يكون إرضاؤها شرطاً أساسياً في شروط الإيمان الكامل والإسلام الحقيقي، سواء أكانت الأم أرفع من الولد أصلاً أو دونه في الأصل والنسب فهي أمٌ وكفى.

هذه هي حكمة الإسلام ورحمته تجاه الأم، فالإسلام لا يقرّ لولد مهما كان شريف الحسب والنسب أن يتطاول على أمه وإن كانت جارية. فحق الأمومة في شريعة الإسلام حق مقدس لا يتغير ولا يتبدل مهما إختلفت الظروف والأحوال. والواقع أن العقل والمنطق يؤيدان هذا ويؤكدانه. فإن الولد لا يمكن له أن ينال الحياة إلا بعد أن تغذيه الأم من دمها وبعد أن تحمله معها في أحشائها وتحميه في كل جارحة من جوارحها. ولا يمكن له أن يعيش أيضاً إلا إذا كفلته أمه في رعايتها وغذته من لبنها وأحلته في أحضانها.

وعلى هذا فإن الولد في الواقع قطعة من الأم قد إنفصلت عنها وتكونت إلى جنين، فهل يمكن لبعض الشيء أن يعلو على بعضه؟ وهل يمكن للثمرة أن تسمو على الشجرة؟ وهل يمكن للوردة أن تباهي الغصن؟ ولولا الغصن لما كان هناك زهرة على وجه الأرض. والإسلام لاحظ هذا ولاحظ المشاكل التي تحدث من جراء هذا الشعور الذي كان الأولاد يشعرون به قبل الإسلام تجاه الأم التي هي دونهم في الأصل والنسب، فأراد أن يخوّل الأم وأي أم مكانها الذي يمكنها من حفظ كيانها في كل المجالات والظروف، وتلزم أولادها الطاعة لها مهما إختلفت عنهم في الأصل والنسب. وقد كان رسول الله ﷺ

يكرر في أكثر من مناسبة قوله: «وإنما أنا إبن إمرأة من قريش تأكل القديد»، مع أن أم الرسول ﷺ كانت من أعرق أسر قريش وأطهرها نسباً وحسباً، وقد جاء في الروايات أيضاً أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن حق الوالدين، فأجابه الرسول قائلاً: أمك ثم أمك، ثم أمك ثم أبوك.

فالأم بطبيعتها الأنثوية ورقتها الطبيعية تهب لوليدها من حنانها وعطفها أكثر مما يعطي الأب بل أكثر ما يتمكن أن يعطيه الأب، نظراً لتكوينه الخاص الذي لا يمكنه من الاندفاع وراء عواطفه في الوقت الذي تكون فيه الأم سريعة الاندفاع وراء عواطفها قليلة التمكن من التحكم في مشاعرها. فعلى هذه فإنَّ الولد يستهلك من عطف الأم وحنانها أكثر مما يستهلك من عطف الأب وحنانه، وإن كان الحب الواقعي عند الوالدين في حدّ سواء.

وهذا هو السبب في تأكيد رسول الله على حق الأم ثلاث مرات. ونحن لا ننكر أن للولد حقاً عند أمه وأن على الأم أيضاً أن تحسن تربية الولد وتغذي روحياته وتحميه من مهاوي الانزلاق بالمقدار الذي تمكنها منه قابلياتها ومعارفها. وعلى الأم أن تشعر بخطر مسؤولياتها وهي تضطلع بدور الأمومة. وعليها أيضاً أن تعرف أنها مسؤولة عن النشء الذي تنشئه أمام الله وأمام المجتمع. ولذلك فإن من ضرورات الأمومة الصالحة أن لا تكون الأم جاهلة لكي تتمكن من معرفة الطرق السليمة في التربية. وأنا لا أريد أن أقول أن على كل أم أن تأخذ دبلوماً من معاهد التربية مثلاً.

ولا أقصد مثل هذا من قريب أو بعيد ولكني أعني أن الأم يجب أن تكون بصيرةً بأمور دينها ومجتمعها، تتمكن من تفهّم المشاكل الاجتماعية بسهولة، وتتمكن من معرفة الأخطار التي تترتب من جراء تلك المشاكل بسرعة لكي تجنب وليدها تلك المشاكل.

وعلى العموم فالأم يجب أن تكون واعية وعياً إسلامياً كاملاً لكي تتمكن من أن تنشيء وليدها على أسس الإسلام ومفاهيمه الواقعية.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
١ - الفضيلة تنتصر	٥
المقدمة	٧
الخاتمة	١٢٥
٢ - ليتني كنت أعلم	١٢٩
ليتني كنت أعلم	١٣١
صفقة خاسرة	١٣٦
آخر هدية	١٣٩
الأيام الأخيرة	١٤١
الفاقة المالية	١٤٤
فترة الركود	١٤٦
الانفتاح من جديد	١٤٧
الساعات الأخيرة	١٤٨
مغامرة	١٥٠
٣ - إمرأتان ورجل	١٧٥
٤ - صراع من واقع الحياة	٢٢٩
المقدمة	٢٣١
صراع	٢٣٣
صمود	٢٣٨
ثبات	٢٤٥
مقاييس	٢٥٠
مذكرات	٢٥٤
قلب يتعذب	٢٦٥
فكر في مهب الريح	٢٦٦
حشرجة روح	٢٦٧

بقايا كيان ٢٦٨
٥ - لقاء في المستشفى ٢٨٥
٦ - الخالة الضائعة ٣٦٩
الخالة الضائعة ٣٧١
نكران الجميل ٣٧٩
زيارة عروس ٣٨٥
اختيار زوجة ٣٩٤
صافرة إنذار ٤٠٣
نداء الضمير ٤١٠
رسائل وخواطر ٤١٢
عملية جراحية ٤٢٧
٧ - ذكريات على تلال مكة ٤٣١
أنغام الرحيل ٤٦٩
لن أنثني ٤٧٣
٨ - الباحثة عن الحقيقة ٤٧٥
٩ - كلمة ودعوة ٥٤١
الاهداء ٥٤٣
تمهيد ٥٤٥
من أنت ٥٤٥
مقدمة ٥٤٨
حقوق المرأة في الاسلام ٥٥٠
تقصير المسلمات ٥٥١
ضحية المجتمع ٥٥٣
يا فتاة القرآن ٥٥٦
منزلة المرأة الصالحة عند الامام الصادق عليه السلام ٥٥٧
لماذا ابتعدنا عن الإسلام ٥٥٩
رأي المرأة في الزواج ٥٦١
في عيادة الطبيب ٥٦٣
ذكر الله في الليل والنهار ٥٦٥

المرأة بين الاسلام والجاهلية ٥٦٧
المرأة بين مفهومي العلم والثقافة ٥٧٠
دور المرأة المسلمة في الطف ٥٧٢
المغالاة في المهور ٥٧٥
النفوس العالية ٥٧٧
موقف المرأة في الإسلام ٥٨٠
الطلاق في نظر الإسلام ٥٨٢
نفثة الصدر للمرأة المسلمة ٥٨٤
المرأة والعمل ٥٨٧
١٠ - بطولة المرأة المسلمة ٥٩١
بطولة المرأة وعلاقتها بالحضارة ٥٩٣
بطولات المرأة الأوروبية القديمة ٥٩٤
بطولة المرأة الأوروبية الحديثة: ٥٩٥
بطولة المرأة المسلمة ٥٩٦
بطولة المرأة في ميدان حمل الدعوة: ٥٩٧
بطولة المرأة في حمل الفكرة: ٦٠٥
١١ - المرأة مع النبي ٦١١
نساء في حياة النبي ﷺ ٦١٣
١٢ - المرأة في شريعة النبي ٦٤٩
قيمة المرأة في الإسلام ٦٥١
المرأة ٦٥٢
المرأة والعمل ٦٥٤
المرأة والحجاب ٦٥٧
المرأة والملكية ٦٦٠
المرأة البنت ٦٦٣
البنت حينما تصبح زوجة ٦٦٤
الزوجة حينما تصبح أماً ٦٦٧
الفهرس ٦٧٠

- الفضيلة تنتصر
- ليتني كنت أعلم
- إمرأتان ورجل
- صراع من واقع الحياة
- لقاء في المستشفى
- الخالة الضائعة
- ذكريات على تلال مكة
- الباحثة عن الحقيقة
- كلمة ودعوة
- بطولة المرأة المسلمة
- المرأة مع النبي (ص)
- المرأة في شريعة النبي (ص)